سبرت. و. أرنولد

الدعوة إلى الإسلام

بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية

ترجمة

د.حسن إبراهيم

د.عبد المجيد عابدين

إسماعيل النحراوي

الكتاب: الدعوة إلي الإسلام.. بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية

الكاتب: سبرت. و. أرنولد

ترجمة: د.حسن إبراهيم حسن, د.عبد المجيد عابدين, إسماعيل النحراوي

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com **E-mail: info@bookapa.com**

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

و. أرنولد ، سبرت.

الدعوة إلي الإسلام.. بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية / سبرت. و. أرنولد, ترجمة: د.حسن إبراهيم حسن, د.عبد المجيد عابدين, إسماعيل النحراوي

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٥٠٥ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٠ – ٣٠ – ٦٨٣٧– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ١٤١٠٢ / ٢٠٢٠

الدعوة إلى الإسلام

بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية





مقدمة المترجمين

هذا كتاب جليل الفائدة، غزير المادة، يتناول الكلام على ناحية من نواحي التاريخ الإسلامي، كانت من قبل غامضة مهملة، وقد ترجم إلى عدة لغات، وكانت المكتبة العربية في حاجة ماسة إلى ظهوره بين أسفارها، وقد استشرفت نفوس كثيرين للاضطلاع بنقله إليها لنفاسته.

وإذ كنا قد عرفنا فضل مؤلف هذا الكتاب من مؤلفاته العديدة، فإن أحدنا، الدكتور حسن إبراهيم حسن، قد عرفه معرفة شخصية، وتتلمذ له في جامعة لندن خمس سنين، وعرف قدره، وأفاد من علمه. ولما قدم المؤلف إلى مصر في سنة ١٩٣٠، أذن للدكتور حسن إبراهيم حسن في ترجمة الكتاب إلى العربية. ثم نشأت في نفس الزميلين الآخرين رغبة شديدة في ترجمة الكتاب إلى العربية، وعلما أن تلك الرغبة نفسها عند الدكتور حسن إبراهيم حسن، فعرضا عليه معاونتهما له في أداء هذه الخدمة العلمية، فلقيت فكرتهما عنده قبولا، وتضافرت الجهود الثلاثة على إخراجه.

أما مؤلف هذا الكتاب، وهو العالم المحقق السير توماس أرنولد؛ فلا نستطيع أن نقدره قدره، ولا أن نصفه بأحسن مما وصفه به الأستاذ نيكلسون، إذ يقول في كلمته القيمة التي صدر بها الطبعة الإنجليزية الثالثة: «إنه لم يتحدث إليه أحد، إلا أحس فيه عقلا على جانب عظيم من الحيوية والقوة، وتمتع منه بخلق متواضع، ورضى سريع الاستجابة، وبقوله يصف هذا الكتاب: «إنه يفوق حد الوصف من كل ناحية».

كان سير توماس أرنولد، فوق ما امتاز به من صفات العالم الضليع المحقق المنصف، مثالا للوداعة والتواضع وهدوء النفس وحلاوة الحديث وطيب العشرة، يضفي على تلاميذه كل ألوان الرعاية والعطف والتشجيع، وكان ملما بالعربية والفارسية، إلمامه بمعظم اللغات الأوروبية. وقد أورد في هذا الكتاب نصوصا يونانية ولاتينية وإيطالية وإسبانية

وهولندية وفرنسية. لهذا كان لزاما أن نرجع إلى المتخصصين في دراسة هذه اللغات لينقلوا هذه النصوص إلى العربية، ولذلك نرى واجبا علينا في هذا المقام أن نقدم أجزل الشكر لحضرات الأساتذة الدكتور حسن عثمان والأستاذ موريس عبود لترجمة النصوص الطليانية؛ والدكتور دوب لترجمة النصوص الهولندية، والدكتور حسين مؤنس لترجمة النصوص الإسبانية، والدكتور مُحَمَّد عبد الهادي أبي ريدة لترجمة النصوص الألمانية، والأستاذ أمين سلامة ملطي لترجمة النصوص اليونانية واللاتينية.

ونخص بتقديم أجزل الشكر والثناء حضرة الأستاذ مصطفى السقا بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول، لتفضله بالمراجعة العربية لترجمة الكتاب. فوق ما أفدنا منه من تحقيقات لغوية وأدبية وتاريخية.

وقد علقنا على بعض عبارات، رأينا ألا نمر عليها من غير إيضاح. كما حرصنا على دقة الترجمة، والرجوع إلى المصادر العربية والفارسية التي أشار إليها المؤلف في كتابه، ونقلنا النصوص من مراجعها الأصلية، وذيَّلنا الكتاب بفهرس عام يعين القارئ على الوصول إلى أغراضه في سهولة ويسر.

ومن الله نستمد العون والتوفيق،

د.حسن إبراهيم حسن

د.عبد المجيد عابدين

إسماعيل النحراوي

الجيزة في ٢٣ من يولية سنة ١٩٤٧

مقدمة الطبعة الأولى

هذه صفحات أنشرها في شيء كثير من التردد؛ فالموضوع الذي تتناوله تلك الصفحات متسع جدًا، ولم يكن بد من أن أجد في تحصيل هذا البحث في ظروف غير موفقة، حتى أنني لا أستطيع أن أؤمل إلا في قدر يسير من النجاح. وإذا ما أتيح لي أن أكون أكثر استعدادا لهذا العمل، وبعد أن يمكنني التوفر على الدراسة من ملء الثغرات[1] التي تركتها في هذا الكتاب، أرجو أن أجعله عملا جديرا بأن يفيد هذا الجانب المهمل من التاريخ الإسلامي. وفي سبيل تحقيق هذه الغاية، سأكون شاكرا أجزل الشكر لما تقدمه إليّ أية طائفة من العلماء قد تتفضل بالنظر في هذا الكتاب، من نقد وتصويب. وإلى أمثال هؤلاء قد نسوق الكلمات التي فاه بها القديس أوغسطين حين قال: «إن من يقرأ ذلك ويقول، إني أفهم ما يقال حق الفهم، وهو ليس من الصدق في شيء، إنما يعبر عن وجهة نظره هو، ويعارض رأيي. على أنه إذا فعل ذلك عن محبة وإخلاص، وتوخَّى أن يجعل هذا الأمر مفهوما لدي أيضًا (لو مد الله لي في أسباب الحياة)، فإني سأجني خيرا كثيرا من عملي هذا»[2].

وإني إذ أستطيع أن أدعي أنني لست بثقة ولا متخصص في أية فترة من فترات التاريخ التي تناولت الحديث عنها في هذا الكتاب، وإذا صار كثير من الحوادث التي أشرت إليها فيه، موضوع جدل ونقاش بين الباحثين، أوردت إشارات كاملة للمصادر التي رجعت إليها. وفي هذا المقام رأيت أن من الخير أن يكون خطئي من جانب الإفراط والمبالغة، أكثر من أن يكون من جانب النقص. ولقد تحملت كثيرا جدا من العناء، وأضعت كثيرا جدا من الوقت في تبيين الإشارات إلى الكتب التي يكتنفها شيء من الغموض أو اللبس. رغبة في وقاية الآخرين أن يقعوا في مثل ما وقعت فيه من مضايقة، وعلى حين يراني القارئ العادي متحذلقا، أرى أنني قد أرفع بذلك بعض العناء عن العالم، الذي يريد أن يختبر دقة أحد النصوص، أو يتبع أي جانب من جوانب البحث على نحو أكثر استقصاء.

---

(١) من ذلك انتشار الإسلام في صقلية، وأعمال الدعوة التي قام بها أولياء المسلمين على اختلافهم.

(٢) de Trinitate, i. 5. (Migne, tom.xIii.p.823).

وإن الطريقة التي اتبعتها في هذا الكتاب من كتابة الكلمات العربية بحروف إفرنجية، هي التي وضعتها جمعية مؤتمر المستشرقين الدولي العاشر، الذي انعقد في جنيف سنة ١٨٩٤، للكتابة بحروف إفرنجية، لا نستثني إلا إدغام لام التعريف في الحروف الشمسية. ولم تنطبق طريقة الكتابة هذه على كتابة الأسماء الجغرافية تمام الانطباق، وكذلك كثير من الحالات، لأني لم أتبين مادة اللفظ العربية، وفي حالات أخرى (كما في لفظي مكة والمدينة)، لأن استعمال يكاد يكون قد جعل لها لقبا اكتسبته بتعاقب السنين.

ومع أن هذا المؤلف – وهذا أمر مسلم به، كما يتضح في التمهيد – عبارة عن سجل لجهود نشر الدعوة وليس تاريخا للاضطهاد(١)، وحاولتُ أن أكون غير متحيز البتة، وأن أؤيد ذلك المثل الأعلى الذي بسطه المؤرخ المسيحي(٢) الذي أرخ انتصارات العثمانيين وسقوط القسطنطينية بقوله: «لا بد للمؤرخ من أن يسجل التاريخ، لا حبا أن يعترف الناس له بالجميل، ولا مدفوعا بباعث الحقد والضغينة، أو الكراهية وإرضاء المشاعر، بل لأجل التاريخ وحده، ولكيلا تنطوي في عالم النسيان صفحات التاريخ التي يعرف الزمن كيف ينشرها".

وإني أحب أن أقدم الشكر إلى سمو الأميرة بربريني، وسمو الأمير تشيجي **Chigi**، والجدير بالتبجيل الدكتور بول جوتالس **Goethals** رئيس أساقفة كلكتة، والجزيل الاحترام فرانسيس بسكي **Francis Pesci** أسقف الله أباد، والمحترم س.س. أولنت **Alnut**، أحد أعضاء إرسالية كمبردج في دهلي، وإلى أمناء مكتبة دكتور وليامز بميدان غوردن بلندن، إذ تفضلوا فسمحوا لي باستعمال مكتبة كل منهم استعمالا سخيا.

وإني لمدين بالفضل بنوع خاص للسيد جيمس كنيدي **J. Kennedy** الموظف بقسم الخدمة المدنية بالبنغال سابقا، فإنه لم يأل جهدا في إبداء أية رغبة تنطوي على العطف نحو كتابي. وإني مدين لعلمه الغزير واطلاعه الواسع بكثير من المعلومات التي لولاه لبقيت مجهولة لدي، ولا يقل عن ذلك فضلا ما أدين به لقوته الدافعة في حبه للعلم الذي ينطوي على الحماسة والغيرة، وروحه الودي الذي مد إلي يد العون والمساعدة. إني كذلك مدين بالفضل لرعاية كونت

---

(١) ومن ثم لن يجد القارئ أي خبر عن تاريخ أرمينية أو إقريطش الحديث، أو في الواقع من تاريخ أي جزء من إمبراطورية والأتراك في خلال القرن الحالي، وهي فترة تنفرد بخلوها من مهمة نشر الدعوة من جانبهم.

(٢) **phrantzes, P.5**.

أوجوبلتزاني **Conte Ugo Ballzani** الذي، لولا معونته لكان من المحال أن أحصل على أجزاء معينة من بحثي هذا. وإني مدين للمرحوم البروفسور روبرتسن سمث بآرائه الثمينة في عناصر البحث التي كان ينبغي عليها تاريخ الكنيسة الإفريقية الشمالية، وحالة المسيحيين في ظل الحكم الإسلامي؛ وإن الحزن العميق الذي أحسه علماء الدراسات السامية جميعا على فقده ليتضاعف في نفسي، بأن ذلك هو الاعتراف الوحيد الذي أستطيع أن أصفه كفء مساعدته الكريمة وتشجيعه.

كذلك أحب أن أعترف بتشكراتي إلى السير سيد أحمد خان بهادر **(K. C.S.I., LL.D)**، وإلى صديقي وزميلي العالم شمس العلماء مولوي مُحَمَّد شبلي النعماني، الذي أعانني في سخاء جم من فيض بتاريخ صدر الإسلام، وإلى تلميذي القديم مولوي بهادر علي **(M.A)**.

وأخيرا، وفوق ذلك كله، ينبغي أن أشكر زوجتي العزيزة، التي لولاها لما برز هذا المؤلف من فوضى المواد المفككة المتنافرة، والتي كان عطفها وقبولها خير مكافأة لي على أعمالي.

المؤلف

عليكرة ١٨٩٦



مقدمة الطبعة الثانية

لما نفدت الطبعة الأولى من هذا الكتاب منذ عدة سنوات، وكثر سؤال الناس عن نسخ منه، أعدت هذه الطبعة الجديدة، وبذلت مجهودا في مراجعة الكتاب على ضوء المواد الجديدة التي تجمعت لديّ في خلال السنوات الست عشرة الأخيرة. على أني لا أستطيع أن أدعي أنني قد ألممت بجميع الكتب الشاملة الخاصة بهذا الموضوع، التي دونت بما يزيد على عشر لغات مختلفة، والتي نشرت في خلال هذه الفترة. ويمكن أن نتصور مدى نمو البحث في الإسلام وفروع الدراسة المختلفة التي تتصل به، من تلك الحقيقة وهي أن خمس مجلات قد ظهرت منذ سنة ١٩٠٦، لتتوفر على دراسات قريبة الصلة من موضوع هذا الكتاب؛ ومن هذه المجلات.

Revue de monde Muslman, Publiee par la Mission Scientifique de Maroc (Paris, 1906); Der Islam, Zeitschrift fur Geschichte und Kultur des islamischen Orients (Strassburg, 1910); the Moslem World, a quarterly review of current events literature and thought among Mohammedans, and the progress of Christian Mission in Moslem lands (London, 1911) Mir Islama (St. Petersburg, 1912-) and Die Welt des Islams, Zeitschrift der deutschen Gesellschaft lur Islamkunde (Berlin, 1913-).

وتبذل جمعيات التبشير المسيحية الآن كذلك اهتماما زائدًا بموضوع نشاط الدعوة الإسلامية، ومن ثم يحتل فيما تنشره هذه الجمعيات جانبا أعظم نسبيا مما كان من قبل.

وكان من الممكن أن ننجز الطبعة الثانية منذ عدة سنوات، لولا تلك السياسة المخالفة للحرية التي أوصدت قاعة المطالعة في المتحف البريطاني في الساعة السابعة؛ وبذلك لم تكن القراءة فيها ميسورة لدي من الناحية العملية إلا في أيام السبت[١]. ولذلك أحب أن أعبر عن شكري الجزيل لهؤلاء الأصدقاء الذين يسروا أعمالي بإعارتي

---

(١) مجمل طالب كتب العلوم أو الفنون الجميلة المكتبات في كنسنجتون الجنوبية مفتوحة حتى الساعة العاشرة في ثلاث ليالي من كل أسبوع، ولكن المكتبة الوحيدة في تلك البلاد التي تهدف إلى أي لون من الكمال، ليست إلا في متناول هؤلاء الطلبة الذين يفرغون من أعمالهم في أثناء النهار.

كتبا من مكتبات جامعة ليدن وجامعة أوترخت (عن طريق المعاونة الكريمة التي قدمها إليّ البروفسور فنسنك)، ومدرسة اللغات الشرقية الحية في باريس، وإني لمدين لمستر ج. أ. أولدهام oldham، محرر مجلة البعوث الدولية The International Review of Mission لإعارته إياي مجلدات مجلة Allgemeine Missions- Zeitschrift، ولم أكن أستطيع أن أجد هذه المجموعة في لندن. وأقدم شكري بنوع خاص إلى دكتور ف.و. توماس الذي سمح لي بدراسة الكتاب الأثري «حوليات الإسلام لليوني كيتاني "Leome Caetani, Principe di Teano"، فترات طويلة (بالإضافة إلى كتب أخرى من مكتبة India office Library– وهو مؤلف له قيمة لا تقدر في دراسة تاريخ صدر الإسلام، ولكنه لسوء الحظ بعيد عن متناول يد العالم العادي بسبب غلاء ثمنه.

كذلك أدين بالفضل الجزيل لهؤلاء العلماء الذين نقدوا الكتاب عند ظهوره للمرة الأولى على ما أبدوه من إيضاحات قيمة عديدة، وأحق هؤلاء جميعا بالذكر، البروفسور جولدتسيهر الذي أبدى من العناية التي تتم عن العطف والمودة بهذا الكتاب ما شجعني على إتمامه.

المؤلف

(لندن ١٩١٣)

مقدمة الطبعة الثالثة

ملأت وفاة السير توماس أرنولد في التاسع من شهر يونية سنة ١٩٣٠ سجلا طويلا رائعا من الخدمة في كثير من ميادين العلم المتنوعة، وخاصة في تلك الميادين الواسعة من التاريخ والثقافة والفن الإسلامي. ولا حاجة بي إلى الكتابة عن هذه الجهود بالتفصيل؛ فهي من الشهرة والتقدير بحيث أستطيع أن أقتصر في هذا المقام على بعض ملاحظات خاصة بهذا الكتاب، وأن أشير إشارة عابرة إكراما له، إلى مؤلفات ثلاثة أخرى، كل منها يعد طرفة فريدة في بابها – أعني بها رسالته في الخلافة **Caliphate**، وفكرته الإجمالية عن الإسلام بعنوان العقيدة الإسلامية **The Islamio Faith**، وكتابه الفخم «التصوير في الإسلام» **Painting in Islam**. ولما كان أرنولد عالما كامل العلم بلغات كثيرة، ملما بالعربية والفارسية إلمامه بمعظم اللغات الأوروبية، فقد أوتي مفاتيح لا عداد لها لعالم العصور الوسطى الذي أحبه، ولم يمل مطلقا الكشف عن مجاهله. ومع ذلك، ففي الوقت الذي نراه بجدّ في حماسة ونشاط في البحث وجمع المواد لإعادة بناء هذه العصور، نجده كذلك يعنى أشد العناية، وهو نفسه يمثل دورا فعالا ملهما، في حياة عصره وتفكيره. وقد كان زميلا يدخل في النفوس البهجة والسرور. لم يتحدث إليه أحد إلا أحس فيه عقلا على جانب عظيم من الحيوية والقوة، وتمتع منه بخلق متواضع رضيّ سريع الاستجابة. وإني إذ أختم هذه التقدمة الموجزة إلى ذكراه، أوجه نظر القارئ إلى ذلك الوصف الرائع المسهب الذي كتبه عن توماس أرنولد العالم والرجل، سير أوريل ستين **Sir Aurel Stein** في أعمال الأكاديمية البريطانية سنة ١٩٣٠ **proceeding of the British Academy** ص ٤٣٩– ٤٧٤، وكان يعرفه معرفة وثيقة.

ظهر كتاب الدعوة إلى الإسلام في سنة ١٨٩٦، وكان أرنولد قد تجاوز الثلاثين بقليل، وقبل ذلك بثماني سنوات، كان قد ترك كمبردج ليشغل منصبا في الكلية الإنجليزية الإسلامية في عليكره، **Anglo Muhammadan College**. وكانت قد تأسست حديثا،

وإن ما تميزت به علاقته مع المسلمين دائمًا من تعاطف وفهم لحالتهم، سرعان ما حببه إلى الطلاب والمعلمين على سواء، وهنا وضع خطة هذا الكتاب وأتم ما وصفه في هذا العنوان «تاريخ نشر العقيدة الإسلامية» وهذا الكتاب يفوق حد الوصف من كل ناحية. وقد أوتي أرنولد موهبة. وكانت عادة جرى عليها في معظم أيام حياته، جمعت بين التوفر على الأعمال الإدارية، والغيرة على البحث. وهو كما يلاحظ سير أوريل ستين: «ومع ذلك إذا قدرنا كيف بذل بمحض إرادته العون والوقت للآخرين، وكيف كان في عليكره بعيدا عن المكتبات العظيمة، لاستولى علينا الدهش كيف استطاع أن يجمع وأن ينقد هذا القدر الهائل من المواد المتنوعة التي تتعلق بالكتب والمراجع التي استخدمها في الطبعة الأولى من كتاب الدعوة إلى الإسلام» وإن نظرة واحدة في المراجع التي اعتمد عليها المؤلف، تكفي لنتحقق قيمة الكتاب باعتباره مستودعا وصورة للحقائق التي تتعلق بموضوعه، على أن سعة الاطلا ع أمر أساسي أكثر من أن يكون صفة حيوية، وأن هذا الكتاب زاخر بالحياة، وعلى الرغم من أن المؤلف، على حد تعبيره » قد حاول أن يكون متحيز البتة» فليس معنى ذلك أن سرده للحوادث والأخبار لم يكن شخصيا البتة. وبينما نجد الكتاب ينقلنا على التوالي من بلاد العرب إلى آسيا الغربية وإفريقية وإسبانيا وفارس والهند والصين والملايو، نحس من وراء سطحه الهادي عمق الحجج المقتنعة وقوتها التي تبعث فيه الحياة. ومنذ قرنين قال جورج سيل sale، وهو الذي ترجم القرآن إلى الإنجليزية، إنه يتحرى الأسباب التي من أجلها صادفت شريعة مُحَمَّد ترحيبا لا مثيل له في العالم (لأن هؤلاء الذين يتخيلون أنها قد انتشرت بحد السيف وحده إنما ينخدعون إنخداعا عظيما». ويوضح الباب الأخير من كتاب الدعوة إلى الإسلام في دقة ما هي هذه الأسباب، وإن الكتاب من أوله إلى آخره، برغم طابعه التاريخي ومنهجه العلمي، إنما هو لحجة أرنولد أقامها على الجور والتعصب. وإن آراءه في الجملة خليقة بأن تؤثر حتى في هؤلاء الذين قد يظنون أن هذا الكتاب مصدر خطر، عندما يقدرون بواعث الحماسة في نشر الدعوة ونتائجها، تاركين بصفة قاطعة مظهرا من نشاط هذه الدعوة لم يحسبوا له حسابا، كما فعل أرنولد.

وإني لأذكر جيدا تلك المتعة والبهجة التي أحسستها حين قرأت كتاب الدعوة إلى

الإسلام عندما ظهر لأول مرة. وستمكن إعادة طبع هذا الكتاب في الصورة التي روجع بها وزيد عليها كما ظهر في طبعة سنة ١٩١٣ كثيراً من الطلاب من أن يضيفوا إلى مكتباتهم مؤلفا لا يمكن الاستغناء عنه، ويعد حجة ثابتة. أما وقد عجزنا عن إدخال التعديلات لجعل الكتاب متمشيا مع العصر، لم يكن بد من أن يظهر الكتاب دون تغيير. وهذه المسألة تبعث على الأسف، ولكن إذا نحينا تلك التوافه جانبا، من مثل ما ذكره المؤلف ص ٤٢٦ من أن حركة الإصلاح الوهابية «قد فقدت كل معنى سياسي خارج حدود نجد زمنا طويلا»، فإن الصعوبات التي كانت تنطوي على استدراك مثل هذا المؤلف بعد ظهوره بأكثر من عشرين سنة عظيمة، كما يظهر ذلك في وضوح وجلاء.

(ر.ا. نيكلسون)

الدعوة إلى الإسلام

الباب الأول

تمهيد

منذ أن ألقى الأستاذ ماكس مولر **Max Muller** محاضرة في كنيسة وستمنستر في لندن، في يوم الشفاعة من أجل الرسل، وذلك في ديسمبر ١٨٧٣؛ أصبح من المعروف علميا أن الأديان الستة الكبرى في العالم. يمكن تقسيمها إلى دين مختص برسالة ودين مختص. فاليهودية والبرهمية والزرادشتية من القسم الأخير. أما البوذية والمسيحية والإسلام فهي من القسم الأول. وقد وفق في تحديد ما ينبغي أن يدل عليه اصطلاح «دين الرسالة» بقوله إنه الدين الذي يسمو فيه نشر الحق، وهداية الكفار إلى واجب مقدس، على يد مؤسس الدين أو خلفائه من بعده.. إنها روح الحق في قلوب المؤمنين التي لا تستقر حتى تتجلى في الفكر والقول والعمل، ولا تفتح حتى تؤدي رسالتها إلى كل نفس إنسانية، وتعترف أفراد الجماعة الإنسانية بما تعتقد أنه الحق»[١].

وإن الذي دفع المسلمين إلى أن يحملوا رسالة الإسلام معهم إلى شعوب البلاد التي دخلوها، وجعلهم ينشدون لدينهم بحق مكانا بين ما نسميه أديان الرسالة، لهي حماسة من ذلك النوع، من أجل صدق عقيدتهم، وليس موضوع هذا الكتاب إلا صورة من تاريخ ظهور هذه الحماس في تبليغ الدعوة ودوافعها وألوان نشاطها، وإن انتشار مائتي مليون من المسلمين في العالم في الوقت الحاضر لهو الشاهد على ما كان لهذه الحماسة من أثر خلال الثلاثة عشر قرنًا التي تلت ظهور الإسلام.

وكان ظهور مبادئ هذه العقيدة لأهالي بلاد العرب في القرن السابع الميلادي، على يد النبي العربي الذي انضوت تحت لوائه شتى القبائل العربية فأصبحت بذلك أمة واحدة. فلما امتلئوا من آثار هذه الحياة القومية الجديدة، ومن هذه الحماسة، وتلك الحمية التي

(١) تعليق على مقال الأستاذ ليال **(Missionary Religions) lyall** في مجلة **Fortnightly Review, July, 1874**.

أمدت جنودهم بقوة لا تقهر، تدفقوا في أنحاء ثلاثة، يفتحون البلاد ويخضعون العباد، وكان أسبق البلاد إلى التسليم سورية وفلسطين ومصر وشمال إفريقية وفارس. وبعد انقضاء مائة عام على وفاة الرسول، وصل أتباعه غربا إلى إسبانيا، وشرقا إلى أن عبروا نهر السند، فما لبثوا أن وجدوا أنفسهم سادة على إمبراطورية أعظم من إمبراطورية روما في أوج قوتها.

ومع أن هذه الإمبراطورية العظمى قد تصدعت أركانها فيما بعد، وتضعضعت قوة الإسلام السياسية، ظلت غزواته الروحية مستمرة دون انقطاع، وعندما خربت جموع المغول بغداد (١٢٥٨م) وأغرقوا في الدماء مجد الدولة العباسية الذاوي، وطرد فرديناند ملك ليون وقشتالة المسلمين من قرطبة (١٢٣٦م) ودفعت غرناطة، آخر معاقل الإسلام في إسبانيا الجزية للملك المسيحي، كان الإسلام قد استقرت دعائمه وتوطدت أركانه في جزيرة سومطرة، وكان على أهبة أن يحرز تقدما ناجحا في الجزائر الواقعة في بلاد الملايو. وفي هذه اللحظات التي تطرق فيها الضعف السياسي إلى قوة الإسلام، نرى أنه قد حقق بغض غزواته الروحية الرائعة. فهناك حالتان تاريخيتان كبريان. وطئ فيها الكفار من المتبربرين بأقدامهم أعناق أتباع الرسول، أولئك هم الأتراك السلاجقة في القرن الحادي عشر، والمغول في القرن الثالث عشر؛ وفي كلتا هاتين الحالتين نرى الفاتحين يعتنقون ديانة المغلوبين، وقد حمل دعاة المسلمين الذين كانوا خلوا كذلك من أي مظهر من مظاهر السلطان الزمني، عقيدتهم إلى إفريقية الوسطى والصين وجزائر الهند الشرقية، وتمتد العقيدة الإسلامية اليوم من مراكش إلى زنجبار، ومن سيراليون إلى سيبريا والصين، ومن البوسنة إلى غينيا الجديدة.

وفي خارج البلاد الإسلامية الصمية، والمناطق التي تضم عددا كبيرا من السكان المسلمين، كالصين وروسيا، طوائف صغيرة قليلة العدد من أتباع النبي، يؤيدون الدين الإسلامي بين صفوف قوم من الكفار، من أمثال هؤلاء طائفة من المسلمين الذي يتكلمون البولندية، وينحدرون من أصل تتري في لتوانيا، ويقطنون مقاطعة كفنو **Kovno**

وفلنو Vilno وجردنو Grodno(١)، وطائفة أخرى من المسلمين الهولنديين في مستعمرة الكاب، وثالثة من الرعاة الهنود نقلوا معهم عقيدة الإسلام إلى جزائر الهند الغربية إلى غينيا البريطانية والهولندية. ثم أصبح للإسلام أيضًا في السنين الأخيرة أشياع في إنجلترا وأمريكا الشمالية وأستراليا واليابان.

ويرجع انتشار هذا الدين في تلك الرقعة الفسيحة من الأرض، إلى أسباب شتى اجتماعية وسياسية ودينية؛ على أن هنالك عاملا من أقوى العوامل الفعالة التي أدت إلى هذه النتيجة العظيمة، تلك هي الأعمال المطردة التي قام بها دعاة من المسلمين، وقفوا حياتهم على الدعوة إلى الإسلام، متخذين من هدي الرسول مثلا أعلى وقدوة صالحة.

ولم تجيء مهمة تبليغ الرسالة في تاريخ الإسلام بعد تريث وتفكير، ولكنها كانت ملقاة على عاتق المؤمنين منذ البداية، وقد نرى ذلك واضحا في هذه الآيات القرآنية، التي ننقلها مرتبة بحسب تاريخ نزولها.{ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [النحل:١٢٥]. {وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ(١٤) فَلِذَلِكَ فَادْعُ (٢)وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٥)} [سورة الشورى: ١٤-١٥]

وفي الآيات المدنية أيضا نجد مثل هذه التعاليم، وقد نزلت على مُحَمَّد بعد أن أصبح على رأس جيشه الكبير وفي ذروة سلطانه.

{وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} [آل عمران:٢٠]. {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ

(١) Reclus, vol. V. P433, Gasztowtt, P.320 Sqq

(٢) أي ادعهم إلى الدين

فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤)}[سورة آل عمران].{لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ، وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ} [الحج:٦٧-٦٨].

وهذه آيات ننقلها من سورة قيل أنها كانت آخر ما نزل من السور:

{وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ} [التوبة:٦].

أما الكفار الذين نكثوا عهدهم، واشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله، {كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٨)} [سورة التوبة: ٨]، {فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [التوبة:١١].

وهكذا كان الإسلام منذ بدء ظهوره دين دعوة، من الناحية النظرية، أو الناحية التطبيقية. وقد كانت حياة محمد تمثل هذه التعاليم ذاتها، وكان النبي نفسه على رأس طبقات متعاقبة من الدعاة المسلمين، الذي وقفوا إلى إيجاد سبيل إلى قلوب الكفار، على أنه ينبغي ألا نلتمس الأدلة على روح الدعوة الإسلامية في قسوة المضطهد، أو عسف المتعصب، ولا حتى في مآثر المحارب المسلم، ذلك البطل الأسطوري الذي حمل السيف في إحدى يديه، وحمل القرآن في اليد الأخرى[1]، وإنما نلتمسها في تلك الأعمال الوديعة

(١) وقد نما هذا التأويل الخاطئ للفتوحات الإسلامية مما ذهب إليه بعضهم من أن الحروب التي نشبت لبسط السيادة الإسلامية على بلاد الكفار، قد دلت على أن الغاية المنشودة منها، كانت ترمي إلى تحويلهم إلى الإسلام. وقد أحسن جولدتسبهر حين أشار إلى هذا التمايز في كتابه **Vorlesungen uber den Islam**، بقوله: «لقد خلف ما صنعه من محيطه العربي أول الأمر وصية لمستقبل أمته: ذلك هو محاربة الكفر ونشر العقيدة الإسلامية، ولكن هناك شيئًا أكثر من

الهادئة، التي قام بها الدعاة، وأصحاب المهن، الذين حملوا عقيدتهم إلى كل صفع من الأرض، على أن هؤلاء الدعاة لم يلجئوا إلى اتخاذ مثل هذه الأساليب السليمة في نشر هذا الدين عن طريق الدعوة والإقناع بخلاف ما زعم بعضهم، حينما جعلت الظروف القوة والعنف أمرا مستحيلا، يتنافى مع الأساليب السياسية. فلقد جاء القرآن مشددا في الحض على هذه الطرق السليمة، في غير آية منه، مثال ذلك:

{وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (١٠) وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (١١)} [سورة المزمل: ١٠-١١]. {إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ} [الجن:٢٣].

{قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [الجاثية:١٤] {وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ}[سورة النحل: ٣٥-٣٧].{فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} [النحل:٨٢] {ولَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [العنكبوت:٤٦].{فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ} [الشورى:٤٨]

{وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} [يونس:٩٩].{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [سبأ:٢٨]

ذلك، ألا وهو توسيع نطاق السيادة الإسلامية» التي هي سيادة الله، ولم يكن الغرض فيما يتعلق بالجهاد الإسلامي يتجه أولي الأمر إلى تغيير عقيدة الناس، بإدخالهم في الإسلام بقدر ما كان يرمي إلى إخضاع الكفار»، ص٢٥.

ولم تكن هذه التعاليم مقصورة على السور المكية، وإنما وردت أيضا بكثرة في الآيات المدنية كقوله: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ} [البقرة:٢٥٦]

{وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} [التغابن:١٢].{قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} [النور:٥٤].{قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ} [الحج:٤٩]. "ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم، فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين».

وإن الغرض مما سنذكر في الصفحات التالية، هو بيان كيف تحقق هذا المثل الأعلى في التاريخ، وكيف كان أئمة الإسلام يطبقون مبادئ نشاط الدعوة. وينبغي أن يعلم القارئ منذ البداية، إننا لم نضع هذا الكتاب لدراسة تاريخ الاضطهادات الإسلامية، وإنما وضعناه لدراسة الدعوة الإسلامية في أنحاء العالم. فليس الغرض تأريخ الحالات التي استعملت فيها القوة لإدخال الناس في الدين الإسلامي، مما نجده منها مفرقا في صفحات التاريخ الإسلامي، وقد عني الكتاب الأوربيون بيان هذه الحالات، حتى لم يعد ثمة خوف من إغفالها. وإن من الصعب إدراجها في نطاق تاريخ الدعوات، وفي بعض تواريخ البعثات المسيحية يؤثر المرء بطبيعة الحال الإصغاء إلى ما فعله القديس ليودجر **liudger** والقديس ويليهاد **Willehad** بين السكونين الوثنيين، أكثر مما تصغي إلى إخبار التعمديات المسيحية، التي كان شارلمان يفرضها عليهم بحد السيف[1]. وكان المبشرون في بلاد الدانمرك وهم القديس أنسجار **Ansgar** وخلفاؤه، أحق بصفة التبشير من الملك كنوت **Cnut** الذي استأصل الوثنية من مملكاته بالقوة والإرهاب[2]. وعلى الرغم مما صادفه

---

(١) انظر **Enhardi Fuldensis Annales** عام ٧٧٧م "ولما ضعف الكعبونيون بعد معارك كثيرة وحروب عديدة اعتنقوا المسيحية آخر الأمر وخضعوا لحكم الفرنجة»» راجع **Mo0numenta Germaniae Historica G. H.** **Pertz vo0l. I.P.349.** (انظر أيضا: **pp: 156, 159**)

(٢) ومن أخضع الأمم المغلوبة على أمرها القانون المسيحي بعد ان اشتبك مع المملك المنبربرة في حرب طاحنة مدفوعا بما كان يضطرم في نفسه من الشوق إلى نشر العقيدة" **(Breviarium Romanum. Iun 19)**

القسيس جوتفريد **Gottfried**، والأسقف كويستيان **Christian** من نجاح في تنصير البروسيين والوثنيين، وكان نجاحهما أقل مما صادفه من سبقهما، كانوا بحق أكثر تمثيلا لنشر الدعوة من جماعة إخوان السيف **Bretheren of the sword** وغيرهم من الصليبيين، الذين أدوا رسالتهم بالسيف والنار، ولقد فرض فرسان **Ordo FratrumMilitiate Christi** المسيحية على شعب ليفونيا فرضا.

ولكن الرسل الحقيقيين للعقيدة المسيحية في هذه البلاد، هم رهبان ماينهارد وتيودوريك **Meinhard and Theodoric**، وهم في ذلك أشد أثرا وأعظم شأنا من أولئك الفرسان المجاهدين، الذين قامت دعوتهم على القوة العسكرية، وإن الوسائل العنيفة التي كان يلجأ إليها أحيانا الرسل اليسوعيون(١)، لا يمكن أن تنقص الشرف الذي يتصف به أمثال القديس فرانسيس كافير **Francis Xavier** وسائر المبشرين من هذه الطائفة. كذلك لم يكن فالنتين **Valentyn** بأقل من رسل أمبوينا **Amboyna** في هذه السبيل؛ فقد وجه في سنة ١٦٩٩ إلى راجوت **Raias** هذه الجزيرة مرسوما يأمرهم فيه بإعداد طائفة معينة من الوثنيين لتمهيدهم، إذا ما طاف بهم راعي الكنيسة(٢).

وإذا تتبعنا تاريخ الكنيسة المسيحية، فإننا نجد نشاط الدعوة في اطراد مستمر، وقد يلي عصر الحماسة التي أظهرها الرسل في نشر الدين، فترة جمود وعدم اكتراث، وربما حل الاضطهاد والتنصير الإجباري محل الدعوة الهادئة إلى «كلمة الله». كذلك كانت الدعاية الإسلامية في شتى عهود التاريخ الإسلامي بين مد وجزر، ولكن لما كانت الغيرة التي عرفها العاملون على نشر الدين، ظاهرة جلية في بث كل من الديانتين، رأينا من المناسب أن تفرد لتاريخ الدعوة دراسة خاصة، بحيث لا ينأى بنا ذلك الاتجاه، عن ذكر غير ذلك من المعلومات التي تتعلق بالحياة الدينية، على أن نحصر عنايتنا في دراسة مظهر من مظاهره، يكون له مميزاته الخاصة. وعلى ذلك ففي مقدورنا أن ندرس الأخبار التاريخية

---

(١) **Histoire du Christainisme des Indes, pp.529- Mathurin de la crose 531 (The Gague . 1724).**

(٢) **Revue de l'histoire des relegions, vol xi. P.89.**

المتعلقة بهذه الدعوة منفصلة عن أخبار الاضطهاد، في تاريخ الكنيسة المسيحية أو في تاريخ العقيدة الإسلامية، ولو أنه قد يكون هناك ما يبرر الخلط بين مادتي الديانتين أحيانا. فكما أن الدين المسيحي لم يكن انتشاره على الدوام بمثل الوسائل التي اتخذها فيكن Viken (القسم الجنوبي من النرويج) الملك أولاف ترايجفيسون Olaf Trygvesson الذي كان يقوم بذبح هؤلاء الذين أبوا الدخول في المسيحية، أو بتقطيع أيديهم وأرجلهم، أو بنفيهم وتشريدهم.

وبهذه الوسائل نشر الدين في فيكن بأسرها[١]، وكما أن وصية القديس لويس لم تتخذ أصلا لمهمة التبشير المسيحي، تلك الوصية التي تقول: «عندما يسمع الرجل العامي أن الشريعة المسيحية قد أسيء إلى سمعتها، فإنه ينبغي ألا يزود عن تلك الشريعة إلا بسيفه الذي يجب عليه أن يطعن به الكافر في أحشائه طعنة نجلاء»[٢]، فكذلك ظهر دعاة مسلمون، ولم يكن شعارهم في وسائل دعايتهم تلك العبارة القاسية التي فاه بها. وإن آخر خلفاء بني أمية بقوله: «كل من لا يدخل في ديني، ويصل صلاتي، ويتبع رأيي من أهل مصر، قتلته وصلبته»[٣]. كذلك لا يعد المتوكل والحاكم وتبيو سلطان رسلا مثاليين في الإسلام، بقدر ما يعد مولانا إبراهيم رسول جاوة، وخواجة معين الدين خشتي في الهند، وغيرهم من كثيرين ظفروا بمعتنقين للإسلام بالوسائل السلمية دون غيرها.

ومع أنه قد يمكن الوقوف على ما هنالك من فرق واضح بين أساليب التحول إلى الدين بتأثير الاضطهاد، وبين الدعاية السلبية بطريق الإقناع، فإنه ليس من اليسير أن نتحقق من البواعث التي حملت الداخلين في الدين على تغيير عقيدتهم، أو الوقوف على حقيقة أن الدعوة منبعثة حقا عن محبة للنفوس، وعن ذلك المثل الأعلى الذي بيناه في الفقرة الأولى من هذا الباب. وكان هنالك في كل حين، في المسيحية والإسلام على

---

(١) konrad Maurer: die Bekehrung de norwegischen Stammes zum Christenthume, vol. 1, P284 (Munchen, 1855).

(٢) Jeab Sire de Joinvile: Histoire de Saint Louis. Ed N. de Wailly P.30 (53).

(٣) سوبرس ص ١٩١ (س٢١-٢٢).

السواء، نفوس جادة حازمة، تتخذ من دينها الحقيقة السامية لحياتها. وإن تلك اللذة التي تشبعوا بها في المسائل المتعلقة بالروح قد وجدت تفسيرها في تلك الحماسة الدائبة على تبليغ الحقائق الأثيرة لديهم، المحببة إليهم، وعلى التمسك بالأصول والقواعد، التي وجدوا فيها الكمال، والتي تكون القوة الدافعة في حركات الدعوة، وكان هناك أيضا أولئك الخارجون عن حظيرة الإسلام الذين استجابوا لدعوتهم، واعتنقوا الدين الجديد بمثل تلك الحماسة. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الإسلام، كالمسيحية، قد عد من بين أشياعه كثيرين من الناس، لم تكن التعاليم الإسلامية في نظرهم إلا مظاهر لنظام سياسي، أو صورا من التنظيم الاجتماعي، قبلوها إما على أنها ضرورات مبغضة إلى نفوسهم، أو حلول ملائمة للمشاكل العارضة، التي لا يهمهم أن يجعلوها موضع تفكير لأنفسهم، نجد أمثال هؤلاء بين الذين دخلوا في كل هاتين الديانتين، ونجد كلا من المسيحية والإسلام قد أضافت إلى أشياعها عددا من الأتباع، مدفوعين إلى قبول الدين، متأثرين بمطالب وأحوال اجتماعية وسياسية واقتصادية، لا علاقة لها بمثل ذلك الظمأ الروحي الذي يدفع الداعي المخلص لدعوته. زد على ذلك أن الأخبار التاريخية التي طالما تتحدث عن أعمال الدعوة قد سجلت دخول الناس في الدين من غير أن تحاول تحليل البواعث التي حملتهم على تغيير دينهم، ولا سيما أن هناك نقصا واضحا في المادة التي تتعلق بتاريخ الدعوة إلى الإسلام، إذ أن الكتب الإسلامية، قد انفردت بنقص في تدوين حالات معتنقي الإسلام، الذين يحتل أمثالهم في المسيحية مكانا كذلك المكان الفسيح في كتب الكنيسة.

وليس من المستطاع فيما سنذكره من وصف إجمالي لنشاط الدعوة الإسلامية، أن نتبين دائما هل كانت تلك الدوافع التي دفعت إلى ذلك التحول سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية، أو أنها كانت دينية محضة، وسنشير من حين إلى حين إلى ما كان لكل من هذه البواعث من أثر في هذه السبيل.

الباب الثاني

دراسة حياة محمد باعتباره داعية إلى الإسلام

ليس من غرضنا في هذا الباب أن نضيف شيئًا جديدا إلى ما ورد في كتب السير المتعددة عن حياة مُحَمَّد، وإنما آثرنا أن ندرس حياته من ناحية واحدة، هي التي يظهر لنا فيها النبي داعية ورسولا إلى الناس بدين جديد، وإن حياة مؤسس الإسلام ومنشئ الدعوة الإسلامية، قد يتوقع المرء أنها تقدم لنا بطبيعة الحال الصورة الحق لنشاط الدعوة إلى هذا الدين، وإذا كانت حياة النبي هي مقياس سلوك عامة المؤمنين، فإنها لكذلك بالنسبة إلى سائر دعاة الإسلام؛ لذلك نرجو من دراسة هذا المثل أن نعرف شيئًا عن الروح التي دفعت الذين عملوا على الاقتداء به، وعن الوسائل التي ينتظر أن يتخذوها، ذلك أن روح الدعوة إلى الإسلام لم تجيء في تاريخ الدعوة بعد أناة وتفكير، وإنما هي قديمة قدم العقيدة ذاتها.

وفي هذا الوصف الموجز سنبين كيف حدث ذلك، وكيف كان النبي مُحَمَّد يعد نموذجا للداعي إلى الإسلام. ومن ثم لن يدخل في نطاق هذا البحث وصف أيامه الأولى، ولا المؤثرات التي خضع لها منذ نعومة أظفاره حتى بلغ سن الرجولة، فلا نتحدث عنه سياسيا ولا قائدا، وإنما الذي يعنينا أن نتعرض لحياته داعيا إلى الإسلام فحسب.

بعد أن قضى مُحَمَّد وقتا طويلا، استولى عليه نزاع نفسي وقلق، واقتنع آخر الأمر بأنه مكلف بحمل رسالة دينية من قبل الله (وجه أول جهوده إلى إقناع قومه بصدق الدين الجديد) فمن هذه الحقائق البسيطة التي طلب أن يبايعوه عليها، وحدانية الخالق، ونبذ عبادة الأصنام، والتسليم لإرادة الله. وكانت خديجة زوجه المخلصة الودود أول من آمن به، وكانت قد خطبته لنفسها قبل مبعثه بخمسة عشر عاما، حين كان ذلك الشاب الفقير الذي يمت إليها بالقرابة يشتغل في تجارتها أجيرا موفقا في عمله، وقالت له: «يا بن عم،

إني قد رغبت فيك لغرابتك، وسلطتك في قومك، وأمانتك، وحسن خلقك، وصدق حديثك[١]» وقد انتشلته من الفقر وساعدته على أن يصل إلى مستوى الطبقة الاجتماعية التي أهلته لها عراقة نسبه. بيد أن هذا لم يكن شيئًا مذكورا بالنسبة إلى مشاركتها إياه في حالات قلقه النفسي في إخلاص وولاء، وشد أزره ومعاونته بأرق ما يكون من التعاطف والتشجيع في ساعة اليأس.

وكانت خديجة إلى أن توفيت سنة ٦١٩م (بعد أن قضت في حياة الزوجية خمسة وعشرين عاما). تظهر على الدوام لأن تواليه بعطفها، وتحبوه بتأييدها، وتغمره بتشجيعها، كما قاسى من اضطهاد خصومه وأعدائه، أو عذبته الشكوك والهواجس. قال صاحب السيرة:

وكانت أول من آمن بالله ورسوله وصدق بما جاء منه، فخفف الله بذلك عن نبيه ﷺ لا يسمع شيئًا مما يكرهه من رد عليه وتكذيب له، فيحزنه ذلك، إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها، تثبته وتخفف عنه، وتصدقه، وتهون عليه أمر الناس»[٢].

وممن اعتنق هذا الدين أول الأمر وآمن برسالة مُحَمَّد، زيد بن حارثة وعلي بن أبي طالب، وكان الرسول قد تبناهما، والصديق أبو بكر، وطالما كان النبي يشيد بذكره قائلا: «ما دعوت أحدًا إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة ونظر وتردد، إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة. ما عساكم[٣] عنه حين ذكرته له وما تردد فيه»، وكان أبو بكر تاجرا موسرا مبجلا في قومه، لكمال خلقه ورجاحة عقله وكفايته، أنفق بعد إسلامه جل ثروته في شراء الموالي من المسلمين الذين اضطهدهم سادتهم لمشايعتهم دين مُحَمَّد، وكان لأبي بكر أثر كبير في تحول خمسة من المسلمين الأولين إلى هذا الدين، وهم: سعد بن أبي وقاص، الذي تم على يديه فيما بعد فتح بلاد الفرس، والزبير بن العوام أحد أقرباء النبي وزوجته،

---

(١) ابن إسحاق ص١٢٠.

(٢) ابن إسحاق ص١٥٥.

(٣) تأخر وانتظر.

وطلحة بن عبيد الله الذي اشتهر فيما بعد بفروسيته، وعبد الرحمن بن عوف التاجر الموسر، وعثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين، الذي تعرض في حياته الأولى للعذاب، فقد أخذه عمه فأوثقه وقال: «أترغب عن ملة آبائك إلى دين محدث؟ والله لا أحلك أبدًا حتى تدع ما أنت عليه من هذا الدين». فقال عثمان: «والله لا أدعه أبدا ولا أفارقه»، فلما رأى عمه صلابته في دينه حل وثاقه.

وتلا هؤلاء قوم آخرون من بينهم طائفة من الموالي والفقراء بوجه خاص، وبذلك أفلح النبي في أن يجمع حوله فئة قليلة من أتباعه في السنين الأولى من البعثة. وكان لنجاح مُحَمَّد في هذه الجهود الخاصة ما حفزه على التفكير في اتخاذ أساليب أقوى أثرا من الأساليب الأولى، فبدأ يجهر بدعوته، وجمع عشيرته ودعاهم إلى دينه الجديد بقوله: «والله ما أعلم شابا في العرب جاء قومه بأفضل مما قد جئتكم به.. إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، فأيكم يؤازرني على هذا الأمر، فأحجم القوم عنه جميعا إلا عليا فقد صاح في حماسة الصبي: «أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه»، فقام القوم يضحكون.

ولم يثن النبي إخفاقه أول ما دعا قومه عن الدعوة في مناسبات أخرى، ولكن إنذاره لم يزدهم إلا سخرية وازدراء.

وقد حاول الكفار مرارا إقناع عمه أبي طالب زعيم بني هاشم الذي ينتسب إليهم مُحَمَّد، ليمنعه ويكفه عن سب آلهة آبائهم، وإلا اضطروا إلى اتخاذ وسائل أشد عنفا. وهنا حاول أبو طالب إقناع ابن أخيه ألا يجلب الشر على نفسه وعلى قومه، فرد عليه النبي: «يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك دونه، ما تركته» فأثر ذلك في نفس أبي طالب وقال له: «اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت فوا الله لا أسلمك لشيء أبدا».

ونظرت قريش إلى ما أحرزه الدين الجديد من تقدم بعين تزداد سخطا وكراهية يوما بعد يوم، فلجئوا إلى كل ما أمكن من وسائل الوعد والوعيد، وعرضوا عليه كثيرا من شرف الدنيا وجاهها، لعله يعدل عما عقد العزم عليه. وقد قيل إن ما لقي مُحَمَّد من سوء

المعاملة كان سببا في أن يجتذب إلى جانبه شخصا عظيما دخل في الإسلام، ذلك هو عمه حمزة. فإنه عند ما سمع قصة الإهانة التي لحقت بابن أخيه واحتملها صابرا، تملكت عاطفة الغضب روحه التي جبلت على البطولة والفروسية، فأحالته من عدو عنود إلى متعصب غيور على الإسلام. ولم يكن هذا الحادث هو المثل الوحيد لما أثاره التشكيل بالمسلمين من شفقة في نفوس هؤلاء الذين شاهدوا ما قاساه أولئك من اضطهاد. ولا شك أن كثيرا من الناس كانوا قد دخلوا سرا في الدين الجديد، ولكنهم لم يجهروا بإسلامهم حتى يحين يوم انتصار الدين.

واشتدت عداوة قريش للدين الجديد اشتدادا مرا حين رأوا كثرة عدد المشايعين للإسلام، وأيقنوا أن انتصار الدين الجديد معناه تحطيم دين العرب الموروث والعبادة القومية، وضياع ما كان يتمتع بع سدنة الكعبة المقدسة من ثروة ونفوذ. وكان مُحَمَّد نفسه في حماية أبي طالب وبني هاشم، فهؤلاء وإن كانوا لم يظهروا أية عاطفة نحو التعاليم التي أذاعها قريبهم في الناس، إلا أن قوة العصبية للقبيل التي يتميز بها العرب قد حمته من أية محاولة اعتداء على حياته، وإن كان قد ظل معرضا لأذى واعتداء كثير. أما الفقراء الذين لم يكن لهم من يقوم بحمايتهم، وكذلك الموالي، فقد تحملوا أقسى ألوان الاضطهاد، فسجنوا، وعذبوا بغية ارتدادهم عن هذا الدين الجديد.

في ذلك الحين اشترى أبو بكر بلالا[١] وأعتقه، وهو عبد حبشي كان يصفه مُحَمَّد بأنه «أول ثمار الحبشة»، وكان يقاسي أشد العذاب، فكان يلقى به في الرمضاء على وجهه وظهره، إذا حميت الشمس وقت الظهيرة، ثم يؤمر بالصخرة الكبيرة فتوضع على صدره، ثم يقال له: "لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد، أو تعبد اللات والعزى"، فيقول بلال: «أحد أحد». ولقد مات اثنان من المسلمين من جراء ما تعرضا له من عذاب. وقد ضعفت فئة قليلة هذه المحنة، على حين ساعد هذا الاضطهاد على إذكاء روح الحماسة الدينية في نفوس فئة أخرى. وقد برهن عبد الله بن مسعود على جرأته حين

(١) وقد ذاعت في العالم الإسلامي باعتباره أول مؤذن في الإسلام.

قرأ القرآن في فناء الكعبة نفسها، وكان العمل ينطوي على أشد مظاهر الجرأة التي لم يجسر عليها أحد من أتباع مُحَمَّد من قبل؛ فتعرض له قوم من قريش كانوا في أنديتهم وجعلوا يضربون في وجهه، ولكنه استمر يتلو القرآن وقتا ما قبل أن يضطروه إلى الكف، ورجع إلى رفاقه، وقد أظهر استعداده للجهر بالإسلام بمثل هذه الطريقة في اليوم التالي. ولكن أصحابه أقنعوه بالعدول عن ذلك قائلين: "حسبك قد أسمعتهم ما يكرهون".

وربما كانت شدة معارضة قريش السبب الذي من أجله اتخذ مُحَمَّد دار الأرقم، وهو أحد السابقين إلى الإسلام. وكانت هذه الدار في مركز متوسط يؤمها الحجيج والغرباء. وقد استطاع الرسول أن يواصل نشر مبادئ الإسلام بين الذين كانوا يقصدونه في هدوء وطمأنينة. وتعد الفترة التي قضاها مُحَمَّد في هذه الدار فترة مهمة في الدعاية الإسلامية بمكة، حتى إن كثيرا من المسلمين يؤرخون دخولهم في الإسلام من تلك الأيام التي كان الرسول يبث فيها الدعوة بدار الأرقم.

ولما اشتد إيذاء الكفار لأتباع مُحَمَّد أشار عليهم بالهجرة إلى بلاد الحبشة، وفي السنة الخامسة للبعثة (٦١٥) عبر إليها أحد عشر رجلا وأربع نسوة حيث لقيهم النجاشي، وكان يدين بالمسيحية، بالعطف والقبول. وكان من بينهم مصعب بن عمير صاحب القصة التي تلفت النظر، لأنها قصة الرجل الذي لم يكن بد من أن يتحمل ما يقاسيه حديث العهد بالإسلام من محن مريرة، وهي كراهة الذين أحبهم وأحبوه من قبل. وقد هدى مصعبا إلى الإسلام ما استمع إليه في دار الأرقم من تعاليم للإسلام، إلا أنه كان يخشى أن يظهر إسلامه مخافة أن يصل الخبر إلى أمه وعشيرته الذي كانوا يكنون له حبا خالصا ويناوؤن هذا الدين الجديد مناوأة شديدة؛ فما إن اكتشفوا حقيقة الأمر حتى أخذوه فحبسوه ولكنه أفلح في الهرب إلى أرض الحبشة.

ويقال إن سخط قريش بهؤلاء الهاربين حتى بأرض الحبشة؛ فأرسلوا الرسل يطلبون من النجاشي إخراجهم من هذه البلاد، ولكنه بعد أن سمع من المسلمين قصتهم أبى أن يكف عنهم حمايته، فقد قالوا له ردا على ما وجه إليهم من أسئلة عن حقيقة دينهم:

"كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء إلى الجار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمر بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل اليتيم وقذف المحصنة؛ وأمرنا أن نعبد الله وحده وبالصلاة والزكاة والصيام، فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله، فعدا علينا قومنا، فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان. فلما قهرونا وضيقوا علينا خرجنا إلى بلادك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألاننظلم عندك».

عندئذ قبل النجاشي ورجع رسل قريش مقهورين[١]. وفي تلك الأثناء قام المكيون بمحاولة جديدة لإغراء النبي بالمال والجاه حتى يترك دعوته، ولكن تلك الوعود لم تجد نفعا في هذه السبيل.

وفي الوقت الذي كان المسلمون في مكة يرقبون بشغف كبير نتيجة بعثة قريش إلى الحبشة، حدث أن دخل في الإسلام رجل كان من أشد أعداء مُحَمَّد وأصلبهم مقاومة وتعصبا، رجل تضافرت الأسباب لدى المسلمين على أنه أخطر أعدائهم وألدهم، ومع ذلك فقد سطع ذكره فيما بعد، وكان من أنبل الرجال في صدر الإسلام، ذلك الرجل هو عمر بن الخطاب؛ ففي ذات يوم خرج في سورة الغضب متوشحا بسيفه يريد قتل النبي، فلقيه أحد أقاربه وهو في طريقه إلى النبي وسأله أين يريد؟ فقال: «أريد مُحَمَّدا هذا الصابئ الذي فرق أمر قريش وسب آلهتنا فأقتله». فقال له: «أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟» قال: «وأي أهل بيتي؟» قال: «وختنك وابن عمك سعيد وأختك فاطمة» فرجع عمر عامدا إلى أخته وختنه وعندهما خباب (بن الأرت) أحد أتباع مُحَمَّد، وكان

(١) ابن إسحاق ص٢١٩– ٢٢٠. ولم يتعرض الطبري لذكر هذه البعثة، ومن ثم يزعم كيتاني **Caetani** (في الجزء الأول ص٢٧٨) أنها وضعت فيما بعد.

يعلمهما الدين، ومعه صحيفة يقرئهما إياها، فدخل عمر عليها فقال: «ما هذه الهمهمة التي سمعتها عندكم؟» قالا: «ما سمعت شيئًا» قال: «بلى والله لقد أخبرت أنكما تابعتما مُحَمَّدا على دينه» وبطش بختنه سعيد، فقامت إليه أخته فاطمة، لتكفه عن زوجها فضربها فشجها فصاحت في وجهه: «نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله له فاصنع ما بدا لك". فلما رأى عمر ما بأخته من الدم من أثر ضربته رق لحالها، وسألها أن تعطيه هذه الصحيفة التي سمعهم يقرءونها آنفا، وبعد تردد أعطته إياها، وهي تشتمل على السورة العشرين من القرآن، فقرأها عمر وقال: «ما أحسن هذا الكلام وأكرمه» وإذا بالإيمان يغمره فيصيح: «دلني على مُحَمَّد حتى آتية فأسلم" [١].

ويعد إسلام عمر نقطة تحول في تاريخ الإسلام؛ فقد استطاع المسلمون أن يسلكوا منذ ذلك الحين مسلكا أشد جرأة، فترك مُحَمَّد دار الأرقم، وبدأ المؤمنون يجهرون بتأدية شعائر الإسلام جماعات حول الكعبة. وقد يتوقع المرء أن يكون هذا الموقف سببا قويا في إثارة مخاوف أشراف مكة. ذلك أنهم أصبحوا لا يطيقون الحياة مع شرذمة من المنبوذين، المحقرين، المضطهدين الذين يجاهدون لكي يعيشوا عيشة ضعف وبؤس. إنهم كانوا عصبة قوية، يكثر عددهم يوما بعد يوم ممن ينضم إليهم من المواطنين من أصحاب النفوذ والسلطان، ويعرضون استقرار الحكومة القائمة للخطر بما عقدوه من تحالف مع ملك أجنبي قوي.

فلما رأت قريش ذلك عقدت النية على القيام بعمل حاسم يحول دون نمو هذه الحركة الجديدة في البلاد، فتحالفت قريش على مقاطعة بني هاشم وهم الذين حموا للنبي لما بينه وبينهم من صلة النسب، وتعاهدوا على أن لا يتزوجوا منهم ولا يزوجوهم من أنفسهم، ولا يتاجروا معهم، وأن يقطعوا كل صلة تربطهم بهم، وقد قيل إن بني هاشم قد أقاموا على ذلك ثلاث سنين مهجورين في شعب من شعاب مكة، إلا في الأشهر الحرم حيث حرم القتال في كافة أنحاء بلاد العرب، وعقد حلف بين الفريقين حتى يتمكن

---

(١) ابن إسحاق ص٢٢٥-٢٢٦.

الحجيج من زيارة الكعبة المكرمة التي كانت تعد مركز ديانة العرب في ذلك الحين.

وكان مُحَمَّد يجعل من مواسم الحج فرصة لنشر الدعوة بين شتى القبائل التي كانت تتدفق إلى مكة وما جاورها من الأسواق، ولكنه لم يصادف نجاحا في هذه السبيل، لأن عمه أبا لهب كان قد تعود أن يتعقبه ويصيح بأعلى صوته: «إنه لصابئ يريد أن تسلخوا دين آبائكم إلى ما جاء به من البدعة والضلالة فلا تطيعوه ولا تسمعوا له» فيردون عليه ردا قبيحا ويقولون له: إن قومك وذوي قرابتك هم أعرف الناس بك، فلم لم يؤمنوا بك ويتبعوك؟ وكان ما ذاقه مُحَمَّد وذوو قرابته من العذاب والحرمان قد أثار آخر الأمر شفقة جماعة كبيرة من القرشيين فنقضوا حلفهم.

وفي هذا العام أصيب الرسول بوفاة خديجة، تلك الزوجة الوفية التي ظلت زهاء خمسة وعشرين عاما تمده بالرأي والتأييد، فحزن عليها حزنا عميقا، وبعد ذلك بقليل توفي عمه أبو طالب، فحرمه موتهما من أشد حماته ثباتا وقوة وعرضه لإهانة قريش وأذاها من جديد.

ولما قوبلت دعوة مُحَمَّد بالإهانة والسخرية من أهل مكة الذين حمل رسالته إليهم زهاء عشر سنوات دون أن يصادف فيها نجاحا يذكر، عزم على البحث عن قوم آخرين يكونون أكثر استعدادا لقبول دعوته، ويجد في بلدهم تربة أشد خصبا وصلاحية يستطيع أن يلقى فيها بذور هذا الدين؛ فانطلق على هذا الأمل إلى مدينة الطائف، وهي على سبعين ميلا من مكة، ودعا فريقا من أشرافها إلى وحدانية الله، وأخبرهم أنه مكلف من قبل أداء رسالته ليعلم هذا الدين، وطلب في الوقت ذاته أن يحموه ممن اضطهدوه في مكة، إلا أن عدم التناسب بين مطالبه السامية (التي لم تتقبلها أهل الطائف الوثنيين) وبين حالته التي أصبحت تبعث على اليأس، لم تثر في نفوسهم غير السخرية والاستهزاء، فرموه بالحجارة في غير رحمة، وأخرجوه من ديارهم.

وقد وجد مُحَمَّد عند عودته من الطائف أن أمله في النجاح قد أصبح أضعف منه في أي وقت مضى وتجلت مرارة نفسه في تلك الآيات التي أوردها على لسان نوح: {قَالَ

رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ({قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦)} [سورة نوح: ٥-٦]) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا[١] وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧)} [سورة نوح: ٥-٧].

وكان من عادة النبي أن يتردد في موسم الحج على القبائل العربية المختلفة في خيامهم ويحدثهم في الدين. وكان بعضهم يقابل عباراته بشيء من عدم الاكتراث، ويقابلها بعضهم الآخر بالسخرية والاستهزاء، حتى أتاه الفرج من جهة لم يكن يتوقعها. فقد التقى بفئة قليلة، ستة نفر أو سبعة. وعرف أنهم قادمون من المدينة أو يثرب، كما كانت تسمى في ذلك الحين. فقال لهم مخاطبا: «من أنتم؟» قالوا: «من الخزرج» قال «أمن موالي يهود؟ فأجابوا «نعم» قال: «أفلا تجلسون حتى أكلمكم؟» قالوا: «بلى». وعندئذ جلسوا فدعاهم إلى الله الحق، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن. وكان مما صنع الله بهم لأجل الإسلام أن يهودا كانوا معهم ببلادهم. وكانوا أهل كتاب وعلم، وكان أولئك أهل شرك وأصحاب أوثان، وكان اليهود قد غلبوهم في بلادهم، فكانوا إذا شجر بينهم نزاع قالوا لهم، «إن نبيا الآن مبعوث قد أظل زمانه نتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم». فلما كلم رسول الله أولئك النفر ودعاهم إلى الله قال بعضهم لبعض: «تعلمن والله أنه للنبي الذي توعدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه». فأجابوا فيما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوه منه ما عرض عليهم من الإسلام وقالوا له: «إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، وعسى الله أن يجمعهم بك، وسنتقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين»، وهكذا رجعوا إلى بلادهم يغمرهم الإيمان[٢].

تلك هي القصة السائرة عن هذا الحادث الذي كان نقطة التحول في بعثة مُحَمَّد، فقد لقي الآن قوما كان أسلافهم قد هيئوا عقولهم إلى حد ما لتقبل تعاليم النبي، وكانت

(١) أي على خطيئتهم

(٢) ابن إسحاق ص٢٨٦- ٢٨٧.

أحوالهم إذ ذاك، كما دلت الحوادث فيما بعد، ملائمة لقبول دعوته.

وقد أقام اليهود بمدينة يثرب زمنا طويلا، ولا يبعد أن يكونوا قد نزحوا من بلادهم على أثر هذه الكارثة القومية التي نزلت بهم باضطهاد أدريان **Hardian**. وفي ذلك الوقت وصلت إلى يثرب طائفة من البدو المهاجرين، وهم الأوس والخزرج من قبائل العرب، وسمح لهما بالإقامة في رقعة هذه المنطقة. ولما تكاثر عددهم أخذ تعديهم على سلطة الحكام اليهود يزداد شيئًا فشيئًا حتى استطاعوا آخر الأمر أن ينقلوا زمام الحكم كله إلى أيديهم، وذلك في نهاية القرن الخامس الميلادي.

وكانت طائفة من العرب قد اعتنقت اليهودية، وظل كثير من سادة المؤمنين الأصليين يقيمون فيها في خدمة هؤلاء الفاتحين، حتى إن المدينة كانت في زمن مُحَمَّد تضم عددا عظيما من اليهود. وكان أهل يثرب قد ألفوا فكرة المسيح الذي ينتظرون عودته، ومن ثم كانوا أقدر على فهم دعوى نبوة مُحَمَّد من أهل مكة الوثنيين فقد كانت مثل هذه الفكرة غريبة عليهم كل الغرابة، ومبغضة إلى قلوب القرشيين منهم بخاصة، وهم الذين كانت سيادتهم على سائر القبائل وحالة الرخاء المادي التي تمتعوا بها راجعة إلى أنهم قد ورثوا حراسة هذه المجموعة من الأوثان العربية التي احتفظوا بها في حرم الكعبة المقدسة.

زد على ذلك أن مدينة يثرب كانت مشغولة بنزاع داخلي دائم بسبب الخصومة التي قامت بين الأوس والخزرج. وعاش أهل يثرب في قلق واضطراب. وما من شيء يمكن أن يربط هذه الأحزاب المتناحرة برباط من المصلحة المشتركة إلا كان خيرا لهذه المدينة. وكما أن جمهوريات إيطاليا الشمالية في القرون الوسطى قد آثرت أجنبيا ليقبض على زمام الأمور في مدنهم حفظا للتوازن بين قوى الأحزاب المتنافسة ومنعا للصراع الداخلي الذي كان مفسدا للتجارة والشئون العامة، كذلك لم ينظر أهل يثرب إلى قدوم أجنبي نظرة تنطوي على شيء من الريبة، حتى ولو قدر أن قدومه كان بقصد اغتصاب حكومة البلاد الشاغرة أو كسب رضاهم بتسلم زمام هذه السلطة.

ويظهر أن من أسباب الترحيب الحماسي الذي لقيه مُحَمَّد في المدينة أن الدخول في

الإسلام، قد بدا للطبقة المستنيرة من أهالي المدينة علاجا لهذه الفوضى التي كان المجتمع يقاسيها بنظامه الرتيب في الحياة، وجعل أمور الناس الصعبة خاضعة لقوانين منظمة قد شرعتها سلطة تسمو على الأهواء الفردية(١).

وإن هذه الحقائق لتفسر لنا إلى حد بعيد كيف استطاع مُحَمَّد أن يدخل مكة بعد ثماني سنوات من الهجرة على رأس عشرة آلاف من أتباعه، تلك المدينة التي جاهد فيها من قبل جهادا قليل الثمرة مدة عشر سنوات.

وكان مُحَمَّد قد رغب من قبل أن يصحب الحجاج من الخزرج، الذين تحولوا حديثا إلى الإسلام على يديه إلى يثرب، ولكنهم وعدوه ذلك بعد أن يتم الصلح بينهم وبين الأوس، وقالوا: «دعنا نرجع إلى قومنا عسى الله أن يجعل السلم بيننا وسنعود إليك، وموعدنا موسم الحج في العام المقبل». وهكذا رجعوا إلى ديارهم ودعوا قومهم إلى الإسلام، فاستجاب لهم كثير، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله.

حتى إذا وافى موسم الحج وافاه من يثرب يتألف من عشرة رجال من الخزرج واثنين من الأوس عند العقبة، وهي المكان السري المتفق عليه، وتعاهدوا على بيعته. وهذا هو نص بيعة العقبة الأولى: «على ألا نشرك بالله شيئًا، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف». ورجع هؤلاء الإثنى عشر رجلا إلى يثرب دعاة إلى الإسلام؛ وقد انتشر هذا الدين الجديد فيها انتشارا سريعا، من دار إلى دار، ومن قبيلة إلى قبيلة بفضل استعداد هذه المدينة لقبول الدعوة، وما أبداه هؤلاء الدعاة من حماسة وغيرة في تأدية رسالتهم.

وقد صحبهم مصعب بن عمير وهم راجعون إلى المدينة، وفي رواية أن الرسول أرسله إجابة لكتاب بعثه الأنصار من يثرب. وكان هذا الشاب من السابقين إلى الإسلام، وقد عاد أخيرا من الحبشة، ومن هنا كسب خبرة واسعة. وإن التجربة القاسية التي لاقاها

---

(١) Caetani, t, I, P.334-5

في مدرسة الاضطهاد لم تضعف من حماسته، بل علمته يقاوم الاضطهاد، وكيف يعامل هؤلاء الذين كانوا يغضون من شأن الإسلام قبل أن يتبينوا وروحه وتعاليمه. واستطاع مُحَمَّد أن يوليه كل ثقته، ويعهد إليه في هذه المهمة الشاقة، وهي مهمة إرشاد الذين دخلوا حديثا هذا الدين وتعليمهم، وتعهد بذور الحماسة والعبادة الدينية التي ألقيت من قبل حتى آتت ثمارها. واتخذ مصعب دار أسعد بن زرارة مقاما له، وكان يجمع المسلمين للصلاة وقراءة القرآن في تلك الدار أحيانا، وأحيانا أخرى في دار بني ظفر، في حي من أحياء المدينة، حيث كانت تقيم فيه هذه الأسرة مع أسرة بني عبد الأشهل.

وكان سعد بن معاذ وأسيد بن حضير شيخي بني عبد الأشهل في ذلك الحين. وقد حدث ذات يوم أن مصعبا كان يجلس مع أسعد في دار بني ظفر، وكانا مشغولين بنشر تعاليم الدين بين من دخلوا فيه حديثا، إذ قدم عليهم سعد بن معاذ ليعرف مكانهم وقال لأسيد بن حضير: «لا أبا لك؛ انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارنا ليسفها ضعفاءنا، فازجرهما وأنههما أن يأتيا دارنا، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة مني حيث قد علمت لكفيتك» (وكان سعد بن معاذ ابن خالة أسعد). عندئذ تناول أسيد حربته وانطلق إلى أسعد ومصعب» ثم صاح بهما: «ما جاء بكما إلينا؟ أتسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما في نفسيكما حاجة». فأجاب مصعب في هدوء: «أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمرا قبلته وإن كرهته فكف عنه». فركز أسيد حربته في الأرض وجلس إليهما يسمع، ومصعب يشرح له مبادئ الإسلام الأساسية ويقرأ بعض آيات من القرآن. وصاح بعد برهة مأخوذا: «كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟» فأجابه مصعب: «فتغتسل فتطهر ثوبيك، ثم تشهد أن لا إله إلا الله وأن مُحَمَّدا رسول الله، فاستجاب أسيد لساعته، ورد شهادة الإسلام ثم قال: إن ورائي رجلا (يشير إلى سعد بن معاذ) أن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن».

عند ذلك انصرف، وما لبث أن جاء سعد بن معاذ ثائرا غضبا على أسعد لما قدمه لدعاة الإسلام من تأييد، فرجا منه مصعب ألا يحكم على الدين قبل أن ينظر فيه، عندئذ رضي أن يصغي إلى كلام مصعب. وسرعان ما أثر فيه، وحمل الإقناع إلى قلبه، فدخل في

الدين، وأصبح من المسلمين. ثم رجع إلى قومه يلتهب حماسة وقال لهم: «يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم؟ فقالوا: «سيدنا وأفضلنا رأيا وأيمننا نقيبة» فقال سعد: «فإن كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله، ومنذ ذلك الحين أسلم كل آل عبد الأسهل[1].

وبمثل هذه الحماسة وتلك المثابرة ونحوهما سارت الدعوة الدينية قدما، فلم ينقض عام حتى كانت كل أسرة من عرب المدينة قد قدمت بعض أفرادها ليزداد به عدد المؤمنين، لا نستثني إلا فرعا من الأوس ظلوا بمعزل عنهم خاضعين لنفوذ أبي قيس بن الأسلت الشاعر.

وبمثل هذه الحماسة وتلك المثابرة ونحوهما سارت الدعوة الدينية قدما، فلم ينقض عام حتى كانت كل أسرة من عرب المدينة قد قدمت بعض أفرادها ليزداد به عدد المؤمنين، لا نستثني إلا فرعا من الأوس ظلوا بمعزل عنهم خاضعين لنفوذ أبي قيس بن الأسلت الشاعر.

وما إن وافى موسم الحج التالي حتى خرج من يثرب ثلاثة وسبعون شخصا من المسلمين الذين أسلموا حديثا قاصدين مكة، وكان يصحبهم مواطنوهم من المشركين. وقد عهد إليهم دعوة النبي بالمهاجرة إلى يثرب اعتصاما بها من حنق الخصوم، وقد قدموا ليبايعوه على أنه نبيهم وزعيمهم. وفي هذه المناسبة العظيمة عاد إلى مكة كل المسلمين الأولين الذين اجتمعوا بالنبي في الموسمين السابقين، وكان يرافقهم شيخهم مصعب، وقد بادر على أثر وصوله بالذهاب إلى النبي، وإخباره بما أصابه من نجاح في نشر الدعوة إلى الإسلام. ويقال أن أمه لما سمعت بمقدمه بعثت إليه تقول: يا عاق، أتقدم بلد أنا فيه لا تبدأ بي؟ فقال: ما كنت لأبدأ بأحد قبل رسول الله ﷺ. فلما سلم على رسول الله ﷺ وأخبره بما أخبره ذهب إلى أمه؛ فقالت: إنك لعلى ما أنت عليه من الصبأة بعد، قال: أنا على دين رسول الله ﷺ وهو الإسلام الذي رضي الله لنفسه ولرسوله، قالت: ما شكرت

(١) ابن إسحاق ص٢٩١ وما يليها.

ما رئتيك مرة بأرض الحبشة ومرة يثرب فقال: أفر بديني أن تفتنوني فأرادت حبسه، فقال: لئن حبستني لأحرصن على قتل من يتعرض لي، قالت: فاذهب لشأنك، وجعلت نبكي، فقال مصعب: "يا أمة إني لك ناصح عليك شفيق، فاشهدي أنه لا إله إلا الله وأن مُحَمَّدا عبده ورسوله" قالت: "لا أدخل في دينك فيزري برأيي، ويضعف عقلي، ولكن أدعك وما أنت عليه وأقيم على ديني".

وقد دبر اجتماع سري بالعقبة، وهو ذلك المكان الذي لقي فيه النبي أهل يثرب من المسلمين في العام الماضي، وإنما اختار النبي هذا الموضع حتى لا يثير شك قريش ولا يستهدف لعداوتها. جاء مُحَمَّد لا يرافقه إلا عمه العباس الذي كان يعلم أمر هذا الاجتماع مع أنه كان لا يزال على الشرك. وكان العباس أول من تكلم في الاجتماع، فأثنى على ابن أخيه وذكر أنه في عز من قومه ومنعة في بلده. على أنه أبى إلا الانحياز إلى أهل يثرب، فينبغي أن يتدبر مليا قبل أن يأخذوا على عاتقهم الوفاء له، ومنعه ممن يخالفونه، وأن يعقدوا العزم على ألا يرجعوا عن عهدهم إذا ما استهدفوا الخطر، عندئذ أكد البراء بن معرور أحد الخزرج أنهم صادقون في عزمهم، وأنهم عولوا على منعة نبي الله، وطلب إلى النبي أن يتكلم في صراحة وأن يأخذ لنفسه ولربه ما أحب.

وبدأ مُحَمَّد بتلاوة بعض آيات القرآن، ودعوتهم إلى الله ورسوله، وترغيبهم في الإسلام، ثم طلب منهم أن يمنعوه وأصحابه مما يمنعوا منه أزواجهم وابناءهم. وعلى أثر ذلك أمسك البراء بن معرور بيده وقال: «والذي بعثك بالحق، لنمنعك ما نمنع منه أزرنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أهل الحرب وأهل الحلقة ورثناها كابرا عن كابر» وهكذا بايعوه واحدا بعد واحد.

ولم تكن قريش تفطن إلى ما يجري في الخفاء حتى استأنفوا التنكيل بالمسلمين من جديد. فنصحهم مُحَمَّد بالفرار من مكة، قائلا: «هاجروا إلى يثرب، فإن الله عز وجل قد جعل لكم إخوانا ودارا تأمنون فيها». ومن ثم هربوا مستخفين مثنى وثلاث إلى المدينة. وهناك قوبلوا بترحاب عظيم، وتسابق إخوانهم في الدين إلى شرف دعائهم وقضاء مآربهم.

ولم يمض شهران حتى كان عامة المسلمين تقريبا قد غادروا مكة، وكانوا نحو مائة وخمسين عدا الذين أخذوا وحبسوا والذين لم يستطيعوا الخلاص من الأسر، وقد حكي عن أحد هؤلاء المسلمين، واسمه صهيب، وكان النبي يطلق عليه «أول ثمار الروم» (وكان عبد روميا، فلما أعتقه مولاه احترف التجارة وجمع منها ثروة كبيرة) لما شرع في الهجرة قال له أهل مكة: "أتيتنا ها هنا صعلوكا حقيرا، فكثر مالك عندنا وبلغت، ثم تنطلق بنفسك ومالك؛ والله لا يكون ذلك"، فقال: "أرأيتم إن تركت مالي أتخلون أنتم سبيلي؟" قالوا: "نعم"، فجعل لهم ماله أجمع، فبلغ النبي (ص) فقال: "ربح صهيب، ربح صهيب"

وتخلف مُحَمَّد فلم يهاجر (ولا شك أنه كان يقصد بذلك صرف الأنظار عن أتباعه المخلصين) حتى حدثت مؤامرة مدبرة لاغتياله، فتنبه أنه سيعرض نفسه للموت إن أطال مكثه بعد ذلك، فاحتال الفرار.

وكان أول ما عني به مُحَمَّد بعد أن دخل يثرب (المدينة) كما سميت منذ ذلك الحين – أي مدينة النبي – أن يبني مسجدا ليكون مقاما للصلاة ومجمعا عاما لأصحابه الذين كانوا حتى ذلك الحين يجتمعون لهذا الغرض في بيت واحد منهم، وكان المصلون تعودوا في العهد الأول أن يولوا وجوههم شطر بيت المقدس، وربما كان المقصود من ذلك استمالة اليهود. وقد حاول مُحَمَّد استرضاءهم بوسائل أخرى كثيرة، فدأب على الاستشهاد بكتبهم المقدسة، ومنحهم الحرية التامة في إقامة شعائرهم الدينية، وساوى بينهم وبين المسلمين في الحقوق السياسية؛ ولكنهم قابلوا صنيعه باستهزاء وسخرية. فلما أن أخفقت آماله في استمالتهم إليه وأصبح من الواضح أن اليهود لا يقبلون مُحَمَّدا نبيا لهم، أمر صحابته بأن يولوا وجوههم شطر الكعبة بمكة (سورة ٢ آية ١٤٤)[١].

وكان لتحويل القبلة مغزى أبعد مما قد يبدو لأول وهلة، إذ كان ذلك في الواقع بداية الحياة القومية في الإسلام: فجعل من الكعبة في مكة مركزا دينيا للمسلمين كافة،

(١) ولا شك أن فرض صيام رمضان (سورة ٢ آية ١٧٩–١٧٤) مظهر آخر من مظاهر نبذ اليهود إذ به أبطل صيام يوم عاشوراء.

كما كانت تماما في الأزمان الغابرة مقصدا لحج القبائل العربية جميعا. ونظير ذلك في الأهمية ما كان من جعل الحج إلى مكة، تلك العادة العربية القديمة من بين فرائض الإسلام، فأصبحت فريضة يؤديها كل مسلم مرة على الأقل في حياته.

وفي القرآن آيات كثيرة توجه الأنظار إلى منشأ هذا الشعور القومي، وتحث أهل بلاد العرب على إدراك ما مسحوه من فضل بنزول الوحي الإلهي بلغتهم، وعلى لسان واحد منهم.

{إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [الزخرف:٣]

{وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا} [الشورى:٧]

{وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ} [فصلت:٤٤]

{وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨)} [سورة الزمر: ٢٧-٢٨].

{وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٩٥)} [سورة الشعراء: ١٩٢-١٩٥].

{فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا} [مريم:٩٧].

ولم تكن رسالة الإسلام مقصورة على بلاد العرب، بل إن للعالم أجمع نصيبا فيها [١]. ولما لم يكن هناك غير إله واحد، كذلك لا يكون هناك غير دين واحد يدعى إليه الناس كافة. ولكي تكون هذه الدعوة عامة، وتحدث أثرها المنشود في جميع الناس وفي

---

(١) ولكن الرسالة الإلهية ليست مقصورة على العرب، بل إن إرادة الله تشمل جميع المخلوقات، ومعنى ذلك خضوع الإنسانية كلها خضوعا مطلقا، ولقد كان لمحمد، بوصفه رسولا من الله، حق المطالبة بهذه الطاعة، وكان عليه أن يطالب بها. وهذا ما ظهر من أول الأمر جزءا لا ينفصل من جملة ما أراد تحقيقه من مبادئ.
(Sachau, PP.203-4), Goldzher (Vorlesungen uber den Islam, P.25 sqq) and Noldeke (WZKM. Vol. xxi.pp. 307-8) وكل منهما يرى رأيا مماثلا لما زعمه سخاو

جميع الشعوب: نراها تتخذ صورة عملية في الكتب التي قيل إن محمدًا بعث بها في السنة السادسة من الهجرة (٦٨٨م) إلى عظماء ملوك ذلك العصر. وفي هذه السنة أرسل الرسول كتبا إلى هرقل قيصر الروم، وإلى كسرى فارس، وإلى حاكم اليمن، وإلى حاكم مصر، وإلى النجاشي. وقد قيل إن الكتاب الذي أرسل إلى هرقل كان كما يلي: "بسم الله الرحمن الرحيم.. من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل قيصر الروم، السلام على من اتبع الهدى، أما بعد أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين وإن تتولى فإن إثم الأكارين عليك، "قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئًا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون».

على أنه، إن كانت هذه الكتب قد بدت في نظر من أرسلت إليهم ضربا من الخرق، فقد برهنت الأيام على أنها لم تكن صادرة عن حماسة جوفاء[1]. وتدل هذه الكتب دلالة أكثر وضوحا وأشد صراحة على ما تردد ذكره في القرآن من مطالبة الناس جميعا بقبول الإسلام، فقد قال الله تعالى:

{إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨)} [سورة ص: ٨٧-٨٨]. { إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (٦٩) لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧٠)} [سورة يس: ٦٩-٧٠]. {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء:١٠٧]. {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} [الفرقان:١] {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [سبأ:٢٨]. {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} [الصف:٩].

وفي ساعة من ساعات اليأس العميق، عندما كان أهل مكة يمعنون في النفور من كلام النبي (سورة ١٦ آية ٤٣، ١١٤إلخ)، وعندما عذبوا من هداهم النبي إلى الإسلام

(١) انظر: **Caetani**: ٧٢٥ وما يليها للوقوف على مدى الشك في صحة هذه الكتب.

حتى كفروا من بعد إيمان (سورة ١٦، آية ١٠٨)، وعندما لجأ آخرون إلى المهاجرة في الله من بعد ما ظلمهم مضطهدون (سورة ١٦: آية ٤٣، ١١١)، عند ذلك تلقى النبي الوعد، {وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا} [النحل:٨٤][١].

وإن ما يخبر به النبي في تلك الآيات من مطالبة البشرية كلها بارتضاء الإسلام دينا ليزداد وضوحا في قول مُحَمَّد متنبئًا، أن بلالا «أول ثمار الحشبة»، وأن صهيبا «أول ثمار الروم». أما سلمان، وهو أول من أسلم من الفرس، فقد كان عبدا نصرانيا بالمدينة اعتنق الإسلام في السنة الأولى من الهجرة، وهكذا صرح الرسول بكل وضوح وجلاء أن الرسول ليس مقصورا على الجنس العربي قبل أن يدور بخلد العرب أي شيء يتعلق بحياة الفتح والغزو بزمن طويل، وإن القصة التالية الخاصة بإرسال البعوث إلى كل الشعوب للدعوة إلى الإسلام لتشير إلى دعوى عموم الرسالة، وهي «أن رسول الله قال لأصحابه»، «وافوني بأجمعكم بالغداة"، وكان إذا صلى الفجر حبس في مصلاه قليلا، يسبح ويدعو، ثم التفت إليهم فبعث عدة إلى عدة وقال لهم: "انصحوا الله في عباده، فإنه من استرعى شيئًا من أمور الناس ثم لم ينصح لهم حرم الله عليه الجنة؛ انطلقوا ولا تصنعوا كما صنعت رسل عيسى بن مريم، فإنهم أتوا القريب وتركوا البعيد. فأصبحوا يعني الرسل وكل رجل منهم يتكلم بلسان القوم الذين أرسل إليهم، فذكر بذلك للنبي فقال: "هذا أعظم ما كان من حق الله عليهم في أمر عباده»[٢].

---

(١) ومن الغريب أن ينكر بعض المؤرخين أن الإسلام قد قصد به مؤسسه في بادئ الأمر أن يكون دينا عالميا برغم هذه الآيات البينات، ومن بينهم السير وليم ميور إذ يقول: «إن فكرة عالمية الرسل قد جاءت فيما بعد، وإن هذه الفكرة على الرغم من كثرة الآيات والأحاديث التي تزيدها، لم يفكر فيها مُحَمَّد نفسه. وعلى فرض أنه قد فكر فيها، فقد كان تفكيره تفكيرا غامضا، فإن عالمه الذي كان يفكر فيه إنما كان بلاد العرب، كما أن هذا الدين الجديد لم يهيأ إلا لها، وأن مُحَمَّدا لم يوجه دعوته منذ بعث إلى أن مات إلا العرب دون غيرهم. وهكذا نرى أن نواة عالمية الإسلام قد غرست، ولكنها إذا كانت قد اختمرت ونمت بعد ذلك، فإنما يرجع هذا إلى الظروف والأحوال أكثر منه إلى الخط والمناهج The Caliphate, PP.43-4؛ وكيتاني آخر من يؤيد هذا الرأي Annali dell Islam, vol. v.pp.

(٢) ابن سعد١٠ . وقد يشك البعض، وربما كانوا على حق، في صحة هذه القصة، ولكنها على أقل تقدير تدلنا على إدراك السابقين الصفة التشهيرية في الإسلام.

ويؤيد دعوى عموم الرسالة والحق في المطالبة بأن يستجيب لها جميع الناس أن الإسلام كان الدين السماوي الذي اختاره الله للجنس البشري كافة ثم أوحى به إليهم من جديد على لسان محمد «خاتم النبيين» (سورة ٣٣: آية ٤٠) كما أوحى به من قبل على لسان غيره من الرسل.

{وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} [يونس:١٩].{قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ} [الأحقاف:٩].{كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [البقرة:٢١٣].{ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [النحل:١٢٣].{قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [الأنعام:١٦١]. {قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [البقرة:١٣٥]. {قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٩٥) إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (٩٦)} [سورة آل عمران: ٩٥-٩٦]. {وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا} [النساء:١٢٥].{هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ} [الحج:٧٨].

ولنعد الآن إلى تتبع حياة محمد في المدينة، ولكي نقدر موقفه بعد الهجرة تقديرا حقيقيا، ينبغي أن نذكر ما اتصف به المجتمع العربي في ذلك الحين من طابع خاص، فيما يتعلق بهذا الجزء على الأقل من شبه الجزيرة. لم يكن يوجد إطلاقا أي منهج منظم للإدارة أو القضاء كالذي نعرفه عن فكرة الحكومة في العصر الحديث. كانت كل قبيلة أو عشيرة

تؤلف جماعة منفصلة ومستقلة تمام الاستقلال. وينسحب هذا الاستقلال أيضا على أفراد القبيلة، فكل فرد منهم لا يعتبر زعامة شيخ قبيلته أو سلطته إلا رمزا لفكرة عامة شاءت الظروف أن يأخذ هو منها بنصيب؛ بل كان مطلق الحرية في أن يرفض ما اجتمع عليه رأي الأغلبية من أبناء قبيلته. وأبعد من هذا أنه لم يكن هناك نظام لتنقل سلطة الرئيس، إذ كان يختار لها غالبا أكبر أفراد القبيلة سنا، وأكثرهم مالا، وأعظمهم نفوذا، وأجدرهم بكسب الاحترام الشخصي. وإذا ما تضخمت قبيلة تشعبت فروعا كثيرة، يتمتع كل منها بحياة منفصلة ووجود مستقل، ولا تتحد إلا في ظروف غير عادية، اشتراكا في الدفاع عن القبيلة أو قياما بغارات بالغة الخطورة.

ومن ثم نستطيع أن ندرك كيف تمكن مُحَمَّد من أن يجعل نفسه، في المدينة، وعلى رأس جماعة من أتباعه كبيرة العدد آخذة في النمو، يتطلعون إليه زعيما وقائدا، ولا يعترفون بسلطان غير سلطانه، دون إثارة أي شعور من القلق، أو خوف من التعدي على السلطة المعترف بها، كما كان ينتظر أن يحدث في مدينة إغريقية قديمة، أو في أي مجتمع منظم يماثلها. وهكذا باشر مُحَمَّد سلطة زمنية كالتي كان يمكن أن يباشرها أي زعيم آخر مستقل مع فارق واحد هو أن الرباط الديني بين المسلمين كان يقوم مقام رابطة الأسرة والدم. وعلى هذه الصورة أصبح الإسلام – ولو من الوجهة النظرية على الأقل كما سن دائما – نظاما سياسيا بقدر ما هو نظام ديني.

كانت رغبة مُحَمَّد ترمي إلى تأسيس دين جديد، وقد نجح في هذه السبيل، ولكنه في الوقت نفسه أقام نظاما سياسيا له صفة جديدة متميزة تميزا تاما. وكانت رغبته بادئ الأمر مقصورة على توجيه بني وطنه إلى الاعتقاد بوحدانية الله. إلا أنه بجانب ذلك على هدم نظام الحكومة القديم في مكة مسقط رأسه، وأقام حكومة دينية مطلقا، وقام هو على رأسها خليفة لله في الأرض بدلا من حكومة الأرستقراطية القبلية، التي كانت الأسر الحاكمة تتوزع سياسة الشئون العامة تحت لوائها.

«وقبيل وفاة مُحَمَّد نرى جميع أنحاء الجزيرة العربية تقريبا تدين له بالطاعة، وإذا ببلاد

العرب التي لم تخضع إطلاقا لأمير من قبل تظهر في وحدة سياسية وتخضع لإرادة حاكم مطلق، ومن تلك القبائل المتنوعة، صغيرها وكبيرها، ذات العناصر المختلفة التي قد تبلغ المائة والتي لم تنقطع عن التنازع والتناحر، خلقت رسالة مُحَمَّد أمة واحدة، وقد جمعت فكرة الدين المشترك تحت زعامة واحدة شتى القبائل في نظام سياسي واحد، ذلك النظام الذي سرت مزاياه في سرعة تبعث على الدهش والإعجاب. وإن فكرة واحدة كبرى هي التي حققت هذه النتيجة، ذلك هو مبدأ الحياة القومية في جزيرة العرب الوثنية، وهكذا كان النظام القبلي لأول مرة، وإن لم يقض عليه نهائيا (إذا كان ذلك مستحيلا)، شيئًا ثانويا بالنسبة للشعور بالوحدة الدينية وتكللت المهمة الضخمة بالنجاح، فعند ما انتقل مُحَمَّد إلى جوار ربه وكانت السكينة ترفرف على أكبر مساحة من شبه الجزيرة، بصورة لم تكن القبائل العربية تعرفها من قبل، مع شدة تعلقها بالتدمير وأخذ الثأر، وكان الدين الإسلامي هو الذي مهد السبيل إلى هذا الائتلاف[١].

حتى عند وفاة المسلم نرى دعوى القرابة تطرح جانبا، فيرث الأخ في الدين كل ما يملك صاحبه المتوفى، ثم ألغي هذا النظام بعد غزوة بدر حين لم يعد هذا الرباط المصطنع ضروريا لتوحيد الكلمة بين أتباع الرسول، وإنما كان مثل هذا النظام لازما حينما كان عدد المسلمين قليلا وكانت حياة التضامن ظاهرة جديدة. زد على ذلك أن مُحَمَّدا قد قضى في المدينة فترة قصيرة جدا قبل أن يكثر عدد أتباعه كثرة سريعة جعلت هذه الاشتراكية في النظام الاجتماعي أمرا ليس من اليسير تحقيقه من الناحية العملية. ولم يكن يتوقع المرء من نمو جماعة سياسية مستقلة تتألف من مهاجري مكة، وتقيم في مدينة تضمر لهم العداء، إلا أن يؤدي هذا النمو إلى قيام النزاع بين الفريقين. وكان هو مشهور معروف فإن كل كتاب من كتب السيرة حافل بروايات تتعلق بسلسلة طويلة من المناوشات الصغيرة والمعارك الدامية، التي قامت بين أتباعه وبين القرشيين من أهل مكة، وانتهت بدخوله المظفر في هذا البلد سنة ٦٣٠م، كما حفلت هذه الكتب بما كان بين الرسول وبين القبائل الأخرى من علاقات عدائية ظلت قائمة حتى انتقل إلى جوار ربه سنة ٦٣٣م (١١هـ).

(١) A.Von Kremer (3), pp.3c9, 310.

وإن وصف هذه الغزوات لا يدخل في نطاق هذا الكتاب، وإنما المهم أن نبين كيف أن محمدًا عند ما رأى على رأسه جماعة مسلحة من أتباعه لم يتحول دفعة واحدة، كما قد يريدنا البعض على الاعتقاد، من داعية مسالم إلى متعصب يحمل سيفه بيده ويفرض دينه على كل من استطاع [1].

وقد أكد الكتاب الأوربيون مرارا أن النبي سلك مسلكا جديدا تمام الجدة منذ أن هاجر إلى المدينة ومنذ أن تغيرت ظروف حياته هناك، وأنه لم يعد ذلك البشير النذير المرسل إلى الناس الذي كان قد أقنعهم بالحجة بصدق الدين الذي أوحي إليه، وإنما ظهر الآن أقرب إلى أن يكون متعصبا مندفعا يستغل كل ما في سلطته من قوة ومهارة سياسية في فرض نفسه وفرض آرائه.

على أنه من الخطأ أن نفترض أن محمدًا في المدينة قد طرح مهمة الداعي إلى الإسلام والمبلغ لتعاليمه أو أنه عندما سيطر على جيش كبير يأتمر بأمره، انقطع عن دعوة المشركين إلى اعتناق الدي؛. فهذا ابن سعد يعرض طائفة من الكتب التي بعث بها النبي من المدينة إلى الشيوخ وغيرهم من أعضاء القبائل العربية المختلفة بالإضافة إلى هذه الكتب التي أرسلها إلى الملوك والأمراء في خارج الجزيرة العربية يدعوهم إلى اعتناق الإسلام. وسنجد في الصفحات التالية أمثلة من البعوث الدينية التي أرسلها لتبليغ الإسلام إلى الذين لم يسلموا من قبائلهم، تلك البعوث التي يدل مجرد إخفاقهم في بعضها على أن الجهود التي بذلك كانت ذات صبغة تبشيرية خالصة، كما تدل على أنها لم تكن تميل إلى استخدام القوة. ومن الأمثلة الواضحة على إخفاق تلك البعثات، تلك البعثة التي أرسلت إلى بني عامر بن صعصعة في السنة الرابعة للهجرة. فقد زار أبو البراء عامر شيخ هذه القبيلة محمدًا في المدينة، واستمع إلى تعاليمه، ولكنه لم يشأ أن يعتنق الإسلام. ومع ذلك أظهر شيئًا من العطف نحو هذا الدين الجديد، وطلب إلى النبي أن يرسل بعض أتباعه إلى نجد لينشر

---

(١) ويظهر أن هذا الرأي قد صرح به بعض الباحثين ولا سيما الأستاذ ميور عند ما تحدث عن مذبحة بني قريظة التي وقعت في السنة السادسة للهجرة فقال: «إن الدعائم التي سار عليها محمد عندما كانت سياسية محضة إذ أنه لم يكن قد أقر حتى ذلك الحين طريقة إكراه الناس على اعتناق الإسلام أو معاقبتهم على رفضه» (Muir (2) vol iii, p. 282).

تعاليم الدين بين أهالي هذه البلاد. فأرسل النبي جماعة تتألف من أربعين مسلما معظمهم من شباب المدينة، الذين حذفوا تلاوة القرآن واعتادوا أن يجتمعوا ليلا للدرس وإقامة الصلاة، ولكنهم قتلوا غدرا بالرغم من الأمان الذي عرضه عليهم أبو البراء عامر، ولم ينج بحياته إلا ثلاثة منهم[١].

ومع ذلك فقد كانت انتصارات الجيوش الإسلامية تجذب كل يوم أفرادا من شتى القبائل ولا سيما من كان يقيم منهم في جوار المدينة لتزداد بهم صفوف أتباع النبي. وإن «المعاملة الحسنة التي تعودتها وفود هذه العشائر المختلفة من النبي واهتمامه بالنظر في شكاياهم، والحكمة التي كان يصلح بها ذات بينهم، والسياسة التي أوحت إليه بتخصيص قطع من الأرض مكافأة لكل من بادر إلى الوقوف في جانب الإسلام وإظهار العطف على المسلمين.. كل ذلك جعل اسمه مألوفا لديهم، كما جعل صيته ذائعا في كافة أنحاء شبه الجزيرة سيدا وعظيما ورجلا كريما[٢]. وكثيرا ما كان يفد أحد أفراد القبيلة على النبي بالمدينة ثم يعود إلى قومه داعيا إلى الإسلام جادا في تحويل إخوانه إليه، وفي القصة التالية مثل من أمثلة ذلك التحول إلى الإسلام، وذلك في السنة الخامسة للهجرة.

بعثت بنو سعد بن بكر واحدا منها يقال له ضمام بن ثعلبة رسولا إلى النبي؛ فقدم وأناخ بخيره على باب المسجد عقله، ودخل المسجد حيث كان النبي جالسا في أصحابه، فأقبل حتى وقف عليهم وقال: «أيكم ابن عبد المطلب»؟ فقال النبي: «أنا بن عبد المطلب»، قال: «أمُحَمَّد؟» قال «نعم»؟ قال: «إني سائلك ومغلظ عليك في المسألة فلا تجدن في نفسك». قال: «لا أجد في نفسي فسل عما بدا لك» قال: «أنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك، الله بعثك إلينا رسولا؟» قال مُحَمَّد: «اللهم نعم». قال: "فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك الله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده ولا نشرك به شيئًا وأن تخلع هذه الأنداد التي كان آباؤنا يعبدون

---

(١) ابن إسحاق ص٦٤٨ وما يليها.

(٢) أن ازدياد Muir (2), vol, iv. Pp.107-8. See also Caetani. Vol. i.p.663.

معه؟» قال محمد «اللهم نعم». وبعد ذلك سأل النبي عن فرائض الإسلام كلها، عن الصلاة والصيام والحج إلخ، وهو يستحلفه مثل ما سبق، وأخيرا قال: «... فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله، وسأؤدي هذه الفرائض وأجتنب ما نهتني عنه ثم لا أزيد ولا أنقص». ثم انصرف وأطلق بعيره ورجع إلى قومه. فلما جمعهم كان أول ما قال لهم: «بئست اللات والعزى» قالوا «مهيصا ضمام اتق البرص، اتق الجذام، اتق الجنون»، قال "ويلكم إنهما والله لا ينفعان ولا يضران.. إن الله قد بعث رسولا وأنزل عليه كتابا استنقذكم به مما كنتم فيه، وإني أشهد أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به وما نهاكم عنه». ومازال يقص عليهم حتى لم يأت المساء إلا وقد أسلم كل من في الحي رجالا ونساءً [1].

وقد كان عمرو بن مرة أحد أفراد قبيلة بني جهينة التي كانت تقيم بين المدينة والبحر الأحمر مثلا لهؤلاء الدعاة؛ فقد كان إسلامه قبل الهجرة من العام نفسه (٥هـ). وقد وصف إسلامه بقوله: «كان لنا صنم وكنا نعظمه، وكنا سادته، فلما سمعت بالنبي كسرته وخرجت حتى أقدم المدينة على النبي، فأسلمت وشهدت شهادة الحق وآمنت بما جاء به من حلال وحرام، فذلك حين أقول:

شهدت بأن الله حق وإنني ... لآلهة الأحجار أول تارك
وشمرت عن ساقي الإزار مهاجرا ... إليك، أجوب الوعث بعد الدكاءك
لأصحب خير الناس نفسا ووالدا ... رسول مليك الناس فوق الحبائك

فبعثه رسول الله إلى قومه يرغب في الإسلام، فتكللت جهوده بالنصر حتى لم يبق هناك إلا رجل واحد هو الذي استعصى على الترغيب[2].

---

(1) ابن إسحاق ص ٩٤٣-٩٤٤ وتعتمد هذه القصة على بعض مصادر مشكوك في صحتها، انظر **Caetani, vol, i. p.610**.

(2) ابن سعد ١١٨.

ولما جعل صلح الحديبية في السنة السادسة للهجرة الصلات الودية مع أهل مكة أمرا ممكنا، خرج إلى المدينة لاعتناق الإسلام كثيرون من أصحاب هذه البلد الذين كانوا قد أتيحت لهم فرصة الاستماع لدعوة مُحَمَّد في مستهل بعثته، ومن هؤلاء رجال من ذوي النفوذ والسلطان.

وكانت الحروب المتصلة التي شنها الرسول على أهل مكة قد جعلت حتى ذلك الحين القبائل التي كانت تقيم جنوبي هذه المدينة بعيدين بعدا يكاد يكون تاما عن سلطان الدين الجديد، ولكن هذه الهدنة قد جعلت الاتصال مع بلاد العرب الجنوبية أمرا ميسورا في ذلك الحين، فجاء وفد صغير من قبيلة بني دوس من تلك الجبال التي تتاخم بلاد اليمن وانضموا إلى النبي في المدينة. ونجد قبل ظهور مُحَمَّد بقليل جماعة من هذه القبيلة مزودين بلمحات من ديانة أرقى من الوثنية التي كانت منتشرة فيمن حولهم، وكانوا يرون أن هذا العالم لا بد له من خالق، ولو أنهم لم يهتدوا إليه. فلما بعث مُحَمَّد رسولا من قبل هذا الخالق، قدم أحدهم واسمه طفيل بن عمرو، إلى مكة ليقف على حقيقة هذا الخالق.

وبالرغم من أن قريشا حذرته مما قد يتركه مُحَمَّد في نفسه من تأثير خطير إذا ما تحدث إليه، فقد تبع النبي إلى بيته بعد أن رآه يصلي في الكعبة، فشرح له النبي تعاليم الإسلام، وقد أصبحت نفس طفيل تفيض تحمسا لهذا الدين الجديد. فلما رجع إلى بلده أفلح في هدي أبيه وزوجه، ولكنه وجد قومه غير راغبين في ترك عبادتهم الوثنية القديمة. فعاد النبي وقد استولى عليه اليأس مما أصابه من الإخفاق في دعوته، وطلب إليه أن يستنزل لعنة الله على بني دوس، ولكن النبي شجعه على المثابرة بقوله: «ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم». وفي الوقت نفسه دعا لهم النبي بقوله: «اللهم اهد دوسا». وقد بلغ من نجاح طفيل في بث الدعوة إلى الإسلام أنه وفد على المدينة في السنة السابعة للهجرة ومعه عدد يتراوح بين السبعين والثمانين أسرة من قومه كان الإسلام قد ظفر بانضمامهم إليه، وبعد أن دخل النبي مكة دخول الظافر أشعل طفيل النار في كتلة من الخشب، وهي الصنم

الذي كانت قبيلته تنظر إليه نظرة التبجيل والتعظيم حتى ذلك الحين[1].

وفي السنة السابعة للهجرة دخلت خمس عشرة قبيلة أخرى في طاعة النبي، ثم تمت الغلبة للإسلام بعد فتح مكة في السنة الثالثة للهجرة، وبادر إلى مبايعته على هذا الدين الجديد هؤلاء العرب الذين كانوا قد تخلفوا عن الدعوة وكانوا يقولون: «دعوا محمدًا يقاتل قومه نجح فهو نبي حقا»[2]. ومن هؤلاء الذين وفدوا على النبي بعد فتح مكة طائفة كانوا أشد الناس اضطهادا للنبي في الأيام الأولى من بعثته، ولكنه بوأهم بصبره الجميل وعفوه الكريم مكانا من الأخوة الإسلامية.

وشهدت السنة التالية استشهاد عروة بن مسعود أحد زعماء أهل الطائف، تلك المدينة التي حاول المسلمون أن يستولوا عليها دون جدوى. فقد كان عروة في ذلك الحين غائبا باليمن، ثم رجع من رحلته بعد الحصار بقليل، وكان قد قابل النبي في الحديبية قبل ذلك بعامين وبالغ في تعظيمه، والآن يفد على المدينة ليعتنق الدين الجديد، وقد تطوع بدافع حماسته الملتهبة للذهاب إلى الطائف لتحويل عشيرته إلى الإسلام. وعلى الرغم مما بذله النبي من جهود في ثنيه عن هذه المهمة الخطيرة، رجع إلى بلده، وأعلن نبذ عبادة الأصنام، ثم دعا الناس إلى الاقتداء به. وبينما كان يقوم بنشر دعوته إذا بسهم يصيب منه مقتلا، فمات وهو يحمد الله على أن وهب له شرف الاستشهاد، وبعد سنة تقريبا قام صحابي آخر بنشر الدعوة في اليمن، وكان أكثر توفيقا في هذه السبيل. وفيما يلي وصف دقيق عن هذه الدعوة: «كتب رسول الله إلى الحارث ومسروح ونعيم بن عبد كلال من حمير. «سلم أنتم ما آمنتم بالله ورسوله، وأن الله وحده لا شريك له بعث موسى بآياته وخلق عيسى بكلماته. وقالت اليهود «عزير ابن الله» وقالت النصارى «الله ثالث ثلاثة، عيسى ابن الله». (قال): وبعث بالكتاب مع عياش ابن ربيعة المخزومي، وقال:

"وإذا جئت أرضهم فلا تدخلن ليلا حتى تصبح، ثم تطهر فأحسن طهورك وصل

---

(1) ابن إسحاق ص٢٥٢-٢٥٤.

(2) Caetani, vol.ii. t,I p.341.

ركعتين، وسل الله النجاح والقبول واستعذ بالله وخذ كتابي بيمينك، وادفعه بيمينك في أيمانهم فإنهم قابلون واقرأ عليهم: {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ} [البينة:١]. فإذا فرغت منها فقل آمن مُحَمَّد وأنا أول المؤمنين، فلن تأتيك حجة إلا دحضت ولا كتاب زخرف إلا ذهب نوره، وهم قارئون عليك فإذا رطنوا فقل «ترجموا» وقل «حسبي الله آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير». فإذا أسلموا فلهم قضبهم الثلاثة التي إذا حضروا بها سجدوا وهي من الأثل، قضيب ملمع ببياض وصفرة، وقضيب ذو عجر كأنه خيرزان، والأسود البهيم كأنه من سأسم ثم أخرجها فحرقها بسوقهم». قال عياش «فخرجت أفعل ما أمرني رسول الله حتى إذا دخلت إذا الناس قد لبسوا زينتهم. قال فمررت لأنظر إليهم حتى انتهيت إلى ستور عظام على أبواب دور ثلاثة، فكشفت الستر ودخلت الباب الأوسط، فانتهيت إلى قوم في قاعة الدار فقلت: أنا رسول رسول الله، وفعلت ما أمرني فقبلوا وكان كما قال النبي ﷺ)(١).

وفي السنة التاسعة للهجرة وفد على النبي ثلاثة عشر رجلا من بني كلاب، وهم فرع من بني عامر بن صعصعة، وأخبروه أن أحد صحابته وهو الضحاك بن سفيان قد سار فيهم بالقرآن وسنة الرسول، وأن قومهم قد استجابوا بدعوته للدين الجديد(٢). كذلك أسلم فرع آخر من القبيلة نفسها وهم بنو رؤاس بن كلاب على يد واحد منهم يقال له عمرو بن مالك، وكان في المدينة، واعتنق الإسلام ثم عاد بعد ذلك إلى عشيرته وحضهم على الاقتداء بهم (٣).

وفي هذه السنة نفسها قام رجل حديث العهد بالإسلام وهو واثلة بن الأسفع بمحاولة لم تصادف نجاحا كبيرا، إذ أخذ يرغب قومه في الإسلام، وكان قد اعتنقه بعد أن

---

(١) ابن سعد ٨٥

(٢) نفس المرجع ٨٦.

(٣) نفس المرجع ٩١.

لقي النبي مرة، وكان قد طرده أبوه في احتقار وازدراء وقال له: «والله لا أكله أ بدا، ولم يجد راغبا فيما دعا إليه من تعاليم إلا أخته جهزته للرجوع إلى النبي بالمدينة، وكانت تسمى هذه السنة التاسعة للهجرة بعام الوفود لأن عددا كبيرا من القبائل العربية وأهالي المدن أرسلوا إلى النبي وفادات تعلن خضوعها وتسليمها، وكان دخول مبدأ جديد من الوحدة القبلية القديمة، تلك الفكرة التي أقامت بناء المجتمع العربي على أساس قرابة الدم. وكان إسلام الفرد ودخوله في المجتمع الجديد هدما لأهم قوانين الحياة العربية الأساسية، كما كانت كثرة دخول العرب في الإسلام من العوامل القوية التي أدت إلى تفكيك النظام القبلي وتركه ضعيفا أمام حياة قومية شديدة التعصب قوية التماسك، كذلك الحياة التي صار إليها المسلمون.

وهكذا اضطرت القبائل العربية إلى أن تذعن للنبي، لا لمجرد أنه رئيس لأقوى قوة عسكرية في بلاد العرب، بل لأنه رمز لمذهب حياة اجتماعية كان يجعل كل خارج عليه ضعفا عديم التأثير[١]. وكان مُحَمَّد قد أفلح في أن يدخل في مجتمع عصره الذي كان مليئا بالفوضى وسوء النظام شعورا بالوحدة القومية وإدراكا للحقوق والواجبات، كل نحو الآخر، على نحو لم يعرفه العرب من قبل [٢] وبهذه الطريقة كان الإسلام يوحد بين عشائر كانت حتى ذلك الحين في نزاع مستمر بعضها مع بعض. وبينما كان هذا الاتحاد العظيم ينمو ويطرد، نراه في الوقت نفسه يجتذب المستضعفين من قبائل العرب شيئًا فشيئًا، وكثيرا ما نجد في القصص التي وردت عن إسلام القبائل العربية ذكر ما كان يعدهم به النبي من حمايته إياهم من أعدائهم، تلك الوعود التي كانت تبذل لهم في حالة تسليمهم لدعوته. وقد عبر أحد أفراد القبائل العربية عن حزنه عندما بلغه خبر وفاة النبي بقوله: "واأسفاه على مُحَمَّد، لقد عشت في سلام وأمن من أعدائي ما كان حيا".

ولا بد أن تكون هذه الصيحة قد وجدت صدى بعيدا في كافة أرجاء الجزيرة

---

(١) انظر **Spreger, vol.iii. pp. 360- 361**.

(٢) **Caetani, vol. ii, p.433**.

العربية. وربما كان انتشار الردة بين قبائل عربية كثيرة انتشارا واسعا بعد وفاة الرسول مباشرة دليلا على مدى سطحية مشايعة هذه القبائل للإسلام، والظاهر أن قبولهم للإسلام كان في أحوال كثيرة أقرب إلى أن يكون وليد اعتبارات سياسية ومساومات ناشئة عن ضغط القوة والعنف، أكثر منه وليد حماسة ويقظة روحية. فقد سمحوا لأنفسهم أن ينجرفوا في هذا التيار الذي كان قد أصبح في ذلك الحين حركة قومية عظيمة، وهنا لا نلمس في هؤلاء الذين أسلموا بعد فتح مكة تلك الحماسة الدافقة التي كنا نجدها لدى السابقين إلى الإسلام، إلا أنه ظهر من بين هؤلاء كثيرون زادوا في صفوف المؤمنين الخلص مدفوعين بحماسة حقيقية في إعلاء شأن الدين، ومستعدين، كما رأينا، لبذل نفوسهم في سبيل بث الدعوة بين إخوانهم. وكان هؤلاء الرجال ورثة النبي الصادقين الصالحين، ورسل الإسلام فيما بعد، والأوصياء والأوفياء على كل ما أنزله الله للناس على مُحَمَّد. لقد تغلغل في نفوسهم خلال ملازمتهم للنبي وولائهم له لون جديد من الوجدان والتفكير، هو في الواقع أسمى وأرقى ما ألفوه من قبل بين إخوانهم.

«كان هؤلاء الرجال ورثة النبي الصادقين الصالحين، ورسل الإسلام فيما بعد، والأوصياء والأوفياء على كل ما أنزله الله للناس على مُحَمَّد. لقد تغلغل في نفوسهم خلال ملازمتهم للنبي وولائهم له لون جديد من الوجدان والتفكير. هو في الواقع أسمى وأرقى مما ألفوه من قبل. إنهم انتقلوا في الحقيقة إلى حالة أحسن مما كانوا عليها من جميع الوجوه. وفي أحرج أوقات مُحَمَّد وتعاليمه كانت قد ألقت بزورها في تربة خصبة، فأنتجت جماعة من أعظم الرجال قدرا؛ فكانوا الحفظة على نصوص القرآن المقدسة، وهم وحدهم الذين وعوها عن ظهر قلب، وهم الحواس المتحمسون لحفظ كل ما روى عن النبي من كلام ووصايا، والأمناء على تراث مُحَمَّد الأدبي. ولقد تألفت من هؤلاء الرجال جماعة الإسلام المجلة الذين انبثقت منهم يوما طبقة الأجلاء من أوائل الفقهاء والأصوليين والمحدثين في المجتمع الإسلامي[1].

وكان طبيعيا أن نرى حركة واسعة كهذه الحركة لا تستطيع أن تؤلف بين هؤلاء الناس جميعا، وقليل جدا الذين سلموا من الصدمة التي منيت بها هذه الحركة بوفاة النبي، إذ لا يعزب

(1) Caetani, vol.ii.p.429.

عن البال كيف ظهر جليا أن الإسلام حركة حديثة العهد في بلاد العرب الوثنية، وكيف كانت تتعارض المثل العليا في هذين المجتمعين تعارضا تاما [1]. ذلك أن دخول الإسلام في المجتمع العربي لم يدل على مجرد القضاء على قليل من عادات بربرية وحشية فحسب، وإنما كان انقلابا كاملا لمثل الحياة التي كانت من قبل.

وهناك الدليل القاطع على ما تتسم به تعاليم مُحَمَّد من صفة تبشيرية أساسية، ذلك النبي الذي أصبح رمزا لأسلوب جديد. فمن الحق أن مُحَمَّدا لم يجد المجتمع في عصره مهيأ لقبول دعوة معلم جديد، فضلا عن دعوة من يأتيهم بلقب رسول الله (الذي لم يكن مفهوما لديهم). وكذلك كانت المساواة بين المؤمنين في الإسلام وما ساد بينهم جميعا من أخوة مشتركة لا تسمح بوجود فوارق بين عربي وعجمي أو بين حر وعبد ممن اعتنقوا الإسلام، فكرة عارضت في الصميم نعرة الشعور القبلي عند العربي الذي بنى احترامه الشخصي على شهرة أجداده، ومضى اقتداءً بهم في إثارة النزاع الدموي الدائم الذي كان يلتمس فيه اللذة والسرور. والواقع أن المبادئ الأساسية في دعوة مُحَمَّد كانت تعارض كثيرا ما كان ينظر إليه العرب نظرة ملؤها التقدير والإجلال حتى ذلك الحين، كما أنها كانت تعلم حديثي العهد بالإسلام أن يعدوا من الفضائل صفات كانوا قبل إسلامهم ينظرون إليها نظرة الاحتقار. وكانت الصداقة والعداوة في نظر العربي الجاهلي دينا يجد في أدائه عن رغبة، وكان يتباهى برد الشر بالشر، وينظر إلى كل من يسلك خلاف ذلك نظرته إلى كل نذل ضعيف.

ولقد خاطب النبي أمثال هؤلاء بقول الله تعالى:{ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [المؤمنون:٩٦]. فإذا أحبوا أن يغفر الله لهم فليعفوا وليصفحوا (سورة ٢٤ آية ٢٢) وأعدت للكاظمين الغيظ والعافين عن الناس جنات عرضها السموات والأرض (سورة ٣ آية ١٢٨). وكان مجرد فرض الصلاة مثار سخرية بين هؤلاء العرب الذين وجه إليهم مُحَمَّد رسالته أول الأمر. وكان من أشق مراحل رسالته أن يوجه تفكيرهم وجهه دينية نحو الخالق.. الشيء الذي كان يغرسه الإسلام في النفوس كما كانت اليهودية والمسيحية، إلا أنه لم يكن في الواقع معروفا لدى الوثنيين من العرب، فإن ما اتصفوا به من هذا الاعتماد على النفس، وذلك النقص في الروح الدينية،

---

(١) وليس هناك بحث لهذه المسألة أكثر شمولا وأعظم قيمة مما كتبه الأستاذ إجنانش جولد نصيهر في مؤلفه العلمي النفيس (Muhammedanische Studien, vol.i). وقد استثنينا له ما سنذكره من معلومات.

فضلا عن مباهاتهم البالغة بالجنس، لم يجعلهم مهيئين تمام التهيؤ لتلقي تعاليم الرجل الذي خاطبهم قائلا {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات:١٣].

ولم يعد هؤلاء يحتملون هذه القيود التي جد الإسلام في فرضها على حريتهم في الحياة؛ فالخمر والنساء والغناء كانت من أحب الأشياء إلى قلب العربي في الجاهلية، وكان النبي صارما شديدا في نواهيه الخاصة بكل منها. وهكذا حمل الإسلام منذ البداية طابع الدين الذي يقوم على الدعوة ويسعى لجذب قلوب الناس لتحويلهم إليه وحثهم على الدخول في زمرة المؤمنين، وكما كانت الحال في مبدأ الأمر كذلك ظلت على هذا النحو إلى اليوم؛ وهذا هو الغرض الذي قصدنا إلى توضيحه في الصفحات التالية:

الباب الثالث

انتشار الإسلام بين الشعوب المسيحية في آسيا الغربية

بعد وفاة محمد أرسل أبو بكر الجيش الذي كان النبي قد عزم على إرساله إلى مشارف الشام، على الرغم من معارضة بعض المسلمين، بسبب الحالة المضطربة في بلاد العرب إذ ذاك؛ فأسكت احتجاجهم بقوله: «لا أرد قضاء قضى به رسول الله، ولو ظننت أن السباع تختطفني لأنفذت جيش أسامة كما أمر النبي». وكانت هذه هي أولى تلك السلسلة الرائعة من الحملات التي اجتاح العرب فيها سورية وفارس وإفريقية الشمالية، فقوضوا دولة فارس القديمة وجردوا الإمبراطورية الرومانية من أجمل ولاياتها. ولا يدخل في نطاق هذا الكتاب أن نتتبع تاريخ هذه الحملات المختلفة، بل يجدر بنا – فيما يتعلق بانتشار العقيدة الإسلامية التي تبعت الفتوحات العربية – أن نكشف عن هذه الظروف التي جعلت مثل هذا التوسع أمرا ممكنا.

وقد أجاد مؤرخ كبير، عرض المشكلة التي تواجهنا هنا في الكلمات الآتية:

"هل كانت الحماسة الدينية الخالصة، تلك القوة الجديدة لعقيدة كانت إذ ذاك ولأول مرة آخذة في الازدهار، صافية تمام الصفاء، هي التي أمدت جيوش العرب بالنصر في كل موقعة من المواقع وأقامت في مثل هذا الزمن القصير أعظم إمبراطورية شهدها العالم؟"

لكن الدليل يعوزنا لنثبت أن الحالة كانت كذلك؛ إذ كان عدد هؤلاء الذين بايعوا النبي، وقبلوا تعاليمه عن حرية واقتناع ضئيلا جدا، على حين تجد من ناحية أخرى أن الأكثرية كانت تتألف من هؤلاء الذين لم ينضووا تحت لواء المسلمين إلا عن طريق الضغط عليهم أو طمعا في نفع دنيوي. وقد عبر خالد – وهو سيف من سيوف الله – في أسلوب جد مؤثر عن هذا المزيج من القوة والإقناع، الذي أسلم عن طريقه هو وكثير من

قريش حين قال: "إن الله أخذ بهم من قلوبهم ونواصيهم، وأرادهم على أن يتبعوا النبي". وكذلك كان لشعورهم بالاعتزاز بقومية مشتركة أثر كبير، وكان ذلك الشعور أشد حيوية بين العرب في ذلك الوقت منه بين أي شعل آخر، وقد حمل هذا الشعور وحده آلافا مؤلفة، على أن يؤثروا مواطنهم ودينه على غيره من الغرباء الداعين إلى أديان أخرى.

وكان أقوى من ذلك جذبا لهم إلى الإسلام أملهم الوطيد في الحصول على غنائم كثيرة في جهادهم في سبيل الدين الوحيد، ثم أملهم في أن يستبدوا بصحاريهم الصخرية بالجرداء التي لم تتح لهم إلا حياة تقوم على البؤس، بتلك الأقطار ذات الترف والنعيم وهي فارس والشام ومصر. ومن المؤكد أن هذه الفتوح الهائلة التي وضعت أساس الإمبراطورية العربية لم تكن ثمرة حرب دينية قامت في سبيل نشر الإسلام، وإنما تلتها حركة ارتداد واسعة عن الديانة المسيحية، حتى لقد ظن دائما أن هذا الارتداد كان الغرض الذي يهدف إليه العرب. ومن هنا أخذ المؤرخون المسيحيون ينظرون إلى السيف على أنه أداة للدعوة الإسلامية، وفي ضياء النصر الذي عزى إليه حجبت مظاهر النشاط الحقيقي للدعوة. ولكن الروح التي دفعت جحافل العرب الغازية، تلك الجحافل التي تدفقت على حدود دولتي الروم والفرس، لم تكن روح تحمس وغيره ترمي إلى تلقين الدعوة ابتغاء تحويل الناس إلى الإسلام، بل كان الأمر على العكس من ذلك، فإن البواعث الدينية، كما يظهر، لم تكن قد تسربت إلا قليلا في نفوس أبطال الجيوش العربية[١].

ويعتبر توسع الجنس العربي على أصح تقدير، هجرة جماعة نشيطة قوية البأس دفعها الجوع والحرمان، إلى أن تهجر صحاريها المجدية، وتجتاح بلادا أكثر خصبا كانت ملكا لجيران أسعد منهم حظا[٢].

وقد ظلت الحكومة الدينية القائمة في المدينة ومن بعدها الدولة الجديدة التي أنشأها

---

(١) **Caetani, Studi di Storia, Oriental, I, p.365 sqq. (Milano, 1911)**

(٢) وقد أجاد كيتاني إجادة فائقة في تفسير هذه الفتوحات العربية على أنها آخر هجرة من الهجرات السامية. ج٢ ص٨٣١–٨٦١.

صحابة النبي الأصفياء وأمناء دعوته الأوفياء، هؤلاء الذين استطاعوا بفضل غيرتهم وخلقهم القوي أن يحفظوا الإسلام حيا كدين رسمي، بالرغم من فتور أولئك العرب الذين لم يكن إسلامهم إلا إسلاما اسميا[١]. ومن أجل هذا يجب أن لا نتلمس الأسباب التي أدت إلى مثل هذا الانتشار السريع للعقيدة الإسلامية في أخبار الجيوش الفاتحة، بل الأجدر أن نفتش عن ذلك في الظروف التي كانت تحيط بالشعوب المغلوبة على أمرها.

وقد كان الطابع القومي لهذا التوسع الجنسي يجذب بطبيعة الحال إلى جيوش الغزوات العربية ممثلي العنصر العربي الذي كانوا يقيمون في أطراف الجزيرة، والذين كانت جيوش الفتح تتخذ في بلادهم ممرا تنفذ منه إلى البلاد التي يريدون غزوها. ومن ثم لم يكن غريبا أن نجد كثيرا من البدو والمسيحيين ينجرفون في التيار الدافع لهذه الحركة الضخمة، وأن نجد كثيرا من القبائل العربية التي دانت بالمسيحية قرونا قد نبذتها في ذلك الوقت لتدين بالإسلام. وكان من بين هؤلاء قبيلة بني غسان الذين بسطوا نفوذهم على الصحراء الممتدة شرقي فلسطين وجنوبي سورية، والذين كان يقال عنهم إنهم «أرباب في الجاهلية نجوم في الإسلام»[٢]. وبعد موقعة القادسية (١٤هـ) التي انهزم فيها الجيش الفارسي بقيادة رستم هزيمة منكرة، وفد على قائد المسلمين كثير من المسيحيين الذين ينتمون إلى قبائل البدو التي كانت تقيم على ضفاف نهر الفرات، وقالوا إن القبائل الذين سبقوا إلى الإسلام، كانوا أصوب منا رأيا، واليوم وقد قتل رستم فلندخل في الدين[٣]. وشبيه بهذا، أنه بعد فتح شمال الشام انضمت معظم القبائل البدوية بعد شيء من التردد إلى أتباع النبي[٤].

ويمكننا أن نحكم من الصلات الودية التي قامت بين المسيحيين والمسلمين من العرب بأن القوة لم تكن عاملا حاسما في تحويل الناس إلى الإسلام؛ فمحمد نفسه قد عقد حلفا مع بعض القبائل المسيحية، وأخذ على عاتقه حمايتهم ومنحهم الحرية في إقامة

---

(١) تكونت في المدينة جماعة Caetani, vol. ii. P. 455; vo0l.P511. دينية لا يستهان بها تتألف من عناصر مختلفة، ولكن السواد الأعظم منها كان من أهل المدينة الذين اعتنقوا الإسلام عن يقين وإخلاص فأخذوا يحافظون على التعاليم الجديدة اعتقادا منهم بأنهم بذلك يرضون ضمائرهم ويحترمون إرادة النبي.

(٢) المسعودي ج٤، ص٢٣٨.

(٣) Muir's Caliphate, pp.121-122.

(٤) Caetani, vol. ii.pp. 260, 299, 351.

شعائرهم الدينية، كما أتاح لرجال الكنيسة أن ينعموا بحقوقهم ونفوذهم القديم[1] في أمن وطمأنينة وقد وحد حلف كهذا بين أتباع النبي وبين مواطنيهم الذين كانوا يدينون بالوثنية دينهم القديم، والذين تقدم كثير منهم عن طواعية لمؤزارة المسلمين في حملاتهم الحربية، وأظهروا للحكومة الجديدة نفس روح الولاء التي جعلتهم يقفون بمنأى عن الردة التي رفعت لواء العصيان في كافة أرجاء بلاد العرب على أثر وفاة النبي[2]. وقد زعم بعض الباحثين أن العرب المسيحيين الذين كانوا يخفرون حدود الإمبراطورية البيزنطية الواقعة على أطراف الصحراء، ألقوا بجموعهم مع جيش الفتح الإسلامي حين رفض هرقل دفع الجزية التي تعود إعطاءها إياهم مقابل خدماتهم الحربية التي كانوا يؤدونها باعتبارهم حراسا للحدود[3].

وفي موقعة الجسر (سنة ١٣هـ) حين أوشكت الهزيمة المنكرة أن تحل بالعرب الذين أخذ الفزع منهم كل مأخذ، وقد حضروا بين الفرات والجيش الفارسي، إذا بزعيم مسيحي محن بني طيء ينضم إلى المثنى القائد المسلم كما انضم سبوريوس لارتيوس Spurius Lartius إلى جانب هوراتيوس Horatius من قبل ليساعد في الدفاع عن الجسر الذي كان يتألف من القوارب، والذي استطاعوا عن طريقه وحده أن يرتدوا ارتدادا منظما. وحينما جمعت جموع جديدة لترد عار هذه الهزيمة، كان من بين الإمدادات التي تدفقت من كل فج قبيلة بني النمر النصرانية التي كانت تقيم داخل أراضي الدولة البيزنطية. وفي موقعة بويب التي تلتها سنة ١٣هـ وقبيل هجوم العرب الأخير الذي حول مصير المعركة إلى جانبهم، استوى المثنى على فرسه وتوجه إلى القائد المسيحي وقال له «إنك امرؤ عربي فإذا حملت فاحمل معي»، فارتد الفرس أمام هجومهم المروع، وأضيف بذلك نصر كبير إلى سلسلة الانتصارات الإسلامية الرائعة، وفي ذلك اليوم قام بأعظم الأعمال بسالة غلام من قبيلة نصرانية أخرى من قبائل البدو، وكان قد جمع مع أصحابه، وهم جماعة من

---

(١) Id. PP. 792-3, vol, iiii: p.253

(٢) Id.pp. 111-15.

(٣) Caetani, vol.iii.p.814 (323)

فرسان البدو في الوقت الذي كان الجيش العربي يتهيأ للقتال. فألقوا بأنفسهم في المعركة في جانب قومهم، وبينما الصراع يزداد عنفا إذا بهذا الغلام يندفع إلى قلب الفرس، ويقتل قائدهم، ثم يستوي على فرسه المطهمة ويرجع بها ركضا وسط إعجاب صفوف المسلمين صائحا في انتصار وهو يمر بهم: «أنا الغلام التغلبي، أنا قتلت المرزبان»[١].

وكانت القبيلة التي افتخر هذا الشباب بانتسابه إليها إحدى القبائل التي آثرت أن تظل على المسيحية، بينما أسلمت قبائل أخرى من تلك التي كانت تسكن بلاد ما بين النهرين مثل بني النمر وبني قضاعة. وقد بادرت بنو تغلب فأرسلت وفدا إلى النبي في سنة ٩هـ. واعتنق أفراد هذا الوفد الذين كانوا يدينون بالوثنية بنو تغلب فأرسلت وفدا إلى النبي في سنة ٩هـ. واعتنق أفراد هذا الوفد الذين كانوا يدينون بالوثنية الدين الإسلامي، وعقد النبي مع المسيحيين منهم معاهدة سمح لهم فيها بأن يحتفظوا بدينهم القديم، ولكن هذه المعاهدة لم تسمح لهم بتعميد أبنائهم. وإن مثل هذا الشرط الذي يختلف تمام الاختلاف عن سياسة التسامح التي تعود أن يسير عليها إزاء العرب المسيحيين الذين سمح لهم بأن يختاروا بين الإسلام ودفع الجزية ولم يرغموا قط على ترك دينهم، قد بعث على الظن بأن الأسر المسيحية من بني تغلب هي التي اقترحت هذا الشرط من تلقاء نفسها بدوافع اقتصادية [٢].

ويدل بقاء المسيحية طويلا في هذه القبيلة على أن الشرط لم يكن معمولا به في حقيقة الأمر. وقد حرم الخليفة عمر استخدام أية وسيلة من وسائل الضبط عليهم عندما أظهروا أنهم لا يرغبون في ترك دينهم القديم. وأمر بترك الحرية لهم في إقامة شعائرهم الدينية، على ألا يقفوا في سبيل أي فرد من أفراد قبيلتهم يرغب في التحول إلى الإسلام أو يعمدوا وليدا ممن أسلم آباؤهم[٣]، وقد طلب إلى بني تغلب أن يدفعوا الجزية[١] أو

(١) Muir: Caliphate, PP. 90-4.

(٢) Caetani, vol. ii.p.299. Wellhausen, iv. P.156 (N.5)

(٣) الطبري ج١ ص٢٤٨٢.

الضريبة المفروضة على الرعايا من غير المسلمين، ولكنهم شعروا أن من الإذلال لكبريائهم والحط من كرامتهم أن يدفعوا ضريبة فرضت عليهم مقابل حمايتهم وحماية أموالهم، فالتمسوا من الخليفة أن يسمح لهم بأن يعاملوا معاملة المسلمين في دفع الضرائب، لذلك نراهم يؤدون في مقابل الجزية صدقة أو زكاة[٢] مضاعفة، وهي ضريبة كانت تجي من المسلمين على أراضيهم وماشيتهم وما إلى ذلك، لتنفق على الفقراء [٣].

وقد ضايق المسلمين وحز في نفوسهم بوجه خاص أن يروا أي فرد من العرب يسمح له بأن يظل مخلصا للمسيحية. وقد أسلم السواد الأعظم من بني تنوخ في السنة الثانية عشرة للهجرة عندما أذعنوا لخالد بن الوليد[٤] مع غيرهم من قبائل العرب المسيحية، ولكنه يظهر أن بعضهم ظل على عقيدته القديمة قرابة قرن ونصف قرن حيث إن الخليفة المهدي (١٥٨– ١٦٩هـ) رأى نفرا منهم يقيمون بظاهر حلب، فلما علم أنهم من المسيحيين أمرهم – وهو في سورة من الغضب – أن يعتنقوا الإسلام فأجابوا، وكان عددهم خمسة آلاف شخص، وآثر أحدهم الاستشهاد على الارتداد عن دينه[٥]. أما فيما يتعلق بالسواد الأعظم من هؤلاء المسيحيين فإن الأخبار الخاصة بزوال المسيحية من بين القبائل العربية النصرانية التي كانت تقيم في بلاد العرب الشمالية لا تزال بحاجة إلى شيء من التفاصيل؛ والظاهر أنهم قد انتهوا إلى الامتزاج بالمجتمع الإسلامي الذي كان

---

(١) ولدراسة الجزية دراسة مستفيضة مبنية على ترتيب عقد واختبار دقيق لكل المواد التاريخية التي أمكنه الحصول عليها، راجع كيتاني ج٥ ص٣١٩ وما يليها، ولدراسة مصر في خلال القرن الأول من الحكم الإسلامي فليراجع ما ذكره بل **Bell** ص١٦٧ وما يليها. وبكر **Becker** في كتابه **Beitrage zur Geschichte Aegyptens unter dem Islam, P.81 sqq.**

(٢) يعتقد كيتاني (ج٤ ص٢٢٧) أن هذه القصة من اختراع عصر متأخر، وضعت لتفسير استثناء هذه القبيلة المسيحية في معاملتها معاملة المسلمين من الناحية المالية.

(٣) وقد جمع لامانس الإشارات القليلة البسيطة التي تتعلق بهذه القبيلة من كتب مؤرخي العرب وذلك في كتابه **Le Chanredes Omie des (J. A. ix ser., tome iv.pp.97-9, 438-59)** وراجع أيضًا كيتاني ج٤ ص٢٢٧ وما بعدها.

(٤) كيتاني ج٢ ص١١٨٠.

(٥) ابن العبري (٣) ص١٣٤– ١٣٥.

يحيط بهم عن طريق ما يسمونه (الاندماج السلمي) الذي تم بطريقة لم يحسها أحد منهم: ولو أن المسلمين حاولوا إدخالهم في الإسلام بالقوة عندما انضووا بادئ الأمر تحت لواء الحكم الإسلامي لما كان من الممكن أن يعيش المسيحيون بين ظهرانيهم حتى عصر الخلفاء العباسيين[1].

كذلك قاوم أهل الحيرة كل الجهود التي قام بها خالد لحملهم على قبول العقيدة الإسلامية، وكانت هذه المدينة من أشهر المدن في تاريخ بلاد العرب، فبدا لبطل الإسلام المغوار أن الإهابة بدمهم العربي كافية لإغرائهم بأن ينتظموا في اتباع نبي الجزيرة العربية، ولما أرسل أهل هذه المدينة المحاصرون سفراءهم إلى قائد المسلمين للنظر في شروط تسليم مدينتهم، سألهم خالد: «ما أنتم، أعرب؟ فما تنقمون من العرب؟ أو عجم؟ فما تنقمون من الإنصاف والعدل؟" فقال له عدي، وقد فرض إليه الوفد أن يتحدث بلسانهم: «بل عرب عاربة وأخرى متعربة». قال خالد: «لو كنتم كما تقولون لم تحادونا وتكرهوا أمرنا؟». قال عدي: «ليدلك على ما نقول أنه ليس لنا لسان إلا بالعربية»، قال له خالد: «صدقت. اختاروا واحدة من ثلاث: أن تدخلوا في ديننا لكم ما لنا وعليكم ما علينا إن نهضتم وهاجرتم، وإن أقمتم في دياركم؛ أو الجزية؛ أو المنابذة والمناجزة. فقد والله أتيتكم بقوة هم على الموت أحرص منكم على الحياة». فقال عدي: «بل نعطيك الجزية» قال خالد: «تبا لكم! ويحكم! إن الكفر فلاة مضلة، فأحمق العرب من سلكها، فلقيه دليلان، أحدهما عربي فتركه واستذل الأعجمي»[2].

وقد أمد الخليفة هؤلاء الذين دخلوا حديثا في الإسلام بما ينبغي أن يمدهم به من علماء يلقنونهم مبادئ الدين لأنه لما كانت القبائل بأجمعها تدخل في الإسلام بمثل هذه السرعة كان من الضروري أن يأخذوا الحيطة اتقاء ما يحدث من أخطاء سواء من ناحية العقيدة أو الشعائر الدينية، وكان من الطبيعي أن تكون هذه الأخطاء مصدر خوف إذا ما

---

(1) Caetani, vol. ii, p.0828.

(2) المسعودي ج٤ ص٢٥٦.

ترك هؤلاء الذين دخلوا في الإسلام لا يعرفون تعاليم هذا الدين صحيحة، ومن ثم نرى الخليفة عمر يعين في كل بلد معلمين مهنتهم أن يعلموا الناس القرآن ويفقهوهم في الدين. وكذلك أمر العمال أن يستيقنوا من أن جميع المسلمين صغارا وكبارا يواظبون على حضور صلاة الجماعة لا سيما في أيام الجمع وفي شهر رمضان، ونستطيع أن نحكم على ما كان لتفقيه من دخلوا في الإسلام حديثا من أهمية من أن هؤلاء الذين عهد إليهم بهذا العمل في مدينة الكوفة كانت شخصيتهم لا تقل عن شخصية عهد إليهم بالولاية على بيت المال(١).

ومن هذه الأمثلة التي قدمناها آنفا عن ذلك التسامح الذي بسطه المسلمون الظافرون إلى العرب المسيحيين في القرن الأول من الهجرة، واستمر في الأجيال المتعاقبة، نستطيع أن نستخلص بحق أن هذه القبائل المسيحية التي اعتنقت الإسلام، إنما فعلت ذلك عن اختيار وإرادة حرة(٢). وأن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على هذا التسامح، قول لابارد **lavard** إنه صادف مخيما من العرب المسيحيين في مدينة الكرك، شرقي البحر الميت، لا يختلفون عن العرب المسلمين بحال ما سواء في الزي أو في العادات(٣). وقد أخبر رهبان طور سيناء بركارت **Burckhardt** أنه كان لا يزال هناك في القرن الماضي بعض أسر من البدو المسيحيين الذين لم يدخلوا في الإسلام وأن آخرهم كانت امرأة عجوزا مات سنة ١٧٥٠، ودفنت بحديقة الدير(٤).

ولا يزال كثيرون من قبيلة بني غسان الشهيرة يدخلون في الديانة المسيحية، وهم

---

(١) «لم يضهد العرب أحدا من السنوات الأولى من أجل الدين كما أنهم لم يعملوا على ضم أحد إلى دينهم، ومن ثم تمتع المسيحيون الساميون في ظل الإسلام، بعد الفتوح الأولى، بحرية لم يتمتعوا بها من قبل طيلة أجيال عديدة، **(Caetani, vol. v.p.4)**

(٢) **Sir Henry Layard: Early Adventure in Persia and Babylonia, vol. I, P.100. (Londo0n, 1887): R Hartman: Die Herrschaft von aL- Karak (Der Islam vol, vol, ii p.137).**

(٣) **Burckhardt (2), p.564.**

(٤) **W. G. Pa'grave: Essays on Eastern questions, pp.206-8 (London, 1872)**

من أشد القبائل أصالة في العروبة، دخلوا في المسيحية حول نهاية القرن الرابع الميلادي، ولا يزالون متمسكين بالدين المسيحي، ومنذ خضوعهم لكنيسة رومة منذ قرنين تقريبا، وهم يستخدمون اللغة العربية في طقوسهم الدينية.

وإذا ما تركنا الكلام على البدو، لننظر في موقف الأهالي الذين استقروا في المدن وموقف المجتمع غير العربي من الدين الجديد، وجدنا أن الفتح العربي لم يعقبه مثل هذا التحول السريع إلى الإسلام. ويظهر أن نصارى المدن الكبرى في الولايات الشرقية التابعة للدولة البيزنطية قد ظل أكثرهم على ولائهم لعقيدة آبائهم وأجدادهم التي لا تزال جموع ضخمة منهم تتعلق بأهدابها.

ولكي نستطيع أن نقدر حالة هؤلاء البدو الذين عاشوا في ظل الحكم الإسلامي تقديرا كاملا ونقف على قيمة المؤثرات التي أدت إلى تحول الناس إلى الإسلام من حين إلى حين، يحسن بنا أن نجتزئ بالإشارة إلى حالتهم في ظل الحكم المسيحي في عهد الدولة البيزنطية التي ولت الأدبار أمام السيوف العربية.

ولقد أفلح جستنيان **Justinian** قبل الفتح الإسلامي بمائة عام في أن يكسب الإمبراطورية الرومانية مظهرا من مظاهر الوحدة، ولكنها سرعان ما تصدعت بعد موته، وأصبحت في حاجة ماسة إلى شعور قومي مشترك يربط بين الولايات وحاضرة الدولة. أما هرقل فقد بذل جهودا لم تصادف نجاحا كاملا في إعادة ربط الشام بالحكومة المركزية، ولكن ما اتخذه من وسائل عامة في سبيل التوفيق قد أدى لسوء الحظ إلى زيادة الانقسام بدلا من القضاء عليه، ولم يكن ثمة ما يقوم مقام الشعور بالقومية سوى العواطف الدينية، فحاول بتفسيره العقيدة تفسيرا يستعين به على تهدئة النفوس أن يقف كل ما يمكن أن يشجر بعد ذلك بين الطوائف المتناحرة من خصومات، وأن يوجد بين الخارجين على الدين وبين الكنيسة الأرثوذكسية، وبينهم وبين الحكومة المركزية، وكان مجمع خلقيدونية قد أعلن في سنة ٤٥١م «أن المسيح ينبغي أن يعترف بأنه يتمثل في طبيعتين، لا اختلاط بينهما ولا تغير، ولا تجزؤ، ولا انفصال؛ ولا يمكن أن ينتفي اختلافهما بسبب اتحادهما،

بل الأحرى أن تحتفظ كل طبيعة منهما بخصائصهما، وتجتمع في أقنوم واحد وجسد واحد، لا كما لو كانت متجزئة أو منفصلة في أقتومين، بل متجمعة في أقنوم واحد، هو ذلك الابن الواحد والله والكلمة»،

وقد رفض اليعاقبة هذا المجتمع، وكانوا لا يعترفون في المسيح إلا بطبيعة واحدة، وقالوا إنه مركب الأقانيم، له كل الصفات الإلهية والبشرية، ولكن المادة التي تحمل هذه الصفات لم تعد ثنائية، بل أصبحت وحدة مركزية الأقانيم، وكان الجدل قد احتدم قرابة قرنين من الزمان بين طائفة الأرثوذكس وبين اليعاقبة الذين ازدهروا بوجه خاص في مصر والشام والبلاد الخارجية عن نطاق الإمبراطورية البيزنطية، في الوقت الذي سعى فيه هرقل في إصلاح ذات البين عن طريق المذهب القائل بأن للمسيح مشيئة واحدة **Montheletism** في الوقت الذي نجد هذا المذهب يعترف بوجود الطبيعتين إذ أنه يتمسك بوحدة الأقنوم في حياة المسيح البشرية، وذلك بإنكاره وجود نوعين من الحياة في أقنوم واحد؛ فالمسيح الواحد الذي هو ابن الله يحقق الجانب الإنساني والجانب الإلهي بقوة إلهية إنسانية واحدة؛ ومعنى ذلك أنه لا يوجد سوى إرادة واحدة في الكلمة المتجسدة[١].

لكن هرقل قد لقي المصير الذي انتهى إليه كثيرون جدا ممن كانوا يأملون أن يقيموا دعائم السلام، ذلك أن الجدل لم يحتدم مرة أخرى كأعنف ما يكون الاحتدام فحسب، بل إن هرقل نفسه قد وصم بالإلحاد وجر على نفسه الطائفتين على السواء، والواقع أن الشعور الذي أثاره هذا الإمبراطور قد بلغ من المرارة مبلغا يبرر الاعتقاد بأنه حتى السواد الأعظم من الأرثوذكس من رعايا الدولة البيزنطية الذين كانوا يقيمون في البلاد المفتوحة في عهد هذا الإمبراطور هم الذين رحبوا بالعرب، وقد نظروا إلى الإمبراطور نظرة الكراهية باعتباره خارجا على الدين، وكانوا يخشون أن يأخذ في اضطهادهم وإرغامهم على القول

---

(١) I. A Dorner: A system o0f Christian Doctrine, vol. ioii, pp. 215-16 (London, 1885) J. C. Robertson: History o0f thea Chri0stian Church, ii, P.226: (Lo0ndon, 1875).

بوحدة مشيئة المسيح[١]. ومن أجل هذا استقبلوا بالرضى – بل بالحماسة – هؤلاء السادة الجدد الذين وعدهم بالتسامح الديني، وأظهروا رغبتهم في تسوية مركزهم الديني واستقلالهم القومي لو أنهم استطاعوا أن يخلصوا أنفسهم من الخطر العاجل الذي كان يحدق بهم.

وقد استطاع ميخائيل الأكبر **Michael the Elder** بطريق أنطاكية اليعقوبي أن يحبذ فيما كتبه في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ما قرره إخوانه في الدين، وأن يرى إصبع الله في الفتوح العربية. حتى بعد أن خبرت الكنائس الشرقية الحكم الإسلامي خمسة قرون. وقد كتب يقول بعد أن سرد اضطهادات هرقل: «وهذا هو السبب في أن إله الانتقام الذي تفرد بالقوة والجبروت، والذي يديل دولة البشر كما يشاء، فيؤتيها من يشاء، ويرفع الوضيع – لما رأى شرور الروم الذين لجأوا إلى القوة فنهبوا كنائسنا وسلبوا أدبارنا في كافة ممتلكاتهم، وأنزلهم بنا العقاب في غير رحمة ولا شفقة أرسل أبناء إسماعيل من بلاد الجنوب ليخلصنا على أيديهم من قبضة الروم. وفي الحق إننا إذا كنا قد تحملنا شيئًا من الخسارة بسبب انتزاع الكنائس الكاثوليكية منا وإعطائها لأهل خلقيدونية فقد استمرت هذه الكنائس في حوزتها (وفي ذلك الوقت كانت قد انتزعت منا كنيسة حمص الكبرى وكنيسة حران). ومع ذلك فلم يكن كسبا هينا أن نتخلص من قسوة الروم وأذاهم وحنقهم وتحمسهم العنيف ضدنا، وأن نجد أنفسنا في أمن وسلام[٢].

ولما بلغ الجيش الإسلامي وادي الأردن، وعسكر أبو عبيدة في فحل، كتب الأهالي المسيحيون في هذه البلاد إلى العرب، يقولون: «يا معشر المسلمين، أنتم أحب إلينا من الروم، وإن كانوا على ديننا، أنتم أرقى لنا وأرأف بنا وأكف عن ظلمنا وأحسن ولاية

---

(١) ومن الممكن أن نحكم على أن مثل هذه المخاوف لم يكن لها أساس على الإطلاق مما أظهره الإمبراطور من تصرفات تنطوي على التعصب إزاء كثير من أفراد الطائفة اليعقوبية، وذلك في أثناء تقدمه في بلاد الشام بعد أن أحل الهزيمة بالفرس سنة ٦٢٧م. انظر **(Caetani, vol ii., p.1049, Michael the Elder, vol. iiP.412)** وإذا أردت الاطلاع على ما ارتكبه الجنود البيزنطيون من النظائم ضد إخوانهم في الدين في عهد كونستانس الثاني تراجع **Michael the Elder vol ii, p443.**

(٢) **Michael the elder, vol ii, pp.412- 13.** كتب ابن العبري بعد ذلك بحوالي قرن بنفس هذه النغمة وذلك في كتابه **(Chronicon Ecclesiasticum, ed. J.B Abbeloos et Lamy. P 474).**

علينا، ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا»[1].

وغلق أهل حمص أبواب مدينتهم دون جيش هرقل، وأبلغوا المسلمين أن ولايتهم وعدلهم أحب إليهم من ظلم الإغريق وتعسفهم»[2].

وهكذا كانت حالة الشعور في بلاد الشام إبان الغزوة التي وقعت بين سنتي ٦٣٣، ٦٣٩م. والتي طرد فيها العرب جيش الروم من هذه الولاية تدريجيا، ولما ضربت دمشق المثل في عقد صلح مع العرب سنة ٦٣٧، وأمنت بذلك السلب والنهب، كما ضمنت شروطا أخرى ملائمة. لم تتوان سائر مدن الشام في أن ننسج على منوالها. فأبرمت حمص ومبنج (Hieropolis) وبعض المدن الأخرى معاهدات قد أصبحت بمقتضاها تابعة للعرب؛ بل سلم بطريق بيت المقدس هذه المدينة بشروط مماثلة. وإن خوف الروم من أن يكرههم الإمبراطور الخارج على الدين على اتباع مذهبه، قد جعل الوعد الذي قطعه المسلمون على أنفسهم بمنحهم الحرية الدينية أحب إلى نفوسهم من ارتباطهم بالدولة الرومانية وبأية حكومة مسيحية. ولم تكد المخاوف الأولى التي أثارها نزول جيش فاتح في بلادهم تتبدد حتى أعقبها تحمس قوى لمصلحة العرب الفاتحين[3].

أما ولايات الدولة البيزنطية، التي سرعان ما استولى عليها المسلمون ببسالتهم، فقد وجدت أنها تنعم بحالة من التسامح لم تعرفها طوال قرون كثيرة بسبب ما شاع بينهم من الآراء اليعقوبية والنسطورية؛ فقط سمح لهم أن يؤدوا شعائر دينهم دون أن يتعرض لهم أحد، اللهم إلا استثنينا بعض القيود التي فرضت عليهم منعا لإثارة أي احتكاك بين أتباع الديانات المتنافسة، أو إثارة أي تعصب ينشأ عن إظهار الطقوس الدينية في مظهر

---

(١) الأزدي، ص٩٧.

(٢) البلاذري ص١٣٧.

(٣) Caetani vol. iii P. 813, vol v. P.394. (قبل السكان عن رضي ظاهر تغيير الحكومة، وذلك بمجرد أن علموا أن العرب سيحترمون حقوقهم الشخصية، وسيتركون لهم الحرية العامة في إقامة شعائرهم الدينية، وفي سورية أسرعت مدن ومقاطعات بأكملها إلى التفاهم مع العرب حتى قبل أن تقع هزيمة الروم النهائية، وفي السواد أذعنوا دون أية معارضة، وقبلوا السيادة الجديدة دون شرط ولا قيد، ومن المحتمل أن يكون هذا قد تم في سورية أيضا بالنسبة إلى كثير من المناطق النائية عن طريق المواصلات الكبرى.

المفاخرة حتى لا يؤذي ذلك الشعور الإسلامي(١). ويمكن الحكم على مدى هذا التسامح – الذي يلفت النظر في تاريخ القرن السابع – من هذه العهود التي أعطاها العرب لأهالي المدن التي استولوا عليها وتعهدوا لهم فيها بحماية أرواحهم وممتلكاتهم وإطلاق الحرية الدينية لهم في مقابل الإذعان ودفع الجزية(٢).

وليس من السهل أن نستخلص تفاصيل هذه العهود الدقيقة مما أصبح يشوبها من زيادات. وسواء أكانت هذه التفاصيل صحيحة بلفظها أم لم تكن، فهي على جانب من الأهمية من حيث أنها تمثل الرواية التاريخية التي أخذ بها المؤرخون المسلمون في القرن الثاني الهجري، وهي رواية كان من العسير أن تستقر دعائمها لو أن هناك دليلا يقوم على إثبات عكسها. ولا بأس من أن نورد هنا الشروط(٣) التي قيل إن الخليفة عمر بن الخطاب قد وضعها حين سلم له بيت المقدس: «بسم الله الرحمن الرحيم! هذا ما أعطى عبد الله أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان. أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريشها وسائر ملتها، أنه لا تكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من خيرها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم»(٤).

وفرض عليهم الخراج خمسة دنانير من الموسرين وأربعة من الطبقة الوسطى وثلاثة من الفقراء، وقد زار عمر الأماكن المقدسة يصحبه البطريق، وقيل أنه بينما كانا في كنيسة القيامة وقد حان وقت الصلاة. طلب البطريق إلى عمر أن يصلي هناك، ولكنه بعد أن فكر اعتذر وهو يقول: إنه إن فعل ذلك فإن أتباعه قد يدعون فيما بعد، أنه محل لعبادة المسلمين.

---

(١) وقد جمع جوتهيل **Gottheil** مجموعة قيمة من الشواهد المدعمة بالوثائق التاريخية فيما يتعلق بحالة الشعوب التي دخلت في حماية الحكم الإسلامي وذلك في بحثه **"Dhimmis and Moslems in Egypt"**.

(٢) البلاذري ص٧٤ في آخر الصفحة ٦، ١٢٠ (في وسط الصفحة)

(٣) والاطلاع على مناقشة كيتاني لهذه الوثيقة، انظر: **Caetani, vol. iii. P.952. sqq.**

(٤) الطبري ج١ ص٢٤٠٥.

ومما يتفق مع هذه الروح التي تنطوي على حسن معاملة عمر لرعاياه من أصحاب الديانات الأخرى، ما أثر عن عمر من أنه أمر أن يعطي قوم مجذومون من النصارى من الصدقات وأن يجري عليهم القوت(١) وهو لا ينسى الذميين (وهم أصحاب الديانات الأخرى الداخلون في حماية المسلمين) حتى في آخر وصاياه إذ عهد فيها إلى من يخلفه بما ينبغي القيام به في هذا النصب السامي فقال: «وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله أن يوفي لهم بعهدهم وألا يكلفوا إلا طاقتهم»(٢).

وتنسب بعض الأجيال المتأخرة إلى عمر عددا من القيود التي حالت بين المسيحيين وبين إقامة شعائرهم الدينية في حرية وطلاقة، إلا أن دي غويه De Goeie(٣) وكيتاني (٤)Caetani قد أقاما الدليل لا يدع مجالا للشك على أن هذه القيود قد استحدثت في بعض العصور المتأخرة؛ ومع ذلك فقد قبل فقهاء المسلمين الذين عاشوا في أزمان أقل تسامحا هذه العهود على أنها صحيحة، ومن ثم كانت على جانب من الأهمية في تكوين حكم عن حالة الكنائس المسيحية في ظل الحكم الإسلامي. وإليك هذا العهد الذي أطلق عليه عهد عمر بنصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم! هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا وكذا، أنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا وأموالنا واهل ملتنا، وشرطنا لكم على أنفسنا ألا نتحدث في مدينتنا ولا فيما حولها ولا ديرا ولا كنيسة ولا قلابة ولا صومعة راهب(٥)؛ ولا نجدد ما خرب منها، ولا نحيي ما كان منها في خطط المسلمين؛ وألا نمنع كنائسنا أن ينزلها أحد من المسلمين في ليل ولا نهار؛ وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل؛ وأن ننزل من مر بنا من المسلمين ثلاثة أيام نطعمهم؛ ولا نؤوي في

(١) البلاذري ص١٢٩.

(٢) ابن سعد ج٢ قسم ١ ص٢٤٦.

(٣) Memoire sur la conquete de la Syrie, P.143. sq

(٤) annali dell'Islam vol. iii. P.957.

(٥) رأى بعض الثقات في الشرع الإسلامي أن هذه القاعدة لم تنسحب على القرى والضياع التي لم يكن بناء الكنائس فيها حظروا (الهداية ج٢ ص٢١٩).

كنائسنا ولا منازلنا جاسوسا ولا نعلم أولادنا القرآن[١]، وألا نظهر شركا ولا ندعو أحدا؛ وألا نمنع أحدًا من ذوي قراباتنا الدخول في الإسلام إن أرادوه؛ وأن نوقر المسلمين؛ وأن نقوم لهم من مجالسنا إذا أرادوا الجلوس؛ ولا نتشبه بهم في شيء من لباسهم في قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر؛ ولا تكلم بكلامهم[٢] ولا تكنى بكناهم، ولا نركب السروج، ولا نتقلد السيوف، ولا نتخذ شيئًا من السلاح ولا نحمله معنا؛ ولا ننقش خواتيمنا بالعربية؛ ولا نبيع الخمور؛ وأن نجز مقاديم رؤوسنا، وأن نلزم زينا حيث ما كنا؛ وأن نشد الزنانير على أوساطنا؛ وألا نظهر الصليب على كنائسنا؛ وألا نظهر الصليب على كنائسنا؛ وألا نظهر صلبنا وكتبنا في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم[٣]؛ وألا نضرب بنواقيسنا[٤] في كنائسنا إلا ضربا خفيا؛ وألا نرفع أصواتنا بالقراءة في كنائسنا في شيء من حضرة المسلمين؛ وألا نخرج شعانين ولا باعثون، وألا نرفع أصواتنا على موتانا، ولا تظهر النيران عليهم في شيء سهام المسلمين، وأن نرشد المسلمين ولا نطلع في منازلهم، ولا نضرب أحدا من المسلمين. شرطنا لكن ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا وقبلنا عليه الآمال، فإن نحن خالفنا عن شيء مما شرطناه لكم وضمناه على أنفسنا فلا ذمة لنا، وقد دخل لكم منا ما يحل لكم من أهل المعاندة والشقاق»[٥][*].

وأول من ذكر هذه الوثيقة ابن حزم المتوفى حول منتصف القرن الخامس الهجري؛ وتمثل شروطها ما كان في العصور المتأخرة من تصرفات أشد تعصبا وأبعد عن التسامح، والحق أن هذه الشروط لم تعد أن تكون نظمت نظما قد طبقت بصفة غير مطردة، وكان

---

(١) تختلف آراء العلماء في مسألة تعليم القرآن: فهو محظور في مذهب مالك، ومباح عند أبي حنيفة، أما الشافعي فله في هذا الموضوع رأيان: فهو من جهة يحبذ دراسة القرآن من حيث إن في ذلك إشارة إلى الرغبة في الإسلام، وهو من جهة أخرى يحظره لأنه يخشى أن يكون الكافر الذي يدرس القرآن مصرا على إثمه وعاده فلا يقصد بقراءته إلا أن يتخذه هزوا مادام عدوا لله والرسول الذي أنزل عليه الكتاب، والآن فليس الشافعي، وقد رأينا له فكرتين تناقض إحداهما الأخرى، رأى حاسم في هذه المسألة من الوجهة الشكلية". **(Belin, P.508)**.

(٢) كعبارات التحية وغيرها مما يستعمله المسلمون بعضهم مع بعض دون غيرهم.

(٣) يقول ابن سيف (ص٨٢) أنه لا مانع من خروج النصارى بصلبانهم في أيام عيدهم خارج المدينة بلا رايات ولا بنود يوما في السنة، فأما داخل البلد بين المسلمين ومساجدهم فلا تظهر الصلبان.

(٤) الناقوس في اللغة قطعة طويلة من الخشب تفرع بخشبة أخرى قصيرة.

(٥) **Gottheil, PP. 382-4** حيث أورد الإشارات إلى النصوص المختلفة لهذه الوثيقة

(*) را جع كتاب المذمة في استعمال أهل الذمة لابن النقاش– مخطوط بدار الكتب رقم ٣٩٥٢ ور قة ٣–٤

الأمر بوجه عام يتطلب سورة من التعصب الديني لإجابة أي مطلب لتطبيق هذه الشروط، وهناك شواهد كثيرة تبين أن المسيحيين قل ما كانوا في عهد الفتوح الإسلامية الأولى يتكون مما يضعف من قوة دينهم. والواقع أن تمسكهم بدينهم القديم هو الذي عرضهم لدفع الجزية، وهي كلمة كانت تدل أصلا على الضريبة من أي نوع يدفعها غير المسلمين من رعايا الدولة العربية إلا أنها أصبحت أخيرا تدل على ضريبة الرأس حين وضع الولاة الجدد النظام المالي[(١)].

لكن هذه الجزية كانت من البساطة بحيث لم تكن تثقل كاهلهم، وذلك إذا لاحظنا أنها أعفتهم من الخدمة العسكرية الإجبارية التي كانت مفروضة على إخوانهم من الرعايا المسلمين، ولا شك أن التحول إلى الإسلام كان يقترن ببعض مزايا مالية معينة، ولكنه لم يكن من الممكن أن يكون للدين القديم إلا أن تأثير ضئيل على هؤلاء الذين تحولوا إلى الإسلام لا لشيء إلا ليظفروا بإعفائهم من أداء الجزية، وعندئذ كان على هؤلاء الذين يتحولون إلى الإسلام أن يؤدوا بدلا من الجزية الصدقات الشرعية، وهي الزكاة التي كانت تفرض سنويا على معظم أنواع الممتلكات المنقولة والعقارية[(٢)].

وقد قل إلى حد بعيد ما كان يحدث من إغراء مادي للتخلص من عبء الضريبة عن طريق التحول إلى الإسلام، وذلك حين اضطرت بعض الاعتبارات المالية الحكومية العربية، حول نهاية القرن الأول إلى أن تشدد على المسلمين الجدد في أن يوالوا دفع الجزية حتى بعد دخولهم في زمرة المؤمنين[(٣)]. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يجب أن نذكر أن غير المسلمين من الأهلين كانوا يعرضون أنفسهم دائما لأن يكونوا ضحايا الاضطهاد المالي عندما تكون الدولة في حاجة إلى زيادة الخراج.

(١) وهناك شواهد تدل على أن العرب الفاتحين قد أبقوا على النظام المالي وجوده سائدا في البلاد التي انتزعوها من أيدي الروم دون أن يغيروا منه شيئًا وأن تفسير الجزية بأنها عبارة عن ضريبة الرؤوس، إنما هو من اختراع الفقهاء المتأخرين الذين كانوا يجهلون الأمور على وضعها الصحيح في صدر الإسلام.

(٢) (Caetani, vol. iv, p610(231); vol. vp.449). H. Lammens: ziad ibn Abihi. (Rivista degli Studio Orientali, vol, iv. P215).

(٣) (Caetani, vol. v. pp. 424 (752), 435.

ولم تكن مقادير الجزية التي فرضها الفاتحون الأولون متماثلة[١]، ولم يتفق أبو حنيفة ومالك، وهما الإمامان المشهوران، في بعض التفاصيل التي لا تصل إلى درجة كبيرة من الأهمية[٢]. وقد نتخذ من المعلومات التالية التي أستقيناها من كتاب الخراج الذي وضعه أبو يوسف تلبية لطلب هارون الرشيد (٧٨٦- ٨٠٩م) (١٧٠- ١٩٣هـ) دليلا يمثل لنا بوجه عام الطريقة التي سار عليها المسلمون في جمع الخراج في عهد الدولة العباسية: فكان على الموسر أن يدفع في السنة ثمانية وأربعين درهما، وعلى الوسط أربعة وعشرين، بينما يؤخذ من المحتاج كالحراث العامل بيده اثنا عشر درهما[٣]، وإن جاؤوا بعرض قبل منهم، مثل الدواب والتجارة والمتاع، حتى الإبر كانت تقبل منهم بدلا من النقد، ولا يؤخذ منهم خنزير ولا خمر ولا ميتة. وكانت الضريبة لا تجبى إلا من الذكور القادرين ولا تجبى من النساء والصبيان[٤]. وكذلك كان يستثنى من أداء الجزية المسكين الذي يتصدق عليه، والشيخ الفقير الفاني الذي لا يستطيع العمل، كما أعفى الأعمى والأعرج والمريض الذي لا يرجى شفاؤه، والمغلوب على عقله إلا إذا كان من أصحاب اليسار، وكما أعفى المترهبون الذين في الديارات وأهل الصوامع إذا كانوا يعيشون على صدقات الموسرين، أما إن كانوا قادرين على العمل أو كان لهم غنى ويسار أخذت منهم الجزية. وقد أوصي جباة الجزية أن يظهروا الشفقة بأهل الذمة بوجه خاص فلا يظلموهم ولا يؤذوهم في المعاملة ولا ينزلوا بهم عقابا جسمانيا إذا لم يؤدوا الجزية[٥].

ولم يكن الغرض من فرض هذه الضريبة على المسيحيين، كما يريدنا بعض الباحثين على الظن، لونا من ألوان العقاب لامتناعهم عن قبول الإسلام، وإنما كانوا يؤدونها مع سائر أهل الذمة وهم غير المسلمين من رعايا الدولة الذين كانت تحول ديانتهم بينهم وبين الخدمة في الجيش، في مقابل الحماية التي كفلتها لهم سيوف المسلمين، ولما قدم أهل الحيرة

(١) البلاذري ص١٢٤-١٢٥.

(٢) **A. von Kremer (1) vol, i. pp.60-436.**

(٣) الدرهم يساوي خمسة بنسات تقريبا، أو ٢١ مليما تقريبا.

(٤) **Bell, pp. XXV.173**

(٥) أبو يوسف ص٦٩-٧١.

المال المتفق عليه، ذكروا صراحة أنهم إنما دفعوا هذه الجزية على شريطة «أن يمنعونا وأميرهم البغي من المسلمين وغيرهم»[١]، وكذلك حدث أن سجل خالد في المعاهدة التي أبرمها مع بعض أهالي المدن المجاورة للحيرة قوله: «فإن منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا»[٢]. ويمكن الحكم على مدى اعتراف المسلمين الصريح بهذا الشرط من تلك الحادثة التي وقعت في حكم الخليفة عمر. لما حشد الإمبراطور هرقل جيشا ضخما يصد قوات المسلمين نتيجة لما حدث، أن يركزوا كل نشاطهم في المعركة التي أحدقت بهم. فلما علم بذلك أبو عبيدة قائد العرب كتب إلى عمال المدن المفتوحة في الشام بأمرهم بأن يردوا عليهم ما جبي من الجزية من هذه المدن، وكتب إلى الناس يقول: «إنما رددنا عليكم اموالكم لأنه بلغنا ما جمع لنا من الجموع. وإنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم وإنا لا نقدر على ذلك. وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ونحن لكم عن الشرط، وما كتبنا بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم». وبذلك ردت مبالغ طائلة من مال الدولة، فدعا المسيحيون بالبركة لرؤساء المسلمين، وقالوا: «ردكم الله علينا ونصركم عليهم (أي على الروم)، فلو كانوا هم لم يرددوا علينا شيئًا وأخذوا كل شيء بقي لنا»[٣].

وقد فرضت الجزية كما ذكرنا على القادرين من الذكور مقابل الخدمة العسكرية التي كانوا يطالبون بأدائها لو كانوا مسلمين؛ ومن الواضح أن أي جماعة مسيحية كانت تعفى من أداء هذه الضريبة إذا ما دخلت في خدمة الجيش الإسلامي، وكان الحال على هذا النحو مع قبيلة الجراجمة، وهي قبيلة مسيحية كانت تقيم بجوار أنطاكية، سالمت المسلمين وتعهدت أن تكون عونا لهم وأن تقاتل معهم في مغازيهم، على شريطة ألا تؤخذ بالجزية، وأن تعطى نصيبها من الغنائم [٤]. ولما اندفعت الفتوح الإسلامية إلى شمال فارس في سنة ٢٢هـ، أبرم مثل هذا الحلف مع إحدى القبائل التي تقيم على حدود هذه البلاد

---

(١) الطبري ج١ ص٢٠٥٥

(٢) نفس المرجع ص٢٠٥٠

(٣) أبو يوسف ص٨١.

(٤) البلاذري ص١٥٩.

وأعفيت من أداء الجزية في مقابل الخدمة العسكرية(١).

ونجد أمثلة شبيهة بهذه للإعفاء من الجزية في حالة المسيحيين الذين عملوا في الجيش أو الأسطول في ظل الحكم التركي. مثال ذلك ما عومل به أهل ميغاريا **Megaris** وهم جماعة من مسيحي ألبانيا الذين أعفوا من أداء هذه الضريبة على شريطة أن يقدموا جماعة من الرجال المسلحين لحراسة الدروب على جبال **Geranea, Gaithaeron** التي كانت تؤدي إلى الخليج كورنثة **Isthmus of Corinth**؛ وكان المسيحيون الذين استخدموا طلائع لمقدمة الجيش التركي، لإصلاح الطرق وإقامة الجسور، قد أعفوا من أداء الخراج ومنحوا هبات من الأرض معفاة من جميع الضرائب(٢). وكذلك لم يدفع أهالي **Hydra** المسيحيون ضرائب مباشرة للسلطان، وإنما قدموا في مقابلها فرقة من مائتين وخمسين من أشداء رجال الأسطول التركي كان ينفق عليهم من بيت المال في تلك الناحية(٣).

وقد أعفي أيضا من الضريبة أهالي رومانيا الجنوبية الذين يطلق عليهم **Armatoli**(٤)، وكانوا يؤلفون عنصرا مهما من عناصر القوة في الجيش التركي خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، ثم المرديون **Mirdites** وهم قبيلة كاثوليكية ألبانية كانت تحتل الجبال الواقعة شمالي سكوتاري **Scutari**، وكان ذلك على شريطة أن يقدموا فرقة مسلحة في زمن الحرب(٥).

وتلك الروح ذاتها لم تقرر الرءوس على نصارى الإغريق الذي أشرفوا على القناطر(*) التي أمدت القسطنطينية بماء الشرب(٦)، ولا على الذين كانوا في حراسة

---

(١) الطبري ج٥ ٢٦٦.

(٢) وهو يسميهم **.Marsigli, Vol. i.p.80**

(٣) **finaly, vol. vi. Pp.30, 33.**

(٤) **lazar, P.56.**

(٥) **de la jonquiere, p.14.**

(*) هي نوع من القناطر تقام على أعمدة لتوصيل مياه الشرب إلى المدن وقد كانت شائعة في الدولة الرومانية منذ القرن الأول الميلادي.

(٦) **Thomas Smith, P. 324.**

مستودعات البارود في تلك المدينة[1] نظرا إلى ما قدموا للدولة من خدمات، ومن جهة أخرى أعفي الفلاحون المصريون من الخدمة العسكرية على الرغم من أنهم كانوا على الإسلام وفرضت عليهم الجزية في نظير ذلك كما فرضت على المسيحيين[2].

ولما كان المسيحيون يعيشون في مجتمعهم آمنين على حياتهم وممتلكاتهم ناعمين بمثل هذا التسامح الذي منحهم حرية التفكير الديني، فقد تمتعوا، وخاصة في المدن، بحالة من الرفاهية والرخاء في الأيام الأولى من الخلافة.

وقد توسع معاوية (٦٦١-٦٨٠م) (٤١-٦٠هـ) في إلحاق المسيحيين بخدمته، وحذا حذوه في ذلك أفراد آخرون من البيت المالك[3]. وطالما شغل المسيحيون مناصب عالية في بلاط الخليفة، مثل الأخطل وهو عربي نصراني كان شاعرا للبلاط، ومثل أبي القديس يوحنا الدمشقي مستشار الخليفة عبد الملك (٦٨٥- ٧٠٥م) (٦٥-٨٦هـ).

وكان في خدمة الخليفة المعتصم (٨٣٣- ٨٤٢م) (٢١٨- ٢٢٧هـ) أخوان مسيحيان بلغا منزلة سامية عند أمير المؤمنين: أحدهما يدعى سلموية ويظهر أنه كان يشغل منصبا قريب الشبه من منصب الوزير في العصر الحديث، وكانت الوثائق الملكية لا تتخذ صفة التنفيذ إلا بعد توقيعه عليها، على حين عهد إلى أخيه إبراهيم بحفظ خاتم الخليفة كما عهد إليه بخزانة بيوت الأموال في البلاد، وكان المنتظر من طبيعة هذه الأموال وتصريفها أن يوكل أمر الإشراف عليها إلى رجل من المسلمين، وقد بلغ من ميل الخليفة الشديد إلى إبراهيم أنه عاده في مرضه الأخير وغمره الحزن عند وفاته، وأنه أمر في يوم تشييع جنازته بإحضار جثمانه إلى القصر حيث أقيمت له الطقوس المسيحية في خشوع مهيب[4].

---

(١) Doroslamus, P.326.

(٢) De la jonquiere, P.265.

(٣) Lammens, P.13.

(٤) ابن أبي أصيبعة، ج١، ص١٦٤.

واختار عبد الملك عالما مسيحيا من مدينة الرها يدعى أثناس **Athanasius** مؤدبا لأخيه عبد العزيز، وقد رافق أثناس هذا تلميذه إلى مصر عندما عين واليا عليها، وهناك جمع ثروة طائلة، قيل إنه امتلك أربعة آلاف من العبيد، كما ملك كثيرًا من الدور والبساتين. وكان الذهب والفضة عنده، كأنها الحصى؛ وكان أولاده يأخذون من كل جندي دينارا عندما يتسلم راتبه، ولما كان جيش مصر قد بلغ حينذاك ٣٠٠٠٠ جنديا؛ فإنه من الممكن أن نكون فكرة عن الثروة التي جمعها أثناس خلال الإحدى والعشرين سنة التي قضاها في هذه البلاد(١). وفي نهاية القرن الثامن نرى رجلا يدعى أبا نوح الأنباري كاتب أبي موسى بن مصعب والي الموصل، قد استغل نفوذه القوي لمصلحة بني جلدته من المسيحيين(٢).

وفي عهد المعتضد (٨٩٢-٩٠٢م) (٢٧٩- ٢٨٩هـ)، كان عمر بن يوسف والي الأنبار مسيحيا. وقد وافق الخليفة على تقليده هذه الولاية، بحجة أن النصراني في نظره أجدر بأن يستخدم إذا وجد صالحًا؛ إذ أن هناك أسبابا قوية لتفضيل النصراني على غيره من اليهود أو المسلمين أو المجوس(٣). وعهد الموفق، وكان صاحب السلطان المطلق في عهد أخيه المعتمد (٨٧٠- ٨٩٢م) (٢٥٦- ٢٧٩هـ) أمر تنظيم الجيش إلى مسيحي يدعى إسرائيل، واتخذ ابنه المعتضد نصرانيا آخر كاتبا له، وهو ملك بن الوليد، وفي عصر متأخر تولى في أيام المقتدر (٩٠٨م- ٩٣٢م) (٢٩٥هـ-٣٢٠هـ) نصراني آخر أمر ديوان الجيش.

كذلك كان نصر بن هارون مسيحيا، وكان كبير وزراء عضد الدولة البويهي (٩٤٩م- ٩٨٢م) (٣٣٧-٣٧١هـ) الذي حكم العراق وجنوبي فارس(٤). وقد ظلت

---

(١) **Mi0chael the Elder, vol, ii.P475.**

(٢) ماري بن سليمان ص٧١ (س١٦) وقد كتب أبو نوح الأنباري ردا على القرآن وكتبًا أخرى في العقائد (انظر **Wright, P.191 n.3)**

(٣) ماري بن سليمان ص٨٤.

(٤) ابن الأثير ج٩، ص١٦٥.

دواوين الحكومة وخاصة ديوان الخراج فترة طويلة مكتظة بالمسيحيين والفرس[١]، وظلت الحال في مصر على هذا النحو حتى زمن متأخر جدا، حيث كان السواد الأعظم من المسيحيين يحتكرون أمثال هذه المناصب احتكارا يكاد يكون تاما[٢].

وكثيرا ما جمع الأطباء المسيحيون بوجه خاص ثروات ضخمة، ولقوا تكريما كبيرا في بيوت العظماء. فجبريل الذي اتخذه الخليفة هارون الرشيد طبيبا خاصا كان مسيحيا نسطوريا بلغ إيراده السنوي ٨٠٠٠٠٠ درهما من أملاكه الخاصة فضلا عن راتب قدره ٢٨٠٠٠٠ درهما في السنة مقابل عنايته بمعالجة الخليفة؛ وكان الطبيب الثاني وهو نصراني أيضًا يتقاضى ٢٢٠٠٠ درهما في السنة[٣]. وكان المسيحيون يجمعون أموالا وفيرة من احترافهم الصناعة والتجارة، والواقع أن هذه الثروة هي التي طالما أثارت طمع الدهماء الذي يقوم على الحسد، وهو شعور المتعصبين من المسلمين إلى انتهاز هذه الفرصة لاضطهادتهم وإيقاع الظلم بهم؛ أضف إلى ذلك أن الطوائف غير الإسلامية قد تمتعت بسلطات تكاد تامة. لأن الحكومة وضعت في أيديهم التصرف في شئونهم الداخلية تصرفا مطلقا، وكان رؤساؤهم الروحانيون يباشرون واجباتهم القضائية في القضايا الخاصة بأبناء دينهم فحسب[٤]. ولم يتعرض أحد لمعظم كنائسهم وأديارهم إلا في المدن الكبيرة، حيث تحول بعضها إلى مساجد، وهو تصرف كان من العسير أن يعترض عليه نظرا لتزايد عدد المسلمين الهائل وما كان يقابله من تناقص في المجتمع المسيحي.

وقد أشار النقد التاريخي الحديث إلى استحالة الأسطورة القائلة بأنه لما استولى العرب على دمشق، قسمت الكنائس بالتساوي بين المسيحيين والفاتحين، بحجة أنه بينما كان أحد القواد المسلمين يشق طريقه إلى المدينة عنوة من الباب الشرقي، كان قائدًا آخر يتلقى تسليم حاكم المدينة عند الباب الغربي؛ كذلك دل اختبار الوثائق التاريخية كما دل

---

(١) **Von Kremer (1) vol. i.pp. 167-168. Lammesns, P.11.**

(٢) **Renauddot, pp.430-450.**

(٣) **Von Kremer (1) vol. ii.pp. 180-1**

(٤) **Von Kremer (1) vol. i.p.183**

اختبار طبوغرافية البناء على أن كاتدرائية القديس يوحنا الكبرى لا يمكن بحال أن تكون قد استخدمت على النحو الذي وصفه بعض مؤرخي العرب وهو أنها كانت مكانا عاما لعبادة المسلمين والمسيحيين على السواء[١]. ولكن مجرد اعتقاد هؤلاء المؤرخين بأن مثل هذا الإجراء قد استمر قرابة ثمانين عاما، دليل على ما أعطى منذ وقت مبكر للمسيحيين من حرية في إقامة شعائرهم الدينية.

ويختلف فقهاء المسلمين في هذه المسألة اختلافا بينا، من أكثر المذاهب تسامحا وهو المذهب الحنفي الذي يعلن أنه على الرغم من أن بناء الكنائس ومعابد اليهود في الديار المصرية مخالف للشرع إلا أنه يمكن إصلاح ما كان قائما إذا خرب أو اعتراه البلى، كما يجوز بناء كنائس ومعابد يهودية جديدة في القرى والضياع التي لا تظهر فيها الشعائر الإسلامية، إلى أكثر المذاهب تشددا وهو المذهب الحنبلي، الذي يرى أنه لا يجوز بناؤها ولا إصلاحها إذا ما تهدمت أو أصابها التلف.

ورأى بعض الفقهاء أن المزايا قد اختلفت تبعا لما منحتهم المعاهدات إياه من حقوق؛ ففي المدن التي أخذت عنوة لا يصح للذميين أن يقيموا فيها دورًا للعبادة، أما إذا أبرمت معاهدة تنص على ذلك فقد سمح لهم ببناء كنائس ومعابد يهودية جديدة[٢]. لكن هذه الفتاوى، ككثير من بحوث الفقهاء المسلمين، كانت صلتها ضعيفة بالحقائق الواقعية[٣]. فربما اتفق أصحاب المذاهب على أن الذميين لا يسمح لهم أن يبنوا دورا للعبادة في المدن التي أسسها المسلمون، ولكن السلطة المدنية أباحت للقبط أن يبنوا كنائس في القاهرة، العاصمة الجديدة[٤]، كما سمح للمسيحيين أن يؤسسوا في بعض المدن الأخرى كنائس وأديرة جديدة. وأن مجرد ما يقال من أن عمر الثاني (٧١٧- ٧٢٠م)

(١) Caetani, vol. iii.pp.350 sq., 387 sqq.

(٢) Gotteil, pp.360-1. Goldziher: zur Literatu des Ichtilaf al-madahib. ZdMG, vol.38 pp. 673-4.

(٣) كتب Snouck Hurgronie عن هذا الطابع النظري الذي اتسم به كثيرا جدا من كتب الفقه الإسلامي وذلك في بحثه: Mohammesanisches Recht in Therie und Wirklichkeit.

(٤) Gottheil, p.363

(٩٩-١٠١هـ) قد أمر في نهاية القرن الأول للهجرة بهدم كل الكنائس[١] التي استحدثت، وأنه بعد أكثر من قرن أعاد المتوكل (٨٤٧- ٨٦١م) (٢٣٢- ٢٤٧هـ) الذي اشتهر بتعصبه الديني نفس هذا الأمر، ليوضح كيف أن تحريم بناء كنائس جديدة قلما كان يوضع موضع التنفيذ[٢]. ولدينا أمثلة دونها عن بناء كنائس محدثة مؤرخون من المسيحيين والمسلمين على السواء: مثال ذلك أن أحد النصارى من ذوي اليسار في مدينة الرها يدعى أثناس قد بنى في عهد عبد الملك (٦٨٥م- ٧٠٥م) (٦٥-٨٦هـ) كنيسة جميلة وقفها على السيدة مريم؛ كما أقام بناء للتعميد تكريما لصورة المسيح التي كان إرسالها إلى الملك أبجرا أمرا مشهورا في ذلك الحين؛ وكذلك بنى عددا من الكنائس والأديار في جهات كثيرة من مصر، من بينها كنيستان عظيمتان في الفسطاط[٣]. وقد طلب بعض الفراشين[*] من النصارى الذين كانوا في خدمة عبد العزيز بن مروان (أخي عبد الملك) والي مصر أن يأذن لهم ببناء كنيسة في حلوان، وقفت على القديس يوحنا[٤] مع أن هذه المدينة من المدن التي أسسها المسلمون..

وفي سنة ٧١١م (٩٢هـ) بنيت كنيسة يعقوبية بإذن من الخليفة الوليد (٧٠٥- ٧١٥م)، (٨٦- ٩٦هـ)[٥]. وفي السنة الأولى من حكم يزيد الثاني (٧٢٠م) (١٠١هـ) دخل أنطاكية مار إلياس Mar Elias بطريق أنطاكية اليعقوبي، تحفه الهيبة والوقار، يصحبه رجال الكنيسة والرهبان، ليبارك كنيسة جديدة كان يرجع إليه السبب في بنائها؛ وفي السنة التالية بارك كنيسة أخرى في قرية سرمده من أعمال أنطاكية، وكانت المعارضة الوحيدة

---

(١) Gottheil, pp.358-9 ومع ذلك يشك هذا المؤرخ في ما إذا كان هنالك شاهد من الشواهد التي تعزو هذا التعصب إلى عمر الثاني.

(٢) Journal Asiatique, IVme Serie, tome xviii, (1851) pp. 433, 450. والطبري ج٣ ص١٤١٩.

(٣) Michael the elder, vol ii. P.476. Renaudot, p.189.

(*) هي كنيسة مارجرجس وكانت تسمى كنيسة الفراشين (راجع سعيد بن البطريق ج٢ ص٢٤١)

(٤) سعيد بن البطريق ج٢ ص٤١ (ويقول سويرس (ص١٣٩) إنها "كنيستان".

(٥) Von Kremer (1) vol. ii.pp.175.

التي لقيها، من ناحية الطائفة المسيحية المنافسة التي قبلت قرارات خلقيدنية[(١)].

وفي العهد التالي بنى خالد القسري الذي كان واليا على العراقين العربي والعجمي من ٧٢٤م– ٧٣٨م. (١٠٥–١٢٠هـ) كنيسة لأمة النصرانية تتعبد فيها[(٢)]. وفي سنة ٧٥٩م تم بناء كنيسة في نصيبين، أنفق عليها الأسقف النسطوري سابيريان Cyprian ستة وخمسة ألف دينار[(٣)]. وإلى هذا القرن نفسه[(٤)] يرجع تاريخ كنيسة أبي سرجه في الحصن الروماني القديم بمصر القديمة. وفي حكم المهدي (٧٧٥–٧٨٥م) (١٥٨–١٦٩هـ) بنيت ببغداد كنيسة للمسيحيين الذين كانوا قد أسروا خلال الحملات الكثيرة التي وجهت لبلاد الدولة البيزنطية[(٥)]. وبنى أهل سمالوا كنيسة أخرى في هذه المدينة نفسها في عهد هارون الرشيد (٧٨٦–٨٠٩م) (١٧٠–١٩٣هـ)، وكانوا قد أذعنوا لطاعة هذه الخليفة وأخذوا منه الأمان[(٦)]؛ وفي عهد هذا الخليفة نفسه تلقى سرجيس Sergius مطران البصرة النسطوري إذنا ببناء كنيسة في البصرة[(٧)]، مع أن هذه المدينة قد أسسها المسلمون في عهد الخليفة عمر سنة ٦٣٨م (١٧هـ)، وبنيت في بابليون كنيسة فخمة تضم جثماني النبيين دانيال وحزقيال[(٨)].

ولما جاء المأمون مصر (٨١٣– ٨٣٣م) (١٩٨–٢١٨هـ) أذن لاثنين من فراشيه النصارى ببناء كنيسة على جبل المقطم[(*)] القريب من القاهرة؛ كما سمح هذا الخليفة لأحد

---

(١) Michael the elder, voll. Ii.pp.490, 491.

(٢) ابن خلكان ج١ ص٤٨٥.

(٣) Elias of Nisibis, P.128.

(٤) A. J. Butler: the Ancient Coptic Churches of Egypte vol. i.p. 181 (Oxford, 1884)

(٥) ياقوت ج٢ ص٦٦٢.

(٦) ياقوت ج٢ ص٦٧٠.

(٧) ماري بن سليمان ٧٣

(٨) Ishok of Romgla, P.266.

(*) وهي كنيسة مر تمريم التي في القنطرة وهي المعروفة اليوم بكنيسة الروم وكانت تسمى كنيسة الفراشين (سعيد بن البطريق ج٢ص٥٨).

ذوي اليسار من المسيحيين ويدعى بكام ببناء عدة كنائس حسان ببلدة بورة في مصر[١].

وقد شيد البطريق النسطوري طيموثيوس Timotheus المتوفى سنة ٨٢٠ كنيسة في تكريت وديرا في بغداد[٢]. وفي القرن العاشر، بنيت في الفسطاط كنيسة أبي سيفين القبطية الجميلة[٣]، كما بنيت في جدة كنيسة جديدة في عهد الظاهر سابع الخلفاء الفاطميين في مصر (١٠٢٠- ١٠٣٥م) (٤١١-٤٢٧هـ) [٤]، وشيدت في عهد الخليفة العباسي المستضيء (١١٧٠- ١١٨٠م)[٥]. (٥٥٦- ٥٧٥هـ) كنائس وأديرة جديدة، وفي سنة ١١٨٧ بنيت كنيسة في الفسطاط وقفت على السيدة العذراء الطاهرة[٦].

والواقع أنه منذ أن عرقل قيام الحكم الإسلامي تقدم الكنيسة المسيحية يكشف تاريخ النساطرة عن نهضة رائعة في الحياة الدينية وعن نواحي نشاطها منذ أن صاروا رعية للمسلمين[٧]. وكان أكاسرة الفرس يدللون هذه الطائفة تارة ويضطهدونها تارة أخرى، حيث كان السواد الأعظم من أفرادها يقيمون في ولايات هؤلاء الأكاسرة، بل مروا بحياة أشد من هذه خطورة وخضعوا لمعاملة خشنة قاسية حين جعلتهم الحرب بين فارس وبيزنطة عرضة لشك الفرس فيهم بأنهم كانوا يمالئون أعداءهم من المسيحيين، ولكن الأمن الذي نعموا به في بلادهم في عهد الخلفاء، قد مكنهم من أن يسيروا قدما في سبيل

(١) سعيد بن البطريق ج٢ ص٥٨.

(٢) Von Kremer (1) vol, ii. Pp. 175-6.

(٣) Bulet: Ancient Coptic Churches of Egypte, vol. i. p.76.

(٤) Renaudot, p.399.

(٥) Isok of Romgla, P.333.

(٦) أبو صالح ص٩٢.

(٧) وقد زار راهب دومينكاني من فلورنسة، يدعى Ricoldus de Monte Crucis بلاد الشرق حول نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر وتحدث عن روح التسامح التي تمتع بها النساطرة إلى عصره في ظل الحكم الإسلامي فقال: "وقرأت في التاريخ القديم وفي مؤلفات العرب الموثوق بها أن النساطرة أنفسهم كانوا أصدقاء لمحمد وحلفاء له، وأن محمدًا نفسه قد أوصى خلفاءه أن يحرصوا على صداقتهم مع النساطرة التي يرعاها العرب أنفسهم حتى ذلك اليوم بشيء من العناية، (Laurent, P.128).

أعمالهم التبشيرية في الخارج، فأرسلوا البعوث الدينية إلى الصين والهند، وارتقى كل منها إلى مرتبة المطرانية في القرن الثامن الميلادي؛ وفي العصر نفسه تقريبا رسخت أقدامهم في مصر، ثم أشاعوا فيما بعد العقيدة المسيحية في آسيا حتى إذا جاء القرن الحادي عشر، كانوا قد جذبوا عددا كبيرا ممن اعتنقوا المسيحية من بين التتار(١).

وإذا كانت الطوائف المسيحية الأخرى قد أخفقت في إظهار مثل هذا النشاط القوي، فليس هذا الإخفاق خطأ المسلمين؛ إذ كانت الحكومة المركزية العليا تتسامح مع جميعهم على سواء، وكانت فضلا عن ذلك تصدرهم عن أن يضطهد بعضهم بعضا(٢). وفي القرن الخامس أغرى رصوما، وهو أسقف نسطوري ملك الفرس بأن يدبر اضطهادا عنيفًا للكنيسة الأرثوذكسية، وذلك بإظهار نسطور بمظهر الصديق للفرس، وإظهار مبادئه بأنها أكثر ميلا إلى مبادئهم؛ ويقال إن عددا يبلغ ٧٨٠٠ من رجال الكنيسة الأرثوذكسية، مع عدد ضخم من العلمانيين، قد ذبحوا في هذا الاضطهاد(٣). وقام خسرو الثاني باضطهاد آخر للأرثوذكس، بعد أن غزا هرقل بلاد فارس وذلك بتحريض أحد اليعاقبة الذي أقنع الملك بأن الأرثوذكس سوف يظهرون بمظهر العطف والميل إلى البيزنطيين(٤)، ولكن مبادئ التسامح الإسلامي حرمت مثل هذه الأعمال التي تنطوي على الظلم: بل كان المسلمون على خلاف غيرهم، إذ يظهر لنا أنهم لم يألوا جهدا في أن يعاملوا كل رعاياهم من المسيحيين بالعدل والقسطاس. مثل ذلك أنه بعد فتح مصر، استغل اليعاقبة فرصة إقصاء السلطات البيزنطية، ليسلبوا الأرثوذكس كنائسهم، ولكن المسلمين أعادوها أخيرا إلى أصحابها الشرعيين، بعد أن دلل الأرثوذكس على ملكيتهم لها(٥).

---

(١) J. Labourt: De Timptheo1, Nestorianorum patriarche, P.37sqq (paris, 1904)

(٢) E. von Dobschutz, pp.390- 1.

(٣) Michael the elder, vol. ii.pp.439-40.

(٤) المكين ص ١٢. راجع J. Labourt: le Christianisme sous la dynastie Sassanide, P.139 sq(Paris, 1904).

(٥) Renaudot, P.169.

وإذا نظرنا إلى التسامح الذي امتد على هذا النحو إلى رعايا المسلمين من المسيحيين في صدر الحكم الإسلامي، ظهر أن الفكرة التي شاعت بأن السيف كان العامل في تحويل الناس إلى الإسلام بعيدة التصديق. ومن ثم لم يكن بد من أن نتلمس بواعث غير ذلك الباعث الذي أوحى بالاضطهاد. ولكن مما يؤسف له، أنا لا نملك إلا أخبارا قليلة، ومن ثم نجد أنفسنا مضطرين إلى أن نلجأ إلى الحدس والتخمين(١).

ويرجح وجود بعض المفكرين الذي هيأتهم اتجاهاتهم الفكرية لقبول موقف المسلمين حيالهم في عصر كهذا العصر المحافل بالتأمل الديني، وكان من هذا النوع أولئك الشهريغان أو ملاك الأراضي في فارس في القرن الثامن الميلادي، وكانوا مسيحيين اسما، ولكنهم اعتقدوا أن المسيح لم يكن إلا رجلا عاديا وأنه كسائر الأنبياء(٢). ويظهر أنهم كانوا يثيرون من حين إلى حين متاعب كثيرة لرجال الدين من النساطرة الذين كانوا يلاقون عنتا شديدا لإدخالهم في مسالك الأرثوذكسية(٣)، ولكن موقفهم الديني كان أشد صلة بالإسلام منه بالعقيدة المسيحية، ويحتمل أنهم أقبلوا على الإسلام في صفوف الذين تحولوا إلى هذا الدين بعد أن فتح العرب بلاد العرب بلاد الدولة الفارسية.

ويزعم كثير من علماء اللاهوت المسيحيين(٤) أن حالة الكنيسة الشرقية التي تدهورت في ذلك الوقت – من الناحيتين الخلقية والروحية – لا بد أن تكون قد دفعت كثيرين إلى أن يلتمسوا جوا روحيا أسلم وأصح في ذلك الدين الإسلامي الذي جاءهم

(١) وقد أجاد فون كرمر في هذا الملاحظة: "إننا مدينون فيما نعرفه عن التاريخ السياسي والحربي الذي يتعلق بتلك العصور لما بذله مؤرخو العرب من اجتهاد لا يعرف الكلل في جمعهم الأخبار؛ وإن بيننا وبين ذلك التاريخ اثنى عشر قرنا، لهذا التناسب الدقة فيه مع طول هذه الشقة، على أن التاريخ الداخلي لتلك الفترة المهمة، وكذلك تاريخ الكفاح بين الدين الجديد البسيط وبين الديانات القديمة التي تكونت فيها المذاهب إلى حد التعقيد، لا نكاد نعرف منه شيئًا إلا في أعم حدوده.

(von Kremer. (2), pp.1-2).

(٢) Thomas of Marga, vol. ii.P.309 sq.

(٣) Thomas of Marga, vol, ii. Pp.310 sq.

(٤) وبالإضافة إلى ما نقلناه هنا من نصوص، انظر ما كتبه ماكلينتوش Mclintoch وسترنج Strong تحت مادة Mohammedanism، ج٦ ص٤٢٠، راجع The Great Religons: James Freemman Clarke part ii., p.75 (London, 1883).

وهو في أشد ما تكون الحماسة الغضة قوة وعنفا(١). وعلى سبيل المثال، يتساءل ملمان Dean Milman(٢): «ماذا كانت حال العالم المسيحي في الأقاليم التي تعرضت لأولى غزوات الإسلام؟ كانت الأحزاب الدينية يناوئ بعضها بعضا، ورجال الكنيسة يتنازعون فيما بينهم على أشد مسائل الدين إبهاما وأكثرها غموضا، فيما يتعلق بما وراء الطبيعة في العقيدة الدينية. والأرثوذكس والنساطرة وأتباع أرطيخوس واليعاقبة يضطهد بعضهم بعضا، وقد استحكمت بينهم العداوة التي لا تفتر ولا تنقطع؛ ولا نكون مبالغين في الحكم على مساوئ الجدل الديني إذا افترضنا أن كثيرا ربما فرحوا بوقوع خصومهم في إسار الكفار، إذا كان هذا أفضل عندهم من أن يجمع بينهم هدف مشترك في سبيل الدفاع عن المسيحية التي تربط بنيهم، فكم من أناس لا بد أن يكون هذا الجدل المستمر قد زعزع أسس عقيدتهم! وكم كان يكون غريبا لو أن هؤلاء الآلاف من الناس لم يلتمسوا، وهم في ضجرهم وحيرتهم، ملجأ من هذه المجادلات التي لا تنتهي عند حد ولا تعرف اللين والتسامح، في تلك الحقيقة البسيطة الواضحة، حقيقة الوحدانية مهما طولبوا بالاعتراف ببعثة مُحَمَّد ونبوته».

وشبيه بهذا ما يراه كيتاني Caetani من أن انتشار الإسلام بين نصارى الكنائس الشرقية إنما كان نتيجة شعور باستياء من السفسطة المذهبية التي جلبتها الروح الهيلينية إلى اللاهوت المسيحي. «أما الشرق الذي عرف بحبه للأفكار الواضحة البسيطة فقد كانت الثقافة الهلينية وبالا عليه من الوجهة الدينية، لأنها أحالت تعاليم المسيح البسيطة السامية إلى عقيدة محفوفة بمذاهب عويصة، مليئة بالشكوك والشبهات؛ فأدى ذلك إلى خلق شعور من اليأس بل زعزع أصول العقيدة الدينية ذاتها، فلما أهلت آخر الأمر أنباء الوحي الجديد فجأة في الصحراء، لم تعد تلك المسيحية الشرقية التي اختلطت بالغش والزيف وتمزقت بفعل الانقسامات الداخلية، وتزعزعت قواعدها الأساسية، واستولى على رجالها

---

(١) ومن غير عبر المؤرخ المسلم من لسان الإمبراطور هرقل بقوله: "إن دينهم جديد يجدد لهم ثبارهم" (طبري ١: ٢١٠٣).

(٢) History of latin Christianity, vo0l.ii. pp.216-17.

اليأس والقنوط من مثل هذه الريب، لم تعد المسيحية بعد تلك قادرة على مقاومة إغراء هذا الدين الجديد الذي بدد بضربة من ضرباته كل الشكوك التافهة، وقدم مزايا مادية جليلة إلى جانب مبادئه الواضحة البسيطة التي لا تقبل الجدل، وحينئذ ترك الشرق المسيح وارتمى في أحضان نبي بلاد العرب»[١].

أضف إلى هذا قول تايلور[٢] Canon Taylor «إنه من اليسير لماذا انتشرت تلك اليهودية المهذبة بهذه السرعة في إفريقية وأسيا، كان أئمة اللاهوت في إفريقية والشام قد استبدلوا بديانة المسيح عقائد ميتافيزيقية عويصة: ذلك أنهم حاولوا أن يحاربوا ما ساد هذا العصر من فساد بتوضيح فضل العزوبة في السماء وسمو البكورية إلى مرتبة الملائكة، فكان اعتزال العالم هو الطريق إلى القداسة، والقذارة صفة لطهارة الرهبة، وكان الناس في الواقع مشركين يعبدون زمرة من الشهداء والقديسين والملائكة؛ كما كانت الطبقات العليا مخنثة يشيع فيها الفساد، والطبقات الوسطى مرهقة بالضرائب[٣]، ولم يكن للعبيد أمل في حاضرهم ولا مستقبلهم. فأزال الإسلام، بعون من الله، هذه المجموعة من الفساد والخرافات، لقد كان ثورة على المجادلة الجوفاء في العقيدة وحجة قوية ضد تمجيد الرهبانية باعتبارها رأس التقوى. ولقد بين أصول الدين التي تقول بوحدانية الله وعظمته، كما بين أن الله رحيم عادل يدعو الناس إلى الامتثال لأمره والإيمان به وتفويض الأمر إليه. وأعلن أن المرء مسئول، وأن هناك حياة آخرة ويوما للحساب، وأعد للأشرار عقابا أليما؛ وفرض الصلاة والزكاة والصوم وفعل الخير؛ ونبذ الفضائل الكاذبة والدجل الديني والترهات والنزعات الأخلاقية الضالة وسفسطة المتنازعين في الدين؛ وأحل الشجاعة محل الرهبنة؛ ومنح العبد رجاء، والإنسانية إخاء، ووهب الناس إدراكا للحقائق الأساسية، التي تقوم عليها الطبيعة البشرية».

---

(١) Caetani, vol. ii. Pp.1045-6.

(٢) A paper read before the Church Congress at Wolverhampton, October 7th, 1887.

(٣) انظر ما كتب من النظام المالي المجحف في ظل الدولة البيزنطية وذلك في:
Gfrorer: Byzantinsche Geschicgten, vol. ii.pp337-9, 389-91, 450.

أضف إلى ذلك أن الإسلام قد نظر إليه بعض الباحثين على أنه رد فعل ضد النظام الكنسي البيزنطي[١] الذي كان يمثل الإمبراطور ورجال بلاطه صورة من الجلالة الإلهية في الأعالي، وينظر إلى الإمبراطور نفسه لا على أنه الحاكم الدنيوي الأعظم فحسب، بل على أنه الكاهن الأكبر كذلك[٢]. وفي عهد جستنيان Justinian نرى هذا النظام يزداد تعسفا حتى يستحيل استبداد بجثم بأثقاله الحديدية على رجال الكنيسة والعامة على سواء، وفي سنة ٥٣٢م انفجر السخط، الذي كان سائدا في القسطنطينية، على الكنيسة والدولة معا، وتحول ثورة على حكومة جستنيان لم تقمع إلا بعد أن ذبح خمسة وثلاثون ألف شخص. أما حزب الجرين Greens الذي كان اسمه يطلق على جماعة المتذمرين، فقد وضعوا في ناديهم احتجاجا قويا صريحا على اضطهاد الإمبراطور، ونادوا قائلين: «لقد فقد العدل من الدنيا ولن يكون مرة أخرى، ولكنا سنتهود، بل سوف نعود إلى عبادة الوثنية الإغريقية»[٣]. ولم يمح مرور قرن من الزمان شيئًا من بواعث السخط التي تجلت في هذا المقام في مثل ذلك التعبير القوي، إلا أن يد الحكومة البيزنطية الغاشمة قد حالت دون اندلاع ثورة كتلك الثورة التي حدثت سنة ٥٢٣، وأرغمت المتذمرين على التفرق. ومع ذلك انكشف في القسطنطينية في سنة ٥٦٠م أمر جماعة وثنية مستترة فأنزل بهم العقاب[٤]. بيد أن أمثال هؤلاء المتذمرين الذين كانوا يقيمون في أطراف الإمبراطورية بمنأى عن العاصمة كانوا أكثر طمأنينة، وقد اتخذ الهراطقة الذين اضطهدتهم الحكومة وغيرهم من الساخطين على كنيسة الدولة البيزنطية من الشرق ملجأ يلجئون

---

(١) «وكان الإسلام عبارة عن رد فعل ضد ما أظهره جستنيان من سوء التصرف نحو الإنسانية وخاصة الديانة المسيحية التي كان يزعم جستيان أنه رئيسها الأعلى الروحي والدنيوي، ويرجع الفضل إلى حد كبير فيما أصابه محمد العربي الذي ولد عام٥٧١م أي بعد وفاة جستنان بسبب سنوات من نجاح منقطع النظير في دعوته إلى ذلك النفور الذي أحست به الاسم التي كانت في داخل حدود الدولة البيزنطية وفيما جاورها من الأمم من الفظائع التي ارتكبها باسيلوس"

Gfrorer: Byzantinsche Geschiten vol. ii. P437.

(٢) Id. Vol. ii, pp. 290-306.

(٣) Id. Vol. ii, pp. 442-4.

(٤) Id. Vol. ii. Pp.445.

إليه، وهنا لا بد أن تكون جيوش المسلمين قد لقيت ترحيبا من أبناء هؤلاء الروحانيين الذين كانوا قد رغبوا قبل ذلك الحين بمائة سنة في أن يستبدلوا بالدين المسيحي عقيدة أخرى.

أضف إلى ذلك أيضًا أنه كان لتعميم استعمال اللغة العربية في كافة أرجاء البلاد الخاضعة للخلافة الإسلامية، وبخاصة المدن والمراكز الكبرى الآهلة بالسكان، كما كان كذلك للتماثل الذي تم تدريجيا في الأخلاق والعادات، والذي أدى في خلال ما يقرب من قرنين إلى اندماج الأجناس المغلوبة على اختلافها اندماجا قويا في الحياة القومية التي كان يحياها العنصر العربي الحاكم، كان لهذا كله من غير شك صدى في الحياة الدينية والفكرية لدى كثيرين من أفراد الديانات التي دخلت في حماية العرب الفاتحين، ومن المحتمل جدا أن تكون الحركة الفكرية التي أثرت في العقيدة الإسلامية تأثيرًا بالغا ابتداء من القرن الثاني حتى القرن الخامس للهجرة، قد أثرت في المفكرين المسيحيين وصرفتهم عن ديانة كانت روح عقيدتها السائدة تلوح في ذلك الوقت أنها عقيدة مستحيلة من الناحية العملية، وقد حفظ لنا أحد كتاب المسلمين الذين عاشوا في القرن الرابع الهجري حديثا مع أحد الأقباط نستطيع أن نعتبره في شيء من الاطمئنان مظهرا للاتجاه العقلي العام عند سائر الكنائس الشرقية في تلك الفترة: «دليلي على صحتها (صحة الديانة المسيحية) وجودي إياها متناقضة متنافية، تدفعها العقول وتنفر منها النفوس، لتباينها وتضادها، لا نظر يقويها ولا جدل يصححها، ولا برهان يعضدها من العقل والحس عند التأمل لها والفحص عنها، ورأيت مع ذلك أمما كثيرة وملوكا عظيمة ذوي معرفة وحسن رأي قد انقادوا إليها وتدينوا بها، فعلمت أنهم لم يقبلوها ولا تدينوا بها مع ما ذكرت من تناقضها في العقل إلا لدلائل شاهدوها وآيات علموها ومعجزات عرفوها أوجبت انقيادهم إليها»[1].

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى ينبغي أن نذكر أن هؤلاء الذين تحولوا من

(١) المسعودي ج٢ ص٣٨٧.

المسيحية إلى الإسلام تحت تأثير الاتجاهات العقلية التي سادت ذلك العصر قد وجدوا في الآراء الدينية عند المعتزلة كثيرا من المبادئ التي كانت مشتركة بين العقيدتين، حتى إنه بقدر ما كان لأصول العقيدة والاتجاه العقلي نحو كثير من المسائل الدينية من علاقة، فإننا نرى أن هذا التحول لم يبلغ من الشدة الحد الذي يظنه بعض الباحثين، وإذا ضربنا صفحا عن ذكر تلك المبادئ الأساسية المتعددة التي تتبادر حتى إلى أذهان هؤلاء الذين لا يعرفون عن تعاليم النبي إلا النزر اليسير، كان هناك وجهات نظر أخرى كثيرة مشتركة بين الديانتين، كانت نتيجة مباشرة للصلات الوثيقة التي قامت بين رجال الدين من المسيحيين والمسلمين في دمشق في عهد الخلفاء الأمويين، كما قامت أيضا هذه الصلات في أزمان متأخرة، إذ ثبت أن هناك شواهد بينة تدل على ما كان لعلماء اللاهوت البيزنطية من أثر في تقدم البحث في المذاهب الإسلامية بصورة منظمة، وإن أقدم أحكام الدين التي وضعت باللغة العربية لتوحي إلينا صيغتها بالشبه بينها وبين الوسائل المماثلة لها، التي كتبها القديس يوحنا الدمشقي وغيره من الآباء المسيحيين[(١)].

وقد نشأ أقدم أنواع التصوف العربي الذي كان متجها اتجاها خالصا نحو حياة التقشف (كما كان يتميز عن التصوف الحلولي الذي جاء فيما بعد)، نشأ هذا النوع بتأثير الأفكار المسيحية إلى حد بعيد[(٢)]. ويمكن أن نتبع هذا التأثير في عقائد بعض فرق المعتزلة[(٣)] بوجه خاص. الذين شغلوا أنفسهم في الجدل في صفات الطيبة الإلهية، كما كان يفعل علماء اللاهوت البيزنطيون تماما؛ فمن المحتمل أن تكون القدرية أو القائلون بالإرادة الحرة من المسلمين قد استعاروا نظريتهم في حرية الإرادة الحرة من المسلمين قد استعاروا نظريتهم في حرية الإرادة من المسيحية مباشرة، كما نجد المرجئة في إنكارها لنظرية العقاب الأبدي تتفق تمام الاتفاق مع تعاليم الكنيسة في هذا الموضوع، وهو رأي يناقض الرأي

---

(١) Von Kremer (2) P.8.

(٢) Id. P54 and (3) P. 32 Nocholson, P.231.

(٣) ويقال إن محمد بن الهذيل مؤدب المأمون وأحد فلاسفة المعتزلة حول إلى الإسلام ما يزيد على ثلاثة آلاف شخص (أحمد بن يحيى المرتضى ص٢٦س٧).

الذي أجمع عليه أهل السنة من المسلمين[1]. هذا من وجهة أخرى فإن الأئمة الذين كانوا أكثر تحمسا للعقائد السنية في الإسلام كان لهم تأثير في تحول الكفار إلى هذا الدين؛ ويستدل على ذلك بالرواية القائلة بأن عشرين ألف مسيحيا ويهوديا ومجوسيا أسلموا يوم مات الإمام الأكبر أحمد بن حنبل[2] وقد ذكر أن أبا الفرج بن الجوزي (١١١٥–١٢٠١م) الفقيه السني المشهور الذي كان أعلم أهل زمانه وواعظا معروفا وكاتبا من أسبق الكتاب، أنه كان يفخر بأن مثل هذا العدد من الناس قد دخل في الإسلام على يديه[3].

أضف إلى ذلك أن ما أحرزته سيوف المسلمين من نجاح واسع النطاق، منقطع النظير، قد زعزع عقيدة الشعوب المسيحية التي أصبحت تحت حكمهم، ورأت أن هذه الفتوح قد تمت بعون من الله[4]، وأن المسلمين قد جمعوا بين النعيم في الدنيا وبين التوفيق الإلهي، وأن إله الحرب (كما زعموا) لم يجعل النصر إلا في أيدي عباده المختارين. وهكذا ظهر نجاح المسلمين دليلا على صدق دينهم.

كان المثل الأعلى الذي يهدف إلى أخوة المؤمنين كافة في الإسلام من العوامل القوية التي جذبت الناس بقوة نحو هذه العقيدة، ومع أن اعتداد العرب بنسبهم قد عمل مدة أجيال كثيرة على ألا ينال المسلمون المحدثون تلك المزايا التي كان يتمتع بها الجنس الحاكم، فإنهم قد حصلوا على مكانة مرموقة في المجتمع، وهم لا يزالون موالي للقبائل العربية المختلفة، التي كانوا قد تعودوا بادئ الأمر أن ينضووا تحت لوائها، وفي نهاية القرن

---

(١) Von kremer (2), pp. 7-8 C. H. Becker: Christliche Polemik und islamische Dogmenbildung (zeitschrift fur Assyriologie, XXVI, 1912).

(٢) ابن خلكان ج١ ص٤٥.

(٣) Wustenfeld, P.103

(٤) Michael the elder, vol, ii pp. 412-13 Caetani, vol. v.p.508.

(إن ما أحرزه العرب من انتصارات على اليونان والفرس لم يكن انتصارا العرب على شعوب الأقاليم المغلوبة على أمرها وحدها، وإنما كان كما مثل في أذهان الشرقيين الذين يرون يد الله في كل حادث، انتصارا لمبدأ الإسلام على المسيحية والمردكية بل على المسيحية بنوع خاص)..

الهجري الأولى حققوا لهذا المثل الأعلى مكانة الصادق من العقيدة الإسلامية، كما خفقوا له في الدولة اعترافا نظريا على أقل تقدير[1].

ولكن حال المسيحيين لم تكن دائما قائمة على هذا التسامح الذي كان في عهد خلفاء صدر الإسلام. فقد كانت تفرض أحيانا، في سبيل خدمة المؤمنين المخلصين بعض الحالات التي تضايق الأهالي من غير المسلمين (أو أهل الذمة) بحجة ضمان المزايا الاجتماعية السامية للمؤمنين. وقد قام بعض الخلفاء بمحاولات غير مجدية لإقصائهم عن الوظائف العامة. وأصدر المنصور (٧٥٤- ٧٧٥م)، والمتوكل (٨٤٧- ٨٦١م) والمقتدر (٩٠٨-٩٣٢م) والآمر (١١٠١- ١١٣٠) وهو أحد الخلفاء الفاطميين في مصر، مراسيم بهذا الصدد، وصدر مثل هذه المراسيم في عهد سلاطين المماليك في القرن الرابع عشر[2]. ولكن مجرد تجدد هذه المراسيم الخاصة بإقصاء الذميين من الوظائف الحكومية دليل على أن مثل هذه الأساليب التي تنطوي على التعصب لم تكن توضع موضع التنفيذ دائما. والحق أنه يمكن أن تكون هذه المراسيم راجعة بوجه عام إما إلى سخط شائع أثاره السلوك الخشن المتعجرف، الذي يسلكه الموظفن المسيحيون[3]. إلى سورات من التعصب حملت الحكومة على القيام بأعمال من التعسف تتنافى مع الروح العامة التي ظهر بها الحكم الإسلامي، ولكن مصير هذه الأعمال التعسفية قد آل إلى الزوال في أسرع وقت.

وتبدأ معاملة الأهلين من المسيحيين بصورة أشد عنفا منذ عهد هارون الرشيد (٧٨٦- ٨٠٩م) (١٧٠-١٩٣هـ) الذي أمرهم بأن يلبسوا يميزهم عن غيرهم وأن يتخلوا للمسلمين عن المناصب ويدلنا أول هذه المراسيم على أنه قلما روعي عهد واحد على الأقل من تلك العهود التي نسبت إلى الخليفة عمر، وأن هذه المراسيم لم تكن إلى

(١) Goldziher, vo0l. i. chaps 3.4

(٢) وقد أثار آخر هؤلاء السلاطين ما اكتشفه من أمر محاولة المسيحين إحراق مدينة القاهرة DE Guignes, vol. iv, pp.204-5) Gotteil P.359, Journal Asiatique IVme serie tome xviii (1851), pp.454, 555, 463, 491.

(٣) AssemaNi, tom, iii.pars 2, p.c. Renaudot, pp. 432, 603, 607.

حد كبير أثرا لشعور ديني بحت بقدر ما كانت أثرا للظروف السياسية التي سادت هذا العصر، وطالما تجشم المسيحيون في ظل الحكم الإسلامي بسبب ما أضمره الغرباء من الحكام المسيحيين من سوء الظن في العقيدة الإسلامية، كما ظهر ذلك في علاقاتهم بأمراء المسلمين، وهذه الحالة تفسر لنا ما ارتكبه الإمبراطور البيزنطي، نقفور **Nicephorus** من غدر جعلت اسم المسيحي مبغضًا إلى هارون الرشيد[١].

ويمكن أن نرجع كثيرا من اضطهادات المسيحيين في البلاد الإسلامية إما إلى الشك في ولائهم الذي كانت تثيره دسائس المسيحيين الغرباء وأعداء الإسلام وتدخلهم في شئونهم، أو إلى ذلك الشعور السيء، الذي أثاره ذلك المسلك القائم على الخيانة والقسوة الذي ظهر به هؤلاء الأجانب نحو المسلمين، على أن التعصب الديني مسئول عن كثير من أمثال هذه الاضطهادات، كما حدث في عهد الخليفة المتوكل (٨٤٧-٨٦١م) (٢٣٢ -٢٤٧هـ) الذي اتخذ نحو المسيحيين إجراءات شديدة من التعسف. فقد استغل هذه الخليفة ما كان قد حدث في العقيدة الإسلامية من رد فعل قوي للحركات العنيفة التي شنها أهل السنة على النزعات التي قامت على التعقل والتفكير الحر، والتي كانت قد وجدت مرعى خصيبا في عهد من سبقهم من الخلفاء، وتقدم باعتباره بطل جماعة المتزمتين من أهل السنة الذين كان السواد الأعظم من الناس ينتمون إليهم على حين كان الطبقات العليا[٢] تختلف معها في الرأي، والذين كانوا متعطشين للانتقام لتلك الاضطهادات قد تعرضوا لها في عهد المعتصم والواثق من قبل[٣]، فأخذ يخطب ودهم عن طريق اضطهاد المعتزلة، وتحريم كل جدل في القرآن وأعلن أن القول بخلق القرآن وأي خارج على الدين، كما أمر بحبس شيعة علي وضربهم، ونبش قبر الحسين بكربلاء ومنع زيارة مشهده. وساهم المسيحيون بنصيب في المحن التي تعرض لها سائر الخارجين على الدين، إذ تشدد المتوكل في تنفيذ القوانين التي كانت قد صدرت في

---

(١) **Muir: the Caliphate, p.475.**

(٢) **Von Kremer (3), p.246.**

(٣) ماري بن سليمان ص٧٩ وما يليها، صليبا بن يوحنا ص٧١.

عهد من سبقه من الخلفاء وميز بين أهل الذمة والمسلمين في الملبس، ومنع استخدام المسيحيين في المناصب العامة، وضاعف ضريبة الرأس، وحرم على المسيحيين أن يقتنوا أرقاء من المسلمين، أو يستخدموا الحمامات التي يستخدمها المسلمون، وضايقهم بما وضعه من قيود أخرى كثيرة.

ومما هو جدير بالملاحظة أن مؤرخي الكنيسة النسطورية – التي لم يكن بد من أن تقاسي الكثير من هذا الاضطهاد – يعدونه أمرًا حديث العهد انفرد به المتوكل وانتهى بوفاته[1]. وقد جدد أحد خلفاء المتوكل وهو المقتدر (٩٠٨– ٩٣٢م) (٢٩٥–٣٢٠هـ) هذه القوانين التي يظهر بوضوح أن انقضاء نصف قرن عليها قد أدى إلى إهمالها، وقد أدت سورات أخرى من التعصب إلى تخريب كنائس للمسيحيين ومعابد لليهود[2]. كما أدى الرعب الذي ألقاه مثل هذا الاضطهاد في النفوس إلى ارتداد كثيرين عن الكنيسة المسيحية[3]. ولكن مثل هذا التعسف كان منافيا لروح الإسلام السمحة، والتعاليم التي أثرت عن النبي[4]، وقد حاول الفريق المتعصب، دون جدوى، أن يفرضوا تنفيذ الأساليب التعسفية بصفة مطردة إذلالا للأهالي من غير المسلمين، «فالعلماء (أي المثقفون ورجال الدين) يقدرون هذه الأمور فيبكون ويئنون في صمت، على حين يتغاضى عن هذه الأمور أولئك الحكام الذين أوتوا من السلطة ما يمكنهم من أن يقضوا على هذه المفاسد التي تنطوي على الإجرام». ولا يجوز أن نتخذ الأحكام التي قد تضعها فئة متعصبة من رجال الدين مقياسا لما قامت به الحكومات المدنية من تصرفات، ولن نصادف شيئًا من النجاح إذا أردنا التحقق من هذه الفكرة التي جعلت من الممكن وقوع

---

(١) Gotteil, P. 364, sqq.

(٢) ماري بن سليمان ص١١٤ (س١٤– ١٦)

(٣) ويظهر أن هذا الحديث النبوي قد ورد بصيغ متعددة فروى مثلا "من ظلم معاهدا (يعني ذميا) وكلفه فوق طاقته فأنا حقيقة» (البلاذري آخر ص١٦٢) (ويضيف يحي بن آدم في آخر ص٥٤ قوله إلى يوم الدين) ويذكره المكين، المؤرخ المسيحي (ص١١) بقوله: من عذب أهل الذمة فقد عذبني».

(٤) وانظر أيضا: Journal Asiatique, IVme serie, tome xix. P. 109 (Paris, 1852) R. Gottheil: A Fetwa on the appointmen of Dhimmis to office (zeitschift fur assyriologie, vol. xxvi, P203 sqq).

هذه الصور المنطوية على المبالغة فيما عاناه المسيحيون من متاعب في ظل الحكم الإسلامي التي صورها هؤلاء الكتاب الذين زعموا أن فتاوى طائفة معيشة من الفقهاء تمثل هذه التصرفات المتباينة، ويظهر أن أمثال سورات الاضطهاد هذه قد أثارها في بعض الحالات هؤلاء المسيحيون الذين شغلوا مناصب عالية في خدمة الحكومة من جراء إساءة استعمال سلطاتهم فأثاروا على أنفسهم بظلمهم المسلمين شعورا قويا من الاستياء.

وقد قيل إنهم استغلوا مناصبهم العالية في سلب أموال المؤمنين ومضايقتهم ومعاملتهم بشيء كثير من الغلطة والقحة وتجريدهم من أراضيهم وأموالهم، وقد تقدم المسلمون بالشكوى إلى الخليفة المنصور (٧٥٤- ٧٧٥م) (١٣٦- ١٥٨هـ) والمهدي (٧٧٥- ٧٨٥م) (١٥٨ -١٦٩هـ) والمأمون (٨١٣-٨٣٣م) (١٩٨- ٢١٨هـ) والمتوكل (٨٤٧- ٨٦١م) (٢٣٢- ٢٤٧هـ) والمقتدر (٩٠٨-٩٣٢م) (٢٩٥- ٣٢٠هـ) وإلى كثير من خلفائهم[١]. كما تعرضوا أيضا لبغض كثير من المسلمين باستخدامهم عيونا للدولة العباسية ومطاردة أشياع البيت الأموي الذي أقصي عن الحكم[٢]. وفي عصر متأخر اتهم المسيحيون في زمن الحروب الصليبية باتصالهم بالصليبيين[٣] اتصالا ينطوي على الخيانة، فجعلوا على أنفسهم قيودا شديدة الحرج، ليس من العدل أن نصفها بأنها اضطهاد ديني.

وبمقدار ما كان يشتد العبء على كاهل الشعوب المغلوبة على أمرها كانت تشتد رغبتهم في تخليص أنفسهم من الشقاء، فيقولون: «لا إله إلا الله، مُحَمَّد رسول الله». وعندما كانت الدولة في حاجة إلى المال – إذا كانت الحالة تتطلب هذه الزيادة –كانت الحكومة لا تفتر عن إثقال كاهل الشعوب المحكومة بالضرائب، حتى أصبحت حالة الطوائف من غير المسلمين تزداد سوءا بصورة مطردة، وكلما ازداد هذا الاضطهاد شدة وعنفا ازداد دخول الناس في الإسلام. وأن هذا السجل المظلم الحافل بالفضائح التي امتلأت بها

---

(١) Belin. Pp. 435-40, 442, 448, 456, 459-61, 479-80

(٢) Id, P.435. n.2

(٣) Id. P.478.

صفحات مؤرخي المسيحيين في هذا العصر المتأخر ليوحي إلينا بأن الكنائس المسيحية قد أخفقت في تنمية قوة خلقية متينة كافية لتحمل الحالات المناوئة، فإذا ما حل الاضطهاد وارتد المسيحيون عن دينهم، وجب أن نبحث عن هذا الارتداد – كما يظن مؤرخ الكنيسة النسطورية(١) – فيما ساد رجال الكنيسة من إهمال شامل في إقامة الشعائر الدينية وما تطرق إلى حياتهم من فساد.

وقد نجد عوامل أخرى ساعدت على تناقص الشعب المسيحي في هذه الحقيقة القائلة بأن كثيرا من أطفال الأسرى من المسيحيات الكثيرات اللواتي حملن إلى بيوت المسلمين بين طبقة الحريم لم يكن بد من أن ينشئوا على دين آبائهم، وإن كثيرا من الإغراء كان يقدمه السيد المترف لمولاه المسيحي بإعتاقه ثمنا لتحوله إلى الإسلام. ولكننا لم نسمع عن أية محاولة مدبرة لإرغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الإسلام، أو عن أي اضطهاد منظم قصد منه استئصال الدين المسيحي.

ولو اختار الخلفاء الخطتين لاكتسحوا المسيحية بتلك السهولة التي أقصى بها فرديناند Ferdinand وإيزابيلا Isabella دين الإسلام من إسبانيا أو التي جعل بها لويس الرابع عشر Louis XIV المذهب البروتستانتي مذهبا يعاقب عليه متبعوه في فرنسا، أو بتلك السهولة التي ظل بها اليهود مبعدين عن إنجلترا مدة خمسين وثلاثمائة سنة، وكانت الكنائس الشرقية في آسيا قد انعزلت انعزالا تاما عن سائر العالم المسيحي الذي لم يوجد في جميع أنحاء أحد يقف في جانبهم باعتبارهم طوائف خارجة عن الدين، ولهذا فإن مجرد بقاء هذه الكنائس حتى الآن ليحمل في طياته الدليل القوي على ما قامت عليه سياسة الحكومات الإسلامية بوجه عام من تسامح نحوهم(٢).

(١) عرض ماري بن سليمان (ص١١٥ س١-٢) تعليلا لحالات الارتداد هذه التي أعقبت الاضطهاد حول نهاية القرن العاشر بقوله: وأسلم خلق كثير وكان أصل ذلك تجوز اليأس في أديانهم وقبح سيرة الكهنة في المذابح والبيع وبيوت المقدس.

(٢) والواقع أن الحاكم بأمر الله الفاطمي (٩٩٦-١٠٢٥م) كان قد أمر كل اليهود والمسيحيين بأن يغادروا مصر ويهاجروا إلى الأرض البيزنطية، ولكنه نزل عن رأيه بعد ان توسلوا إليه (مقريزي (١) ص٩١)، على أنه قد كان في

وقد بقي إلى الآن نحو من خمسين ومائة ألف من نساطرة[1] الكنائس القديمة التي كانت تقيم في غرب آسيا وقت الفتح الإسلامي، وكان يمكن أن يكون عددهم أكثر من ذلك لولا تلك الجهود التي قامت كنائس مسيحية أخرى في نشر تعاليمها، فكان عدد الكلديين الذي خضعوا لكنيسة رومة سبعين ألفا. وفي سنة ١٨٩٨ انضم إلى الكنيسة الروسية الأرثوذكسية الأسقف النسطوري ماريونان Mar Jonan مع عدة من رجال الكنيسة وخمسة ألفا من النساطرة، كما تحولت أيضا جموع من النساطرة إلى المذهب البروتستانتي[2]. وباشر بطريق أنطاكية اليعقوبي سلطته القضائية على نحو من ثمانين ألفا من أفراد هذه الكنيسة القديمة، على حين انقادت خمسة وعشرون ألف أسرة من اليعاقبة الذين يطلق عليهم (Uniat Jacobites) لأمر البطريق الكاثوليكي السوري[3]. أما فيما يتصل بالكنيسة الأرثوذكسية الإغريقية، فهناك ثمانية وعشرون ألفا وستة وثلاثون وثمانمائة أسرة بزعامة بطريق أنطاكية، وأكثر من خمسة عشر ألف شخص برياسة بطريق بيت المقدس[4]، على حين بلغ عدد الملكانيين أو الكاثوليك الإغريق قرابة ثلاثين ومائة ألف[5]. وكان يتبع الكنيسة المارونية، التي اتخذت مع الكنيسة الرومانية الكاثوليكية منذ سنة ١١٨٢م، ثلاثمائة ألف شخص[6].

ومما يثير العجب أن هذه الطوائف المنعزلة الكشتتة قد بقيت زمنا طويلا معرضة

مكنته أن ينفذ أمره بالقوة كما فعل السلطان العثماني سليم الأول (١٥١٢–١٥٢٠) الذي ذبح أربعين ألف شاب في سبيل تنفيذ خطته التي كانت ترمي أن القضاء على جل الخلافات الدينية في بلاده، كما أنه أتم هذه الخطة السياسية باستئصال شأفة المسيحيين كذلك ولكنه، حين سمح لنفسه أن يرجع عن هذه الخطة، لم يكن ثمة شك في أنه عمل طبعا السياسة العامة التي اتخذها الحكام المسلمون بإزاء رعايتهم المسيحيين. (Finalay, vol. v.PP. 29-30)

(١) Silbernagl, P.268.

(٢) Id. P. 354.

(٣) Id. PP. 307.360.

(٤) Id. P.25-6.

(٥) Id. P. 335.

(٦) Id. P.387.

كما كانت من قبل لتخريب الحرب والوباء والمجاعة[١]، تقيم في بلاد كانت ميدانا لحروب لم تنقطع مدة قرون، ويجتاحها الأتراك والمغول والصليبيون[٢]. وأنه لا يعزب عن أذهاننا كذلك أن الشريعة الإسلامية قد حرمت عليهم أن يعوضوا عن طريق بذل الجهود في سبيل نشر الدعوة ما أصاب عدد هؤلاء المسيحيين من نقص – لو أنهم قد وجهوا العناية إلى هذه الغاية حقًا، إذ يظهر أن هؤلاء المسيحيين (مع استثناء النساطرة) قد فقدوا الروح التبشيرية حتى قبيل الفتح الإسلامي، تلك الروح التي تدلنا التاريخ الحافل بكثير من الشواهد على أنه لا يمكن لهؤلاء أن يحيوا بدونها حياة سليمة في ظل كنيسة مسيحية. ويزعم بعض الباحثين أيضا أن الرهبنة التي كانت تعتبر مثلا أعلى للتقشف والتي كانت منتشرة في الشرق انتشارا واسعا، ثم ما جرى عليه المسيحيون من الزواج بواحدة فحسب، وشعورهم بعدم الاطمئنان، وما كانوا فيه من الذل –كل ذلك ربما وقف حجر عثرة في طريق نمو السكان المسيحيين[٣].

وليس لدينا إلا النزر اليسير من المعلومات التي تتعلق بتحول الناس إلى الإسلام، ويظهر أن المسيحيين في بداية احتلال العرب لبلادهم قد انتقلوا إلى الإسلام في جموع هائلة، ويمكن أن نكون فكرة ما عن مدى ذلك التحول المبكر إلى الإسلام في العراق مثلا، إذا علمنا أن إيراد الضرائب في عهد عمر كان يتراوح بين ١٠٠ ألف و١٢٠ ألف درهما، على حين هبط في عهد عبد الملك، أي بعد نحو خمسين عاما إلى أربعين ألف ألف درهم. وبينما يعزى هذا التدهور في الخراج إلى حد كبير، إلى التخريب الذي كان نتيجة الحروب والفتن فإنه ما زال ينسب أولا وقبل كل شيء إلى هذه الحقيقة، وهي أن جموعا غفيرة من الأهلين كانوا قد دنوا بالإسلام، ومن ثم لم يطالبوا بعد بدفع ضريبة الرأس[٤].

---

(١) A. von Kremer (1), vol. ii.pp.490-2

(٢) وقد تتخذ ما حل القسطنطينية سنة ١٢٠٤م من خراب على يد الصليبيين نموذجا للمعاملة التي لقيها المسيحيون الشرقيون من اللاتينيين. ويشكو ابن العبري من أن دير حران قد هاجمه الكونت جوسلين Goscelin، صاحب حمص، وأنزل به الدمار سنة ١١٨٤ كأنه تماما واحد من الغرب أو الأتراك (Barhebraeuse, (1) vol ii. Pp. 506-8)

(٣) H. H. Milman, vol. ii. P.218.

(٤) A. von Kremer (1), vol. i.p.172

وشهدت هذه الفترة ذاتها تحول جماعات كبيرة من نصارى خراسان إلى الإسلام، كما نقف على ذلك من رسالة لأحد رجال الكنيسة المعاصرين وهو البطريق النسطوري يشوع ياف الثالث Isho Yabh، وكان قد بعث هذه الرسالة إلى سمعان Simeon مطران ريفاردشير Revardashir ورئيس أساقفة فارس، ولا نملك إلا النزر اليسير من الوثائق المسيحية التي ترجع إلى القرن الأول الهجري، وتحمل هذه الرسالة الدليل الساطع على طابع الهدوء والمسالمة في نشر هذا الدين الجديد، أضف إلى ذلك أن المؤرخين المحدثين لم يفطنوا إلى هذه الرسالة إلا قليلا، لهذا لا نرى بأسا من أن تذكرها هنا كاملة: «أين أبناؤك، أيها الأب الذي ثكل أبناءه؟ أين أهل مرو العظماء، الذين على الرغم من أنهم لم يشهدوا سيفا ولا نارا ولا تعذيبا، ولم يسيطر على نفوسهم إلا حب التجارة والأخذ منها بنصيب، تنكبوا الطريق المستقيم وكبكبوا في هوة الضلال — في الهلاك المقيم – وسيقوا إلى الفناء ولم ينج إلا قسيسان (قسيسان بالاسم على الأقل) من نار الكفر المحرقة كما تنتزع جمرتان من اللهيب..

واحسرتاه! واحسرتاه! على هذه الآلاف المؤلفة التي تحمل اسم المسيحية، والتي لم يتقدم حتى واحد منها ليهب نفسه ضحية للرب وبريق دماءه في سبيل الدين الحق. أين كذلك معابد كرمان وبلاد فارس وجمعاء؟ إن الذي أنزل بهم الخسران والدمار لم يكن وساوس إبليس ولا إرادة ملوك الأرض ولا أوامر حكام البلاد، ولكنه نفثة ضعيفة من نفثات شيطان تافه حقير لم تعده الشياطين التي بعثته في مهمته جديرا بشرف الشياطين، ولم يمنحه إبليس قدرة على الخداع الشيطاني حتى يستطيع أن يبثه في بلادكم، ولكنه بإشارة من أمره هدم جميع الكنائس في بلادكم فارس... وإن العرب، الذين منحهم الله سلطان الدنيا، يشاهدون ما أنتم عليه، وهم بينكم، كما تعلمون ذلك حق العلم: ومع ذلك فهم لا يحاربون العقيدة المسيحية، بل على العكس، يعطفون على ديننا، ويكرمون قسسنا وقديسي الرب، ويجودون بالفضل على الكنائس والأديرة، فلماذا إذا هجر شعبك من أهل مرو عقيدتهم من أجل هؤلاء العرب؟ ولماذا حدث ذلك أيضًا في وقت لم يرغمهم فيه العرب، كما يصرح بذلك أهل مرو أنفسهم، على ترك دينهم، بل تعهدوا لهم

أن يبقوا عليه آمنا مصونا إذا هم اقتصروا على أداء جزء من تجارتهم إليهم. ولكنهم هجروا العقيدة التي تجلب الخلاص الأبدي إبقاء على نصيب من عرض هذه الدنيا الزائلة.. تلك العقيدة التي اشترتها وتشتريها حتى هذا اليوم شعوب بأسرها بإراقة دمائها حتى ترث بذلك حياة أبدية، إن شعبك من أهل مرو قد قبلوا عن رغبة أن يغيروا دينهم من أجل جزء من تجارتهم، بل من أجل ما هو أقل من ذلك»[(١)]. وقد امتاز عهد الخليفة عمر الثاني (٧١٧- ٧٢٠م)، (٩٩- ١٠١هـ) بحركة أول قبول إلى الإسلام واسعة النطاق؛ فقام بتنظيم حركة ملؤها الحماسة في نشر الدعوة، وقدم للشعوب المحتلة كل لون من ألوان الإغراء لقبول الإسلام، حتى بمنحهم هبات من المال، وقد قيل إنه أعطى في إحدى المناسبات قائدا نصرانيا (بطريقا) ألف دينار تألفه بها على الإسلام[(٢)]؛ كما أمر عمال الولايات بدعوة الذميين إلى الإسلام. وقد قيل إن الجراح بن عبد الله وإلى خراسان قد أدخل في الإسلام نحوًا من أربعة آلاف شخص[(٣)]، بل لقد قيل أيضا إنه كتب إلى ملك الروم لايون الثالث (Leon III) يدعوه إلى الإسلام[(٤)]. وقد ألغى القرار الذي كان أصدره عام ٧٠٠م لوضع حد لما أصاب الخزانة من العجز، وقد أدى إلى أن الشخص الذي كان يدخل في الإسلام لم يعف من دفع ضريبة الرأس، بل أرغم على أن يظل على أدائها كما كان يفعل من يفعل، حتى ولو أسلم قبل السنة التي تدفع فيها الجزية بيوم واحد، أو أسلم والجزية في كفة الميزان[(٥)]. ولم يجب الخراج بعد ذلك من أصحاب الأراضي من المسلمين، بل فرضت عليهم ضريبة أخف من ذلك وهي ضريبة العشر، وكانت هذه الأساليب، وإن انطوت على خسارة فادحة من الناحية المالية، قد صادفت نجاحا تاما في الاتجاه الذي كان يريد أن يحققه الخليفة صاحب العقلية التي أشربت الورع والتدين،

---

(١) Assemani, tom, iii, Pars Prima, pp.130- 1.

(٢) ابن سعد: الطبقات، ج٥، ص٢٥٨.

(٣) المصدر نفسه ص٢٨٥.

(٤) محبوب المنجي ص٣٥٨ (س٢-٣)

(٥) ابن سعد: الطبقات، ج٥، ص٢٦٢.

فبادرت جموع هائلة في زمرة المسلمين[١].

ومع ذلك لا ينبغي أن نفترض أن مثل هذه الاعتبارات المادية كانت هي المؤثرات الوحيدة الفعالة في تحول المسيحيين إلى الإسلام، وأن ما كتبه القديس يوحنا الدمشقي (الذي عاش في هذا القرن نفسه)، من الكتب التي ألفها في الجدل لتمدنا بلمحات، عن طريق ما أثاره من جدال في الجهاد الإسلامي الذي يقوم على الحماسة في سبيل تفويض دعائم العقيدة المسيحية، وإن صياغة هذه الرسائل في قالب الحوار وكثرة التكرار في مثل قوله «إذا سألك العربي»، إذا قال لك العربي... فأجبه»... فإن هذه العبارات تعطي مظهرا يكاد يقرب من الحقيقة ويجعلها تبدو كما لو كان المقصود بها تزويد المسيحيين بإجابات حاضرة ردا على الاعتراضات المختلفة التي كان جيرانهم المسلمون يوجهونها إلى العقيدة المسيحية[٢].

وطبيعي أننا لا ننتظر إلا أن يكون سلوك التحدي الذي ظهر به المجادل المسلم قد عرض بصورة بارزة هذه المحاورات، حيث إنه لم يكن من غرض هذا اللاهوتي الكبير أن يبرز موقف الإسلام فيما يكتب، وكذلك كتب تلميذه، الأسقف تيودور أبو قرة بعض محاورات[٣] تقوم على الجدل مع المسلمين طرق فيها المتناظرون كل مواطن النزاع بين العقيدتين، وكان المسلمون، كما رأينا من قبل، هم البادئين بالتحدي، ونستطيع بهذا الحوار أن نكون فكرة ضئيلة عن النشاط الذي والاه المسلمون في هذه الفترة في عرض قضية الإسلام. فإن الأسقف قال: «تتجه أذهان أبناء هاجر وكل ما لديهم من حماسة نحو إنكار ألوهية الرب: الكلمة، ويقصرون كل جهودهم على تحقيق هذه الغاية[٤]

وكان البطريق النسطوري، طيموثيوس **Timotheus** يعقد مناظرات في المسائل الدينية بحضرة الخليفة الهادي، وهارون الرشيد وجمع هذه المناظرات في كتاب لم يعثر عليه

---

(١) **August Muller, vol. I, p.440.**

(٢) **Migne: parr. Gr. Tom 97. PP. 1528-9, 1548-61.**

(٣) **Id. P.1557.**

(٤) عمرو بن متى، ص٦٥.

للآن[1]. وقد ضمن طيموثيوس انتخابه لكرسي البطركية إزاء المعارضة النشيطة التي أبداها كثير من أقوى رجال الدين في كنيسته؛ وكان بين هؤلاء يوسف، مطران مرو، الذي وشى له لدى الخليفة المهدي (٧٧٥- ٧٨٥م) (١٥٨- ١٦٩ه) ولكن الخليفة قد حثه على قبول الإسلام وكافأه على ارتداده عن دينه القديم بهدايا ثمينة وأسند إليه منصبا من مناصب الدولة في البصرة.

أما هذه التفاصيل التي تتعلق بالقرنين الأولين للهجرة فإنها يسيرة للغاية، وتدل على أنه كانت هنالك جهود في نشر تعاليم الإسلام أكثر من دلالتها على وقائع معينة. ويظهر أن أول وثيقة وصلت إلينا وتدل على صورة واضحة من صور الدعوة إلى الإسلام ترجع إلى عهد المأمون (٨١٣ -٨٣٣م) (١١٨- ٢١٨ه)، وهي في صورة رسالة[2] كتبها ابن عم الخليفة إلى عربي مسيحي كريم المحتد، عظيم المنزلة في البلاط، وكان المأمون يحله من نفسه محل الاحترام والتقدير.

وفي هذه الرسالة يرجو من صديقه أن يدخل في الإسلام، وكان رجاؤه في لهجة تنم عن الود، وفي لغة تصور بوضوح مسلك السمح تجاه الكنيسة المسيحية في ذلك العصر. وتحتل هذه الرسالة في تاريخ الدعوة الإسلامية المبكر مكانا يكاد يكون فريدا في بابه، ولهذا أوردناها كاملة في الملحق الأول من ملاحق هذا الكتاب[3]. ونجد في ذلك المؤلف نفسه وصوفا لحديث حدث به الخليفة في مجلس يضم أشراف دولته تحدث فيه بأشد اللهجات ازدراء لهؤلاء الذين لم يسلموا إلا طمعا في الدنيا وجريا وراء مصالحهم الشخصية، ويوازن بين حالتهم وحالة الذين كانوا يتظاهرون بأنهم من أنصار النبي في الوقت الذي كانوا فيه يتآمرون على حياته. ومع ذلك فكما كان النبي يدفع بالحسنة السيئة، كذلك عقد الخليفة العزم على أن يعامل هؤلاء الناس معاملة لطيفة رقيقة حتى

---

(١) عمر بن متى، ص٧٢.

(٢) رسالة عبد الله بن إسماعيل الهاشمي إلى عبد المسيح ابن إسحق الكندي ص١-٣٧. (لندن، ١٨٨٥).

(٣) الملحق الأول، راجع الملحق الثاني لدراسة نبذة عن مصادر الجدل الإسلامي.

يقضي الله بينهم[١]. وأن تسجيل هذه الشكوى الصادرة من الخليفة لعلى جانب من الأهمية، من حيث إنها تدلنا على أن المسلمين كانوا ينتظرون ويرجون ممن دخلوا في الإسلام حديثا، اقتناعا بريئًا خالصا، كما تدلنا على أن اكتشاف الأنانية والبواعث الدينية في اعتناقهم للدين قد جرت عليهم أشد ألوان اللوم والتفريع.

كان المأمون نفسه شديد التحمس فيما قام به من جهود في نشر الإسلام، فأرسل إلى الكفار حتى إلى من كان يقيم منهم في أقصى أجزاء مملكته كبلاد ما وراء النهر وفرغانة يدعوهم إلى الإسلام[٢]، ولم يسيء في الوقت نفسه استعمال سلطته الملكية، بمحاولة فرض عقيدته على غيره، ذلك أنه لما قدم شخص يدعى يزدنبخت زعيم المانونية في زيارات لبغداد[٣]، وعقد مناظرة مع المتكلمين المسلمين وأفخمه فيها المتكلمون منهم، حاول الخليفة أن يقنعه باعتناق الإسلام. ولكن يزداد نبخت أبى ذلك وقال: «نصيحتك يا أمير المؤمنين مسموعة، وقولك مقبول، ولكنك ممن لا يجبر الناس على ترك مذاهبهم، فلم يبد الخليفة شيئًا من الاستياء لإخفاق محاولته ووكل به حفظه خوفا عليه من تعصب الغوغاء[٤].

وقد أشار بعض المؤرخين المسيحيين إشارات قليلة إلى حالات رؤساء الدين المسيحي الذين اعتنقوا الإسلام مثل جرجيس Geoge أسقف البحرين، الذي أسلم حول منتصف القرن التاسع، وكان قد أقصي عن منصبه لاتهامه ببعض التهم الكنيسة[٥]. وإن ما يستحق الذكر في هذا الصدد ما كان من إسلام أخ لجبريل، مطران فارس، حول منتصف القرن العاشر، لأنه قيل إن إسلامه كان موضع اعتراض على لياقة جبريل نفسه

---

(١) الكندي، ص١١١-١١٣.

(٢) البلاذري، ص٤٣٠.

(٣) ومن المحتمل جدا أن تكون المناسبة التي دفعت يزد نبخت إلى زيارة بغداد هي دعوة المأمون إلى عقد مجلس عظيم يضم زعماء جميع الطوائف الدينية في ذلك العصر، عندما وصل إلى مسامعه أن أعداء الإسلام قد جهزوا بأن الفضل فيما أحرزه الإسلام من نجاح إنما يرجع إلى العنف لا إلى قوة الحجة: وفي هذا المجلس دحض أئمة المسلمين ما نسب إلى دينهم من هذه التهم، ويقال إن الكفار قد احترقوا بأن المسلمين قد اتبعوهم بحجتهم، (أحمد بن يحيى المرتضى: المنية والأمل في شرح كتاب الملل والنحل **(British Museum, Or. 3937, fol. 53. (b), II.9-1.**

(٤) كتاب الفهرست ج١ ص٣٣٨.

(٥) ابن العبري(١) ج٣ ص١٩٤.

لانتخابه بطريقا على الكنيسة النسطورية[١].

وفي مستهل هذا القرن ذاته أسلم تيودور Theodore أسقف بيت جرماي Beth Garmai النسطوري، ولم يذكر المؤرخ الكنسي الذي سجل هذه الواقعة[٢] شيئًا عن استخراج أية قوة وإرغام في إسلام هذا الأسقف، ولو أن شيئًا من ذلك حدث لسجله من غير شك. وبعد عدة سنوات (بين سنتي ٩٦٢، ٩٧٩م)، أسلم كذلك فيلوكزينوس philoxenos أسقف أذربيجان اليعقوبي[٣]، وفي القرن الذي يليه، في سنة ١٠١٦، ذهب أغناطيوس Ignatius [٤] مطران تكريت اليعقوبي إلى بغداد ودخل في الإسلام في حضرة الخليفة القادر، وكان قد شغل هذا المنصب خمسة وعشرين عاما[٥]، وكان يكون من الممتع حقا لو امتدت فاتحة حياة كل من هذين الداخلين في الإسلام Apologia pro Vita sua لتكشف لنا عن التطور الديني الذي احتل مكانا في عقلية كل منهما، ويشير المؤرخ المسيحي إلى فساد الخلق، الذي كان سببا في التحول عن الدين في الحالات الثلاث الأخيرة. ولكن مثل هذا الاتهام الذي يدعم بشواهد أخرى محل لكثير الشك[٦]، وإن ما وصلنا من تحول هؤلاء البارزين من رجال الدين، إلى الإسلام، وكانوا من طائفتين متخاصمتين من الطوائف المسيحية، إنما كان راجعا من غير شك إلى مكانتهم السامية في

---

(١) ماري بن سليمان، ص١٠١ ،س٣– ٤).

(٢) ابن العبري (١) ج٣ ص٢٣٠.

(٣) ابن العبري (١) ج٣ ص٢٤٨

(٤) ويتخذ كل البطارقة اليعقوبيين اسم أغناطيوس، ويسمى قبل تقديسه بمرك برفيقي.

(٥) ابن ا لعبري () ج٣ ص٢٨٨–٢٩٠. Elas of Nisbis Pp. 153- 4 على أنه قد آب إلى الدين المسيحي قبل موته الذي حدث بعد ذلك بحوالي عشرين عاما، وهنالك حالتان مماثلتان مسجلتان في أخبار بطارقة أنطاكية اليعقوبيين في القرن السادس عشر: إحداهما حالة بطريق يدعى يشوع اعتنق الإسلام سنة ١٥١٧، ولكنه بعد ذلك ارتد وهرب إلى قبرص (التي كانت في يد البندقيين في ذلك الحين)، حيث خر ساجدا عند باب إحدى الكنائس في خضوع وندم، وتحمل بذلك جميع الذين وصلوا جسده من الداخلين في الكنيسة والخارجين منها: أما الآخر ويدعى نعمة الله الذي عاش حول سنة ١٥٦٠م، فإنه بعد أن ترك المسيحية واعتنق الإسلام، التمس العفو من البابا جريجوري الثالث عشر في رومة. (ابن العبري (١) ج٢، ص٨٩٧– ٨٩٨).

(٦) والواقع أن إلياس النصيبي، المؤرخ المعاصر لتحول البطريق اليعقوبي إلى الإسلام، لم يتعرض لذكر شيء من مثل هذه المفاسد، كذلك لم يذكر ماري بن سليمان (ص١١٥– ١١٦) شيئًا منها وهو مؤرخ الكنيسة النسطورية المنافسة للكنيسة اليعقوبية، مع أنه يتهمه بأنه قد خرب الآنية المقدسة وتصاوير الكنائس، وكما يقول رايت (Wright, (Syriac Literature, p.192) عن يوسف، بطريق مرو، لسنا في حاجة إلى الاعتقاد في كل المساوئ التي يخبرنا عنها ابن السبري عن هذا الرجل المسكين.

الكنيسة، على حين لم يسجل المؤرخون تحول غير هؤلاء إلى الإسلام من الأفراد الذين لم يكن لهم شأن يذكر. وكلما اقترب ابن العبري بتاريخه الكنسي من عصره، يقدم تفاصيل أوفى عن حياة أمثال هؤلاء الذين تحولوا إلى الإسلام؛ مثال ذلك ما ذكره في منتصف القرن الثاني عشر حين دون ما وقع فيه بعض الأساقفة اليعاقبة، من سقطات عامة، ويخص بالذكر هارون أسقف إحدى المدن في خراسان، نظرا إلى أنه قد أسلم بعد أن ثبت عليه إحدى الزلات الخلقية.

ولما ندم على تحوله عن دينه، أراد أن يسترد مركزه الأسقفي، ولكنه لما رفض طلبه، ذهب إلى القسطنطينية وأنكر مبادئ الكنيسة اليعقوبية، غير أن المقابلة التي لقيها في القسطنطينية قد أثارت في نفسه روح السخط والتذمر، فرجع إلى البطريق اليعقوبي، ثم انتقل ثانية إلى الإسلام (بدون أي مبرر)، وعندئذ ندم للمرة الثانية، وأخيرا قضى أواخر أيامه بين مارويي جبل لبنان[١].

وقد سعى دانيال أسقف خابور الذي كان يعاصر ابن العبري، في منتصف القرن الثالث عشر، والذي قيل أنه كان بارعا في العلوم الدنيوية، ليعين في أبرشية حلب، ولكنه لما أخفق في مسعاه هجر العقيدة المسيحية، وجلب إسلامه، الحزن والعار على الشعب المسيحي بأسره. ولكن الله (له المجد!) سرعان ما عزى شعبه المحزون، وأذهب العار عن الشعب الذي خلصه الرب؛ إذ بعد أشهر قلائل مات هذا الشقي التعيس بائسا في إحدى محطات القوافل، واندثر اسمه وأقصى عا، ولا يعرف أحد مستقره»[٢].

على أنه وإن كان التحول إلى الإسلام ليس مجرد أمثلة فردية، فإن لدينا شاهدا فيما أورده جاك دي فتري **Jacques de Vitry** أسقف عكا (١٢١٦– ١٢٢٥م)، الذي تحدث عن الكنيسة الشرقية بما له من خبرة عن شئونها في الأراضي المقدسة، فقال: «حين عملت تلك المغريات... التي جاء بها النبي... على استضعاف هذه الكنيسة

(١) ابن العبري (١)، ج٢ ص٥١٨.

(٢) نفس المرجع ج٢ ص٧١٢ وما يليها

وإيقاعها في الشرك على صورة تبعث على الألم المرير، انغمرت الكنيسة واعتنقت.. وكانت من قبل تنقلب في أعطاف النعيم»[1](*).

وإلى ذلك الحين كانت الكنائس المسيحية التي وصفت بأنها قد دخلت في نطاق تأثير الحكم الإسلامي عبارة عن الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية والطوائف الخارجة عن الدين التي تفرعت عنها. ولكن بانتهاء القرن الحادي عشر الميلادي انضم إلى أهالي الشام وفلسطين من المسيحيين عنصر جديد يتألف من هذه الجموع الهائلة من الصليبيين الذين كانوا يدينون بشعائر الأمم اللاتينية، واستقروا في مملكة بيت المقدس وسائر الولايات التي أسسها الصليبيون، وظلت تعيش مهددة قرابة من الزمان. وفي غضون هذه الفترة كانت تحدث من حين لآخر تحولات إلى الإسلام من بين هؤلاء المهاجرين الغرباء، ففي الحرب الصليبية الأولى مثلا، انشق على الطائفة الرئيسية جماعة من الألمان واللومبارديين بزعامة فارس مشهور يدعى **RaInaurd** وحاصرهم السلطان أرسلان السلجوقي في إحدى القلاع، وتظاهر هو وخاصة أتباعه بالقيام بهجومهم على محاصريهم في الخارج، فتركوا رفاقهم التاعسين إلى الأتراك حيث اعتنقوا الإسلام بينهم[2].

ويمثل لنا تاريخ الحرب الصليبية الثانية، تلك الحرب المشئومة، حادثة على جانب عظيم من الأهمية وهي شبهة بتلك الحادثة، والقصة كما ذكرها أودو الدويلي **Odo of Deuil** أحد رهبان القديس دينيس **Denis** الذي كان يشغل وظيفة قسيس خاص للويس السابع، وصحبه في هذه الحرب الصليبية، فكتب في وصفها نبذة هذا نصها: بينما كان الصليبيون يحاولون شق طريقهم برا عن طريق آسيا الصغرى إلى بيت المقدس، مشوا بهزيمة فادحة على أيدي الترك في ممرات فريجيا **Phrygia** الجبلية (١١٤٨م) وبلغوا مدينة أتاليا **Attalia** الساحلية بشق الأنفس.

---

(١) **(Historia Orientalis, C. 15 (P.45)**.

(*) ورد على لسان هذا الأسقف عبارات تمس الإسلام ونبيه الكريم فآثرنا عدم ذكرها، وهي تنطوي على روح من التعصب.

(٢) **De Guignes, tome ii. (Seconde partie) P.15.**

وهنا تمكن جميع الذين استطاعوا أن يرضوا المطالب الفادحة، التي كان يفرضها عليهم تجار الإغريق، من الإبحار إلى أنطاكية، بينما خلفوا وراءهم المرضى والجرحى وعامة الحجاج تحت رحمة الخونة من حلفائهم الإغريق الذين أخذوا مبلغ خمسمائة مارك من لويس، على شريطة أن يمدوا الحجيج بقوة من الحرس، وأن يعنوا بالمرضى حتى يصبحوا من القوة بحيث يمكن إرسالهم ليلحقوا بسائر زملائهم، ولكن لم يكد الجيش يغادر المكان حتى أخبر الإغريق الترك، بموقف الحجيج الأعزل، وراقبوا في صمت، ما أصاب هؤلاء التاعسين من المجاعة والمرض وسهام العدو التي جرت عليهم الدمار والخراب وهم في طريقهم إلى معسكرهم، وحاولت جماعة تبلغ ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف، أن تلوذ بالفرار بدافع من اليأس؛ ولكن الترك الذين كانوا قد بلغوا المعسكر وهجموا عليه ليتابعوا انتصارهم، أحدقوا بهم ومزقوهم شر ممزق. وكان يكون موقف من نجا من الموت منهم قد بلغ حد اليأس، لو أن منظر شفائهم لم يذب قنوب المسلمين ويستدر شفقتهم. فواسوا المرضى وأغاثوا الفقير والجائع الذي أشرف على الهلاك، وبذلوا لهم العطاء في كرم وسخاء. بل لقد اشترى بعضهم النقود الفرنسية، التي ابتزها الإغريق من الحجاج بالقوة أو الخداع، ووزعوها بسخاء بين المعوزين منهم، فكان البون شاسعا بين المعاملة الرحيمة التي لقيها الحجاج من الكفار وبين ما عانوه من قسوة إخوانهم المسيحيين من الإغريق الذين فرضوا عليهم السخرة، وضربوهم، وابتزوا منهم ما ترك لهم من متاع قليل، حتى إن كثيرا منهم دخلوا في دين منقذيهم بمحض إرادتهم، وكما يقول المؤرخ القديم: «لقد جفوا إخوانهم في الدين الذين كانوا قساة عليهم، ووجدوا الأمان بين الكفاء الذين كانوا رحماء عليهم، ولقد بلغنا أن ما يربو على ثلاثة آلاف قد انضموا بعد أن تقهقروا إلى صفوف الأتراك، آه، إنها لرحمة أقسى من الغدر! لقد منحوهم الخبز، ولكنهم سلبوهم عقيدتهم، ولو أن من المؤكد أنهم لم يكرهوا أحدا من بينهم على نبذ دينه، وإنما اكتفوا بما قاموا لهم من خدمات[1].

(١) Ode de Diogilo. (De Ludovici vii. Lrinere. Migne, Patr, Lat.. tom cxcv. P. 1243).

وإن زيادة اختلاط المسيحيين بالمسلمين وتقدير الصليبيين لفضائل خصومهم تقديرا أخذ ينمو على مر الزمن، وهي ظاهرة تميز المتأخرين من مؤرخي الحروب الصليبية عن السابقين منهم تمييزا واضحا جليا[١]. ثم ما كان من كثرة تقليد الفرنجة المقيمين في الأراضي المقدسة للشرقيين في عاداتهم وأساليب حياتهم.. إن ذلك كله لم يخفق في إيجاد تأثير متبادل في الأفكار الدينية. ومن أظهر ألوان هذا التأثير، ذلك المسلك السمح الذي سلكه كثير من الفرسان المسيحيين نحو العقيدة الإسلامية؛ وهو اتجاه فكري كان أشد ما تشكو منه الكنيسة. ولما زأر أسامة بن منقذ، وكان أحد أمراء الشام في القرن الثاني عشر، بيت المقدس، في فترة من فترات الهدنة، خصص له فرسان المعبد The Knight Templar، الذين كانوا قد احتلوا المسجد الأقصى زاوية صغيرة ملحقة به، ليقيم فيها الصلاة، واستاءوا استياء شديدا من تدخل أحد الصليبيين، وكان قد قدم حديثا، واتجه هذه الوجهة الجديدة في سبيل الحرية الدينية[٢]. وكان يكون مثيرا للدهش حقا، لو لم تكن المسائل الدينية مثار جدل في المناسبات الكثيرة، حيث كان يلتقي الصليبيون بالمسلمين لقاء وديا أثناء المهادنات الكثيرة، لاسيما إذا عرفنا أن الدين نفسه هو الذي أتى بالصليبيين إلى الأراضي المقدسة، وحملهم على شن هذه الحروب الدائمة، بل إن علماء اللاهوت المسيحي، حين أدى اختلاطهم بالمسلمين اختلاطا شخصيا إلى تكوين رأي أكثر إنصافا عن ديانة المسلمين، وزعزع الارتباط بأساليب التفكير الحديثة أفكار الناس، وأثار ألوان الزندقة، فليس بغريب أن ينجذب كثيرون إلى حظيرة الإسلام[٣].

وكان عدد المرتدين (عن المسيحية) في القرن الثاني عشر الميلادي كثيرا كثرة

ولكي يتجنبوا أنصار دينهم الذين كانوا يقسون عليهم، ذهبوا آمنين إلى الكفار الذين كانوا يشفقون عليهم، وقد انضم أكثر من ثلاثة آلاف شاب –كما سمعنا – إلى الذين رحلوا إلى هؤلاء الكفار، آه أيتها التقوى، كم أنت أنسى من ضروب الخيانة، كلها! إنهم قد منحوهم الخبز، وجردوهم من الإيمان غير أن من المحقق أنهم على رضاهم بالعبودية، لم يرغموا أحدا على إنكار عقيدته..

(١) Guizot: Histoire de la Civilsation en Europe P. 234. (Paris, 1882).

(٢) أسامة بن منقذ، ص٩٩.

(٣) prutz, PP. 266-7.

نلاحظها في سجلات الصليبيين القانونية التي يطلق عليها «مجالس قضاء بيت المقدس» Assises of Jerusalem والتي لم تقبل بموجبها كفالتهم في حالات معينة[١].

وقد يكون من الممتع أن نعرف من هؤلاء المسلمين الذين توفروا على كسب هؤلاء الذين تحولوا إلى الإسلام، ولكن يظهر أنهم لم يخلقوا سجلا بأعمالهم. على أننا نعلم أن صلاح الدين العظيم نفسه، كان على رأسهم، وهو الذي وصفه كاتب سيرته بأنه قدم محاسن الإسلام بين يدي ضيفه المسيحي، وحثه على اعتناقه[٢].

ويظهر أن أخلاق صلاح الدين وحياته التي انطوت على البطولة قد أحدثت في أذهان المسيحيين في عصره تأثيرا سحريا خاصا، حتى إن نفرا من الفرسان المسيحيين قد بلغ من قوة انجذابهم إليه أنهم هجروا ديانتهم المسيحية وهجروا قومهم وانضموا إلى المسلمين؛ وكذلك كانت الحال، عندما طرح النصرانية مثلا، فارس إنجليزي من فرسان المعبد، يدعى روبرت أوف سانت ألبانس Robert of St. Albans في سنة ١١٨٥م، واعتنق الإسلام ثم تزوج بإحدى حفيدات صلاح الدين[٣]. وبعد عامين، غزا صلاح الدين فلسطين وهزم الجيش المسيحي هزيمة منكرة في واقعة حطين، وكان جوي Guy ملك بيت المقدس بين الأسرى، وحدث في مساء المعركة أن ترك الملك ستة من فرسانه «قد حلت فيهم روح شريرة» وفروا إلى معسكر صلاح الدين حيث أسلموا بمحض إرادتهم[٤]. ويظهر أن صلاح الدين، كان قد تفاهم، في الوقت نفسه مع ريموند الثالث Reymund III كونت طرابلس الشام، على أن يوعز إلى أتباعه بترك العقيدة المسيحية والتحول إلى جانب المسلمين، ولكن موت هذا الكونت المفاجئ قد وقف بصورة فعالة في سبيل تنفيذ هذه الخطة.

---

(١) Assises de la Cour Bourgeois (Recueil des historiens des Cro0isades, Assises de Jeusalem, tome ii. P.325).

(٢) بهاء الدين بن شداد ص٢٥.

(٣) Roger Ho0veden, vol. ii. P. 307.

(٤) Benedict of Peterborough, vol. ii. Pp. 11-12.

وقد حفر سقوط بيت المقدس والانتصارات التي أحرزها صلاح الدين في الأراضي المقدسة، أهل أوربا للقيام بالحرب الصليبية الثالثة، التي كان أهم أحداثها حصار عكاء (١١٨٩– ١١٩١م)، وإن ما تعرض له الجيش المسيحي من آلام مروعة، من جوع ومرض، قد دفع كثيرين منهم إلى الفرار والتماس ما يخلصهم من ألم الجوع في معسكر المسلمين، ومن هؤلاء الفارين، كثيرون قد رجعوا مرة أخرى، بعد فترة من الزمن، إلى جيش الصليبيين، ومنهم كثيرون آثروا أن يساهموا بنصيب مع المسلمين، فالتحق فريق منهم بخدمة أعدائهم السابقين، ولكنهم ظلوا على ولائهم للدين المسيحي.

وقد علمنا أنهم كانوا راضين كل الرضى عن سادتهم الجدد، على حين اعتنق آخرون الإسلام وأصبحوا قوما صالحين[١]. وكذلك سجل المؤرخ، الذي رافق ريتشارد الأول في هذه الحرب الصليبية، تحول هؤلاء الفارين إلى الإسلام فقال: «وفريق من رجالنا (الذين لا نستطيع أن تتحدث عن مصيرهم أو نسمع عنه دون أن يحز في نفوسنا ألم مرير) قد استسلموا لقسوة المجاعة المرة، فتجشموا في سبيل إنقاذ أبدانهم هلاكا أبديا لأرواحهم. إذ أنه بعد انقضاء الجزء الأكبر من هذه المحنة نراهم يهجرون بني جلدتهم ويفرون إلى الأتراك؛ فلم يترددوا في أن يصبحوا في زمرة المرتدين؛ ولكي يطيلوا زمنا قصيرا أعمارهم الموقوتة اشتروا موتا أبديا بهذا الكفر المفزع. أيتها المساومة الملعونة! أيتها الفعلة المخزية التي لا يكفر عنها أي عقاب! أيها الرجل الأحمق الذي يشبه البهائم البله! إنك إن فررت من الموت المحتوم الذي لا مفر من أن يأتي عاجلا فلن تفر من الموت الأبدي[٢].

ومنذ ذلك الحين لانعدم أخبارا عن المرتدين عن المسيحية، فيما كتبه هؤلاء الذين رحلوا إلى الأراضي المقدسة وغيرها من بلاد المشرق، وإن صيغة القسم التي عرضها على القديس لويس أولئك المسلمون الذين أسروه حين طولب بأن يتعهد بأداء ما فرض عليه من الفدية (١٢٥٠م)، كانت من إملاء بعض المسلمين الذين كانوا قسيسين من قبل ثم

---

(١) أبو شامة.

(٢) Itineraium Peregrinorum et Gesta Regis Richard, p. 131. (Chronicles and Memorials of the reign of Richard 1, Edited by William Stubs (London, 1864)

اعتنقوا الإسلام(١). وبينما كانت الفدية لا تزال جارية جاء مرتد آخر، وكان فرنسيا ولد ببروفنز وقدم هدية إلى الملك: وكان هذا الفرنسي قد صحب يوحنا ملك بيت المقدس في حملته على دمياط سنة ١٢١٩م، وبقي في مصر وتزوج بامرأة مسلمة وصار سيدا يشار إليه بالبنان في تلك البلاد(٢).

وكان خطر الدخول في الإسلام، وهو ما كان يستهدف له حجاج الأراضي المقدسة، قد شاع أمره في ذلك العصر بصورة واضحة، حتى إن أموري دي لاروش **Amaury de la Roche** رئيس فرسان المعبد **the Knights Templar** التمس من البابا ونوابه في فرنسا وصقلية، في «مذكرة» دونها حوالي ١٢٦٦، أن يمنعوا الفقراء والشيوخ والعاجزين عن حمل السلاح من عبور البحر إلى فلسطين، لأن أمثال هؤلاء الأشخاص كانوا يتعرضون إما للقتل أو الأسر، أو لأن يفتنهم العرب عن دينهم(٣). ويتحدث لودولف دي سوشم **Ludolf de Suchen** الذي تنقل في الأراضي المقدسة من سنة ١٣٣٦ إلى سنة ١٣٤١ عن ثلاثة من المرتدين وجدهم في حبرون(*). وكانوا قد قدموا من أبرشية مندن **Minden** ودخلوا في خدمة فارس من فرسان وستفاليا، كان السلطان وغيره من أمراء المسلمين يكرمونه ويحترمونه(٤).

ولا شك أن هذه الأخبار المبعثرة، تحمل الدليل على أن تحول المسيحيين إلى الإسلام الذي لم يصلنا عنه أي خبر كان على نطاق أوسع: من ذلك ما يقال من أن خمسة وعشرين ألفا من المرتدين عن المسيحية كانوا في مدينة القاهرة حول نهاية القرن الخامس عشر، ولا بد أنه كان هنالك أيضا كثيرون من هؤلاء المرتدين، في مدن الأراضي المقدسة بعد زوال الإمارات اللاتينية في الشرق. ولكن يظهر أن المسلمين الذين أرخوا

---

(١) **joinville, P. 238.**

(٢) **Id. P.262.**

(٣) **Mas Latrie (1) vol. ii.P.72**

(*) **LPudolf de Suchem P.71 Loinardo Frescobaldi, quoted in the preface of Defremery and Sanguinetti's edition of the Batutah. Vol. i. p. xl.**

(٤) **christophori Fureri ab Haimedrof Itinerarium Aegypti (Norimbergae, 1620)**

هذه الفترة، قد بلغ من شدة إنهماكهم في تسجيل مآثر الأمراء، وتقلبات الدول أنهم لم يوجهوا عنايتهم إلى التغيير الديني الذي طرأ على حياة الأفراد المغمورين؛ (ويقدر ما هدانا إليه البحث) فقد كانت ملاحظتهم، في تتبع أخبار دخول المسيحيين في الإسلام، قليلة كفلة ملاحظنهم في دخول أبناء دينهم في المسيحية.

فنحن مضطرون – نتيجة لذلك – أن نعتمد في الوقوف على كل من هذين النوعين من الأحداث، على الكتاب المسيحيين، الذين نجد أنهم في الوقت الذي أمدونا فيه بأخبار مفصلة تنم على عطف على المنتصرين، يحملون شهادة تنطوي على عدم الرضا عن وجود أمثلة من الداخلين في الإسلام، ويصورون بواعث الذين ارتدوا عن دينهم ودخلوا في الإسلام في أحط صورة ممكنة. وربما لم يتسرب إلى ذهن كاتب من هؤلاء الكتاب أن دخول أي مسيحي في الإسلام عن اقتناع صادق كان أمرا ممكنا. ولو فرضنا أن مثل هذه الفكرة قد تسرب إلى أذهانهم، لكان من الصعب أن يجازفوا بتعريض أنفسهم لفظاعة العقاب الكهنوتي، بعرضه عرضا صريحا.

ومن الأمثلة التي تدل على أن تدوين ما يتعلق بمثل هذا التحول إلى الإسلام كان نادرا، هذه القصة التي أمدنا بها الفهرر همندروف **Furer von Haimendorf** الذي كان في القاهرة ١٥٦٥، عن إسلام عالم ألماني، تلقى دراسته بجامعة ليبزج **Leipzig**: قال: «ولكن بينما كنا نمضى هذا الوقت في القاهرة حدث أن رجلا يدعى يوستوس ستيفن الألماني، الذي ينتسب إلى هاملينا **Hamelensis** والذي كان يقيم معنا في بيت واحدا، قد أنكر الديانة المسيحية، وقدم نفسه لاعتناق الديانة الإسلامية وإجراء الختان. وكان رجلا عالما يقول لنا دائما إنه درس طويلا في وتبرج وليبزج، ولكنه لما سئل عن ذلك الأمر قال إنه الآن يملك روحا خاصة، ليس في مقدوره أن يفعل أو يفكر بدون وحي منها. ولقد آثار جحود هذا الرجل تفكيرنا كثيرا، والحق أنه دفعنا إلى الفرار. وفي هذا اليوم نفسه طيف كذلك، برجل يهودي في المدينة كان قد اعتنق الإسلام قبل ذلك بأيام قليلة، في موكب من مواكب النصر. وقد أخبرنا بعض الانكشارية أن هذا العمل ذاته سوف يحدث

لستيفن نفسه» [1].

ومن هذه المصادر التي أوردناها آنفا معلومات قليلة تتعلق بعدد الذين تحولوا إلى الإسلام، وأخرى تتعلق بالجهود التي قامت لنشر الدعوة والتي بذلت لحثهم على تغيير عقيدتهم، ومن البواعث التي طالما علل بها هؤلاء المؤرخون التحول إلى الإسلام، رغبة المسيحيين في التخلص من عقوبة الموت بالارتداد عن دينهم. وكثيرا ما ذكر الرجالة الأوربيون أمثال هذه الحالات. ومن هذا النوع مثال متأخر نختاره هنا، لجمال تصويره وحسن عبارته، من تقرير أحد أفراد الجزويت الذي كان بالقاهرة سنة ١٦٢٧؛ فقد رأى رجلا من القبط كان قد أسلم نفسه إلى ذلك التيار، «تارة بدافع العاطفة وتارة الغيرة الطائشة، فقتل أخاه بيده حاقدا عليه أن ترك يسوع المسيح، على صورة من الجبن والتهرب، وراح يعتنق الإسلام تخلصا من مضايقة الأتراك، وقبض على هذا المسكين في الحال وهو متلبس بجريمته، واعترف في جرأة بأن هذا الكافر بدينه، الذي لا يستحق أن يكون أخا له، لم يستطع أن يمحو هذه الوصمة إلا بدمه. وقد ألح المسلمون عليه أن يترك دينه إبقاء على حياته؛ ولكنه قرر أنه مصر على أن يموت مسيحيا، غير أن هذا العذاب الذي صبه عليك أولئك الذين وكل إليهم أمر تعذيبه، قد أوهن من عزمه فأذعن في اللحظة الأخيرة.

ولقد حولته هذه الكارثة في لحظة من مؤمن إلى مرتد، ومن شهيد إلى كافر، ومن قديس إلى آثم، ومن ملاك إلى شيطان رجين فاقر بالدين بل أقدر بالغدر والخيانة على وفق أساليب المسلمين.. فأطلقت له الحرية، لا حرية أبناء الرب، ولكن حرية الأبناء الخاسرين». ثم حمله تأنيب ضميره، آخر الأمر، على أن يرتد فقتله المسلمون [2].

---

(١) Le Voyage en Ethiopie entrepris par le pere Aymard Cuerin (Rabbath , pp.17-18).

(٢) ومما هو جدير بالذكر حقا أنه على الرغم من أن بعض الناس يظن خلاف ذلك فيميل إلى تأكيد شيء لم يره رأي العين، وهو أن الشرق كله، فيما وراء البحر والهند وأثيوبيا يعترف بالمسيح ويبشر باسمه ما عدا العرب وبعض الأتراك الذين يقيمون في كياد كيوا فإني أؤكد في ثقة تأكيد من رأى رأي العين وسمع ذلك من قوم آخرين أنك ستجد دائما في كل مكان في كل مملكة عدا مصر وبلاد العرب حيث تفطن جموع غفيرة من العرب وبعض أتباع محمد، نسبة المسيحيين

وقد صور الراهب بركارد Burchard السكان المسيحيين عندما كتب حول عام ١٢٨٣م أي قبل أن يطرد الصليبيون من آخر معاقلهم، وقبل أن يزول النفوذ اللاتيني في الشرق نهائيا بسنوات قليلة، بأنهم يفوقون المسلمين عددا في كافة أنحاء العالم الإسلامي، وأن نسبة عدد المسلمين (فيما عدا مصر وبلاد العرب) كانت لا تزيد على ثلاثة أو أربعة في المائة من جميع السكان. ولا شك أن هذه اللهجة مبالغ فيها، ومن المحقق أن الراهب الطيب قد اندفع فيها زعمه بظنه أن ما شاهده في مدن الصليبيين ومملكة أرمينية الصغرى ينطبق تمام الانطباق على سائر جهات الشرق. على أن من الجائز أن نتخذ كلماته هذه في الواقع، دليلا على أن التحول إلى الإسلام لم يكن في عهد الصليبيين حركة واسعة النطاق، وأن المسلمين، حينما استردوا سلطانهم على الأراضي المقدسة، بسطوا على المسيحيين نفس روح التسامح التي كانت من قبل، وذلك أن جعلوهم يشترون السكينة والسلام» بأداء الجزية. وهذا يحمل على الظن بأن ما حدث من التحول إلى الإسلام إنما كان عبارة عن حالات فردية من المسيحيين الذين أشربوا العقيدة الإسلامية في أذهانهم قبل أن يقدموا على الخطوة الأخيرة. وقد أوردنا من قبل أمثلة من المسيحيين الذين دخلوا سادتهم من المسلمين وتمتعوا بحريتهم الدينية إلى أبعد حد، وقد ميزت مجالس قضاء بيت المقدس Assises of Jerusalem بين هؤلاء الذين كفروا بالله واتبعوا شريعة أخرى» و«وبين جميع الذين قاموا بخدمات عسكرية للعرب وغيرهم من الأشرار، يناوئون بها المسيحيين مدة أكثر من عام ويوم»[1].

ومن المؤكد أن المسيحيين من أهالي هذه البلاد قد آثروا حكم المسلمين على حكم

إلى المسلمين كنسبة الثلاثين أو أكثر إلى الواحد: ذلك أن جميع المسيحيين: عبر البحر، إنما هم في الواقع غرباء ينحدرون من أصل شرقي، وعلى الرغم من أنهم مسيحيون، إلا أنهم نظرا إلى عدم خبرتهم الواسعة في حمل السلاح، كانوا سرعان ما يخضعون إذا ما دهمتهم جيوش العرب والتتار أو غيرهم فينتشرون السلم والأمان منهم يدفع الجزية ثم يعين العرب أو من يملكون ناصية الحكم فيهم مشرفين على أمرهم وجباة الضرائب في تلك الأرضي.. ومن ثم أصبحت تلك المقاطعة تسمى مملكة العرب مع أن جميع سكانها في الواقع مسيحيون عدا المشرفية وجباة الضرائب أنفسهم وبعض حاشيتهم، كما رأيت بنفسي في سيلزيا وأرمينية الصغرى التي تخضع لحكم التتار.

(Burchardi de Monte Sion Descriptio Terrae Sanxtae. P.90)

(١) **Recueil des historiens des Croisade (Assises Jerusalem,m tome i.p325).**

الصليبيين[١]. ويظهر أن أهالي فلسطين من المسيحيين، لما وقع بيت المقدس في أيدي المسلمين نهائيا (سنة ١٢٤٤م) رحبوا بالسادة الجدد واطمأنوا إليهم ورضوا بحكمهم[٢].

كذلك دفع هذا الشعور نفسه، شعور الاطمئنان إلى الحياة الدينية في ظل الحكم الإسلامي، كثيرا من مسيحيي آسيا الصغرى، في إبان هذه الفترة ذاتها، إلى الترحيب بمقدم الأتراك السلاجقة، باعتبارهم مخلصين لهم من الحكومة البيزنطية البغيضة، لا بسبب نظام الضرائب المجحف وحده، ولكن بسبب روح الاضطهاد التي ظهرت بها الكنيسة الإغريقية، والتي قمعت بمثل هذه القسوة، بدع أصحاب بولس ومحطمي الصورة والتماثيل (Iconoclasts)[*] كذلك. وطالما دعا الأهلون الأتراك في عهد ميخائيل الثامن، إلى الاستيلاء على مدنهم الصغيرة في داخل آسيا الصغرى، تخلصا من استبداد الدولة، وكثيرا ما هاجر الأغنياء منهم والفقراء إلى الولايات التركية[٣].

وقد بقي لدينا بعض معلومات نوردها هنا عن كنيستين أخريين من كنائس آسيا الغربية، ونعني بهما كنيسة أرمينية وكنيسة جورجيا. أما كنيسة أرمينية فإن من الممكن أن يقال إن ما قدمه أفرادها في سبيل زيادة عدد الداخلين في الإسلام ربما كان أقل (وهذا بالنسبة إلى عدد أفراد الطائفة) مما قدمته أية كنيسة من الكنائس الشرقية التي خضعت للحكم الإسلامي، وعلى الرغم من الأهمية التي تتعلق بقصة كفاح هذا الشعب الباسل للمطامع الطاغية، وقصة تفانيه في الدين المسيحي- خلال قرون الحروب والمظالم

---

(١) Prutz, pp. 146-7, 150.

(٢) وفيما يلي ما كتبه رؤساء الكنائس في الأراضي المقدسة سنة ١٢٤٤م، بشأن محاربة الخوارزميين الذين كان السلطان أيوب قد استقدمهم لمعاونته في طرد الصليبيين: «وكانوا ينطلقون في كافة أنحاء المعمورة، حتى مدينة الناصرة وسافت، بحرية دون أية مقاومة، ويحتلونها، ويقتسمونها فيما بينهم كما لو كانت ممتلكاتهم. وكانوا يتركون في القرى والضياع قوادا وسفراء يتولون أمرها ويتسلمون من الفلاحين الضرائب والإتاوات التي اعتادوا أن يؤدوها المسيحيين بعد أن خضعوا جميعا لأوامر كوروسميني، وكان قد خلق منهم أعداء المسيحيين ومردوا عليهم.

Mathei Parisiensis Chronica Majora, ed. H. R. Laurd vol. iv. P.343) 9London, 1872- 83).

(*) حركة قامت في القرنين الثامن والتاسع ترمي إلى تحطيم الصور والتماثيل التي كانت تعبد في الكنائس المسيحية في الشرق.

(٣) finali, vol. iii pp.358- 9 J. Krause: Die Byzantiner des Mittelaters, P. 276. (Halle, 1869).

والتنكيل والتشريد – فليس الغرض من هذا الكتاب أن نذكر أكثر من أن نبين بإيجاز مدى ارتباط هذا الشعب بتاريخ المسلمين. لقد ظلت مملكة أرمينية قائمة بعد أن منيت بصدمة الفتح العربي، ونهضت في القرن التاسع الميلادي فأصبحت دولة على جانب من الأهمية ثم ازدهرت أثناء الاضمحلال خلافة بغداد، ولكن الأتراك السلاجقة أدالوها في القرن الحادي عشر.

وقد أسس جماعة من الهاربين مملكة أرمينية الصغرى **Lesser Armenia**، ولكن هذه المملكة ذهبت كذلك في القرن الرابع عشر. وظلت حياة أهل أرمينية القومية باقية بالرغم من ضياع استقلالهم. وكان دينهم وكنيستهم الوطنية مبعثا لحماستهم ووطنيتهم التي لا تفنى، كما كان الحال في اليونان في عهد الأتراك. ومع أن بعضهم دخل في الإسلام بتأثير اضطهاد عنيف، إلا أن غالبية الشعب مازالت مخلصة لعقيدتها القديمة، ويلاحظ تافرنيه[1] ملاحظة غير مشربة بروح المودة والعطف، فيقول: «قد تكون هناك قلة من الأرمينيين اعتنقت الإسلام لنفع دنيوي، ولكنهم بوجه عام يعدون أشد الناس عنادا أو أصلبهم تمسكا بمعتقداتهم الخرافية".

أما كنيسة جورجيا (التي أسست في مستهل القرن الرابع) فكانت فرعا من الكنيسة الإغريقية التي ظلت في ترابط معها، بالرغم من أن البطريق أو جاثليق كنيسة جورجيا قد أعلن استقلاله منذ منتصف القرن السادس. وإن تاريخ هذا الشعب المحارب الباسل، الذي مزقته الخصومات الداخلية وتعرض لهجمات متتابعة، من الإغريق والفرس والعرب والترك والمغول لهو التاريخ حروب لا تكاد تنقطع، وجهت نحو خصومهم من الأجانب، ومنازعات متضاربة تقوم بصورة وحشية بين زعماء هذه البلاد: وحسبنا أن نلقي نظرة على العهود التي حكم فيها واحد أو اثنان من الحكام الأقوياء الذين هيئوا لرعاياهم فترات قصيرة من الأمن والسلام، لنتبين ذلك البون الشاسع بين هذه العهود وبين حالة القلق والاضطراب التي كانت تسود هذه البلاد. وكثيرًا ما أثارت تلك الروح الاستقلالية

---

(1) **Tavernier (1), P.174.**

العنيفة، التي يمتاز بها أهالي جورجيا، والتي لا تطيق الحكم الأجنبي، سخط جيرانهم من المسلمين على صورة أشبه بالجنون، حين أخفق هؤلاء في أن يفرضوا عليهم شيئًا من ديانتهم أو سلطتهم الزمنية. وأن هذا السبب – وهو أن تغيير العقيدة ينطوي على فقدان الاستقلال السياسي – هو الذي يفسر لنا إلى حد بعيد ما صنعته كنيسة جورجيا من تسجيل أسماء مثل هذا العدد الكبير من شهدائها، على حين لا نجد في تواريخ الكنيسة الإغريقية في هذه الفترة نفسها ما تعرضه من مثل قوائم التشريف والتكريم هذه.

ولم تأخذ في الاضمحلال[١] (في جورجيا) إلا بعد أن اجتاحها جنود المغول المدمرة، فتركت وراءها كنائس محطمة وأديارًا مهدمة وأكداسا من الرءوس البشرية تشهد على مدى تقدم جحافلهم المخربة. وكان من أثر ذلك أن ظل الشعب وقتا طويلا خلوا ممن يمده بمطالبه الروحية، نظرًا إلى ما أصاب عددهم وما تعرضت له ثقافة رجال الكنيسة من تأخر. حتى هؤلاء الذين ظلوا يدينون بالمسيحية، فقد زاد فريق منهم في متاعب رجال الكنيسة يسلب أملاكها، واستغلال موارد الكنائس والأديار لمصلحتهم الشخصية، وبذلك عجلوا بالدين بالمسيحي إلى الضعف والانحلال[٢].

وفي سنة ١٤٠٠ أضافت غزوة تيمور فزعا بالغا إلى متاعب جورجيا، ومع أن حكم إسكندر الأول (١٤١٤– ١٤٤٢م) قد خلص البلاد، فترة قصيرة من نير الأجنبي، وطرد المسلمين جميعا، إلا أن البلاد قد انقسمت بعد وفاته مرة أخرى إلى عدد من الإمارات الصغيرة التي انتزع منها الأتراك والفرس آخر ما بقي من استقلالها. ولكن المسلمين طالما وجدوا من جورجيا إيالة تسودها الفوضى والتمرد، وتتأهب دائما لإشعال نار الثورة لأتفه الأسباب. فسعى الأتراك والفرس لكسب ولاء هؤلاء الرعايا، الذين يثيرون المتاعب والقلاقل، عن طريق تحويلهم إلى الإسلام.

---

(١) **JoseliaN, P.125.**

وحوالي ذلك الوقت تخلت عن الدين المسيحي كل قبائل الأبحاز والجيخيث **Dikhethes** والأوسيت **Ossetes** والبكرد **Kebardes** وكستثت **Kisthethes**.

(٢) **Id. P.127.**

وقد أسلم بعد سقوط القسطنطينية وازدياد النفوذ التركي في آسيا الصغرى، أهالي أخالتسيخية **akhaltsikhé** ومقاطعات أخرى تقع غربيها[١]. وفي سنة **١٥٧٩** وفد أميران من جورجيا – وكانا أخوين – في بعثة إلى القسطنطينية، تصحبهما حاشية كبيرة تتألف من نحو مائتي شخص: وهنا أسلم الأخ الأصغر وأسلمت حاشيته معه أملا (كما قيل) في أن يحل محل أخيه الأكبر[٢]. وقد ضمت فتوح الأتراك إلى حوزتهم، بعد هذا العصر بزمن طويل بعض المقاطعات الواقعة في قلب جورجيا التي اعتنق ديانة الفاتحين[٣].

ومنذ ذلك الوقت اعترفت **Samtzkhé**، أقصى أجزاء جورجيا من جهة الغرب، بسيادة تركيا: فأتيح لحكامها وشعبها أن يظلوا على عقيدتهم المسيحية، لا يتعرض لهم أحد بسوء، إلا أنه منذ سنة **١٦٢٥** اعتنق البيت الحاكم الإسلام وحذا حذوه كثير من الزعماء والأشراف.

وظلت المسيحية بعد ذلك محتفظة بسلطانها على الفلاحين وقتا طويلا، ولكن حين أبى رجال الكنيسة في إقليم سامتسخي، أن يعلنوا ولاءهم لجاثليق كارثلي **Karthli** انقطع إرسال المدد الذي كان يسد حاجات الشعب الروحية بصورة منتظمة. وكان الأشراف حتى قبيل إسلامهم قد درجوا على اغتصاب ضياع الكنيسة، ثم بطبيعة الحال توقعوا بعد إسلامهم عن مساعدتها بعطاياهم، وكان طبيعيا أن تحل المساجد محل الكنائس والأديار التي حل بها الخراب[٤].

وخضع سائر أجزاء جورجيا لفارس، وعندما زار تافرنييه هذا الجزء من البلاد، في أواسط القرن السابع عشر، وجده منقسما إلى مملكتين كانتا تابعتين للدولة الفارسية، يحكمها أمراء من أهالي جورجيا وكان عليهم أن يدخلوا في الإسلام قبل التقدم لشغل هذا

---

(١) **Id. P.143**

(٢) **David Chytraeus, P.40.**

(٣) **Josehah, P.157**

(٤) **Brosset 11* Partie, 1re Livraison, pp.227-35. Desription Géographique de la Géprgie par le Tsaréistch Wakhoucht, P.79(St. Petersburg, 1842).**

المنصب[1]. وكان من هؤلاء الأمراء السابقين إلى الحكم قسطنطين تساريفتش C. Tsarevitch بن إسكندر الثاني ملك كاخث Kakheth، وكان قد تربى في البلاط الفارسي، حيث اعتنق الإسلام في بداية القرن السابع عشر[2]. كذلك تربى في فارس الملك تساريفتش رستم (١٦٣٤-١٦٥٨م) وهو أول ملوك كارثلي Karthli من المسلمين، وكان هو وجميع من خلفوه حتى نهاية ذلك القرن من المسلمين[3].

ويصف تافرمييه أهل جورجيا بأنهم على جانب كبير من الجهل بالشئون الدينية، كما يصف رجال الكنيسة بأنهم أميون وأصحاب رذيلة. وقد حدث أن باع فريق من رؤساء الكنيسة فتيات وصبيانا من المسيحيين بيع الرقيق للأتراك والفرس[4]. ويظهر أنه قامت منذ ذلك الحين، حركة ارتداد عن المسيحية واسعة النطاق وخاصة بين الطبقات العليا وبين هؤلاء الذين كانوا يسعون إلى اكتساب عطف البلاط الفارسي[5]. وفي سنة ١٠٧١م كان واختنج السادس Wakhtang الذي جلس على عرش جورجيا مسيحيا: وظل طوال السنين السبع الأولى من حكمه سجينا في أصبهان، حيث بذلت جهود ضخمة لحمله على الإسلام؛ وقد قيل إنه عندما صرح بأنه يؤثر ضياع عرشه على أن يشتريه بالارتداد عن دينه، عرض أخوه الأصغر، مع أنه كان يشغل منصب بطريق جورجيا، أن يترك المسيحية ويعتنق الإسلام إذا أنعم المسلمون عليه بالتاج، ولكنه بالرغم من ان الفرس قد منحوه السلطة الملكية، رفض أهل جورجيا قبوله حاكما عليهم وطردوه من المملكة.

وحول نهاية القرن الثامن عشر وضع ملك جورجيا شعبة تحت حماية التاج الروسي، وإلى تلك اللحظة كان شعورهم الوطني الفياض قد ساعد على الاحتفاظ بالعقيدة

---

(١) The six Voyages, P.123.

(٢) Joselian, P. 149.

(٣) Id. Pp. 160-1.

(٤) Tavernier (1), pp. 124, 126. (Id. 123).

(٥) document Originaux sur les relations dimplomatiques de la Géorgie avec la france vers la fin du regne de Louis XIV. Recueillis par M. Brosset Jeune (J.A, 2me série, tome ix (1832), pp.197, 451).

المسيحية حية بينهم طالما كان الغزاة الغرباء من المسلمين، أما في الوقت الذي أصبحت فيه القوة التي تسعى إلى سلب استقلالهم تدين بالمسيحية، فقد ساعد هذا الشعور نفسه على خدمة الإسلام في بعض المقاطعات الواقعة شمال القوقاز. وفي داغستان حاول شخص يدعى دوريس منصور أن يجمع شمال قبل القوقاز المختلفة لمناهضة الروس، وبث دعوته إلى الإسلام وأفلح في تحويل أمراء يوبخستان وداغستان وأشرافهما الذين ظلوا على ولائهم للإسلام منذ ذلك الحين. وكذلك دخل بدعوته، كثيرون من الجراكسة في الإسلام وفضلوا أن ينفوا من البلاد على أن يخضعوا للحكم الروسي[1]. ولكنه أسر في سنة ١٧٩١م، ثم دخلت جورجيا رسميا في حوزة الإمبراطورية الروسية عام ١٨٠٠م.

ولم يكن درويش منصور هو الوحيد الذي قام بجهود في سبيل إدخال الجراكسة في الإسلام، فعندما اعترفت معاهدة كوتشاك قينرجي Kuchak- Kainarji سنة ١٧٤٤ باستقلال القرم، وفتحت طريق البحر الأسود للسفن الروسية، استولى الفزع على الحكومة التركية من أن تطمع روسيا فتقوم بحركة أخرى للسيطرة على طول الساحل الشرقي للبحر الأسود، وعقدت النية على أن تحاول تحريض الجراكسة على المقاومة. فأرسلت ضابطا تركيا يدعى فرح علي سنة ١٧٨٢م لتأسيس مستعمرة حربية في أنابا، بالقرب من منفذ آزوف والدخول في صلات مع قبائل الشراكسة. وكان أول ما وجه إليه فرح علي عنايته أن خطب ابنه أحد البكوات الجراكسة، وقدم إلى أبيها هدايا ثمينة من الأسلحة والخيل وغيرها؛ وقد احتفل بالزواج في موكب فخم واحتفال عظيم. وشجع فرح علي جنوده على أن يحذوا حذوه فوعدهم القيام بنفقات زواجهم. وكان من أثر ذلك أن انضم فريق من النساء الجركسيات، إلى المستعمرة الصغيرة واعتنقن ديانة أزواجهن، وجذبن آباءهن وإخواتهن إلى الإسلام، بفضل روح الحماسة التي تميز بها الجدد في الإسلام. وابتدأت حركة نشيطة في نشر الدعوة إلى الإسلام، ويظهر أن الذين انحازوا إلى المستعمرة التركية من الجراكسة، كانوا قد أظهروا استعدادا عندما تركوا معتقداتهم الوثنية في سبيل الدين الذي نزل به القرآن. وقد عكف العلماء (الملاوات) على تفقيه حديثي

(١) Mackenzie, P.7. Garnett, P.194.

العهد بالإسلام، ولم يكن بد من أن يطلبوا مددا من القسطنطينية لتثقيف جموع الداخلين في الإسلام، الذين كان عددهم يزداد شيئًا فشيئًا[1].

ولكن نشاط فرح على لم يدم طويلا؛ فقد توفي سنة ١٧٨٥، وكان قبره مثابة احترام وتوقير كما كانت قبور القديسين، غير أن جهوده قد زالت بموته، فقد انتقلت أنابا إلى أيدي الروس سنة ١٨١٢م، وعند ما تغلبوا على مقاومة الجراكسة بصفة نهائية سنة ١٨٦٤، هاجر أكثر من نصف مليون من الجراكسة المسلمين إلى الأراضي التركية.

وكان اعتناق أي دين يخالف ديانة الكنيسة الأرثوذكسية في روسيا، أمرا محرما في القانون الروسي. ومن ثم توقف الإسلام عن أي تقدم جديد إلى أن صدر مرسوم التسامح الديني سنة ١٩٠٥. ومن النتائج التي ترتيب على صدور هذا المرسوم، في بلاد القوقاز، أن دخلت جموع كثيرة في الإسلام من بين طوائف الإنجاز **Abkhazes** الذين كانوا قد ظلوا طويلا يدينون بالمسيحية اسما فقط، ولكنهم الآن قد أصبحوا مسلمين، في جموع بلغ من ضخامتها أن رجال الكنيسة الأرثوذكسية قد أخذ الخوف منهم كل مأخذ حتى أقاموا جمعية خاصة تقوم بتوزيع منشورات دينية بينهم، أملا في مناهضة النفوذ الإسلامي[2].

---

(١) **Babrbier de Mynard pp45.sqq.**

(٢) **R.du M. M.. VII, P.320 (1909)**

انتشار الإسلام بين مسيحيي إفريقية

دخل الإسلام إفريقية أولا مع الجيش العربي الذي غزا مصر بقيادة عمرو بن العاص سنة ٦٤٠م (٢٠هـ) وقد ترك انسحاب الجيوش البيزنطية بعد ذلك بثلاث سنين أهالي هذه البلاد المسيحيين الكثيري العدد في أيدي الفاتحين المسلمين. ويرجع النجاح السريع الذي أحرزه غزاة العرب، قبل كل شيء، إلى ما لقوه من ترحيب الأهالي المسيحيين الذين كرهوا الحكم البيزنطي، لما عرف به من الإدارة الظالمة ولما أضمروه مرارا من علماء اللاهوت، فإن اليعاقبة الذين كانوا يكونون السواد الأعظم من السكان المسيحيين، قد عوملوا معاملة مجحفة من أتباع المذهب الأرثوذكسي التابعين للبلاط الذين ألقوا في قلوبهم بزور السخط والحنق اللذين لم ينسهما أعقابهما حتى اليوم[١].

كان بعضهم يعذب ثم يلقي بهم في اليم، وتبع كثير منهم بطريقهم إلى المنفى لينجوا من أيدي مضطهديهم، وأخفى عدد كبير منهم عقائدهم الحقيقية، وتظاهروا بقبول قرارات مجمع خلقدونية[٢]. وقد جلب الفتح الإسلامي إلى هؤلاء القبط، ذلك اللفظ الذي يطلق على المسيحيين من اليعاقبة في مصر، حياة تقوم على الحرية الدينية التي لم ينعموا بها قبل ذلك بقرن من الزمان. وقد تركهم عمرو أحرارًا على أن يدفعوا الجزية، وكفل لهم الحرية في إقامة شعائرهم الدينية، وخلصهم بذلك من هذا التدخل المستمر الذي أنوا من عبئه الثقيل في ظل الحكم الروماني. ولم يضع عمرو يده على شيء من ممتلكات الكنائس، ولم يرتكب عملا من أعمال السلب والنهب[٣]. ويظهر أن حالة القبط في الأيام الأولى من

---

(١) Amélineau, P. 3; Caetani, vol.iv.P.81.sq.

قيل إن جستنيان أمر بقتل مائتي ألف من القبط في مدينة الإسكندرية، وأن اضطهادات خلفائه قد حملت كثيرين على الالتجاء إلى الصحراء. (Wansleben: the present State of Egypt, P.11) (London, 1678)

(٢) Renaudot, P.161 سويرس ص١٠٦.

(٣) يوحنا أسقف نقيوس اليعقوبي (عاش في النصف الثاني من القرن السابع الميلادي) ص٥٨٤.

حكم المسلمين كانت معتدلة نوعا ما. وليس هنالك شاهد من الشواهد يدل على أن ارتدادهم عن دينهم القديم ودخولهم في الإسلام على نطاق واسع كان راجعا إلى اضطهاد أو ضغط يقوم على عدم التسامح من جانب حكامهم الحديثيين[١]. بل لقد تحول كثير من هؤلاء القبط إلى الإسلام قبل أن يتم الفتح، حين كانت الإسكندرية حاضرة مصر وقتئذ لا تزال تقاوم الفاتحين، وسار كثير من القبط على نهج إخوانهم بعد ذلك بسنين قليلة[٢]. وفي عهد عثمان بن عفان (٦٤٣- ٦٥٥م) (٢٣- ٣٥هـ) بلغ خراج مصر اثني عشر مليون دينارا، ثم نقص بعد سنين قليلة إلى خمسة ملايين في عهد معاوية بن أبي سفيان (٦٦١- ٦٧٩) (٤١- ٦٠هـ)، وذلك بسبب دخول عدد كبير في الدين الإسلامي؛ ثم أخذ الخراج في النقصان في عهد عمر بن عبد العزيز (٧١٧- ٧٢٠م) (٩٩-١٠١هـ)، حتى إن والي مصر[٣] اقترح ألا يعفى من يدخلون في الإسلام بعد ذلك من أداء الجزية. ولكن الخليفة التقي أبى أن يجيب هذا الوالي إلى طلبه قائلا إن الله بعث مُحَمَّدا داعيا ولم يبعثه جابيا[٤].

ولكن الولاة الذين جاءوا بعد ذلك اعترفوا أن مثل هذه السياسة تضر بالدولة لأسباب تتعلق بمال الجباية، وألحوا بأن يؤدي الذين يدخلون في الإسلام الضرائب كما كانوا يؤدونها من قبل. على أن مثل هذه السياسة لم يقدر لها الاستمرار، وعمل كل وال

Caetani, vo0l. iv. Pp.515-16.

(١) Bell, P. xxxvii. ولكن الظلم والعناء الذين لم يكن بد من أن يقاسيهما القبط بعد الفتح بنحو سبعين سنة، تسمح لنا كما يقول المقريزي في شيء من الجهد بأن نمد هذه الفترة إلى الحد الذي عينه فون رابكي بقوله: ونعرف عن طريق أصدق الأدلة أن أهالي مصر في القرون التالية كانوا في ظل السيادة العربية يعيشون في حالة مرضية (Weltgeschichte, vol, v.p. 153, 4th ed).

(٢) المصدر نفسه ص٥٨٥. فكثير من المصريين الذين كانوا من المسيحيين الزائفين أنكروا الديانة المقدسة الكاملة والتعميد الذي يهب الحياة، وانحازوا إلى ديانة المسلمين أعداء الله، وقبلوا المذهب... الذي جاء به ذلك المخلوق، مُحَمَّد، لقد ساهموا في ضلال المشركين واستنشقوا السلام في وجه المسيحين».

(٣) ويظهر أن قرة بن شريك (ولي مصر من سنة ٧٠٩ إلى سنة ٧١٤م) (٩٠- ٩٦هـ) أو سلفه قد أصر على أن يستمر الذي تحولوا إلى الإسلام في أداء الجزية (Becker, Papyri Schott- Reunhardt, P.180).

(٤) ابن سعد: الطبقات ج٥ ص٢٨٣.

من هؤلاء الولاة برأيه، وبصورة تقوم على التعسف وعدم النظام[1]. فقد ذكروا أن حفص بن الوليد الذي ولى مصر في سنة ٧٤٤م (١٠٨هـ) لما وعد بإعفاء جميع الذين يدخلون في الإسلام من الجزية، انتحل هذا الدين عدد بلغ أربعة وعشرين ألفا[2]. وقد قيل أن أبا العباس السفاح أول الخلفاء العباسيين أذاع بيانا مماثلا على أثر اعتلائه عرش الخلافة في سنة ٧٥٠م (١٣٢هـ)، إذ «كتب إلى جميع مملكته أن كل من يصير على دينه ويصلي كصلاته يكون بغير جزية، فمن عظم الخراج والكلف عليهم أنكر كثير من الأغنياء والفقراء دين المسيح وتبعوه»[3].

والحق أن كثيرا من مسيحيي مصر تركوا النصرانية بمثل هذه السهولة وتلك السرعة التي اعتنقوا بها النصرانية في مستهل القرن الرابع الميلادي. وقبل هذا العصر كانت جماعة صغيرة جدا من سكان وادي النيل تدين بالمسيحية، ولكن ما عاناه الشهداء في اضطهادات دقلديانوس، وما دون عن المعجزات التي أتى بها هؤلاء الشهداء، والشعور القومي الذي أثارته روح المقاومة لأوامر الحكومة الأجنبية[4]، وما أعطوا من الضمانات بأن جنة النعيم قد فتحت أبواب لكل شهيد مات على أيدي معذبيه، كل أولئك قد أثار في نفوسهم حماسة أدت إلى سرعة انتشار الدين المسيحي بصورة لا يكاد يصدقها العقل، «وبدلا من أن يتنصر المصريون عن طريق التبشير، كغيرهم من أهالي بلاد المشرق، نراهم ينتحلون المسيحية في غمرة من الحماسة الجامحة، دون أن يتلقوا أي شيء من التبشير أو التعليم عن الدين الجديد غير اسم عيسى المسيح الذي خلع حياة من السعادة الأبدية على جميع الذين اعترفوا بوجوده»[5].

ومن المرجح أن تأثير المسيحية في السواد الأعظم من أهل مصر كان قليلا في القرن

---

(١) Caetani, vol, iv.P. 618; v.pp.384-5.

(٢) سويرس ص١٧٢-١٧٣.

(٣) المصدر نفسه ص٢٠٨-٢٠٦.

(٤) وليس من شك في أنه كان في كثرة الشهداء ضرب من مقاومة الحكام الغرباء في سبيل الوطن (Amélineau, P58)

(٥) Amélineau, PP. 57-8.

السابع. وإن التعليقات النظرية التي استغلها زعماؤهم في إثارة شعور الكراهية والمقاومة في وجه الحكومة البيزنطية، كان يمكن أن يدركها عدد قليل جدا من الناس؛ كما أن سرعة انتشار الإسلام في الأيام الأولى من الاحتلال العربي قد تكون راجعة إلى عجز ديانة كالديانة المسيحية وعدم صلاحيتها للبقاء، أكثر من أن تكون راجعة إلى الجهود الظاهرة التي قام بها الفاتحون لجذب الأهلين إلى الإسلام. وأن الأساس اللاهوتي لبقاء اليعقوبيين حزبا منفصلا، والشعائر التي جاهدوا في سبيل الاحتفاظ بها وقتا طويلا، ودفعوا ثمنا غاليا في هذه السبيل، قد اجتمعت في عقائد كانت صيغتها أشد ما تكون غموضا وإبهاما من الناحية الميتافيزيقية. ولا شك أن كثيرًا من هؤلاء قد تحولوا، وقد أخذت الحيرة منهم كل مأخذ، واستولى على نفوسهم الضجر والإعياء من ذلك الجدل السقيم الذي احتدم من حولهم، إلى عقيدة تتلخص في وحدانية الله البسيطة الواضحة، ورسالة نبيه مُحَمَّد.

بل إننا نجد في داخل الكنيسة القبطية نفسها في عصر متأخر شواهد تنبئ عن حركة، إن لم تكن إسلامية خالصة، فقد كانت على الأقل وثيقة الصلة بها، وربما ساعد عدم وجود أي نظام كنسي مستقل، يجد طريقة لإيضاحه والتعبير عنه، على زيادة عدد الذين دخلوا في الإسلام. وفي أوائل القرن الثاني عشر كان بدير القديس أنطونيوس (بمقربة من إطفيح على النيل) راهب يدعى بلوطس، وكان عالما ومعلما خبيرا بأوضاع الدين المسيحي وسيرة الرهبنة ماهرا في حقوق ما يلزم من القوانين الشرعية، وأصاده الشيطان في شرك من شراكه، فاعتقد اعتقادا مخالفا لما وضعه الآباء الثلثمائة والثمانية عشر (بمجمع نيقية). وأفسد عقول جماعة كبير ممن ليس له معرفة ولا دراية بالأمانة الأرثوذكسية، وأشاع من فمه النجس ومنطقه الخبيث أن المسيح ربنا له المجد، كأحد الأنبياء، وصار مجتمعا بالأشرار من أهل الملة وهو لابسا شكل الرهبنة متمنطقا بالزونية والأسكيم، وإذا سئل عن مذهبه واعتقاده فيقول إنه موحد وظهرت مقالته في سنين آخرها تسع وثلاثين وثمانمائة للشهداء الأبرار (١١٢٣م)، ومات وانقطع ذكره إلى الأبد»[١].[*].

---

(١) أبو صالح الأرمني ص١٦٣–١٦٤.

(*) وردت أخطاء لغوية ونحوية في هذا النص أبقينا عليها وتركناها لفطنة القارئ.

أضف إلى ما تقدم أن نظرية الحياة المسيحية التي وجدت أقصى ما يمكن إدراكه والتعبير عنه في التقشف في أكبر صورة[١] قد استطاعت أن تظهر بعض الميل نحو الآداب الإسلامية الأكثر إنسانية[٢]. ولكثرة عدد القبط الذين كانوا يعتنقون الإسلام من حين إلى حين، أخذ أتباع النبي يعتبرونهم أشد ميلا لقبول الدين الإسلامي من أية طائفة أخرى. ومع أنهم قد تعرضوا لتحمل أشد أنواع الظلم والاضطهاد في كثير من المناسبات، قيل إن القبط الذين حملوا على ترك دينهم على هذا النحو كانوا أقل عددا بالنسبة إلى هؤلاء الذين غيروا دينهم عن طواعية[٣]. حتى في القرن التاسع عشر في الوقت الذي قيل فيه إن مصر كانت أشد البلاد الإسلامية تسامحا في الدين، لم تخل سنة من السنوات لم يتحول فيها القبط إلى الإسلام[٤]. أضف إلى ذلك أن الاضطهاد والظلم قد قاما من غير شك بدور كبير في نقص عدد القبط، وإن قصة آلام كنيسة اليعاقبة في مصر، التي اضطهدها كذلك إخوانهم في الدين من المسيحيين[٥] وأتباع المذهب السائد في هذه البلاد، لتثير أشد ألوان الحزن والأسى.

وقد ترك كثيرون دين آبائهم ليتخلصوا من الضرائب الثقيلة والتحقير والشتائم التي

---

(١) Amélineau, pp, 53-4, 69-70.

(٢) أمدنا أبو صالح ببيان يشتمل على بعض الرهبان الذين انتحلوا الإسلام، ولا يبعد أن يمثل هؤلاء عددا أكبر من الرهبان الذين لم يترك هذا المؤرخ ثبتا بأسمائهم بسبب افتقاره إلى معرفة الظروف التي لا بعث ما لحق بهذا الدير من التلف أو ما حدث مما جعل أمثال هذه الحوادث ذات أهمية لديه (ص١٢٨، ١٤٢).

(٣) lane, pp. 546, 549.

(٤) Lüttke (1), vol. PP.30, 35.: وقد كتب الدكتور أندرو وطسون Dr.Andrew Watson لم تمر سنة واحدة في الأربع والأربعين سنة التي أقمتها في وادي النيل دون أن أسمع عن أمثلة عدة للمروق عن الدين لأسباب أهمها الأمل في نيل أغراض "نيوية مختلفة الأنواع، والاضطهاد القاسي المستمر، والتعرض لقسوة جيرانهم من المسلمين، وميلهم للنهب، وتعرضهم للمهانة، والضعف السياسي على اختلاف أنواعه".

(Islam in Egypt: Mohammedan World, P.24).

(٥) سويرس بن ا لمقفع ص ١٢٢، ١٢٩، ١٤٣. ومن أولى المناسبات التي ضحوا فيها بالشكوى من الضرائب الفادحة ما حدث عندما أخذ ميناس والي مصر السفلى من مدينة الإسكندرية ٣٢.٥٧ قطعة من العملة الذهبية كرها بدلا من ٢٢.٠٠٠ قطعة كان عمرو قد قرر جمعها (يوحنا أسقف نقيوس ص٥٨٥) وقال رينودو (Renaudot, P.168) أنه بعد أن استرد رجال الكنيسة سلطانهم بعد الفتح الإسلامي بنحو سبعين سنة، لاقى القبط على يد الكنيسة بقدر ما قاسوا على أيدي المسلمين أنفسهم.

لا تحتمل، وإن الفرق الشاسع في ذلك بين حالتهم وحالة مسيحيي سورية وفلسطين والأندلس في العصر نفسه، لتجد ما يعبر عنها في الثورات التي أشعل نيرانها القبط أنفسهم، ويظهر أن نزاعهم الطويل الذين قاموا به في وجه استبداد بيزنطة من الناحيتين المدنية والدينية، قد أثر ذوي الغيرة على الدين وحولهم إلى جماعة وطنية استطاعت أن تصبر قليلا على حكم الأجانب من العرب كما صبروا على حكم البيزنطيين من قبلهم، وإن الثورة التي قاموا بها القبط في وجه سادتهم الجدد في سنة ٦٤٦، حين طردوا العرب من الإسكندرية إلى حين، وفتحوا أبواب هذه المدينة للجيوش البيزنطية (التي عاملت القبط المنكودين كأعداء، والذين لم يكونوا قد نسوا بعد الحفاوة التي قابلوا بها غزاة المسلمين من قبل) – كانت الأولى من سلسلة الثورات والفتن[١] التي طالما أثارتها الضرائب الفادحة التي دفعتهم إلى القتل وعرضت جماعة المسيحيين من اليعاقبة في مصر إلى الصلابة في تحمله أكثر من أية فرقة من الفرق المسيحية في هذه البلاد أو في البلاد الأخرى التي كانت تحت حكم المسلمين.

ولكن تاريخ هذه الحوادث يتصل بتاريخ اضطهاد المسلمين وتعصبهم الديني، أكثر مما يتصل بموضوع هذا الكتاب. على أنه يجب أن لا نفرض أن حالة القبط كانت على الدوام حالة طائفة مضطهدة[*]؛ بل على العكس كانت هناك فترات كانوا يترقون فيها إلى المناصب التي يتمتع أصحابها بالشهرة والغنى في الدولة. فملأوا مناصب الوزراء والكتاب في دواوين الحكومة[٢]، وحددوا قيمة الضرائب التي تجبى على الأرض التي تعطى على سبيل الالتزام[٣]، وجمعوا ثروة ضخمة[٤] في بعض الحالات، ولقد أمدنا تاريخ كنيستهم

---

(١) ذكر المقريزي خمسا من الفتن الأخرى التي أثارها القبط والتي لم يكن بد من أن تقمع بقوة السيف في خلال القرن الأول لسيادة العرب (المقريزي (٢) ص٧٦–٨٣).

(*) راجع ما ذكره المقريزي (ج١ ص٧٩– ٨٠) عن انتفاض القبط وما كان من الأحداث في ذلك، وما ذكره عن دخول النصارى من قبط مصر في طاعة المسلمين وأدائهم الجزية واتخاذهم ذمة لهم وما كان في ذلك من الحوادث والأنباء (ج٢ ص٤٩٢– ٥٠١)

(٢) **Renaudot, pp.189, 374, 430, 540.**

(٣) **Id. P. 603.**

(٤) **Id. PP. 432, 607. Nasir- i- Khusrau: Safar- namah, ed, schefer, pp. 115-6.**

بكثير من الأمثلة عن رجال الكنيسة الذين تمتعوا بعطف الأمراء الذين حكموا بلادهم ونعم القبط في عهدهم بأقصى درجات الطمأنينة[١]. وإلى مثل هذه الفقرة التي تمتعت فيها الكنيسة بالسلام، يرجع ذلك الحادث الذي أدى إلى اندماج كثير من المسيحيين في جماعة المؤمنين.

وفي عهد صلاح الدين الأيوبي في مصر (١١٦٩– ١١٩٣م) (٥٦٤– ٥٨٩هـ) تمتع المسيحيون بالسعادة إلى حد كبير، في ظل ذلك الحاكم الذي عرف بالتسامح الديني. فقد خفف الضرائب التي كانت فرضت عليهم، وأزال بعضها جملة، وملأوا الوظائف العامة كوزراء وكتاب وصيارفة. وفي عهد خلفاء صلاح الدين نعموا بمثل هذا التسامح والرعاية، قرابة قرن من الزمان. ولم يكن هناك ما يشكون منه إلا ما اتصف به كهنتهم أنفسهم من الفساد والانحطاط. فقد فشت السمونية بينهم، فبيعت مناصب القسيسين الذين اتصفوا بالجهل والرذيلة، على حين حيل بين الذين طلبوا التعيين وبين هذا المنصب المقدس بعجزهم عن أداء الأموال المطلوبة في احتقار وازدراء، مع أنهم كانوا من الجديرين يشغل هذا المنصب، وكان من أثر ذلك أن أهمل تثقيف الناس روحيا وخلقيا إهمالا تاما.

وبلغت الحياة المسيحية درجة محزنة من الانحلال[٢] كما بلغ من فساد الكنيسة أنه عند وفاة يوحنا الرابع والسبعين من بطارقة اليعاقبة في سنة ١٢١٦م، كان لا بد من انتخاب خليفة له، وقام بين الجماعات المتعادية المتناحرة التي ولجت في إثارة حقوق المرشحين المتنافسين، نزاع عنيف استمر نحو عشرين سنة. إلا أنه لم يكن من سبيل إلى إصلاح ذات البين بين هذه الجماعات؛ فقد كان اهتمامهم طوال ذلك الوقت بما قد يترتب على ذلك من نتائج محزنة مخزية ضارة، أقل من اهتمامهم بالمحافظة على روح التحزب التي تنطوي على العناد وإثارة الشقاق. وفي أكثر من مناسبة، حاول السلطان الجالس على العرش أن يصلح بين هذه الفرق المتخاصمة، ورفض ما عرضته عليه من رشا

---

(١) Ranaudot, pp.212, 225, 314, 540.

(٢) Renaudot, p.588.

ضخمة بلغت الثلاثة الآلاف والخمسة الآلاف، بل عشرات الآلاف قطعة من العملة الذهبية ليغروه بأن يكفل لهم اختيار أحد المرشحين بالضغط وباستعمال نفوذه الرسمي.

بل لقد عرض عليهم هذا السلطان أن يتجاوز عن المطالبة بالرسوم التي اعتاد أن يؤديها البطريق الذي يفوز حديثا بالانتخاب، لو أنهم طرحوا منازعاتهم ووصلوا إلى شيء من الاتفاق، ولكن هذه الجهود لم تحقق أي غرض من الأغراض، وخلا في الوقت نفسه كثير من الأسقفيات، ولم يكن هناك من يحل محل الأساقفة والقسيسين الذين ماتوا في تلك الفترة؛ ففي دير القديس مكاريوس وحده لم يبق غير أربعة من القسيسين بعد أن كان عددهم قد تجاوز الثمانين في عهد الطريق السابق[١]. وقد بلغ من شدة إهمال مسيحيي أبرشيات الكنيسة الغربية أنهم تحولوا إلى الإسلام[٢]. ويؤسفنا أن ليس لدينا ما نريده على هذا البيان الجرئ الذي أتى به مؤرخ الكنيسة القبطية من المعلومات عن الجهود الفعالة التي بذلها المسلمون في سبيل تحويل هؤلاء المسيحيين إلى دينهم. وإذا كانت ثمة جهود قد بذلت في هذا السبيل، فهذا أمر لا يثير غير قليل جدًا من الشك، وخاصة إذا علمنا أن المسيحيين قد قاموا بمحاولات علنية وشغلوا أنفسهم بتدوين المناقشات والمناظرات عن مزايا كل ديانة بالنسبة إلى غيرها[٣] من الديانات المنافسة لها..

ومما يدل على أن تحول المسيحيين إلى الإسلام لم يكن راجعا إلى الاضطهاد، ما وقفنا عليه من الشواهد التاريخية الأصلية وهو أنه في الوقت الذي شغر فيه كرسي البطرقية، تمتع المسيحيون بالحرية التامة في إقامة شعائرهم، وسمح لهم بإعادة بناء كنائسهم بل ببناء كنائس جديدة، وتخلصوا من القيود التي حتمت عليهم أن يركبوا الحمير والبغال،

---

(١) Id, pp. 567, 571, 574-5.

(٢) Wansleben, p.30. ذكر في فصلين مثلا آخر وقع في ظروف متباينة عن تدهور الكنيسة القبطية في جزيزرة قبرص التي كانت من قبل تحت نفوذ البطريق القبطي في المسائل القضائية، وقد بلغ من اضطهاد رجال الدين من الأرثوذكس، الذين تمتعوا بحماية الأباطرة البيزنطيين، لم يستطع أن يقنع القسيين الذهاب إلى هنالك. وكان من أثر ذلك أن جميع القبط الذين أقاموا في الجزيرة، قبلوا الإسلام دينا لهم، أو اعترفوا بمجمع خلقدونية، وأغلقت كنائسهم جميعا (Id. P.31)

(٣) Ranaudot, p. 377.

وحوكموا في محاكمهم الخاصة، على حين أعفى الرهبان من دفع الجزية، ومنحوا امتيازات معينة[١].

ومن الصعب أن نقدر إلى أي حد يعد هذا الحادث مثلا لانتشار الإسلام بين القبط، وقد ذكر حالة مشابهة لهذا الإهمال اثنان من الرهبان الكوشيين[*] قاما برحلة في النيل في القرن السابع عشر الميلادي إلى الأقصر، فوجدا أن القبط في هذه المدينة لم يكن لهم قسيس، وأن بعضهم لم يذهب للاعتراف أو يحضر القداس أو العشاء الرباني مدة خمسين سنة[٢]. وفي مثل هذه الظروف نستطيع أن ندرك بسهولة قلة عدد القبط، وقد حدث إهمال مماثل ربما يعزى إلى انحلال الكنيسة النوبية التي اعترفت بسيادة بطريق الإسكندرية اليعقوبي عليها، كما كان تفعل الحسبة حتى الوقت الحاضر، وقد تحول النوبيون إلى المسيحية حول منتصف القرن السادس الميلادي، واستردوا استقلالهم عندما فتح العرب مصر؛ وعقدت معاهدة كانوا بمقتضاها يقدمون في كل عام ثلاث مائة وستين من العبيد بالإضافة إلى أربعين عبدا يقدمونهم إلى والي مصر، على أن يمدهم العرب بالغلال والزيت والملابس[٣].

وفي عهد الخليفة المعتصم (٨٣٣– ٨٤٢م) أرسلت السفراء ليجددوا هذه المعاهدة، وزار ملك النوبة حاضرة مصر حيث قوبل بالتعظيم والتبجيل، ثم عاد يحمل معه هدايا ثمينة ذات قيمة[٤]. وكان جميع النوبيين في القرن الثاني عشر لا يزالون على المسيحية[٥] واحتفظوا باستقلالهم القديم على الرغم من الحملات المتكررة التي كانت ترسل إليهم من مصر[٦]. وفي سنة ١٢٧٥م استطاع ابن أخي ملك النوبة في ذلك الحين

---

(١) Ibid, P.575.

(*) الكيوشيون هم لابسر الفلانس من رهبان الفرنسسكان نسبة إلى Capuche أي قلنسوة.

(٢) Relation du voyage dy sayed ou de la Thebayde fait en 1668, par les PP. Protails et Charles- François d'orleans. Capuchins Missionaries, P.3 (Thevent, vol ii).

(٣) Caetani, vol. I v.P.520.

(٤) Ishok, of Romgla, pp. 272-3

(٥) الإدريسي ص٣٢.

(٦) المقريزي (٢) ج١ القسم الثاني ص١٣١.

أن يظفر من سلطان مصر بقوة من الجيش تشد أزره في الثورة التي أعلنها على عمه. وقد استطاع بمعونتهم أن يعزله، ولم يكن بد من أن ينزل للسلطان عن ولايتين في أقصى شمال النوبة جزاء مساعدته. ولما كان أهالي هذه المنطقة قد اختاروا البقاء على دينهم المسيحي، فقد فرضت عليهم جزية سنوية مقدارها دينار واحد على كل ذكر منهم[١]. على أن السيادة الإسلامية على هاتين الولايتين لم تكن إلا وقتية، فسرعان ما استعاد النوبيون الذين كانوا يسكنون في هاتين الولايتين استقلالهم[٢].

ولكن العرب كانوا قد استقروا في النوبة قبل ذلك بعدة قرون، وزاد عدد العرب القاطنين على ضفاف النيل الأزرق، كما زادت ثروتهم زيادة كبيرة في القرن العاشر، حتى إنهم استطاعوا أن يلتمسوا الإذن ببناء مسجد في سوبة[٣]، عاصمة المملكة المسيحية[٤].

وفي القرن الثالث عشر، ومن أوائل القرن الرابع عشر خاصة، بدأ عن طريق الهجرة إلى بلاد النوبة اندماج العرب، ولا سيما قبيلة جهينة الذين تزوجوا من نساء هذه البلاد، ونجحوا شيئًا فشيئًا في كسر شوكة الأمراء النوبيين[٥]. ويخبرنا ابن بطوطة[٦] في النصف الثاني من القرن الرابع عشر أن النوبيين كانوا في وقته لا يزالون على المسيحية، مع أن ملك مدينة دنقلة[٧]، تلك المدينة الرئيسية في بلاد النوبة، كان قد دخل في الإسلام، وذلك في عهد الناصر (وربما كان هو الناصر مُحَمَّد بن قلاوون أحد سلاطين مصر من المماليك الذي توفي في سنة ١٣٤٠م). ولم تفلح الحملات المتكررة التي قام بها المسلمون في عصر متأخر كالقرن الخامس عشر في تقدم فتوحهم جنوبي الشلال الأول حيث كان

---

(١) المقريزي ص١٢٨-١٣٠.

(٢) **Burchardt (1), P.494.**

(٣) ترتفع على بعد اثني عشر ميلا تقريبا من مدينة الخرطوم الحديثة

(٤) **Artin, PP. 62.144**

(٥) **Becker, Geschichte . des östlichen, P.160.**

(٦) ج٤ ص٣٩٦.

(٧) ويسجل سلاطين باشا أسطورة متداولة بين عرب دنقلة، وهي أن هذه المدينة قد أسسها جدهم الأكبر دنقل الذي سمى المدينة باسمه (على أن هذا الزعم محال نظرًا لأن دنقلة كانت في عصور المصريين القدماء، وذكرت في الآثار. انظر **Vuren de Saint- Martin, vol. ii.P.85)**، وتذكر الأسطورة أن هذا المدعو دنقل، مع أنه عبد تمكن من أن يكون حاكما لبلاد النوبة، غير أنه كان يؤدي الجزية إلى بهنسا، الأسقف القبطي لكل الإقليم الواقع بين راس والديه الحاليين.

(Fire and Sword in the Sudan, P.13) (London, 1896).

يقع بالقرب منه آخر معقل من معاقلهم[١]، على حين كانت المسيحية، فيما يظهر، تمتد بعيدا على طول نهر النيل حتى مدينة سنار.

ويظهر أن المملكة النوبية المسيحية قد صارت إلى الزوال، لظهور الانقسامات الداخلية من ناحية، ولهجمات القبائل العربية والإغريقية التي كانت تغير على حدود هذه المملكة من ناحية أخرى، وأخيرا لقيام دولة الفونج القوية في القرن الخامس عشر[٢].

ولكن من الجائز أن الإسلام في هذه البلاد كان يلقى خلال ذلك الوقت رواجا على أيدي التجار وغيرهم من المسلمين الذين كانوا يترددون عليها، وقد نقل المقريزي الذي كتب في مستهل لاقرن الخامس عشر حكاية تتعلق بالدعوة، لا نجد لها ذكرا في مؤلفات العرب إلا في القليل النادر. وقد روى هذه القصة ابن سليم الأسواني، وهي من الأهمية بحيث تعطينا صورة حية للداعي المسلم الذي يعمل على نشر دعوته. ومع أن الداخل في الإسلام الذي أشارت إليه القصة لم يكن مسيحيا ولا نوبيا، فإن القصة مع ذلك تبين لنا أنه كان هنالك شيء كهذا يتعلق بتحويل الناس إلى الإسلام في بلاد النوبة في القرن الخامس عشر.

ويقول ابن سليم إنه رأى ذات مرة رجلا في مجلس نوبي كان عظيم المقرة، وسأله عن بلده فقال مسافته إلى النيل ثلاثة أهلة، وسأله عن دينه فقال: «ربي وربك الله، ورب الملك ورب الناس كلهم واحد، وهو كائن في السماء وحده، فإذا أبطأ عنهم المطر أو أصابهم الوباء، أو وقع بواديهم آفة صعدوا الجبل، ودعوا الله فيجابون للوقت، وتقضى حاجتهم قبل أن ينزلوا. فلما أقر الرجل أن الله لم يرسل قط رسولا فيهم، ذكر له ابن سليم بعثة موسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم، وما أيدوا به من المعجزات فقال: «إذا كانوا فعلوا هذا فقد صدقوا؛ وقد صدّقتهم إن كانوا فعلوا»[٣].

(١) ابن سليم الأسواني نقلا عن المقريزي: كتاب الخطط ج١ ص٩٠ (القاهرة ١٢٧٠هـ)

(٢) **Budge, vol.ii.P.199. Artin, p144.**

(٣) المقريزي: كتاب الخطط ج١ ص١٩٣.

ويظهر أن النوبيين قد انساقوا إلى المسيحية إلى الإسلام بالتدريج وفي بطء شديد[١]، وكانت الحياة الروحية في كنيستهم قد انحدرت إلى أقصى دركات الانحطاط. ولما وجد المسيحيون ألا أمل في قيام حركة للإصلاح في مجتمعهم، وأنهم قد فقدوا الاتصال بكنائسهم التي تقع فيما وراء حدودهم، لم يكن من الطبيعي إلا أن ينشدوا ما يشفي غلتهم ويسد رمقهم الروحي في الدين الإسلامي الذي حمل أتباعه بين هؤلاء الدليل على قوة حيويته وقتا طويلا، كما كانوا قد ظفروا بفريق من مواطنيهم الذين قبلوا الدخول في هذا الدين. وقد حفظ قسيس برتغالي تنقل في بلاد الحبشة بين سنتي ١٥٢٠، ١٥٢٧ صورة عن النوبيين في هذا الدور من الانتقال؛ إذ كتب يقول إنهم لم يكونوا نصارى ولا يهود ولا مسلمين، ولكنهم أصبحوا بحيث لا يدينون بدين ولا يعترفون بقانون، ولكنهم من ذلك «كانوا يعيشون تحدوهم الرغبة في أن يكونوا مسيحيين».

وقد انحدروا إلى أحط دركات الجهل بسبب ما وقع فيه رجال الكنيسة من خطأ، فلم يكن بين هؤلاء النوبيين أساقفة ولا قساوسة في ذلك الوقت. وكان من أثر ذلك أن أرسلوا إلى ملك الحبشة بعثة مؤلفة من ستة رجا، يلتمسون منه أن يرسل إليهم قسيسين ورهبانا لتعليمهم، ولكن النجاشي أبى أن يفعل إلا بعد أن يستأذن في ذلك بطريق الإسكندرية، ولما لم يظفروا بهذا الإذن، رجع هؤلاء السفراء السيئو الحظ إلى أوطانهم يجرون أذيال الخيبة[٢]. وقد روى مسيحي كان قد سافر إلى بلاد النوبة لهذا الكاتب نفسه، أنه كان قد عثر على ١٥٠ كنيسة هنالك، كان لا يزال في كل منها صور المسيح المصلوب، ومريم العذراء، وبعض القديسين منقوشة على الجدران، كذلك وجدت كنائس[٣] في كل القلاع التي كانت منبثة في جميع أنحاء البلاد. وقبل نهاية القرن التالي،

---

(١) Morie, vol, i.pp 417-18.

(٢) يذكر لورد ستانلي اف الدولي Stanly of Alderly في ترجمته لكتاب ألفاريز Alvarez من الأصل المكتوب باللغة البرتغالية أن رد الملك ع٨ليه٠م كان كما يأتي: «قال لهم إنه قد حصل على المطران من بلاد البربر، يعني ذلك من جهة بطريق الإسكندرية.. فكيف يستطيع إذن أن يمد غيره بقسيسيين ورهبان، مادام غيره» (P. 352, London, 1881)

(٣) Viggio nella Ethiopia al Prete lanni fatto par Don Francescon, Alvarez Portughese (1520-1527). (Ramusio, tom. i. pp.200.250).

ذهبت معالم المسيحية من بلاد النوبة، «وذلك بسبب النقص في عدد رعاة الكنيسة». أما الكنائس المغلقة فلم يكن بد من أن تظل قائمة في أنحاء البلاد[١].

وقد خضع النوبيون للمؤثرات الإسلامية القوية التي أحاطت بهم، ويرجع إليها أكبر الفضل في الجهود التبشيرية التي قام بها المسلمون الذين تنقلوا في بلاد النوبة في القرون الماضية؛ ففي الشمال كانت مصر وكذلك القبائل العربية التي كانت قد أخذت طريقها تجاه منابع النيل، ووسعت سلطانها على طول ضفاف ذلك النهر[٢]؛ وفي الجنوب كانت ولاية قبائل بلو Belloos الإسلامية تفصل بينهم وبين بلاد الحبشة [٣].

وكانت هذه القبائل في مستهل القرن السادس عشر خاضعة لملك الحبشة المسيحي، على الرغم من أنها كانت تدين بالإسلام. وإذا صح أن هؤلاء البلو هم البليون الذين تحدث عنهم الإدريسي في القرن الثاني عشر، وعدهم من النصارى اليعاقبة[٤]، وقرن اسمهم باسم قبائل البجة (سكان الجزيرة التي تعرف باسم جزيرة مرو) الذين كانوا يقطنون بجوارهم، فمن الجائز أنهم لم يقضوا إلا أعواما قليلة قبل أن يتحولوا إلى الإسلام، في الوقت الذي أسلم فيه قبائل البجة الذين كانوا قد اندمجوا في دولة الفونج الإسلامية حين مد هؤلاء فتوحهم بين سنتي ١٤٩٩، ١٥٣٠ من الجنوب حتى حدود بلاد النوبة والحبشة، وأسسوا ولاية سنار القوية.

وعندما غزا جيش أحمد جراني بلاد الحبشة، وشق طريقه في البلاد من الجنوب إلى الشمال، اتصل حول سنة ١٥٣٥ بجيش سلطان مسيحية أو مزجة Maseggia or Mazaga، وهي ولاية خاضعة لحكومة إسلامية، ولكنها كانت تدفع الجزية لبلاد الحبشة، وتقع هذه الولاية بين بلاد الحبشة وسنار. وكان في جيش هذا السلطان ١٥ ألف جندي

---

(١) Wanslebien, P.30 للاطلاع على وصف البقايا التي لا تزال باقية من هذه الآثار، راجع Budge vol ii. p.299 sqq G.s Nileham, churches in lover, Nubia, (Philadelphia, 1910)

(٢) Burckhardt (I) P.133.

(٣) Alvarez, P.250.

(٤) الإدريسي ص٣٢.

من النوبيين، وكانوا فيما يظهر لنا مما روى عنهم، يعتنقون الدين الإسلامي[1]. ولما كانت أخبار تحول النوبيين إلى الإسلام شذرات غير كافية، فإننا نستطيع من غير شك أن نستخلص من كل ما نعرفه عن هذا الشعب الذي جبل على الاستقلال، والذي عرف بتشبثه بالدين المسيحي طالما كان هذا الدين قوة حية بينهم، أن تحولهم عن دينهم قد تم تدريجيا خلال قرون كثيرة.

ولننتقل الآن إلى الكلام على تاريخ الإسلام بين الحبش الذين كانوا قد دخلوا في المسيحية قبل النوبيين بقرنين، وخضعوا مثلهم للكنيسة اليعقوبية.

ويبدو أن تيار الهجرة العربية لم يكن قد تجاوز البحر الأحمر الذي كانت سواحله الغربية تكون جزءا من مملكة الحبشة إلا بعد أن دخل العرب في دين مُحَمَّد بقرون كثيرة. ولم تكن هنالك حتى القرن العاشر الميلادي إلا أسر إسلامية قليلة العدد، تقيم في مدن الحبشة الساحلية، إلا أنه في نهاية القرن الثاني عشر أدى تأسيس دولة عربية إلى فصل بعض الأراضي الساحلية عن المملكة الحبشية، وحدث في عام ١٣٠٠ أن شق تأسيس دولة عربية إلى فصل بعض الأراضي الساحلية عن المملكة الحبشة. وحدث في عام ١٣٠٠ أن شق أحد الدعاة، ويدعى أبا عبد الله مُحَمَّد، طريقه إلى بلاد الحبشة، داعيًا أهلها إلى الإسلام، فلما تمكن من أن يجمع حوله مائتي ألف شخص، هجم في السنة التالية على حاكم أمهرة، واشتبك معه في معارك كثيرة[2].

وقد اتخذ الملك سيف أرعد (١٣٤٢- ١٣٧٠م) تدابير صارمة ضد المسلمين في مملكته، تقضي بإعدام كل من أبى الدخول المسيحية أو نفيهم من البلاد[3]. وفي نهاية القرن نفسه عمت البلاد حالة قلق واضطراب لانشغالها بالحروب الداخلية، ومهدت تلك الحالة السبيل للقبائل العربية المختلفة التي استقرت على طول الساحل، لأن يجعلوا

---

(١) عرب فقيه ص٣٢٣.

(٢) المقريزي (٢) ج٢ القسم الثاني ص١٨٣.

(٣) Baset, P420.

من أنفسهم سادة على المنطقة الساحلية بأجمعها، وطردوا الأحباش إلى المناطق الداخلية. وقد قيل إن الملك بئيد ماريام (١٤٦٨– ١٤٧٨) قضى الجزء الأكبر من حكمه في محاربة المسلمين الذين كانوا يقيمون على الحدود الغربية من مملكته[1]. وفي مستهل القرن السادس، بينما كانت مملكة عدل الإسلامية القوية الواقعة بين بلاد الحبشة والأطراف الجنوبية للبحر الأحمر وغيرها من الممالك في عداء مستحكم مع القوة المسيحية، كانت هناك ممالك أخرى تؤلف جماعة مسالمة خاضعة للقديس يوحنا **Prester John**. ومن أمثلة هؤلاء من العرب، كانوا يسكنون في مصوع، ويعيشون في كنف السادة الأحباش، وكانوا يطوفون في جماعات، كل منها يتألف من ثلاثين أو أربعين شخصا، ومعهم نساؤهم وأطفالهم، وعلى رأس كل جماعة «قائدها».

وقد ذكر كذلك أن بعض المسلمين كانوا من خدمة الملك، وأنه كان يسند إليهم مناصب مهمة في الدولة. وفي الوقت الذي نرى فيه بعض هؤلاء يظلون على إخلاصهم للإسلام، نجد بعضا آخر ينتحل الديانة السائدة في البلاد. أما أن هذه الجماعات الإسلامية كانت تؤدي الجزية لملك الحبشة. فهذا أمر لا نستطيع التثبت منه، وقد كان على مسلمي هدية أن يدفعوا جزية أخرى للملك، وهي أن يعطوه في كل سنة بنتا ينصرها له، وجدت هذه العبارة في بلدهم بمقتضى معاهدة كان ملك الحبشة يحكم دائما بها، «وكان أقوى منهم»، ثم إنه حكم عليهم ألا يلبسوا عدة الحرب، ولا يمسكوا السيف، ولا يركبوا خيولهم بالسروج، قالوا: «وحكم علينا.. ونطيعه أن يقتلنا، ويخرب مساجدنا، وإذا أرسل إلينا الذي يتقبل البنت والمال، أخرجنا له البنت على السرير، ونغسلها ونكفنها بثوب ونصلي عليها. ونحسب أنها ميتة، ونعطيها له، فإذا وجدنا آباءنا وأجدادنا يفعلون ذلك»[2].

وكانت البقاع الرئيسية التي يقطنها هؤلاء المسلمون الذين يدفعون الجزية لملك الحبشة واقعة في الأراضي المنخفضة التي تؤلف حدود الحبشة الشمالية، من البحر الأحمر

---

(١) **Id., P237.**

(٢) عرب فقيه ص٢٧٥– ٢٧٦.

غربا حتى سنار[١]، وفي الجهة الجنوبية[٢] والجنوبية الشرقية من المملكة، وأن القول بما كان لهؤلاء المسلمين من تأثير في الشعوب المسيحية التي اختلطت بهم، وأنهم عملوا على تحويل الناس إلى الإسلام، كما حدث في القرن الحالي، لا يعدو الحدس والتخمين، ولكن هناك أمرا لا شك فيه، وهو ما فعله أحمد جراني أمير عدل المسلم المستقل، وهو يروي عن نفسه أنه كان ابن أحد قساوسة أيجو Aijo المسيحيين. وكان قد ترك موطنه ودخل في الإسلام في عدل[٣] فقد غزا بلاد الحبشة من سنة ١٥٢٨ إلى ١٥٤٣، وانضم إلى جيشه الظافر كثير من زعماء الأحباش مع أتباعهم، وأصبحوا مسلمين، ومع أن أهالي بعض المقاطعات من المسيحيين قد آثروا أداء الجزية[٤]. وانتحل آخرون دين الفاتحين[٥]، غير أن المؤرخ المسلم المعاصر نفسه يذكر لنا أن هذا التحول إلى الإسلام كان في بعض الحالات نتيجة الخوف، وأن الشكوك كانت تساور النفوس حول إخلاص هؤلاء القريبي العهد بالإسلام[٦].

ولكن من الجلى أن مثل هذه الحالة لم يكن عاما بين الناس، وأن هذا التحول الواسع النطاق إلى الإسلام في مقاطعات كثيرة، ليوحي بأن هذه الحركة كانت قد لقيت تأييدا من العامة؛ فقد استغل الزعماء المسيحيون الذين تحولوا إلى الإسلام نفوذهم الشخصي في تحريض جيوشهم على الاقتداء بهم. ويقال إن فريقا منهم كانوا على جهل تام بأصول دينهم[٧]، ومن ثم كان تغيير الدين أمرا أقل صعوبة عليهم، وقد تحول إلى الإسلام بمثل هذه الطريقة الآلية كثير من الناس وخاصة زعماء المسلمين، هؤلاء الذين كانوا قد دخلوا في خدمة ملك الحبشة، وأولئك المرتدون الذين اتخذوا من غزو بلادهم

---

(١) نفس المرجع ص ٣٠٩، ٣٢٤.

(٢) نفس المرجع، ص٢٨، ١٢٩، ٢٧٥.

(٣) **Plowdem, P.36.**

(٤) نفس المرجع والصفحات.

(٥) ص١٧٥، ١٩٥، ٢٤٨.

(٦) نفس المرجع ص١٧٨.

(٧) عرب فقيه ص٣٤-٣٥، ١٢٠- ١٢٠- ١٢٠، ١٨٢- ١٨٣، ٢٤٤، ٣٢٧.

على أيدي جيش المسلمين الفاتح فرصة لأن ينبذوا في الحالة المسيحية، وطاعتهم للملك المسيحي، وأن يعلنوا إسلامهم من جديد[١].

وفي سنة ١٥٣١م كتب أحد هؤلاء إلى أحمد جراني كتابا هذا نصه: «أنا أول من مسلم وابن مسلم، وأسروني المشركون، ونصروني، وإن قلبي مطمئن بالإيمان، والآن أنا جار الله وجاء رسوله وجارك، أن تقبل توبتي ولا تؤاخذني بما عملته، فأنا تائب إلى الله، وهذه جيوش الملك الذين هم معي، أنا أحتال عليهم حتى يدخلوا عندك ويسلموا». وفي الحق آثر السواد الأعظم من جيشه أن يقتدوا بقائدهم، فأسلموا جميعهم، وهم – فيما يقال – نحو عشرين ألفا مع نسائهم وأولادهم[٢].

ولكن الأحباش استطاعوا بمعونة البرتغاليين أن يخلعوا نير الغزاة المسلمين، وقتل أحمد جراني نفسه في سنة ١٥٤٣. ومع ذلك استقرت دعائم الإسلام في تلك البلاد، وإن حالة القلق التي أصابت مرافق البلاد في البقية الباقية من القرن السادس عشر، وفي القرن الذي يليه، فقد مكنت الإسلام من البقاء، فقد كانت الكنائس المسيحية المتناقشة مشغولا بعضها بعضها بالتنازع مع بعض انشغالا لم يمكنها من التفرغ لعدوها المشترك. فإن ما قام به اليسوعيون من أعمال ناجحة في التبشير، وما فعله المبشرون الآخرون من الرومان الكاثوليك، وما صنعه البرتغاليون من تدخل فعال في كل الشئون المدنية والسياسية – كل ذلك قد آثار مقاومة عنيفة بين جمهرة مسيحيي الحبشة، وكان هذا الشعور مؤلما حقا، حتى لقد بلغ من ألمه أن بعض القواد قد أعلن صراحة أن من الخير لهم أن يخضعوا للحاكم المسلم من أن يظلوا على مخالفة البرتغاليين[٣]؛ وسرعان ما اتخذت الحركة شبه الدينية، وشبه الوطنية التي استقرت هنالك مثل هذه الخطوات الواسعة التي أدت (حول سنة ١٦٣٢) إلى طرد البرتغاليين وإخراج كل المسيحيين الأجانب من البلاد. وسرعان ما أصبحت حالة بلاد الحبشة في ذلك الحين ضربا من الفوضى المزعجة

---

(١) عرب فقيه، ص١٨١– ١٨٢، ١٨٦.

(٢) عرب فقيه، ص١٨١– ١٨٢، ١٨٦.

(٣) **Jobi Ludolfi ad suam Historiam Aethiopicam Commentarius. P.474. Frankurt a. M., 1671.**

وسوء النظام، وقد استغل بعض قبائل الجلا Galla هذه الفرصة فشقت طريقها إلى قلب البلاد حيث لا تزال الأماكن التي استوطنوها باقية إلى الوقت الحاضر.

ويمكن أن يقدر المرء مدى التقدم الذي أحرزه الإسلام في خلال هذه الفترة مما أثبته رحالة عاش في القرن السابع عشر، إذ يذكر لنا أن منتحلي هذا الدين كانوا في ذلك الوقت منبثين في جميع أنجاء بلاد الحبشة وأنهم يؤلفون ثلث جميع السكان[1]. ويلوح أن دين النبي قد كثر في خلال القرن الذي يليه عن طريق إسلام أفراد كانوا يعيشون في عزلة هنا وهناك، وقد ساعد عدم وجود أية حكومة مركزية قوية على ظهور أمراء مستقلين، وكان كثير منهم يعطف على الإسلام عطفا شديدا، مع أن كل أمراء الحبشة (وذلك طبقا لأحد القوانين الأساسية للدولة) لم يكن بد من أن يتبعوا الدين المسيحي، وكذلك تنكر المسلمون لديانتهم التي نشئوا عليها، تطلعا إلى عظمة الأرستقراطية الحبشية، وتظاهروا بالتحول إلى المسيحية حتى يتمكنوا من الانتظام في سلك الأشراف، واستخدموا كل ما لهم من نفوذ في نشر الإسلام[2] بكونهم حكاما على الولايات المسيحية. ويظهر أنه كان من أهم الأسباب التي أدت إلى نجاح هذا الدين ما كان للمسلمين من تفوق أدبي إذا ووزنوا بسائر أهالي الحبشة من المسيحيين.

ويقول ربيل Rüppell إنه كثيرا ما لاحظ في خلال رحلاته في بلاد الحبشة، أنه عندما يراد شغل منصب من المناصب التي تتطلب أن يكون الشخص الذي يشغلها أمينا كل الأمانة، موثوقا به تمام الثقة، كان اختيارهم يقع دائما على شخص مسلم. وقد عقد الكاتب مقارنة بينهم وبين المسيحيين، فقال إنهم (أي المسلمين) يقع دائما على شخص مسلم، وقد عقد الكاتب مقارنة بينهم وبين المسيحيين، فقال إنهم (أي المسلمين) كانوا أكثر حيوية ونشاطًا، فقد التزم كل مسلم تعليم أبنائه القراءة والكتابة، في الوقت الذي

---

(1) Histoire de la Ethiopte, par le R. P. Manoel d'almeïda, P.7. (Thevenot, vol.ii).

(2) Massaja, vol. ii. Pp.205-6 ومن الواضح أن ارتداد نتج من حب السيطرة، لم يكن في الواقع إلا تنفيذ إجراء شكلي، إذ أن هؤلاء المرتدين كانوا مسلمين حقيقيين في قلوبهم وسلوكهم، ومن ثم كانوا إذا ما ارتقوا إلى رتبة "رأس" يحيطون أنفسهم بالمسلمين، ويعهدون إليهم في أكثر الوظائف ويغمرونهم بالألقاب والثروة والنعم، وهكذا انضوت الحبشة المسيحية المجتاحة والآهلة بهذا الجنس السيء تحت لواء الإسلام".

نرى فيه أبناء المسيحيين لا يتعلمون إلا عندما يزمعون القيام بأعمال الكهنوت[1] وأن ما ناله مسلمو الحبشة من هذا التفوق الأدبي على الأهالي المسيحيين، ليفسر لنا إلى حد ما أحرزه الإسلام من تقدم مستمر، وإن كان بطيئًا في خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وإن ما اتصف به رجال الكنيسة الحبشية من انحطاط وجمود، وما شجر بين زعماء الحبشة من منازعات لا حد لها، أفسحت للمؤثرات الإسلامية المجال لتعمل في حرية واطمئنان.

وعندما تحدث مستر بلودن **Plowden** قنصل إنجلترا في بلاد الحبشة من سنة ١٨٤٤ إلى ١٨٦٠م، عن قبائل الحباب وهي ثلاث قبائل تنتمي إلى فرع التيجري **Tigre**، وكانوا يقطنون بين خطي عرض ١٦، ٣٠ ١٧ إلى الشمال الغربي من مصوع، قال إنهم اعتنقوا الإسلام «في خلال المائة عام الأخيرة، وكلهم ما عدا الجيل الأخير، يحملون أسماء مسيحية. وقد غيروا ديانتهم لما كان للمسلمين الذين كانوا يتجرون معهم من تأثير متصل، وبما صنعه زعماء الحبشة من تركهم البلاد تدريجيا، وقد أصبح الآن شاملا، لفرط انشغالهم مع جيرانهم في حروب لا تنقطع».

ومن أساطيرهم أن أحد زعمائهم ويدعى جاوج **Jawej** قد رفض المسيحية ودخل في الإسلام، اعتقادًا منه أن هذا الدين يورث حسن الحظ وطول العمر، قال حينئذ لقسيسه: وحطم التابوب قطعة قطعة[2]، فأجاب القسيس: «إني لا أجرؤ على أن أحطم تابوب مريم قطعة قطعة» عند ذلك أمسك لجاوج التابوت بيديه ثم أهوى عليه بفأسه، فهشمه قطعا، وهنا اعتنق القسيس الإسلام، وأصبح كل ذراريهم شيوخا للقبيلة حتى الوقت الحاضر[3].

وفي هذه الفترة ذاتها تحولت جموع أخرى من أهالي المقاطعات الشمالية في هذه البلاد إلى الإسلام بطريقة مماثلة، ذلك أن القساوسة كانوا قد هجروا هذه المقاطعات وتعرضت الكنائس للخراب، ولم يكن ذلك فيما يظهر إلا نتيجة الإهمال، إذ يقال أن

---

(١) **Rüppell, vol.i, pp.328, 366.**

(٢) **Plowden, P.15.**

(٣) أي تابوت العهد.

المسلمين في تلك البلاد لايعرفون التعصب في أية صورة من صوره، ولا يضمرون للمسيحية أي نوع من العداء(١).

وهناك شهادة مماثلة أدلى بها رحالون آخرون(٢) تؤيد تقدم الإسلام في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي، فقد وجد هؤلاء الرحالون جموعا من المسيحيين في تحول مستمر إلى هذا الدين. وقد عطف على المسلمين بوجه خاص (رأس علي) أحد جوانب الملك في بلاد الحبشة، وكانت له السيادة الفعلية على هذه البلاد قبل أن يجلس الملك تيودور على عرشه سنة ١٨٥٣. ومع أن هذا النائب نفسه كان مسيحيا، فقد قسم مناصب الدولة، بل ما غنمه من الكنائس بين أتباع الدين الإسلامي. وفي أثناء حكمه اعتنق دين النبي نصف الأهالي الولايات الوسطى من بلاد الحبشة(٣).

وقد مد هذا الدين الآن جذورا بعيدة الغور في أرض الحبشة، حتى أن أتباعه ملكوا ناصية التجارة كلها، كما ملكوا المهن الصغيرة بأنواعها في البلاد، ونعموا بأملاك واسعة، وسيطروا على مدن كبيرة وأسواق مهمة، وظفروا بنفوذ قوي على جمهرة الشعب، وقد قدر مبشر مسيحي، عاش في هذه البلاد خمسا وثلاثين سنة، نجاح دعاة المسلمين وحماستهم تقديرا عظيما بقوله: لو أن هناك أجد جراني آخر ينهض وينشر راية النبي، لصارت بلاد الحبشة مسلمة بأسرها(٤).

وقد أدى الشقاق الذي وقع بين الحبشة والحكومة المصرية (التي اشتبكت معها في حرب من سنة ١٨٧٥ إلى ١٨٨٢) إلى إحداث شعور استيناء في وجه الإسلام، فقد انعكست كراهيتهم للعدو الأجنبي المسلم على إخوانهم في الدين الذي أقاموا بين ظهرانيهم، وفي سنة ١٨٧٨ عقد الملك جون مجمعا يضم رجال الكنيسة الحبشية، ونادوا به حكما أعلى المسائل الدينية، وقرروا وجوب الانتصار على دين واحد في كافة أنحاء

---

(١) Littmann, PP. 69-70.

(٢) Plowden, PP.51-2 Isenberg.p.36.

(٣) Massaja, vo0l. xi. P.125. Reclus, vol. x247.

(٤) Massaja, vol. xi.P.124

المملكة، وأعطى المسيحيون على اختلاف طوائفهم ما عدا اليعاقبة، مهلة عامين ليصبحوا فيها متفقين في الرأي مع كنيسة البلاد، وألزم المسلمون بالتسليم في خلال ثلاث سنين، والوثنيون في خلال خمس، وأذاع الملك مرسوما بعد ذلك بأيام قليلة، أوضح فيه أن مهلة السنوات الثلاث التي منحها المسلمون كانت قليلة الأهمية.

وذلك أنه لم يقتصر على إلزامهم ببناء كنائس مسيحية متى كانوا في حاجة إليها، ودفع العشور للقساوسة الذين يقيمون في مقاطعاتهم الخاصة، بل أنذر كل الموظفين المسلمين بأن يختاروا في خلال ثلاثة أشهر بين قبول التعميد أو التخلي عن مناصبهم. وكان مثل هذا التنصير الإجباري الذي لا يشتمل إلا على طقوس العماد ودفع العشور عديم الأثر بطبيعة الحال. ففي الوقت الذي تظاهر المسلمون فيه بالقبول كانوا في الخفاء يؤكدون ولاءهم لدينهم القديم. وقد شاهد مساجا بعضا من هؤلاء يخرجون من الكنيسة التي عمدوا فيها قاصدين المسجد، يلتسمون فيه رجلا مباركا من رجال دينهم، يمحو عنهم ما لحقهم من التعميد الذي أرغموا عليه[١].

وإن ما جعل كل هذا التنصير أضعف أثرا وأقل قيمة هو أنه كان مقصورا على الرجال دون النساء، ذلك أنه لما كان المرسوم الملكي لم يشر إلى النساء في قليل ولا كثير، فإنهن لم يتعرض لسوء محال، وهي حالة ربما دلت على معنى كبير فيما سيحدث بعد في مستقبل الإسلام في بلاد الحبشة، كما أن مساجا يقيم البرهان الساطع على ما قام به النساء المسلمات من دور خطير في سبيل نشر دينهن في هذه البلاد[٢]، فيقول إن الملك جون أرغم حول سنة ١٨٨٠ ما يقرب من خمسين ألفا من المسلمين على التعميد، كما أجبر عشرين ألفا من أفراد إحدى القبائل الوثنية ونصف مليون من قبائل الجلا[٣].

ولكن لما كان تنصيرهم لم يتجاوز التعميد ودفع العشور، فلا عجب إذا عرفنا أن

---

(١) Massaja, vol. xi. PP.77-8

(٢) Id.PP.124 .125.

(٣) Oppel, P. 307, Reclus, tome, x. P. 247.

هذه الوسائل التي تقوم على العنف والإرهاب، لم تؤد إلى زيادة العداوة والبغضاء في نفوس الأحباش المسلمين والوثنيين جميعا نحو الدين المسيحي[1]. وقد اغتنم ملك ولاية كافا Kafa الصغيرة (التي كانت تعترف بالسيادة الحبشية بصفة دائمة تقريبا)– واسمه Sawo- Techno– فرصة ارتباك الملك جون الذي هدده الإيطاليون وأتباع المهدي في وقت واحد، فأعلن (ملك كافا) استقلاله واعتنق الإسلام ليكون بذلك أقوى نفوذا فيما يعمل. وقد أفلح في مقاومة كل هجوم حتى سنة ١٨٩٧، حين غزيت ولايته مرة أخرى، وأسره الإمبراطور منليك ملك شوا Shoa السابق، الذي وطد سلطانه في جميع أنحاء بلاد الحبشة بعد وفاة الملك جون سنة ١٨٨٩، وعاد الدين المسيحي دينا رسميا في ولاية كافا بأسرها، وتجددت العبادة المسيحية في الكنائس التي تركت لم تمس بسوء، وكان بعضها قد أغلق أو تحول إلى مساجد[2].

ولكن هذه التدابير الصارمة التي اتخذت لصالح المسيحية قد أخفقت في وقت نمو النفوذ الإسلامي في خلال القرن التاسع عشر، فقد أسلمت قبائل بأجمعها، كانت يوما ما تدين بالمسيحية، ولا تزال تحمل أسماء مسيحية، مثل قبائل تاكليه Taklès (أي نبات يسوع)، وهبتيه Hebtès (عطية يسوع)، وتيماريام Temaryam (عطية مريم)، وكانت قبيلتا منساع Mänsa مسيحية بأسرها حول منتصف القرن التاسع عشر، ثم دان السواد الأعظم منهما بالإسلام في مستهل القرن العشرين، ويلوح أن الجهود التي قام بها دعاة المسلمين الذين أدخلوهم في الإسلام كانت ممهدة السبيل بسبب جهل رجال الكنيسة. كذلك قامت حركة مماثلة لنشر الإسلام، ظلت مستمرة بعض الوقت بين قبائل أخرى[3].

ولنعد الآن إلى تاريخ إفريقية في القرن السابع الميلادي عندما كان العرب يسيرون

---

(١) Massaja, vol. xi.PP.79, 81.

(٢) Morié, vol. ii.P.449.

(٣) Littmann, PP. 68- 70. K. Cederquist: Islam and Christianity in Abysinia, P. 154 (The Moslem World, vol. ii)

بفتوحاتهم قدما من الشرق إلى الغرب على طول الساحل الشمالي، وقد كان فتح مصر أمرًا ميسورا بالنسبة إلى غيره من الفتوح، حيث قامت جموع غفيرة من السكان بمساعدة العرب في وضع حد للحكم البيزنطي، ولا مجال للمقارنة بينه وبين تلك المعارك الدامية، والمقاومة المتوالية الطويلة الأمد التي حالت دون التوغل في تقدمهم في فتح إفريقية، وقد مضى نصف قرن قبل أن يظفر العرب بالسيادة التامة على الساحل الشمالي الذي يمتد من مصر إلى المحيط الأطلسي. ولم تكد قرطاجنة تسقط سنة ٦٩٨م حتى زال الحكم الروماني من إفريقية زوالا رجعة له، كما أن إخضاع البربر قد مكن العرب من أن يصبحوا سادة هذه البلاد.

وليس من غرضنا في هذا الكتاب أن نتعرض لتفاصيل هذه الغزوات، وإنما يحسن بنا أن نحاول البحث عن الطريقة التي انتشر بها الإسلام بين أهالي هذه البلاد المسيحيين. ويؤسفنا أن المادة التاريخية التي تعيننا على تحقيق هذا الغرض قليلة غير وافية، فماذا كان مصير تلك الكنيسة الإفريقية الكبرى التي كانت قد أمدت العالم المسيحي بأمثال هؤلاء القديسين ورجال الدين؟.. لقد زالت كنيسة **Tertullian** وكنيسة القديس سابيريان **Cyprian** وكنيسة القديس أوجوسطين **Augustine**، التي كانت قد خرجت ظافرة من أمثال هذه الاضطهادات الكثيرة، والتي ناضلت في قوة وعنف عن قضية الأرثوذكسية المسيحية كل ذلك، فيما يظهر، قد تلاشى كما يتلاشى الضباب.

ولما لم يكن ثمة أخبار محدودة واضحة، تعود بعض الباحثين أن ينسبوا اختفاء المسيحيين من أهالي تلك البلاد إلى اضطهاد الفاتحين المسلمين الذي أملته عليهم روح التعصب الديني وإكراههم على الدخول في الإسلام. ولكن هناك اعتبارات شتى تدفع ما استقر عليه الرأي في هذه المسألة الشائكة، أولها عدم وجود الدليل البين الذي يؤيد مثل هذا الرأي، لقد كانت هناك المذابح وأعمال التدمير، وكل ما اقترن بحرب دامية طويلة الأمد، وكانت من الكثرة بحيث تثير الرعب والفزع، أما ما يتعلق باضطهاد ديني حدث فعلا فإن المؤرخين لم يذكروا عنه إلا شيئًا قليلا. وإن بقاء الكنيسة الوطنية بعد الفتح العربي أكثر من ثمانية قرون، لشاهد على روح التسامح التي استطاعت وحدها أن تجعل

مثل هذا البقاء أمرًا ممكنا.

فمن اللازم أن نلتمس الأسباب التي مهدت السبيل إلى تدهور المسيحية في شمال إفريقية، في شيء آخر أكثر مما نلتمسها في تعصب الولاة المسلمين. ولكن قبل أن نحاول بسط هذه الأسباب، يجدر بنا أن نتبين كيف أن عدد الأهالي المسيحيين في نهاية القرن السابع الميلادي كان لابد أن يكون قليلا جدا، وهذه حالة تجعل استمرار بقائهم في ظل الحكم الإسلامي أقوى دلالة على انعدام وسائل العنف والإكراه في التحول إلى الإسلام. كما أن هذه الحالة تجعل مثل هذا الزعم واهيا لا ينال شيئًا يذكر من القبول بالنسبة إلى ما كانت تكون عليه الحال لو أن العرب وجدوا هناك كنيسة عظيمة مزدهرة، عندما أخذوا في فتح إفريقية الشمالية.

وإن الولايات الرومانية في إفريقية التي كان من الأهالي المسيحيون محصورين فيها لم تمتد قط بعيدا إلى الجنوب؛ فإن الصحراء الكبرى تقف حاجزًا منيعا في هذا الاتجاه، حتى إن اتساع الساحل لا يتجاوز ثمانين أو مائة ميل إلا في القليل النادر(١). ومع أنه كان هناك قبيل غزو الوندال عدد كبير من الأسقفيات، قد يبلغ الخمسمائة، لا يجوز أن يكون هذا العدد مقياسا لعدد المؤمنين من المسيحيين، نظرا لما جرت عليه العادة التي كانت متبعة في الكنيسة الإفريقية من تعيين أساقفة في معظم المدن الصغيرة، والإكثار من تعيينهم على أغلب القرى التي لا شأن لها(٢). ثم إننا لا نشك فيما إذا كانت المسيحية قد امتدت إطلاقا بين قبائل البربر(٣) إلى المناطق الداخلية، وعندما انحلت قوة الدولة الرومانية في القرن الخامس الميلادي، احتشدت قبائل مختلفة، تنتمي إلى ذلك الجنس العظيم، وهم الذين يعرفون عند الرومان بأسماء البربر **Moors** وأهالي إقليم الزاب **(Numidians)** والليبيين **Libyans** إلخ.. احتشدت في جماعات كثيفة، وسارت من الجنوب تعبث في الأرض فسادا، وتخرب المدن الغنية التي تقع على الساحل. هؤلاء الغزاة كانوا وثنيين من

(١) **Gibbon, vo0l. i. p.161.**

(٢) **Id. Vol. ii. P.212.**

(٣) **c.O. Castiglinio: Reaches sur lles Berbebres atlantiques, PP. 96-7 (Milan, 1826).**

غير شك؛ فهؤلاء الليبيون الذين ورثوا سينيسيوس القوريناني Synesius of Cyrene ما قاموا به من أعمال التدمير والتخريب رثاء رقيقا شجيا، قد نهبوا الكنائس، وأحرقوها ونقلوا الآنية المقدسة لاستخدامها في عباداتهم الوثنية الخاصة[١].

ولم تفق ولاية برقة Cyrenaica هذه أبدا ممن قاموا به من أعمال التدمير، والراجح أن المسيحية في هذه الولاية كادت تزول في زمن الغزو الإسلامي وأن زعيم البربر في مقاطعة طرابلس Tripolis الذي كان في حرب مع ثورسمند ملك الوندال (٤٩٦-٥٢٤م) لم يحترم إلا الكنائس الأرثوذكسية ورجالها الذين كانوا يلقون سوء المعاملة من الوندال، هذا الزعيم قد جهر بدينه الوثني حين قال: «لست أعرف ما يكن له المسيحيون، ولكنه إذا كان قويا كما يصورونه، فإنه سيثأر من هؤلاء الذين يحقرون من شأنه، ويخلص هؤلاء الذين يمجدونه»[٢]. وهناك نوع من الاحتمال أن الكثرة المطلقة من بدو مرطانية Maurtania كانوا كذلك يدينون بالوثنية.

على أنه مهما يكن اتساع الكنيسة المسيحية فقد تلفت من اضطهادات الوندال ضربة لم تفق منها أبدا فقد ظل الوندال الآريون قرابة قرن من الزمان، يضطهدون الأرثوذكس اضطهادا عنيفا لا هوادة فيه، فشردوا أساقفهم، وحرموا الجهر بإقامة شعائرهم الدينية، وقسوا في تعذيب هؤلاء الذين أبوا أن يدخلوا في ديانة من فتحوا بلادهم[٣]. فلما سحق بليزاريوس Belisaruis قوة الوندال سنة ٥٣٤م، وأعاد شمال إفريقية إلى الدولة الرومانية، لم يلتق في مجمع قرطاجنة[٤] إلا ٢١٧ أسقفا لاستئناف إدارة الكنيسة المسيحية، وبعد أن تعرضوا لاضطهاد مرير طويل الأمد، استسلموا له مكرهين، لم يكن بد من أن ينقص عداد المخلصين للدين نقصا كبيرا، وفي خلال القرن الذي انقضى قبل قدوم المسلمين، حدثت غارات قام لها البرابرة من قبائل المغرب الذين قطعوا

---

(١) Synesii Catastasis (Migne: part. Gr., tom, Ixvi. P. 1569.

(٢) Neander (2) P.320

(٣) Gibbon, vol. iv. Pp.331-3.

(٤) Id. Vol. v.P.115.

الطريق على الرومان في المدن وغيرها من المراكز الآهلة بالسكان، واحتفظوا لأنفسهم بالجبال والصحراء والبلاد المكشوفة[١]. فإن انتشار الفوضى وفساد الإدارة الحكومية فضلا عن تفشي الأوبئة الفتاكة التي تميز بها النصف الثاني من القرن السادس –كل هذه الأمور تضافرت على استمرار أعمال التخريب. وقد قيل إن الحروب وحكومة الإمبراطور جستنيان قد أفنت خمسة ملايين من الإفريقين، وهجر المواطنون الذين كانوا أيسر حالا بلادا كانت فيها التجارة والزراعة من قبل مزدهرة أيما ازدهارا، ولكنها أصبحت الآن خرابا لا سبيل إلى علاجه. «وهكذا تم خراب إفريقية، حتى إن الغريب كان يطوف في كثير من أنحائها، أياما كاملة دون أن يصادف وجه صديق او عدو، زالت أمة الوندال، وكان قد بلغ عدد أهليها من قبل مائة وستين ألفا من المحاربين، عدا الأطفال والنساء والعبيد، وكانت تزداد جموعهم زيادة لا حد لها، بانضمام عدد من العشائر البربرية التي انقرضت في إحدى الحروب الطاحنة الدامية، كذلك حل الدمار نفسه بالرومان وحلفائهم الذين أهلكهم المناخ والمنازعات المتبادلة وثورة البرابرة»[٢].

وحدث قيل أن يتقدم العرب الظافرون من مصر لإخضاع الولاية الغربية بعام أي في سنة ٦٤٦م، أن الكنيسة الإفريقية التي ناضلت كثيرًا في سبيل تطهير العقيدة المسيحية، قد أثارها إلى أبعد حد ما قام من صراع ضد المذهب القائل بأن للمسيح مشيئة واحدة **Monetheletism** ولكن عندما قام أساقفة الولايات الدينية الأربع في أبرشية قرطاجنة: وهي مرطانية **Maurtania**، وإقليم الزاب **Numidia** والولاية الداخلية **Byzacena** وولاية إفريقية القنصلية[*] **Africa Proconsularis**، وعقدوا مجامع لإدانة أنصار هذا المذهب، وكتبوا خطابات محفلية إلى كا من الإمبراطور والبابا، لم يكن هناك إلا ثمانية وستون أسقفا اجتمعوا في قرطاجنة ليمثلوا هذه الولايات الأخيرة، واثنان وأربعون

(١) التيجاني ص٢١ **Gibbon vol, v.p. 122.**

(٢) **Gibbon, vol. v.P.214.**

(*) وكانت هذه الولاية تضم ولاية إفريقية الأصيلة والجزء الشرقي من تونس الحالية الذي كان يسمى روجيتا نيا **Zeugitania** والمنطقة الداخلية منها التي تمتد ةحتى فزان المسماة بيزاسينا –الدكتور حسين مؤنس: فتح العرب المغرب (القاهرة ١٩٤٧) ص٢.

يمثلون الولاية الداخلية. أما عدد الذين مثلوا الأسقفيتين الأخيرتين، فلم يذكر عنهم شيء غير أن الأهالي المسيحيين كانوا من غير شك قد عانوا في هاتين الأسقفيتين أشد كثيرا مما كانت تعانيه الأسقفيتان الأخريان اللتان كانتا أقرب إلى مقر الحكومة[١]. وليس من المحتمل أن يتخلف أسقف من الأساقفة عن الحضور في مناسبة أثارت شعورا كبيرا، في الوقت الذي تضافرت فيه الحماسة في سبيل العقيدة المسيحية والخصومة السياسية للبلاط البيزنطي على تشجيع هذه الحركة، وفي الوقت الذي أخذت فيه إفريقية على عاتقها نصيبا كبيرا من إثارة المعارضة التي أدت إلى انعقاد مجمع لاتيران lateran الأعظم سنة ٦٤٨م.

ومن المؤكد أن النقص في عدد الأساقفة يدل على نقص كبير في عدد الأهالي المسيحيين. وإذا نظرنا إلى الأسباب المتعددة التي أدت إلى تأخر الأهالي، فلا ينبغي كذلك أن نجعل أهمية كبيرة جدا لعدد هؤلاء، لأن من الممكن أن يظل أي كرسي من كراسي الأسقفية مشغولا زمنا طويلا بعد أن يحمل ذكر الأسقفية وتصبح قليلة الخطر.

ومن الاعتبارات التي ذكرناها من قبل، يمكن أن نستنتج في شيء من التأكيد أن الأهالي المسيحيين في وقت الغزو الإسلامي لم يكن عددهم كبيرا بحال من الأحوال. وقد ظل عدد الأهالي المسيحيين في خلال الخمسين عاما التي انقضت قبل أن يحرز العرب انتصارهم، ينقص شيئًا فشيئًا من جراء ما أصابهم من أعمال التخريب في هذا النزاع الطويل، فقد نهبت مدينة طرابلس بعد أن قاست الحصار ستة أشهر، وقتل جانب من السكان بحد السيف، وسيق الآخرون أسرى إلى مصر وبلاد العرب[٢] ودافع أمير روماني عن مدينة أخرى كانت تتاخم الصحراء النوميدية، ومعه حامية كبيرة تحملت بشجاعة حصارا دام عاما كاملا؛ ولما أخذت المدينة عنوة آخر الأمر أعدم جميع الرجال بالسيف،

---

(١) Neander. (1) vol. pp. 254- 5. J.E.T. Wiltsch: Hand-book of the geography and statistics o0f the Church, vol. I, PP. 433-4 (London, 1859) J. Bournichon: L'Invasion musulman en Afrique, PP. 32-3 (Tours, 1890).

(٢) Leo Africanus (Ramusio, tom, i. P. 70, D)

ووقع النساء والأطفال في الأسر[١].

وقد قيل إن عدد أمثال هؤلاء الأسرى بلغ أكثر من مئات الآلاف[٢] كما فر كثير من المسيحيين[٣]، بعضهم إلى إيطاليا وإسبانيا[٤]، وآخرون يلوح أنهم قد طوفوا في الآفاق حتى بلغوا ألمانيا، نستدل على ذلك مما كتبه جريجوري الثاني Gregory في خطاب أرسله إلى أسقفية القديس بونيفاس St. Boniface[٥]. وفي الواقع إن كثيرًا من المدن الرومانية الكبرى قد أخليت من سكانها إخلاء تاما، وظلت خاوية على عروشها وقتا طويلا وتركت لتصبح إطلالة بالية[٦]، على حين اختار الفاتحون كما حدث في أحوال كثيرة، مواقع جديدة تماما لتأسيس مدنهم المهمة[٧].

أما البقايا المبعثرة للكنيسة المسيحية التي كانت مزدهرة من قبل، والتي كانت لا تزال باقية في إفريقية في نهاية القرن السابع، فمن الصعب أن نزعم أن الاضطهاد هو المسئول عن فنائها النهائي، إذا واجهنا الحقيقة القائلة بأن آثار طائفة مسيحية إفريقية كانت قائمة حتى في عصر متأخر يرجع إلى القرن السادس عشر. ومن الحق ما يقال أن إدريس مؤسس الأسرة الحاكمة في مراكش، وهي التي نسبت إليه حملت اسمه، قد أرغم النصارى واليهود على الدخول في الإسلام في سنة ٧٨٩م، عندما شرع في تأسيس مملكة لنفسه بحد السيف[٨]. على أن هذه الحادثة، لم يكن لها نظير في تاريخ الكنيسة الوطنية في

---

(١) «مدينة ديسن Deusen قديمة جدا، بناها الرومان على حدود مملكة Buggia وصحراء نوميديا» (Id, P. 75. F)

(٢) Pavy, vol, i.P.iv

(٣) «وجميع الذين لم يتحولوا إلى الإسلام، أو الذين تمسكوا بعقيدتهم وأبوا أن يلتزموا دفع ضريبة الرأس، قد اضطروا إلى الفرار أمام الجيوش الإسلامية» (التيجاني ص٢٠١).

(٤) Leo Africanus (Ramusion, tom, i.P.7).

(٥) كان بونيفاس لا يرحب مطلقا بالإفريقيين الذين أقبلوا من كل صوب على نظم الكنيسة، لأنه قد ثبت أن بعضهم كان من أصحاب ماني، وبعضهم الآخر كان قد عمد أكثر من مرة.

Epist, iv.0 (Migne: Patr. Lat., tom, Ixxxix, P.502)

(٦) Leo Africanus (Ramusio, PP. 65, 66, 68, 69, 76).

(٧) تأسست القيروان سنة ٥٠ هـ، وفاس سنة ١٨٥هـ، والمهدية سنة ٣٠٣هـ، ومسيلة سنة ٣١٥هـ، ومراكش سنة ٤٢٤هـ، (أبو الفدا ج٢، ص١٩٨، ١٨٦، ٢٠٠، ١٩١، ١٨٧).

(٨) ابن أبي زرع ص١٦.

إفريقية الشمالية[١].

وإن انحلال الكنيسة في بطء شديد لدليل على التسامح الذي لا بد أن تكون قد عوملت به هذه الكنيسة. فقد وجد بعد الفتح الإسلامي بثلاثمائة سنة تقريبا ما يقرب من أربعين أسقفية كانت لا تزال باقية هناك[٢]، وفي سنة ١٠٥٣م حزن البابا ليو التاسع على أنه لم يمكن أن يوجد إلا خمسة أساقفة يمثلون الكنيسة الإفريقية التي كانت من قبل تتمتع بالشهرة والازدهار[٣]. والأرجح أن سبب ذلك راجع إلى ما أحدثه الجماعات العربية من مجازر بشرية وتدمير فظيع، تلك الجماعات التي تدفقت على هذه البلاد قبل ذلك ببضع سنوات، وملأوا البلاد بالفوضى والمنازعات التي لم تنقطع[٤].

وفي سنة ١٠٧٦م عجزت الكنيسة الإفريقية عن إعداد ثلاثة أساقفة قضت بهم الحاجة لرسم شخص كان يرغب في منصب الأسقفية، وذلك طبقا لما تقتضيه الشريعة الدينية، وقد وجد البابا جريجوري السابع من الضروري أن يرسم أسقفين ليعملا مساعدين لرئيس أساقفة قرطاجنة؛ ولكن عدد المسيحيين كان لا يزال من الضخامة بحيث كان

---

(١) ولدينا حالة مشكوك في صحتها تنسب إلى عبد المؤمن الذي فتح تونس سنة ١١٥٩م، أنه أرغم بعض الناس على الدخول في الإسلام بالقوة. انظر Des Mas Latrie (2), P. 77-8 «وهناك مؤلفان عربيان: أحدهما ابن الأثير الذي كان معاصرا، إلا أنه كان يقيم في دمشق في وسط النشوة الدينية التي أثارتها انتصارات صلاح الدين، والآخر التيجاني الذي زار إفريقية في القرن الرابع عشر– هذان المؤلفان كتبا أن السلطان صاحب تونس أرغم المسيحيين واليهود القاطنين في هذه المدينة على الدخول في الإسلام، وأن العصاة قتلوا بلا رحمة. ونحن نشك في حقيقة وقوع هذه التدابير كلها، إذ لو كان الأمر بالقتل قد صدر من السلطان في نشوة النصر لإشباع بعض الرغبات الوقتية، لكان من الواجب أن يعدل أو أن يرفض، مادام هذا الأمر يتنافى مع مبدأ الحرية الدينية الذي كان محترما من كل أمراء المغاربة حتى ذلك الحين، أما الشيء المحقق فهو أن المسيحيين واليهود لم يظهروا متأخرين في تونس وأننا نرى المسيحيين، قبل نهاية (عهد) عبد المؤمن قد استوطنوها، ونعموا كما كانوا في العهود السابقة، بالحرية في مزاولة تجارتهم وإقامتهم شعائرهم الدينية... ويقول مؤلف عربي قديم، إنه اخترق بلاد الزاب وإفريقية، مؤيدا بالله في خطواته، مفشوليا على البلاد والمدن، معطيا الأمان لما يطلبونه، وقائلا كل من يسعى أمره؛ وتؤيد هذه الكلمات الأخيرة شعورنا إزاء ما سلكه نحو المسيحيين الذي قبلوا الحكم بالقتل الذي قضت به الأقدار.

(٢) De Mas Latrie (2), pp. 27-8.

(٣) S. Leonis IX. Papae Epist Ixxxiii (Migne: Patr LAt., tom. cxIlll P.728.

هذه الرسالة تتناول موضوع نزاع على الأسبقية بين أساقفة جمي gummi وقرطاجنة، ومن المحتمل جدا أن تكون حالة الفوضى التي سادت إفريقية في ذلك الحين، قد جعلت أساقفة إفريقية لا يعرفون شيئًا من الأسقفيات الأخرى، فضلا عن أسقفياتهم أنفسهم تلك التي كانت ملاصقة لها، ومن ثم نرى الأخبار التي استقاها البابا قد صورت عدد الأساقفة أقل مما هو عليه في حقيقة الأمر.

(٤) A Müller, vo0l. ii. Pp.628-9.

يتطلب إيجاد أساقفة جدد ليخففوا من عبء العمل الذي كان ثقيلا على هؤلاء الأساقفة الثلاثة، حتى إنهم لم يستطيعوا القيام به دون معونة أو مساعدة[١]. وفي خلال القرنين التاليين، كانت حالة الكنيسة تزيد ضعفا على ضعف. وفي سنة ١٢٤٦ كان أسقف مراكش هو الزعيم الروحي الوحيد الذي كان يشرف على البقية الباقية من الكنيسة القومية[٢].

وكانت آثار ما تبقى من المسيحية حتى هذه الفترة ذاتها، لا تزال قائمة بين قبائل بلاد الجزائر[٣] [*]. وكانت هذه القبائل قد أحاطت في زمن مبكر ببعض معلومات طفيفة عن مبادئ الإسلام، ولكن هذه الدين الجديد لم يسيطر على نفوسهم إلا بمقدار يسير جدا، ثم انمحت من أذهانهم بمرور الزمن حتى تلك المعارف الضئيلة التي تعلموها بادئ الأمر، إلى حد أنهم نسوا كيفية الصلاة في الإسلام. ولما كانوا محصورين في بقاعهم الجبلية المنيعة، غيورين على استقلالهم، فقد نجحوا في مقاومة تسرب العنصر العربي إلى بيئتهم، ومن هنا قامت في سبيل تحويلهم إلى الإسلام صعاب جمة.

وقد قام سكان دير كان تابعا لطائفة القادرية، وهو ساقية الحمراء، ببعض محاولات غير ناجحة كانت ترمي إلى نشر الدعوة بينهم، ولكن لم ينل شرف النفاذ إليهم ودعوتهم إلى الدين الإسلامي إلا عدد من بربر الأندلس طردوا من إسبانيا بعد سقوط غرناطة في سنة ١٤٩٢. وكانوا قد احتموا في هذا الدير، وتوسم فيهم «الشيخ» أنهم أليق من يضطلع بتلك المهمة الشاقة التي أعيت جهوده تلاميذ من قبل إعياء تاما. وقبل أن يبعث بهم في تلك المهمة الدينية خاطبهم قائلا: «إنه لواجب قد ألقي على عاتقنا أن نحمل

---

(١) S. Gregori VII. Eipstola xix. (Liber tertius). (Migne: part, lat, tom, cxIvii P. 449).

(٢) De Mas latrie, P.226 وإن عددا من المسيحين الإسبان، الذين كان أجدادهم قد أبعدوا إلى مراكش سنة ١١٢٢ كانوا قد أقاموا هناك في وقت متأخر، يرجع إلى سنة ١٣٨٦م، حين سمح لهم بالعودة إلى شبيلية بفضل ما أسداه إليهم سلطان مراكش من حسن الصنيع في ذلك الحين (Whishaw, PP.31-4).

(٣) C. Trumelet: Les Saints de l'Islam, P. xxxiii (Paris, 1881).

(*) ويطلق الجغرافيون الأوروبيون لفظ كابيليا Kabylia على البلاد الجبلية من ساحل الجزائر، والكلمة مشتقة من (قبيلة) اللفظة العربية. (راجع Encyc of Islam art, Kabylia)

مشعل الإسلام إلى تلك الأصقاع التي ضيعت ما ورثته من بركات هذا الدين، ذلك أن هذه القبائل البائسة لم تزود مطلقا بالمدارس، وليس لديهم شيخ يعلم أبناءهم مبادئ الأخلاق وفضائل الإسلام. لهذا فهم يعيشون كالحيوان الأعجم، لا يعرفون إلها ولا دينا. ولكي ننزع عنهم هذه الشقاوات، عقدت النية على أن أناشد غيرتكم الدينية وهدايتكم لا تدعو بعد اليوم سكان هذه الجبال غارقين في حالة يرثى لها من الجهل بحقائق ديننا العظمى؛ انطلقوا وانفخوا في نيران دينهم الزائلة، وأعيدوا إنارة جذوتها الخامدة، طهروهم مما قد يظل عالقا بهم من آثام من أثر اعتقادهم القديم في النصرانية. فطوفهم إلى أن الله لا يقبل الرجس في دين سيدنا مُحَمَّد ﷺ، كما لا يقبله في النصرانية[1]. إنني لا أخفي عنكم أن مهمتكم محفوفة بالصعاب، ولكن ما اتصفتم به من غيرة لا تقاوم، وحماسة من أجل دينكم، سيمكنكم بعون الله من تذليل الصعاب، انطلقوا يا أبنائي وأعيدوا إلى الله ورسوله مرة أخرى هذا الشعب الشقي المنغمر في حمأة الجهالة والكفر. انطلقوا يا أبنائي واحملوا رسالة الخلاص أيدكم الله ووفقكم».

وانطلق الدعاة جماعات، كل جماعة تتألف من خمسة أو ستة، إلى وجهات مختلفة في وقت لواحد. وذهبوا في أسمال بالية، كل واحد عكازه في يده، واختاروا أشد أماكن الجبال وحشة، وأقلها عمرانا، وبنوا لهم صوامع في الكهوف والأخاديد، وسرعان ما أثار تقشفهم وطول تعبدهم فضول القبائل الذين أخذوا بعد وقت وجيز يبادلونهم الصداقة والود. وتمكن الدعاة شيئًا فشيئًا من الظفر بما أرادوا عن طريق ما عرفوه من الطب والصناعات الآلية وبعض مزايا أخرى من الحضارة، وأصبحت كل صومعة مركزًا من مراكز التعليم الإسلامي، واجتمع حولهم طلاب للعلم، وقد انجذبوا إلى تعاليم هؤلاء الذين قدموا إليهم عهد قريب، وأصبح هؤلاء الطلاب بعد فترة من الزمن دعاة إلى الإسلام بين قومهم، حتى استطاعوا أن ينشروا دينهم في كافة أنحاء البلاد التي تسكنها القبائل والقرى

(1) قارن هذا بالمواد التي نشرها المجلس الذي عقد في مدريد سنة ١٥٦٦م، وهو يتعلق بتنصير المسلمين المقيمين في إسبانيا Moriscoes (أي بعد زوال الحكم العربي منها)، وهذا نص إحدى هذه المواد: لا يسمح مطلقا لهم ولا لنسائهم ولا لأي فرد آخر أن يغتسلوا أو يستحموا في منازلهم أو في أي مكان آخر، كما يجب أن تهدم وتخرب حماماتهم كلها». (J. Morgan, vol, ii.P. 256)

التي تقع في صحراء الجزائر[١].

ولا شك أن هذا الحادث سالف الذكر يصور لنا الطريقة التي كان ينفذ بها الإسلام إلى غير هذه الجماعات من القبائل المستقلة في داخل هذه البلاد، الذين كانوا قد تلقوا أية تعاليم مسيحية من قبل، ولكن معلوماتهم عن الدين كانت قد تضاءلت واستحالت إلى شعائر دينية قليلة مبنية على الخرافات[٢] ذلك أنهم لما كانوا منقطعين عن سائر العالم المسيحي، غير مزودين بمعلمين روحانيين، لم يكن لهم من وسائل الاعتقاد الديني الذي يقوم على اليقين ما يمكنهم من مناهضة تعاليم دعاة المسلمين.

ولدينا معلومات أخرى قليلة، يمكن أن تضاف إلى تلك المعلومات المبعثرة التي ذكرناها عن انحلال الكنيسة الإفريقية الشمالية. فهذا رحالة مسلم[٣] عاش في النصف الأول من القرن الرابع عشر، زار بلاد الجريد وهي الولايات التي تقع جنوبي تونس. وهو يخبرنا أن الكنائس المسيحية كانت لا تزال قائمة على عهده، ومع أنها كانت مهدمة ولكن العرب الفاتحين لم يخربوها. واكتفوا ببناء مسجد قبالة كل من هذه الكنائس. ويتحدث ابن خلدون (فيما كتبه حول نهاية القرن الرابع عشر) عن بعض قرى ولاية قسطيلية[٤]، ويسكنها بعض الأهالي المسيحيين الذين كان أسلافهم قد عاشوا هناك منذ الفتح العربي[٥].

وفي نهاية القرن التالي كان لا يزال في مدينة تونس جماعة صغيرة من المسيحيين من

---

(١) C. Trumelet: Les Saints de L'Islam, PP. xxviii. Xxxvi.

(٢) يقول ليو الإفريقي أنه في نهاية القرن الخامس عشر نجد جميع سكان الجبال من أهل الجزائر واليوجا، مع إسلامهم، قد رسموا صليبا أسود اللون على خدودهم، وفي بطون راحاتهم (Ramusio, i.P.61) ونظير ذلك بنو مزاب الذين يحتفظون، حتى اليوم، ببعض طقوس دينية تتعلق بالحرمان والاعتراف (Oppel. P. 299)؛ ويجري بعض القبائل البدوية الصحراء الكبرى بعض طقوس خاصة بنوع من التعميد، ويستخدمون الصليب زينة لبعض أمتعتهم وأسلحتهم (De Mas Latrie (2), P.8)

(٣) التيجاني ص٢٠٣

(٤) وهي توزر الحديثة، في تونس.

(٥) تاريخ الدول الإسلامية بالمغرب، ج١، ص١٤٦ ، طبعة دي سلان بالجزائر سنة ١٨٤٧).

أهالي هذه البلاد يعيشون في إحدى الضواحي بعضهم عن بعض، منفصلين تمام الانفصال عن تلك البقعة التي أقام فيها التجار المسيحيون الغرباء بعيدين عن كل ظلم أو اضطهاد، فقد كانوا يعملون حراسا للسلطان(١). ولا شك كانوا هم أنفسهم الذين هنأهم تشارلس الخامس بعد استيلائه على تونس في سنة **١٥٣٥** على ما أظهروه من الثبات على الدين المسيحي(٢).

وكان هذا آخر ما سمعناه عن الكنيسة المسيحية القومية في إفريقية الشمالية، وإن مجرد بقائها مثل هذا الوقت الطويل ليدحض أي زعم بأن تحولهم إلى الإسلام قد قام على القوة والإكراه، حتى ولو لم يكن لدينا الدليل الكافي على روح التسامح التي ظهر بها العرب الحاكمون في ممالك إفريقية الشمالية على اختلافها، فهم الذين استخدموا جنودا مسيحيين(٣)، ومنحوا المسيحيين من التجار والمستوطنين بمقتضى معاهدات متكررة، الحرية في أداء شعائرهم الدينية(٤)، وهم الذين فوض البابوات إليهم العناية بالأهلين من المسيحيين، كما حضوا هؤلاء على خدمة حكامهم المسلمين في إخلاص وولاء(٥).

---

(١) leo Africains (Ramusio, tom. i.P.67).

(٢) Pavy, vol.I .vii.

(٣) De Mas latrie (2) PP. 612-2 266-7 L. del Marmol- Caravajal de L'Afrique. Tome ii. P54. (Paris, 1667).

(٤) de Mas Latrie (2) P.192.

(٥) Innocent IV. Gregory IV. Gregory VII Innocent III,

الباب الخامس

انتشار المسيحية بين مسيحيي إسبانيا

أدخل العرب الظافرون الإسلام في إسبانيا سنة ٧١١م، وفي سنة ١٥٢٠ أصدر فردناند وإيزابلا مرسوما يقضي بإلغاء الدين الإسلامي في جميع أرجاء البلاد. ولقد كتبت إسبانيا الإسلامية في القرون التي تقع بين هذين التاريخين صفحة من أنقى الصفحات وأسطعها في تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، وقد امتد تأثيرها من ولاية بروفانس Provence إلى الممالك الأوروبية الأخرى، وأتت بنهضة جديدة في الشعر والثقافة، ومنها تلقى طلاب العلم المسيحيون من الفلسفة اليونانية والعلوم ما أثار في نفوسهم النشاط العقلي حتى جاء عصر النهضة الحديثة. على أنه يجمل بنا أن نمر مر الكرام على هذه الحياة وما تنطوي عليه من مدنية ورقي ونصر مؤزر في الفن والشعر، وفي العلم والفلسفة، وأن نوجه اهتمامنا إلى الحالة الدينية في إسبانيا في ظل الحكم الإسلامي.

لما قدم المسلمون أول الأمر إلى إسبانيا حاملين دينهم، وجدوا المذهب الكاثوليكي قد استقر في هذه البلاد بعد انتصاره على المذهب الآري. وقد أصدر المجمع السادس في طليطلة قرارا يقضي بأن يقسم كل الملوك بأن لا يسمحوا بانتشار أي مذهب آخر غير المذهب الكاثوليكي، وأن ينفذوا القانون بالقوة على الخارجين عليه. وقد تلا هذا القانون قانون آخر يحرم على كل شخص أن يتطرق إلى ذهنه أي شك في الكنيسة الكاثوليكية المقدسة، وفي النظم الإنجيلية وتفاسير الآباء الروحيين والمراسيم الكنيسة والقرابين المقدسة إذا ما صودرت أملاكه أو حكم عليه بالسجن المؤبد، وقد كسب رجال الدين لطائفتهم نفوذا راجحا في شئون الدولة[١]. وجلس الأساقفة وكبار رجال الدين في المجالس الوطنية التي كانت تجتمع لإقرار الشئون المهمة في الدولة والمصادقة على انتخاب الملك، وادعت لنفسها الحق في عزله إذا أبى الإذعان لقراراتهم. واتخذ القسيس من وراء هذه القوة التي

(١) Bauissin, P.22.

وصلوا إليها سبيلا لاضطهاد اليهود الذين كانوا طائفة كبيرة في العدد في إسبانيا، وصدرت الأوامر المشددة ضد كل من امتنع عن الدخول في المسيحية(١).

وكان من أثر هذه الاضطهادات أن رحب اليهود بالعرب الغزاة وعدوهم مخلصين لهم مما حل بهم من المظالم، فساعدوهم على فتح أبواب المدن، كما استعان بهم الفاتحون في حماية المدن التي وقعت في أيديهم(٢).

كذلك رحب بالمسلمين هؤلاء الأرقاء الذين حل بهم البؤس والشقاء في عهد المسيحيين الكاثوليك الذين كانت معرفتهم بأصول المسيحية سطحية، إذا ما قورنت بذلك التسامح الديني وهذه المزايا الكثيرة التي حصلوا عليها بإلقاء زمامهم للمسلمين. وكان هؤلاء الأرقاء الذين وصلوا إلى الحضيض أول من تدين بالإسلام في إسبانيا، ولا يبعد أن يكون عدد كبير من هؤلاء الأهلين الذين كانوا لا يزالون على الوثنية والذين ورد ذكرهم في سنة ٦٩٣م(٣) قد ساروا على منهاج هؤلاء الأرقاء. كما اعتنق هذا الدين الجديد كثير من أشراف المسيحيين عن عقيدة راسخة أو عن بواعث أخرى(٤)، يضاف إلى ذلك عدد كبير من أهالي الطبقات الدنيا والوسطى الذين دانوا بالإسلام عن إيمان ثابت، متحولين إليه من ديانتهم القديمة التي أهمل رجالها مصالحهم ولم يحفلوا بتلقينهم أصولها، وانصرفوا إلى مطامع الدنيا، فساموهم الخسف ونهبوا أملاكهم(٥)، وبعد أن تحول هؤلاء الإسبان إلى الإسلام ظهروا بمظهر الغير لدينهم الجديد وانضموا هم وأولادهم إلى جماعة الصفا الذين عرفوا بالتقشف وشدة تمسكهم بالدين، ولم يحفلوا بأن يعيشوا عيشة الترف والإهمال التي سادت الطبقة الأرستقراطية العربية(٦).

ويقول مؤرخو المسيحيين إن فضائل القوط القدماء قد انحطت في وقت الفتح

---

(١) Helferich, P.68.

(٢) المقري ج١ ص٢٨٠– ٢٩٢.

(٣) Baudissin. P.7.

(٤) Dozy, (2), tome ii. Pp. 45-6.

(٥) A. Müller. Vo0l. ii. P 463.

(٦) Dozy (2), tome, ii, pp. 44-6

العربي الإسلامي وفسحت الطريق إلى الفساد والخلاعة، حتى لقد ظهر الحكم الإسلامي كأنه عقاب قد نزل بهؤلاء الذين ضلوا الطريق السوي واتجهوا نحو الرذيلة(١). ولكن مثل هذا القول طالما يرد في التاريخ الكنسي على حين لا توجد هناك شواهد معاصرة تؤيد صحة هذا الرأي(٢).

بيد أنه يظهر لنا أن الأمور لم تستقم على مر الزمن، ذلك أنه لما اشترك الأساقفة المسيحيون في الثورات التي قامت في بلاط المسلمين في الوقت الذي أصبحت فيه الأبرشيات تمنح الأساقفة عن طريق المزاد، وعين الملحدون الذين يضمرون الإلحاد للكنيسة، وأصبح هؤلاء بدورهم يمنحون منصب القساوسة أشخاصا تنقصهم الكفاية والغيرة على مبادئ الدين المسيحي(٣)– إذا عرفنا هذا استطعنا أن نجزم بأن تحول المسيحيين عن دينهم لم يقتصر على أهل مقاطعة إلفيرة(٤)، بسبب ذلك الفساد الذي تطرق إليه نفوس رؤسائهم الروحيين(٥). فأخذ هؤلاء المسيحيون يبحثون عن بيئة أكثر ملائمة لحياتهم الدينية والدنيوية بدخولهم في حظيرة الإسلام.

ولو أن كتاب الكنيسة قد عنوا بتدوين هذه الأحداث، لوجدنا إسبانيا تقدم لنا من

---

(١) ٣So St. Boniface (A.D. 745, Epist, Ixii).
مثلما حدث للقبائل الأخرى في إسبانيا، وللقاطعات، وأشعب يرغنديا الذين ارتكبوا الكبائر بابتعادهم عن الرب، حتى لقد أراد القاضي الأعظم أن يحل بهم، على يد العرب، عقابه وانتقامه، بسبب ماارتكبوه من مآثم، وبسبب جهلهم بقانون الرب، (Migne: Patr. Lat., tom, Ixxxix, P.761). Eulogius. Lib. 30 وانتقلت إبان قوتهم (أي العرب) مقاليد إسبانيا إليهم، في الوقت الذي كنا نقوم بأعمالنا. (Migne: Patr: lat. Tom.cxv.P.761). ونظير ذلك ما ذكره ألفار 18 (2) Alvar سأحاول أن أختبر السوط الذي صب علينا لما ارتكبناه من آثام. إن جمعية آثامنا، أيها الأخوة، تكاسلنا، ودنسنا، وإفساد عاداتن؛ لذلك أسلمنا المولى الذي يؤثر العدل ويأمر وجهه بالإنصاف إلى هذا الوحش لتظل فريسة في يده (PP.531-2).

(٢) Dozy (3) tome, i.pp.15-20 Whishaw, pp.38.44.

(٣) Samson, PP. 337-8-381.

(٤) Dozy, (2), tomeii.P210.

(٥) اتهم أسقف إجيلا Egils، الذي أرسله البابا أدريان الأول إلى جنوب إسبانيا حول نهاية القرن الثامن ليقوم بعمل من شأنه أن يحول دون إطراد نفوذ الفكر الإسلامي، القسيسين الإسبان الذين عاشوا مع النساء اللاتي اتخذوهن سرارى لهم..(Helferich, P.83).

غير شك أمثلة صالحة عن رجال تحولوا عن المسيحية من أمثال **Bodo**، الذي كان شماسا في البلاط الفرنسي في عهد لويس التقى واعتنق اليهودية سنة ٨٣٨م لكي «يتمسك بأهداب شريعة الله، بتركه هذه الحياة الأثيمة كما يقول[١]. كذلك لا يبعد أن تكون البقية الباقية لهؤلاء القوط القدماء الذين دانوا بعقائد المذهب الآريوسي الذي ظهرت بعض آثار نهضته في الكنيسة الإسبانية قبيل الفتح العربي[٢]. قد ساعدت على حث الناس واستمالتهم لقبول هذا المذهب الجديد الذي تتفق العقيدة المسيحية فيه اتفاقا وثيقا مع العقيدة الآريوسية[٣].

وسنرى فيما بعد شواهد مماثلة تدلنا على مدى تحول أهل إسبانيا إلى هذا المذهب قبل الفتح العربي، والذي مهد السبيل لتحول أهل أوربا الغربية إلى الإسلام قبل الفتح العربي لبلاد الأندلس. ومن الأمثلة التي تؤيد ما ذهبنا إليه تحول ثيودسكلوس **Thiodisclus**، ذلك الرجل الإغريقي الذي خلف القديس إيزيدور **Isidore** المتوفى سنة ٦٣٦م في منصب رئيس أساقفة إشبيلية. فقد اتهم بالإلحاد لقوله بأن المسيح لم يكن إلها باتحاده بالله وبروح القدس، وإنما كان ابن الله عن طريق التبني، لهذا قضى المجمع الديني الذمي بعزله عن منصبه وبحرمانه حقوقه الكنيسة، فلجأ إلى العرب ودان بالإسلام بين ظهرانيهم[٤].

أما عن حمل الناس على الدخول في الإسلام، أو اضطهادهم بأية وسيلة من وسائل

---

(١) **Alvari Cordubensis Epist xix.** إنني أسلم نفسي إلى قانون المولى، في شوق ولهفة، لأني أستحق العقاب الأبدي.

(Migne: Patr. Lat.. tom.cxxi. O.512)

(٢) **helferich, PP. 79-80..**

(٣) إذا فكر المرء إلى أي حد بلغ صدى فكرة النبوة المأخوذة من العهد القديم (من التوراة) في نصرانية القبائل الجرمانية الآرية، بل إذا فكر المرء في بقاء هذه الفكرة عند القوط المغربيين بعد أن اعتقدوا المذهب الكاثوليكي – إذا فكر المرء في ذلك اتضح له كيف ظهرت بعد قدوم العرب، عند الشعوب المسيحية المفتوحة، تصورات قريبة من الإسلام... **(Helfferich, p.82).**

(٤) **Lucae diaconi Tudensis Chronicon Mundi (Andreas Schottus: Hispaniae Illustratae, tom, iv. P. 53). (Francofurti, (1603- 8).**

الاضطهاد، في الأيام الأولى التي أعقبت الفتح العربي، فإننا لا نسمع عن ذلك شيئًا، وفي الحق أن سياسة التسامح الديني التي أظهرها هؤلاء الفاتحون نحو الديانة المسيحية كان لها أكبر الأثر في تسهيل استيلائهم على هذه البلاد. وإن الشكوى الوحيدة التي شكا منها المسيحيون هي معاملة حكامهم الجدد لهم معاملة تختلف عن معاملة رعاياهم من غير المسيحيين؛ ذلك لأنه قد فرض عليهم أداء جزية الرءوس المعتادة وهي ثمانية وأربعون درهما عن الأغنياء، وأربعة وعشرون عن أهل الطبقة الوسطى، واثنا عشر درهما عن العمل، لإعفائهم من الخدمة العسكرية[١]. على أن هذه الجزية لم تفرض إلا على القادرين من الرجال، على حين أعفي منها النساء والأطفال والرهبان والمقعدون والعميان والمرضى والمساكين والأرقاء، هذا إلى أن جمع هذه الضرائب قد قام به الموظفون المسيحيون أنفسهم مما خف وطأتها على الناس[٢].

على أنه في الأحوال التي كان يعتدي فيها المسيحيون على الدين الإسلامي، كانوا يحاكمون أمام قضاتهم وفقا للقوانين المعمول بها في بلادهم[٣]، ولم يتعرض لهم المسلمون في إقامة شعائرهم الدينية[٤]. ولا غرو فقد كانوا يقدمون القرابين بين دق الناقوس وإحراق البخور وغير ذلك من الطقوس الدينية الكاثوليكية، وكذا ترميم المزامير وإلقاء المواعظ والاحتفال بالأعياد المسيحية على النحو الذي كانوا يحتفلون به قبل الفتح، ويظهر أنهم

---

(١) Dozy (2) tom ii. P. 41 Whishawy. P.17.

(٢) dozy (2), tom ii. P.39.

(٣) Baudissin, PP. 11-13, 196.

(٤) Eulogius: Mem Sanct, lib. i.30 id, ib lib. i. 18. نعيش بينهم بغض الدين لم ترغمهم قوة من قوى الحكام إلى إنكار دينهم ولم تبعدهم عن عبادة الدين المقدس الموفر (P. 751)

ويقول John of Gorz (الذي زار إسبانيا حول منتصف القرن العاشر) 124 ويستخدم المسيحيون الذين كانوا إبان حكمة الأماكن المقدسة وأملاكهم بحرية.. وبذلك وصف أسقف إسباني حالة المسيحيين وصفا بعث به إلى جون أوف كورتز فقال «لقد وصلنا إلى هذا بسبب آثامنا فخضعنا لقوة الملحدين، وعجزنا عن مقاومة الحكومة. وما لنا من عزاء في هذا الأمر إلا أن الذين يخدمون، يرحبون بمن يلقونهم، وهم مؤيدون للمسيحين تأييدا حارًا، لا يمنعوننا من استخدام قوانيننا، وهم في الوقت نفسه راضون بحياتهم الاجتماعية، ومادام ليس هنالك إبعاد عن ديانتنا، فعلينا أن نتظاهر مؤقتا بقبول السياسة القادمة علينا، فنطيعهم لأوامرهم طالما لا تقف سياستهم حجر عثرة في سبيل إيماءاتنا .122 (P.302.

لم يعاملوا معاملة إخوانهم في الدين في سورية ومصر بأن يلبسوا ملابس خاصة تميزهم عن المسلمين، فتكون مظهرا من مظاهر إذلالهم. وكان المسيحيون المدنيون، في القرن التاسع الميلادي على الأقل، يلبسون نفس ملابس العرب(١)، كما سمح لهم في وقت من الأوقات أن يبنوا كنائس جديدة(٢).

كذلك نقرأ عن بناء(٣) عدة أديرة جديدة بالإضافة إلى الأديرة الكثيرة المزهرة التي أقام بها الرهبان والراهبات الذين عاشوا في أمن وطمأنينة لا يتعرض لهم حكام المسلمين بسوء. وكان الرهبان يستطيعون الظهور على ملأ من الناس في وشاحهم الصوفي وفق نظامهم الكنسي؛ ولم يكن ثمة ما يدعو القسيس إلى إخفاء شارته الدينية. وفي الوقت نفسه لم تحل المناصب الدينية(٤) دون تقلد المسيحيين المناصب العالية في البلاط أو اندماجهم في سلك الرهبنة(٥) أو انتظامهم في جيش المسلمين(٦).

ومن الثابت لدينا أن هؤلاء المسيحيين الذين مالوا إلى الصلح ورضوا عن طيب خاطر بحرمانهم ما كانوا يتمتعون به من نفوذ سياسي وسلطة. لم يكن ثمة ما يدعوهم إلى الشكوى، حتى إننا لم نسمع في خلال القرن الثامن الميلادي كله عن محاولة واحدة للثورة من جانب هؤلاء المسيحيين المقيمين بمدينة بيجيه **Beja** ويظهر أنهم انضووا في ثورتهم هذه تحت لواء رئيس عربي(٧). كما أن أولئك الذين هاجروا إلى الأراضي الفرنسية لكي يعيشوا تحت حكم المسيحيين لم يصبحوا في الحقيقة أحسن حالا من إخوانهم في الدين الذين خلفوهم وراء ظهورهم. وفي سنة ٨١٢م تدخل شرلمان لحماية المنفيين الذين لحقوا به عند

---

(١) **Bausissin, pp. 16-17.**

(٢) تكلم يولوجيوس المتوفى سنة ٩٥٨م (**Mem. Sanct. Lib. Iii.c.33**) عن كنائس حديثة البناء، وقد نسبت هذه الواقعة التاريخية إلى لويتبراند خطأ بناء كنيسة في قرطبة سنة ٨٩٥م (ص١١١٣).

(٣) **Eulogius: Mem, Sanct., lib.iii.c. II (P.812).**

(٤) **Bausissin, p.16.**

(٥) **Id, P.21 and John of Groz, 128 (P.306).**

(٦) **Whishaw, PP. 272, 301.**

(٧) **Dozy (2) tome ii.p.42.**

ارتداده عن إسبانيا من عشت موظفي الإمبراطورية واضطهادهم إياهم. وبعد ثلاث سنين لم ير لويس التقى بدا من إصدار مرسوم آخر لتحسين حال المنفيين الذين لم يلبثوا أن لجئوا برغم هذا إلى الشكوى ثانية من الإشراف الذين اغتصبوا أراضيهم التي خصصت لهم، ولم يمض وقت طويل على محاولة القضاء على هذه المساوئ حتى عمت الشكوى من جديد؛ ولم تجد هذه المراسيم والأوامر الملكية التي صدرت لتحسين حال هؤلاء المنفيين التاعسين، وسوف نصادف في العصور المتأخرة في الجالية الإسبانية **Cagots** التي فرت من الحكم الإسلامي طبقة منسحقة عوملت معاملة سيئة ووضعت نفسها تحت رحمة بني جنسهم من المسيحيين[١].

وإن سياسة التسامح الديني التي سارت عليها الحكومة الإسلامية رعاياها المسيحيين في إسبانيا، وحرية الاختلاط بين المتدينين بالديانتين قد أدت إلى شيء من التجانس والتماثل بين الجماعتين، وقد كثر التصاهر بينهم[٢]، حتى إن إزيدور أحد سكان مدينة بيجه **Isidore of Beja** الذي شدد النكير على الفاتحين المسلمين، قد دون مسألة زواج عبد العزيز بن موسى (بن نصير) من أرملة الملك لذريق، دون أن يذكر كلمة واحدة يستنكر فيها العمل[٣]. هذا إلى أن كثيرين من المسيحيين قد تسموا بأسماء عربية، وقلدوا جيرانهم المسلمين في إقامة بعض النظم الدينية، فاختتن كثير منهم[٤]، وساروا وفق رسوم الوثنيين «غير المعتمدين» (يعني المسلمين) في أمور الطعام والشراب[٥].

---

(١) **Baudissin, PP. 96-7.**

(٢) انظر كتاب البابا أدريان الأول إلى الأساقفة الإسبان حيث يقول فيه: «أضف إلى ذلك أن هناك عبارات مختلفة، سمعناها من تلك الأماكن، تقول إن كثيرين ممن يطلقون على أنفسهم كاثوليك، ويعيشون في ألفة مع اليهود والكفرة من غير المنتصرين، يؤكدون أنهم ليسوا مدقعين مطلقا في الطعام أو الشراب أو الذنوب المختلفة أو فيما هو محرم، فليس مصرحا لأحد أن يتزوج من الكفرة، لأنهم أنفسهم سيمنحون بناتهم لهؤلاء، وبذلك يلقى بهن في أحضان الكفار. **(Migne: Patr. Lat., tome xcviii, P.385)**.

(٣) **Isidore pacensis Chronicon 42 (1266).**

(٤) **Alvar: Indic Lum, 35 (P.53) Johm of Gorr 123(P303).**

(٥) لا تزال هناك أبيات من الشعر العربي نظمها شاعر مسيحي في القرن الحادي عشر الميلادي باقية إلى اليوم، وهي تدل على مهارة فائقة في امتلاك ناصية اللغة ووزن الشعر **(Von Schack, 11.95.)**

وإن إطلاق لفظ مستعربين **Muzarabes** على الإسبان المسيحيين الذين عاشوا في ظل حكم العرب، ليدل دلالة ظاهرة على مدى الميول والاتجاهات التي كانت تعمل بنشاط وهمة في هذه السبيل؛ فسرعان ما أخذت دراسة اللغة العربية تحل محل دراسة اللغة اللاتينية في جميع أرجاء البلاد(١)، حتى إن لغة الدين المسيحي قد تطرق إليها الإهمال والنسيان شيئًا شيئًا. بل لقد أثار بعض القسيسين سخرية الناس لجهلهم باللغة اللاتينية الصحيحة(٢). ومن العسير أن نتوقع من العلمانيين نفس الحماسة والغيرة التي كان يبديها رجال الدين في هذا النوع من الدراسة؛ ففي سنة ٨٥٤م نرى أحد كتاب الإسبان يعلن هذه الشكوى ضد مواطنيه المسيحيين فيقول:-

«بينما نتتبع النظم التي وردت في كتابهم المقدس (يعني المسلمين) ونلتقي بهم لدراسة مذاهب فلاسفتهم – أو الذين يباهون بهذا الضرب من الهذر والإعجاب بمعنى أدق – لا لندحض بالحجة والبرهان تعاليمهم الفاسدة، بل لنفيد من كلامهم الذي يستولي على الأفئدة بجماله، ومن بلاغة لغتهم – غاضين النظر عن قراءة كتابهم المقدس، فلا نكون حينئذ إلا قوما يجعلون من الجيران معبودا يعبدونه **(Apoc, Xiii, 18)**. وأنى لنا أن نجد في أيامنا هذه أي علماني مثقف قد انهمك في دراسة الكتاب المقدس، واهتم بالنظر في مؤلفات آباء الكنيسة اللاتينية؟ ومن ذا الذي أوتى من الحماسة والغيرة ما يثير في نفسه الرغبة في قراءة مؤلفات المبشرين بالإنجيل أو الأنبياء والمرسلين؟ وإن شبابنا المسيحيين، برغم تكلفهم اللطف والكياسة وحسن البيان وطلاقة اللسان، إنما كانوا يسترعون الأنظار بحسن هندامهم وحسن تصرفهم فيما يعرض من الأمور، وربما عرف عنهم من حسن الأدب ودماثة الخلق، ويتشبعهم بالبلاغة العربية، نراهم يتناولون كتب الكذابين (يعني المسلمين) منهم، ويطالعونها بلهف ويناقشونها في حماسة وغيره، ويشيدون

---

(١) وقد أمدنا سمسون رئيس أحد الأديار بأمثلة من الأساليب اللاتينية الرديئة التي كتبها بعض رجال الكنيسة في هذا العصر فمثلا يقول: «لأننا كنا افتعنا البساطة المسيحية» (أي على اعتبار أن البساطة مفعول به» ولكن تصحيحه قد ورد أسوأ من الأول: قال «كما قد اقتنعنا لأجل البساطة المسيحية» (يريد اقتنعنا بالبساطة) **(PP. 404, 406)**.

(٢) **Alvar: Indic, Lum, 35(PP. 554-6).**

بذكرها، ويمتدحونها بكل ضروب التنميق في اللفظ وحسن البيان، على حين أنهم لا يفقهون شيئًا من جمال الأدب الكنسي، ثم يحتقرون جداول الكنيسة التي تنساب إليها من الجنة. واأسفاه! لقد جهل المسيحيون كافة رجلا من كل ألف رجل يستطيع أن يستفسر عن صحة صديق بعبارات واضحة جليلة، وأنت واجد بين جمهرة السوقة والعامة أشخاصا لا يحصى عددهم، يحيطون إحاطة تامة بالعبارات الفصيحة التي خلفتها اللغة العربية في عصورها الذهبية، حتى لقد استطاعوا أن ينظموا القصائد المقفاة – تلك القصائد التي يتجلى فيها اسمى مراتب الجمال، بل لقد كان بعضهم أمهر من العرب أنفسهم في قرض الشعر.

وفي الحق إن اللغة اللاتينية بلغت في بعض أجزاء إسبانيا درجة كبيرة من الانحطاط، حتى لقد أصبح من الضروري أن تترجم قوانين الكنيسة الإسبانية القديمة والإنجيل إلى اللغة العربية ليسهل استعمالها على المسيحيين[1].

وبينما كانت الآداب العربية التي ازدهرت في ذلك العصر تستولي على الأفئدة بجمالها، ويقبل الناس على دراستها في حماسة وشغف، نجد أن أولئك الذين رغبوا في دراسة الأدب المسيحي لم يعد في متناول أيديهم المادة التي كانت تستخدم في تعليم القوط المتبربرين، ولم يجدوا – إلا في شيء من الصعوبة – المعلمين الذين يستطيعون أن يبدءوا معهم نوعا من الدراسة لا يرتفع كثيرًا حتى عن المستوى المنحط من الثقافة، وهذه الحاجة الماسة للدراسات المسيحية قد زادت على مر الأيام، ففي سنة ١١٢٥م كتب المستعربون في إسبانيا إلى ألفونس ملك أرغونة: «لقد نشأنا نحن وآباؤنا إلى وقتنا هذا ال وتربينا بين الأجانب، وإننا نرعى الرسوم المسيحية في حرية بعد أن تعمدنا في طفولتنا؛ بيد أننا لم نكن قط بحيث نستطيع أن نلم بتعاليم ديننا المقدسة، فإننا لا نجرؤ بسبب وجودنا تحت حكم الكفار الذين ظلمونا دهرا طويلا، على طلب المعلمين من رومة أو من فرنسا، فإنهم لم يفدوا إلينا قط من تلقاء أنفسهم بسبب وحشية الوثنيين الذين ندين لهم

(1) Von Shack, vol, ii, p.96.

بالطاعة»[١].

ومن ذلك الاتصال الوثيق بالمسلمين، ودراسة آدابهم دراسة عميقة — حيث نجد حتى من بين المسيحيين مثل الفار Alvar[٢] الذي عرف بتعصبه على الإسلام، يقرر أن القرآن قد صيغ في مثل هذا الأسلوب البليغ الجميل، حتى إن المسيحيين لم يسعهم إلا قراءته والإعجاب به – كان طبعيا أن نتوقع وجود أدلة على مد النفوذ الديني: كذلك كانت الحال بلا مراء، ويقال إن البندس Elipandus أسقف طليطلة (المتوفى سنة ٨١٠م)، وأحد أئمة المذهب الإلحادي القائل بالتبنين — الذي ذهب إلى القول بأن عيسى المسيح الرجل ابن الله بالتبني لا بالطبيعة – قد انتهى إلى هذه الآراء المغرقة في الإلحاد عن طريق اتصاله بالمسلمين[٣].

ويظهر أن هذه العقيدة الجديدة قد ذاعت بسرعة في جزء كبير من إسبانيا، بينما نشر فيلكس أسقف أرجيل Urgel إحدى مدن إقليم قطلونية هذه الآراء في إقليم سبتمانيا الذي كان تحت حماية فرنسا[٤].وقد استدعي فيلكس أمام مجمع برياسة شرلمان، وأرغم على التفكير عن خطئه؛ ولكنه عاد إلى إلحاده على أثر عودته إلى إسبانيا. وليس من شك في أن ذلك كان راجعا (كما ظن البابا ليو الثالث LeoIII في ذلك الوقت) إلى إتصاله بالوثنيين (يعني ذلك المسلمين) الذين دانوا بنفس هذه الآراء)[٥].

لما كان أشهر رجال الدين قد تأثروا تأثرًا عميقا من جراء اتصالهم بالمسلمين، جاز لنا أن نحكم بأن تأثير الإسلام في مسيحيي أوروبا كان عظيما، وليس أدل على صحة هذا

---

(١) Oreric, Vitalis, P.928.

(٢) واليوم نقرأ في كتبهم بأعيننا Alvar: Ind. Lum29. وقد نستحسن تركيب العبارات والصلوات التي يصلي بها أنصار (هذا الدين) جميعا والتي تصاغ كل يوم من أجله في مهارة فائقة وفصاحة عذبة. (Migne: Patr. Lat. Tome cxxi p.546).

(٣) Enheuber, 26, P353.

(٤) Helfferich, P.88.

(٥) بعد قليل، نقض قانون الرب وفر إلى الكفار الذين اتفقوا معه، وأصبح بذلك حانثا لعهده. Frobenii dissertation de haeresi et felicis xxiv (Migne: part. Lat, tome ci, P.313).

القول من التفكير في عقد ذلك المجمع بمدينة طليطلة سنة ٩٣٦م، للبحث في أحسن الوسائل التي تحول دون أن تفسد هذه العلاقات من صفاء الدين المسيحي ونقائه[١].

عن ذلك نستطيع أن ندرك بسهولة كيف أن عوامل التأثير في الآراء وإقامة الشعائر الإسلامية – بالإضافة إلى هذه الجهود الواضحة التي بذلت في سبيل تحول هؤلاء المسيحيين[٢] – قد أدت إلى ما هو أكثر من مجرد التقارب والاتصال، كما أنها سرعان ما عملت على زيادة الداخلين في الإسلام، حتى إن ذريتهم الذين أطلق عليهم اسم المولدين – ذلك اللفظ الذي يدل على الأشخاص لم يكونوا من دم عربي – سرعان ما ألفوا جماعة كبيرة لها أهميتها وخطرها في الدولة، وأصبحت بلا شك أغلبية سكان البلاد[٣]، حتى أننا نقرأ كثيرًا عن الجهود التي بذلها هؤلاء الإسبان في مستهل القرن التاسع للتخلص من حكم العرب، ثم تنشط حركتهم وتتقدم بخطى مسرعة في مناسبات كثيرة، ويظهرون باسم جماعة الحزب الوطني للإسبان المسلمين.

وليس لدينا إلا اليسير من المعلومات المفصلة من تاريخ تحول هؤلاء الإسبان الحديثي العهد بالإسلام. ويظهر أن ذلك التحول استمر إلى أواخر أيام الحكم الإسلامي؛ فقد ذكر المؤرخون أن المسيحيين الذين ارتدوا إلى الإسلام وجدوا في مدينة ملقة التي استولى عليها جيش فردينند وإيزابيلا في سنة ١٤٨٧م، وأنهم قد عذبوا عذابا أفضى بهم إلى الموت، وذلك بوضع الغاب الحاد المدبب في أجسادهم.

وفي الحصار الذي انتهى بتسليم مدينة Purchena بعد ذلك بسنتين، وعد الفاتحون

---

(١) Pseudo- Luitprandi Chronicon, 341 (P.1115) دعا سيليوس مجلس طليطلة واشترط واسطته ألا يعاقب المسيحيون باختلاطهم مع المسلمين».

(٢) ليس هناك غير نصوص قليلة توضح مثل هذه العوامل والجهود، بيد أن الإشارة إلى هذه العوامل والجهود تظهر في عبارات يولوجيوس هذه (Libebr Apologeticus Martteum) عن مُحَمَّد: وفي الحق سيظفر الذين يرغبون من الكاثوليك في معرفة جنون هذا الاثم، وهذيان هذا التبشير، وأوهام البدعة غير المقدسة، بفكرة أوضح، من أصحاب هذه الطائفة، حين يدرسونهم، فإنهم يعتقدون أنهم على شيء مقدس، ويؤمنون به ويبشرون بعقيدة نبيهم، لا في السر فحسب، بل في الأحاديث العامة كذلك» .(Migne: Patr. Lat, tome cxv. P.862)

(٣) Dozy (2) tome ii. P.53.

بألا يحملوا هؤلاء المرتدين على التحول إلى المسيحية ثانية(١). على أن عددا قليلا من الأهلين قد ارتد عن الإسلام ليتخلص من الغرامة التي قضت المحاكم الشرعية عليه بأدائها(٢). وقد بلغ من تأثير الإسلام في نفوس معظم الذين تحولوا إليه من مسيحيي إسبانيا مبلغا عظيما، حتى سحرهم بهذه المدينة الباهرة، واستهوى أفئدتهم بشعره وفلسفته وفنه الذي استولى على عقولهم وبهر خيالهم..

كما وجدوا في الفروسية العربية الرفيعة مجالا فسيحا لإظهار بأسهم، وما تكشفت عنه هذه الفروسية من قصد نبيل وخلق قويم، تلك الحياة التي ظلت مغلقة في وجوه الإسبان الذين بقوا على تمسكهم بالمسيحية وإخلاصهم لها، أضف إلى ذلك أن علوم المسيحيين وآدابهم لا بد أن تكون قد بدت فقيرة ضئيلة إذا ما قيست بعلوم المسلمين وآدابهم التي لا يبعد أن تكون دراستها في حد ذاتها، باعثا على الدخول في دينهم. هذا إلى أن الإسلام في إسبانيا استطاع أن يثير في نفوس الأتقياء الجمال الذي ينشده الورعون والمتحمسون من جماعة إخوان الصفا، وعلى رأسهم علماء الكلام عند أهل السنة الذين كانت لهم الكلمة النافذة في أمور الدولة وقتا ما، والذين دأبوا في حمية وغيرة على إصلاح مذهبهم وتقويم أخلاقهم.

وإذا نظرنا إلى ذلك الشعور الديني الذي أحيا أكثرية الإسبان المسلمين، وذلك التحدي والحقد الذي غلا في صدور المسيحيين حتى دبروا المؤامرات بمؤازرة إخوانهم في الدين الذين كانوا يقيمون خارج حدود بلادهم، لا يسعنا إلا الاعتراف بأن تاريخ إسبانيا في ظل الحكم الإسلامي يمتاز ببعده بعدًا تاما عن الاضطهاد الديني. وإذا استثنينا ثلاثا أو أربعا من حالات الاستشهاد الحقيقي، فإن الشيء الذي قد نطلق عليه اضطهادا أو ما يقرب من الاضطهاد مدة الحكم العربي. إنما نجده في هذه الإجراءات التعسفية التي اتخذتها الحكومة الإسلامية للقضاء على الجنون الذي استولى على عقول بعضهم، فدفع

---

(١) Lea, The Moriscos, pp.17 .18.

(٢) Samson P .379.

بهم إلى التطوع للاستشهاد الذي فشا بقرطبة في القرن التاسع، ففي ذلك الوقت ظهرت في هذا الجزء من إسبانيا (والواضح أن الكنيسة المسيحية في سائر أنحاء البلاد لم تعطف على هذه الحركة)، جماعات دينية اشتهرت بتعصبها للمسيحية، وانتهكت حرمة ديانة المسلمين جهرا وبغير ما سبب، ورمت نبيهم بالكفر، وأصرت على تحدي هذه الديانة. وعرضوا أنفسهم للقتل على أيدي مواطنيهم الذين ضلوا السبيل ومرقوا عن الدين بتحولهم إلى الإسلام وتعصبهم له.

وإن هذا الانفعال النفساني الغريب الذي دفع بهذه الطائفة إلى التضحية، ليظهر ظهورا بينا لدى جماعة القسيسيين والرهبان والراهبات بين سنتي ٨٥٠ و٨٦٠م. وقد يبدو أن عادة إطالة التفكير والتأمل بحكم وجودهم في الأديار وعزلتهم في الصوامع، فيما آل إليه نفوذ المسيحية من ضعف وما بلغته الحمية الدينية من وهن وانحلال، قد دفع بهم إلى السعي وراء شرف الاستشهاد – الذي سلبهم إياه تسامح حكامهم الكفار – بمناوأة الإسلام والغض من شأنه وشأن نبيه. ومن الأمثلة التي تؤيد صحة ما ذهبنا إليه تلك الحادثة التي دونت عن أحد الرهبان ويدعى إسحاق، فقد تقدم إلى القاضي، وادعى أنه يريد أن يتعلم أصول الإسلام، ولما شرح له القاضي تعاليم للنبي بادره بقوله في عنف وشدة: «لقد كذب عليكم (لعنه الله!) ذلك الشرير الذي ملأ الخبث قلبه، وقاد كثيرين من الناس إلى التهلكة وقضى عليهم بالتردي في نار جهنم يوم الدين، وقدم إليكم كأسا من النبيذ البارد ليدخل المرض إلى نفوسكم بهذه الشعوذة الشيطانية التي احترفها فملكت عليه مشاعره. وسوف يكفر عن خطيئته بما يحل به من اللعنة الأبدية، ولم لم تخلصون في نفوسكم من أمثال هذه المخاطرة بفضل ما وهبكم الله من مزية الفهم والإدراك؟ ولماذا لا تتلمسون النجاة الأبدية برفض هذه الوصمة التي تشوب عقائدكم الوبائية بالرجوع إلى إنجيل دين المسيح؟[1]».

وفي مناسبة أخرى اقتحم اثنان من المسيحيين أحد المساجد وأخذا يغضان من شأن

(1) Eulogius: Mem. Sanct. Pref. 2 (Migne, tomecxv.p.737).

الدين الإسلامي. وأعلنا على ملأ الحاضرين أن هذا الدين سيعود على أنصاره عما قليل بالتهلكة ونار الجحيم[1]. ومع أن عدد هؤلاء المتعصبين للدين المسيحي لم يكن كبيرا[2]، خشيت الحكومة الإسلامية سوء عاقبة هذه الحوادث وأوجست خيفة من أن احتقارهم سلطانهم وعدم اكتراثهم لهذه القوانين التي سنوها ضد من يطعن في دينهم قد يؤدي إلى استفحال روح الكراهية وذيوع حركة العصيان بين الأهلين، إذ أن محمدًا الأول لم يجد في الواقع بدا من أن يرسل في ٨٥٣م جيشا إلى مسيحيي طليطلة الذين استفزهم يولوجيوس Eulogius، الذي نصب نفسه للدفاع عن الشهداء، وأشعل نار الثورة حين وصلت إلى سمعه أنباء هذه الآلام التي كان يقاسيها إخوانهم في الدين[3]. وقد قيل أنه أمر بذبح جميع النصارى، على أن الناس لما أدركوا أنه لم يشترك في هذه الأعمال أي شخص من المسيحيين الذين يمتازون بشيء من الذكاء أو السلطان[4]. (إذ أن ألفار Alvars نفسه يشكو من أن أغلبية القسيسين المسيحيين قد دانوا الشهداء وحكموا عليهم بالخطيئة[5])، اكتفى الأمير بتنفيذ القوانين المعمول بها نحو من يطعن في الدين الإسلامي بمنتهى الصرامة، وقد أيدت طائفة الكنيسة التي عرفت بالاعتدال الحكومة فيما بذلت من جهود في هذه السبيل، ولعن الأساقفة هؤلاء المتعصبين وحرموهم الحقوق الكنيسة،

---

(١) المصدر نفسه .c.xiii. (p.794)

(٢) يقال أن عدد الشهداء لم يتجاوز الأربعين

(W. H. Prescott: History of the Region of Ferdinand and Isabella, voi, i. P342, n). (London, 1846).

(٣) Dozy (2), tome ii, pp. 161-2.

(٤) Eulogius: Mem, Sanct t, iii, c, vii, (P.805).

وإن الحقيقة السافرة القائلة بأنه ليس هناك بين المسيحيين رجل مهذب، ولا قائد من قوادهم قد أبلى عملا من هذا القبيل، قد جعلتهم يؤكدون وجوب القضاء المبرم على الذين لم يسبقهم القائد بنقمه إلى القتال

(٥) يقول ألفار .(Alvar: Ind, Lum 14) «ألم يحضر حتى أولئك الذين يظهرون أنهم دعائم الكنيسة الذين كان يعتقد أنهم انتخبوا بدون إكراه أو سخط بين يدي القاضي وقدموا شكوهم ضد شهود الخير في ساينيكس Cynicus، بل أيضًا ضد شهود أبيقور؟ ألم ينتبه رعاة المسيح ومعلمو الكنيسة الأساقفة ورؤساء الأديرة، والقسس من الشيوخ والرؤساء فيعرفوا أنهم كانوا هراطقة؟ ألم يعلنوا معترفين، دون أن يسألوا، ويستجوبوا من تلقاء أنفسهم، ويحكموا على أساس حكم الشخصي، ما لا يحق لهم أن يقولوا ولو أنذروا بالموت؟.

. (Migne: tome cxxi. P.529)

وعقد في سنة ٨٥٣م مجمع ديني لبحث وسائل القمع التي اتفق عليها الفريقان[١]. وانتهت بالقضاء على هذه الحركة. وقد دون المؤرخون بعد ذلك حادثة أو حادثتين منفصلتين من حوادث الاستشهاد، وقعت ثانيتهما في سنة ٩٨٣م، ولم تقع بعدها أية حادثة مدة الحكم العربي في إسبانيا[٢].

ولكن في عهد دولة المرابطين التي تولت حكم بلاد الأندلس، انفجر بركان التعصب الديني في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي من جانب المتحمسين من رجال الدين الإسلامي، وقاسى من جراء ذلك المسيحيون واليهود وطائفة الأحرار المسلمين الذين نادوا بحرية الفكر كالفلاسفة والشعراء ورجال الأدب، ولكن هذه الحوادث لم تكن إلا استثناء للتسامح الديني الذي اتسم بذلك الطابع الذي عرف به أمراء المسلمين في إسبانيا نحو رعاياهم من المسيحيين، ذلك أن أحد مسلمي إسبانيا الذي طرده من بلاده حين أقصى العرب لآخر مرة سنة ١٦١٠م، بينما نراه يحتج على اضطهادات محاكم التفتيش، يثبت بالأدلة القاطعة مدى التسامح الديني الذي سار عليه إخوانه في الدين في هذه الكلمات: «هل حاول أسلافنا المنتصرون ولو مرة واحدة أن يستأصلوا المسيحية من إسبانيا حين كان في مقدورهم أن يفعلوا ذلك؟ ألم يسمحوا لآبائكم بأن يتمتعوا بحرية استعمال رسومهم الدينية في نفس الوقت الذي لبسوا فيه طيالسهم؟ ألم يوص نبينا بأن تترك الحرية الدينية لأهالي البلاد التي يفتحها العرب بحد السيف مهما بلغت آراؤهم الدينية من حمق وخرق؟ بل ألم يسمح لهم بالتدين بأي دين آخر يؤثرونه على دينهم إذا دفعوا مقدارا معتدلا من الجزية في كل سنة؟ وإذا كانت ثمة أمثلة قد يأتي بها بعضهم للدلالة على إرغام الأهلين على اعتناق الإسلام، فإن هذه الأمثلة قد بلغت من الندرة

---

(١) **Alvar: Indic, Lum, P.15.** أي عذر يمكن أن ننتحله لهؤلاء الذين نتركهم فريسة الحرمان الكنسي، والذين اغتصبنا من أفواههم إيمانا بأنهم لن يخرجوا أبدا على دينهم؟ أولئك الذين منعناهم أن يطعنوا في آثام الكفار أو يلعنوا الملعونين؟ إننا نضطرهم بسوء نية، أن يقسموا على الإنجيل والصليب بالقوة والإكراه، بل نضطرهم بقسوة وهلع مرير، مهددين إياهم بعقوبات لم يسمع عنها، وبألوان من العذاب كقطع الأطراف وضرب السياط وغير ذلك مما يستولي علينا الفزع حين نقوله أو نسمعه.**(Migne: tome cxxi, P 530)**

(٢) **Baudissin, P.199.**

بحيث لا تستحق أن تذكر هنا، وإنما حاولها أناس لا يخشون الله ونبيه، بل قاموا بهذا العمل من تلقاء أنفسهم مع مخالفته لتعاليم الدين الإسلامي وسنة نبيه، تلك التعاليم التي لا يمكن أن يدنسها أو ينتهك حرمتها إلا كل شخص لا يتحلى بصفات المسلم الحقيقي، وأنتم لا تستطيعون أن تظهروا لنا شيئًا ما عن أية حادثة خاصة بسفك الدماء أو تقديم للمحاكمة، بسبب الطرق المختلفة التي اتبعت إلى إقناع الناس وتلقينهم تعاليم تشبه على نحو ما، محاكم التفتيش الممقوتة، وإن يدنا مبسوطة دائما لتلقي كل من وهب الله له نعمة التدين بديننا؛ ولكن كتابنا المقدس وهو القرآن الكريم لا يجيز لنا أن نتحكم في ضمائر الناس، وإن الذين استجابوا إلى ديننا قد نعموا بكل ما يمكن أن يتصوره العقل من تشجيع ومعاضدة؛ حتى إذا اعترفوا بوحدانية الله ورسالة نبيه، صاروا كواحد منا من غير تمييز أو استثناء، فتزوجوا بناتنا وشغلوا المناصب التي يكون أصحابها محلا للثقة، ويحاطون بمظاهر الشف وينعمون بالثراء، وكان أقصى ما رضينا لأنفسنا من هؤلاء، أن طلبنا إليهم في رقة ولطف أن يلبسوا لباسنا، وأن يظهروا بمظهر المخلصين الحقيقيين للدين في كل ما يظهرون به أمام الناس، دون أن يعرضوا ضمائرهم للامتحان بشرط أن لا يغضوا من شأن ديننا أو يدنسوه، فإذا فعلوا ذلك أنزلنا بهم ما يستحقونه من العقاب بلا مراء، إذا كان تحولهم إلى هذا الدين عن طواعية واختيار لا عن إرغام وإكراه [١].

وقد اتخذ رئيس أساقفة بلنسية من روح التسامح الحقيقية هذه، مقالاً رئيسًا بعنوان: «ارتداد العرب في الأندلس وخيانتهم للدولة»، وذلك حين أشار على فيليب الثاني بطردهم فقال: «إنهم لم يذكروا بالجميل والحمد شيئًا أكثر من حرية الضمير هذه في كافة المسائل الدينية، تلك الحرية التي سمح الأتراك العثمانيون وغيرهم من المسلمين لرعاياهم أن ينعموا بها»[٢].

وإن هذه البذور العميقة التي ألقى بها الإسلام في قلوب أهالي بلاد الأندلس، يمكن

(١) Morgan vol, ii. Pp.297-8.346

(٢) Id.P .310.

الحكم على مدى عمقها من هذه الحقيقة، وهي أنه لما طرد آخر بقايا المسلمين من هذه البلاد سنة ١٦١٠م، كان هؤلاء الأهالي المساكين لا يزالون يتمسكون بدين آبائهم، مع أنهم أرغموا على إظهار تدينهم بالمسيحية أكثر من قرن، ومع توالي هذه الهجرات التي حدثت منذ سقوط غرناطة، حتى قيل إنه طرد في ذلك الوقت أكثر من خمسمائة ألف[١]. ومن ثم هجرت مدن وقرت برمتها، تخربت بيوتها وأصبحت بالية حتى لم يعد فيها شخص واحد يقوم ببنائها من جديد[٢]. وربما كان هؤلاء المسلمون المتخلفون في إسبانيا جميعا من سلالة أهالي البلاد الأصليين، الذين لم يكن بينهم وبين العرب امتزاج ما في الدم، بل ربما كان هذا الامتزاج قليلا، وإن الأدلة التي قد نوردها على سبيل التدليل لدعم هذه الحقيقة من الكثرة بحيث لا نستطيع أن نأتي بها على سبيل الحصر في هذا المقام. ولنذكر الآن إحدى هذه الحقائق لتكون شاهدا على صحة ما نقول، مستمدين ذلك من كتاب يرجع تاريخه إلى سنة ١٣١١م. وقد جاء فيه أنه لم يكن من بين المائتي ألف من المسلمين الذين كانوا يعيشون في مدينة غرناطة في ذلك الحين أكثر من خمسمائة من أصل عربي. على حين كان سائر هؤلاء المسلمين من أهالي بلاد الأندلس الأصليين الذين تحولوا إلى الإسلام[٣]. وأخيرا فمن المهم أن نذكر أنه حتى أواخر ذلك الوقت الذي احتفظ فيه الإسلام بقوته ونفوذه. نرى هذا الدين يظفر بمتتبعين جدد. ولا غرو فإن المؤرخ حين يدون الحوادث التي وقعت في سنة ١٤٩٩م. أي بعد سقوط غرناطة بسبع سنين، يوجه أذهاننا إلى هذه الحقيقة، وهي أنه كان من بين العرب في إسبانيا عدد قليل من المسيحيين الذين اعتنقوا دين النبي في عصر متأخر[٤].

(١) Lea, The Moriscos, P.259.

(٢) Morgan, vol. ii. P.337.

(٣) Id. P. 289.

(٤) Sterling- Maxwell, vol, I, p.115.

الباب السادس

انتشار الإسلام بين شعوب أوروبا المسيحية في عهد الأتراك

نسمع لأول مرة عن الأتراك العثمانيين في بداية القرن الثالث عشر عندما هربوا من وجه المغول في عدد يقرب من خمسين ألفا، ثم قدموا لنجدة سلطان قونية الذي أقطعهم ولاية في الشمال الغربي من آسيا الصغرى مكافأة لهم على خدماتهم ضد المغول والإغريق، وكانت هذه الولاية نواة الدولة العثمانية المقبلة التي أخذت تتسع أول الأمر باندماج الولايات الصغيرة التي كان الأتراك السلجوقيون قد تقاسموها فيما بينهم، ثم عبر الأتراك إلى أوربا وأخذوا يضمون إلى ملكهم دولة بعد أخرى، حتى توقفت انتصاراتهم المطردة أمام أبواب فيينا في سنة ١٦٨٣[1].

ولقد باشر العثمانيون السلطة على الرعايا المسيحيين منذ الأيام الأولى التي قاموا فيها بتوسيع مملكتهم في آسيا الصغرى، ولم تكد حاضرة الإمبراطورية الشرقية القديمة تسقط في أيدي العثمانيين سنة ١٤٥٣م، حتى توطدت العلاقات بين الحكومة الإسلامية والكنيسة المسيحية بصفة قاطعة وعلى أساس ثابت، ومن أولى الخطوات التي اتخذها مُحَمَّد الثاني، بعد سقوط القسطنطينية وإعادة إقرار النظام فيها، أن يضمن ولاء المسيحيين بأن أعلن نفسه حاميا للكنيسة الإغريقية، فحرم اضطهاد المسيحيين تحريما قاطعا، ومنح

(١) لا مجال هنا لسرد تاريخ هذه الأراضي التي استولى عليها الأتراك، والتي يمكن سردها بإيجاز فيما يلي: في سنة ١٣٥٣ عبر الأتراك العثمانيون إلى أوروبا أولا، وبعد سنوات قلائل اتخذوا أدرنة حاضرتهم الأوربية، وفي عهد بايزيد (١٣٨٩– ١٤٠٢م) امتدت ممتلكاتهم من بحر إيجة إلى نهر الطونة، مشتملة على جميع أجزاء بلغاريا ومقدونية وتساليا وترافية، ما عدا خلكيدية والمقاطعة المحيطة بالقسطنطينية مباشرة. ثم احتل مراد الثاني (١٤٣١– ١٤٥١م) خلكيدية، وسار بفتوحاته قدما نحو الأدرياتيك، وقد أصبح مُحَمَّد الثاني (١٤٥١– ١٤٨١م)، بعد أن فتح القسطنطينية وألبانيا والبوسنة والصرب، سيد شبه الجنوبية الشرقية، ما عدا الأجزاء الساحلية التي تحتلها البندقية والجبل الأسود، ثم أضاف سليمان الثاني (١٥٢٠– ١٥٦٦م) إلى مملكة بلاد المجر وجعل بحر إيجة عثمانيا، وفي القرن السابع عشر، استولوا على إقريطش، ونزلت لهم بولندة عن بودوليا.

البطريق الجديد مرسوما يضمن له ولأتباعه ولمرءوسيه من الأساقفة حق التمتع بالامتيازات القديمة والموارد والهبات التي كانوا يتمتعون بها في العهد السابق.

وقد تسلم جناديوس، أول بطريق بعد الفتح التركي، من يد السلطان نفسه، عصا الأسقفية التي كانت رمز هذا المنصب، ومعها كيس يحتوي على ألف دوكة ذهبية، وحصان محلى بطاقم فاخر، وكان يتميز بركوبه في خلال المدينة تحف به حاشيته(١). ولم يقتصر المسلمون في معاملة رئيس الكنيسة على ما تعود أن يلقاه من الأباطرة المسيحيين من توقير وتعظيم، بل كان متمتعا أيضا بسلطة أهلية واسعة، فكان من عمل البطركية أن يفصل في القضايا التي تتعلق بالإغريق بعضهم مع بعض: فكان لها أن تفرض الغرامات، وتسجن المجرمين في سجن معد لها، بل كان لها أن تحكم بالإعدام في بعض الأحيان. بينما صدرت التعليمات إلى الوزراء وموظفي الحكومة بتنفيذ هذه الأحكام، وكانت المراقبة التامة على الشئون الروحية والكنيسة (وهي التي لم تتدخل فيها الحكومة التركية مطلقا بعكس السلطة المدنية التي كانت مخولة للدولة البيزنطية) متروكة كلها في أيدي البطريق وأعضاء المجتمع الأعظم، وكان في استطاعة البطريق أن يدعوهم متى شاء، كذلك كان في استطاعته أن يفصل في كل شئون العقيدة والشريعة من غير أن يخشى تدخلا من جانب الحكومة.

ولما كان هذا البطريق معترفا به موظفا من موظفي الحكومة السلطانية، كان يستطيع أن يقوم بعمل كبير في رفع الظلم عن المظلومين بأن يوجه أنظار السلطان إلى أعمال الحكام الظالمين، كذلك عوامل الأساقفة من الإغريق في الولايات معاملة تنطوي على رعاية بالغة، وعهد إليهم كثيرا من القضايا المتعلقة بشئونهم المدنية، إلى حد أنهم ظلوا حتى عصور حديثة يعملون في أسقفياتهم كما لو كانوا عمالا من الأتراك على الأهالي الأرثوذكس؛ وبذلك حلُّوا محل الأرستقراطية المسيحية القديمة التي استأصل الغزاة شأفتها. وتجد أن رؤساء الكنيسة كانوا بوجه عام أكثر نشاطا باعتبارهم من الأتراك منهم باعتبارهم

(١) **Phrantzes, pp.305-6.**

قساوسة من الإغريق، وطالما علموا شعبهم أن السلطان قد اكتسب قبولا إلهيا بوصفه حامي الكنيسة الأرثوذكسية، ومن ثم أذيع منشور يكفل للأرثوذكس حتى استخدام الكنائس التي لم تصادرها الحكومة لتحويلها إلى مساجد، ويمنح لهم حق الاحتفال بطقوسهم الدينية تبعا لعاداتهم القومية(١).

وكان من أثر ذلك أن الإغريق، ولو أنهم كانوا يفوقون الأتراك عددا في كل الولايات الأوربية التابعة للدولة، قد جعلهم التسامح الديني الذي رخص لهم، وما تمتعوا به من حماية لحياتهم وأموالهم. يسرعون في الموافقة على تغيير سادتهم وإيثار سيادة السلطان على سيادة أية سلطة مسيحية، وكان الغزاة العثمانيون في بقاع كثيرة من المملكة يلقون ترحيبا من جانب الإغريق، ويعدونهم مخلصين لهم من الحكم الظالم المستبد، حكم الفرنجة وأهل البندقية الذين طال نزاعهم مع بيزنطة حول ملكية البلوبونيز وبعض الجهات المجاورة لبلاد اليونان، فقد صيروا الشعب في حالة من العبودية يرثى لها، بإدخالهم نظام الإقطاع في اليونان، كما كانوا مكروهين من رعاياهم، لاختلافهم عنهم في اللغة والجنس والعقيدة(٢). ووجد هؤلاء الرعايا أن أي تغيير لحكامهم، طالما لا يمكن أن يثقلهم إلى حالة أسوأ مما هم عليها، قد يهيئ لهم فرصة ممكنة لتحسين هذه الحالة. ومع أن مخلصيهم كانوا كذلك غرباء عنهم، إلا أنهم آثروا التركي الكافر على الكاثوليك الهراقطة إيثارا مطلقا(٣).

---

(١) Finlay, vol. iii. P. 522.

Pitzipios, seconde Partie, P. 75. M. d'Ohsson, vol. iii. P.52-4.
Arminjon, vol. i.P.16.

(٢) يرسم أحد الرحالة الذين زاروا جزيرة قبرص في سنة ١٥٠٨ صورة من ظلم البنادقة في أملاكهم الأجنبية على الوجه التالي: «كل سكان قبرص عبيد البنادقة لكونهم مضطرين إلى دفع ثلث مرادهم أو إدخالهم للدولة سواء من حاصلات أراضيهم أو من الغلال أو النبيذ أو الزيت أو الأغنام أو أي شيء آخر، إلى جانب ذلك يسخر كل منهم بالعمل للدولة يومين في الأسبوع في أي مكان يجبون تعيينه فيه، وكل من يتخلف منهم عن العمل بسبب انشغاله في بعض أعماله الخاصة، أو لعلة جسمانية، يكلف بأن يدفع غرامة من الأيام التي تغيب فيها عن العمل، ومما زاد هذه الحالة سوءا أن هناك بعض الضرائب السنوية، وغيرها من الضرائب التي فرضت عليهم، مما جعل عامة الشعب من الفقراء على جانب كبيرة من الهزال والانهيار بحيث كانوا لا يكادون يتركون وسيلة يبغون بها على الروح والجسد معا».
(The Travels of Martin Baumgarten, P.373).

راجع أيضا النصوص التي نقلها هاكيت Hackett في: History of the Orthodox Church of Cyprs P.183.

(٣) Finlay, vol. iii.P.502.

كذلك كان الإغريق الذين عاشوا تحت حكم بيزنطة غير المباشر، فقد كان من الجائز أن يوافقوا على تغيير الحكام. وقد بلغت حالة التدهور والظلم التي ميزت أسرة **Palaelogi** إلى حد يدعو المتأمل إلى الخوف والذكر. «فإن الأرستقراطية الفاسدة، ورجال الكنيسة المستبدين الذين لا يحصيهم العد، وضغط القانون الباطل، وإرهاق الحكومة الوضيعة، وأكثر من هذا، المقاطعات والمالية والجيوش المجيشة لجمع الضرائب والخراج – كل ذلك قد جعل الشعب المنحل خلوا من الحقوق والمبادئ، لا فرصة أمامه للإصلاح، ولا أمل له في الانتعاش»(١).

وهنا نشير إلى كتابة تؤيد صحة هذا الحكم لأحد المعاصرين الذين يعدون حجة، حتى لا يظهر أن مثل هذا الحكم قد أملته روح التعصب الطائفية. فقد عرض الإخباريون من الروس الذين تحدثوا عن سقوط القسطنطينية لمثل هذا الحكم ضد حكومتها بقولهم: «إن أية دولة لا تخاف القانون تشبه فرسا من غير زمام. لقد سمح قسطنطين وأسلافه لأكابر دولته بأن يستبدوا بالشعب، فلم تعد في محاكمهم عدالة، ولا في قلوبهم شجاعة. وجمع القضاة الثروات من دموع الأبرياء ودمائهم، وأصبح الجنود الإغريق لا يفخرون إلا بفخامة الملبس، والمواطنون لا يتحرجون من الظهور بمظهر الغش والخيانة، والجنود لا يخجلون من الفرار، وأخيرا صب الله غضبه على هؤلاء الحكام الجاحدين، ورفع من شأن مُحَمَّد الذي ينشد أتباعه المحاربون اللذة في القتال، والذي لا يخدع قضاته ضمائرهم(٢). هذه العبارة الأخيرة التي تنطوي على المديح والثناء(٣)، فلو تقع موقع الدهش حين يسمعها جيل من الأجيال طالما استنجد به ليحتج على جور الأتراك، ولكن هذا ثابت في وضوح وتواتر بشهادة المؤرخين المعاصرين، فالمؤرخ البيزنطي الذي خلف لنا قصة سقوط

---

(١) **Urquhart, quoted by Clark: Races of European Turkey, P.82.**

(٢) **Karamsin, vol, p.437.**

(٣) ويكتب مارتن كروسيوس **Martin Crusius** بهذه الروح نفسها إذ يقول: «ومن الغريب أننا لم نسمع مطلقا أن شيئًا من الجرائم أو المظالم قد وقع بين البرابرة (الأتراك) وبين البقية الباقية في هذه المدينة الكبرى، فالعدالة ممنوحة لكل فرد، لذلك وصف السلطان القسطنطينية بأنها ملجأ العالم كله: ذلك لأن جميع التاعسين يختبئون هناك في أمان، ولأن العدالة توزع على الناس جميعا؛ على أقلهم شأنا وأعظمهم نفوذا على المسيحيين والكفار سواء بسواء. **Tureogracia, P. 487). (Basilea, 1584).**

القسطنطينية، يحدثنا كيف كان بايزيد الصارم نفسه رحب الصدر، كريم الخلق مع رعاياه المسيحيين، وكيف جعلهم يألفونه ألفة تامة بأن سمح لهم بالتردد على مجلسه في حرية كاملة، وقد اشتهر مراد الثاني بعنايته في تحقيق العدالة وبإصلاحه للمفاسد التي سادت في عهد الأباطرة الإغريقيين، وعاقب في غير هوادة أي موظف من موظفيه استبد بأي فرد من رعاياه[1].

لهذا رأينا بعد سقوط القسطنطينية بقرن على الأقل، طائفة من الحكام الصالحين، واستطاعوا بفضل الإدارة الحازمة الصارمة أن ينشروا الأمن والنظام في المقاطعات كلها، ووجدنا تنظيما رائعا في الشئون المدنية والقضائية، وهو إن لم يجعل المساواة بين المسلمين والمسيحيين، إلا أنه جعل الإغريق أحسن حالا بكثير مما كانوا عليه من قبل. فقد كان ما كلفوا به من مشقة العمل الإجباري أهون عليهم من ذي قبل، وكانوا في القليل النادر يدفعون غرامات غير عادية، وكانت الضرائب التي يدفعونها عبئا خفيفا، إذا ما قورنت بالالتزمات الإقطاعية، التي لا تنتهي، والتي كان الفرنجة يفرضونها عليهم، والإرهاق المستمر الذي كانوا يتكبدونه من البيزنطيين، ولا شك أن الإيالات التركية كانت أحسن حكما وأكثر رخاء من معظم جهات أوربا المسيحية، وأن جمهرة السكان المسيحيين الذين اشتغلوا بزراعة الأراضي كانوا ينعمون بقدر كبير من الحرية الشخصية، كما كانوا ينعمون بثمار جهودهم في ظل حكومة السلطان أكثر مما كان ينعم به معاصروهم في ظل كثير من الحكام المسيحيين[2].

أضف إلى ذلك عاملا كبيرا كان من أهم العوامل في زيادة نشاط المملكة التجارية، ذلك أن السلاطين الأولين كانوا دائما على استعداد لإنعاش الصناعة والتجارة بين

---

(١) phrantzes, P.92.

(٢) «وإذا عاش النصارى أو اليهود (في الشرق) في أماكن فيها قضاة أو سوباشاهات (وهي وظيفة إدارية تقابل اليوم وظيفة المدير أو المحافظ في مصر) بحيث لا يستطيع عامة الأتراك أن يفعلوا بهم ما يشاءون، فإنهم (أي اليهود والنصارى) كانوا يؤثرون أن يعيشوا تحت سيطرة النصارى، ذلك أنهم كانوا لا يتعرضون لأذى ما داموا يدفعون الجزية، أما في الممالك النصرانية فلا حد لما كان على الرعايا أن يؤدوه للدولة طوال العام .(Tage- Buch, P.413)

رعاياهم؛ وأن كثيرا من المدن الكبرى قد ازدهر ازدهارا كبيرا عندما خلصها الفتح التركي مما أصابها في عهد الدولة البيزنطية من طغيان الثروة الحكومية التي عرقلت نهضتها وشلت حركتها، ومن هذه المدن نيقية التي سلمت لأورخان سنة ١٣٣٠ بشروط ملائمة جدا بعد حصار طويل[١]. وكان العثمانيون كالرومان القدماء مهرة في إنشاء الطرق والكباري مما سهل التجارة في جميع أنحاء الدولة؛ وقد اضطرت الدولة الأجنبية إلى السماح بفتح موانيها لتجار الإغريق، وكانوا قد منعوا من دخولها في عهد الأباطرة البيزنطيين. ذلك أنهم قد أصبحوا في تلك الحالة يبحرون في ظل الراية العثمانية، وقد اتخذوا زي الأتراك وعاداتهم، ومن ثم ظفروا من أمم غربي أوروبا بالاحترام والتقدير الذين كان الكاثوليكيون يرفضون دائما حتى ذلك الحين أن يمنحوهما أفراد الكنيسة الإغريقية[٢].

ولسنا نستثني من هذا السلوك الطيب، وذلك التسامح الكريم، إلا أمرا واحدا معروفا، ذلك هو ضريبة الأبناء المسيحيين الذين كانوا يؤخذون من آبائهم في سن مبكرة كرها وينتظمون في سلك الإنكشارية المشهورين، وقد استحال هذا الجيش، بعد أن أنشأه أروخان سنة ١٣٣٠، في خلال بضعة قرون، عمادا لقوة السلاطين الأتراك الغاشمة، وظل يتغذى بهذه الضريبة المنتظمة، وكانت تحدث مرة كل أربع سنوات[٣]، عندما كان قواد السلطان يزورون المقاطعات التي فرضت الضريبة عليها، فيختارون طائفة من بين الأبناء الذين يبلغ سن الولد منهم السابعة تقريبا. وقد حاول فقهاء المسلمين تبرير هذه الضريبة التي تتنافى مع الإنسانية بأن جعلوا هؤلاء الأولاد يمثلون الخمس الذي جعله القرآن من نصيب الحاكم في الغنائم[٤]، وأفتوا بأن تجنب الإكراه على اعتناق الإسلام[٥] كان ملحوظا

---

(١) Hertzberg, PP. 467, 646.650.

(٢) Finlay, vol, v. pp. 156-7.

(٣) على أن هذه الفترة لم تكن ثابتة؛ ففي أول الأمر كانت الجباية تحدث كل سبع سنوات أو خمس، ولكنها حدثت في عصور متأخرة على فترات أكثر من هذه، تبعا لحاجة الحكومة (Menzel, P.52). ويقرر متروفانس كريتوبولوس، فيما كتبه سنة ٦٢٥، أن الحياة كانوا يفدون إلى المدن إذا وافت السنة السابعة، وكان على كل مدينة تتطوع بثلاثة أولاد أو أربعة، أو بولدين على الأقل (P.205)

(٤) القرآن سورة ٨ آية ٤٢.

(٥) نفس المرجع سورة ١٠ آية ٩٩، ١٠٠.

من غير شك بالنسبة إليهم كذلك، على أن حداثة سنهم التي كانوا يوضعون فيها تحت إرشاد معلمين من المسلمين لا بد أنها لم تكن بحيث تجعل[1] لهذه النظرية أية قيمة من الوجهة العملية، ولقد طالما عبرت أوروبا المسيحية عن استيائها من هذه الضريبة الوحشية، ورسم الرحالة الذين تنقلوا في الولايات التركية صورا مؤلمة للمنازل المهجورة والآباء الذين ذرفوا الدفع على الأطفال الذين انتزعوا منهم انتزاعا، غير أن الجيش في أول نشأته كان قد كثر عدده بسرعة فائقة بتطوع كثيرين من بين المسيحيين أنفسهم[2].

وربما كانت الظروف والأحوال التي فرضت فيها هذه الضريبة أولا تذهب بعيدا في تفسير الجمود الذي أبداه الإغريق في أنفسهم فيما يظهر. فقد تعرضت البلاد كلها للخراب من جراء الحروب، وكثيرا ما استهدفت الأسر لخطر الهلاك جوعا، ومن ثم كان الأبناء الذين يتبنون يتامى في كثير من الأحيان، ولولا تبنيهم لتعرضوا للهلاك، أضف إلى ذلك أن عادة بيع المسيحيين إرقاء كانت في ذلك الحين قد انتشرت انتشارا واسع النطاق، ربما أدى إلى جعل هذه الضريبة أقل إثارة للدهش مما كان متوقعا، ثم إن هذه العادة قد ثبت أنها لم تكن إلا استمرار لحالة مماثلة كانت قائمة في ظل الأباطرة البيزنطيين[3].

وقد قيل أيضًا أنه لم يكن ثمة ما يدعو القواد الذين كانوا يجمعون العدد المعين من الأبناء إلى استخدام القوة والإكراه إلا في القليل النادر، وإنما كان هؤلاء الآباء مشوقين في الغالب إلى إدخال أبنائهم في خدمة تهيئ لهم في كثير من الأحيان حياة سعيدة وعيشة

---

(1) ومع ذلك فإن الشبان المسيحيين لم يرغموا على تغيير عقيدتهم، وكانت مبادئ الحكومة تتعارض مع ذلك طبقا لأحكام القرآن، فإذا كان هؤلاء الموظفون قد استخدموا أحيانا شيئًا من الإكراه الديني بدافع تعصبيهم، فقد كان ذلك تساهلا من جانب قيادتهم، على أن هذا الإكراه لم يكن مسموحا به مطلقا من الرؤساء. **(M. d'Ohosson, tome iii. Pp. 397-8).**

(2) **Hertzberg, P.472.**

(3) «على أنه من المحزن جدا ما حدث يوما من أن الأباطرة المسيحيين كانوا يستعرضون من كل مدينة عددا معينا من الأطفال الذين يبدو أن قواهم الطبيعية ترى هؤلاء الباقين، الذي تحملوا مشقة إحضارهم إلى الساحة للقيام بواجبات الخدمة العامة: المدنية والحربية: كذلك عندما احتل الأتراك الإمبراطورية اليونانية، كان لهم نفس الحق أن ينتزعوا من أرباب الأسر أطفالا وهبتهم الطبيعة قوة بالغة.

(David Chytraeus, PP. 12-14).

ناعمة مريحة، لا تعنيهم الظروف والملابسات، طالما كان هؤلاء الأسرى الصغار ينشئون ويثقفون كما لو كانوا أولاد السلطان نفسه[١].

ثم إن هذا النظام قد يبدو أخف وحشية لو أن الآباء كانوا حقا يفتدون أولادهم غالبا بدفع الأموال[٢]. وفي سنة **١٦٢٥** كتب متروفانس كريتوبولوس **Metrophanes Kritopoulos** وكان بطريقا للقسطنطينية ثم للإسكندرية، فذكر شتى الحيل التي كان يلجأ إليها المسيحيون تخلصا من عبء هذه الضريبة. من ذلك أنهم كانوا يشترون أولاد المسلمين ويقدمونهم على أنهم مسيحيون، وأنهم كانوا يرشون الجباة ليأخذوا بدلا من أولادهم أولادا من المسيحيين الذين ولدوا من عنصر منحط، أو نشئوا تنشئة فاسدة، أو ممن «يستحقون الشنق»[٣].

وتحدث توماس سمث **Thomas Smith** في جملة أخرى عن إمكانية افتداء الأولاد بالمال، وقد بلغ من التأثر مبلغا عظيما، «وحرص بعض آبائهم بدافع من الشفقة الطبيعية والشعور الديني الصادق على ألا يسلبوا أبناءهم الذي قد تضطرهم هذه المحنة إلى الارتداد عن نصرانيتهم، فكانوا يدفعون للأتراك خمسين دولارا أو مائة، مبلغا يتفاوت قلة وكثرة حسب قدرتهم على الدفع، ومدى تأثيرهم في جشع الأتراك»[٤]. وقد أعفي من هذه الضريبة القاسية أهالي مدن خاصة من المسيحيين كالقسطنطينية وبعض البلاد والجزائر التي كانت قد اتفقت على هذا الشرط وقت تسليمها للأتراك، أو كانت قد

(١) **Creasy, P. 99. M. d'Ohsson, tome iii. P.397, Manzel, P.53.**

وقد قال توماس سمث وهو يتحدث عن أمثال هؤلاء الآباء: وآخرون قد لحقهم الدين وعاره، مسيحيون اسما فحسب تخلوا عنهم، في حرية وإقبال عظيم، لا لكي يتخلصوا من متاعبهم وأعبائهم فحسب، بل أملا في أن يحصلوا، بعد أن يكبروا، على شيء من السلطان في الحكومة»، **An account of the Greek Church P.12 (London1980).** وفي عهد مراد الأول، استخدمت الجيوش المسيحية في جمع ضريبة الأطفال المسيحين هذه **(Finlay, vol, V.P.45)**.

(٢) «وعلى أنه كان من الممكن حقا أن يخلص الآباء هؤلاء الأطفال من الحياة بافتدائهم بالمال، **(David CFhytraeuse P.13)** يذكر دي لاجيتير **De la Guilletière** هذه الضريبة في سنة ١٦٦٩ على أنها من خصائص الأثنيين.
(An account of a late Voyage to Athens, P. 272. London, 1676).

(٣) **Confessio, P.205.**

(٤) **An account of the Greek church, P. 12 (London, 1680).**

اشترت هذا الامتياز[١].

وإن هذه الظروف المخففة في بداية حكمهم، وحالة الرخاء التي يستسلم الناس في ظلمها لأية عادة مقررة – ولو أنها لا تصلح بحال أن تكون عذرا لهذا الوضع الذي يتنافى مع الإنسانية –لتعيننا على فهم ما يسميه أحد الرحالة في القرن السابع عشر «عدم الاكتراث الذي لا يمكن تعليله»[٢]. والذي يظهر أن الإغريق كانوا قد وقعوا فيه، حين طلبوا حكومة جديدة (حكومة الأتراك) عملت على تحسين حالتهم تحسينا ملموسا.

زد على ذلك أن رعايا الدولة العثمانية من المسيحيين كان عليهم أن يدفعوا ضريبة الرأس في مقابل حمايتهم وإعفائهم من الخدمة العسكرية، وكانت الفئات المقررة في القانون العثماني تتراوح بين ٢.٥، ٥، ١٠ قروش على كل ذكر بالغ، كل بالنسبة إلى دخله[٣]، على حين أعفي النساء ورجال الكنيسة[٤]. وكانت الفئات في القرن التاسع عشر تتراوح بين ١٥، ٣٠، ٦٠ قرشا، كل بحسب دخله[٥]. وكثيرا ما تحدث الكتاب المسيحيون في القرنين السادس عشر والسابع عشر عن هذه الضريبة بتقدير دوكة واحدة عن كل رأس[٦]. ولكنهم أخبروا كذلك، على اختلاف فيما بينهم أنها تتراوح بين ٣، ٥، ٥ ١/٧

---

(١) **Menzel, P. 52 Thomas Smith: De Moribus ac Institutis Turcarum P.81 (Oxoni, 1672).**

(٢) **Hill, P.174.**

(٣) **Joseph von Hammer (2). Vol. ii.p0151**

ويقرر هنس شلتبرجر **Hans Schilberger** الذي أسره الأتراك في سنة ١٣٩٦م ورجع إلى وطنه ميونيخ أن قضى في الأسر اثنين وثلاثين عاما، أن الضريبة التي لم يكن بد من أن يدفعها المسيحيون لم تزد على جزئين من مائة من المارك في الشهر.

(Reisebuch, P.92).

(٤) كانوا يعفون خدام الدين المسيحي، كما أمر بذلك الله، كأنهم كانوا يفعلون ذلك احتراما للمناصب المقدسة التي يشغلونها كما أعفيت النساء كذلك ممن دفع هذه الضريبة.

(De Graecae Holiereno statu Epistola, authore Thoma smitho. P.12).
(Trajecti ad Rhenum, 1698).

(٥) **Silberngl. P.60.**

(٦) **Martin Crusius, P. 487; Sansovino, P.67.**

Georgieviz, PP. 98-9, Scheffler, 56. Hertzberg, P. 648. De la Jonquiere, P.267.

من الريالات أو الدولارات(١). ولعل التقلبات التي طرأت في القرن السابع عشر على سعر النقد في العملة التركية هي التي تفسر لنا تلك التغييرات الأخيرة، ولكي نقدر على وجه التحقيق، إلى أي حد كانت الضريبة عبئا على هؤلاء الذين يؤدونها فإن ذلك يحتاج إلى بحث مستفيض حول تتبع قيمة النقد في هذه الفترة، وعمل مقارنة مع سائر أبواب المصروفات(٢). ولكنها لا تكاد تكون في ذاتها عذرا وجيها لتغيير العقيدة، كما أشار إلى ذلك تورنيفوروت **Tournefort** حيث كتب سنة ١٧٠٠م عن إسلام الكانديوث **Candiots** فقال: «يجب أن نعترف بأن هؤلاء التاعسين يبيعون أرواحهم بما يساوي بنسا، وأن كل ما حصلوا عليه من تبديل دينهم، هو تغيير زيهم وتمتعهم بإعفائهم من ضريبة الرأس التي لا تتجاوز خمسة ريالات في العام»(٣). كذلك قرر شفلر **Scheffler** الذي كان مولعا بتلوين حالة المسيحيين في ظل الحكم التركي بأقتم ما استطاع من ألوان، إن دوكة واحدة لكل رأس شيء تافه، ورأى أن يوجه عنايته قبل كل شيء إلى الضرائب غير العادية، وإتاوات الحرب وغيرها مما كانوا يطالبون بأدائها(٤).

ويقرر كتاب نشر في لندن سنة ١٥٩٥ بعنوان **The Estate of Christians living under the subjection of the Turke** أن ضريبة الرأس عند الأطفال الذكور كانت ثمانية شلنات **(P.2)** ويقول ميشيل باودن **Michel Bauden** إن مقدارها **(one Sequin)** لكل رأس من الذكور، **(Histoire du serrail, P.7 Paris, 1662).**

(١) **Georgierenes, P. p.Tournefort, vol. I. P: 91; Tavernier (3). P.11.**

(٢) وفي كتاب نشره جوزيف جيور جيرنييس رئيس أساقفة سيسام (جزيرة في بحر إيجة، يذكرنا العرب بصيغة ماهو أو سام أو شامس **Encyc of Islam**)، في أثناء زيارة إلى لندن، يمدنا بوصف عن دخل أبرشيته، الذي يظهر أن تفصيلاته لم تعد مجحفة، كما أنها كانت مدونة هنا لفائدة قراءة الإنجليز: وإذا ما قورنت بالمبالغ المذكورة هنا فينبغي أن نذكر أنه يتحدث عن ضريبة الرأس باعتبارها ثلاثة ريالات أو دولارات **(PP.8-9)** «عندما يتولى (أي رئيس الأساقفة) لأول مرة يقدم له الآباء أو قسيس أبرشية الكنيسة عن مسكنه خمسة عشر دولارا أو عشرين، أما هؤلاء التابعون الكنائس الأخرى، فيمنحون بحسب قدرتهم على الدفع، في السنة الأولى من توليه يؤدي كل خوري كنيسة له أربعة دولارات، وفي السنة التالية دولارين ويؤدي كل علماني إليه ثمانية وأربعين أسيرا **(asper)** (في المعاهدة التجارية التي أبرمت مع إنجلترا سنة ١٦٧٥ كانت قيمة الدولار ثابتة أسبرا **(Finlay, v.28)** «وفي السنين التالية بلغت أربعة وعشرين، ويؤدي أهل سيسام دولارا واحدا عن كل ترخيص؛ وكل الغرباء يدفعون دولارين، ولكن كل من يأتي بعد الزيجة الأولى ليطلب ترخيصا بزيجة ثانية أو ثالثة بدفع ثلاثة دولارات أو أربعة». **(PP. 33-4).**

(٣) **Tournefort, vol. i. p.91.**

(٤) **Scheffler, 56.**

وكانت ضريبة الأطيان مفروضة على كل من المسيحيين والمسلمين على حد سواء. ذلك أن التفرقة القديمة بين الأراضي التي يدفع عنها الملك المسلم العشر، والأراضي التي يدفع عنها المالك غير المسلم الخراج لم تكن معروفة لدى العثمانيين[1]. وأيا كانت هذه المتاعب التي لم يكن بد من أن يتجشمها المسيحيون، فقد نشأت محن ظلم الأفراد الذين استغلوا منصبهم الرسمي لابتزاز الأموال من هؤلاء الذين وقعوا تحت سلطتهم، ولم يكن مثل هذه المظالم يتنافى مع الشريعة المحمدية فحسب، بل كان نادر الوقوع قبل أن يتطرق الضعف إلى الحكومة المركزية ويعاني فوضى السلطات المحلية وتعسفها دون أن توقع عليها عقابا[2].

وهناك فرق واضح كل الوضوح بين ما لدينا من الأخبار الخاصة بحالة المسيحيين في خلال القرنين الأولين من الحكم التركي في أوروبا والأحبار التي تتعلق بحالتهم في وقت متأخر، حيث كان دور الانحلال قد بدأ بالفعل، ولكن مما هو جدير بالملاحظة أن ما سجل عن عدد المسيحيين في خلال القرنين الأولين من الحكم التركي في أوروبا والأخبار التي تتعلق بحالتهم في وقت متأخر، حين كان دور الانحلال قد بدأ بالفعل، ولكن مما هو جدير بالملاحظة أن ما سجل عن عدد المسيحيين الذين تحولوا إلى الإسلام كان قليلا جدا في هذه الفترة نفسها التي كان المسيحيون فيها أشد تعصبا.

أما فيما يتعلق بهذه الدوكات التي تؤدونها فإنكم أنتم أيضا تنخدعون بها انخداعا فظيعا، حقا إن الإمبراطور التركي لا يأخذ في المادة جزية على الرأس إلا دوكة واحدة، ولكن إن ضرائب الجمارك والضرائب غير العادية، ألا يأخذ وكلاء السلطان وعماله شيئًا أبدا، ألستم ملومين في أوقات الحرب بدفع ضرائب غير عادية؟ أما الضرائب غير العادية فإنها تزيد وتنقص تبعا لسوء حال العصور، والواجب أن يدفع رعايا السلطان هذه الضرائب كما تدفعها نحن..

(١) **Hammer (2), vol. i.p346.**

(٢) وقد نشأت المصاعب التي كان يعانيها رعايا السلطان من المسيحيين، في كل الأزمان من تلك الحقيقة وهي أن السلطة المركزية في القسطنطينية لم يكن لها إلا سلطان فعلي ضئيل على كل أرجاء الدولة التركية، وإن الظلم اليسير الذي أحدثه موظفو القرى، والذي قد جعلته الأحقاد الشخصية شديدة الوطأة، هو الذي أثار أعمال القسوة هذه التي أذعن لها المسيحيون في تركيا سواء في العهود السابقة أو في الوقت الحاضر حيث تظهر هذه الأعمال أعنف وأشد، وفي الأيام التي تصل أمة من الأمم إلى عظمتها، قد تكون العدالة بل الشرف بإزاء الشعب المحكوم أمرا محتملا، ولكن النادر أن توجد هذه الصفات في أمة تأخذ طريقها نحو التأخر والانحلال».

(Rev. W. Denton: Servia and the servian, P. 15 London, 1982 Gerlach PP 49.52.

ولما كانت حالة المسيحيين في القرن الثامن عشر أسوأ منها في أي عهد آخر، كان من الصعب أن نجد أية إشارة تدل على تحول المسيحيين إلى الإسلام، وظهر الأتراك أنفسهم بمظهر الذين لا يكترثون مطلقا لتقدم دينهم، كما أصيبوا إلى حد كبير بالشك والإلحاد [1]. ودليل آخر يثبت أن ما تحملوه من مشاق كان راجعا إلى فساد الحكومة أكثر منه إلى الاضطهاد الديني، ذلك أن المسلمين والمسيحيين قد لاقوا المتاعب على حد سواء[2]. ومع ذلك فقد كان المسيحيون بطبيعة الحال أكثر تعرضا للعسف وسوء المعاملة لما اعترضهم من صعاب في سبيل الحصول على ما يصلح حالهم بالدفاع عن قضيتهم، ومن ثم لا يبعد أن يكون تغيير الدين وسيلة لجأ إليها طائفة من أفقر طبقاتهم تحروا من متاعبهم.

ولكننا إذا استثنينا ضريبة الأبناء التي يلوح أن الإغريق المغلوبين على أمرهم قد أذعنوا لها ولم يظهروا مقاومة تذكر، والتي يرجع السبب في إلغائها، لا إلى ثورة قامت، أو

---

(١) Businello, PP.43-4.

(٢) جرت عادة حكومة السلطان المركزية أن تعامل رعاياها من المسلمين بمثل ما عاملت به المسيحيين المغلوبين على أمرهم من القسوة والجور، وقد كانت متاعب الإغريق نتيجة لما صدر من الطبقة الحاكمة والظلم، وما سيطر على الإدارة العثمانية من فساد، أكثر من أن تكون نتيجة لمباشرة السلطان لنفوذه، كان للإغريقي في شئونه الخاصة، فرصة للحصول على العدالة من أسقفه وشيوخ ناحيته، أحسن مما كان يحصل عليه التركي من القاضي .(FinaLy, vol, vi, PP.4-5) ومن الخطأ أن تزعم أن المسيحيين وحدهم هم الطائفة المطلوبة البائسة من الأهالي، فقد كان فساد الأداء الحكومية التركية شاملا، يرزح تحت ثقله جميع الناس على سواء، وربما كان بؤس المسلمين في بعض أنحاء المملكة أسوأ حالا في الواقع من بؤس المسيحيين وإنما كانت حالة المسيحيين هي التي أثارت أكثر من غيرها شفقة الرحالة

(William Forsyth: The Slavonic Provinces south of the Danube pp. 157-8 London, 1876)

ويقع كل هذا التعسف والبؤس (يعني في شمال آسيا الصغرى) على الأهالي من المسلمين والمسيحيين على سراء.

(James Bryce: Transcaucasia and Ararat, P.381).

«خيل إلى أوروبا أن المسيحيين وحدهم هم الذين يذعنون في تركيا للاستبداد والحساب والهوان، الذي نشأ عن التعسف؛ لم يكن هذا مطلقا! فما من قوة أجنبية كانت تعني بأمر المسلمين؛ ومن ثم ربما كان العين الواقع عليهم أشد، وتعرضهم لحمل نير الظلم أكثر مما تعرض له هؤلاء الذين لا يؤمنون بالنبي» .(De la Jonqière, P.507).

وإذا حكمنا مما لاحظناه من قبل، وجدنا أن أحط طبقات المسيحيين في آسيا الصغرى لم يكونوا أسوأ حالا من أمثالهم في تركيا. وإذا كان مسيحيو تركيا يتمتعون ببعض مزايا من تأثير تفوق عددهم على عدد الاتراك، فإن مسيحيي آسيا يراحون حين يرون أن الأتراك يتعرضون من جانب أصحاب النفوذ لمثل حالة العسف التي يتعرضون لها هم أنفسهم؛ وحسبهم أن يتعاملوا مع جنس من المسلمين أرق حاشية، وأشد تدينا، وأحسن انتحالا لمذهب من أمثالهم في أوروبا.

(W. M. Leake: Journal of a Tour in Asia, P.7. London. 1824)

وانظر كذلك: .Lauence Oliphant: The Land of Gilead pp. 320-3, 446 (London, 1880)

انقلاب وقف في سبيل استمرارها، ولكن إلى زيادة السكان من الأتراك وعدد المرتدين الذين كانوا يوالون الدخول في خدمة السلطان[١] فإن المعاملة التي أظهرها الأباطرة العثمانيون للرعايا المسيحيين – على الأقل بعد أن غزوا بلاد اليونان بقرنين – لتدل على تسامح لم يكن مثله حتى ذلك الوقت معروفا في سائر أوربا. وإن أصحاب كلفن **Calvin** في المجر وترانسلفانيا، وأصحاب مذهب التوحيد **Unitarians** من المسيحيين الذين كانوا في ترانسلفانيا، طالما آثروا الخضوع للأتراك على الوقوع في أيدي أسرة هابسبورج المتعصبة[٢].

ونظر البروتستانت في سيليزيا إلى تركيا بعيون الرغبة، وتمنوا بسرور أن يشتروا الحرية الدينية بالخضوع للحكم الإسلامي[٣]. وحدث أن هرب اليهود الإسبان المضطهدون في جموع هائلة فلم يلجئوا إلا في تركيا، في نهاية القرن الخامس عشر[٤]. كذلك نرى القوزاق **Cossaks** الذين ينتمون إلى فرقة المؤمنين القدماء **Old Belivers** الذين اضطهدتهم كنيسة الدولة الروسية، قد وجدوا من التسامح في ممالك السلطان ما أنكره عليهم إخوانهم في المسيحية[٥]. وربما كان يحق لمقاريوس بطريق أنطاكية في القرن السابع عشر أن يهنئ نفسه حين رأى أعمال القسوة الفظيعة التي أوقعها البولنديون من الكاثوليك

---

(١) وفي القرن السادس عشر أخذت ضريبة الأطفال تتلاشى؛ وآخر مثال مدون لفرض هذه الضريبة كان في سنة ١٦٧٦.

(٢) **de la Jonquière, P. 333. Scheffler, 45-6 Gastowtt, P.51.**

(٣) «لأني أسمع مع فرط الدهش، أن الأمر لم يقتصر على ما يروج بين العامة من إشاعات مؤداها أن الحياة في ظل الحكم التركي شيء مقبول؛ ذلك أنه يظن أن الإنسان متى دفع دركة واحدة وهي جزية لرأس لم يعرض له بعد ذلك بسوء، وأن الأتراك بالإجمال يتركون الناس أحرارا في دينهم، وأن النصارى سترد إليهم كنائسهم، وما شاكل ذلك، بل هنالك أيضا آخرون، (يعني من المسيحيين) ممن يجب أن يدركوا الأمور على وجه صحيح، يفرحون بما يقال لهم (عن محاسن الأتراك) ويهللون الشقاء الذي هم فيه! قال لهؤلاء النصارى ليسوا هالكين فحسب بل هم عصاة، متهورون، كفار، لم ينبتوا إلا من تربة الإلحاد التي تجنح إلى الثورة، وإلى استئصال شأنه المسيحية **(Scheffler)**.

(٤) **Hertzberg, P.650.**

(٥) **De la Jonquiè, P.34.** وقد عمل ريتشارد ستيبر **R. Staper** وهو تاجر إنجليزي كان في تركيا في عصر مبكر (سنة ١٥٧٨)، مقارنة مماثلة بقوله: وعلى الرغم من أن الأتراك بوجه عام شعب من أشرس الشعوب، بسيرهم في أعمال الظلام.. سمحوا للمسيحيين جميعا، للإغريق منهم واللاتين، أن يعيدوا محافظين على دينهم، وأن يصرفوا ضمائرهم كيف شاءوا، بأن منحوهم كنائسهم لأداء شعائرهم المقدسة، في القسطنطينية وفي أماكن أخرى كثيرة جدا، على حين أستطيع أن أؤكد بحق دليل اثني عشر عامة قضيتها في إسبانيا، أننا لا نرغم على مشاهدة حفلاتهم البابوية فحسب، بل إننا في خطر على حياتنا وسلما.

(M. Epstein: The Early History of the levant Company, P.57. London, 1908)

Catholic Poles على روسيي الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية، قال مقاريوس: «إننا جميعا قد ذرفنا دمعا غزيرا على آلاف الشهداء الذين قتلوا في هذه الأعوام الأربعين أو الخمسين على يد أولئك الأشقياء الزنادقة أعداء الدين.

وربما كان عدد القتلى سبعين ألفا أو ثمانين ألفا. فيا أيها الخونة! يا مردة الرجس! يا أيتها القلوب المتحجرة! ماذا صنع الراهبات والنساء؟ وما ذنب هؤلاء الفتيات والثيبة والأطفال حتى تقتلوهم؟...

ولماذا أسميهم البولنديين الملعونين؟ لأنهم أظهروا أنفسهم أشد انحطاطا وأكثر شراسة من عباد الأصنام المفسدين، وذلك بما أظهروه من قسوة في معاملة المسيحيين، وهم يظنون بذلك أنهم يمحون اسم الأرثوذكس. أدام الله بقاء دولة الترك خالدة إلى الأبد.. فهم يأخذون ما فرضوه من جزية ولا شأن لهم بالأديان، سواء أكان رعاياهم مسيحيين أم ناصريين، يهودا أو سامرة: أما هؤلاء البولنديون الملاعين فلم يقنعوا بأخذ الضرائب والعثور من إخوان المسيح بالرغم من أنهم يقومون بخدمتهم عن طيب خاطر؛ بل وضعوهم تحت سلطة اليهود الظالمين أعداء المسيح الذين لم يسمحوا لهم حتى بأن يبنوا الكنائس، ولا بأن يتركوا لهم قسسا يعرفون أسرار دينهم[١]، حتى إيطاليا كان فيها قوم يتطلعون بشووق عظيم إلى الترك لعلهم يحظون كما حظي رعاياهم من قبل بالحرية والتسامح الذين يئسوا من التمتع بهما في ظل أية حكومة مسيحية[٢].

---

(١) **Macarius, vol. i. 183. 165 The memorial Presented by polish refugees from Russia of the Sublime porte, in 1853 (Gasztowtt, p.217).**

(٢) وضع بعضهم نصب عينيه نوعا من الحرية ينطوي على الحماقة؛ فلما فقدوا الأمل في الحصول على هذه الحرية في ظل حكومة مسيحية، آثروا أن يعيشوا في ظل الأتراك، كان هؤلاء كانوا أكثر شفقة في منح هذه الحرية من الحكام المسيحيين".

(Joannis Ludovici de conditione Vitae Christianorum sub Turca, pp 220. 225) Basileae, 1538).

وينادي بعض الناس بأن الإيمان حر في ظل الحكم التركي"

(Othonis Brunfelsii ad primcipes et christanos omnes Oratio, P.133) (Basileae 1538).

وحول سنة ١٥٢٧ كتب أوبرنوس فوليتا **Ubertus Foleta** أحد أشراف جنوة، يقول: "وطالما تساءلت: كيف يحدث أن عدد كبيرا جدا من رجالنا يأوي إليهم باستمرار، ويتنكر للديانة المسيحية، وينضوي تحت لواء الشريعة الإسلامية.

وهنا قد يلوح أن الإسلام لم ينتشر بالقوة في أملاك سلطان تركيا، ومع أن ما اتصف به العابثون من عمال الأتراك في أيام انحلال الدولة من ظلم ونقص في روح العدل والإنصاف ربما دفع بعض المسيحيين إلى أن يحاولوا تحسين حالتهم بتغيير عقيدتهم، فإن أمثال هذه الحالات كانت نادرة في القرنين الأولين من العهد التركي في أوروبا، تلك الفترة التي ينسب إليها معظم حالات التحول إلى الإسلام، وكان يكون من الغريب حقا، لو أن الغيرة التي دفعت العثمانيين في ذلك الحين إلى هداية الناس واستمالتهم إلى الإسلام لم تحملهم قط على مجاورة حدود التسامح الذي رسمته قوانينهم الخاصة بهم، مع ذلك فقد قال الذين وقعوا في الأسر على مجاورة حدود التسامح الذي رسمته قوانينهم الخاصة بهم، ومع ذلك فقد قال الذين وقعوا في الأسر بينهم اثنين وعشرين عاما: إن الأتراك لم يرغموا أحد على ترك دينه»[1].

وذكر آخرون شواهد أخرى مماثلة، فقد زار أحد سادة الإنجليز تركيا في الشطر الأول من القرن السابع عشر وهو يحدثنا أن «من النادر أن تجد أي إكراه للنفوس وبالأحرى لا إكراه بالقتل، إذ لم تكن هناك فرصة تسمح بارتكاب أية جناية من هذا النوع[2]». وبعد ذلك بنحو ثلاثين عامًا (أي سنة ١٦٦٣) كتب مؤلف[3] كتاب Türcken Schrifft يقول: «وهو في أثناء ذلك (يعني التركي) يجذب (أي يحول الناس إلى الإسلام) بالحيلة أكثر مما يجذب بالعنف، وينتزع المسيح من قلوب الناس بالمكر والخداع. ذلك أن التركي في الحقيقة، في وقتنا الحاضر، لا يرغم بلدًا من البلاد على أن يكفر بالعنف والإكراه، ولكنه يستخدم وسائل أخرى يستأصل بها شأفة المسيحية من خفة ولطف. فما الذي جرى للمسيحيين إذن؟ إنهم لم يطردوا من البلاد، ولم يجبروا على اعتقاد دين الأتراك: حينئذ كان لا بد أن يصبحوا من تلقاء أنفسهم أتراكا».

(De Causis magnitudinis Tucarum Imperii, col, 1209) (Thesaurus Antiquitatum et Historiam Italie,m cura Jonnis Gergii Graevii, tom, I Lugduni Batavorum, 1725).

(١) **Turchicae Spurciae Suggillatio, fol, xvii.(a).**

(٢) **Blount, vol. i. p, 548.**

(٣) **Scheffler, § § 51, 53.**

وقد رأى الأتراك أن أعظم خير يستطيعون تقديمه لأي فرد هو أن يهدوه إلى دين الإسلام(١). وفي سبيل هذه الغاية لم يدعوا وسيلة للإغراء إلا فعلوها: يحدثنا رحالة هولندي، عاش في القرن السادس عشر أنه بينما كان يظهر إعجابه بمسجد أياصوفيا الكبير، حاول بعض الأتراك أن يؤثروا في عواطفه الدينية من طريق إحساسه بالجمال، فقالوا له: «إنك لو أصبحت مسلمًا لاستطعت أن تأتي هنا كل يوم من أيام حياتك». وبعد ذلك بقرن تقريبًا حدث لرحالة إنجليزي(٢) ما يشبه تلك الحادثة إذ قال: «وقد يسألون مسيحيًا بدافع من فيض حماستهم. في أدب جم، كما سألوني أنا نفسي عند مدخل مسجد أياصوفيا: لماذا لا تصبح مسلمًا فتكون كأحدنا؟» ومما يدل على الحب الروحي المتوقد الذي جعل هؤلاء القوم في مثل هذه المنزلة من الغيرة على نشر الدين، تلك الأفراح الشعبية التي يحيون فيها من دخلوا طوعًا من المسلمين الجدد في الإسلاك. فكان المسلم الجديد يمتطي حصانًا ويطاف به في طرقات المدينة، وهم في نشوة النصر. فإذا توسموا خلوص النية في تغيير دينه، وعرفوا أنه دخل بمحض إرادته في حظيرة الإسلام أو كان شخصًا ذا مكانة طيبة استقبلوه بتكريم عظيم، وأمدوه بما يعينه(٣).

ولا شك أنه كان هناك دليل قوي يؤيد قول من قال: «إن في نفوس الأتراك غيرة لا يكاد يصدقها العقل حين يبتهلون إلى الله أن يحول الناس إلى الإسلام، أو بعبارة أصح، أن يحول المسيحيين إلى ديانتهم المارقة: إنهم كل يوم يبتهلون إلى الله في مساجدهم مخلصين أن يؤمن المسيحيون بالقرآن، وأن يهتدوا على أيديهم، ولم يدعوا للتأثير وسيلة من وسائل الترهيب والترغيب، والعقاب والجزاء إلا فعلوها»(٤).

---

(١) Dousa, p. 38, Busbecq, p. 190.

(٢) Thomas Smith, p. 32.

(٣) Thomas Smith, p. 42. Blount, vol. i. p. 548. Georgieviz, p. 20. Schiltberger, p, 83-4. Baudier, pp. 149, 313.

(٤) Alexander Ross, p. ix. Baudier p. 317, cf. also Rycaut, vol. i. p. 276.

«ويعتقد المرء أن تحويل الإنسان إلى معلم فضل كبير، وليس ثمة شخص لديه من الغنى ما يمكنه من امتلاك عبد إلا ويريد أن يكون له عبد فتي، قادر على أن يتحمل كل ألوان المتاعب دون ألم، هذا الشخص الذي يستطيع أن يدعي

وإن حالات المجتمع المسيحي نفسه قد جعلت هذه الجهود التي تنطوي على الغيرة والحماسة الدينية في اكتساب مسلمين جدد أشد أثرًا وأعظم قيمة. ويعد تدهور الكنيسة الإغريقية في مقدمة هذه الحالات جميعًا. وإلى جانب طغيان الدولة البيزنطية في الشئون الزمنية، نشأ استبداد في الأمور الدينية جعل الحياة العقلية ترزح تحت عبء القرار الحاسم الذي حرّم كل مناقشة في شئون الأخلاق والدين. والشيء الوحيد الذي أقض مضاجعهم هو المجادلات العنيفة التي قامت حربًا عوانًا على الكنيسة اللاتينية مقرونة بكل ما في المناقشات النظرية والكراهة العنصرية من شدة ومرارة. وتدهورت ديانة الشعب فأصبحت تراعى المظاهر الخارجية مراعاة تقوم على كثير من الوهم والريبة. ووجدت حماسة عبادتهم البالغة متنفسًا في عبادة العذراء والقديسين والصور والمخالفات الأثرية؛ وانصرف عدد كبير عن كنيسة انحطت حياتها الروحية إلى الحضيض ولما ملوا مناقشات لا نهاية لها حول مسائل مذهبية عويصة، كالانبثاق المزدوج لروح القدس Double Procession of Holy Spirit وأخرى تافهة كاستخدام الخبز الخمير أو الفطير في القربان المقدس، تقبلوا بصدر رحب تعاليم الإسلام الواضحة المفهومة التي تقوم على الوحدانية. وقد انتهت إلينا أخبار[1] عن طوائف كبيرة من الناس تحولوا إلى الإسلام ولم يكونوا من بسطاء عامتهم فحسب، بل كانوا من العلماء على اختلاف طبقاتهم ومناصبهم وحالاتهم، وأخبار عن الطريقة التي أجرى بها الأتراك أرزاقًا أسخى على هؤلاء الرهبان والقساوسة الذين اعتنقوا الإسلام حتى يكونوا قدوة قد تدفع غيرهم إلى الدخول في الإسلام.

وبينما كانت أدرنة لا تزال العاصمة التركية (أي قبل سنة **١٤٥٣**) كان البلاط قد

أنه حوله إلى الإسلام حتى يستحق بذلك الشرف لكونه قد زاد في عدد المؤمنين». ويرى توماس سمث كيف كان الشيخ الذي أراه قبر أورخان في بروسه «يشخص ببصره إلى السماء، في حنان دافق، ويبتهل إلى الله أن يتعطف، فيحولها في زمنه أخيرًا إلى الديانة الإسلامية. وهذا من غير شك أعظم برهان على حبه إيانا الذي يتدفق من تلك الرغبة الزائفة التي تنطوي على جهل مطبق».

(Epistolae duae, quarum altera De Moribus ac Institutis Turcarum agit, p. 20.) (Oxonii, 1672.)

(1) وصلت إلينا هذه الأخبار من كتاب لم يعرف اسم مؤلفه الذي كان أسيرًا في تركيا من سنة **١٤٣٦** إلى سنة **١٤٥٨**.

Turchicae Spurcitiae Suggillatio, fol. Xvii. (a).

اكتظ بالذين دخلوا في الإسلام. ويقال إنهم كانوا يؤلفون السواد الأعظم من أصحاب الجاه والسلطان هناك[1]. وكثيرًا ما انحاز الأمراء البيزنطيون وغيرهم إلى صفوف المسلمين، ووجدوا منهم ترحيبًا كبيرًا: ومن أسبق أمثال هذه الحالات ما يرجع تاريخه إلى سنة ١١٤٠م عندما أسلم ابن أخي الإمبراطور جون كومنين John Comnenes وتزوج إحدى بنات مسعود سلطان قونية[2]. وبعد سقوط القسطنطينية أظهرت الطبقات العليا من المجتمع المسيحي من الاستعداد لاعتناق الإسلام ما يفوق بكثير استعداد جمهرة اليونان؛ فنجد من بين الداخلين في الإسلام عددًا كبيرًا ينتمون إلى بيت باليولوجوس الإمبراطوري، كما هجر العالم جورج أميروتزيس الطرابيزوتي G. Amiroutzes of Trebizond المسيحية في أعوامه الأخيرة، ودونت أسماء أخرى كثيرة من أمثال هؤلاء الأفراد[3]. ولم يطلب الجيل الجديد إلا قبول شهادته البسيطة: «لا إله إلا الله، مُحَمَّد رسول الله»؛ وقد كتب عنها الكاتب السالف الذكر[4] يقول: «إن الصعوبة كلها تتركز في هذه الشهادة الدينية لأنه إذا استطاع أي إنسان أن يقنع نفسه بأنه ممن يعبدون إلهًا واحدًا، فمن السهل أن تسري فيه سموم خطيئته تحت ستار الدين. هذه صخرة الإثم التي ارتطم عليها كثيرون وسقطوا في الحبائل التي جرت الهلاك علة نفوسهم، هذه هي حجر الطاحون الذي علق حول أعناق كثيرين فغاص بهم في هوة اليأس. ذلك أنه بينما كان هؤلاء الحمقى يستمتعون إلى الأتراك وهم يلعنون عبادة الأصنام، ويعبرون عن جزعهم من كل صورة أو تمثال كما لو كانت نار جهنم، ويدأبون على الاعتراف بعبادة الإله الواحد والدعوة إليها، لم يعد هناك في عقولهم

---

(١) Turchiċae Spurcitiae Suggillatio, fol. xi. (b).

ويتحدث ليوناردو أوف سكيو، رئيس أساقفة ميتيليني Mitylene الذي شهد سقوط القسطنطينية عن الجموع الكبيرة من المرتدين في الجيش المحاصر: «من الذي أحاط بالمدينة، ومن الذي علم الأتراك النظام، غير المسيحيين الأوغاد؟ إنني شاهد على أن الإغريق واللاتين والألمان والمجر، وكل نوع آخر من المسيحيين الذين اختلطوا بالترك تعلموا عملهم وعقيدتهم، والذين نصوا عقيدتهم المسيحية أخضعوا المدينة بالقوة. أيها الأوغاد الذين تنكرون المسيح، يا أتباع عدو المسيح المحكوم عليهم بعذاب الجحيم، هذه ساعتكم!» (Sansovino, p. 258.)

(٢) J. H. Krause: Die Byzantiner des Mittelalters, pp. 385-6. (Halle, 1869.)

(٣) Hertzberg, p, 616. Finlay, vol. v. p. 118.

(٤) Turchicae Spurcitiae Suggillatio, fol. xix. (a).

موطن للشك».

أصبح الدين الإسلامي في ذلك الحين الملجأ الطبيعي لأفراد الكنيسة الشرقية، هؤلاء الذين أحسوا بمثل هذا الحنين بعد أن عرفوا صورة من العقيدة أنقى وأبسط خلقتها الهرطقة البوليشية Poeulician heresy التي كانت قد قمعت في قسوة وعنف قبل ذلك ببضعة قرون. وقد كانت هذه الحركة إلى حد كبير احتجاجًا على تقاليد الكنيسة الأرثوذكسية وعلى عبادة الصور والمخلفات الأثرية المقدسة والقديسين كما كانت محاولة تتوخى بساطة العقيدة وحياة الورع والخشوع. وبينما كان بعض أتباع هذه البدعة يعيش في بلغاريا حتى وقت متأخر يرجع إلى القرن السابع عشر[١]، وجد الغزاة المسلمون من غير شك كثيرًا ممن كانوا عازفين عن تعاليم الكنيسة الإغريقية وتصرفاتها.

ولما كانت كل الظروف غير ملائمة لإنشاء كنيسة من أمثال تلك الكنائس التي ظهرت في الغرب، فلا شك أن هؤلاء الذين مرقوا من الدين قد وجدوا في الإسلام جوًا أكثر ملائمة لمبادئهم. وتحملنا الأسباب المختلفة على الظن بأن ما حدث كان نتيجة للمحاولة الخائبة التي قامت بجعل الكنيسة الإغريقية بروتستانتية في أوائل القرن السابع عشر. وكان كيرلوس لوكاريس Cyril Lucaris الذي اختير بطريقًا للقسطنطينية خمس مرات من سنة ١٦٢١ إلى ١٦٣٨ قوة هذه الحركة الدافعة. وكان قد زار جامعات وتنبرج وجنيف في شبابه لدراسة اللاهوت في مراكز التعليم البروتستانتي. وظل بعد عودته يراسل أساتذة الإصلاح الديني في جنيف وهولندا وإنجلترا، ولكن تعاليم الكنيسة الإنجليزية ومبادئ لوثر لم تصادف رغبة صادقة في نفسه بقدر ما صادفته تعاليم جون كلفن John Calvin[٢] التي جاهد في إدخالها إلى الكنيسة الإغريقية. وقد أيد جهوده في هذه السبيل تأييدًا حارًا، هؤلاء الذين انتحلوا مذهب كلفن في جنيف بأن أرسلوا شابًا عالمًا في اللاهوت، يقال له ليجر Leger ليؤازر الحركة بترجمة كتابات اللاهوتيين من أتباع

(١) Rycaut, vol. i. pp. 710-11. Bizzi, fol. 49. (b).

(٢) Pichler, pp. 164, 172.

كلفن إلى اللغة اليونانية[1]، كما وجد كيرلوس أعوانًا متحمسين في سفراء البروتستانت في القسطنطينية، ولا سيما سفراء الهولنديين والإنجليز الذين أمدوه بالأموال في سخاء.

ومن جهة أخرى فإن اليسوعيين الذين أيدهم سفراء الكاثوليك قد جهدوا بكل الطرق أن يحبطوا محاولة تحويل الكنيسة الإغريقية كلفنية، ونشطوا في تأييد المؤامرات التي دبرها حزب المعارضة من رجال الكنيسة الإغريقية الذين تآمروا آخر الأمر على قتل البطريق. وفي ١٦٢٩ نشر كيرلوس قانون إيمان **A Confession of faith**. ويظهر أن الغرض الأساسي الذي وضع هذا القانون من أجله هو التعبير عن مذاهب الكنيسة الأرثوذكسية تعبيرًا يخالف الكاثوليكية الرومانية بصورة تجعله منطويًا على اتفاق جوهري مع التعاليم البروتستانتية[2].

وهو يستعير من كلفن مذاهب القضاء والقدر، والخلاص بالإيمان وحده، وينكر عصمة الكنيسة من الخطيئة، ويرفض سلطة الكنيسة في تفسير الكتب المقدسة، وينكر عبادة التماثيل. وهو في وصفه للمشيئة ولمسائل أخرى كثيرة، أميل إلى مذهب كلفن منه إلى تعاليم الكنيسة الأرثوذكسية[3]، وقد أدى نشر قانون الإيمان من حيث إنه يمثل تعاليم الكنيسة كلها التي كان كيرلوس رئيسها الروحي إلى إثارة معارضة عنيفة بين جمهرة رجال الكنيسة الإغريقية. ولم تمض على وفاة كيرلوس أسابيع قليلة حتى انعقد مجمع لرفض آرائه والحكم عليه بالحرمان.

وفي سنة ١٦٤٢ انعقد في القسطنطينية مجمع آخر لنفس الغرض أخذ في تفنيد كل مقالة من قانون كيرلوس بالتفصيل كما صنع المجمع الأول وانتهى من ذلك بأن أعلن لعنته عليه وعلى أتباعه: «نحكم على هذا القانون كله بإجماع الآراء وبعبارات لا هوادة فيها بأنه حافل بمسائل الإلحاد، ومتعارض مع حقيقة ديننا تعارضًا تامًا؛ ونعلن كذلك أن واضعه لا

---

(1) **Pichler p. 143.**

(2) **Id. p. 148.** على أنه يشك في أن كيرلوس كان حقيقة هو الذي وضع هذه الوثيقة التي تحمل اسمه. **(Kyriakos, p. 100.)**

(3) **Id. pp. 183-9.**

يمت إلى عقيدتنا بصلة، ولكنه نسب إلينا مذهبه الكلفني زورًا وبهتانًا. وكل من يقرؤونه ويحفظونه وهم يعتقدون أنه حق بريء، ويدافعون عنه بالكتابة أو الحديث، فإننا نخرجهم من جماعة المؤمنين باعتبارهم أتباعًا له، ومشايعين لزندقته، ومفسدين للكنيسة المسيحية، ونأمر أن يعاملوا مهما كانت مكانتهم ومراكزهم الكفار والفسقة. ولتكن اللعنة عليهم إلى الأبد، ولينفصلوا عن الأب والابن والروح القدس في هذا العالم وفي العالم الآتي، محرومين منبوذين، ضالين بعد الموت، وليلازمهم العذاب الأزلي[١]".

وفي سنة ١٦٧٢، انعقد مجمع ثالث في بيت المقدس لتفنيد المقالات الإلحادية التي وردت في قانون الإيمان، والدفاع عن عقيدة الكنيسة الإغريقية الصحيحة ردًا على هؤلاء الذين يظهرونها ملوثة بمذهب كلفن. وبذلك أخفقت محاولة جعل الكنيسة الإغريقية بروتستانتية المذهب كل الإخفاق. فقد كانت مبادئ كلفن تتعارض مع تعاليمها تعارضًا تامًا. وفي الحق أنها قررت في الأذهان كثيرًا من العقائد الدينية التي كانت أكثر تمشيًا مع آراء رجال الكنيسة الأرثوذكسية والتي كثيرًا ما هاجمتها هذه الكنيسة في مجادلاتها مع أعدائها المسلمين.

وكان هذا التقارب إلى فكرة الإسلام قد بوأ هذه الحركة التي تتطلع إلى مذهب كلفن مكانًا في تاريخ انتشار الإسلام: فإن رجلا سب عبادة التماثيل، وذم سلطة الكهنوت ونظامه في الصميم، وتمسك بمبادئ القول المطلق بالقضاء والقدر، وأنكر الحرية بالنسبة إلى الإرادة الإنسانية، وما الروح الصارمة التي يتميز بها مذهب كلفن والتي كانت تتجاوب مع التوراة أكثر منها مع الإنجيل، ليجد حقًا في الإسلام جوًا أكثر ملاءمة مما نجده في الكنيسة الإغريقية في القرن السابع عشر. وقد يكون هناك قليل من الشك في أنه كان من بين أفواج الذين دخلوا في الإسلام في خلال هذا القرن فريق قد انفصل عن كنيسة آبائهم من جراء ممالأتهم لمذهب كلفن[٢] وليس لدينا معلومات واضحة تتعلق

---

(١) Pichler p. 226.

(٢) أما فيما يتعلق بأسرى المسيحيين، فقد اشتهر البروتستانت بلا شك بين الأتراك بأنهم يظهرون ميلا إلى الدخول في الإسلام أكبر مما يظهره الكاثوليك. (Gmelin, p. 21.)

بعدد أتباع كيرولس لو كاريس ومدى تأثيرات هذا المذهب في الكنيسة الإغريقية؛ ولما كان رجال الكنيسة ذوي غيرة على سمعة كنيستهم التي اعتز أبناؤها بالدفاع عن سلامة عقيدتها، وعصمتها من الهرطقة، فإنهم رغبوا في أن يصوروا البطريق الملحد بأنه لا يمثل إلا آراءه، وذلك حين رأوا أن هذه الكنيسة قد جرّحت بسبب اتهامها بمذهب كلفن[١]، ولكن لا شك أن كان له أتباع: فقد صادف قانون الإيمان الذي نشره قبولًا في مجمع تألف من أتباعه[٢].

وأعلن حرمان أولئك الذين مالئوا هرطقته بقرار من مجمع القسطنطينية الثاني سنة ١٦٤٢، ومن مجمع بيت المقدس سنة ١٦٧٢[٣]، ولا شك أن هذا التكرار كان يكون بلا معنى لو أن أحدًا من هؤلاء الأتباع لم يكن له وجود؛ زد على ذلك أنه قد وصلت إلينا أسماء نفر قليل من هؤلاء الأتباع منهم سوفرونيوس **Sophronius**، مطر أن أثينا الذي كان من المؤيدين المتحمسين لحركة الإصلاح[٤]؛ وراهب يقال له نيكوديموس ميتاراس **Nicodemus Metaras** وكان قد استحضر مطبعة من لندن ونشر رسائل خارجة على مذهب الكنيسة، كان قد كافاه كيرلوس بكرسي المطرانية كفاء خدماته[٥]؛ والفيلسوف كورايداليوس **Corydaleus** أحد أصدقاء كيرلوس، وقد فتح مدرسة كلفنية المذهب في القسطنطينية، ورجل آخر من الإغريق يدعى جرجانوس نشر مذهبًا في التعليم المسيحي، في أسلوب الحوار، تمهيد لبث تعاليم كلفن بين مواطنيه[٦]؛ ونيوفيتوس الثاني **Neophytus**، الذي عين بطريقا في سنة ١٦٣٦ في الوقت الذي كان فيه كيرلوس منفقا في جزيرة رودس، وكان تلميذه وابنا متبنّى له؛ وقد استدعى معلمه من منفاه وتخلى له عن

---

(١) **Pichler pp. 211, 227.**

(٢) **Id. pp. 181, 228.**

(٣) **Id. pp. 222. 226.**

(٤) **Id. p. 173.**

(٥) **Id. pp. 128, 132, 143.**

(٦) **Pichler p. 143.**

كرسي البطركية[1].

وكتب كيرلوس إلى جامعة جنيف خطايا (بتاريخ يوليه ١٦٣٦) قال فيه إن ليجر كان قد فاز بعدد كبير من الداخلين في مذهب كلفن عن طريق كتاباته وتبشيره[2]؛ ووصف في خطاب آخر بعث به إلى ليجر كيف جعل أهالي كنديا **Candia** يحسون بما أحدثه من تأثير[3]. وقد نفى خلفه[4] على كرسي البطركية إلى قرطاجنة، وهناك شنقه أشياع لوكاريس سنة ١٦٣٩[5]. وقد قيل إن أصحاب كلفن علقوا الآمال على تعيين بارتنيوس الأول **Parthenius 1** (وهو خليفة كيرلوس الثاني)؛ ولكن نهايته المفاجئة (سواء أكان موته بتجرع السم أو من جراء نفيه؛ وهذه مسألة يكتنفها الشك) قد خيبت آمالهم[6]. وكات بارتنيوس الثاني بطريق القسطنطينية من سنة ١٦٤٤– ١٦٤٦ من أنصار مذهب كلفن المخلصين. وبالرغم من أنه لم يجسر على أن يجهر بتعليم مبادئ كلفن، إلا أن ما عُرف عنه من ممالأته لهم قد أدى إلى عزله، وإرساله إلى المنفى وشنقه[7].

وعلى ذلك نرى أن تأثير مذهب كلفن كان من غير شك أكثر انتشارًا مما كان يريد أعداء كيرلوس لوكاريس أن يقرروا. وكما قلنا آنفا، كان أولئك الذين أبوا أن يسلموا بقرارات الحرمان التي قضت بها المجامع على زعيمهم، أكثر ائتلافا من غير شك مع جيرانهم المسلمين منهم مع رجال الكنيسة الأرثوذكسية الذين أقصوهم عن بيئتهم. وفي الحق أنه ليس لدينا شواهد قاطعة تدلنا على ما كان لهذا المذهب في تركيا من مؤثرات يسرت إدخال الناس في الإسلام[8]. ولكن مع انعدام أي تفسير آخر في هذا الصدد،

---

(١) **Le Quien, tom. i. col. 334.**

(٢) **Pichler, p. 172.**

(٣) **Hefele, vol. i. p. 473.**

(٤) وهو **Cyril II. Of Berrhoea.**

(٥) **Le Quien, tom. i. col. 335.**

(٦) **Id. tom. i. col. 336.**

(٧) **Id. tom. i. col. 337.**

(٨) على أنه حدث في محاولة سابقة قام بها علماء المذهب البرتستانتي في ثوبنجن (١٥٧٣) لإدخال تعاليم كنيسة الإصلاح الجديدة في الكنيسة الشرقية، أن اعتنق أحد علماء سامتخيث المسيحيين في جورجيا **The Vaivode**

يظهر حقًا أن من الفروض التي يقرها العقل أن مثل هذه الأحوال كانت من بين العوامل التي زادت زيادة هائلة في عدد المرتدين عن المسيحية من الإغريق في أواسط القرن السابع عشر، وهو وقت قيل فيه إن عدد المرتدين عن المسيحية من الطبقات المتوسطة والمنحطة في المجتمع كان أكبر منه في أي وقت مضى(١).

وقد تواتر ذكر حالات الارتداد عن المسيحية من بين رجال الكنيسة، بل من بين أعظم رؤساء الكنيسة شأنًا وأسماهم مقامًا، كالذي يروى عن أحد مطارنة رودس السابقين(٢).

وقد قيل إن فريقا من الأهالي المسيحيين في كورنثة كانوا في سنة ١٦٧٦ يدخلون كل يوم في دين الأتراك، وإن ثلاثة من القسس قد أصبحوا مسلمين قبل ذلك بعام(٣). وفي سنة ١٦٧٩ سُجلت وفاة أحد الرهبان المرتدين(٤). وفي مناسبة ختان مصطفى ابن السلطان محمود الرابع سنة ١٦٧٥، دخل في الإسلام عدد لا يقل عن مائتي شخص في غضون ثلاثة عشر يومًا من الأفراح الشعبية(٥) وقد نجد أمثلة أخرى كثيرة في الكتابات التي ترجع إلى هذا العهد.

Joselian, p.) ١٥٨٠ قانون اعتراف أوجسبرج، ولكنه دخل في الإسلام سنة (Samtskheth) Quarquar of .(140

(١) Scheffler, § 53-6. Finlay, vol. v. pp. 118-19.

(٢) Hammer (1), vol. vi p. 94.

(٣) Spon, vol. ii. p. 57.

(٤) Hammer (1'), vol. vi. P. 364.

(٥) Early Voyages and Travels in the Levant, edited by J. Theodore Bent, p. 210 (London, 1893). ونظير ذلك ما يختم به ميشل بوديير Michel Baudier وصفه للمهرجانات في القسطنطينية التي أقيمت بمناسبة ختان محمد الثالث في النصف الأخير من القرن السادس عشر مقرونًا بوصف دخول عدد كبير من المسيحيين في الإسلام: «وفي أثناء شهود هذا الاحتفال المهيب، هرع الإغريق التاعسون إلى هذا المكان ليدخلوا في الإسلام أفواجًا، وقد هجر بعضهم المسيحية تخلصًا من ظلم الأتراك، وبعضهم هجرها أملًا في منفعة خاصة، وقد وجد أن عدد هؤلاء المنبوذين قد تجاوز أربعة آلاف نفس»

The History of the Serrail, and of the Court of the Grand Seigneur Empereur of the Turkes, pp. 93-4. (London, 1635.) Histoire generale du Serrail, et de la Cour du Grand Seigneur, Empereur des Turcs, pp. 89-90. (Faris, 1631.)]

وفي سنة ١٦٦٣ أجاد مؤلف معاصر في وصف الاتجاه العقلي الذي اتصف به أمثال هؤلاء الذين دخلوا في الإسلام: «عند ما تخالطون الأتراك في مجرى حياتهم العادية، تراهم يقيمون الصلاة، ويرتلون حتى مزامير داود، ويمنحون الصدقات ويفعلون غير ذلك من أعمال الخير، ويعتقدون في المسيح اعتقادًا ساميًا، ويتناولون التوراة في شرف عظيم إلى غير ذلك؛ هذا فضلًا عن أنه كان يمكن أن يصير أي جاهل، خوري كنيسة إذا سعى إلى الباشا التركي بالهدايا؛ ولن يحضكم هذا الخوري كثيرًا على المسيحية. حينئذ سوف تنتهون إلى التفكير في أنهم قوم صالحون، وأن من الممكن جدًا أن يدركهم الخلاص؛ وسوف تنتهون إلى الاعتقاد بأن من الممكن أن يدرككم الخلاص كذلك إذا ما صرتم مثلهم أتراكا مسلمين. بذلك سوف يمّحي من أذهانكم في سهولة ويسر سر الثالوث المقدس، وابن الله المصلوب، وسائر أسرار الدين الكثيرة التي يلوح أنها غير معقولة بصورة ما في نظر الشخص الأمي، وإذا بروح المسيحية تموت في نفوسكم من حيث لا تشعرون؛ وإذا بكم ترون أنه سواء عليكم أن تدينوا بالمسيحية أو بالإسلام[١]».

ويتحدث توماس سمث الذي كان في القسطنطينية سنة ١٦٦٩ عن عدد الداخلين في الإسلام من المسيحيين حوالي هذا الفترة، ولكنه ينسب إليهم بواعث أكثر خسة: «من المحزن أن نحصي هذا العدد الضخم من القوم الناعسين الذين انقلبوا أتراكًا؛ فأسلم فريق بدافع اليأس البالغ، وقد عجزوا عن احتمال عبء العبودية وتجنب سفاهات الكفارة وإهاناتهم؛ وأسلم فريق آخر نتيجة مهزلة سقيمة هوجاء ليتبوؤوا مكانة يملكون بها ناصية الحكم، وينزلون الإهانة بغيرهم من الناس، وأسلم فريق آخر تخلصًا من ألوان العقاب والبلاء جزاءً بما ارتكبوه من جرائم، ولكي ينعموا بالحريات التي تنطوي على الوحشية والتي قدسها مُحَمَّد باعتباره مثلًا قد اقتدى به أتباعه.

هذه هي البواعث والأسباب المهمة المغرية التي دفعتهم إلى هذا الارتداد، وما هي إلا دوافع تنشد الراحة واللذة والرخاء بل تنشد العبث والآثام؛ ذلك أنه لا يمكن أن

(١) Scheffler, § 55.

نتصور أن يُغرَى أحد من الناس عن طريق الإقناع العقلي باعتناق هذه العقيدة التركية وأباطيلها[1]». ولا نجد بعد هذه الفترة إلا النزر اليسير مما سجله التاريخ عن الداخلين في الإسلام؛ ولكن مترايه **Motraye** يورد ذكر كثير من المرتدين الذين انتقلوا إلى الإسلام في القسطنطينية سنة ١٧٠٣؛ وكان من بين هؤلاء قسيس فرنسي، وفريق آخر من الفرنسيين الكاثوليك، وبعض قساوسة من أزمير[2].

وهناك ظاهرة أخرى في حالة الكنيسة الإغريقية، ساهمت في تضاؤل عددها، تلك هي فساد رعاتها وانحطاط حالتهم، ولا سيما الطبقة العليا من رجال هذه الكنيسة. وعرضت مقرات الأساقفة ورؤساء الأساقفة للبيع بالمزاد بأغلى الأثمان، وسعى المشترون إلى تعويض خسائرهم باغتصاب ضرائب من كل نوع من رعاياهم، فبهظوا المسيحيين المساكين بالضرائب العادية وغير العادية، وجعلوهم يشترون كل الأسرار المقدسة بأسعار باهظة، وهي التعميد، والاعتراف، وقداس العشاء الرباني، وحالات الغفران، وحق الدفن المسيحي. بل عقد فريق من رجال الكنيسة تحالفا غير شريف مع الإنكشارية، فكانت أسماء كثير من الأساقفة وأسماء أسراتهم مدونة في سجل إحدى الأرط أو الكتائب الإنكشارية ليضمنوا على الوجه الأكمل حصانة من طغيانهم، وليتخلصوا من معاقبتهم على ما ارتكبوا من جرائم في ظل حماية هذه الشرذمة التي كان قد أتاح لها ضعف الحكام العثمانيين أن تتبوأ مثل هذا المركز القوي في الدولة[3].

وإن الشواهد التي أثبتها شهود عيان من المعاصرين عن المسلك الجائر الذي ظهر به رجال الكنيسة الإغريقية، لتقدم لنا صورة مخفية عن آلام المسيحيين، فقد كتب تورنفورت **Tournefort** في سنة ١٧٠٠م بعد أن وصف انتخاب بطريق جديد فقال: «لا داعي مطلقًا للشك في أن البطريق الجديد لن يفعل خيرًا في عهده، فقد نتج الظلم عن بيع الوظائف الكنسية: وكان أول شيء عمله أن عرّف حاشية السلطان بجميع رؤساء

---

(١) **Thomas Smith: An Account of the Greek Church, pp.- 15-16. (London 1680.)**

(٢) **A. de la Motraye: Voyages en Europe, Asie et Afrique, vol. j. pp. 306, 308. (La Haye, 1727.)**

(٣) **Pitzipios, Seconde Partie, pp. 83-7. Pichler, p. 29.**

أساقفة رجال الكنيسة وأساقفتهم. وكان أعظم ما عني بدراسته هو معرفة موارد كل رئيس من رؤساء الكنيسة على وجه التحقيق؛ ففرض ضريبة عليهم، وأردف ذلك بخطاب إلى كل منهم يشدد فيه النكير عليهم بإرسال المبالغ المستحقة، وإلا حكم على أبرشياتهم ببيعها في المزاد بأبهظ الأثمان.

ولما كان رؤساء الكنيسة قد تعودوا هذه الحرفة لم يبقوا قط على أحد من مساعديهم؛ وهؤلاء المساعدون كانوا يعذبون الآباء، والآباء يجردون أبناء رعية الخوري من أموالهم. وقلما كانوا يرشون أقل نقطة من الماء المقدس إلا إذا تقاضوا ثمنها مقدمًا. فإذا ما احتاج البطريق بعدئذ إلى مال احتال لجمعه بالبيع للأتراك في المزاد بأبهظ الأثمان؛ ومن أدى ثمنا أغلى، ذهب إلى بلاد اليونان يطالب رؤساء الكنائس بحقه أمام القضاء. وكان التركي عادة يغتصب اثنين وعشرين ريالًا عن كل عشرين ألفًا مما يفرض على رجال الكنيسة، حتى لقد يحصل أحيانًا على ألفي ريال كفاء ما يبذله من جهود. هذا فضلًا عما يعهد إليه من أعمال في كل أبرشية، وبمقتضى الاتفاق الذي كان عليه أن يبرمه مع البطريق، كان من حقه أن يحرم أو يمنع رؤساء الكنائس الذين يرفضون أداء ضريبتهم من المناصب الدينية كلها[1]». بل قيل إنه حتى رجال الكنيسة المسيحية كانوا يحملون أبناء رعية الخوري ويبيعونهم بيع الرقيق، ليحصلوا على المال اللازم لشراء الوظائف الكنيسة[2].

وقد وجدت ألوان الإرهاق التي وقعت في القرن السابع عشر نظيرًا لها في القرن التاسع عشر؛ فكانت متاعب المسيحيين التابعين للكنيسة الإغريقية في البوسنة قبل الاحتلال النمساوي، تفسر لنا تمامًا كلمات تورنفورت. فقد تعود مطران سيراجيفو Serajevo أن يغتصب ما مقداره عشرة آلاف من الجنيهات كل عام من رعاياه المساكين، وهو مبلغ يساوي تمامًا ضعفي راتب الوالي التركي نفسه؛ ولكي يرفع هذا المبلغ الضخم

---

(1) Tournefort, vol. i. p. 107.

وكثيرًا ما استخدم سبون Spon نفس هذه اللهجة في جـ١ ص٥٦.

(2) Gaultier de Leslie, p. 137.

كان يبتز أموال أبناء رعية الخوري التاعسين بكل وسيلة ممكنة، وصدرت الأوامر للسلطات التركية بمساعدة رجال الكنيسة في جباية ضرائبهم، وتحملت القرى المسيحية بأسرها نصيب المدن التي ابتزت أموالها في حالة رفضها أو عجزها غالبًا عن مجاراة رؤساء الكنائس المسيحيين في مطالبهم الباهظة[١]. وطالما أثار مثل هذا الجور الفادح في نفوس الزعماء الروحانيين الذين كان ينبغي أن يحموا الأهالي المسيحيين روح التمرد كلما سنحت لهم الفرصة[٢]. فليس بغريب حينئذ أن نعرف أن كثيرًا من المسيحيين دخلوا في الإسلام لكي يتخلصوا من مثل ذلك الظلم[٣].

وقد قيل إن ظلما كنسيا من نوع آخر أشد وطأة، كان سببًا في تحول أسلاف جماعة قليلة إلى الإسلام يبلغ عددها حول ٤٠٠٠ من جنوبي رومانيا من منطقة **Noanta** في إقليم مجلن **Meglen** التابعة لولاية سلونيكا، وهم يروون أن بطريق القسطنطينية في القرن الثامن عشر أقنع السلطان الحاكم وقتئذ بأن المسيحيين الذين يتكلمون اليونانية، هم وحدهم الذين يمكن أن يكونوا رعايا مخلصين للدولة العثمانية. عند ذلك حرم السلطان على المسيحيين ألا يتكلموا غير اليونانية، وأنذرهم بقطع ألسنتهم إن لم يفعلوا. فلما بلغ ذلك أهل نُوانتا هرب جانب من السكان إلى الغابات، وأسسوا فيها قرى جديدة؛ أما الذين بقوا منهم فقد اعتنقوا الإسلام، وعلى رأسهم أسقفهم، حتى يبقوا بذلك على لغتهم الأصلية[٤].

---

(١) **A. J. Evans, 267.** ونظير ذلك ما يقوله ماكنزي وإربي: «في معظم جهات الصرب القديمة كانت الفكرة التي وجدناها منسوبة إلى أحد الأساقفة، عبارة تتعلق بشخص انتزع تلك الفلوس القليلة التي كان الأتراك قد خلفوها» (**P. 258.**) وأورد أحد الكتاب وصفًا آخر لرجال الكنيسة الإغريقية في (**Tome 97, P. 336**) **Revue des Deux Mondes** إذ قص لنا القصة التالية: «في مستهل هذا القرن، في تيرنوفا، تلقى أحد البانوات ذات يوم، ويدعى يواقيم، وكان محبوبًا من رعيته، مكروها من أسقفه، أمرًا بعرض ضريبة على الروث في الإسطبل الكنسي، ولكنه لم يقبل: عندئذ انهال عليه الخدم ضربًا بفرشاة كبيرة ذات أصابع. ولكن صاحبنا كان قويًا: فناهضهم، وفزع إلى القاضي بعد أن ترك ثوبه رهينة. ولم تغرب الشمس عليه حتى كان مسلمًا صالحًا»

(٢) **Pitzipios, Seconde Partie, p. 87.**

(٣) **Id. Seconde Partie, p. 87. Pichler, p. 29.**

(٤) **Lazâr, p. 223.**

وعلى الرغم من أن جهرة رجال الأبرشية كانوا أبرياء من التهم التي وجهها سادتهم إليهم[1]، كانوا لا يزالون أميين وعلى درجة كبيرة من الجهل، وقد قيل في نهاية القرن السابع عشر إن من العسير أن نجد إثنى عشر شخصًا في جميع الممتلكات التركية يجيدون اللغة اليونانية القديمة إجادة تامة؛ وكانت القدرة على القراءة من المزايا الكبرى في نظر رجال الكنيسة، على حين كان هؤلاء الأشخاص على جهل تام بمعاني الألفاظ التي وردت في كتب الصلوات[2].

وبينما كان في المجتمع المسيحي في ذلك الحين ما يدعو إلى الصد والنفور كان في أخلاق الأتراك وحياتهم ما يبعث على التقريب والاجتذاب. وكان تفوق العثمانيين في عصورهم الأولى، إذا ما قورن بانحطاط زعماء الكنيسة المسيحية ومعلميها، لا بد أن يؤثر بطبيعة الحال في العقول الزاهدة التي سئمت الأطماع المنبعثة من الأنانية، وبيع الوظائف الكنسية، وفساد أفراد الكنيسة الإغريقية. وطالما أثنى الكتاب المسيحيون على غيرة هؤلاء الأتراك وصلابتهم في حياتهم الدينية، وحماستهم في أداء طقوسهم التي رسمها لهم دينهم، ومظهر الحشمة والتواضع البادي في زيهم وأسلوب معيشتهم، وعدم التباهي والادعاء، وبساطة الحياة التي تلاحظ حتى في العظماء أو الأقوياء منهم[3].

ويثني مؤرخ السفارة التي أرسلها الإمبراطور ليوبولد الأول إلى الباب العالي من سنة ١٦٦٥– ١٦٦٦ ثناءً خاصًا على تعبد الأتراك وانتظامهم في الصلاة، بل يذهب بعيدًا فيقول: «يجب أن نتكلم عن فوضى المسيحيين. إن الأتراك يدلون على كثير من العناية والغيرة في أداء شعائرهم الدينية، أما المسيحيون فلم يظهروا شيئًا من ذلك في دينهم، بل أكثر من ذاك كله أننا قد عرفنا بالتجربة المتدين بين المسيحيين ذلك الذي لا تراه، في أثناء الصلاة، لاهيًا بعينيه: لا ترى في أثنائها شخصًا غير متعلق بموضوع صلاته، ولا

(1) Finlay, vol. iv. pp. 153-4.

(2) Tournefort, vol. i. p. 104. Cf. Pichler, pp. 29,31. Spon, vol. i. p. 44.

(3) Turchicae Spurcitiae Suggillatio, fol. xiii. (b); fol. xv. (b); fol. xvii. (b); fol. xx. (a). Veniero, pp. 32,36. Busbecq, p. 174.

شخصًا لا يبدو بين يدي خالقه في مظهر التبجيل الظاهري الذي يتطلبه من المخلوق»[١].

حتى الأخلاق في الجندية تلقى حظها من الثناء، فقد أخبرنا كاتب البعثة التي أرسلها شارل الثاني إلى السلطان أن سكان البلاد، في أثناء مسير جيش من الجيوش، لم يظهروا أية شكوى من أنهم خسروا شيئًا أو أن نساءهم قد تعرضن لسوء المعاملة. كل الحانات الممتدة على خط سير الجنود قد أغلقت وختمت بالشمع قبل وصول الجيش بيومين أو ثلاثة، ولم يسمح ببيع النبيذ للجنود، وإلا عرضوا أنفسهم لعقوبة الموت[٢].

وكثيرًا ما قدم الكتاب المسيحيون الذين لا يكنون للعثمانيين محبة ولا ودا، تقدمة المدح والثناء على فضائل الأتراك؛ فمن أولئك كاتب كان له رأي سيء في عقيدتهم[٣] [†]، يتحدث عنهم بقوله: «حتى بين توافه القرآن نجد بعض جواهر من الفضائل المسيحية؛ وفي الحق لو قرأ المسيحيون باهتمام شريعة المسلمين وتاريخهم وتدبروها، لاستولى عليهم الحياء حين يشاهدون إلى أي حد هؤلاء المسلمون ذوو غيرة على عبادتهم وتقواهم وتصدقهم؛ وإلى أي حد هم متفانون في إخلاصهم، قانتون في مساجدهم؛ وإلى أي حد هم مطيعون لرئيسهم الروحي، حتى إن التركي العظيم نفسه لا يحاول أمرًا إلا بعد مشورة المفتي؛ وإلى أي حد هم مهتمون بمراعاة أوقات الصلوات الخمس في كل يوم حيث وجدوا وأيا كانت مشاغلهم؟ ما أشد مراعاتهم دائمًا لصومهم من الصباح حتى المساء طول أيام الشهر بلا انقطاع؛ وما أكثر تواد المسلمين وتراحمهم؛ وما أعظم ما يُرى من عنايتهم بالغرباء في نُزُلهم، سواء بالفقير أو النازح المسافر؛ لو تأملنا عدالتهم ونزاهتهم وسائر فضائلهم الخلقية لخجلنا من جمودنا سواء في عبادتنا أو في تراحمنا، ومن جورنا وإفراطنا وتعسفنا، فلا ريب أن هؤلاء الناس سيقيمون الحجة علينا؛ ولا شك أن عبادتهم وتقواهم

---

(١) Gaultier de Leslie, pp. 180,182.

(٢) Rycaut, vol. i. p. 689. See also Georgieviz, pp. 53-4. and Menavino, p. 73.

(٣) Alexander Ross, p. ix.

(†) ذكر المؤلف أمثلة من التهم التي رمى بها إسكندر روس القرآن الكريم وهي تهم باطلة أضربنا عن ذكرها.

وأعمال الرحمة فيهم، هي الأسباب الرئيسة لنمو الدعوة المحمدية»[1].

وقد وصل مؤرخ حديث إلى مثل هذه النتيجة حين قال: «نجد كثيرين من الإغريق من ذوي المواهب العالية والميزات الخلقية قد بلغ من تأثرهم بتفوق المسلمين، أنهم حتى عندما كانوا يتجنبون الاندماج في خدمة السلطان بأداء ضريبة الأبناء، كانوا يدخلون في دين مُحَمَّد بمحض إرادتهم. ولا بد أنه كان لتفوق المجتمع التركي من الناحية الخلقية شأن كبير في هذا التحول إلى الإسلام الذي كان كثير الوقوع في القرن الخامس عشر بقدر ما كان للطموح الشخصي للأفراد من أثر في هذه السبيل».

وإن جيلا قد راقب انحلال السلطان التركي في أوربا والتناقص المطرد في ممتلكاته، وتعود أن يسمع قول من يتحدثون عنه بأنه (الرجل المريض)، الذي يصير إلى الفناء العاجل، ليجد من العسير أن يدرك تلك المشاعر التي بعثتها الدولة العثمانية في أيام نهضتها الأولى في أوربا. فإن نجاح الأسلحة التركية بهذه الصورة السريعة النطاق قد ملأ عقول الناس فزعا ودهشا؛ فقد سقطت الممالك المسيحية، الواحدة تلو الأخرى، في أيديهم: فبلغاريا والصرب والبوسنة والمجر كلها قد تخلت عن استقلالها باعتبارها ولايات مسيحية. وشاهدت جمهورية البندقية الشامخة ممتلكاتها تغتصب من يدها الواحدة تلو الأخرى، حتى أصبح أسد سان مارك وحده يسيطر على سواحل بحر الأدرياتي. حتى رومة (المدينة الخالدة) نفسها قد استهدفت للخطر بتسليم أوترنتو **Otranto**.

وإن الآداب المسيحية، في النصف الأخير من القرنين الخامس عشر والسادس عشر، حافلة بالأخبار المفزعة التي تتعلق بالمصير الذي كان يهدد أوربا المسيحية لولا توقف تقدم الأتراك الناجح، وتمثل التركي في نظرهم سوطا في يد الله قد صبه على شعبه معاقبة له على كفره وخطيئته[2]؛ أو هو من جهة أخرى، القوة الشيطانية المتخاذلة التي تعمل على هدم المسيحية تحت ستار من الدين يقوم على الرياء.

---

(١) **Finlay, Vol, v. p. 29.**

(٢) **Schiltberger, p. 96.**

ولكن أهم ما نلاحظه هنا، أن بعض الناس بدأ يسأل: «هل من الجائز أن يأذن الله للمسلمين بأن يبلغوا ما بلغوه من هذا العدد الذي لا يدخل تحت حصر بدون سبب معقول؟ هل من المتصور أن مثل هذه الآلاف المؤلفة تتعرض للهلاك الأبدي كما يتعرض الرجل الواحد؟ كيف يمكن أن يكون أمثال هذه الجماهير الزاخرة مناوئين للدين الحق؟ إنه إذا كان الحق أقوى من الباطل، وكان الناس جميعًا يحبون الحق ويرغبون فيه أكثر مما يحبون الباطل، فليس من المحتمل أن تجمع أقوام كثيرة كهؤلاء على محاربته. كيف استطاعوا أن يقووا على الحق ما دام الله يعين على الحق ويؤيده؟ كيف استطاع دينهم أن ينتشر بهذه الصورة العجيبة لو أنه قام على أساس فاسد من الباطل[1]»؟

فأمثال هذه الأفكار، كما تخبرنا الروايات، قد أغرت الشعوب المسيحية التي عاشت في ظل الحكم التركي إغراءً قويًا، كما أغرت بنوع خاص، هؤلاء الأسرى المسيحيين البائسين الذين راقبوا الأعوام تمر متثاقلة دون أمل في التخلص أو راحة من الشقاء الذي هم فيه. فهل يمكن أن يستولي علينا الدهش حين نجد مثل هذا الرجل يسأل؟ «لا شك لو أن الله كان راضيًا بالدين الذي تشبثتم به لما هجركم على هذا النحو، ولساعدكم لتحصلوا على الحرية ولتعودوا إليها مرة أخرى. أما وقد أغلق الله منافذ الحرية دونكم، فربما قضت مشيئة الله أن تتخلوا عنها، وأن تقترنوا بتلك الطائفة، وأن يكون خلاصكم على يديها»[2].

وإن العبد المسيحي الذي يصور على هذا النحو تلك الشكوك التي تحيك في صدره كلما مرت السنون البطاء، دون أن تجلب له تحررًا وخلاصًا، إنما يعبر هنا من غير شك عن الأفكار التي خطرت لكثير من المسيحيين المنكودين الذين شملهم الاستعباد وظلوا عليه، حتى لجأ آخر الأمر إلى تحطيم أغلال دينه القديم ليدخل في الإسلام. وإن كثيرين من الذين كانوا على أهبة أن يموتوا شهداء في سبيل الدين المسيحي، لو أنهم

---

(1) **Turchicae Spurcitiae Suggillatio, fol. xii. (b). xiii. (a).**

(2) **Id. Fol. Xxvii. (a).**

خيروا بين القرآن والسيف كما تروي الأساطير، أحسوا إحساسًا أخذ يقوي شيئًا فشيئًا، بعد أن قضوا سنين طوالًا في الأسر، بتأثير الإسلام من الوجهتين النظرية والعملية؛ وكسبت الإنسانية كثيرًا من الداخلين في الإسلام منهم في الوقت الذي أخفقت فيه وسائل العنف[1].

ذلك أنه بالرغم من أن حظ كثير من أسرى المسيحيين كان غاية في التعس، نجد بعضهم الآخر، ممن شغل مراكز في خدمة خاصة القوم، لم يكن في الغالب أحط شأنًا من خدم المنازل في سائر أوربا. وبعد أن نظمت الشريعة الإسلامية مسألة الرق، انتزع عن الرق كثير من أشد مظاهره غلظة وفظاظة. ويظهر أنه لم يكن على الأقل في تركيا، شيء من أمثال تلك الأعمال الوحشية والفظائع التي كانت في ولايات القرصنة في إفريقية الشمالية. كان للرقيق كما كان لسائر المواطنين حقوقهم، بل قيل إنه كان للعبد أن يقاضي سيده إذا أساء معاملته، وأنه إذا تحقق القاضي من اختلاف طباعهما اختلافًا بينا إلى حد تعذر الإنفاق بينهما، فله أن يرغم السيد على بيعه[2].

وكانت حالة الأسرى المسيحيين تختلف بطبيعة الحال باختلاف الظروف وباختلاف قدرتهم على تهيئة أنفسهم لحياة تكتنفها المتاعب؛ فالشيوخ والقسس والرهبان وأصحاب المنبت الكريم كانوا أكثر الناس تحملا، على حين لقى الأطباء والصناع من سادتهم احترامًا باعتبارهم خدامًا قدر أدوا على خير الوجوه ما أنفق عليهم من مال[3]. أما الرقيق المحكوم

---

(1) «وفي الوقت الذي لم نقض على أجسامهم بما أظهره لهم من رعاية وتقوى، صمم بدهائه الشيطاني على أن يقتل أرواحهم بتجريدهم من إيمانهم. ويمكن أن يشهد على هذه الحقيقة، تلك الجموع من المؤمنين الذين لا يدخلون تحت حصر، ذلك أنه على الرغم من أن كثيرين منهم كانوا على غاية الاستعداد بأن يموتوا في سبيل العقيدة المسيحية، ومن أجل المسيح، وتخليصًا لأرواحهم، قد فتنت فيهم، بإنقاذهم من الموت الجسدي وحملهم إلى الأسر، سمومه، فأفسدهم بمرور الزمن، ودفعهم بخسة إلى أن ينكروا إيمانهم بالمسيح» **Turchicae Spurcitiae Suggillatio, fol. i.; cf. fol. Vi. (a).**

(2) **Menavino, p. 96. John Harris: Navigantium atque Itinerantium Bibliotheca, vol. ii. p. 819. (London, 1764.)**

(3) «وينبغي أن نقرر فيما يتعلق بالترك أنهم عاملوا خدمهم ومواليهم الذين استطاعوا أن يفيدوا من حذفهم ومهارتهم معاملة أحسن من تلك التي كان المصاري يعاملون بها خدمهم وعبيدهم، فكان الخادم الماهر في فن من الفنون يتمتع بكل ما يرجوه الحر ولا ينقصه إلا التحرر». (**G.C. von den Driesch, p. 132.**)

عليهم بالسجن فقد كانوا بطبيعة الحال أشد الناس تحملًا للمتاعب. وفي الحق أن ألطف المعاملات لم يستطع إلا في القليل النادر أن يخلصهم من الشدائد التي اقترنت بمثل هذا الملك[1]. زد على ذلك أن حظ العبيد الذين كانوا ملكًا للدولة كان أكثر تعسا من أولئك الذين كانوا ملكًا للأفراد[2].

وقد جرت العادة بأن يسمح لهم بأداء شعائرهم الدينية في حرية، وكان لهم في سجون الدولة في القسطنطينية قساوسة ومعابد خاصة بهم، كما سمح لرجال الكنيسة بأن يقوموا بإلقاء عظات دينية تعزية للأرقاء المحكوم عليهم بالسجن[3]. وكان عدد العبيد المسيحيين الذين دخلوا في الإسلام عظيمًا؛ وقد ذكر بعض حالات قليلة كانوا يهددون فيها، ويعاملون معاملة سيئة لإغرائهم على الارتداد. ولكن جرت العادة بان سادتهم كانوا لا يرغمونهم على ترك دينهم إلا في النادي[4]، وإنما كانوا يضغطون عليهم أشد الضغط في خلال السنوات الأولى من استرقاقهم، ثم بعد ذلك يتركونهم لأنفسهم يتبعون الدين الذي يشاءون[5].

---

(1) يقول سير وليم ستيرلنج ميكسويل **W. Stirling-Maxwell** عن هؤلاء: «إن المساكين التاعسين الذين كانوا يعملون مجذفين في أية سفينة حربية تركية، عاشرا عيشة ليست أشد ولا أخف بؤسا من هؤلاء المجرمين المحكوم عليهم تحت شارة الصليب. فقد كان العمل الشاق، والحياة المريرة، والصدمات القاسية من نصيب الفريقين على سواء. وفي البر، ربما كان السجين التركي أو المغربي أشد جهلًا وقذارة من سجين في نابلي أو في برشلونة؛ أما في البحر، فله إنما جاز أن يكون للبؤس درجات فربما تميز المسيحي المكبل في الأغلال التركية من هذه الناحية؛ ذلك أن فريق المجذفين في سفن السلطان كانوا ملكا للقبطان في الغالب؛ والمفروض أن الشفقة الطبيعية التي تكون الممالك على ما يملك، قد تتدخل أحيانًا في أداء واجبه».

(Vol. i. 102-3.)

(2) **Gmelin, p. 16.**

(3) **Id. p. 23.**

(4) **John Harris: Navigantium atque Itinerantium Bibliotheca, vol. ii. p. 810.**

(5) وتعد السنون الأولى بالنسبة إلى أمثال هؤلاء التاعسين أشقى سني حياتهم، وخاصة إذا ما كانوا حديثي السن؛ إذ أن الترك حاولوا أن يدخلوا الناس في دينهم بالملاطفة، فإن لم يجد ذلك فبالشدة. فإذا ما انقضت سنوات الشدة هذه، وجدوا الرق عند الترك محتملًا أكثر منه عند غيرهم». (**G.C. von den Driesch, p. 132.**). أضف إلى ذلك ما يقوله جيور جيفز من أن أولئك الذين تمسكوا بالدين المسيحي قد أعتقوا بعد فترة معينة. «إذا استمروا على الديانة المسيحية، حددت لهم فترة معينة للخدمة يصبحون بعد انقضائها أحرارًا. أما عن أولئك الذين ينكرون ديانتنا، وأن

ولهذا غير أكثر العبيد دينهم ودخلوا في الإسلام بمحض إرادتهم؛ ولما كانت السفارات المسيحية تخشى دائمًا من يوم لآخر من أن ينقلب بعض مواطنيهم من الخدم الذين كانوا قد صحبوهم إلى القسطنطينية إلى أوطانهم أتراكا(١)، كان من اليسير أن ندرك أن العبيد الذين كانوا قد فقدوا كل أمل في الرجوع إلى أوطانهم وكانوا لا يجدون في محيطهم إلا القليل من التشجيع على الاستمرار في التعليم مدة حياتهم الأولى، لم يكن بد من أن يخضعوا للمؤثرات التي أحاطت بهم، وألا يحسوا بقيود كبيرة تمنعهم من الدخول في جماعة جديدة وفي دين جديد.

وقد قال عنهم رحالة إنجليزي عاش في القرن السابع عشر(٢): «كان قليل منهم يعود إلى وطنه؛ وأقل منهم من كان له من الشجاعة الثبات ما يمكنه من الاحتفاظ بدينه المسيحي الذي تعلمه. وما كان تعلم هؤلاء إلا تافها ولا معرفتهم بمبادئ المسيحية وأصولها إلا ضئيلة. ومن ثم كان بعضهم يأوي إلى ديانة الترك فزعًا مما ران على قلبه من شدائد العبودية من الجزع والحقد المرير. كما أطمع بعضهم الآخر ما كانت تتيحه الشريعة الإسلامية للمسلمين من فنون المجاملة، والتملق للذائذ، وما أملوه في جعل حياتهم أيسر حالًا وأكثر رخاء بتغيير دينهم؛ فلما لم يعد أمل في إصلاح حالهم، تركوا مخلصهم ودينهم المسيحي، وسرعان ما نسوا وطنهم الأول وأصبحوا لا يعدون أنفسهم غرباء، بل ادعوا أنهم مواطنون».

هناك فترة محدودة للخدمة وحق العودة إلى الوطن، فأملهم في الحرية لا ينحصر إلا في إرادة السيد». (P. 87.). كذلك انظر Menavino, p. 65. ويذكر كانتاكوزينوس Cantacuzenos هذه الفترة على أنها سبع سنوات: «إن عبيدهم ينالون معاملة طيبة لأن محمدًا أمرهم فيما أمرهم به ألا يظل عبد في العبودية أكثر من سبع سنوات، لهذا فإنه لا أحد يحاول، أو قادرًا ما يحاول المرء أن يخالف ذلك الأمر» (P. 128.)

(١) «وكان لدى النصارى المخلصين لعقيدتهم الذين ذهبوا إلى تركيا أو إلى بلاد إسلامية أخرى سبب كاف للحزن على ما كان من كثرة ارتداد أبناء دينهم. وتفيض كتب رؤساء طوائف المترهبين بالشكوى من ذلك الأمر. أما الأرقاء فقد كان من الممكن أن يمتزج شعور الإنكار لموقفهم بشعور الرثاء لحالهم. على أنه طالما تألم المسيحي حين كان يرى أحرار قومه يدخلون في الإسلام. وكان السفراء لا يأمنون في أي يوم أن ينصرف عنهم أفراد من حاشيتهم. ولقد أحسنوا صنعًا حين كانوا لا يحمدون النهار حتى يقبل عليهم الليل».
(Gmelin, p. 22.) Cf. Von den Driesch, p. 161.

(٢) Thomas Smith, pp. 144-5.

وقد اعتمد كثير بطبيعة الحال على الخلق الشخصي الذي تميز به عبيد المسيحيين أنفسهم على اختلافهم؛ فقد وقع الكاتب المجهول الذي نقلنا عنه كثيرًا فيما سبق، في أسر طويل الأمد، مكنه من أن يتحدث بجدارة عن حالتهم، فقسمهم إلى ثلاث طبقات: الطبقة الأولى تشمل هؤلاء الذين قضوا أيامهم في بساطة تامة، لا يبالون بتكليف أنفسهم مشقة تعلم شيء عن ديانة سادتهم، وهؤلاء قد اكتفوا بعلمهم أن الترك قوم من الكفار، ولهذا تجنبوا، بقدر ما سمحت حالة استرقاقهم ونير استعبادهم، أن يكون لهم أية علاقة بسادتهم ولا بعبادتهم، خوفًا من أن يضلوا بخطاياهم، واجتهادًا في مراعاة الدين المسيحي بقدر ما تسمح به معرفتهم ونفوذهم.

وتتألف الطبقة الثانية من هؤلاء الذين يقودهم حب الاستطلاع إلى الدراسة والبحث في أفعال الترك. فإذا ما اتسع وقتهم بمعونة الله، ليغوصوا في طلب أسرارهم، وأتيح لهم الإدراك الكافي لاختبارهم، ونور العقل ليلتمسوا منه الشرح والتفسير، فإنهم لا يخرجون من هذه التجربة بحيث لا يمسهم ضر فحسب، بل يكسبون لدينهم قوة على قوة.

أما الطبقة الثالثة فتتألف من هؤلاء الذين اختبروا الدين الإسلامي دون أن يتخذوا لأنفسهم الحيطة اللازمة، فأخفقوا في الغوص إلى أعماقه والاهتداء إلى تفسيره، ولذلك ضلوا؛ فلما اعتقدوا أن باطل الأتراك هو الحق، فقدوا دينهم ودخلوا في دين المسلمين الزائف، وبهذا لم يجروا الخراب على أنفسهم فحسب، بل كانوا قدوة سيئة لغيرهم. وكان عدد أمثال هؤلاء لا يدخل تحت حصر(١).

لم يخلص الدخول في الإسلام كما أكد بعض المؤلفين، العبد من الرق، ولم يطلق سراحه(٢)، لأن العتق كان باختيار السيد وحده، وهو الذي طالما وعد حقًا بتحريره لا من

---

(١) Turchicae Spurcitiae Suggillatio, fol. xxxv. (a).

(٢) M. d'Ohsson, vol. iii. p. 133. Georgieviz, p. 87. (quoted above.) Menavino, p. 95.

طريق أداه فدية ولكن بالدخول في الإسلام[1]، ولكنه من ناحية أخرى كان كذلك يرغب بمحض إرادته في أن يحرر العبد المسيحي، حتى ولو كان قد احتفظ بدينه، بشرط أن يكون قد برهن على أنه خادم أمين، كما كان يرغب في أن يجري عليه رزقًا لكبر سنه[2].

وكان هنالك آخرون شأنهم كشأن هؤلاء العبيد المسيحيين ابتعدوا عن بيئاتهم ومجتمعاتهم، فوجدوا أنفسهم قد انقطعوا عن الروابط القديمة، وألقي بهم في وسط جماعة مدفوعة بمثل عليا: اجتماعية ودينية من طراز جديد تمام الجدة. فهذه الجموع الحاشدة من العمال المسيحيين الذين قدموا بعد طوافهم في البلاد المفتوحة في القرن الخامس عشر إلى أدرنة وسائر المدن التركية للبحث عن عمل، قد أقنعوا بسهولة ويسر أن يستوطنوا هذه البلاد وأن يدخلوا في الإسلام[3].

كذلك حدث للأسر المسيحية التي نقلها محمَّد الثاني من الولايات المغلوبة على أمرها من أوربا إلى آسيا الصغرى[4]، فمن المحتمل أنها انتظمت تمامًا في مجموع الأهالي المسلمين على درجات لم تكن في الغالب محسوسة، كما كانت الحال مع الأرمن الذين حملهم الشاه عباس الأول إلى فارس (١٥٨٧– ١٦٢٩م)، والذين يظهر أن معظمهم كان قد تحول إلى الإسلام في الجيل التالي[5].

وفي خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ظهر أن روح نشر الدعوة الإسلامية بين الأتراك قد اعتراها الضعف والفتور. أما السنين الأخيرة من حكم السلطان عبد الحميد فقد شهدت تجدد الاهتمام بالدعاية الإسلامية، وأخذت الصحف التركية في تسجيل أمثلة من التحول إلى الإسلام. وكان من أجدرهم بالذكر عدد يبلغ ثمانية عشر أمير تقريبًا من أسرة شهاب المالكة في جبل لبنان، وكانت تدين بالمسيحية مدة قرن تقريبًا؛

---

(١) Von den Driesch, p. 250.

(٢) Id. P. 131-2.

(٣) Turchicae Spurcitiae Suggillatio, fol. Xi.

(٤) Hertzberg, p. 621.

(٥) «وبموت الشيوخ المسنين، كان يدخل الشبان في الإسلام غالبًا، حتى إنك الآن (١٦٥٥) لا تكاد تلقي باثنين من مسيحيي الأرمن في كل تلك السهول الخصبة، التي كان آباؤهم قد أرسلوا إليها لتمسيدها». Tavernier (1), p. 16.

وقد قيل إنهم ادعوا النسب إلى قريش، وقد بذل الأتراك كل جهد في سبيل إعادتهم إلى حظيرة الإسلام. وعين الذين أسلموا منهم في مناصب تدر عليهم ربحًا في الخدمة التركية المدنية[1].

وفي الصفحات التالية نرى أن نذكر أخبارًا أكثر تفصيلًا وتخصصًا تتعلق بانتشار الإسلام بين أهالي ألبانيا والصرب والبوسنة وإقريطش من المسيحيين، إذ أن تاريخ كل بلد من هذه البلاد، بعد أن فتحها الأتراك، يمثل بعض المظاهر الخاصة التي تسترعي الانتباه في تاريخ الدعوة الإسلامية.

يسكن الألبانيون، عدا بعض من استوطن منهم في اليونان[2]، تلك المنطقة الجبلية التي تمتد على طول الساحل الشرقي للبحر الأدرياتي من الجبل الأسود إلى خليج أرتا **Arta**. وهم يكونون عنصرًا من أقدم العناصر وأنقاها في أوربا، ويقال إنهم ينتمون إلى الفرع البلاسجي من الكتلة الآرية.

وقد بدأ غزو الأتراك بلادهم سنة ١٣٨٧م، ولكن لم يكن بد من أن تنسحب الجيوش التركية سريعًا، واعترف بنفوذ السلطان للمرة الأولى في سنة ١٤٢٣. واستردت ألبانيا استقلالها فترة قصيرة بزعامة جورج كاستريوتا **G. Kastriota** الذي اشتهر باسمه الإسلامي إسكندر بك أو سكندر بك. وقد أثبتت الأبحاث ميوله إلى الأتراك، وشب بينهم على الإسلام، وحظي بعطف السلطان. والحقيقة أنه قضى أيام شبابه في بلاده الجبلية، وبدأ نضاله مع الأتراك منذ اليوم الذي أحرز فيه النصر عليهم في سنة ١٤٤٤؛ وظل أكثر من عشرين عامًا يقاوم قواتهم الغازية مقاومة عنيفة؛ ولكن بعد وفاته سنة ١٤٦٧ أخذ الأتراك يستردون ألبانيا. وسقطت كرويا **Kruya** (آق حصار)، حاضرة أسرة كاستريوت في أيديهم بعد أحد عشر عامًا، ومنذ ذلك الوقت، يظهر أنه لم تحدث مقاومة منظمة في كافة أنحاء المملكة، على الرغم من أن الثورات كانت كثيرة الوقوع، وأن خضوع البلاد لم يكن تامًا بحال. وظلت بعض الموانئ البحرية تقاوم مدة أطول؛ وسقطت

---

(1) **H. H. Jessup: Fifty-three in Syria, vol. ii. p. 658. (New York. 1910).**

(2) ولمعرفة أسماء هؤلاء انظر: **Finlay, vol. vi, pp. 28-9**

مدينة دوراتسو **Durazza** في سنة ١٥٠٥م، على حين لم تسلم مدينة انتيفاري **Antivari** الواقعة في أقصى الشمال من ساحل ألبانيا حتى ١٥٧١م. وقد نصت شروط التسليم على أن تحتفظ المدينة بقوانينها القديمة ونظام حكومتها وأن تكفل لهم الحرية في إقامة شعائر دينهم المسيحي، وألا يتعرض أحد بسوء لكنائسهم ومعابدهم، وأن يعاد بناؤها إذا تطرق إليها البلى، وأن يحتفظ المواطنون بأملاكهم كلها، المنقول منها والعقار، وألا يثقل كاهلهم بأداء أية ضرائب إضافية.

ويظهر أن الألبانيين احتفظوا دائمًا في ظل الحكم التركي بنوع من الحكومة شبه الاستقلالية، وظلت القبائل والعشائر المختلفة يتمتعون بنفس الاستقلال الذي كانوا يتمتعون به قبل الفتح. وعلى الرغم من وجود ولاة لسلاطين الترك، كانوا لا يطيقون تدخل الموظفين من الترك في إدارتهم الداخلية. وهناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن الحكومة التركية لم يكن في وسعها قط أن تعين أو تقرّ أي حاكم إقليمي لا يكون من أهالي ألبانيا، ولا أن يدعم نفوذه بأسلحته وسياسته وعلاقته بالناس[١]. فقد بلغ اعتزازهم بعنصرهم حد كبيرا، وإذا سئل الألباني، حتى الوقت الحاضر، عن نفسه أجاب بأنه سكبتار[٢]، قبل أن يجيب بأنه مسيحي أو مسلم، وهذا شاهد قوي جدًا يدل على أن الشعور القومي قد محا التفرقة الشديدة بين هاتين الديانتين التي تدخلت تدخلا عنيفًا في سائر بلاد الدولة العثمانية. فالألبانيون، النصارى والمسلمون على سواء، يتكلمون لغة واحدة، ويؤثرون تقاليد واحدة، ويراعون طباعًا وعادات واحدة؛ وإن اعتدادهم بقوميتهم المشتركة لرابط أقوى من أن يسمح لخلافات العقيدة الدينية بأن تقسم الأمة شيعًا متفرقة على هذا الأساس[٣].

ولقد خدموا جنبًا إلى جنب في الجيوش غير النظامية التي سرعان ما أصبحت بعد

---

(١) **Leake, p. 250.**

(٢) وهو الاسم الذي يطلقه الألبانيون دائمًا على أنفسهم ومعناه سكان الصخور.

(٣) ويقول واحد منهم، وهو مسيحي ألباني، متحدثًا عن العداوة القائمة بين المسيحيين والمسلمين في بلغاريا: «أما ألبانيا فقد كان موقفها مختلفًا عن ذلك تمام الاختلاف؛ إذ أن المسلمين الألبانيين، كالمسيحيين، يتكلمون لغة واحدة، ولهم عادات وأخلاق واحدة، ويسيرون على عرف واحد، وليس بين المسلمين والمسيحيين كراهية مطلقًا؛ إذ لم يكن بينهم عداوة أجيال. ولم يكن اختلاف الدين باعثا بحال على الانفصال الحقيق. وكانوا يعيشون، عدا حالات عدة، على قدم المساواة، ينعمون بحقوق واحدة ويؤدون واجبات متماثلة. (**Wassas Effendil: Albanien und die Albanesen. P. 59. Berlin, 1879**)

الفتح التركي الدعامة الأساسية للحكومة في كل إدارتها الداخلية، ووجدت كلتا الطائفتين استعدادا واحدًا في خدمة الباشوات المحليين، لأنهم كانوا يعدون أشجع الجنود في الدولة. فقد خدم الألبانيون المسيحيون في الجيش التركي في حرب القرم(١). ومع أنهم ربما كانوا أكثر هدوءًا وإلمامًا بالزراعة من مواطنيهم من المسلمين، إلا أن الفرق بين هؤلاء وأولئك ما زال يسيرًا؛ فقد كانوا يحتفظون دائمًا بأسلحتهم وصفاتهم العسكرية، وأظهروا دائمًا نفس تلك الروح الصارمة المزهوة، صعبة المراس، وعاشوا بنفس ذلك الشعور القومي العنيف، كما كان لإخوانهم الذين اعتقدوا دين النبي(٢).

وإن لتقدير هذه الحقائق أهمية في تتبع انتشار الإسلام في ألبانيا؛ إذ يظهر أنه انتشر تدريجًا وفي بطء على أيدي أهالي البلاد أنفسهم لا نتيجة لضغط المؤثرات الأجنبية. وإن ما لدينا من تفصيلات عن هذه الحركة لا يغني فتيلا، فإننا لا نعرف شيئًا ذا غناء عن تاريخ ألبانيا منذ نهاية القرن الخامس عشر حتى قيام علي باشا بعد ذلك بثلاثمائة سنة؛ فكان ما لدينا من معلومات عن كثرة الداخلين في الإسلام الذي كان بطيئًا، ولكنه كان مستمرًا في خلال هذه الفترة، مُستقى من التواريخ الكنسية للأبرشيات المختلفة(٣)، ومن التقريرات التي أرسلت إلى ألبانيا من وقت لآخر وإلى جماعة الدعوة إلى الدين **Congregatio de Propaganda Fide**(٤).

وغني عن البيان أن طبيعة هذه المصادر تكسب المعلومات التي استقيت منها طابعًا من النقص، ولا سيما فيما يتعلق بالبواعث التي دفعتهم إلى الدخول في الإسلام. ذلك أنه لم يكن من المعقول تقريبًا أن رجل الكنيسة الذي يرجع إلى تلك العصور كان يسلم

---

(١) **Finlay, vol. v. p. 46.**

(٢) **Clark. Pp. 175-7.** والمرديون **Mirdites**، وهم من الرومان الكاثوليك المعروفين بتعصبهم الشديد (في أبرشية أليسيو **Alessio**)، لن يقبلوا مسلمًا أن يعيش في جبالهم، ولا فردًا من قبلتهم أن يترك دينه؛ ولو حاول أي مردي أن يفعل شيئًا من ذلك لقضي عليه بالقتل من غير شك، إلا إذا أفلح في الهرب من ألمانيا. **(Hecquard: Histoire de la Haute Albanie, p. 224).**

(٣) **Published in Farlati's Illyricum Sacrum.**

(٤) **Alessandro Comuleo, 1593. Bizzi, 1640. Marco Crisio, 1651. Fra Bonaventura di S. Antonio, 1652. Zmaievich. 1703.**

حتى باحتمال أي دخول في الإسلام من طريق الإقناع الصحيح، فضلًا عن كونه يعبر بصراحة عن رأي كهذا فيما يكتبه إلى رؤسائه.

وفي خلال القرن السادس عشر، يظهر أن الإسلام لم يخط إلا خطوات بطيئة نحو التقدم، على الرغم من أن تيار الدخول في الإسلام كان قد بدأ منذ حين. وفي سنة ١٦١٠ كان عدد الأهالي المسيحيين يفوق عدد المسلمين بنسبة ١٠ إلى ١[١]. ولما كان المسيحيون يقطنون معظم القرى مع خليط قليل جدًا من المسلمين[٢]، يظهر أن حالات الدخول في الإسلام كانت أكثر منها في المدن الكبيرة. ففي مدينة أنتيفاري مثلًا، بينما آثر كثير من المسيحيين أن يهاجروا إلى البلاد المسيحية المجاورة، تحول السواد الأعظم من هؤلاء الذين بقوا في هذه البلاد إلى الإسلام تدريجيًا، سواء الشريف منهم والوضيع، حتى أخذ يتناقص عدد الأهالي المسيحيين يومًا بعد يوم[٣].

وبازدياد عدد الداخلين في الإسلام حُوّلت الكنائس إلى مساجد، وهذا التصرف مع أنه يتعارض مع شروط الصلح يبرره – فيما يظهر – التغيير الذي طرأ على عقيدة الشعب[٤].

وفي ١٦١٠ لم يكن هنالك إلا كنيستان تعليميتان قد بقيتا في أيدي النصارى من اللاتين. ولكن يظهر أنهما كانتا بحيث تسدان حاجات الجماعة[٥]؛ ويمكن أن ندرك مدى ما بلغه هذا الأمر على وجه التقريب من هذه الكلمات التي جاءت على لسان ماركو

(١) Rizzi, fol. 60, b.

(٢) Bizzi, fol. a. 35. a.

(٣) Farlati, vol. vii. pp. 104, 107.

(٤) وكذلك شكا بعضهم من أن قصر رئيس الأساقفة قد امتلكه المسلمون، إلا أنه كان قد ترك خاليًا ثماني سنين، إذ أن رئيس الأساقفة، أمبروسيوس، الذي نبغ بين سنتي ١٥٧٩– ١٥٩٨، وجد من الصواب أن يغادر البلاد بعد أن هاجم الإسلام «بحماسة تفوق حد الحذر، وقذف في حق مُحَمّد، وسب مبادئه الشيطانية».
(Farlati, vol. vii. P. 107.)

(٥) Bizzi, fol. 9. حيث يقول: «قمت بالقداس في ذلك الصباح لكل الطائفة المسيحية اللاتينية تقريبًا». وإذا وازنا ذلك بالإحصاء الذي أورده زمايفتش (fol. 227.) فإني أستطيع أن أجرؤ على الظن بأن الجماعة اللاتينية المسيحية بلغت في ذلك الحين ما يزيد على ألف نسمة.

بتزي إذ يقول: «هناك نحو ٦٠٠ منزل يقطنها المسيحيون والمسلمون دون تمييز، سواء منهم اللاتينيون والمنشقون (أي عن الكنية الإغريقية الأرثوذكسية)، وأن عدد المسلمين يتجاوز عدد المسيحيين قليلًا، كما أن عدد اللاتين يتجاوز عدد المنشقين».

وفيما وصل إلينا من الأخبار التي تتعلق بالصلات الاجتماعية بين النصارى والمسلمين وعدم وجود حدود فاصلة تميز بين الفريقين، نجد بعض ما يرشدنا إلى الحالة التي ظفرت فيها المؤثرات الإسلامية تدريجيًا بداخلين في الدين من بين الأهالي المسيحيين، الأمر الذي يرجع إلى تدهور قوة الكنيسة وحياتها الروحية.

وكان قد أصبح من الشائع المعروف لدى الأسر المسيحية أن تزوج بناتها من المسلمين، ولدى النساء المسيحيات ألا يدين أية معارضة في أمثال هذه العلاقات(١). وتربى الأطفال من الذكور الذين نشأوا عن هذا الزواج المختلط تربية إسلامية، أما البنات فقد سمح لهن أن يتبعن دين أمهاتهن(٢). ولم يكن لمثل هذا السماح تأثير من الوجهة العملية من جانب رجال الكنيسة الذين أمروا أن يحرم الأمهات من دخول الكنائس ومن الاشتراك في القرابين المقدسة(٣). وكان من أثر ذلك (على الرغم من أن خوريي الكنائس طالما كانوا يغضون النظر عن أوامر رؤسائهم) أن كثيرًا من أولاء الأمهات قد دخلن في دين أزواجهن. على أنهن تمسكن بالعادة التقليدية الخاصة بطقوس العماد التي كان يظن أنها دواء واق من البرص والسحرة والذئاب(٤).

وقد أبدت القساوسة استعدادًا لإجراء هذا التقليد لأية امرأة مسلمة تريد أن تعمد

---

(١) Bizzi, fol. 27, b; 38, b.

(٢) Viniero, fol. 34.؛ وكذلك جرت العادة في بعض قرى ألبانيا في عصر متأخر يرجع إلى أوائل القرن التاسع عشر. انظر: W. M. Leake: Travels in Northern Greece, vol. i. p. 49. (London, 1835) «وفي بعض القرى تزوج المسلمون بنساء من الإغريق، وتربى أبناؤهم تربية تركية، حتى إن لحوم الخنازير والضأن تؤكل على مائدة واحدة.

(٣) Bizzi, fol. 38, b. Farlati, tom. vii. p. 158.

(٤) Bizzi, fol. 10, b. Veniero, fol. 34.

أولادها[١]. كذلك يتضح هذا الشعور الطيب بين أفراد الديانتين[٢] بما أبداه المسلمون في أعياد القديسين من النصارى؛ فمثلًا يقول ماركو بتزي إنه في يوم عيد القديس إيليا (الذي يظهر أن الألبانيين كانوا يقدسونه بنوع خاص) وفد على الكنيسة من المسلمين عدد كبير يماثل عدد الذين وفدوا عليها من النصارى[٣]. وتحدثنا الأخبار أن المسلمين الألبانيين حتى الوقت الحاضر يعزمون مريم العذراء والقديسين المسيحيين ويحجون إلى مقابرهم؛ كما أن المسيحيين – من جهة أخرى – يترددون على قبور أولياء المسلمين بقصد الشفاء من الأمراض أو الوفاء بالنذور[٤]. وفي مدينة كاليفاتشي **Calevacci**، حيث كان هنالك ستون أسرة مسيحية وعشر أسرات من المسلمين، ساهم أتباع النبي في إعانة كاهن أبرشية، إذ كان للسواد الأعظم منهم زوجات مسيحيات[٥].

وفي مثل هذه الظروف لا يكاد يستولي علينا الدهش إذا علمنا أن كثيرين اعتقدوا الإسلام علانية، بينما أرضوا ضمائرهم بقولهم إنهم اعتقدوا المسيحية بقلوبهم[٦]. وقد علل ماركو بتزي مثل هذه الزلة بثلاثة أوجه: الجري وراء المنفعة الدنيوية، والرغبة في تجنب أداء الضريبة، والنقص في ذلك العدد الملحوظ من رجال الكنيسة الأذكياء الذي يشبع حاجات البلاد الروحية[٧]. وطالما يعزى الدخول في الإسلام إلى شدة وطأة الضريبة التي تفرض على المسيحيين، حتى لقد قيل إن جميع القرى ارتدت عن دينها القديم تجنبًا لأداء

---

(١) وبعد وصول ماركو بتزي إلى أنتيفاري بزمن قصير، أبدت سيدة مسلمة تنتمي إلى طبقة راقية رغبتها في تعميد طفلها على يد رئيس الأساقفة نفسه الذي يخبرنا أنها شكت شكاة مريرة إلى أحد زعماء المسيحيين في المدينة بقولها «إنني لم أجد من مكانتي ما يعينني على إسداء تلك المكرمة إليها، الشيء الذي يفعله يوميًا قساوستي عند طلب أي فرد من عامة الشعب» (**fol. 10, b.**)

(٢) وللاطلاع على أمثلة حديثة من تلك العلاقات الودية القائمة بين أتباع كل من الديانتين الذين يعيشون جنبًا إلى جنب في قرية واحدة، انظر: **Hyacinthe Hecquard: Histoire et description de la Haute Albanie (pp. 153, 162, 2CO). (Paris, 1858).**

(٣) **Bizzi, fol. 38. a.**

(٤) **Garnett, p. 267.**

(٥) **Bizzi, fol. 36. b.**

(٦) **Id. Fol. 38, b; 37, a.**

(٧) **Bizzi, fol. 38, b; 61, a; 33, b.**

الضريبة. ولما لم ترد أخبار مفصلة عن ذلك، فإن من المحال أن نحكم بما إذا كان هنالك حقًا أساس كاف للشكوى، أو إذا لم يكن هناك ما يبرر السلوك الذي سلكه المرتدون لاصطناع نوع من العذر لإخوانهم السابقين في الدين، أو أن ذلك كان في الحقيقة مبالغة من جانب رجال الكنيسة الذين خيل إليهم أن الدخول الصادق في الإسلام على أسس منطقية أمر مستحيل تمام الاستحالة.

وكانت جزية الرأس بعد ذلك بقرن (في سنة ١٧٠٣) ستة ريالات عن كل شخص من الذكور، وكانت هذه الضريبة (عدا ضريبة تسمى الشياتارتشيو **Sciataraccio** كان مقدارها ثلاثة ريالات كل عام) هي العبء الوحيد الذي فرض على المسيحيين وحدهم[١]. ولا بد أن تعلق الناس بدينهم كان من الضعف والوهن بحيث انصرفوا عن دينهم لا لشيء إلا ليتخلصوا من عقوبة تافهة كهذه. وإن مجرد وجود مثل هذه الجموع الحاشدة من المسيحيين في ألبانيا في الوقت الحاضر، ليدلنا على أن العبء لم يكن من الشدة بحيث يرغمهم على الكفر دون أن تكون لهم الخيرة في شيء آخر.

ولو وصل إلينا من المعلومات ما هو أكثر من تلك الشكاوى العامة الغامضة ضد «الجور التركي»، لكان في وسعنا أن نقرر على الوجه الأمثل إلى أي حد استطاع هذا الجور أن يكون له مثل هذا التأثير الذي ينسب إليه، ولكن يظهر أن الشاهد الذي أشرنا إليه لا يكاد يدعم مثل هذه النتيجة. وكان من أثر التقليد المعيب الذي سار عليه البلاط العثماني ببيع المناصب في الولايات عن طريق المزاد بأفحش الأثمان، والشك في مدى بقاء أمثال الذين يشغلون هذه المناصب، أن لجأ هؤلاء في كثير من الأحيان إلى جمع أقصى ما يستطيعون من الأموال باشتطاطهم في جمعها بكل وسيلة. على أنه قيل إن مثل هذه الأعباء كانت شديدة الوطأة على المسلمين كما كانت على النصارى[٢]. ومع ذلك كان لا يخلو في الواقع أن يجد موظف شره جائر، أن من الأيسر أن يجور على النصارى ولا يفعل ذلك بالمسلمين، ولا سيما حينما أغرى النصارى بأن يتصلوا بالبنادقة وبعض

---

(١) كان الريال البندقي في القرن الثامن عشر يساري القرش التركي. (**Businello, p. 94.**)

(٢) **Bizzi, fol. 12-13. Zmaievich, fol. 5.**

الولايات المسيحية الأخرى اتصالا ينطوي على الخيانة، كما أثيرت حولهم الشكوك في شق عصا الطاعة واللجوء إلى الثورة.

ومهما يكن من شيء، فمن الممكن أن يوجد قليل من الشك فيما أحدثه نشاط الإسلام الحماسي وحياته الفتية من تأثير، في مقابل ما اتصف به رجال الكنيسة المسيحية من جمود وجهل. ولو رزق الإسلام في ألبانيا أئمة كثيرين من أمثال الملا الذي أثنى ماركوبتزي على إخلاصه ولطفه وتواده، وكان قد تعود أن يناقشه في المسائل الدينية، لكان من المحتمل أن يشق الإسلام طريقه خيرًا مما كان[1]. والظاهر أن الأمية كانت متفشية في السواد الأعظم من رجال الدين المسيحي، فإن معظمهم لم يعرف كيف يكتسب برغم إلمامه الضعيف بالقراءة، وكانوا على جانب كبير من الجهل بواجبات مهنتهم المقدسة إلى حد أنهم لم يستطيعوا حتى إعادة صيغة الغفران عن ظهر قلب[2].

وعلى الرغم من أنه كان من واجبهم أن يلقوا القداس وسائر الخدمات باللغة اللاتينية، كان هنالك عدد قليل جدًا يستطيع أي يدرك شيئًا منها، كما كانوا على جهل بأية لغة لغتهم الأصلية، وكانوا لا يعرفون عن حقائق دينهم[3] إلا معارف غامضة أخذوها بالتواتر. وقد حمل ماركوبتزي أسقفية البلاد القاصرة مسئولية هذه المساوئ من حيث قلة عدد رجال الكنيسة، وجهلهم بمهنتهم المقدسة، ومن حيث هذا العدد العظيم من المسيحيين الذين أدركتهم الشيخوخة، بل أدركهم الموت، دون أن يمنحوا التثبيت الكنسي، والذين ارتدوا عن دينهم في كل مكان تقريبًا[4]. وقد تنبأ بزوال المسيحية العاجل في هذه البلاد إذا لم تعالج هذه المساوئ[5]، كذلك اتهم كثير من القسس باتخاذ

---

(١) Bizzi, fol. 10-11.

(٢) Id, fol. 31. b.

(٣) Bizzi, fol. 60, b.

(٤) Id. Fol. 33, b. «ويرجع هذا إلى العدد القليل من القساوسة في تلك الأنحاء ومعرفتهم الناقصة بتلك المهنة، وعدد المسيحيين الكبير الذين يشيخون. بل يموتون، دون أن يمنحوا التثبيت الكنسي، ويرتدون عن دينهم في كل مكان تقريبًا».

(٥) «وإذا لم تتلقى ألبانيا معونة أكبر، فسوف تسوء حالة السواد الأعظم من المسيحيين في مدى سنوات قليلة، لقلة عدد الأساقفة والقساوسة الذين هم على جانب من الفهم.» (Id. Fol. 61, a)

الجواري وشرب الخمر[1].

ومما يلاحظ في هذا المقام، أن القسيسين الألبانيين لم يكونوا حفظة على المطامع القومية والمثل العليا، كما كان رجال الكنيسة الأرثوذكسية في سائر ولايات الدولة العثمانية، هؤلاء الذين برغم جهلهم أبقوا بين شعبهم على تقديس الديانة المسيحية التي كونت نواة الحياة القومية عند اليونان[2]. وعلى خلاف ذلك اعتز الألبانيون بشعور قومي كان منفصلًا تمام الانفصال عن العقيدة الدينية، كما اعتبروا بروح صادقة، أن الأتراك – كما كانوا من قبل – سادة البلاد وأن من الواجب أن يطاعوا مهما فرضوا من أوامر[3].

وهناك قصة عجيبة تتعلق بالتحول إلى الإسلام، قيل إنها حدثت نتيجة لفقدان العلاقات الودية بين أحد القساوسة المسيحيين وشعبه، وقد جرت هذه القصة على الوجه التالي: «منذ أعوام كثيرة، عندما كان جميع البلاد يدين بالمسيحية، تمثلت هنالك في مدينة أسكدار صورة جميلة لمريم العذراء التي كان يهرع إلى معبدها كل عام آلاف من الناس من كافة أنحاء المملكة لتقديم هداياهم، وتأدية شعائرهم، والاستشفاء من عللهم. بيد أنه حدث لسبب من الأسباب أن وقع شقاق بين القسيس وقومه. وفي ذات يوم وفد قوم على الكنيسة في جموع زاخرة أنهم إذا لم يخضع القسيس لأمرهم فسوف ينبذون دين المسيح ويدخلون في دين محمد، ولما ظل القسيس متشبثًا برأيه، سواء أكان مصيبًا أم مخطئًا، نزع قومه مسابحهم وصلبانهم في أعناقهم وسحقوها بأقدامهم، ولما ذهبوا إلى أقرب مسجد، أدخلهم الملا في حظيرة المؤمنين الصادقين[4]».

وكان من جراء الإهمال والجمود اللذين ظهر بهما رجال الكنيسة أن أتيح لكثير من

---

(1) Id. Fol. 36, a. Id. fol. 64, b.

(2) Finlay, vol. v. pp. 153-4. Clark, p. 290.

(3) «وهؤلاء التاعسون اعتقدوا اعتقادًا راسخًا بأنهم لم يرتكبوا خطيئة في عقد مثل ذلك الزواج (كتزويج البنات المسيحيات من المسلمين)، ونظرًا لأن الترك هم سادة البلاد، فلا يمكن، ولا يجوز أن نعصى لهم أمرًا عندما يأمرون بأي شيء». (Bizzi, fol. 38, b.)

(4) Garnett, p. 268.

المساوئ والشذوذ أن تزحف إلى المجتمع المسيحي، ومن ذلك ما يسمونه إجراء عقود الزواج بدون تصديق الكنيسة أو عمل أي احتفال ديني، وهو ما نجد له مقاربًا في الشريعة الإسلامية التي تجعل الزواج عقدًا مدنيًا. ولكي يعالجوا هذه السيئة لم يكن بد من أن يحرموا الزواج والزوجة من دخول الكنيسة حتى يمتثلا أمر القانون الكنسي ويذهبها لإقامة شعائرهم بطريقة منتظمة[١].

وفي خلال القرن السابع عشر كانت الأحوال الاجتماعية، وسائر العوامل التي ذكرناها من قبل، قد آتت ثمرتها في كثرة عظيمة، وبدأ عدد الأهالي من المسيحيين يتدهور تدهورًا سريعًا؛ ففي فترة قصيرة تبلغ الثلاثين عامًا وتقع بين سنتي ١٦٢٠، ١٦٥٠، قيل إن حوالي ٣٠٠ ألفا من الألبانيين تحولوا إلى الإسلام[٢]. وفي سنة ١٦٢٤ لم يكن في أبرشية أنتيفاري كلها إلا ألفان من الكاثوليك، ولم يكن في المدينة نفسها إلا كنيسة واحدة. وفي نهاية هذا القرن لم تعد حتى هذه الكنيسة تستخدم في عبادة المسيحيين، إذ لم يبق فيها إلا أسرتان من الكاثوليك الرومان[٣]. وفي سنة ١٦٥١ كان السواد الأعظم من الطائفة المسيحية في كافة أنحاء البلاد بوجه عام مؤلفًا من النساء، إذ كان الذكور من الأهالي قد ارتدوا على دينهم واعتنقوا الإسلام بمثل هذه الجموع الكبيرة[٤].

وظلت الحالة في نهاية هذا القرن على سوئها؛ ولما كان الكاثوليك في ذلك الحين أقل عددًا من المسلمين أصبحت النسب بينهم كنسبة ١:١ تقريبًا[٥]، على حين كانوا قبل ذلك بأقل من مائة عام يفوقون المسلمين عددًا حتى أصبحت النسبة بينهم ١٠: ١[٦]. ونقص عدد الأهالي المسيحيين في رياسة الأسقفية في دوراتزو إلى ما يقرب من

---

(١) Bizzi, fol. 38, b; 63, a.

(٢) Kyriakos, p. 12.

(٣) Farlati, tom. Vii. Pp. 124, 141.

(٤) Marco Crisio, p. 202.

(٥) Zmaievich, fol. 227.

(٦) Bizzi, fol. 60. B.

النصف في مدى عشرين سنة[١]؛ وفي مدينة أخرى في أسقفية كرويا تحول الأهالي كافة من المسيحية إلى الإسلام في مدى ثلاثين عامًا[٢].

وبرغم الاحتياجات المتكررة والنظم التي أحدثها رؤساؤهم الروحانيون استمر خوريّو الكنائس في تشجيع ما كان يصنعه أفراد كثيرون من رعاياهم من الاعتراف الصريح بالإسلام مقترنا بالمشايعة السرية للدين المسيحي، وذلك بمنحهم إياهم سر القربان المقدس؛ وكان من أثر ذلك أن أبناء أمثال هؤلاء الأفراد الذين نشئوا نشأة إسلامية فقدوا إلى الأبد شعورهم نحو الكنيسة المسيحية[٣]. كذلك ظلت الأسر المسيحية تزوج بناتها من المسلمين، وظل خوريّو الكنائس يؤازرون مثل هذه الروابط بمنح السر المقدس أمثال أولاء النساء[٤]، برغم ما أظهر رؤساء رجال الكنيسة من سخط على أن أي تساهل من هذا القبيل[٥] على أن مثل هذا التصرف من جانب صغار رجال الكنيسة لا يكاد يؤخذ على أنه دليل على أية حماسة بالغة منهم في سبيل تزويد رعاياهم بالفائدة الروحية، بإزاء الاتهامات الموجهة إليهم، فإن معظمهم قد اتهم بأنهم خلعاء جالبون للعار، قلما ذهبوا إلى الاعتراف؛ وأدمنوا الانغماس في ملذات الشراب في بيوتهم أيام الأعياد، وباعوا أملاك الكنيسة، وطالما تغيبوا عن أبرشياتهم، فإذا أدبتهم الكنيسة نجحوا في التخلص بوضع أنفسهم تحت حماية الأتراك[٦].

أما الفرنسسكان المصلحون والأبزرفانت[٧] الذين كانوا قد أرسلوا ليمدوا الشعب بحاجاته الروحية فإنهم لم يصنعوا شيئًا إلا المنازعات ومقاضاة بعضهم بعضا؛ وقد انطوى كثير من هذه المنازعات على فضائح عامة الشعب المسيحي وإهمال الرسالة التي جاءوا

(١) Zmaievich, fol. 137.
(٢) Zmaievich, fol. 157.
(٣) Id. fol. 11, 159.
(٤) Id. fol. 13.
(٥) Bizzi, fol. 38, b. Farlati, vol. vii. P. 158.
(٦) Zmaievich, fol. 13-14.
(٧) هم طائفة من رهبان الفرنسسكان انفصلوا عن طائفة أخرى من هؤلاء في القرن الخامس عشر.

من أجلها[١]. وفي منتصف القرن السابع عشر، خلت خمس أبرشيات ألبانية من اثنتي عشرة أبرشية؛ فلم يزر أسقفية بولاتي Pullati أحد من الأساقفة مدة ثلاثين عامًا، ولم يكن هنالك إلا قسيسان في منطقة بلغ عدد سكانها ٦٣٤٨ نفسها[٢]. وفي بعض الأبرشيات الواقعة في داخلية البلاد، لم يكن هنالك قساوسة في فترة تزيد على أربعين سنة؛ ولم يكن هذا راجعًا بحال إلى ضغط «الجور التركي»؛ لأنه عندما أرسل أخيرًا أربع بعثات من الفرنسسكان قرروا أنهم استطاعوا أن يجوسوا خلال البلاد ويمارسوا مهنتهم المقدسة دون أن يعترضهم أي شيء في هذه السبيل[٣].

وكان أسقف سبّا قد أقام مدة طويلة في البندقية، مما أدى إلى إلحاق خسارة فادحة بأبرشيته، وقد قيل إنه عاش هناك حياة حافلة بالرذائل، وكان قد أناب عنه قسيسًا جاهلًا كان معروفًا بخلاعته وسوء خلقه، وقد باشر هذا الرجل أعماله الدينية بين ١٢٤٠٠ نفس. ويقول الزائر الديني إنه «في خلال غياب الأسقف استهدفت الأسقفية لخطر نتيجة لما جره على نفسه من تحطيم روحه، والعمل على خراب النفوس التي تحت سلطانه الديني وخراب أملاك الكنيسة»[٤]. وكان أسقف أسكدار – في نظر رجال كنيسته وقومه – رجلًا ظالمًا لم يفلح في الاحتفاظ بمركزه إلا بمعونة الأتراك[٥]؛ ويشكو زمايفتش Zmaievich من الأساقفة عامة الذين أثقلوا كاهل الأبرشيات القائمة في أسقفيتهم بضرائب إجبارية[٦]. ويظهر أن السلطان كان قد منح رجال الدين المسيحي السلطة لأن يفرضوا رسومًا على رعاياهم. ومن ثم سمح لرياسة أسقفية أنتيفاري (١٥٩٩– ١٠٦٧) أن «تفرض وتتسلم» قطعتين من فئة الأسبير Asper من كل أسرة مسيحية، واثنتي عشرة قطعة عن الزواج الأول (وضعفي هذا المبلغ عن الزواج الثاني، وأربعة أضعافه عن الثالث)

---

(١) Informatione circa la missione d'Albania, fol. 196.

(٢) Crisio, fol. 204.

(٣) Fra Bonaventura, fol. 201.

(٤) Marco Crisio, fol. 202, 205.

(٥) Id. fol. 205.

(٦) Zmaievich, fol. 13.

وقطعة ذهبية من كل أبرشية في السنة. ويظهر أنه كان من اليسير الحصول على مساعدة السلطات التركية في جباية هذه الرسوم[١].

ولم يكن في كافة أنحاء ألبانيا مدرسة مسيحية واحدة[٢]، وكان القسس في جهل مطبق، أرسل بعضهم للدراسة في إيطاليا؛ ولكن ماركو كرزيو **M. Crisio** ينحي باللائمة على هذه الطريقة، لأن أمثال هؤلاء القسيسين كانوا في خطر من أن يجدوا الحياة في إيطاليا قد بلغت من المتعة بحيث كانوا يرفضون العودة إلى وطنهم. فإذا كان الكهنوت على هذا النحو من الجهل وإهمال الواجبات المقدسة، فلا عجب إذا عرفنا أن عامة الشعب كانوا لا يعرفون حتى مبادئ دينهم، وأن أضرارًا كثيرة ومفاسد جمة قد نجمت في مجتمعهم، وهي التي «عملت أقصى ما يمكن من التخريب لكرمة الرب[٣]».

وقد عاش كثير من المسيحيين أعوامًا يسرون بالنساء علانية مع استمرارهم في منح الأسرار[٤]، على حين كان لآخرين منهم عدد من الزوجات[٥]. وفي هذه العادة الأخيرة نلاحظ تشابهًا بين عادات الطائفتين – النصارى والمسلمين – وهو تشابه يزداد وضوحًا باعتراف رجال الكنيسة بكفالة المسلمين في تعميد أطفال المسيحيين، على حين ظل القسس يجيزون التقليد القديم الخاص بتعميد أطفال المسلمين[٦].

ولما كانت الكنيسة المسيحية في ألبانيا في النصف الأخير من القرن السابع عشر على الحالة التي وصفناها، كان أتفه البواعث يكفي لإحداث ارتداد واسع النطاق. وإن العقاب الذي وقع على الكاثوليك الثائرين في النصف الأخير من هذا القرن كان عاملًا حاسمًا أكثر مما ينبغي لإحداث ميول كانت تجذبهم نحو الإسلام وتجعل جموعًا كبيرة منهم

---

(١) **Farlati, tom. Vii. P. 109. Bizzi, fol. 19, b.**

(٢) **Marco Crisio, fol. 205.**

(٣) **Zmaievich, fol. 11.**

(٤) **Id, fol. 32.**

(٥) **Crisio, fol. 204.**

(٦) **Zmaievich, fol. 11. Farlati, vol. vii. P. 151.**

يخرجون على الكنيسة المسيحية. ويظهر أن الحركة الثورية التي أشرنا إليها والتي أثارها جورج التاسع والثلاثون من رؤساء أساقفة أنتيفاري (١٦٣٥- ١٦٤٤) الذي حاول عن طريق أساقفة دوراتسو وشقودرة وأليسيو Alessio أن يحرض زعماء جماعة المسيحيين على التآمر على الحكم التركي وتسليم زمام البلاد إلى القوة المسيحية المجاورة، وهي جمهورية البندقية. ولما كانت البندقية في عهده في سلم مع الأتراك، لم تحن فرصة مناسبة لتدبير هذه المؤامرة، إلا أنه في سنة ١٦٤٥ نشبت الحرب بين تركيا وهذه الجمهورية، وقام البنادقة بمحاولة خائبة للاستيلاء على مدينة أنتيفاري التي كانت في حوزتهم قبل الفتح العثماني بأكثر من ثلاثة قرون (١٢٦٢- ١٥٧١).

أما الكاثوليك الألبانيون الذين تحيزوا للعدو وأعانوه سرًا، فقد عوقبوا عقابًا شديدًا وحرموا امتيازاتهم، على حين كوفئ المسيحيون اليونان (الذين كان لديهم كل ما يثير مخاوفهم من أن يعود حكم البنادقة فظلوا موالين للحكومة التركية) مكافأة سخية، ونوهوا باسمهم باعتبارهم مخلصين لبلادهم. وأصبح كثير من الكاثوليك، إما مسلمين أو منحازين إلى الكنيسة الرومانية، وهذه الحقيقة الأخيرة ذات مغزى كبير من حيث إنها تدلنا على أنه لم يكن ثمة اضطهاد للمسيحيين كهذا، كما لم تكن هنالك أية محاولة لحملهم على قبول الإسلام.

وقد فعل الكاثوليك الذين دخلوا في الإسلام هذا التصرف ليتجنبوا حرج مركزهم بعد أن أخفقت مؤامراتهم، واستطاعوا أن يحققوا نفس الغرض وأن يبقوا في الوقت نفسه على دينهم المسيحي بالانضمام إلى الكنيسة الرومانية التي اعترفت بها الحكومة التركية رسميًا، بل كانت تلقى كذلك رعاية سامية في أنتيفاري في ذلك الحين، حتى إن هؤلاء الذين تهاونوا في ذلك العمل لم يكن تعلقهم بالدين المسيحي إلا يسيرًا جدًا. وتنطبق هذه الملاحظة نفسها على كثرة حالات الدخول في الإسلام في السنين المتعاقبة، فيعزو زمايفتش دخولهم في الإسلام في بعض الحالات إلى الرغبة في تجنب أداء الجزية. ولكن ليس من المعقول، كما يتضح ذلك مما ذكرناه، أن هذا السبب كان هو الباعث الوحيد القاطع.

في سنة ١٦٤٩ اندلعت ثورة أخرى أكثر تفاقمًا، وكان يوسف ماريه بونالدو رئيس أساقفة أنتيفاري (١٦٤٦– ١٦٥٤) هو المحرض الأول على الحركة. وتآمر القواد من أهالي مدن أنتيفاري وشقودرة ومدن أخرى على أن يفتحوا أبوابهم لجيوش جمهورية البندقية. ولكن هذه المؤامرة أخفقت كذلك، وقمعت الجيوش التركية هذه الثورة بقوة وعنف، وساعدهم على ذلك الخلافات التي قامت بين المسيحيين أنفسهم. وأبعد كثيرون من الألبانيين الذين كان يخشى تأثيرهم، من بلادهم إلى داخل الممتلكات التركية؛ وعبرت قوة مؤلفة من ٣٠٠٠ رجلا إلى الحدود، ودخلت أراضي البندقية؛ أما البقية الباقية منهم فقد أرهبوا بإنشاء الحصون وتسيير الجنود في المقاطعات المتمردة، على حين فرضت مغارم فادحة على المتذمرين[١]. ولم يتخذ الكتاب المسيحيون الذين شكوا لسوء الحظ من «الضرائب والمضايقات المجحفة التي كان يضيّق بها الأتراك على الألبانيين حتى يدخلوا في الإسلام[٢]»، إلا أساليب عامة، ولم يمدونا بتفاصيل تمكننا من الحكم على ما إذا كان مثل هذه الشكاوى مبررًا بالوقائع الصحيحة.

ويمهد زمايفتش لما ذكره من ارتداد ألفي نفس عن دينهم بتعديد الضرائب وسائر الأعباء التي كان على المسيحيين أن يتحملوها، إلا أنه يقول إن كل هذه الأمور كان يشترك فيها المسلمون كذلك، ما عدا جزية الرأس التي كانت تبلغ ستة ريالات في السنة لكل فرد من الذكور، وما عدا ضريبة أخرى تسمى شياتارتشيو **Sciatraccio** وكانت تبلغ ثلاثة ريالات في السنة[٣]. وختم بقوله: «ولما كانت هذه الضرائب طعنة في أوهى جوانب الأمة أعني الفائدة المادية، التي تقدرها وتميل إليها ميلًا فذا بالطبيعة أو بالضرورة، فقد قدمت سببًا وجيهًا لإظهار اللوعة والأسى على فقد نحو من ألفي نفس ارتدوا عن دينهم الصحيح حتى لا يذعنوا للجزية[٤]». ولا شيء فيما ذكره في تقريره يدلنا على أن

---

(١) **Farlati, vol. vii. Pp. 126-32. Zmaievich, fol. 4-5, fol. 20.**

(٢) «أخذ عدد عظيم في أن يترك تدريجًا المسيحية ليعفي من أداء الضرائب وسائر الإتاوات المجحفة».
(Farlati, tom. Vii. P. 311.)

(٣) **Zmaievich, fol. 5.**

(٤) **Id. fol. 5.**

الضرائب التي لم يكن بد من أن يؤديها الكاثوليك كانت عبئًا لا يحتمل، بلغ من شدة وطأته أنه أجبرهم على ترك عقيدتهم. وعلى الرغم من أنه نسب كثيرًا من حالات التحول للإسلام إلى الرغبة في التخلص من الجزية، إلا أنه يقول بوضوح إن هذه الردة عن الدين المسيحي ترجع في أساسها إلى الجهل المطبق الذي ظهر به رجال الكنيسة[1]، كما ترجع إلى حد كبير إلى ما قاموا به من منح هؤلاء الذين كانوا يجهرون بالإسلام، ويظلون مشايعين سرًا للعقيدة المسيحية[2] أسرار الكنيسة المقدسة.

ويقول في موضع آخر حين كان يتحدث عن رجال الكنيسة الذين لم يكونوا لائقين للقيام بمنصب خوريين للكنائس، وعن مباشرتهم منح الجاحدين بالدين والمسيحيين المتسترين أسرار الكنيسة: «هذان هما علة وجه التحديد الدافعان اللذان نجمت عنهما كل الخسائر التي عانتها الكنيسة المسيحية في ألبانيا[3]».

وثمة قليلة جدًا من الشك في أن الارتداد عن المسيحية على هذا النحو الواسع النطاق في ذلك الحين كان نتيجة لسلسلة طويلة من المؤثرات التي تشبه تلك التي عرضنا لذكرها في الصفحات السابقة، وأن التخلص من أداء الجزية كان آخر حلقة من هذه السلسلة.

أما الجهود النشيطة الفعالة التي قام بها المسلمون أنفسهم ليضموا المسيحيين إلى حظيرة الإسلام، فليس من اليسير أن نتوقع معرفة شيء منها من تقرير أي زائر ديني، إلا أننا إشارة إلى إحدى المقاطعات التي كان سكانها قد اقتبسوا بمعاشرتهم للترك «رذائل هؤلاء الكفار»، وأن أحد الأسباب الرئيسية لتخليهم عن العقيدة المسيحية إنما كان تعاقدهم على الزواج من النساء التركيات[4]. وليس من شك في أنه كان ثمة مؤثرات إسلامية قوية فعالة، كما كانت الحال في أبرشتيى بشاشيا **Biscascia**، وباسيا **Basia** اللتين

---

(1) **Zmaievich, vol. 15, 197.**

(2) **Id. fol. 11.**

(3) **Id. fol. 137.**

(4) **Id. fol. 149.**

تعرض مجموع أهليهما الذين يبلغ عددهم نحو ألف شخص «لخطر ظاهر من الارتداد عن دينهم بسبب الحاجة إلى راع للكنيسة»، وطالما «غُرر بهم للخروج عن دينهم، وأصبحوا في حاجة إلى رعاة للكنيسة، عقلاء متحمسين، يشجعونهم في دينهم[1]».

وتكلم زمايفتش عن إحدى الأسر المسيحية العريقة النبيلة في ضواحي أنتيفاري التي كانت تتمثل في ذلك الحين في أخوين كان أكبرهما قد «راوده» المسلمون البارزون في ناحيته على ترك دينه، وكان بينه وبينهم صلة وثيقة؛ ورغب الأصغر في دراسة تهيؤه لمنصب الكهنوت الذي «يمكنه من تقديم مساعدة كبيرة للكنيسة المسيحية عن طريق التقدير السامي الذي كان يظهره الأتراك لأسرته التي كانت برغم رقة حالها تلقى احترامًا من جميع الناس»[2]. وهذا في الواقع تفسير آخر للحقيقة القائلة بأن المسلمين لم يسيئوا معاملة المسيحيين في شيء مطلقًا، إلا إذا ظهروا بمظهر الساخطين على الحالة السياسية. فإن زمايفتش، الذي كان هو نفسه ألبانيا واتخذ مقامه في أبرشيته بدلًا من انتقاله إلى أراضي البندقية، كما فعل فيما يظهر كثير من رؤساء أساقفة أنتيفاري[3]، كان قد قوبل «بحفاوة بالغة» «وملاطفة رائعة» من عامة موظفي الأتراك، بل من سمو باشا ألبانيا نفسه الذي منحه مكانة سامية في ديوانه، وكان دائمًا يصحبه إلى الباب عند انصرافه ويستقبله عند الباب لدى وصوله[4].

هذا «المتبربر» الذي «دلّ على أنه أكثر شبهًا بمسيحي متدفق الإخلاص منه بتركي»، قد قدم أدلة مادية على أنه يضمر شعورًا طيبًا نحو المسيحيين بإعفائهم – حين طلب رئيس الأساقفة منه ذلك – من الجزية المستحقة للعام المقبل من أربع مدن مختلفة[5]. وإذا كان أحد من رجال الكنيسة قد عومل من جانب الأتراك معاملة سيئة،

---

(1) Id. fol. 143-4.

(2) Zmaievich, fol. 22.

(3) Farlati, tom. Vii. P. 141.

(4) Zmaievich, fol. 7. 17.

(5) Id. fol. 9.

فيظهر أن ذلك كان يرجع بوجه عام إلى اتهامهم بمراسلة أعداء الأتراك مراسلة تنطوي على خيانة. كذلك يظهر أن زيارات رجال الدين المسيحي إلى إيطاليا قد أثارت بحق وفي كثير من الحالات أمثال هذه الريب. وبغير ذلك يظهر أنه لم يكن لدى رجال الكنيسة سبب للشكوى من المعاملة التي لاقوها من المسلمين. بل إن زمايفتش ليتحدث عن خوري كنيسة بأنه كان «محبوبًا جدًا من رؤساء الأتراك»[1]. وليس من شك في أنه كان في ألبانيا نظائر لحالة قسيس في أبرشية تريبنجة Trebinje في هرتسيجوفينا Herzegovina اتهم في النصف الأول من القرن الثامن عشر، بسبب علاقاته الودية مع المسلمين، بأنه عقد النية على الدخول في الإسلام. وكان من أثر ذلك أن بعث به أسقفه إلى رومة تحت حراسة آمنة[2].

ويظهر أنه ليس في الفترات المتعاقبة من تاريخ ألبانيا ما يثبت حدوث ارتداد عن المسيحية واسع النطاق كالذي حدث في القرن السابع عشر؛ ولكن كان هنالك حالات عرضية من الدخول في الإسلام حتى عصور حديثة. وفي جنوب ألبانيا في بلاد التوسك Tosks بلغ من كثرة عدد الأهالي المسلمين أن أصبح المسيحيون في حالة سيئة؛ ويروى عن الكرمورتادين Karamurtads، وهم أهالي ست وثلاثين قرية بجوار بوجونياني Pogoniani، أنهم كانوا حتى نهاية القرن الثامن عشر يدينون بالمسيحية. ولكن لما وجدوا أنفسهم عاجزين عن سد الهجمات المتوالية التي شنها عليهم جيرانهم المسلمون من أهالي ليسكوفيكي Leskoviki، اجتمعوا في كنيسة وابتهلوا إلى القديسين أن يصنعوا معجزة لمصلحتهم، وأقسموا أن يصوموا حتى عيد الفصح انتظارًا للمعونة الإلهية؛ ولكن عيد الفصح أقبل عليهم ولم تُصنع المعجزة، ولهذا دخل الأهلون كافة في الإسلام؛ وسرعان ما حصلوا بعد على الأسلحة التي احتاجوا إليها وذبحوا أعداءهم القدامى في ليسكوفيكي واستولوا على أراضيهم[3].

(1) Id, fol. 141.

(2) Farlati, vol. vi. P. 317.

(3) Eliot, p. 401.

ولم يكن يسمح البتة للطائفة الدينية في ألبانيا أن تقف في طريق نزاع قبلي، ولم يكد يأتي القرن التاسع عشر حتى غيرت القبائل والقرى الألبانية دينها لأسباب تافهة جدًا؛ فيقال إن فريقا من إحدى القبائل المسيحية دخلوا في الإسلام لأن قسيسهم الذي وكل إليه العمل في قرى كثيرة وزارهم أولًا، قد أصر على أن يقول القداس في ساعة مبكرة غير مناسبة(١). وقد قيل إن المسلمين في ألبانيا في الوقت الحاضر يبلغ عددهم حوالي المليون، وأن المسيحيين نحو ٤٨٠ ألفا، ولكن ضبط هذه الأرقام يحتاج إلى تحقيق. والمرديون كلهم نصارى، خضعوا للسلطان على شرط ألا يسمح لمسلم أن يستقر في أراضيهم، ولكن أنصار كلتا العقيدتين المتنافستين قد وجدوا في كل القبائل الأخرى تقريبًا. وقد قيل إن جميع أهالي ألبانيا الوسطى مسلمون تقريبًا، وإن أتباع الإسلام يؤلفون نحو ستين في المائة من أهالي ألبانيا الشمالية. ويحتفظ الأهالي المسيحيون بأكبر نسبة في ألبانيا الجنوبية ولا سيما في المقاطعات المتاخمة لبلاد اليونان.

كانت مملكة الصرب أول الأمر تؤدي الجزية للعثمانيين في سنة ١٣٧٥م، وفقدت استقلالها بعد هزيمة منكرة في كوسوفر Kossovo (١٣٨٩)، حيث قيل ملك الصرب والسلطان التركي كلاهما في ميدان القتال. ودخل خليفتا الملكين المقتولين في تحالف ودي، فاعترف ستيفن الأمير الصربي الشاب بسيادة تركيا، وزوج أخته من بايزيد السلطان الجديد، وعقد معه تحالفًا أخويًا.

وفي موقعة نيكوبوليس Nikopolis (١٣٩٤) التي ضمنت للأتراك امتلاك كافة أرجاء جزيرة البلقان ما عدا المقاطعة التي تحيط بالقسطنطينية، وحوّل الاتفاق العربي مصير الموقعة المتقلب فوهب النصر للأتراك. وفي ساحة أنقرة (١٤٠٢)، عندما سحقت القوة التركية، وأخذ تيمور بايزيد نفسه أسيرًا، كان ستيفن يشهد المعركة بجيوشه الصربية، فحارب بشجاعة من أجل زوج أخته، وبدلًا من أن ينتهز الفرصة لدعم استقلاله ظل مخلصًا لعهده، ووقف إلى جانب أبناء بايزيد حتى استردوا عرش أبيهم. ثم تمتعت الصرب

(١) Id, p. 392.

بشبه استقلال في عهد جورج برانكوفتش **G. Brankovich** خليفة استيفن، ولكنه عندما رفع لواء الثورة سنة ١٤٣٨ غلب الأتراك على المدينة مرة أخرى؛ وحينئذ لم يكن بد من أن تعترف الصرب بسيادة المجر إلى حين. ولكن هزيمة جون هنيادي **J. Hunyady** سنة ١٤٤٤ قد حملتها على أداء الجزية مرة أخرى، وانتهى أمرها أن صارت إيالة تركية في سنة ١٤٥٩.

ولا يبعد أن يكون أهل الصرب الذين اعتقدوا الإسلام بعد موقعة كوفو كانوا على علم بمصير الطائفة المسلمة القليلة العدد التي كانت قد انقرضت من بلاد المجر قبل ذلك بنحو قرن؛ ولذلك آثروا سيادة الأتراك على سيادة المجريين. ويورد ياقوت الوصف التالي لاجتماعه حول سنة ١٢٢٨ ببعض أفراد هذه الجماعة من أتباع النبي في أوربا الوسطى، وهو يعزو إسلامهم إلى هؤلاء المسلمين الذين كانوا قد استوطنوا بين ظهرانيهم؛ قال ياقوت: «وجدت بمدينة حلب طائفة كثيرة يقال لهم الباشغردية (الباشكير)، شقر الشعور والوجوه جدًا، يتفقهون على مذهب أبي حنيفة ﷺ، فسألت رجلاً منهم استعقلتُه عن بلادهم وحالهم، فقال: أما بلادنا فمن وراء القسطنطينية في مملكة أمة من الإفرن يقال لهم الهُنكر (الهنغاريوز = المجريون). نحن مسلمون، رعية لملكهم، في طرف بلاه نحو ثلاثين قرية، كل واحدة تكاد أن تكون بسُليدة. إلا أن ملك الهنكر لا يمكننا أن نعمل على شيء منها سوراً، خوفاً من أن نعصى عليه. ونحن في وسط بلاد النصرانية، فشمالينا بلاد الصقالبة، وقبلينا بلاد البابا يعني رومية (والبابا رئيس الإفرنج وهو عندهم نائب المسيح، أمير المؤمنين عند المسلمين ينفذ أمره في جميع ما يتعلق بالدين في جميعهم)، وقال: وفي غربينا الأندلس، وفي شرقينا بلاد الروم، قسطنطينية وأعمالها، قال: ولساننا لسان الإفرنج، وزينا زيهم، ونخدم معهم في الجندية، ونغزو معهم كل طائفة، لأنهم لا يقاتلون إلا مخالفي الإسلام.

فسألته عن سبب إسلامهم مع كونهم في وسط بلاد الكفر، فقال: سمعت جماعة من أسلافنا يتحدثون أنه قدم إلى بلادنا منذ دهر طويل نفر من المسلمين من بلاد بلغار، وسكنوا بيننا، وتلطفوا في تعريفنا ما نحن عليه من الضلال، وأرشدوا إلى الصواب من دين

الإسلام، فهدانا الله، والحمد لله؛ فأسلمنا جميعاً وشرح الله صدرنا للإيمان. ونحن نقدم إلى هذه البلاد ونتفقه، فإذا رجعنا إلى بلادنا أكرمنا أهلها وولونا أمور دينهم»[١]. وظل الإسلام قائماً بين الباشغردية من أهل المجر حتى سنة ١٣٤٠ حين أرغم الملك شارل روبرت جميع رعاياه، الذين لم يكونوا مسيحيين بعد، أن يعتقدوا الدين المسيحي أو يغادروا البلاد[٢].

لهذا ربما كان يسر المسلمين من أهل الصرب أن يتخلصوا من حكم المجر، كمواطنيهم المسيحيين، لأنه لما عرض عليهم هؤلاء أن يختاروا بين الحكم الروماني الكاثوليكي في المجر وحكم الأتراك الإسلامي، دعاهم تقديس الصربيين الكنيسة الإغريقية إلى إيثار تسامح المسلمين على روح اللاتينيين التي جبلت على حب التبشير والتي لا تعرف المصالحة واللين. ومن ثم تمثل أسطورة قديمة مشاعرهم في ذلك الحين: اشتبك الأتراك والمجريون في حرب، وبحث جورج برانكوفتش عن جون هنيادي وسأله: «ماذا تصنع لو انتصرت؟» فأجاب: «أؤسس العقيدة الرومانية الكاثوليكية»؛ ثم بحث عن السلطان وسأله: «ماذا تصنع لديننا لو انتصرت؟» فأجاب: «أقيم كنيسة إلى جانب كل مسجد، وأدع مطلق الحرية لكل فرد في أن يصلي في أيهما شاء»[٣]. وقد أرغمت خيانة بعض القسوس الصربيين حامية بلغراد على التسليم للأتراك[٤]، كذلك رحب صربيو سمندرية Semendria الواقعة على نهر الدانوب بالجيوش التركية التي خلصتهم من حكم جيرانهم الكاثوليك سنة ١٦٠٠[٥].

بدأ انتشار الإسلام بين الصربيين بعد موقعة كوسوفو مباشرة، عندما تحول عدد كبير من إشراف الإقطاعيين القدامى بمحض إرادتهم إلى دين مُحَمَّد، إذ طال بهم العمر ولم

---

(١) ياقوت: معجم البلدان ج٢ ص ٣٨ (طبعة القاهرة ١٣٢٣)

(٢) Geographie d' Abou' féda, traduite par M. Reinaud, tome ii. Pp. 294-5.

(٣) Enrique Dupuy de Lôme: Los Esclavos y Turqufa, pp. 17-18, (Madrid, 1877).

(٤) De la Jonquière. P. 215.

(٥) De la Jonquière. P. 290.

يلجئوا إلى البلاد المسيحية المجاورة، حتى يضمنوا سلامة ما كسبوه من مزايا قديمة[١]. وقد وجد السلطان في هؤلاء الأشراف الداخلين في الإسلام أشد الدعاة تحمساً للدين الجديد[٢]. ولكن السواد الأعظم من الشعب الصربي ظل متمسكاً بدينه القديم في خلال الفترة التي تحملوا فيها المتاعب والمشاق. أما في ستارا سربيا **Stara Serbia** أو الصرب القديمة وحدها[٣]، التي تؤلف الآن الجزء الشمالي الشرقي من ألبانيا الحديثة، فقد كان هناك عدد هائل نوعاً ما من هؤلاء الذين تحولوا إلى الإسلام؛ بل لقد سار انتشار الإسلام هنا بخطى وئيدة جدًا حتى القرن السابع عشر، عندما حرض النمساويون أهل الصرب على إذكاء نار الثورة، حتى إذا ما أخفقت هذه المحاولة، هاجر أرسنيوس الثالث تسرنويفتش **Tsernoievich**، بطريق ذلك الوقت في سنة ١٦٩٠ مع ٤٠٠٠٠ أسرة صربية يجتازون الحدود إلى بلاد المجر. وفي سنة ١٧٣٩ حدثت هجرة أخرى مؤلفة من ١٥ ألف بزعامة أرسنيوس الرابع جوفانوفتش، وأوشك هذا الجزء من البلاد أن يتجرد من أهاليه الصربيين الأصليين[٤].

وضغط المستعمرون الألبانيون من الجنوب على البلاد التي خلت بهجرة هؤلاء الهاربين، وكان السواد الأعظم من هؤلاء الألبانيين عند وصولهم من الرومان الكاثوليك، ولكنهم بعد أن استقروا في بلاد الصرب القديمة اعتقدوا الإسلام تدريجاً، ولم يبق اليوم من الألبانيين من الرومان الكاثوليك إلا بقية صغيرة على الرغم من أن أفواجاً جديدة كانت تتجمع إليهم من الجبال من حين إلى حين. على أن هؤلاء الجدد كانوا ينسجون عادة على منوال أسلافهم، فيدخلون في الإسلام بعد قليل[٥].

أخذ الإسلام بعد هذه الهجرة، ينتشر بصورة أسرع بين البقية الباقية من أهالي

---

(١) **Kantiz, p. 37.**

(٢) **Id. Pp. 37-8**

(٣) أورد ماكنزي وإربي **Irby (p.243)** خريطة لهذه البلاد: وهي بريزرين **Prizren**، حاضرة الصرب القديمة، وإيبك **Ipek** مقر البطريق الصربين والمنطقة التي وقعت فيها معركة كوسوفو.

(٤) **Kantiz, p. 37.**

(٥) **Mackenzie and Irby, pp. 250-1.**

الصرب. وكان رجال الكنيسة من الصربيين في غاية الجهل والأمية، فلم يستطيعوا قراءة كتب خدمتهم الدينية إلا في صعوبة، ولم يعرف أحد منهم الكتابة إلا نادراً، ولم يعظوا الناس أو يعلموهم أصول الدين بطريقة الحوار. ومن ثم كان من النادر أن تجد في جميع القرى شخصاً عرف صلاة الرب وعرف عدد الوصايا، حتى القسس أنفسهم كانوا لا يقلون جهلاً بهذه المسائل الدينية(١). وبعد ثورة ١٦٨٩ عين الباب العالي بطريق إبيك، الرئيس الديني للصرب؛ ولكن في سنة ١٧٣٧، كان من أثر قيام ثورة أخرى أن تعطلت البطركية الصربية تعطلاً تاماً؛ وجُعلت الكنيسة الصربية تابعة للبطريق الإغريقي في القسطنطينية. وامتلأت الكنائس بالأساقفة الإغريق الذين ظاهروا البكوات والباشوات الأتراك على ابتزاز المسيحيين المساكين، وحرمت لغتهم القومية وجمعت كتب الصلوات السلافية القديمة وغيرها وأرسلت إلى القسطنطينية(٢).

فلا عجب أن يصيب الدين المسيحي انحلال وتدهور مع قيام رجال على الكنيسة من هذا القبيل؛ مثال ذلك أننا نجد في شعب جورا Gora (في مقاطعة برزرين) الذين كانوا قد أخذوا يدخلون في الإسلام على أثر الهجرة الكبرى سنة ١٦٩٠، أن الصربيين الذين مازالوا متعلقين بالمسيحية، طالما لجئوا إلى أسقف برزين الإغريقي ليبعث إليهم قسوساً ولو من حين لآخر، ولكن مساعيهم كلها ذهبت أدراج الرياح؛ فظل أبناؤهم من غير تعميد، ونظمت أعمال العرس والدفن من غير مباركة الكنيسة، وآلت المباني المقدسة إلى البلي(٣). كذلك في مقاطعة أوبولجه Opolje المجاورة. لا يبعد أن يكون السواد الأعظم من الأهالي المسلمين الآن الذين يبلغ عددهم ٩٥٠٠ نفسا، منحدرين من أهالي هذه البقعة الذين ينتمون إلى أصل سلافي(٤).

وفي مستهل القرن السابع عشر وجد بتزي في مدينة جانيفو Jagnevo ١٢٠ أسرة

---

(١) Farlati, vol, vii. Pp. 127-8.

(٢) Mackenzie and Irby, pp. 374-5. Kanitz, p. 39.

(٣) Id, pp. 39-40.

(٤) Kanitz, p. 38.

رومانية كاثوليكية و ٢٠٠ أسرة إغريقية و ١٨٠ أسرة إسلامية[١]. وبعد ذلك بأقل من مائة عام، كان كل بيت في لندينه يُعدُّ مسلماً، لأن رب كل أسرة دان بالإسلام ولم يبق على المسيحية إلا النساء وبعض الأطفال[٢]. وحول منتصف القرن الثامن عشر كانت قرية لجورس Ljurs بأسرها كاثوليكية. ففي سنة ١٨٦٣ كانت هناك ٩٠ أسرة مسلمة و ٢٣ أسرة مسيحية، أما في الوقت الحاضر فإن هذه القرية وما جاورها من القرى قد نبذ أهلها المسيحية عن آخرهم[٣]. وكان لا يزال إلى وقت حديث بعض آثار باقية من دينهم المسيحي القديم، قائمة في بعض القرى كإحراق جذع الشجرة ليلة عيد الميلاد وغير ذلك. بيد أن أمثال هذه العادات أخذت تزول في الوقت الحاضر.

وبعد موقعة كوسوفو وسقوط دولة الصرب كانت هضاب الجبل الأسود الموحشة ملجأ لهؤلاء الصربيين الذين أبوا الخضوع للأتراك، ولكنهم عقدوا النية على التمسك باستقلالهم. ولا مجال هنا لسرد ما كان لهذا الشعب الجريء من تاريخ كفاح ينطوي على البطولة في وجه هذه الكثرة الهائلة، وكيف استطاعوا في خلال قرون قضوها في قتال مستمر في ظل حكم أمرائهم الأساقفة[٤]، أن يبقوا على ولاية مسيحية حرة، في حين كان جميع أخواتها من جنسها قد أجبرت على الخضوع للحكم الإسلامي. ولما كان الأساس الذي قام عليه كيانهم المستقل، باعتبارهم أمة، هو تمسكهم بالعقيدة المسيحية التي لا تتزعزع، لم يكن من المنتظر أن يتخذ الإسلام بينهم في سهولة ويسر. ولكن في القرن السابع عشر دخل في الإسلام كثير من أهالي الجبل الأسود في المقاطعات الواقعة على الحدود، والتحقوا بخدمة من جاورهم من الباشوات.

وفي سنة ١٧٠٣ جمع دانيال بيتروفتش D. Petrovich الأسقف الحاكم في ذلك الحين، القبائل وأخبرهم أن الأمل الوحيد لإنقاذ بلادهم ودينهم ينحصر في القضاء على

---

(١) Bizzi, fol. 48. b

(٢) Zmaievich, fol. 182.

(٣) Kantiz, p.38.

(٤) حكم الجبل الأسود أساقفة من سنة ١٥١٦ إلى ١٨٥٢

المسلمين الذين يعيشون بين ظهرانيهم. وكان من أثر ذلك أن الذين لم ينقضوا عهد الإسلام وأبوا أن يدخلوا في المسيحية من مسلمي الجبل الأسود قتلوا في ليلة عيد الميلاد في ثبات ورباطة وجأش[1].

والآن ننتقل إلى البوسنة: كانت أحوال الشعب الدينية والاجتماعية في هذه البلاد قبل الفتح التركي تستحق عناية خاصة. ينتمي السواد الأعظم من أهالي هذه البلاد إلى طائفة مسيحية من الخوارج يطلق عليها طائفة «البوجوميل Bogmiles»، الذين كانوا قد تعرضوا من القرن الثالث عشر لاضطهاد الكاثوليك الرومان، والذين طالما دعا البابوات إلى شن حرب صليبية عليهم[2]. ففي سنة ١٣٢٥ كتب البابا جون الثاني والعشرون إلى ملك البوسنة يقول: «إلى ولدنا الحبيب الحسيب استيقن أمير البوسنة – لعلمنا بأنك ابن مخلص للكنيسة، نعهد إليك أن تستأصل شأفة الخوارج في ملكك، وأنت تبذل العون والمساعدة لقاضينا فابيان Fabian؛ ذلك أن جمهوراً عظيماً من الخوارج تجمعوا من نواح كثيرة متعددة، وتدفقوا جميعاً على إمارة البوسنة مطمئنين إلى أنهم سيبذرون هناك خطاياهم الفاحشة ويعيشون في أمن ودعة.

ولما كان هؤلاء القوم قد أشربوا خبث العدو القديم (أي الشيطان) وتساجوا بسموم باطلهم، أفسدوا عقول الكاثوليك بتظاهرهم بالبراءة وادعائهم الزائف اسم المسيحيين، كلامهم دبيب السرطان، ويندسون في تواضعن ولكنهم يقتلون في باطن الأمر، وهم ذئاب في ثياب خراف، يسترون جنونهم الوحشي، يجعلونه وسيلة للتمويه على خراف المسيح الأبرياء، وفي القرن الخامس عشر أصبحت آلام البوجوميل لا تحتمل، حتى إنهم استغاثوا الأتراك لتخليصهم مما هم فيه من بؤس وشقاء، لأن ملك البوسنة والقسيسين كانوا قد بلغوا اضطهاد البوجوميل حدا ربما لم يبلغه أحد من قبل. فهرب عدد كبير منهم

---

[1] E.L.Clark, pp, 362-3.

[2] دعا إليها البابا هنوريوس الثالث Honorius III في سنة ١٢٢١، وجريجوري التاسع في سنة ١٢٣٨، وإنوسنت الرابع Innocent IV في سنة ١٢٤٠، وبندكت الثاني عشر Benedict XII في سنة ١٣٣٧، وتأسيس ديوان الفتيش Inquisition في سنة ١٢٩٠.

يقرب من أربعين ألفاً من البوسنة، واتخذوا ملجأ في البلاد المجاورة. أما الذين لم يوفقوا في الهرب فقد أرسلوا إلى روما مكبلين في الأصفاد. ولكن هذه التدابير، على شدتها لم تضعف من قوة البوجوميل في البوسنة إلا يسيراً؛ ذلك أن الأخبار في سنة ١٤٦٢ تحدثنا أن الهراطقة كانت في هذه البلاد أقوى منهم في أي وقت مضى.

وفي السنة التالية، عندما غزا محمد الثاني البوسنة، وجد الملك الكاثوليكي أن رعاياه قد تخلفوا عنه؛ وسلم حاكم البوجوميل مفاتيح الحصن الرئيسي، مدينة بوبوفاتس Bobovatz الملكية إلى الأتراك، وأسرع سائر الحصون والمدن إلى الاقتداء بالحصن، وفي خلال أسبوع انتقلت سبعون مدينة إلى أيدي السلطان، وأضاف محمد الثاني البوسنة إلى عدد فتوحه الكثيرة[١].

ومنذ ذلك الوقت لم نسمع عن البوجوميل إلا قليلاً، ويظهر أنهم دخلوا في الإسلام بمحض إرادتهم في جموع كبيرة على أثر الفتح التركي؛ أما البقية الباقية منهم فيظهر أنهم اعتقدوا الإسلام بعد ذلك تدريجاً، على حين هاجر الكاثوليك الرومان من أهالي البوسنة إلى ما جاورهم من أراضي المجر والنمسا. وقد زعم بعض الباحثين[٢] أن جموعاً كبيرة من البوجوميل، في العهد الأول من الفتح على الأقل، دخلوا في الإسلام بقصد الرجوع إلى دينهم إذا ما واتتهم فرصة مناسبة؛ ولما كانوا يقلون اضطهاداً مستمراً، فلا يبعد أنهم تعلموا كيف ينكرون دينهم إلى حين. ولكن لما لم تواتهم قط هذه الفرصة المناسبة، كان لا بد أن يصرفوا النظر عن هذه النية تدريجاً، ثم نسبتها ذريتهم آخر الأمر.

على أن مثل هذا الزعم لا يعدو أن يكون مجرد حدس وتخمين ولا يعتمد على دليل قوي. ولعل السبب في رضا البوجوميل بالسماح لأنفسهم أن ينتظموا في سلك عامة المسلمين المؤمنين راجع إلى مواضع كثيرة تتشابه فيها عقائدهم الخاصة ومبادئ الإسلام.

---

(١) Asboth, pp. 41-95. Evans. Pp. xxxxvi-xlii

(٢) Asboth, pp, 96 7.

فقد رفضوا عبادة مريم العذراء، ونظام التعميد وكل صورة من الكهنوت[١]. وأنكروا الصليب رمزاً دينياً، وعدوا من عبادة الأصنام الانحناء أمام الصور الدينية والتماثيل وآثار القديسين. وكانت بيوت صلواتهم ساذجة خالية من الزينة، وهذا على خلاف الكنائس الكاثوليكية الرومانية التي تحلت بالزخارف الزاهية. وشاركوا المسلمين في كراهية النواقيس التي أطلقوا عليها «أبواق الشيطان»، واعتقدوا أن المسيح نفسه لم يصلب، وإنما حل محله شيخ آخر: وهم يتفقون في هذه الناحية في جانب مما جاء به القرآن[٢]. وإذ ذمهم الخمر، وتزمتهم البادي في أسلوب حياتهم، وتشددهم البالغ في سلوكهم الخارجي، كل هذه الروابط قد ساعدت على توثيق صلتهم بالإسلام[٣]، إذا قيل عنهم: «إنك سترى هراطقة هادئين مسالمين كحملان طليقة بالعراء، ساكنين، شاحبي اللون من صيام يشوبه النفاق، لا يكثرون الكلام ولا يضحكون بصوت عال، يطلقون لحاهم ويظهرون بمظهره الوقار[٤]». كانوا يصلون خمس مرات بالنهار وخمساً بالليل، مرددين صلاة الرب مع سجدات كثيرة[٥]. ومن ثم وجدوا التغيير ضئيلاً بانتقالهم إلى إقامة الصلوات في المساجد.

وإذا كنا قد جمعنا هنا المواضع الكثيرة التي تتشابه فيها عقيدة البوجوميل مع تعاليم الإسلام، فإن هناك بطبيعة الحال بعض مبادئ تتميز بطابعها المسيحي الذي لا يستطيع أن يقرها مسلم من أهل السنة. ومع ذلك فإن من اليسير أن ندرك بوجه عام كيف استميل البوجوميل تدريجاً إلى ترك تلك المبادئ التي كان الإسلام ينبذها ولا يقرها. كذلك كان مذهبهم في المانوية المثنوية مما لا تتسامح فيه العقيدة الإسلامية؛ وإنما ظهر الإسلام

---

(١) وعابوا حفلات الكنيسة ورؤساءها، وأطلقوا على القسيسين من الأرثوذكس اسم الفريسيين العميان، وكانوا يهرونهم كما تهر الكلاب الخيل؛ وأكدوا أن العشاء الرباني لا يصان تبعاً لوصية الرب، وأنه ليس عبارة عن حصد الرب ولكنه كأي خبز آخر.

(Kosmas, quoted by Evans. Pp. xxx-xxxi)

(٢) سورة ٤ آية ١٥٦.

(٣) فإن هذا بما أظهره الأتراك نحو شارل الثاني عشر ملك السويد من إعجاب: «إن تعدده في الامتناع عن شرب الخمر ومواظبته على شهود الصلوات العامة مرتين في اليوم، قد جعلهم يقولون: إنه لمسلم حق».

(Euvers de Voltaire, tome 23, p, 200). (paris, 1785)

(٤) **Kosmas, quoted by Evans, p. xxxi.**

(٥) **Asboth, p. 36. Wetzer und Welte, vol, ii, p. 975.**

دائماً بمظهر المتسامح في قبول مثل هذه التأملات في العقيدة بشرط ألا تؤدي إلى الخروج عن الدين، وأن تكون الموافقة عامة والقبول شاملاً على الأصول الأساسية التي قامت عليها العقيدة من الوجهتين النظرية والعملية.

قدم الأتراك، كما كانت عادتهم دائماً، كل مزية لإغراء أهالي البوسنة على قبول الدين؛ فسمحوا لكل من يعتنق الإسلام أن يحتفظ بأراضيه وممتلكاته، وأعفيت إقطاعاتهم من جميع الضرائب(١). ومن المحتمل أن يكون كثير من الورثة الشرعيين للبيوتات القديمة الذين كانت الطائفة الكاثوليكية قد انتزعت أملاكهم في جملة الأشراف بسبب أفكارهم الإلحادية، قد انتهزوا الآن فرصة لاسترداد مركزهم القديم بالإذعان للدين الغالب. واحتفظ البوسنيون المسلمون بقوميتهم، وظل السواد الأعظم منهم يحملون أسماء صربية ولا يتكلمون إلا بلغتهم الوطنية(٢)؛ وفي الوقت نفسه كانوا يبرهنون دائماً على غيرة متدفقة على دينهم الجديد، وسرعان ما تبوأ أشراف البوسنة بفضل شجاعتهم العسكرية وتقديسهم للإسلام وما كان لهم من نفوذ قوي، مكانة سامية في القسطنطينية، وأصبح كثير منهم موضع ثقة في مناصب الحكومة المهمة. مثال ذلك أن تسعة من رجال السياسة الذين ينتمون إلى أصل بوسني شغلوا منصب كبير الوزراء في الفترة التي تقع بين سنتي ١٥٤٤، ١٦١١.

وكان آخر ما حصلت عليه الفتوح العثمانية من ممتلكات، جزيرة إقريطش التي اغتصبت في سنة ١٦٦٩ من جمهورية البندقية بالاستيلاء على مدينة كانديا بعد حصار طويل مضن دام نحو ثلاث سنين، وختم كفاح خمسة وعشرين عامًا بين تلك القوى المتنافسة في سبيل امتلاك هذه الجزيرة.

ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي انضوت فيها إقريطش تحت لواء الحكم الإسلامي، فقد استولى فريق من عرب الأندلس المخاطرين على هذه الجزيرة على غرة،

(١) Oliver, pp. 17-18.

(٢) Oliver, pp. 113.

وذلك في القرن التاسع الميلادي، وظلت تحت سلطانهم حوالي قرن (٨٢٥-٩٦١)[١]. وفي خلال هذه الفترة أصبح كل سكان الجزيرة تقريباً مسلمين، كما أصبحت بعض الكنائس أطلالاً، واستحال بعضها الآخر إلى مساجد. ولكن عندما عاد سلطان الدولة الرومانية إلى الاستقرار في هذه البلاد، ارتد الشعب مرة أخرى إلى دينهم القديم عن طريق التبشير الذي قام به راهب أرمني ماهر، وأصبح الدين المسيحي هو الدين الوحيد المعترف به في الجزيرة[٢].

وفي مستهل القرن الثالث عشر اشترى البنادقة الجزيرة من بونيفاس دوق مونتسيرات Monteserrat، الذي أصبحت هذه الجزيرة من نصيبه بعد تقسيم الدولة الرومانية، وحكموها بيد من حديد ويظهر أنهم نظروا إليها على أنها شروة لهم أن يحولوها لصالح لحكومة التي استوطنت البلاد ولصالح مستعمريها. وكانت إدارتهم من الظلم والجور بحيث أثارت كثيراً من الثورات التي قمعت بشدة لا تعرف الرحمة؛ وفي إحدى هذه المناسبات أخليت مقاطعات بأسرها في ولايات سفاكية ولاسيتي Sfakia & Lassiti من السكان. وحُظرت زراعة الغلال في هذه الأرض، وإلا عرض المخالفون أنفسهم لعقوبة الموت، حتى إن هذه المقاطعات بقيت جرداء مقفرة مدة قرن تقريباً[٣]. وقد أضافت تلك القسوة المفزعة التي قمع بها مجلس الشيوخ البندقي آخر هذه المحاولات في بداية القرن السادس عشر، رعباً بالغاً إلى حالة البؤس التي أنّ منها أهالي إقريطش التاعسون، ونستدل على سوء حظهم العاثر في هذه الفترة من تلك التقارير التي دونها أعضاء اللجنة الذين أرسلهم مجلس شيوخ البندقية في الشطر الأخير من هذا القرن نفسه، لكي يستقصوا حالة سكان الجزيرة. وقد قيل إن أشراف البندقية كانوا يسحقون الفلاحين بأقسى ألوان التعسف والظلم، كما أصبحت حالة سادتهم الإقطاعيين أسوأ من حالة الأرقاء، إلى حد أنهم لم يجرؤوا قط حتى على تقديم شكواهم من أي لون من ألوان الظلم.

---

(١) Amari. Vol. p. p. 163; vol. ii. P. 260.

(٢) Cornaro, vol, I, pp, 205-8.

(٣) Perrot, p. 151.

وكان على كل فلاح أن يشتغل في أعمال السخرة اثنى عشر يومًا كل سنة بدون أجر من أجل سيده الإقطاعي. وعندئذ كان في استطاعة سيده أن يرغمه على الاستمرار في العمل ما دام هذا السيد يحتاج إلى خدماته بأجرة اسمية قدرها بنس في اليوم (أي أربعة مليمات تقريباً). وكانوا يدفعون عن كرومهم ضريبة تعادل ثلث قيمة المحصول؛ ولكن الغش والعنف مجتمعين كثيرًا ما أفلحا في رفع هذه الضريبة إلى ما يعادل الثلثين. وقد تغتصب ثيرانهم وبغالهم لخدمة السيد الذي كان له ألف حيلة أخرى لابتزاز الفلاح المسكين(١).

ولكن اتضح أن قرارات أعضاء اللجنة لم يكن لها تأثير في إقناع مجلس الشيوخ بالبندقية، بأن يرفع من مستوى حالة أهالي إقريطش البائسين ويضع حدًا لقسوة الأشراف وظلمهم. فقد آثر المجلس أن يستمع إلى نصيحة فرا باولو ساربي **Fra Paolo Sarpi** الذي خاطب الجمهورية في سنة **١٦١٥** في شأن مستعمراتها اليونانية بقوله: «إذا استبد سادة هذه المستعمرات بالقرى الواقعة تحت نفوذهم فإن أقوم السبل أن نغض النظر عنها لأنه قد لا توجد رحمة بينهم وبين رعاياهم(٢).

فلا عجب إذا علمنا من المصادر ذاتها أن أهالي إقريطش كانوا يتطلعون إلى تغيير الحكام، وأنهم «لم يترددوا كثيرًا في الخضوع للترك في ذلك بسائر أمتهم». حقًا لقد هرب كثير إلى تركيا في ذلك الوقت تخلصًا مكن عبء الضريبة الذي أثقل كواهلهم، مقتفين آثار غيرهم ممن لا يدخلون تحت حصر، وممن كانوا من حين لآخر قد اتخذوا هناك ملجأ لهم(٣). كذلك هاجرت جموع غفيرة إلى مصر حيث دخل كثير منهم في الإسلام(٤). وقد أزعج أهالي إقريطش بوجه خاص ما أنزله رجال الكنيسة اللاتينية بهم من تعسف وإرهاق، هؤلاء الذين وضعوا أيديهم على الأحباس التي هي من حق رجال الدين من الإغريق. ولم يألوا جهدًا في إهانة المسيحيين من أشياع المذهب اليوناني، الذين ألقوا تسعة أعشار

---

(١) **Pashley. Vol. i. p. 30; vol. ii. Pp. 248, 291-2.**

(٢) **Pashley, vol, ii, p, 298.**

(٣) **Id, vol, ii, p, 285.**

(٤) **Id, vol, ii, p, 319.**

سكان الجزيرة[١]. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الأتراك قد استرضوهم بإعادة السلطة الدينية اليونانية. وقد ذكر أحد كتاب البندقية أن هذا الأمر قد تم على الصورة التالية: «ذهب أحد كهنة الأبرشية اليونانية أو أحد القسيسين في كانيه **Canea** إلى قُسيم القائد التركي وأخبره أنه إذا أراد أن يظفر برضا الشعب الإقريطي وأن يجعل البندقية مبغضة إليه، فلا بد له من أن يعلم أن الدين هو أوثق الروابط التي تحفظ المجتمع الراقي من وهدة الانشقاق، وأنه ينبغي أن يعمل في طريق تختلف عن الخطة التي رسمها البنادقة لأنفسهم. فقد بذل هؤلاء قصاراهم في استئصال شأفة العقيدة الإغريقية وتأسيس عقيدة روما مكانها، وتواطئوا معها على أن يصدروا أمرهم بعدهم بقاء أي أسقف إغريقي في الجزيرة.

ومن ثم حسبوا أنهم بعد إقصاء هؤلاء الرعاة الموقرين أنه أصبح من الميسور أن يتمكنوا من قيادة القطعان المتفرقة، وكان هذا التحريم قد أثار بلبلة في عقول أهالي إقريطش إلى حد أنهم كانوا متأهبين في فرح وطاعة للترحيب بأية سلطة تبدي رغبتها في إعادة تأسيس هذا النظام في حكومتهم الدينية، وهو نظام أساسي في مباشرة عبادتهم المقدسة ذاتها. وأضاف إلى ذلك أنه قد تكون هناك وسيلة أخرى لاسترضاء الشعب لو أنهم منحوا مزايا دينهم القديمة، بل منحوا إلى جانب ذلك مزايا جديدة كذلك. وقد رأى قسيم أن هذه المطالب عادلة، فبادر إلى الكتابة إلى القسطنطينية بشأنهم، وهناك أقروا مطالبهم، وأمر البطريق اليوناني بأن يعين رئيس أساقفة ليكون مطرانا لولاية كانديا. ورشح كذلك سبعة أساقفة آخرين ليعملوا برياسة المطران[٢]».

ويظهر أن جموعًا كبيرة من أهالي إقريطش دخلت في الإسلام بعد الفتح التركي مباشرة، ولا يبعد أن تكون تلك الوطنية ذاتها التي جعلتهم يتمسكون بدينهم القديم تحت سيادة البنادقة الأجنبية الذين أبقوا عليهم في حر شديد، ونظروا إلى أية محاولة ترمى إلى

---

(١) **Perrot, p. 151.**

(٢) **Charels Edwardes: Letters from Crete, pp, 90-2. (London, 1887)**

إدماجهم في غيرهم على أنها إهانة لا تغتفر[1]، وحاولوا دائماً أن يوحوا إلى رعاياهم بأنهم منحطون، لا يبعد أن يكون ذلك كله قد حملهم على قبول ديانة سادتهم الجدد التي سرعان ما رفعتهم من منزلة الرعايا إلى رتبة الأنداد، ومنحتهم نصيبًا في الحياة السياسية وفي حكومة بلادهم.

ومهما تكن العوامل التي أدت إلى تحول أهالي إقريطش إلى الإسلام وانتشاره بينهم انتشارًا واسع النطاق، يبدو أنه مما لا يكاد يصدقه العقل أن القوة هي التي غيرت دين شعب كان قبل ذلك بقرون قد تشبث بدينه القديم في قوة وثبات، برغم ما عاناه من اضطهاد خصم وعقيدة أجنبية. ومهما تكن الوسائل التي انضووا بها إلى صفوف الإسلام، فقد قيل إن معظم المسلمين بعد الفتح بثلاثين سنة كانوا قد ارتدوا عن المسيحية أو كانوا أبناء مرتدين[2]. وفي مدة تزيد قليلاً على قرن دخل نصف أهالي إقريطش في الإسلام. وكان هناك مسلمون من أهالي إقريطش (ولا يزالون) من أقصى الجزيرة إلى أقصاها، لا في المدن وحدها، بل كذلك في القرى والمناطق الداخلية وفي صميم الجبال، وهم متفقون جميعًا في الشكل والعادات واللغة برغم أنهم إغريق لحمًا ودمًا.

ولم يكن هناك قط، حتى في الوقت الحاضر، أية لغة يتكلمها أهالي جزيرة إقريطش سوى اللغة اليونانية؛ حتى الأتراك القلائل الذين نجدهم هنالك لم يكن بد من أن يتكلموا لغة البلاد، كما كانت جميع فرمانات الباب العالي وأوامر الباشوات تقرأ وتذاع باللغة اليونانية[3]. ولم يكن ما حدث بين النصارى والمسلمين في إقريطش من الشعور المرير الذي جعل تاريخ هذه الجزيرة في غضون القرن التاسع عشر تاريخًا ينطوي على الحزن والأسى، خطيرًا بحال من الأحوال قبل نشوب الثورة اليونانية، أيام أن كان مسلمو إقريطش يكثرون من اتخاذ البنات المسيحيات زوجات لهم، وكن من بنات أصدقائهم

---

(١) Phashley, vol, ii. Pp. 151-2.

(٢) Id. Vol. i. p. 9.

(٣) Perrot, p. 159.

المسيحيين[١].

وقد زاد في توثيق الارتباط الاجتماعي بين هاتين الجماعتين الزيّ المشترك بينهما؛ فقد كان أهالي إقريطش من المسلمين والنصارى على سواء متشابهين في الزي، حتى لقد كان من العسير على المقيمين بينهم فترة طويلة، أو على اليونان من أهالي الجزر المجاورة[٢] أن يميزوا بين الفريقين في كثير من الأحيان.

وقد سدت الأحداث السياسية الحديثة نقصًا كبيرًا في سكان إقريطش المسلمين، وفي سنة ١٨٨١ كان عدد المسلمين في الجزيرة ٧٣.٢٣٤، وفي سنة ١٩٠٩ نقص العدد على أثر الهجمات المستمرة إلى ٣٣.٤٩٦[٣].

---

(١) Pashley, vol. i.pp. 10, 195.

(٢) T.A.B Spratt: Travels and Researches in Crete, vol, i, p. 47. (London, 1865).

(٣) R. du M.M Vii. P. 99.

الباب السّابع

انتشار الإسلام في فارس وأواسط آسيا

إذا أردنا أن نتتبع طريق انتشار الإسلام شرقًا إلى أواسط آسيا، وجب أن نرجع قليلاً إلى عهد الفتوح العربية الأولى؛ فإنه لم يكد ينتصف القرن السابع الميلادي حتى كانت الأسرة الساسانية العظيمة قد سقطت، ودخلت في حوزة المسلمين، تلك الإمبراطورية الفارسية الشاسعة، التي ناهضت روما وبيزنطة أربعة قرون. ولما تشتت شمل جيوش الدولة الفارسية، لم يلق المسلمون مقاومة تذكر من الشعب الفارسي الذي كان قد استبد بحكمه ممثلو الدولة الساسانية في أواخر أيامها استبدادًا امتاز بكثير من ضروب الفوضى والعنت. ومما أثار غضب الأهلين وجعلهم ينظرون إلى حكامهم نظرة تنطوي على الكراهة والبغضاء، وزادت شُقة الخلاف بينهم، أن هؤلاء الحكام كانوا يناصرون ديانة زرادشت التي غدت الدين الرسمي للدولة، والتي كانت من قبل بغيضة عند الأهلين، ويفسحون المجال لكهنتها، حتى أصبح لهم نفوذ كبير في الدولة وصاروا على جانب عظيم من القوة في مجالس الملك، وادعوا أن لهم نصيبًا كبيرًا في إدارة الشئون المدنية[١]، واستغلوا نفوذهم في اضطهاد كل الفرق الدينية المخالفة لهم (وكانت كثيرة).

وإلى جانب هذه الجماعات الكثيرة من معتقدي المذاهب الفارسية القديمة، كانت هناك طوائف من المسيحيين واليهود والصابئة، وأحزاب مختلفة تأثرت بتأملات الأدريين Gnostics[†] والبوذيين والمانوية Manichaens. وقد أثار هذا الاضطهاد شعور الكراهة المريرة الذي أحسه الشعب الفارسي نحو هذا الدين الذي تغلغل في بلاد الفرس، ونحو تلك الدولة التي وقفت من ذلك الاضطهاد موقف الرضا والتشجيع، كما كان كذلك

[١] ذكرت في الأصل غربا.

[†] هي طائفة من النصارى تقول إن المادة قديمة، وإن الشر من طبيعتها، وخلطت بين النصرانية ومذهب الماديين والمجوس.

علة ذلك الانتصار الذي حالف الفتح العربي، وجعله يظهر في صورة تخليص الأهلين مما أصبحوا فيه[(١)].

وما إن تم للمسلمين ما أرادوا على هذا الوجه، حتى تنفس الفرس أنفسهم الصعداء ورحبوا بالعرب، حبًا في الخلاص من ظلم الحكام أولاً، ورغبة في إعفائهم من الخدمة العسكرية ثانيًا، ثم أملا في تمتعهم بالحرية الدينية آخر الأمر، وذلك لأن الإسلام كان يبيح لغير المسلمين من يهود ومسيحيين، ومن زرادشتين وصابئة وعبدة الأوثان والنار والحجارة، أن يتدينوا بما يرضون لأنفسهم من دين، على أن يدفعوا للمسلمين الجزية[(٢)]. ولقد قيل إن النبي نفسه أوصى بالزرادشتيين خيرًا، وأمر المسلمين أن يعاملوهم معاملة أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى وأن تؤخذ منهم الجزية كذلك كِفَاء حمايتهم[٣]. وقد يكون هذا الحديث قد ذاع في القرن الثاني للهجرة حين تلمس المسلمون حديثًا نبويًا يبيح التسامح الديني في معاملة أهالي الديانات المختلفة الأخرى التي وجدها العرب في البلاد التي فتحوها، سواء أدخل معتنقو هذه الديانات في عداد أهل الكتاب أم لم يدخلوا[٤].

وإلى حالة الكنيسة المسيحية في فارس وما سادها من اضطراب وارتباك، يجب أن نذكر تغيير الحكومة الذي خلصها من استبداد ملوك الساسانيين الذين أثاروا الخلاف المرير بين اليعاقبة والنسطوريين، كما زادوا في فوضى الأحزاب المتحاربة المتنافرة، ولقد أشرنا من قبل[٥] إلى الاضطهادات الدينية الأولى، والآن نذكر أنه حتى في عهد احتضار الأسرة الساسانية، ثارت ثائرة خسرو الثاني، واشتد حنقه من جراء الهزيمة التي أنزلها به الإمبراطور المسيحي هرقل، فأمر باضطهاد المسيحيين المقيمين في داخل حدود مملكته، والذين تحملوا على اختلاف مذاهبهم كثيرًا من ألوان العنت والآلام. ولعل هذه الأحوال

---

(١) Cactani, vol, ii, pp. 910-11; A, de Gobineau (1), pp. 55-6.

(٢) أبو يوسف: كتاب الخراج ص ٧٣.

٣ أبو يوسف ص٧٤، والبلاذري ص٧١ (في النهاية)، ٧٩، ٨٠.

4 Caetani, vol. v. pp. 361 (& 611 n. 1), 394-5, 457/

٥ ص ٦٨-٦٩.

المضطربة قد هيأت عقول الناس لذلك التحول الفجائي في شعورهم الذي سهل تغيير العقيدة. ((وإلى جانب الاضطراب السياسي في الدولة، ظهرت تلك الفوضى الأخلاقية التي ملأت عقول المسيحيين الذين وقفوا أمام هذه المصائب المتراكمة والآلام المعنوية التي أثارها قيام الصراع العنيف بين هذه العقائد المتنافرة، فمالوا إلى هذا النظام العجيب من التنسيق العقلي الذي ينمو فيه الدين الجديد في سهولة ويسر، ويكتسح أمامه أكثر الأديان الأخرى ويحاول أن يقيم الحالة الدينية والاجتماعية على أساس جديد. وبعبارة أخرى كان أهالي فارس، والأجناس السامية بوجه خاص، قد بلغت عقليتهم درجة ساعدتهم على التحول إلى ذلك الدين الجديد والترحيب باعتناقه في حماسة ملحوظة لما يمتاز به من البساطة. وهكذا قدر للإسلام أن يبدد بضربة واحدة كل هذه الغيوم، وأن يفتح أمام الناس سبلًا واضحة من الآمال الكبيرة، وأن يعدهم بتخليصهم في أسرع وقت من عبوديتهم وحالتهم السيئة))[1].

على أن سكان المدن، وخاصة الصناع وأصحاب الحرف وأهل الطبقة العاملة، قد رحبوا بالدين الإسلامي واعتنقه عدد عظيم منهم في حماسة كبيرة، وذلك لما تتطلبه أعمالهم من تركهم ديانة زرادشت وتقبيح عبادة النار والأرض والماء، وهم الذين كانوا ينظر إليهم أمام القانون باحتقار وازدراء، ولما في اعتناقهم الإسلام أيضًا من تركهم في الحال أحرار ومساواتهم في المذهب الديني[2]. ولم يكن ارتدادهم عن ديانة زرادشت نفسها بالأمر الصعب، فقد تبع سقوط الأسرة الساسانية تدهور الكنيسة، حتى إنه لم يعد لأتباعها هناك مركز يجتمعون حوله، فوجدوا السبيل سهلًا ميسورًا لتدينهم بالإسلام لما بين مذهبهم الجديد ومذهبهم القديم من أوجه الشبه الكثيرة فالفارسي يستطيع أن يجد في القرآن كثيرًا من التعاليم الأساسية في ديانته القديمة، وإن كان ذلك بصورة مختلفة كثيرًا.

وبعبارة أخرى فإنه يصادف بدل اسم أهورمزدا **Ahurmazda** وأهرمان **Ahriman** في ديانته القديمة اسم الله وإبليس في القرآن، كما يجد أيضًا أن الله خلق العالم في ستة أيام،

---

[1] **Caetani, vol ii. P. 910.**
[2] **De Gobineau (2), pp. 306-10.**

ويقرأ عن الملائكة والشياطين، كما يقرأ قصة براءة الإنسان القديم، وبعث الجسد بعد الموت، والاعتقاد بوجود الجنة والنار[1]. بل نجد كثيرًا من وجوه الشبه في تفصيلات العبادة اليومية، وأصبح على أتباع زرادشت بعد اعتقادهم الإسلام أن يؤدوا على وفق تعاليم دينهم الجديد، الصلاة خمس مرات في اليوم كما كانوا يفعلون من قبل على وفق كتابهم الديني القديم المسمى أڤستا Avesta[2].

وكانت هذه القبائل التي تقيم شمالي فارس، والتي قاومت النظام الكنسي لدين الدولة الرسمي في عناد مستمر، بحجة أن كل شخص كان قسيسًا في بيته، وأنه لم يكن به من حاجة إلى واعظ آخر، ثم لاعتقاده بوجود كائن أعظم وبخلود الروح، ولأنه عرف أن الإنسان يجب أن يحب الخير لجاره، وأن يكبح جماح شهواته، ويسعى في صبر وأناة إلى حياة أحسن حالًا من حياته الحاضرة.

ولا غرو فإن أمثال هؤلاء الناس ليسوا بحاجة إلى كثير من الإقناع لحثهم على قبول دين النبي[3]. وهنالك أيضًا كثير من أوجه الشبه بين الدين الإسلامي ومعتقدات بعض فرق الإلحاد في فارس التي أصبحت تحت تأثير المسيحية. وفضلًا عن هذه العوامل التي ذكرناها، والتي كانت سبب انتشار الإسلام بسرعة مدهشة في بلاد الفرس كما رأينا، كان ثمة عامل آخر، هو الشعور السياسي والوطني لهذا الشعب المغلوب، ذلك الشعور الذي أدى إلى انضوائهم تحت لواء هذا الدين الجديد عن طريق زواج الحسين بن علي من شاهبانو **Shàhbànù** إحدى بنات يزدجرت آخر ملوك الأسرة الساسانية. وقد رأى الفرس في أولاد شاهبانو والحسين وارثين لملوكهم الأقدمين، كما رأوا فيهم ورثة لتقاليدهم القومية، وهذا الشعور الوطني يفسر لنا تعلق الفرس الشديد بعلي من جهة، كما يفسر لنا ظهور التشيع هناك حزبًا منفصلًا من جهة أخرى[4].

---

[1] **Dozy (1), p. 157.**
[2] **Haneberg, p. 5.**
[3] **Dozy (1), p. 191. A. de Gobineau (1), p. 55.**
[4] **Les croyances Mazdéennes dans la religion Chiite, par Ahmed- bey Agaeff (Transactions of the Ninth International Congress of Orientalists, vol. ii. Pp. 509-11. London, 1893).**

ولم تكن القوة أو العنف السبب في اتساع نطاق تحويل الناس إلى الإسلام، بدليل هذه المعاملة التي عامل بها العرب من ظل من الفرس على تمسكه بمذهبه القديم. ولا يزال إلى الآن في بعض جهات فارس بعض جماعات صغيرة من عبدة النار[1]. ومع أنهم قاسوا فيما بعد كثيرًا من الاضطهادات، كان أسلافهم في القرون الأولى للهجرة يتمتعون بقسط وافر من الحرية الدينية، وكانت معابدهم محترمة، حتى إننا نقرأ أن أحد قواد المسلمين (في عهد الخليفة المعتصم ٨٣٣-٨٤٢م) (٢١٨-٢٢٧هـ) أمر بجلد إمام ومؤذن لأنهما اشتركا في هدم أحد معابدهم في بلاد الصغد، واستخدما حجارته في بناء مسجد مكانه[2].

وفي القرن العاشر الميلادي، أي بعد فتح فارس بثلاثة قرون، وجدت معابد النار في العراق وفارس وكرمان وسجستان وخراسان وجبال أذربيجان وأرّان، وبعبارة أخرى في كل كورة من كور فارس تقريبًا[3]. كما لم تخل أية مدينة أو كورة في فارس من المجوس أو معابد النار[4]. وقد ذكر الشهرستاني[*] أيضًا (حين ألف في عصر متأخر، في القرن الثاني عشر) اسم معبد للنار في إسفينية بجوار بغداد نفسها[5].

وبالنظر إلى هذه الحقائق يكون من المستحيل قطعًا أن نقول إن اضمحلال ديانة زرادشت كان سببه أن الفاتحين المسلمين استعانوا بالقوة على حمل الناس على اعتناق الإسلام. ومن المحتمل أن يكون عدد أهالي فارس الذين اعتنقوا هذا الدين في السنين الأولى من الحكم العربي كبيرًا جدًا للأسباب المختلفة التي ذكرناها. بل إن في بقاء مذهبهم القديم، وما أثر عن ارتداد الناس عنه تدريجيًا في خلال القرون المتتابعة، يقوى في نفوسنا

والوقوف على بعض هذه العلاقات انظر Goldziher: Islamisme et Parsisme (Revue de l'Histoire des Religions, xliii. p. 1. Sqq).

[1] Dosabhai Framji: History of Parsis, vol. i. pp. 56-9, 62-7. (London, 1884).

ويذكر Nicolas de Khanikoff أنه كان هناك في نهاية القرن الثاني عشر اثنتا عشرة ألف أسرة من عباد النار في كرمان في .Mémoire sur la partie méridionale de l'Asie centrale, p. 193. (Paris, 1861)

[2] Chwolsohn, vol. I, p. 287.

[3] المسعودي: مروج جـ٤ ص٨٦.

[4] الاصطخري ص١١٠، ١١٨، وابن حوقل ص١٨٩-١٩٠.

[*] ورد في الأصل (ص٢١٠ س٢) Al- Sharastani وليس Al- Shahrastani وهو خطأ مطبعي على ما يظهر.

[5] كتاب الملل والنحل (ed. By Cureton,) part 1. P. 198.

ما ذهبنا إليه من احتمال تدينهم الإسلام بمحض اختيارهم وفي جو من الهدوء والسلام.

وحول أواخر القرن الثامن خلع سامان أحد أشراف بلخ دين زرادشت، واعتنق الإسلام لمساعدة أسد بن عبد الله والي خراسان إياه، وسمى ابنه باسم هذا الوالي الذي دخل في حمايته. ومنذ ذلك التحول تسمت أسرة السامانيين (٨٧٤–٩٩٩م) بهذا الاسم. وحول أوائل القرن التاسع، كان كريم بن شهريار أول ملك اعتنق الإسلام من أسرة قابوس. وفي سنة ٨٧٣م تحول إلى الإسلام عدد كبير من عبدة النار في بلاد الديلم بتأثير ناصر الحق أبي مُحَمَّد. وفي القرن التالي، أي حول سنة ٩١٢م دعا الحسن بن علي — الذي ينتسب إلى البيت العلوي الذي تأسس على ساحل بحر الخزر الجنوبي، أهالي طبرستان وبلاد الديلم، وكان بعضهم يعبد الأوثان ويدين بعضهم الآخر بالمجوسية — إلى الإسلام. فأجاب دعوته كثير منهم، على حين أصر غيرهم على كفره.

وكان الحسن بن علي هذا على قدر كبير من العلم والذكاء كما كان ملمًا بمبادئ المذاهب الدينية المختلفة[1]. وفي سنة ٣٩٤هـ (١٠٠٣–١٠٠٤م) دان بالإسلام شاعر مشهور من أهالي بلاد الديلم، هو أبو الحسن مهيار الديلمي، وكان من عبدة النار، وذلك بتأثير أستاذه في فن الشعر الذي كان يفوقه في الشهرة وهو الشريف الرضي[2]. ويحتمل أن يكون جد ابن خرداذبة الجغرافي المشهور قد تحول إلى الإسلام في ذلك الوقت تقريبًا، وذلك بتأثير أحد البرامكة، وكان جده أيضًا من أتباع المذهب المانوي وأحد كبار كهنة عبادة النار في معبد نوبهار العظيم بمدينة بلخ[3].

وعلى الرغم من قلة المعلومات التي وصلت إلينا عن تحول الناس إلى الإسلام، يظهر أن انتحالهم هذا الدين كان بمحض إرادتهم، كما يظهر أن أتباع ديانة زرادشت قد تمتعوا بوجه عام بالحرية الدينية إلى نهاية العصر العباسي، حتى إذا جاء الغزو المغولي بدأ

---

[1] المسعودي جـ٨ ص٢٧٩، جـ٩ ص٤–٥.

[2] ابن خلكان جـ٣ ص٥١٧.

[3] كتاب الفرست (طبعة فلوجل) ص١٤٩ س٢.

في تاريخهم عصر أكثر إظلامًا من العصر الذي سبقه. ويبدو أن ألوان البؤس التي لحقت بالمسلمين من الفرس أنفسهم قد ولدت في نفوسهم روح التعصب الديني وعرّضت أتباع زرادشت من حين إلى حين لتحمل الآلام التي تنطوي على القسوة والإرهاق[1].

وقد بدأت في فارس حول أواسط القرن الثامن عشر الميلادي حركة تثير الاهتمام في تاريخ الدعوة الإسلامية، وهي ظهور طائفة الإسماعيلية. ولسنا هنا بصدد بحث تاريخ هذه الطائفة، ولا في المكانة الدينية التي شغلها أتباع هذه الطائفة، ولا في العوامل الاجتماعية والسياسية التي ساعدت على ظهورها بمظهر القوة، وإنما الذي يسترعي اهتمامنا حقًا هو ذلك النظام المدهش الذي اتبع في نشر الدعوة لذلك المذهب. وكان عبد الله بن ميمون هو الذي بعث في أوائل القرن التاسع الميلادي روحًا جديدة في نفوس الإسماعيلية ونشر تعاليم مذهبهم، الذي يفوق نظام مذهب الجزويت **Jesuits** من حيث دقة النظر في الطبيعة الإنسانية والمهارة التامة في تلقين مبادئ هذا المذهب للناس، كل على حسب قدرته وميوله. وقد أنفذ عبد الله بن ميمون دعاته في كل الجهات متنكرين في زي الصوفيين غالبًا، أو في زي التجار وغير ذلك. وقد مرنوا على أن يستحوذوا على عقول الناس جميعًا، وأن يجذبوا جميع الطبقات إلى رئيس الدعوة الإسماعيلية، وأن يستخدموا تعاليمهم عن طريق التفاهم مع كل فرد بلغته الخاصة وعلى مقدار عقله. وقد استطاع هؤلاء الدعاة أن يأسروا العامة بما كانوا يقومون به من الأعمال الخارقة للمألوف التي كانت في أعينهم كمعجزات، والتي كانت تثير في نفوسهم حب الاستطلاع.

وكانوا يتظاهرون للأتقياء بالتقوى والتحمس الديني، ويظهرون للزهاد المثل الأعلى للفضيلة والحماس الديني، ويجلون للصوفيين ما غمض عليهم من التعاليم المعروفة، ويستخدمون مع من يريدون إدخاله في مذهبهم مراتب مختلفة تتناسب مع عقولهم، ومن ثم أخذ هؤلاء وأولئك يوحون إلى المتشوقين بظهور منقذ يصلح الأديان الكثيرة السائدة في ذلك الحين، فأعلنوا للمسلمين قرب ظهور المهدي المنتظر، ولليهود ظهور المسيح، وللنصارى

---

[1] الوقوف على مجمل حالتهم تحت حكم المسلمين، انظر:

De Menant: Les Zoroastriens de Perse (R. de M. M. iii. Pp. 193 sqq., p. 421 sqq).

المعزي. بيد أنهم لقنوهم أن ما يطمح إليه كل فرد لا يمكن أن يتحقق إلا برجعة عليّ المنقذ الأكبر.

وكان على الداعي الإسماعيلي أن يظهر بمظهر المتحمس لجميع العقائد الشيعية، ويثير قسوة السنيين وظلمهم لعلي وأولاده، ويجاهر بالحط من شأن الخلفاء السنيين. فإذا ما مهد السبيل على هذا النحو، وجب عليه أن ينتقل على وفق ما تتطلبه دقة المذاهب الشيعية إلى مبادئ الطائفة الإسماعيلية العميقة في التأويل. وإذا ما خاطب اليهودي أظهر احتقاره للنصارى والمسلمين، ووافق المدعو في تطلعه إلى قرب ظهور المسيح المنتظر، ولكنه يتدرج معه في الحديث حتى يعتقد أن بهذا المسيح لا يمكن أن يكون سوى علي بن أبي طالب، وهو المهدي الأكبر عند طائفة الإسماعيلية*.

وإذا حاول جذب المسيحي وجب أن ينحو باللائمة على مكابرة اليهود وجهل المسلمين، وأن يعلن احترامه لما جاء به الدين المسيحي من عقائد، ولكنه يشير في شيء من الحذر إلى أن هذه العقائد عبارة عن رموز وأنها ذات معان عميقة لا يجد المرء وسيلة للوصول إليها إلا عن طريق المذهب الإسماعيلي، كما يجب عليه أيضًا أن يشير في حذر وحرص إلى أن المسيحيين قد أساءوا نوعًا تأويل نظرية المسيح المنتظر (الفرقليط) **Paraclete**، وأن هذا المسيح المنتظر لا يوجد إلا في شخص علي بن أبي طالب. وعلى هذا النحو حاول دعاة الإسماعيلية الذين اتخذوا طريقهم إلى بلاد الهند أن يحملوا الهندوكيين على قبول عقائدهم عن طريق إظهار علي بن أبي طالب بمظهر أوتار وشنو* العاشر المنتظر **The Promised tenth Avatar of Visnu**، الذي يجب أن يأتي من ناحية الغرب، أي من الموت **Alamùt**. وكذلك كتبوا عن مهدي پرانا **Puràna**** ونظموا الأشعار في تقليد الواماكارين **Vàmàcàrins** أو الساكتس **Sàktas** ذوي الأيدي اليسرى

---

* إن هذا لا يتفق مع أصول المذهب الإسماعيلي الذي يقول بأمامة إسماعيل بن جعفر الصادق وقرب ظهور أحد أبنائه. وإلا لما استطعنا أن نفرق بين الإسماعيلية الذين يعتقدون إمامة إسماعيل وأبنائه وبين الاثنا عشرية الذين يعتقدون إمامة موسى الكاظم وأبنائه، والزيدية وغيرهم من فرق الشيعة التي تؤمن بإمامة علي بن أبي طالب. أما النصيرية فإنهم يؤلهون علي بن أبي طالب.

* كلمة سنسكريتية الأصل معناها الشخص الذي جاء إلهًا لخلق الكائنات.

** مهدي پرانا أي التفسير الذي كتبه المهدي.

الذين كانت حياة الزهد التي عاشوها قد هيأت عقولهم لقبول مذهب الإسماعيلية الباطني أو التأويلي[1].

وبأمثال هذه الطرق اتحد عدد هائل ممن يدينون بأديان مختلفة في القيام بمشروع لم يعرف حقيقة ما يرمي إليه إلا القليل الأقل من الناس. ويظهر أن مطامح عبد الله بن ميمون كانت سياسية محضة، ولكن الوسائل التي تذرع بها لتحقيق هذه المطامح كانت دينية، ومن ثم جمع الناس تحت لواء واحد وجعلهم ينتظرون قرب ظهور الإمام المهدي. وإن نشاط الدعوة وارتباطه بتاريخ هذا الحزب خليق بأن نتصدى لذكره بإيجاز هذه الصفحات[2].

وإن تاريخ انتشار الإسلام في بلاد أواسط آسيا إلى شمال فارس لا يدل إلا على قليل من نشاط الدعوة الإسلامية. فإنه لما وفد قتيبة بن مسلم علي سمرقند، وجد هناك كثيرًا من الأصنام كان عبدتها يعتقدون أن كل من أثار حنقها تعرّض للموت. على أن الفاتح المسلم لم يأبه لهذه المخاوف التي أثارتها تلك الخرافات، ومن ثم لم يحجم عن إحراق الأصنام. وكان من أثر ذلك العمل أن دان بالإسلام عدد كبير من الناس[3].

على أن المعلومات التي وصلت إلينا – مع قلتها – تدل على أن التحول إلى الإسلام كان، برغم هذا، ضئيلًا في مستهل تاريخ تقدم الفتوح الإسلامية في أواسط آسيا. وفوق هذا يبدو لنا أن أهالي هذه البلاد طالما تظاهروا بانتحالهم الإسلام إلى حين، ثم أسرعوا فكشفوا القناع وشقوا عصا الطاعة للخليفة بمجرد انسحاب جيوش الفتح[4]. ولم يصب العرب النجاح المطلوب في إرغام الأهلين على اعتناق دين الفاتحين حتى أتم قتيبة فتح بخارى للمرة الرابعة.

---

[1] **Khoja Vrittànt, pp. 141-8.**

ولزيادة الإيضاح عن دعاة الإسماعيليين في الهند، انظر الباب التاسع.

[2] **Le Bon Silvestre de Sacy: Exposé de la Religion des Druzes, tome i. pp. Lxvii, cxlviii- clxii.**

[3] البلاذري ص٤٢١.

[4] الترشخي ص٤٦.

وفي بخارى وسمرقند اتسمت مقاومة الأهلين للإسلام بكثير من ضروب العنف والعناد، حتى إنه لم يسمح بحمل السلاح إلا للذين دانوا بهذا الدين. ولم يجرأ المسلمون أعوامًا طويلة على أن يظهروا في المساجد أو غيرها من الأماكن العامة من غير أن يكونوا متقلدي السلاح، على حين لم يكن بد من أن تُقام الجواسيس لمراقبة الحديثي العهد بالإسلام. وكذلك بذل الفاتحون جهودًا مختلفة لإدخال الناس في حظيرة الدين، بل لقد حاولوا تأليفهم بالمال ليحضروا صلاة الجمعة في المساجد، وسمحوا بقراءة القرآن باللغة الفارسية بدلًا من العربية حتى يستطيعوا جميعًا فهمه في سهولة ويسر[١].

وكان انتشار الإسلام في بلاد ما وراء النهر بطيئًا بطئًا ظاهرًا. فقد استجاب بعض الأهلين إلى دعوة عمر الثاني (٧١٧–٧٢٠) للمتدين بالإسلام[٢]، وتحول عدد كبير منهم على يد أبي صَيْدا الذي أخذ في نشر هذه الدعوة بسمرقند في عهد هشام الثاني (٧٢٤–٧٤٣م)[٣]. ولكن جمهور أهالي هذه البلاد لم يعتنقوا الإسلام حتى عهد المعتصم (٨٣٣–٨٤٢م). وربما كانت هذه العلاقات الوثيقة التي كانت قائمة إذ ذاك بين بغداد حاضرة العالم الإسلامي في ذلك العصر، والأتراك الذين كانوا قد هاجروا أفواجًا لينضموا إلى جند الخليفة من أهم العوامل التي ساعدت على انتشار الإسلام[(٤)].

ويظهر أن الإسلام، وقد رسخت قدمه بين القبائل التركية على هذا النحو، لم ينتشر إلا ببطء حتى منتصف القرن العاشر الميلادي، حين دان به بعض رؤساء عشائرهم، كما حدث تمامًا في تاريخ الدين المسيحي عندما تحول كلوفيس Clovis وبعض ملوك شمالي أوروبا من المتبربرين إلى المسيحية، واقتفى أثرهم في ذلك عدد كبير من القبائل التي ينتمون إليها.

---

[١] المصدر نفسه ص٤٧.

[٢] البلاذري ص٤٢٦.

[٣] الطبري ٢: ١٥٠٧ وما يليها.

(4) August Müller, vol. i. p. 520. Cahun, p. 150.

ابن الأثير جـ٨ ص٣٩٦ (س١٩–٢٠)، Grenard, pp. 7sq., 42-3.

وقد ظهرت في ذلك الوقت قصص دينية خرافية حلت محل الحقائق التاريخية الجدية، وذلك بصدد تحول الناس إلى الإسلام، فمدينة خيوة مثلًا كانت تقدس مصارعًا وطنيًا يطلقون عليه اسم بهلوان Pahlavàn. وكان هذا المصارع في خدمة أحد ملوك خوارزم الوثنيين. ولما سمع ملوك الهند بشهرة بهلوان هذا، أرسل أحد المصارعين في بلاطه يستفز ملك خوارزم لتحديد يوم للمبارزة. وقد حدد يوم لاختبار قوة هذين الرجلين، ودعى عدد كبير من النبلاء والعامة في خيوة لمشاهدة هذا المنظر، وخاصة إذا علمنا أن من غُلِب في هذه المصارعة كان حقه أن يُطاح رأسه.

وفي اليوم الذي سبق يوم المصارعة، عندما كان بهلوان المقدّس يصلي في الجامع، سمع امرأة عجوزًا تدعو الله وتقول: «رب لا تلحق بولدي الهزيمة في مصارعة بهلوان فإنه ليس لي ولد سواه». فأخذت الشفقة بهلوان ورق لحال هذه الأم، وسهل لمصارعة الهندي إحراز الفوز عليه. وأمر الملك بقطع رأسه، وقد ثارت ثائرته وأخذ الغضب منه كل مأخذ. غير أنه في هذه اللحظة نفسها أخذ الحصان الذي كان الملك معتليًا صهوته يعدو مسرعًا صوب منحدر خطير، ولحق به بهلوان وأمسك بزمام الحصان، وأنقذ حياة الملك من موت مروع. ولم يكن من الملك إلا أن بادر إلى التدين بهذا الدين الحق شكرًا لله واعترافًا بآلائه عليه، وذهب المصارع المقدس في طريق الصحراء، وقد ملأ الفرح قلبه، وأوى إلى صومعته، وعاش عيشة النسك والزهد، وانقطع إلى العبادة.

وحول منتصف القرن العاشر الميلادي، رويت أسطورة عجيبة عن إسلام ساتوق بغراخان Satùq Bughrá Khán مؤسس أسرة إبلكخان الإسلامية في كشغر. فقد أراد خواجًا أبو النصر الساماني أحد أمراء السامانيين، وكان على جانب عظيم من التقوى ودماثة الخلق، أن يجد مجالًا لإشباع مواهبه الإدارية، فعزم على اتخاذ التجارة حرفة له، مدفوعًا في ذلك برغبته في نشر الدين الحق في بلاد الكفار. وبدلًا من محاولة جمع الثروة عن طريق مشروعاته التجارية، خصص ساتوق كل أرباحه لتنمية جهوده في إدخال الناس في دينه الجديد؛ ففي ذات ليلة ظهر له النبي في المنام وقال له: «استيقظ واذهب إلى تركستان حيث تجد الأمير ساتوق بخارى خان في انتظار حضورك للدخول في الإسلام».

ورأى هذا الأمير الشاب في نومه رؤيا مماثلة تحثه على انتظار شخص يدعوه إلى الدين، ولما تقابل ساتوق مع أبي النصر الساماني بعد عدة أيام، كان ساتوق على استعداد تام لقبول تعاليمه والتدين بالإسلام. ويظهر أن هذه الأسطورة استندت إلى هذه الحقيقة التاريخية، وهي أن الإسلام امتد من بلاد السامانيين إلى البلاد المجاورة في تركستان، وأن رعايا هذا الحاكم اقتفوا أثره في التدين بالإسلام، إذ أنه في سنة ٩٦٠م اعتنق هذا الدين مائتا ألف من الأسر التركية التي كانت تعيش في الخام، والتي لا يبعد أنها كانت تكون الجزء الأعظم من أتراك تركستان بمملكة بخارى خان.

وتعزو إليه الأساطير القدرة السحرية في الحروب التي شنها على الكفار، حتى لقد روي أن شعلة محرقة تخرج من فيه، وأن سيفه الذي كان يتقلده يبلغ طوله أربعين قدمًا. وقد قيل إن ساتوق لم يكد يبلغ التاسعة والستين من عمره، حتى نشر سيفه الرعب في قلوب الكفار الذين كانوا يقيمون في الأراضي الممتدة من ضفاف نهر سيحون جنوبًا إلى قُسَره قُورَم شمالًا، فتحولوا إلى الإسلام. كما قيل إن جيوشه المنتصرة دخلت قبيل موته بلاد الصين، ونشرت الإسلام حتى ترفان Turfan(١). وإن هذا الوصف الرائع لكفاح هذه السيرة مع مملكة خُتان البوذية ليخلع على بطلها حلة من النجاح الذي لم يتم في الواقع إلا في القرن الرابع عشر الميلادي. ويمكن الحكم على مدى ما بلغه ساتوق بغراخان من نجاح من أن خلفاءه من أسرة إيلسكخان أرادوا في سنة ١٠٢٦م الزواج من أميرات بيت محمود الغزنوي، فأجابهم محمود بأنه مسلم على حين أنهم كفار، وأنه ليس من عادات المسلمين أن يزوجوا أخواتهم وبناتهم من الكفار، ولكنهم إذا دخلوا في الإسلام أمكن النظر في هذه المسألة(٢).

---

(1) Grenard, pp. 9-10.

ومن حرب الطموح هذه، جعلت منها هذه الرواية حربًا مقدسة؛ وتنسب الرواية إلى سازق بغراخان الفتح الذي تم في الواقع على يد خليفته الثاني عشر. ومن الخطأ البين أن تطلق هذه الرواية اسم الأخير على عم ساتوق بغراخان الذي كان لا يزال على وثنيته. ومما يؤسف له أن هذه الرواية تحل من شخصين اثنين شخصًا واحدًا فتعزو إلى نفس هذا الأمير الإغارة على تورفان أي ضد بلاد الغور، وهذه الإغارة تنسب حقًا إلى شخص ثالث (المصدر نفسه ص٥٠).

(2) Reverty, pp. 905.

وبعد ذلك بسنين قليلة، أي بين سنتي ١٠٤١، ١٠٤٢، طلب بعض الأتراك الذين كانوا لا يزالون على وثنيتهم، والذين كانوا يعيشون في هضبة التبث من أرسلان خان بن قَدْر خان أن يسمح لهم بالاستقرار في ممتلكاته، لما سمعوا عن عدله وسعة صدره ولين حكمه. ولكنهم لما أصبحوا على مقربة من بالاساغون(١)، أرسل إليهم كتابًا يدعوهم فيه إلى الإسلام، ولكنهم رفضوا هذه الدعوة، فتركهم وشأنهم لما آنسه فيهم من روح المسالمة والطاعة. وليس لدينا معلومات عن كيفية اعتناقهم الإسلام، على أنه يرجح أن هذا قد تم على مر الزمن، ولكنه ليس من اليسير أن نثبت أن هؤلاء هم أفراد هذه الجماعة التي كانت تتألف من عشرة آلاف أسرة تركية من الكفار اعتنقت الإسلام في السنة التالية. إذ أنه قد أثر عن هؤلاء الأخيرين أنهم أغاروا على المسلمين ونهبوهم قبل تحولهم إلى هذا الدين(٢). وكانت غزوة قره ختاي **Qarà khitày** في بلاد التركستان سببًا في تصويب ضربة عنيفة إلى قوة الإسلام. وكانت تقارير الرحالين الأوروبيين حتى القرن الثالث عشر الميلادي توضح أنه كان ثمة طوائف من البوذيين والمانويين والمسيحيين في هذه الجهات(٣).

وكان لدخول الأتراك السلجوقيين في الإسلام أهمية عظيمة، وليس لدينا أي نص نستدل منه على تحولهم إلى الإسلام؛ إلا أنه في سنة ٩٥٦م هاجر سلجوق مع قبيلته من بلاد تركستان إلى بخارى حيث دان هو وأتباعه بالإسلام وأصبحوا من المتحمسين له(٤). وهذا هو أصل الأتراك السلجوقيين المشهورين الذين أحيوا بانتصاراتهم وفتوحهم مجد الجيوش الإسلامية بعد أن خبا، ووحدوا الممالك الإسلامية في غرب آسيا في إمبراطورية واحدة.

إلا أنه في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي فقدت الدولة السلجوقية كل قوتها، اللهم إلا إذا استثنينا آسيا الصغرى. وعندما كان مُحَمَّد الغوري يوسع رقعة إمبراطوريته من

---

(١) كانت حاضرة تركستان في خلال القرنين العاشر والحادي عشر، ولكن موقعها الأصلي غير واضح.

(٢) الترشحي ص٢٣٤-٢٣٥.

(3) **Grenard, p. 76.**

(4) **Raverty, p. 117.**

خراسان شرقا حتى شمالًا بلاد الهند، انتعشت حركة انتشار الإسلام بين الأفغان، وجاس خلال ديارهم دعاة من العرب والهنود الذين تحولوا إلى الإسلام وقاموا بحركة نشر تعاليم هذا الدين في حماسة وجرأة وظاهرة(١). وتدل الأقاصيص على أن الإسلام قد دخل بلاد الأفغان دون أن يلجأ المسلمون في سبيل ذلك إلى شيء من القوة أو العنف. فقد قيل إن العرب احتلوا في القرن الأول الهجري بلاد الغور إلى هراة شرقًا، وأن خالد بن الوليد ذهب إلى هناك حاملًا أنباء الدين الإسلامي، ودعا أهل هذه البلاد إلى الانضواء تحت لواء النبي، ثم عاد إليه بصحبة وفد مؤلف من ستة أو سبعة يمثلون الأفغان. ولما عاد هؤلاء إلى بلادهم أخذوا يدخلون أفراد قبائلهم في الدين(٢).

على أن هذه القصة خالية من أي أساس تاريخي، وإن ما وصل إلينا عن اعتناق بعض الأفغان الإسلام لا يعدو ذلك النص الخاص بانتحال ملك كابل في عهد الخليفة المأمون(٣). ويظهر كذلك أن خلفاء هذا الملك ارتدوا إلى البوذية، إذ أن يعقوب بن الليث مؤسس الدولة الصّفارية لما مد فتوحه إلى كابل في سنة ٨٧١م، وجد حاكم هذه البلاد وثنيًا. وأصبحت كابل منذ ذلك الوقت بلدًا إسلاميًا خالصًا لأول مرة، كما لا يبعد أن يكون الأفغان قد أصبحوا بحيث يرحبون الترحيب كله للعمل في جيش فاتح جريء كجيش يعقوب بن الليث(٤).

على أنه لم تكد تنتهي فتوح سبكتكين ومحمود الغزنوي، حتى كان الإسلام قد تمكّن وتوطد في كافة أرجاء بلاد الأفغان.

وسيجد القارئ في الباب التالي تفاصيل أخرى عن تاريخ انتشار الإسلام في فارس وأوساط آسيا.

---

(1) **Bellew, p. 96.**

(٢) المصدر نفسه ص١٥-١٦.

(٣) البلاذري ص٤٠٢.

(4) **August Müller, vol. ii. P. 29.**

الباب الثامن

انتشار الإسلام بين المغول والتتار(*)

(*) لا بأس من أن نشير هنا إلى الفرق بين اللفظين: «تتر» و«مغول» وإلى التطورات التي داخلت كلًا منهما. فكلمة تتر تختلف بالمعنى العام باختلاف العصور: فقد أطلق هذا اللفظ على جماعتين من قبائل التتر في نقوش الأوخون التركية Turkish Orkhon التي ترجع إلى القرن الثامن الميلادي، كما أعلق هذا الاسم على المغول عامة أو على فريق منهم خاصة. وفي جميع الفتوحات المغولية في القرن الثالث عشر الميلادي كان الفاتحون يسمون بالتتر في كل مكان نزلوا فيه، سواء أكان في الصين أم في البلاد الإسلامية أم في بلاد الروسيا وغرب أوروبا. ويسمي ابن الأثير أسلاف جنكيز خان باسم التتر، وهم التتر الأول، وكانوا مشهورين عند قدماء اليونان باسم سكيثيا "Scythia" أو سكوتيا. ولم يظهر اسم المغول في عالم الوجود حتى القرن العاشر؛ ومن المرجح أنه أطلق على تلك العشائر التي انضوت تحت لواء زعيم إحدى قبائلهم، وكان يحمل ذلك الاسم، ثم أخذ لنفسه السيادة على بقية العشائر المتحالفة، ومن ثم أطلق اسم البعض على الكل..(Lane- Poole: Muh. Dyn. P. 200).

على أن بعض المؤرخين يرون أن لفظ «مغول» لم يكن معروفًا في خارج البلاد التي كانت تسكنها قبائل الرحالة على حدود صحراء جوبي قبل القرن الراع الهجري (العاشر الميلادي)؛ كما يقولون باحتمال إطلاق هذا اللفظ على جميع هذه القبائل، حتى امتد نفوذ رجل منهم تسمى بهذا الاسم على جميع تلك العشائر المتحالفة. وقد انتقلت قوة من قوى المغول الحربية إلى بلاد آسيا الصغرى، وكان أعقابهم (الذين صاروا أراكا بلا شك) يسمون بالتتر السود Kara Tatar، وقد عاشوا عيشة بدوية وقت حملات تيمور لنك في البلاد الريفية الواقعة بين أماسيا Amasia وقيصرية. وكان عددهم يناهز الثلاثين ألفًا أو الأربعين ألف أسرة. وقد نفاهم تيمورلنك إلى أواسط آسيا، فأنزلهم بايزيد الثاني العثماني بعض الأماكن في بلاد كشغر وخوارزم، وقد عاد هؤلاء التتر السود بعد وفاة تيمور إلى بلاد آسيا الصغرى واستقروا بها من جديد.

كذلك نرى في الروسيا وشرق أوروبا اسم التتر يطلق غالبًا على جميع الشعوب التركية ما عدا العثمانيين. ويرى بعض المؤرخين من المسلمين أن التتر شعب كبير من الأمة التركية، ومنه تفرعت معظم بطونها وأفخاذها، وهو مرادف للترك عند الفرنجة، حتى إنهم يعدون قبائل الأتراك كافة تترًا، ومنهم العثمانيون والتركمان. وقد شمل هذا الاسم (تتر) جميع المغول وبخاصة المنكوس Manchus كما كانت الحال في الصين.

وأما كلمة تتر بالمعنى الخاص فهي اسم لشعب معين إذ لا تطلق إلا على سكان حوض نهر الفلجا من بلاد قزان Kazan إلى استراخان، وكذا على سكان شبه جزيرة القرم، وجزء من سيبريا ممن يتكلمون اللغة التركية. ويظهر أن الشعوب التي كانت مغولًا في الأصل واللغة كانت تسمى نفسها بالتتار. وقد استبدلت كلمة تتر بعد جنكيز خان في بلاد منغوليا وأواسط آسيا بكلمة مغل Moghul، ولا يزال لفظ مغل مستعملًا إلى اليوم في بلاد أفغانستان بين أشقاب المغول الذين لا يزالون محتفظين بلغتهم حتى الآن.

وقد أدخل جنكيز خان تلك التسمية رسميًا في بلاده. على أن كلمة Mongol لم تسد قط في معظم البقاع الغربية من إمبراطورية المغول رغم دخولها رسميًا في تلك البلاد، كما نعلم ذلك من الرحالة الأوروبيين مثال يوحنا بيان الكاربيني John of Pian El Carpini ووليم روبروك William of Rubruck وغيرهما.

لا يعرف الإسلام من بين ما نزل به من الخطوب والويلات خطبًا أشد هولًا من غزوات المغول؛ فقد انسابت جيوش جنكيزخان انسياب الثلوج من فتن الجبال، واكتسحت في طريقها المراكز الإسلامية وأتت على ما كان لها من مدنية وثقافة، تاركين وراءهم من تلك البلاد صحراوات خالية وأطلالًا بالية، وكانت تقوم فيها قبل ذلك القصور الملكية الفخمة المحاطة بالحدائق الغناء والمروج الخضراء. وبعد أن تحول جيش المغول عن مدينة هراه، خرج أربعون من أهليها من مخبئهم، فرارًا من الموت. وكان هؤلاء التاعسون هم البقية الباقية من سكانها الذين يربو عددهم على مائة ألف، وقفوا مهطعين مقنعي رؤوسهم، يبكون أطلال مدينتهم، وقد أخذ الفزع والهلع من نفوسهم كل مأخذ. وفي مدينة بخارى، التي اشتهرت برجال العلم والورع، اتخذ المغول من مساجدها المقدسة إصطبلات لخيولهم، ومزقوا المصاحف ووطئوها بدوابهم؛ كما سبوا من نجا من الأهلين من القتل، وجعلوا مدينتهم رمادًا تذروه الرياح. وكذلك كان مصير مدينتي سمرقند وبلخ وغيرهما من أمهات مدن آسيا الوسطى، التي كانت من قبل فخر الحضارة الإسلامية، وموطن الأولياء وكعبة العلوم، كما كان ذلك أيضًا مصير بغداد، التي ظلت قرونًا عدة حاضرة الدولة العباسية.

وإن المؤرخ المسلم ليقشعر بدنه حين يروى هذه الفظائع، حتى أن ابن الأثير قد أخذته نفس تلك القشعريرة حين وصف لنا غارات المغول حيث يقول [†]: «لقد بقيت عدة سنين معرضًا عن ذكر هذه الحادثة استعظامًا لها كارهًا لذكرها، فأنا أقدم إليه (رجلًا) وأؤخر أخرى. فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين؟ ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك؟ فياليت أمي لم تلدني، ويا {لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا}[١]، إلى أن حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف؛ ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعًا، فنقول: هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقمت الأيام والليالي عن مثلها، عمت الخلائق وخصت المسلمين. فلو قال قائل منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم وإلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقًا؛ فإن التواريخ لم

([†]) ذكر ابن الأثير ذلك عند كلامه على حوادث سنة ٦١٧هـ.

([١]) سورة ١٩ آية ٢٣.

تتضمن ما يقابلها ولا ما يدانيها. ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله بختنصر ببني إسرائيل من القتل وتخريب البيت المقدس. وما البيت المقدس بالنسبة إلى ما خرّب هؤلاء الملاعين من البلاد التي كل مدينة منها أضعاف البيت المقدس؟ وما بنو إسرائيل بالنسبة إلى من قتلوا؟ فإن أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بني إسرائيل، ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة»[١].

ولكن لم يكن بد من أن ينهض الإسلام من تحت أنقاض عظمته الأولى وأطلال مجده التالد، كما استطاع بواسطة دعاته أن يجذب أولئك الفاتحين المتبربرين ويحملهم على اعتناقه. ويرجع الفضل في ذلك إلى نشاط الدعاة من المسلمين الذين كانوا يلاقون من الصعاب أشدها لمناهضة منافسين قويين كانا يحاولان إحراز قصب السبق في ذلك المضمار. وليس هناك في تاريخ العالم نظير لذلك المشهد الغريب، وتلك المعركة الحامية التي قامت بين البوذية والمسيحية والإسلام، كل ديانة تنافس الأخرى، لتكسب قلوب أولئك الفاتحين القساة، الذين داسوا بأقدامهم رقاب أهل تلك الديانات العظيمة ذات الدعاة والمبشرين في جميع الأقطار والأقاليم.

وقبل أن نشرع في سرد أخبار هذا النزاع، نرى من الحسن، لكي نتفهم ما يأتي بإيجاز، أن نلقي نظرة على أجزاء إمبراطورية المغول بعد وفاة جنكيزخان عندما انقسمت أقسامًا أربعة بين أولاده الأربعة. فقد خلفه أجتاي[٢] Ugutay، ثالث أولاده، الذي خلف أباه خاقان، وقد آل إليه الجزء الشرقي من الإمبراطورية، الذي ضم إليه قوبيلاي فيما بعد، كل أرجاء بلاد الصين. وملك جَغَطاي ثاني أولاد جنكيزخان الجزء الأوسط، وحكم باتو بن جوجي أكبر أولاد جنكيزخان الجزء الغربي، وتلقب بلقب خان القبلية الذهبية The Khan of the Golden Horde، وحكم تولوي رابع أولاد جنكيزخان بلاد فارس التي ضم إليها هولاكو، مؤسس أسرة إيلخانات المغول في هذه البلاد، جزءا عظيمًا من آسيا الصغرى.

---

(١) ابن الأثير جـ١٢ ص٢٤٣- ٢٤٤.

(٢) أنار تعيين أجتاي (٦٢٤- ٦٣٩هـ = ١٢٢٧- ١٢٤١م) خليفة لأبيه جنكيزخان أتباع أخيه جغطاي، لمخالفة ذلك لتقاليد المغول التي تقضي بأن يعين أكبر الأولاد سنا.

كانت الشامانية **Shamanism** الديانة القديمة للمغول، الذين كانوا، على رغم اعترافهم بإله عظيم قادر، لا يؤدون له الصلوات، وإنما كانوا يعبدون طائفة من الآلهة المنحطة، وبخاصة تلك الآلهة الشريرة التي كانوا يتقدمون إليها بالقرابين والضحايا، لما كانوا يعتقدونه فيها من السلطان والقدرة على إيذائهم، كما كانوا يعبدون أرواح أجدادهم القدامى التي كانوا يعتبرونها ذات سلطان عظيم على حياة أعقابهم. ولكي يوفق المغول بين هذه القوى السماوية والعالم السفلي، كانوا يلجئون إلى القسيسين، وهم الشامان **Shamans** والسحرة، أو إلى رجال الطب، الذين كانوا يعتبرونهم ذوي نفوذ خفي وسلطان غريب على عناصر الموتى وأرواحهم. ولم يكن دينهم معدودًا من تلك الأديان التي تستطيع أن تقاوم طويلًا جهود هذه الأديان الكثيرة الأتباع والأنصار ذات اللاهوت المنظم الذي يملك قوة الإقناع وسد حاجات العقل، وذات الهيئات المنظمة للمعلمين الدينيين. ومن ثم تأثَّر المغول بمدنيات تلك الشعوب، وخرجوا عن بربرية بداوتهم الأولى، حين وجدوا أنفسهم جنبًا إلى جنب مع هذه الأجناس ذات الديانات الراقية.

وقد اتفق أن كانت الشعوب التي اختلط بها المغول على أثر فتوحاتهم، تضم بين أفرادها عددًا كبيرًا من البوذيين والمسيحيين والمسلمين، وقد تنافس أتباع تلك الديانات الثلاث التبشيرية الكبرى لتحويل أولئك الفاتحين إلى دينهم. ولما هدأت ثائرة المغول الذين كانوا يدينون بالشامانية، وتركوا التخريب والتدمير اللذين امتازت بهما غزواتهم، ظهروا بمظهر التسامح مع أهالي الديانات الأخرى، فأعفوا قسيسيها ودعاتها من الضرائب، كما منحوهم الحرية التامة في إقامة شعائرهم الدينية.

فكان قساوسة البوذيين يقومون بمناظرات دينية مع قساوسة المغول الشامانيين في حضرة جنكيزخان (١٢٠٦– ١٢٢٧م)، كما كان البوذيون والمسيحيون وأئمة المسلمين محل العطف والرعاية في بلاد مانجوخان (١٢٤٨– ١٢٥٧م) وقوبيلاي (١٢٥٧– ١٢٩٤م)[1]. وفي عهد هذا الأخير بدأ المغول في بلاد الصين يذعنون للمؤثرات الفعالة التي

---

(1) William of Rubruck, pp. 182, 191, c. d'Ohsson, tome ii. P. 488.

أحدقتها البوذية المنتشرة حولهم. حتى إذا جاء القرن الرابع عشر، يظهر أن الديانة البوذية كانت قد تسلطت على قلوب المغول وأصبحت ذات سلطان عظيم على نفوسهم[١].

ويرجع الفضل في تحويل الناس إلى البوذية إلى رجال الدين **Shamans** في بلاد التبت الذين ظهروا أكثر الناس حماسة في هذا النشاط الذي يقوم على الدعوة إلى الإسلام، ولا يزال أهالي منغوليا حتى الوقت الحاضر يتمسكون بأهداب هذا الدين، كما هي الحال عند الكلموك **Kalmuks** الذين هاجروا إلى الروسيا في القرن السابع عشر الميلادي.

ومع أن البوذية استطاعت أخيرًا أن تجعل لنفسها المكانة العليا في الجزء الشرقي من إمبراطورية المغول، لم يكن نفوذ الكنيسة المسيحية بحال قليل الشأن أول الأمر، فكان يجيش في نفوس رجالها آمال كبيرة وأطماع بعيدة في تحويل المغول إلى هذا الدين. ولقد حمل المبشرون النسطوريون في القرن السابع الميلادي تعاليم الدين المسيحي من الغرب إلى الشرق، عبر آسيا حتى شمال الصين. وكانت جماعاتهم المبعثرة لا تزال تقيم في هذه البلاد في القرن الثالث عشر. ويزعم لعض المؤرخين أن القسيس يوحنا المشهور **Prester John**، الذي كان يحيط باسمه كثير من أساطير القرون الوسطى، كان رئيس القرايت **Kara'its**، وهم قبيلة مسيحية تتارية كانت تعيش جنوبي بحيرة بيكال. ولما غزا جنكيزخان هذه القبيلة، تزوَّج بإحدى بنات رئيسها إذ ذاك، على حين تزوج ابنه أجتاي من نفس هذه الأسرة.

وأما كيوك بن أجتاي فإنه، وإن لم يعتنق الدين المسيحي، أظهر كثيرًا من العطف على ذلك الدين الذي كان يدين بعقائده رئيس وزرائه وأحد كتابه. وكان القساوسة النسطوريون محل رعايته السامية، في الوقت الذي استقبل في بلاطه السفراء من قبل البابا إنوسنت الرابع **Innocent IV.**[٢]. وكانت السلطتان المسيحيتان في الشرق والغرب تتطلعان إلى المغول، لمساعدتهما في حروبهما مع المسلمين. وكان هيتون **Hayton** ملك أرمينية المسيحي هو العامل الرئيس في إقناع مانجوخان (١٢٤٨– ١٢٥٧م) بإرسال

---

(١) **De Guignes, tome iii. Pp. 200, 203.**

(٢) **Id. tom iii. P. 115.**

تلك الحملة التي دمرت بغداد بقيادة هولاكو[1] (١٢٥٦- ١٢٦٥م)، الذي حملته زوجته المسيحية بما كان لها من نفوذ، على أن يظهر عطفًا شديدًا للمسيحيين، وللنساطرة منهم بوجه خاص.

ومن ثم اعتنق كثير من المغول الذين احتلوا بلاد أرمينية وجورجيا، الدين المسيحي، وعُمِّدوا على أيدي مسيحي هذه البلاد[2]. وقد ولدت الأقاصيص العجيبة التي كانت تشيد بذكر عظمة القسيس يوحنا وفخاره، والتي ألهبت خيال أهالي أوربا الوسطى، الاعتقاد بأن المغول كانوا على المسيحية. وكان يزيد من قوة هذا الاعتقاد تلك الأخبار الباطلة التي وصلت إلى أوربا عن تحول بعض أمراء المغول على اختلافهم إلى المسيحية، وعن تحمسهم في الدعوة لهذا الدين والانتصار له. وكان من أثر ذيوع هذه الأخبار أن أرسل القديس لويس **St. Louis** وليم روبرك **William of Rubruck** سفيرًا من قبله إلى الخان الأعظم يستحثه على مواصلة جهوده لنشر الدين المسيحي؛ على أنه سرعان ما تبين أن هذه الأخبار لم تستند إلى أي أساس من الصحة، على الرغم من أن وليم روبرك قد وجد أن المسيحية كانت محل التسامح في بلاط مانجوخان، وأن اعتناق عدد قليل من المغول هذا الدين، قد جعل القسيسين المسيحيين يعقدون الآمال على مواصلة نشر هذا الدين.

ولكن ظهور الاختلافات الدينية بين المسيحيين من اللاتينيين والإغريق والنسطوريين والأرمن، وامتدادها إلى وسط معسكر المغول ذاته، قد جعل الأمل ضئيلًا في إحراز نجاح أكبر من ذلك النجاح. ومن المحتمل أن هذه الحاجة الملحة إلى قيام الاتحاد بين المبشرين بالمسيحية هي التي جعلت جهودهم بين المغول أمرًا يسيرًا جدًا، حتى إنه بينما كانت الطوائف المسيحية تتناحر فيما بينها، كان كل من البوذية والإسلام يوطد قدمه في بلاد المغول. وقد دفعت أوهام بابا رومة ودعاويه العريضة أولئك الفاتحين لنصف العالم، والشديدي الأنفة والكبرياء، أن يعدلوا عما كانوا يحبون به رسله من ذلك العطف الذي مالوا إلى إظهاره لهم أول الأمر، كما ساعد غير ذلك من الأسباب على إخفاق حركة

---

(١) Id. P. 125. Cahun, p. 391.

(٢) Klaproth, p. 204.

التبشير التي قامت بها الإرساليات الرومانية[١].

وأما النسطوريون الذين كانوا ظهروا في ذلك المضمار أولًا، فيظهر أنهم بلغوا درجة من الانحطاط والجمود أعجزتهم عن الاستفادة من هذه الحال. ويقول وليم روبرك[٢] عن النسطوريين في بلاد الصين، إنهم كانوا شديدي الجهل، وإنهم لم يستطيعوا حتى فهم كتب صلواتهم التي كانت مدونة بالسريانية. كما يرميهم هذا الكاتب بشرب الخمر والفسق والجشع، ثم يوازن بين حياتهم وحياة القسيسين من البوذيين موازنة ليست في مصلحتهم البتة. أما أسقفهم فكان لا يزورهم إلا لمامًا، حتى لقد حدث أنه لم يزرهم إلا مرة واحدة في مدى خمسين سنة؛ وكان في هذه المناسبات يقوم برشم جميع الأطفال من الذكور حتى الأطفال الذين كانوا لا يزالون في المهد.

ويقول وليم روبرك أيضًا إن القسيسين كانوا يتاجرون بالمناصب الدينية، ولا يبالون بجمع الثروات من وراء تعليم طقوس الكنيسة، ويؤثرون جمع المال على نشر تعاليم الدين[٣].

وفي الأجزاء الغربية من إمبراطورية المغول، حيث تطلع المسيحيون إلى هذه القوة الناشئة لتساعدهم في الحروب التي شنوها على المسلمين وتضمن لهم امتلاك الأراضي المقدسة، كان الحلف الذي أبرم بين المسيحيين وإيلخانات المغول في فارس قصير الأمد، إذ أن هذه الانتصارات التي أحرزها الظاهر بيبرس سلطان المماليك في مصر (١٢٦٠– ١٢٧٧م)، ومخالفته مع بركة خان ([+]) (١٢٥٦– ١٢٦٦م) قد دفع إيلخانات فارس إلى الاهتمام بمصالحهم الخاصة. وقد أساء إلى سمعة المسيحيين في غرب آسيا ما ارتكبه

---

(١) D'Ohsson, tome ii. Pp.226- 7. Chaun p.408, sq.

(٢) يقول يول **Yule** عن هذا الكاتب: وقد أمدنا بعبارة تقدح في آداب رجال كنيستهم وأخلاقهم. وهي أحق بالتقدير من أمثال تلك الأحكام التي ينظر إليها كما ينظر إليها المنشقون عادة، إذ أن عبارة **Rubruquis** تجعلنا نميل إلى الظن بأن الذي كتبها كان رجلًا قد استكمل ضروب الأمانة والذكاء. **Cathay and the Way Thither, vol. i. p. xcviii.**

(٣) William of Rubruck, pp. 158- 9.

(+) ملك القبيلة الذهبية.

إخوانهم في الدين في دمشق وفي غيرها من مدن الشام من الفظائع في تلك المدة القصيرة التي أقامها بين ظهرانيهم مغول فرس الذين أولوهم عطفهم ورعايتهم[1].

وطالما ارتكب أتباع هاتين الديانتين كثيرًا من ضروب الوحشية في أثناء ذلك النضال الذي قام بين المغول والمسلمين في بلاد الشام. ولنضرب للقارئ مثلًا مما حدث في منتصف القرن الثالث عشر، كما رواه الجوزجاني الذي يزعم أنه سمع هذه الحكاية حيثن كان في دلهي. على لسان رجل يدعى السيد أشرف الدين، وكان قد قدم هذه المدينة من سمرقند: "ومن ثم حكى السيد الأجل أن أحد المسيحيين في سمرقند دخل في ساحة الإسلام، فأحاطه أهل الورع من المسلمين في هذه المدينة بالرعاية، وأحلوه من أنفسهم محل الاحترام والإجلال، ووالوا عليه الخيرات.

وإذا بأحد رجالات المغول من الكفار ببلاد الصين يصل إلى سمرقند، وكان كبير النفوذ عظيم الجاه، كما كان ذلك اللعين يميل إلى المسيحية؛ فجاء المسيحيون في هذه المدينة إلى ذلك المغولي، وبثوه شكواهم قائلين: "إن المسلمين يحرضون أولادنا على التحول عن المسيحية، ويحولون بينهم وبين المسيح عليه السلام، ويدفعونهم إلى اعتناق دين المصطفى عليه السلام. وإذا لم يسد هذا الباب في وجه المسلمين تحول أبناؤهم جميعًا عن المسيحية. فدبر بما لك من قوة وسلطان حلًا لقضيتنا. فأمر المغولي بإحضار الشاب الذي تحول إلى الإسلام، وحاولوا إغراءه بالعدول عن دينه الجديد بالرفق والمال والثراء، ولكنه أبى أن يرتد عن دينه، وأن ينزع عن قلبه وروحه هذا الثوب الجديد، وهو عقيدة الإسلام. ومن ثم ضاق الحاكم المغولي بهذا الشاب، وأخذ يتحدث عن العقاب الصارم؛ فسلط كل ما في استطاعته من ألوان العقاب أو ما دبره من صنوف القسوة على هذا الشاب الذي لم يرتد عن دينه بسبب حماسته البالغة لدين الإسلام. ولم تستطع ضربة ذلك الكافر العنيد أن تجعل جرعة الدين اللذيذة تفلت من يده. ولما ظل الشاب ثابتًا على الدين الحق، ولم يكترث للوعد والوعيد اللذين لقيهما من هذه الجماعة المفسدة، أمر

[1] المقريزي: (٢) المجلد الأول، القسم الأول ص٩٨، ١٠٦.

المغولي اللعين بإنزال العقاب بهذا الشاب أمام الملأ؛ وقد فارق هذا العالم وهو في سعادة الدين — أجزل الله له المثوبة والأجر!

وكان من أثر ذلك أن حل اليأس والخوف بجماعة المسلمين في سمرقند، ورفعت ظلامة مدعمة بشهادة الزعماء وثقات المسلمين الذين كانوا يقيمون بسمرقند، وتقدمنا بهذه الظلامة إلى معسكر بركة خان، وقدمنا بين يديه وصفا لسيرة المسيحيين وأخلاقهم في تلك المدينة. وقد تجلت هذه الحماسة للدين الإسلامي في ذهن ذلك الحاكم على أنه دين مثالي، وأصبح الدفاع عن الحق ذا سلطان عظيم على ميوله. وبعد أيام تلقى بركة خان هذا السيد بمظاهر التكريم، واختار طائفة من الأتراك والأشخاص الذين يوثق بهم من زعماء المسلمين، وأمرهم بأن يذبحوا جماعة المسيحيين الذين كانوا قد ارتكبوا ذلك الظلم الشنيع، وأن يبعثوا بهم إلى الجحيم. ولما صدر هذا الأمر إليهم، احتفظوا به، حتى إذا اجتمعت تلك الطائفة البائسة في الكنيسة، قبضوا عليهم جميعًا، وقتلوهم عن آخرهم، وبعثوا بهم إلى جهنم، وأحالوا الكنييسة أطلالًا بالية مرة أخرى[١]».

ويظهر أنه لم يكن من اليسير أن منافسة الإسلام في مستهل الحكم المغولي غيره من الديانات القوية كالبوذية والمسيحية كانت عملًا بعيد المنال؛ إذ أن المسلمين كانوا قد قاسوا أكثر من غيرهم من ذلك الاضطراب الذي صحب غارات المغول؛ وإن معظم هذه المدن التي كانت حتى ذلك الحين مجمع السلطة الدينية وكعبة العلم في الإسلام في القارة الأسيوية، قد أصبح معظمها أطلالًا دارسة، حتى إن الفقهاء وأئمة الدين الأتقياء كان نصيبهم القتل أو الأسر[٢].

ومن بين حكام المغول الذين عرفوا عادة بتسامحهم نحو الأديان كافة جماعة كانت

---

(١) الجوزجاني ص ٤٤٨ – ٤٥٠ **Raverty, pp. 1288-90**

(٢) وقد بلغ من سوء المعاملة الوحشية التي لقيها هؤلاء أن رائضي الخيول من أهالي الصين كانوا إذا عرضوا أشباحًا، أظهروا البشر والحبور في صلف وإعجاب بعرض صورة تمثل رجلًا مسنًا ذا لحية بيضاء، يجره حصان قد ربط ذيله برتبة هذا الرجل. وإنما كأن هؤلاء يفعلون ذلك ليظهروا للناس كيف كان يتصرف فرسان المغول في معاملتهم للمسلمين (**Howorth, vol. i, p, 159**).

تظهر الكراهية للدين الإسلامي على درجات متفاوتة، فقد أمر جنكيز خان بقتل كل من يذبح الحيوانات علي النحو الذي قرره الإسلام، ثم سار على نهجه قوبيلاي، فعين مكافآت لكل من دل على من يذبح بهذه الطريقة، واضطهد المسلمين اضطهادًا عنيفًا دام سبع سنين، حتى إن كثيرًا من المعدمين وجدوا في سن ذلك القانون فرصة لجمع الثروة، واتهم الأرقاء مواليهم بهذه التهمة لكي يحصلوا على حريتهم[١].

وقد عاني المسلمون أقسى ضروب العسف والشدة في عهد كيوك (١٢٤٦ – ١٢٤٨م) الذي ألقى بزمام أمور الدولة إلى وزيريه المسيحيين، والذي امتلأ بلاطه بالرهبان من المسيحيين[٢].

وقد أورد الجوزجاني، وهو مؤرخ معاصر، العبارة التالية، وهي تبين نوع المعاملة التي تعرض لها أحد فقهاء المسلمين في بلاط كيوك: «فقد روى بعض الثقات أن كهنة البوذية كثيرًا ما كانوا يوغرون صدر ذلك الأمير على المؤمنين ويحملونه على اضطهادهم. وكان في هذه البلاد أحد أئمة المسلمين، وهو نور الدين الخوارزمي... وقد التمس من كيوك بعض العلمانيين وقساوسة المسيحيين وفريق من كهنة البوذية من عبدة الأوثان، أن يستدعي ذلك الإمام ليناظروه ويحاجوه، طالبين منه إقامة الحجة على تفوق الدين الإسلامي وإثبات رسالة مُحَمَّد، وإلا كان مصيره القتل إذا أعيته الحجة. وقد أجابهم الخان إلى طلبهم وبعث فيهم طلب الإمام، وطرحت على بساط المناقشة مسألة صحة دعوة مُحَمَّد النبوة وسلوكه في حياته، مع موازنته بسلوك غيره من الأنبياء.

ثم لما كانت أدلة هؤلاء الملاعين ضعيفة، خالية من قوة الحق، نفضوا أيديهم من تلك المساجد بالبراهين والحجج ورسموا خطة من خطط الظلم والسخط على صفحات ذلك التدبير الذي عقدوا العزم على تنفيذه، فسألوا كيوك خان أن يأمر هذا الإمام بأن يسجد سجدتين وفق قواعد الشريعة الإسلامية وتعاليمها، حتى تتبين أمامهم وأمام الخان

---

(١) Raverty, p. 1146, Howorth, vol. i, pp, 122, 273. ولم يلغ ها القانون إلا بعد أن امتنع التجار المسلمون من زيارة البلاط وتأثرت التجارة من ذلك القانون.

(٢) Howorth, vol. i, p, 165.

حركات عباداتهم غير المستملحة. فأمر كيوك ذلك الإمام والمسلم الآخر الذي كان معه بأداء الصلاة حسب الأوامر الدينية المعروفة عند المسلمين.

«فلما خر الإمام الورع والمسلم الذي كان معه على الأرض ساجدين، قام بعض الكفار الذي دعاهم كيوك، وأسرفوا في إيذائهم، وأخذوا يضربون رءوسهم في الأرض في شدة وعنف، وافترقوا معهم بعض الأعمال المخزية. على أن ذلك الإمام الورع لم يأبه لكل هذا العنت والمضايقة، وأدى الصلاة وأدابها من غير أن يقطعها. ولما انتهى الإمام من صلاته وسلم، شخص ببصره إلى السماء وقال {ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}[١]. ثم طلب إلى كيوك أن يأذن له بالانصراف؛ وعاد إلى بيته[٢].

وقد اضطهد أرغون (١٢٨٤– ١٢٩١م) رابع إيلخانات المغول في فارس، المسلمين في بلاده، وصرفهم عن كافة المناصب التي كانوا يشغلونها في القضاء والمالية؛ كما حرم عليهم الظهور في بلاطه[٣]. على أنه بالرغم من جميع المصاعب، أذعن هؤلاء المغول والقبائل المتبربرة[٤] آخر الأمر لدين هذه الشعوب التي ساموها الخسف وجعلوها في مواطئ أقدامهم. ولسوء الحظ ألاَّ يلقي التاريخ إلا ضوءًا يسيرًا على تقدم حركة الدعوة الإسلامية هذه، ولم يبق لدينا إلا قليل من البيانات الضافية عن إسلام بعض أشخاص كانوا أعظم شأنا. ولا بد أن يكون هناك كثير من أنصار النبي قد انتشروا في طول إمبراطورية المغول وعرضها، مجاهدين في طي الخفاء لجذب الكفار إلى حظيرة الإسلام.

ففي عهد أجتاي (١٢٢٩– ١٢٤١م) نقرأ عن إسلام بوذي يدعى **Kurguz** وكان حاكمًا على بلاد الفرس من قبل المغول[٥]. وفي عهد تيمور خان (١٣٢٣ – ١٢٢٨ م) كان آنئندا **Ananda** حفيد قوبيلاي (١٢٥٧ – ١٢٩٤م) وأمير كانسو

---

(١) سورة الأعراف آية ٥٥.

(٢) الجوزجاني ص ٤٠٤ – ٤٠٥؛ **Raverty, pp. 1160. Sqq.**

(٣) **De Guignes, vol. iii, p. 265.**

(٤) وفي القرن الثالث عشر كان ثلاثة أرباع المغول أتراكا (**Cahun, p. 279.**).

(٥) **c. d'Ohsson, vol. iii, p. 121.**

مسلمًا متحمسًا. كما دفع كثيرًا من أهل تانجوت **Tangut** وعددًا كبيرًا من الجنود الذين كانوا تحت إمرته إلى اعتناق هذا الدين. وعلى الرغم من استدعائه إلى بلاط تيمور وبذل الجهد في ارتداده إلى البوذية، أبى إلا التمسك بدينه الجديد، فألقى به في غياهب السجن، ولكنه لم يلبث أن أطلق سراحه بعد قليل خشية ثورة أهالي تانجوت الذين كانوا شديدي التعلق به[١].

ويقرر مؤلف كتاب «منتخب التواريخ» أن آنندا بنى في خان بالغ (وفي بكين الحالية) أربعة مساجد تسع مليون شخص في صلاة الجمعة؛ على أنه ليس ثمة ما يؤيد هذه الرواية أو غيرها من الروايات التي رواها هذا الكاتب عن انتشار الإسلام في الصين، من حيث أنه يمثل آنندا خلفًا لتيمور خان على عرش إمبراطورية المغول، ثم يمدنا بعبارة خرافية صرفة عن خلفائه الذين يشير إلى أن عددًا منهم أعلن إسلامه، مع أنه ليس لأحد من هؤلاء الخمسة وجود إلا في مخيلة الكاتب[٢].

وكان بركة خان (١٢٥٦–١٢٦٧م) أول من أسلم من أمراء المغول؛ وكان رئيسًا للقبيلة الذهبية في الروسيا بين سنتي ١٢٥٦و ١٢٦٧م[٣]. وقد قيل في سبب إسلامه إنه التقى يومًا عيرًا للتجارة آتية من بخارى. ولما خلا بتاجرين منهم سألهما عن عقائد الإسلام، فشرحاها له شرحا مقنعًا انتهى به إلى اعتناق هذا الدين والإخلاص له. وقد كاشف أصغر أخوته أول الأمر عن تغييره لدينه واعتناقه الإسلام، وحبب إليه أن يحذوه حذوه، ثم أعلن بعد ذلك اعتناقه لهذا الدين[٤].

على أن الجوزجاني قد ذكر أن بركة خان اعتنق الإسلام منذ طفولته. ولما شب وبلغ

---

(١) رشيد الدين س ٦٠٠ –٦٠٢.

(٢) **Blocget, pp. pp. 74-7.**

(٣) ومن الأهمية أن نلاحظ أن نجم الدين مختارًا الزاهدي وضع لبركة خان في سنة ١٢٦٠م رسالة تؤيد بالبراهين رسالة النبي الدينية وتدحض ماذكره المنكرون لهذه الرسالة، وتمدنا بوصف للمناظرات التي قامت بين المسيحيين والمسلمين.

(Steinschneider, pp. 63-4).

(٤) أبو الغازي ج ٢ ص ١٨١

سن التعليم، حفظ القرآن على أحد علماء مدينة خوقند[١] **Khodiand**. ويذكر نفس المؤلف (الذي جمع تاريخه في حياة بركة خان) أن كل جيشه كان مسلمًا، «ما يذكر بعض الثقات أنه قد جرت العادة بأن يحمل كل فارس في جيشه سجادة للصلاة، حتى إذا ما حان وقت الصلاة اشتغلوا بصلاتهم. كما لم يكن في جيشه شخص واحد يتعاطى أي مسكر. وكانت الطبقة الاجتماعية الراقية في بلاده تضم مشاهير العلماء من المفسرين ورجال الحديث والفقهاء علماء الكلام. وكان في حوزته عدد كبير من كتب الدين؛ كما كان معظم مجالسه ومناظراته مع العلماء. وكانت المناظرات الدينية منها تشغل أكثر مجالسه، وكان هو سنيًا مغاليًا شديد التمسك بدينه[٢]»

وقد دخل بركة خان في حلف مع ركن الدين الظاهر بيبرس (١٢٦٠–١٢٧٧م)، سلطان المماليك في مصر، الذي بدأ تلك العلاقات الوثيقة من جانبه؛ فقد احتفى بشرذمة من جند القبيلة الذهبية يبلغ عددها المائتين. ولما لاحظ هؤلاء الجند العداء المستحكم بين ملكهم وبين هولاكو فاتح بغداد وهم الذين كانوا ينضوون تحت لوائه، فروا إلى سورية، حيث يمموا منها شطر مصر، وهناك استقبلوا بكل مظاهر الحفاوة والتكريم في بلاط بيبرس، الذي أقنعهم بصحة الدين الإسلامي واعتناقه[٣].

وكان بيبرس نفسه في حرب مع هولاكو، وقد هزمه بيبرس وأخرجه من سورية منذ أمد قريب. وقد أرسل بيبرس اثنين من المغول اللاجئين وغيرهم من الرسل يحملون كتابًا إلى بركة خان. وقد نقل هؤلاء عند عودتهم إلى مصر، أن لكل أمير وأميرة في بلاط بركة خان إمامًا ومؤذنًا خاصًا، وأن الأطفال كانوا يحفظون القرآن في المدارس[٤]. وكان من أثر هذه العلاقات الودية التي قامت بين بيبرس وبركة خان، أن كثر الوافدون من رجال القبيلة

---

[١] الجوزجاني ص ٤٤٧. **Raverty. Pp. 1283-4.**

[٢] الجوزجاني ص ٤٤٧. **Raverty. Pp. 1285-6.**

[٣] المقريزي (٢): ج ١ ص ١٨٠– ١٨١، ١٨٧

[٤] المقريزي (٢): ج ١ ص٢١٥

الذهبية على مصر حيث اتخذوا الإسلام دينًا لهم[(١)].

كان الإسلام أقل انتشارًا في بلاد الفرس، حيث أسس هولاكو أسرة إيلخانات المغول، ولكي يقوى على صد هجمات بركة خان وسلطان مصر، تحالف هولاكو مع القوات المسيحية في الشرق كملك أرمينية والصليبيين، وكانت زوجته المحببة إليه مسيحية، فعملت على استمالة زوجها نحو إخوانها في الدين، كما تزوج ابنه أباقا خان (١٢٦٥-١٢٨١م) من ابنة إمبراطور القسطنطينية.

ومع أن أباقا نفسه لم يتخذ المسيحية دينًا له، امتلأ بلاطه بالقسيسين من المسيحيين، وأرسل السفراء إلى بعض أمراء أوربا؛ فكان يراسل القديس لويس ملك فرنسا، وشارل ملك صقلية، وجيمس ملك أرغونة يطلب إليهم التحالف معه على المسلمين، كما أرسل لهذا الغرض أيضًا بعثًا من ستة عشر سفيرًا من المغول إلى مجمع من المغول إلى مجمع ليون سنة ١٢٧٤م، حيث دخل رئيس أولئك السفراء في المسيحية وعمد مع بعض رفاقه. وقد طمع المسيحيون، فعلقوا الآمال على اعتناق أباقا خان المسيحية؛ ولكن الأيام أظهرت أن تلك الآمال لم تكن إلا سرابًا خادعًا. وكان أخوه تكودار أحمد[(٢)] (١٢٨٢-١٢٨٤م)، الذي اعتلى العرش من بعده، أول إيلخانات المغول الذين اعتقدوا الإسلام في فارس. وقد شب على المسيحية، لأنه (كما يحدثنا بذلك كاتب مسيحي من معاصريه[(٣)]).

«عمد في صباه وتسمى باسم نيقولا، ولكنه دان بالإسلام عندما بلغ سن الرشد عن طريق اتصاله بالمسلمين الذين كان كلفا بهم، وأصبح مسلمًا دنيًا. ولما ارتد عن المسيحية رغب في أن يسمى محمدًا خان، وبذل قصاراه في تحويل كافة التتار إلى دين مُحَمَّد وعقائده، ولما أظهروا صلابة في الارتداد عن دينهم، لم يجرؤ على حملهم على اعتناق الإسلام، وإنما لجأ إلى ذلك عن طريق بذل العطايا والمنح وألقاب الشرف؛ حتى إن عددًا

---

(١) نفس المصدر ص ٢٢٢

(٢) أو نيكودار على ما يسميه وصاف الحضرة، وقد سمي أحمد بعد اعتناقه الإسلام.

(٣) Hayton. (Ramusio, tom. Ii. P. 60, c).

كبيرًا من التتار دخل في عهده في عقيدة المسلمين»

وقد بعث تكودار أحمد بنبأ إسلامه إلى سلطان المماليك في مصر (قلاوون) في ذلك الكتاب: «إلى سلطان مصر.. أما بعد، فإن الله سبحانه وتعالى بسابق عنايته ونور هدايته، قد كان أرشدنا في عنفوان الصبا وريعان الحداثة، إلى الإقرار بربوبيته والاعتراف بوحدانيته، والشهادة لمحمد عليه أفضل الصلاة والسلام، بصدق نبوته وحسن الاعتقاد في أوليائه الصالحين من عباده وبريته {فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ}[1].

فلم نزل نميل إلى إعلاء كلمة الدين وإصلاح أمور الإسلام والمسلمين، إلى أن أفضى إلينا بعد أبينا الجليل وأخينا الكبير نوبة الملك، فأضفى علينا من جلابيب ألطافه ولطائفه، ما حقق به آمالنا في جزيل آلائه وعوارفه، وجلي هذه المملكة علينا وأهدى عقيلتها إلينا. فاجتمع عندنا في قوريليان (Quriltay على الأصح) المبارك – وهو المجتمع الذي تقدح فيه الآراء – جميع الإخوان والأولاد والأمراء الكبراء، ومقدمو العساكر وزعماء البلاد؛ واتفقت كلمتهم على تنفيذ ما سبق به حكم أخينا الكبير، في إنفاذ الكم الغفير من عساكرنا التي ضاقت الأرض برحبها من كثرتها، وامتلأت الأرض رعبًا من عظيم صولتها وشديد بطشها، إلى تلك الجهة، بهمة تخضع لها صم الأطواد، وعزيمة تلين لها الصم الصلاد.

ففكرنا فيما تمخضت زبد عزائمهم عنه واجتمعت أهواؤهم عليه، فوجدناه مخالفًا لما كان في ضميرنا من اقتفاء الخير العام، الذي هو عبارة عن تقوية شعار الإسلام، وأن لا يصدر عن أوامرنا ما أمكننا إلا ما يوجب حقن الدماء وتسكين الدهماء، وتجري به في الأقطار رخاء نسائم الأمن والأمان، ويستريح به المسلمون في سائر الأمصار في مهاد الشفقة والإحسان، تعظمًا لأمر الله وشفقة على خلق الله، فألهمنا الله تعالى إطفاء تلك النائرة، وتسكين الفتن الثائرة، وإعلام من أشار بذلك الرأي بما أرشدنا الله إليه: من تقديم ما يرجى به من شفاء مزاج العالم من الأدواء، وتأخير ما يجب أن يكون آخر الدواء.

---

(١) سورة ٦ آية ١٢٥

وإننا لا نحب المسارعة إلى بز النضال للنضال، إلا بعد إيضاح المحجة، ولا نبادر لها إلا بعد تبيين الحق وتركيب الحجة، وقوي عزمنا على ما رأيناه من دواعي الصلاح، وتنفيذ ما ظهر لنا به وجه النجاح. إذ كان الشيخ قدوة العارفين (كمال الدين عبد الرحمن)، الذي هو نعم العون لنا في أمور الدين، فأرسلناه رحمة من الله لمن (لبى) دعاه، ونقمة على من أعرض عنه وعصاه وأنفذنا أقضى القضاة قطب (الملة) والدين، والأتابك بهاء الدين.. اللذين هما من ثقات هذه الدولة الزاهرة، ليعرفوهم طريقتنا، ويتحقق عندهم ما ينطوي عليه لعموم المسلمين جميل نيتنا؛ وبيّنا لهم أنا من الله تعالى على بصيرة، وأن الإسلام يجُبّ ما قبله، أنه تعالى ألقى في قلوبنا أن نتبع الحق وأهله، فإن تطلعت نفوس إلى دليل تستحكم بسببه دواعي الاعتماد، وحجة يثقون بها من بلوغ المراد، فلينظروا إلى ما ظهر من أمرنا مما اشتهر خبره، وعم أثره.

فإنا ابتدأنا بتوفيق الله بإعلاء أعلام الدين وإظهاره، في إيراد كل أمر وإصداره، تقديمًا لناموس الشرع المحمدي، على مقتضى قانون العدل الأحمدي، إجلالاً وتعظيمًا، وأدخلنا السرور على قلوب الجمهور، وعفونا عن كل من اجترح سيئة واقترف، وقابلناه بالصفح، وقلنا: عفا الله عما سلف؛ وتقدمنا بإصلاح أمور أوقاف المسلمين من المساجد والمشاهد والمدارس، وعمارة بقاع الدين والربط؛ وإيصال حاصلها بموجب عوائدها القائمة إلى مستحقيها بشروط واقفيها، وأمرنا بتعظيم أمر الحجاج، وتجهيز وفدها، وتأمين سبلها، وتيسير قوافلها؛ وإنا أطلقنا سبيل التجار المترددين على تلك البلاد ليسافروا بحسب اختيارهم على أحسن قواعدهم». وهو يلتمس محالفة سلطان مصر، «بحيث تعمر تلك الممالك وتيك البلاد، وتسكن الفتنة الثائرة، وتغمد السيوف الباترة، وتحل العامة أرض الهوينى، وتخلص رقاب المسلمين من أغلال الذل والهون»[1] [*].

(¹) وصاف الحضرة ص ٢٣١- ٢٣٤.

(*) وقد ورد هذا الكتاب أيضا في القلقشندي: صبح الأعشى ج١ ص٦٥-٦٨، وهو مؤرخ في شهر جمادى الأولى سنة ٦٨١هـ (أغسطس سنة ١٢٨٢م) ، وقد بعث به مع رسولين هما قصب الدين شيرازي وأتابك بهلون، وقد رد قلاوون على إيلخان المغول بكتاب مؤرخ أول رمضان من السنة نفسها (٣ديسمبر سنة ١٢٨٢م) وقد ورد هذا الكتاب في القلقشندي (ج٧ ص٢٣٧-٢٤٢).

وإن من يدرس تاريخ المغول ليرتاح عندما يتحول فجأة من قراءة ما اقترفوه من الفظائع وما سفكوه من الدماء، إلى أسمى عواطف الإنسانية وحب الخير، التي أعلنت عن نفسها في تلك الوثيقة التاريخية التي كتبها تكودار أحمد إلى سلطان المماليك في مصر، والتي يدهش الإنسان لصدورها من مثل ذلك المغولي.

وقد أحفظ تكودار أحمد واضطهاده المسيحيين، المغول الذين كانوا شديدي الاتصال بهم برغم مخالفتهم لهم في الدين، وشكوه إلى قوبيلاي خان، متهمين إياه بأنه خالف بذلك سنن أجداده. وقد قامت في وجهه ثورة على رأسها ابن أخيه أرغون الذي دبر قتله، ثم خلفه على العرش. وفي أثناء حكم أرغون (١٢٨٤– ١٢٩١م) القصير، استرد المسيحيون مكانتهم من جديد، على حين لم يكن بد من أن يلقى المسلمون الاضطهاد، فصرفوا عن كافة المناصب التي كانوا يشغلونها في القضاء والمالية، وحرم عليهم الظهور في بلاطه[1].

وفي ظل خلفاء تكودار أحمد على وثنيتهم، حتى دخل غازان (١٢٩٥– ١٣٠٤م) سابع الإيلخانات وأعظمهم شأنا)، في الدين الإسلامي في سنة ١٢٩٥م، وجعله دين الدولة الرسمي في فارس، وفي عهد إيلخانات المغول الثلاثة الأخيرين الذين سبقوا غازان[*]، أمل المسيحيون آمالا كبارا في تحويل الأسرة الحاكمة في فارس إلى الدين الإسلامي، تلك الأسرة التي أظهرت نحوهم عطفا شديدا، وأسندت إليهم كثيرا من مناصب الدولة المهمة، وكان بيدو خان، سلف غازان، الذي كان رأس الفتنة في فارس، والذي جلس على العرش في سنة ١٢٩٥م بضعة أشهر فقط، قد آثر الدين المسيحي، وجهد في وضع العقبات في سبيل انتشار الإسلام بين المغول، فحرم على كل شخص أن يدعو لذلك الدين أو أن ينشر عقائده بينهم[2].

وقد شب غازان على البوذية قبل اعتناقه الإسلام، وشيد عدة معابد للبوذية في

---

(1) De Guignes, vol, iii. Pp.263-5.

(*) هؤلاء أهم أرغون (١٢٨٤– ١٢٩١)(، وجيخانو (١٢٩١– ١٢٩٥م) وبيدو (إبريل –أكتوبر سنة ١٢٩٥م)

(2) C.d'Ohsson, tome iv, PP. 141-2

خراسان، وكان يُسرّ كثيرا بمصاحبة الكهنة الذين ينتمون إلى هذا الدين والذين كانوا قد وفدوا إلى فارس في جماعات كبيرة منذ بسط المغول سلطانهم في هذه البلاد[1]. ويظهر أن غازان كان بطبعه يميل إلى تقليب نظره في المسائل الدينية، لأنه درس عقائد الأديان المختلفة المنتشرة في زمانه، واعتاد أن يقيم مناظرات مع أئمة كل من هذه الأديان[2]. وقد أيد رشيد الدين، وزيره العالم ومؤرخ عصره، بالبرهان صحة اعتقاده الإسلام، الذي أخذ على عاتقه المحافظة على شعائره في حماس وغيرة طوال عهده؛ ولو أن معاصريه (وكثيرا ما ردد الكتاب الذين جاءوا فيما بعد هذه التهمة) أظهروا أنه إنما أذعن لإلحاح بعض الأمراء والمشايخ وتوسلاتهم[3].

وفضلا عن ذلك، يسأل من يتصدى للدفاع عن عقيدة غازان الدينية: أي شعور خطير يمكن أن يثير اهتمام حاكم في مثل هذه القوة والنفوذ في تبديل دينه؟ بل قل اهتمام أمير قام أسلافه الوثنيون بغزو العالم؟» على أن اعتقاده – غازان – الإسلام قد جذب إليه، بلا مراء، قلوب الفرس عندما كان في نزاع مع بيدو على اعتلاء العرش، وقد عدل المغول من المسلمين الذين كانوا في جيش منافسة عن تأييد دعوى أخيهم في الدين. وكانت هذه هي الاعتبارات الحق التي تذرع بها نوروز في حث غازان على قبول دعوته إلى الإسلام. وكان نوروز أميرا مسلما، مالأ غازان، وناداه بلقب الأمير، وتنبأ بأنه سيظهر حول ذلك الوقت لحماية عقيدة الإسلام وإعادتها إلى سابق مجدها؛ كما أعلن أنه إذا اعتنق الإسلام، أصبح حاكم بلاد الفرس، وأن المسلمين إذا تخلصوا من نير المغول الوثنيين المؤلم، انتحلوا دعوته واعترفوا بأنه الدين الحق الذي يخلصهم من هلاك محقق، وباركوا آلاته الحربية ودعوا له بالنصر[4].

وبعد قليل تردد جهر غازان بإسلامه، واقتفى أثره جنده وقواده، ووزع المنح على

---

(1) Id. Ib. p.148.

(2) Id. Ib.P. 365.

(3) Cahun, P.434. Id. Ib.PP.148. 354.

(4) C.d'Ohsson, tome iv, pp. 128, 132.

أفرادها وأهل العلم وزار المساجد ومقابر الصالحين، وظهر في كل أطواره بمظهر الحاكم المسلم المثالي، وقد شب أخوه أولجايتو Uljaytu الذي خلفه في سنة ١٣٠٤ م باسم مُحَّد خدابنده[*] Khudabandah على المسيحية دين أمه، وعمد باسم نيقولا، على أنه لم يلبث أن اعتقد الإسلام بعد موت أمه، وهو لا يزال شابا في مقتبل العمر، وذلك بتأثير زوجته[١]. ويذكر ابن بطوطة أن سيرة ذلك الأمير كان لها أثر كبير في نفوس المغول، ومن ذلك العهد غدا الإسلام الدين السائد في دولة إيلخانات فارس.

وإن ما لدينا من المعلومات عن تقدم الإسلام وانتشاره في إمبراطورية المغول الوسطى، التي كانت من نصيب جغطاي، لا يزال ضئيلا، وكان كثير من أعقاب هذه الأسرة يستعينون في دولتهم بوزير من المسلمين على الرغم من أنه لم يبد أي ميل إلى الإسلام. وقد ضيق جغطاي على رعاياه من المسلمين بما سنه من القوانين الشديدة الحرج، التي ضيقت على شعائرهم الدينية، فيما يتعلق بذبح الحيوانات للطعام وفرائض الوضوء.

(*) ذكر ابن بطوطة (ج١ ص١٤٣) أن اسمه مختلف فيه، وقد قيل خدا (بضم الخاء) ومعناها بالفارسية اسم الله، وبنده، ومعناها غلام أو عبد، وقيل خربنده (بفتح الخاء) ومعناها بالفارسية الحمار، وبنده ومعناها غلام أو عبد، فيكون عبد الله، أو غلام الحمار، وقد قيل إن سبب تسميته بهذا الاسم الأخير أن التتار يسمون الطفل باسم أول داخل إلى البيت عند ولادته، فلما ولد كان أول داخل الرمال (الرمال صاحب الزمالة، والزاملة ما يحمل عليه من الحيوان، ولعله يريد هنا الحمار) فسمي خربنده. وذكر براون أن غازان لما تولى فر أولجايتو وظل مشردا يرعى الحمير في إقليم كرمان وهرمز؛ ولذلك أطلق عليه اسم خربنده أو راعي الحمير. وقيل أيضا أن أبوي الطفل كانا يطلقان عليه اسما قبيحا حتى لا تؤثر فيه عيون الحساد، ولذلك سمي خربنده كما يسمى العرب أبناءهم بفهر وكلب وصخر ومعاوية ونحو ذلك تفاؤلا بأن يكون الولد في كبره صخرا أو كلبا على عدوه، وقال ابن الوردي (تاريخ بن الوردي ص٢٦٤) إن خربنده اسمه خدا بنده، وإن ملكه شمل بلاد العراق وخراسان والعراق العجمي وأذربيجان بكر.

(١) Hammer- Purgstall: Geschichte der Ilchanen vol, ii.182. لا يبعد أن يكون سبايا المسلمين قد قمن بدور مهم في تحويل المغول إلى الإسلام، ويظهر أن المرأة شغلت مركزا من مراكز الشرف والكرامة بين المغول، ويمكن أن نأتي بأمثلة كثيرة تؤيد أنه كان لها أثر ظاهر في الشئون السياسية، وقد تصدينا من قبل الذكر عدة حالات تبين مدى تأثير النساء في أزواجهن في المسائل الدينية، ويحدثنا وليم روبرك أنه شاهد بنفسه تأثير إحدى النساء المسلمات، وكيف وقف ذلك التأثير في سبيل نشر تعاليمه الدينية»، وفي عيد النصرة أتى أحد المسلمين عندما أخذنا في شرح تعاليم الدين في أثناء حديثه معنا. فلما سمع عن نعم الله على الناس وعن التجسد وبعث الموتى ويوم الحساب ومحو الخطايا عن طريق التعميد، رغب في أن يعمد. ولكن، بينما كنا نعد العدة لتعميده، امتطى صهر جواده على حين غفلة، قائلا إنه لا بد من أن يذهب إلى داره لاستشارة زوجته، وفي اليوم التالي قال لنا في أثناء حديثه معنا إنه لم يستطع أن يجرؤ على أن يعمد، لأنه لا يستطيع عندئذ أن يشرب لبن الفرس .(Rubruck, PP.991-1)

ويذكر الجوزجاني أن جغطاي هذا كان ألد أعداء المسلمين من بين خانات المغول كافة، وقد بلغ من شدة عدائه لهذا الدين أنه لم يكن يرغب في أن ينطق أحد بكلمة مسلم في حضرته اللهم إلا إذا أريد بها التحقير والحط من شأنها[١]. وقد ربت أرغنة Orghana زوجة قرا هولاكو Qará- Húlàgu حفيد جغطاي وخليفته، ابنها على الإسلام، وتقدم باسم مبارك شاه في سنة ١٢٦٤م مطالبا بعرش خافاتية جغطاي، الذي كان مثار النزاع بين أمراء المغول، ولكن سرعان ما خلعه ابن عمه براق خان Buraq KhaN ويظهر أنه لم يكن لإسلامه أي أثر بين المغول؛ فإننا لو رجعنا في الواقع إلى أسماء أبنائه، لا نجد أحدا منهم قد دخل في دين أبيه[٢]، وقد قيل إن براق خان نفسه «قد أدركته البركة بتلقيه العقيدة» قبل موته في سنة ١٢٧٠م بأيام قليلة، وإنه تسمى باسم السلطان غياث الدين[٣].

إلا أنه دفن حسب طقوس المغول القديمة ولم يدفن وفق شعائر الدين الإسلامي وأن من دخل في الإسلام في عهده ارتدوا إلى وثنيتهم الأولى، ولم يتم انتشار الإسلام بين المغول في مملكة جغطاي إلا في القرن التالي لإسلام مبارك خان، وذلك على أثر إسلام طرما شيرين Tarmàshrin حول سنة ١٣٢٦م. وقد ظل المغول الذين اقتفوا أثر زعيمهم متمسكين في هذه المرة بدينهم الجديد، وعلى الرغم من ذلك لم يتأصل الميل إلى الإسلام بعد في نفوس المغول، فإن بوزن Buzan الذي كان خان المغول في عشر السنين التالية (ولو أن صحة هذا التاريخ غير محققة)، ولم يلبث أن طرما شيرين من العرش واضطهد المسلمين[٤].

على أننا لم نسمع عن ظهور أول مسلم إلا بعد سنين قليلة، وكان ضعف أسرة جغطاي قد أتاح لهذه المملكة أن تستقل بحكم هذه البلاد، ويقول بعض المؤرخين إن إسلام تقلق تيمورخان Tuqluq Timúr khan (١٣٤٧– ١٣٦٣م) ملك كاشغر، كان

---

(١) ابن بطوطة ج٢ ث٥٧.

(٢) الجوزجاني ص٣٨١، ص٣٩٧، Raverty, pp.1110, 1145- 6.

(٣) رشيد الدين ص١٧٣–٤، ١٨٨.

(٤) رحلة ابن بطوطة ص١٧٣–٤–١٨٨

على يد رجل من أهل الورع والتقوى في مدينة بخارى، يقال له الشيخ جمال الدين، وكان معه جماعة من التجار، وكانوا قد اعتدوا على الأراضي التي خصصها ذلك الأمير للصيد؛ فأمر بأن توثق أيديهم وأرجلهم، وأن يمثلوا بين يديه، ثم سألهم في غضب: كيف جرؤوا على دخول هذه الأرض؟.. فأجاب الشيخ بأنهم غرباء، ولا يعدون أنهم يجوسون أرضا محرمة. ولما علم الأمير أنهم من الفرس قال: إن الكلب أغلى ثمنا من أي فارسي، فأجاب الشيخ: «نعم! قد نكون أغلى ثمنا من الكلب لو أننا لم ندن بالدين الحق، ولما راع الأمير ذلك الجواب أمر بأن يقدم إليه ذلك الفارسي الجسور عند عودته من الصيد، ولما خلا به سأله ماذا يعني بهذه الكلمات، وما ذلك الدين؟ فعرض عليه الشيخ قواعد الإسلام في غيرة وحماس انفطر لهما قلب الأمير حتى كاد يذوب كما يذوب الشمع، وصور له الكفر بصورة مروعة اقتنع معها الأمير بضلال معتقداته وفسادها، وقال: «ولكني إذا اعتنقت الإسلام الآن، فلن يكون من السهل أن أهدي رعاياي إلى الصراط المستقيم، فلتمهلني قليلا؛ فإذا ما آلت إلى مملكة أجدادي، فعد إلي»

وذلك إن إمبراطورية جغطاي انقسمت في ذلك الوقت إلى إمارات صغيرة، وظلت على ذلك سنين طويلة حتى نجح تقلق تيمور في توحيد الإمبراطورية كلها تحت سلطانه، وجمع كلمتها كما كانت من قبل، وفي هذه الأثناء كان الشيخ جمال الدين قد عاد إلى بلده حيث مرض مرضا شديدا، فلما أشرف على الوفاة قال لابنه رشيد الدين: «سيصبح تقلق تيمور يوما ما ملكا عظيما، فلا تنس أن تذهب إليه وتقرئه مني السلام، ولا تخش أن تذكره بوعده الذي قطعه لي»

ولم يلبث رشيد الدين إلا سنين قليلة حتى ذهب إلى معسكر الخان، وكان قد استرد عرش إمبراطورية آبائه، تنفيذا لوصية أبيه؛ ولكنه لم يستطع أن يظفر بالمثول بين يدي الخان برغم ما بذله من جهود، وأخيرا لجأ إلى هذه الحيلة الطريفة؛ ففي ذات يوم أخذ يؤذن في الصباح المبكر على مقربة من فسطاط الخان، فأقلق ذلك الصوت نوم الخان وأثار غضبه، فأمر بإحضاره ومثوله بين يديه، وهناك أدى رشيد الدين رسالة أبيه، ولم ينس تقلق تيمور وعده وقال: «حقا! مازلت أذكر ذلك منذ اعتليت عرش آبائي، ولكن

الشخص الذي قطعت له ذلك الوعد لم يحضر من قبل، والآن فأنت على الرحب السعة، ثم اقرأ بالشهادتين، وأصبح مسلما منذ ذلك الحين؛ «وأشرقت شمس الإسلام ومحت بنورها ظلام الكفر. ولكي ينشر هذا الدين بين رعاياه اتفق تيمور ورشيد الدين على أن يستقبل الملك الأمراء واحدا بعد واحد، ويعرض عليهم الإسلام، فمن قبله جوزي الجزاء الحسن، ومن أباه ذبح كما يذبح الوثنيون وعبادة الأصنام»

وكان أول من عرض عليه منهم، الأمير تولك Tùlik؛ فقال له الخان: «ألا تدخل في الإسلام؟» عند ذلك سالت عبرات الأمير وقال: "لقد دخلت في الإسلام منذ ثلاث سنين على يد أحد رجال هذا الدين في كاشغر، وأصبحت مسلما منذ ذلك الحين؛ ولكني لم أصرح بذلك خوفا منك"؛ فنهض تقلق خان وعانقه؛ ثم جلس ثلاثتهم، وهكذا عرض الإسلام على سائر الأمراء، فقبلوه جميعا، إلا واحدا منهم اسمه Jaraàs فقد أبى أن يدخل في هذا الدين، واقترح عقد امتحان في القوة الجسمانية بين الشيخ وخادمه وكان ضخم الجثة؛ وقد بلغ من شدة قوته أنه كان يستطيع أن يرفع بيديه جملا ثنيا (ابن حولين)؛ فقبل الشيخ المبارزة وقال لذلك الأمير: «إذا لم أصرعه فلن أطلب إليك أن تدخل في الإسلام؛ وإذا قضت إرادة الله أن ينال المغول الشرف ببركة هذا الدين، فإنه سوف يهب لي، بلا ريب، قوة أستطيع بها أن أظهر على هذا الرجل"

وقد حاول تقلق وغيره من الذين اعتنقوا الإسلام جهدهم في أن يصرفوا ذلك الشيخ الورع عن تلك المبارزة، ولكنه أصر على ذلك، «واحتشد الناس وأتي بذلك الكافر ووقف كل منهما أمام الآخر، فتقدم الخادم في غير اكتراث اعتزازا بقوته وبدا الشيخ صغيرا ضعيفا جدا بجانب ذلك الرجل، ولم يكد يبدأ الصراع بينهما حتى وكز الشيخ الكافر وكزة قوية في صدره فسقط مغشيا عليه، وبعد قليل عاود الخادم المصارعة، ولكنه لم يكد ينهض حتى سقط على أقدم الشيخ وصاح بكلمة الإيمان. فأكبر الناس ذلك الانتصار وعلت أصوات الاستحسان من كل مكان، وفي ذلك اليوم قص ١٦٠.٠٠٠ رجل شعورهم ودخلوا في الإسلام، وأخذت الدهشة من الخان كل مأخذ، وبدد نور الإسلام غياهب الكفر»

وأصبح الدين الإسلامي منذ ذلك الوقت دين سكان الحضر في الولايات الخاضعة لسلطان خلفاء جغطاي [١]. ولكن يظهر أن كثيرين من بدو المغول بقوا بعيدين عن حظيرة الإسلام حتى مستهل القرن الخامس عشر الميلادي، كما يتضح ذلك من الوسائل العنيفة التي كان يسلكها مُحَمَّد خان، أمير مغالستان[٢] حول سنة ١٤١٦م، لتحويل هؤلاء البدو إلى ذلك الدين، «وكان مُحَمَّد خان أميرا ثريا حسن الإسلام، نهج منهج العدل وسلك سبيل المساواة بين الناس، ولم يفتر عن بذل هذه الجهود حتى أصبح معظم القبائل المغولية في عهده المبارك تدين بالإسلام، وقد عرف الناس هذه الوسائل الشديدة الحرج التي تذرع بها لحمل المغول على الدخول في الإسلام، مثال ذلك أنه كان إذا لم يلبس أحد المغول عمامة أنفذ في رأسه مسمارا من المسامير التي تستعمل في تركيب حدوة الحصان، وذاع استعمال هذا النوع من الوسائل الشديدة الحرج، جزاه الله خيرا!» [٣].

بل إن أمثال هذه الوسائل الصارمة لم يكن لها تأثير في حمل الناس كافة على قبول الإسلام؛ فقد ظهر في زمن متأخر يرجع إلى نهاية القرن التالي (السادس عشر الميلادي[٤]) أحد الدراويش واسمه إسحاق ولى، ووجد مجالا لتحويل كثيرين إلى الدين الإسلامي في كاشغر وباركند والخطأ، حيث قضى اثنتي عشرة سنة ينشر هذا الدين بينهم[٥]، كما عني أيضا بنشر الإسلام بين أمم الكرغير والقازاق، حتى أسلم منهم على يده مائة وثمانون وهدم ثمانية عشر هيكلا من هياكل الوثنيين[٦].

وقد حاولنا، فيما ذكرناه من قبل أن نبين بعض الخطى التي خطاها المسلمون ليجذبوا إلى دينهم القبائل المتوحشة التي قضت على مراكز ثقافتهم، وبذلك بدأ الإسلام

---

(١) أبو الغازي ج٢ ص١٦٠-١٦٨، مُحَمَّد حيدر ص١٣-١٥.

(٢) لما انحلت قوة خانات جغطاي غدا جزء من القسم الشرقي من مملكتهم مستقلا استقلالا عمليا تحت اسم مغالستان، وهي مملكة زراعية تلائم عادات رعاة البدو، وتسمى الآن تركستان الصينية.

(٣) مُحَمَّد حيدر ص٥٧- ٥٨.

(٤) كان ذلك في عهد عبد الكريم الذي كان خان كاشغر من سنة ٩٨٣ إلى سنة ١٠٠٣هـ (١٥٧٥-١٥٤).

(٥) Martin Hartman: Der Islamische Orient, vol, i. p. 203 (Berlin,1899).

(٦) Id, P.202

يتخلص تدريجيا من أطلال مجده السالف، ويتخذ مكانه من جديد باعتباره دينا ذا سيادة، بعد أن مني بالتدهور والانحطاط أكثر من قرن. وفي أثناء الكفاح الذي احتدم بين أتباع الديانات المتنافسة لجذب المغول إلى دياناتهم، كان لاعتبارات المنافع السياسية، بلا ريب، دخل كبير في توجيه هذا الكفاح لمصلحة جماعة المسلمين، وقد أثارت مؤامرات العالم المسيحي في الغرب شك المسيحيين الذي نظروا إليهم على أنهم جواسيس يعملون لمصلحة قوة أجنبية.

بيد أن بعض المغول الذين كانوا يدينون بعقائد المذهب النسطوري، استطاعوا بادئ الأمر أن يتقدموا بدعوى أحسن من الدعوى التي تذرع بها غيرهم، وهي أنهم قوم وطنيون، واستطاعوا بذلك أن يحملوا على المسلمين لأنهم أتباع دين أجنبي عنهم، فقد اتهم أرغون أحمد تكودار بخيانة شريعة آبائه بأن سلك سبيل العرب الذين لم يعرفهم أحد من أسلافه[1].

وإن الثورة التي أدت إلى طرد طرماشيرين ونفيه استمدت قوتها من الشكوى بأن هذا الملك لم يحفل بالسياق أو القوانين القديمة الخاصة بالنظم المغولية[2]، ومع أن مصدر الكفاح قد ظل مثارا للشك زمنا طويلا، رسخت أقدام الإسلام في البلاد التي انتزعت منه، وإن الوسائل التي أحرزتها بهذا الدين ذلك النجاح، لمن المسائل التي يحوطها الغموض والإبهام، كما إن المعلومات القليلة التي ذكرناها، تضرب صفحا عن ذكر كثير من تفاصيل هذه القصة. بيد أننا قد سجلنا ما يكفي للدلالة على بعض الأعمال التي أدت إلى تحولات فردية إلى هذا الدين.

وقد أُشرب آننداروح الإسلام[3]، وتمتعت البقية الباقية من المؤمنين، وخاصة الأسرات التركية الإسلامية القديمة، بنفوذ لا يكاد يحس، بين المغول الذين استقروا بينهم. على أن هنالك من بين العوامل الفعالة التي ساعدت على نشر الدعوة والتي كان لها أهمية

---

(١) Assemani, tome, iii, part, ii, p. cxvi.

(٢) ابن بطوطة ج٣ص ٤٠.

(٣) رشيد الدين ص٦٠٠ س١.

خاصة في هذا السبيل، تأثير البير pir وتلاميذه الروحيين، وفي وسط ذلك الخور العميق الذي طغى على المسلمين بعد تدفق سيل الفتح المغولي، وجد هؤلاء ملجأهم الأول في التصوف، وقد أمد البير أو المرشد الروحي والطوائف الدينية، كطائفة النقشبندية التي ظهرت بمظهر النفوذ والقوة في القرن الرابع عشر الميلادي، الجماعة الإسلامية بحياة جديدة وبثوا فيها حماسة شديدة.

«وعلى أيدي البير ودعاته غدا المسلم في آسيا أول الأمر عاملا سلبيا لا يصدر في أعماله عن شعور ووجدان، ثم أصبح آخر الأمر مشايعة لجماعة الدين القومي التي تناوئ حكم المغول الذي كان وقتا ما اجنبيا متبربرا سوقيا"[١].

ولنعد الآن إلى الكلام على انتشار الإسلام بين أهالي القبيلة الذهبية، كانت هذه الطائفة من المغول تنزل في ذلك السهل الرئيس الخصب الذي يرويه نهر الفلجا، حيث اتخذت على أحد ضفافه حاصرتها سيرية Srai، ومنها أرسل أمراء الروس الجزية إلى الخان؛ وكان لإسلام بركة خان الذي تكلمنا من قبل، وما كان بينه وبين المماليك في مصر من الصلات الوثنية أثر كبير في انتشار الإسلام بين أهالي هذه القبيلة.

ويظهر أنه قد حذا حذوه تدريجيا كثير من أفراد الطبقة الأرستقراطية وزعماء القبيلة الذهبية الذين كانوا من أصل مغولي، ولكن يظهر أيضًا أن كثيرًا من بطون هذه القبيلة الذهبية قاوموا ذلك الدين وحالوا دون انتشاره بينهم، حيث إنهم فكروا في خلع بركة خان حين أعلن إسلامه، وعرضوا تاج المغول الذي اعتقدوا أنه أصبح غير جدير به على منافسة هولاكو، وبلغ من شدة هذه المقاومة أن انقسم المغول على أنفسهم، وظهرت بينهم قبيلة نوجاي Nogais كقبيلة منفصلة، واتخذوا هذا الاسم من Nogay الذي كان قائد قواد الجيوش المغولية في دولة بركة خان، ولما أصبح غيره أمراء القبيلة الذهبية يدينون بالإسلام، ظل نوجاي متمسكا بالشامانية، وغدا نقطة الاتصال بين كل من هؤلاء الذين أبوا أن يتحولوا عن ديانة المغول القديمة، على أن ابنة هذا القائد التي تزوجت من أحد

---

(١) Cahun., P.410.

الشامانيين لم تلبث أن دخلت في الإسلام بعد زواجها بقليل، وظلت على دينها الجديد، ولم يصرفها عنه سوء معاملة زوجها واحتقاره إياها[١].

وقد قيل أوزبك خان **Uzbek Khàn**، الذي كان زعيما للقبيلة الذهبية من سنة ١٣١٣ إلى سنة ١٣٤٠م، والذي اشتهر بتحمسه لنشر تعاليم الدين الإسلامي، وحرصه على تحويل كثير من الأهلين إليه "اقتنع بطاعتنا، وماذا يهمك من ديننا؟ ولماذا تترك دين جنكيز خان لتعتنق دين العرب؟".. ولكن أوزبك نجح على الرغم مما لقيته جهوده من مقاومة شديدة، في جذب كثيرين وتحويلهم إلى هذا الدين الذي كان من أشد أتباعه حماسة وصلابة، وإليه يرجع الفضل في توطيد دعائمه وتثبيت أركانه في البلاد التي كانت تحت سلطانه[٢].

ومما يدل أيضا على نفوذ أوزبك ما نجده في القبائل الأوزبكية في أواسط آسيا، التي اشتقت اسمها من اسمه والتي لا يبعد أن تكون قد تحولت إلى الإسلام في عهده، ويقال إنه وضع خطة لنشر الإسلام في كافة أرجاء بلاد الروسيا[٣]. ولكن هذه الخطة لم تصادف شيئًا من النجاح، وفي الواقع يظهر أن نفوذ المغول، مع أنهم كانوا أصحاب السيادة المطلقة في الروسيا مدة قرنين، كان قليلا جدا في أهالي هذه البلاد، وأن هذه النفوذ كان أقل ما يكون في المسائل الدينية، أضف إلى ذلك أنه مما هو جدير بالملاحظة، على الرغم مما أظهره أوزبك من التحمس في نشر الإسلام وتفانيه في الإخلاص له، أنه كان كثير التسامح نحو رعاياه من المسيحيين، فقد منحهم الحرية التامة في إقامة شعائرهم الدينية من غير أن يتعرض لهم أحد بسوء، وذهب في تسامحه إلى أبعد من هذا، فسمح لهم بموالاة التبشير لدينهم ونشره في بلاده، ومن أهم الوثائق التي تسترعي الانتباه عن التسامح الإسلامي، ذلك العهد الذي منحه أوزبك خان المطران في سنة ١٣١٣م، وقد جاء فيه:

«بمشيئة الله العلي القدير وعظمته ورحمته! من أوزبك إلى أمرائنا كبيرهم وصغيرهم

---

(١) **Howorthm vol, ii, p.105.**

(٢) أبو الغازي ج٢ ص١٨٤

(٣) **De Guignes vol, ooo. P.351.**

وغيرهم. إن كنيسة بطرس مقدسة فلا يحل لأحد أن يتعرض لها أو لأحد من خدامها أو قسيسيها بسوء ولا أن يستولي على شيء من ممتلكاتها أو متاعها أو رجالها، ولا أن يتدخل في أمورها، لأنها مقدسة كلها، ومن خالف أمرنا هذا بالتعدي عليها، فهو أمر أثيم أمام الله وجزاؤه منا القتل، ولندع المطران ينعم بالأمان والبهجة؛ ولندعه (أو وكيله) يقرر وينظم كل المسائل الكنسية بقلب سليم وفؤاد عادل قويم، وإننا نعلن في حزم أننا نحن وأولادنا وأمراء دولتنا وولاء أقاليمنا لن نتدخل بأي حال في شئون الكنيسة ولا في شئون المطران، ولا في شئون المدن والمراكز والقرى والأراضي المخصصة للصيد في البر والبحر، ولا في خلايا النحل؛ ولا في الأراضي والمراعي والصحاري، ولا في المدن والأماكن في أملاكها الخاصة، ولا في الكروم والطواحين، ولا في مراعي الشتاء، ولا في أي شيء من ممتلكات الكنيسة وأمتعتها.

ولندع بال المطران في راحة دائمة خاليا من كل تعب أو نصب، ولندع قلبه سليما قويا، ولندعه يصلي لله من أجلنا ومن أجل أولادنا وأمتنا، حتى إذا وضع يده على شيء مقدس، ثبتت عليه التهمة، وباء بغضب من الله، وكان جزاؤه القتل، حتى يلقى مصيره الرعب والفزع في قلوب الآخرين، وإذا فرض الخراج أو غيره من الضرائب: كالرسوم الجمركية، والمكوس، وضرائب الطرق والأراضي غير المزروعة، أو إذا أردنا حشد الجنود من بين رعايانا، فلا يجمع شيء بالقوة والإكراه من الكنائس التابعة للمطران بطرس أي لأي أحد من رجال الدين التابعين له، وكل ما يؤخذ من رجال الدين بالقوة والإكراه، يرد إليهم أضعافا ثلاثة، ولتكن شرائعهم وكنائسهم وأديارهم ومعابدهم محل الاحترام والتعظيم، وكل من يتهم أو يحط من شأن هذا الدين، فلن يقبل منه أي عذر ولا أن يطلب العفو، بل يكون جزاؤه القتل، وسوف يتمتع أخوة القسيسين والشمامسة الذين يجلسون إلى مائدة واحدة، وفي دار واحدة بنفس هذه المزايا والحقوق"[1].

ويمكن أن نستدل على أن هذا المرسوم لم يكن كلمات جوفاء أو مجرد «حبر على

---

(1) Karamzin, vol, iv. Pp.391-4.

ورق» وان التسامح الذي وعد به هؤلاء المسيحيون قد أصبح حقيقة واقعة من هذه الرسالة التي بعث بها البابا يوحنا الثاني والعشرون Pope John xxii سنة ١٣١٨ إلى الخان، يشكر فيها للأمير المسلم ما أظهره من عطف على رعاياه المسيحيين، ويثني على هذه المعاملة الطيبة التي كان أوزبك يعاملهم بها[١]. ويظهر أن خلفاء أوزبك خان لم تدفعهم نفس الرغبة التي أظهرها هو في نشر الإسلام، ومن ثم لم يكن من المتوقع أن ينجحوا فيما أخفق هو فيه، وكان الروس إذا أدوا الضرائب المفروضة عليهم، تركت لهم الحرية في إقامة شعائرهم الدينية كيف شاءوا، وقد بلغ من تغلغل المسيحية في حياة الشعب أنه لم يعد هناك ما يعكر صفو هذه الحياة، وبذلت الجهود لتحويلهم عن دين آبائهم. ويرجع السبب في ذلك إلى أن المسيحية كانت الديانة القومية للشعب الروسي قرابة ثلاثة قرون، قبل أن يوطد المغول سلطانهم في الأراضي الروسية.

وقد حاول شعب آخر جذب الروس إلى الإسلام قبل ذلك بسنين كثيرة، ولكنه أخفق كذلك؛ وهؤلاء هم البلغار من المسلمين الذين وجدوا حول القرن العاشر الميلادي على ضفاف نهر الفلجا، والذين قد يرجع الفضل في إسلامهم إلى تجار المسلمين الذين كانوا يتاجرون في الفراء وسائر السلع التي كانوا يحصلون عليها من البلاد الشمالية، على أنه يظهر أن دخول البلغار في الإسلام لا بد أن يكون قد تم قبل سنة ٩٢١م، حين أرسل إليهم الخليفة المقتدر (٩٠٨- ٩٣٢م) (٢٩٥-٣٢٠هـ) رسولا من قبله يقوم بتثبيتهم على الدين وتعليمهم مبادئ الإسلام وشعائره [٢].

وقد حاول هؤلاء البلغار تحويل فلاديمير Vladimir ملك روسيا في ذلك الحين (الذي تحدثنا عنه الرواية الروسية) أنه رأى أنه لم يكن بد من أن يختار دينا آخر غير الدين الوثني الذي كان يدين به، ولم يقف في سبيل تحوله ورعاياه إلى هذا الدين إلا الختان وتحريم الخمر المستعملين عند المسلمين؛ وصرح أن الروس لا يعدلون عنهما، لأنهما كانا من

---

(١) Hammer- Purgstall: Geschichte der Goleenen Horde in Kiptschak, P.290

(٢) عن الباشفرد الذين ورد ذكرهم في ابن فضل وياقوت وشرح C.N. Franchino (Memoires de l'Académie Imperiale de sciences de St. Pétersbourg, tome vii, p.626, 1822)

مباهج الحياة عندهم، وكذلك ابتلي بهذا الإخفاق اليهود الذين جاءوا من بلاد الخزر على بحر قزوين، واستمالوا ملك هؤلاء الروس إلى الديانة الموسوسة[1].

وبعد أن أصغى فلاديمير إلى حججهم، سألهم أين بلدهم؟ فأجابوا: «بيت المقدس، ولكن الله شتت شملنا في كافة أنحاء العالم غضبا منه عليها، فصاح «إذا فقد بؤتم بلغة من الله؛ ومع الله فأنتم ترتدون أن تعلموا غيركم، اذهبوا فنحن لا نريد مثلكم ألا يكون لنا وطن» وكان أحسن ما أثر في نفس فلاديمير تلك الفكرة التي رسمها قسيس إغريقي، حين عرض صورة شاملة لتعاليم المسيحية، بعد أن نقد الديانات الأخرى نقدا موجزا، بادئا بخلق العالم وقصة فناء الإنسان، وانتهى بالمجامع السبع المسكونية التي اعترفت بها الكنيسة الإغريقية، ثم رسم الملك صورة ليوم الدين، ودخول الصالحين الجنة، وقذف الكفار في الجحيم، ووعده بميراث السماء إذا عمد. ولكن فلاديمير لم يكن يميل إلى الاندفاع في اختيار دين محل دينه الوثني، ومن ثم جمع زعماء الروس في دولته، ولما أنهى إليهم من سمعه عن الديانات المختلفة، سألهم أن يمدوه بنصائحهم، فأجابوا: «أيها الأمير! إن كل امرئ يمتدح ديانته؛ فإن أردت أن تختار أحسنها، فابعث برجال عقلاء إلى البلاد المختلفة ليكشفوا لك أية أمة من الأمم تعظم الله بالطريقة المثلى التي تليق بمقامه الأسمى»، لذلك اختار الأمير لهذا الغرض عشرة رجال اشتهروا بالحكمة وسداد الرأي، ووجد هؤلاء السفراء بين البلغار أماكن حقيرة المظهر، وصلوات تبعث على الكآبة، ووجوها واجمة، ووجدوا بين الألمان الكاثوليك حفلات دينية حفلات دينية خالية من الأبهة والجلال، وأخيرا بلغوا القسطنطينية؛ فقال الإمبراطور: «دعهم يشاهدوا جلال إلهنا»، ثم أخذوا إلى كنيسة أيا صوفيا، حيث كان البطريق، وهو مرتد ملابسه الرسمية، يحتفل بالقداس.

وإن فخامة البناء، وملابس القسيسين الكهنوتية الجميلة، وزخارف المذابح، ورائحة البخور الزكية، وسكون الناس المنبعث عن الاحترام والخضوع، والاحتفال الديني السحري

---

(1) أبو عبيد البكري ص٤٧٠– ٤٧١.

الذي يتجلى في هيبة وخشوع: كل ذلك ملأ قلوب الروس دهشًا وعجبًا. وقد بدا لهم أن هذه الكنيسة لا بد أن تكون مقام العلي الأسمى، وأنه سبحانه أظهر للبشر مجده في ذلك المكان. ولما عاد الرسل إلى كييف، وصفوا سفارتهم للأمير، وتكلموا في احتقار عن ديانة النبي، ولم يكن لديهم ما يقولون إلا القليل عن الديانة الرومانية الكاثوليكية؛ ولكنهم امتدحوا الكنيسة الإغريقية في حماسة وغيرة وقالوا: «إن كل رجل ذاق شربة حلوة، سوف يعاف من الآن، أي شراب مر المذاق. ومن أجل هذا، لا نرغب – بعد أن وقفنا على عقيدة الكنيسة الإغريقية – في أية ديانة أخرى».

وقد استشار فلاديمير زعماء الروس مرة أخرى، فقالوا له: لو لم تكن الديانة الإغريقية أحسن الديانات، لما اعتقدتها أبدًا جدتك أولجا، أحكم البشر. ومن ثم لم يعد فلاديمير مترددًا، وفي سنة ١٨٨٨م جهر بالمسيحية، وفي اليوم التالي لتعميده نبذ الأوثان التي عبدها أجداده، وأصدر مرسومًا يقضي بأن يذعن الروس كافة، سادة وعبيدًا، أغنياء وفقراء. للتعميد وفق طقوس الديانة المسيحية[١].

وهكذا أصبحت المسيحية ديانة الروس، فإنه بعد الفتح المغولي نجد الصفات القومية التي تميز بها الروس والتتار، الذين احتفظوا إلى الآن بعنصرين منفصلين أحدهما عن الآخر، وما أضمروه من كراهة مريرة للسلطان التتاري، وإخلاص الروس لدينهم، ونقص الغيرة الدينية التتار – نجد ذلك كله قد جعل الجنس المحكوم بعيدًا عن اعتقاد ديانة هؤلاء الذين فتحوا بلاده. وقد زعم بعض أن تحريم الشريعة الإسلامية الخمور كان عقبة في سبيل اعتقاد أهالي الروسيا هذا الدين.

ويظهر أنه لم تكن هنالك حالات عن تحول بعض الروس إلى الإسلام، إلا بعد أن صدر في سنة ١٩٠٥ مرسوم ينص على التسامح الديني في كافة أرجاء الإمبراطورية الروسية، وما تلا ذلك من دعاية نشيطة قام بها المسلمون. وإن ما حدث من هذه الحالات يعزى إلى قوة التأثير الناتجة من المساعدة المادية التي قدمها التتار إلى هؤلاء

(١) Karamsin, tome i. pp. 259-71.

الداخلين في الإسلام، كما يعزى إلى القوة المعنوية التي تميز بها المسلمون أنفسهم(١).

ولم يكن تتار بلاد الروسيا مجتمعين غير عاملين على تقدم انتشار الإسلام في القرون السابقة؛ فإن السحنة الهلينية الواضحة التي تشاهد بين هؤلاء الذين يطلق عليهم اسم تتار القرم، أدت إلى الظن بأن هؤلاء المسلمين قد أدمجوا في مجتمعهم الأهالي من الإغريق والإيطاليين الذين وجدوهم قد استوطنوا شبه جزيرة القرم. كما نجد بينهم أسلافهم الذين دخلوا في الإسلام من الأهالي الوطنيين في هذه البلاد، ومن سكان مستعمرة جنوه(٢).

ويحدثنا أحد الرحالين في القرن السابع عشر الميلادي أن تتار القرن كانوا يبذلون جهدهم لحث مواليهم على الدخول في الإسلام، وأنهم جذبوا كثيرين منهم إلى هذا الدين، بما كانوا يعدونهم إياه من منحهم الحرية إذا استجابوا لرغباتهم(٣). وكذلك نشطت الدعوة إلى الإسلام بين تتار القرم بعد أن صدر مرسوم حرية التدين في سنة ١٩٠٥(٤).

ولا بأس من أن نشير هنا إشارة موجزة إلى التتار في لتوانيا، حيث استقرت جماعات صغيرة منهم منذ أوائل القرن الخامس عشر. وقد احتفظ هؤلاء المهاجرون المسلمون، الذين أقاموا بين الأهلين من المسيحيين، بدينهم القديم، ولكن يظهر أنهم (وقد يكون ذلك لأسباب سياسية) لم يحاولوا أن يعلموهم مبادئ هذا الدين؛ بيد أنهم اعتادوا أن يتزوجوا من اللتوانيات والبولنديات، اللاتي نشأ أبناؤهن نشأة إسلامية، ولم يسمح لأية مسلمة أن تتزوج من مسيحي. وشجع كبار دوقات لتوانيا زواج النساء المسيحيات من رجال جنودهم التتارية، الذين قدموا إليهم هبات من الأرض، ومنحوهم مزايا أخرى(٥).

ومن أغرب الحوادث في تاريخ الدعوة إلى الإسلام، ما كان من تحول القرغيز في بلاد آسيا الوسطى على أيدي علماء التتار (المليات) الذين نشروا الإسلام بينهم في

---

(١) Bovronikoff, p. 13.

(٢) Reclus, tome v. p. 831. R. du M. M., tome iii. Pp. 76, 78.

(٣) Relation des Tartares, par Jean de Luca, p. 17. (Thevenot, tome i).

(٤) Islam and Missions, p. 257.

(٥) Gasztowtt, pp. 321-3. R. du M. M., xi. (1910), pp. 287. Sqq.

القرن الثامن عشر، باعتبار أنهم دعاة من قبل الحكومة الروسية. وقد أخذ القرغيز ينضمون تحت لواء الروس حول سنة ١٧٣١م، وتبودلت الرسائل السياسية معهم كافة باللغة التتارية قرابة ١٢٠ سنة، واهمين أنهم كانوا يشبهون تتار الفلجا من ناحية السلالة البشرية. وهناك نوع آخر من سوء الفهم من ناحية الحكومة الروسية، وهو أن القرغيز كانوا مسلمين، على حين كانوا في القرن الثامن عشر جميعا – على وجه التقريب – يدينون بالشامانية، حيث كان عدد كبير منهم لا يزالون يدينون بهذا الدين حتى منتصف القرن التاسع عشر. وفي القرن الذي ضمت فيه بلادهم إلى الإمبراطورية الروسية، عدا قليل من خاناتهم وسلاطينهم، كانت لهم معرفة ما بالدين الإسلامي، وكانت هذه المعرفة على درجة كبيرة من الاختلاط والغموض.

ولم يجد أحد مسجدًا واحدًا في أرجاء سهولة القرغيز كافة، كما لم يكن هناك أي معلم ديني يقوم بتعليم دين النبي. ويدين القرغيز بدخولهم في الإسلام إلى هذه الحقيقة، وهي أن الروس الذين عدوهم مسلمين، أصروا على معاملتهم كما لو كانوا كذلك. وقد منحوا الأموال الضخمة لبناء المساجد، وأرسل عدد كبير من (المليات) لإنشاء المدارس وتعليم الأطفال مبادئ الإسلام. وكان علماء القرغيز يتسلمون في كل يوم مقدارًا صغيرًا من النقود يقوم بنفقتهم، واستحث الآباء على إرساء أطفالهم إلى المدارس عن طريق الهدايا وغيرها من وسائل التشجيع والإقناع.

ومن الأدلة التي لا تقبل الجدل على أن الدعوة الإسلامية قد شقت طريقها في سهول القرغيز من ناحية بلاد الروسيا، هذه الحقيقة الواقعة، وهي أن هؤلاء القرغيز خاصة، الذين كانوا أكثر اتصالًا بأوروبا، هم الذين أصبحوا مسلمين أول الأمر. وقد أخذت الشامانية القديمة تسير حتى القرن التاسع عشر في بطء وتمهل، بين هؤلاء الذين طوفوا فيما جاور بلاد خيوة وبخارى وخوقند، مع أن هذه البلاد كانت بلادًا إسلامية عدة

قرون[١].

وقد يكون هذا المثل الوحيد لحكومة مسيحية شاركت في نشر الإسلام، وليس أقل غرابة من ذلك أن الحكومة الروسية في هذا العصر كانت تحاول أن تفرض المسيحية على رعاياها المسلمين في أوروبا، استمرارًا لما بذلته من جهود في القرن السادس عشر على أثر فتح خانية قزان.

وفي مستهل القرن التاسع عشر، كان كثير من القرغيز الذين يقيمون في السهول الفسيحة الممتدة جنوبًا من مقاطعة تبلسك إلى بلاد تركستان لا يزالون على الوثنية، واتصل بعض بالحكومة الروسية لإيفاد بعث تبشيري للدين المسيحي يقيم بين أظهرهم. ولكن الحكومة لم تجبهم إلى هذا الطلب بحجة أن «هؤلاء الناس كانوا من البربرية والوحشية بحيث لا يكون فهمهم للإنجيل أمرًا ميسورًا. سرعان ما سارت لنشر الدعوة جماعات أخرى لا تعتمد على حسن نية أية حكومة، كما كانت أكثر غيرة وإدراكًا واحتلت هذا الميدان واجتذبت كافة قبائل القرغيز إلى الدين الإسلامي»[٢].

وبعد فتح قزان على أيدي الروس في القرن السادس عشر، تلا احتلال خانية التتار السابقة حركة رسمية للتبشير بالمسيحية، وعمد عدد من سكان الخانية الوثنيين، ونشط رجال الشرطة ورجال السلطان المدنية في تأييد أعمال رجال الكنيسة. بيد أنه، لما لم يكن القسيسون الروسيون يفهمون لغة هؤلاء الذين حولوهم إلى الإسلام، والذين لم يلبثوا أن أهملوا شأنهم، لم يكن بد من الاعتراف بأن هؤلاء الذين تحولوا حديثًا «يحتفظون في غير خجل أو حياء بكثير من العادات التتارية المرذولة، ولم يكونوا يتمسكون بالعقيدة المسيحية أو يعرفونها». ولما أخفقت العظات الروحية، أمرت الحكومة موظفيها بأن يلطفوا من هذه الحالة، ويحبسوا الناس، ويكبلوهم بالحديد، ويحولوا بذلك دون تعليم هؤلاء الذين لا يطيعون أوامر المطران برغم تعميدهم، ويثيرون مخاوفهم من ناحية العقيدة التتارية.

---

(١) The Russian Policy regarding Central Asia. An historical sketch, By Prof. V. Grigorief. (Eugene Schuyler: Turkistan, vol. ii. Pp. 405-6. 5th ed. London, 1876); Franz von Schwarz: Turkestan, p. 58. (Freiburg, 1910).

(٢) Islam and Missions, pp. 251-2, 255.

وفي القرن الثامن عشر بذلت الحكومة الروسية جهودًا جديدة لتنصير القبائل الوثنية والتتار الذين ارتدوا عن دينهم، وبذلوا كثيرًا من ضروب الإقناع والإغراء لتعميدهم؛ ففي سنة ١٧٧٨ أمرت الامبراطورة كاترين الثانية بأن يوقع كل من هؤلاء الحديثي العهد بالمسيحية على إقرار كتابي يتعهدون فيه «بترك خطاياهم الوثنية، وتجنب كل اتصال بالكفار، والتمسك بالدين المسيحي وعقائده والثبات عليهما». على الرغم من هذا كله، لم يكن هؤلاء الذين أطلق عليهم «التتار» المعمدون إلا مسيحيين اسمًا، وسرعان ما أخذوا يحاولون التخلص مما بذلت الكنيسة الأرثوذكسية من الجهود التبشيرية، وتركوا المسيحية، واعتنقوا الإسلام. ولم يكن هذا الدخول في المسيحية إلا خطوة تمهيدية لدخولهم في عقيدة النبي.

وفي الحق أنه لا يبعد أن تكون أسماؤهم قد دونت في السجلات الرسمية باعتبارهم مسيحيين، ولكنهم وقفوا في ثبات وقوة في وجه أية محاولة بذلت لتنصيرهم. ويقول الكاتب في مقال شبه رسمي نشر في سنة ١٨٧٢: «إنه لحقيقة تستحق الانتباه أن سلسلة طويلة من الارتداد الواضح تتفق مع بداية الإجراءات التي اتخذت لتثبيت الداخلين في العقيدة المسيحية. ولهذا يجب أن يكون هناك سبب معقول لحالات الارتداد هذه، في نفس الوقت الذي كان من المتوقع أن يحدث خلاف ذلك».

ويظهر أن الحقيقة كانت تنطوي على أن هؤلاء التتار، لكونهم قد ظلوا دائمًا مسلمين بقلوبهم، قاوموا التدابير الفعالة التي اتخذت لتجعل اعتناقهم المسيحية الأسمى حقيقة واقعة بحال من الأحوال[١]. ولكن في النصف الأخير من القرن التاسع عشر، بذلت جهود لتنصير هذه القبائل الوثنية والإسلامية عن طريق إنشاء مدارس بينهم. وكانوا يؤملون من وراء ذلك أن يجذبوا إليهم شبيبة ذلك الجيل، إذ ظهر لهم أنهم إذا لم يفعلوا ذلك، كان من المحال أن يفوزوا بإدخال المسيحية بين التتار. ذلك أن «استمالة مواطني قزان — كما يقول أستاذ روسي – أمر صعب المنال، ولكننا نستجلب نفرًا قليلًا من

(١) D. Mackenzie Wallace: Russia, vol. i. pp. 242-4. (London, 1877, 4th ed). R. du M. M. vol. ix. (1909), p. 249, Bobrovnikoff, p. 5. Sqq.

سكان القرى الواقعة في السهل، ونروضهم على مخافة الله، فإذا ما أصبحوا معنا فإنهم لن يعرضوا عنا أبدًا»[(١)]. ذلك أن القانون الجنائي الروسي كان يتضمن دائمًا عقوبات صارمة لهؤلاء الذين حادوا عن الكنيسة الأرثوذكية[(٢)]، ويعاقب كل شخص تثبت عليه تهمة تحويل مسيحي إلى الإسلام، بتجريده من كافة الحقوق المدنية، وبحبسه مع الأشغال الشاقة مدة تتراوح بين ثماني سنين وعشر. وبرغم أوامر الحكومة نجحت الدعاية الإسلامية في جذب القرى بأسرها إلى عقيدة الإسلام ولا سيما القبائل الروسية التي تقيم في الشمال الشرقي[(٣)].

وتعد مدينة قزان المركز الرئيس لنشاط هذه الدعوة؛ وكان يطبع في كل سنة عدد كبير من المنشورات الإسلامية، في ذلك المكان، وتذهب المليات من الجامعات لتحويل الوثنيين في القرى وإعادة التتار، الذين كانوا قد ارتضوا التعميد، إلى الإسلام. وإن ازدياد عدد التتار المسيحيين الذين أخذوا في زيادة صفوف الإسلام، قد أثار الفزع في نفوس رجال الكنيسة الأرثوذكسية. ولكن جهودهم قد أخفقت في وقت نجاح المليات في هذه السبيل[(٤)]. وقد دونت الأخبار كثيرًا عن دخول الناس في هذا الدين أفواجًا، ولا سيما على أثر صدور مرسوم حرية التدين في سنة ١٩٠٥. مثال ذلك ما قيل من أن إحدى وتسعين أسرة اعتنقت الإسلام في قرية أتومفا Atomva في سنة ١٩٠٩[(٥)]. وإن عددًا بلغ من الكثرة حول ٥٣.٠٠٠ نسمة أسلم بين سنتي ١٩٠٦، ١٩١٠[(٦)]. وقد قيل إن أكبر الفضل في نجاح هذه الدعوة يرجع إلى مستوى الحياة الأخلاقية المجتمع

---

(١) W. Hepworth Dixon: Free Russia, vol. ii. P. 284. (London, 1870).

(٢) مثال ذلك أنه «في سنة ١٨٨٣، سيق فلاحو التتار بقرية أبوزوف Apozof إلى محكمة قزان، لأنهم تركوا المذهب الأرثوذكسي. وقد صرح المتهمون بأنهم كانوا يدينون بالإسلام على الدوام. وقد حكم على سبعة منهم بالأشغال الشاقة لاتهامهم بالكفر ونفي كثير من الذين ارتدوا عن دينهم إلى سيبريا».

Anatole Leroy- Beaulieu: L' Empire des Tsars et les Russes, tome iii, p. 645, (Paris, 1889-93).

(٣) D. Mackenzie Wallace: Russia, vol. i. p. 245.

(٤) Palmieri, pp. 85-6. R. du M. M., i. (1907), pp. 162. Sq.

(٥) R. du M. M., ix, (1909), p. 294.

(٦) Id. X. (1910), p. 413. Id. i. (1907), p. 273.

الإسلامي، الذي كان أكثر رقيًا، كما يرجع أيضًا إلى شعور التآخي الذي كان يشيع في هذا المجتمع، والذي كان أكثر تماسكًا وقوة[١].

أضف إلى ذلك أن الأساليب التي لجأ إليها رجال الكنيسة الروسية وأيدتها الحكومة، لتجعل تلك الطبقة التي كان يطلق عليها التتار المسيحيون أكثر تمسكًا بالدين، قد جعلت العقيدة المسيحية أمرًا غير مألوف لديهم[٢]. هذا من جهة، ومن جهة أخرى سارت الدعوة الإسلامية قدمًا في حماسة بالغة، «فقد كان كل مسلم ساذج أمي داعية إلى دينه، وعجزت القبائل الفقيرة الجاهلة الأمية من الوثنيين أو أشباه الوثنيين عن أن تقاوم قوة هؤلاء الدعاة. وفي كثير من القرى التي عمد أهلها، انطلق الرجال في زمن الشتاء يحترفون الحياكة في القرى الإسلامية. وهناك يتحولون إلى الإسلام، ثم يعودون إلى قراهم حُمسًا يجلبون معهم أفكارًا إسلامية يكون لها أثرها في بيوتهم»[٣].

ومن أهم القبائل التي تأثرت بحركة الدعوة إلى الإسلام قبيلة الڤوتياك **Votiaks** التي كان السواد الأعظم منها مسيحيًا معمدًا؛ بيد أن كثيرًا منهم أصبحوا مسلمين في القرن الثامن عشر، وفي مستهل القرن التاسع عشر. ولا يزال تأثير الإسلام آخذًا في النمو، بين هؤلاء الذين يدينون بالمسيحية وبين هذه البقية اليسيرة التي لا تزال على وثنيتها. وإن قبيلة الشيريمس **Cheremiss**، كالڤوتياك، قبيلة من الفِنْ **Finns**[*]، لا يزال ربعها على الوثنية، ولكن كثيرين منها كانوا قد دخلوا في الإسلام، ولا يبعد أن يبادر معظمهم إلى الدخول في هذا الدين. وقد تجلت حركة الشيريمس إزاء الإسلام في القرن التاسع عشر؛ ومع أن كثيرين منهم كانوا مسيحيين اسمًا، فإن قراهم بأسرها دخلت في الإسلام برغم القوانين التي تحرم التحول إلى أي دين من الأديان عدا مذهب الكنيسة الأرثوذكسية[٤]. وقد أصبحوا مسلمين باتصالهم المباشر بالباشغرد والتتار الذين كانت تشبه أسرتهم

---

(١) **Id, ix. P. 252.**

(٢) **Id, p. 249.**

(٣) **Bobrovnikoff, p. 12.**

(*) وهي من أصل تيوتوني كانت تسكن في الشمال الشرقي من أوروبا.

(٤) **Reclus, tome, v. pp. 746, 748.**

وعاداتهم الاجتماعية أسرة هؤلاء وعاداتهم.

وقد بدأت هذه الخطوات أحيانًا بالتصاهر إلى المسلمين، مثال ذلك أن إحدى أسرات الشيريمس في بعض القرى تصاهرت إلى بعض الباشغرد واعتنقت ديانته. ولما كان هؤلاء الذين تحولوا إلى الإسلام يلقون في قراهم عنتًا واضطهادًا بتسميتهم «الكلاب المختونين»، نراهم يهاجرون ويؤسسون مستعمرة جديدة على بعض أميال، كما نرى بعض ذوي اليسار من الباشغرد يعينونهم بالمال. ولكن لما كانوا يعدون وثنيين في السجلات الرسمية، لم يستطيعوا أن يحصلوا على تصريح ببناء مسجد. لذلك انتقل بعض أسرات من الباشغرد التي كانت في الأماكن المجاورة لهم إلى المستعمرة الحديثة، حتى يجعلوا عدد الأهلين بحيث يسمح لهم بالحصول على التصريح الرسمي المطلوب[١].

وطالما اتخذ مثل هذه الخطوة في القرى الأخرى التي جاء المسلمون لاستيطانها والتصاهر إلى من فيها من الشيريمس[٢]. وكانت هنالك في أحوال كثيرة حركة واضحة لنشر الدعوة، مثال ذلك أن قرية قرقول كانت من مستهل القرن التاسع عشر آهلة بالشيريمس المسيحيين. على أنه بعد منتصف هذا القرن بقليل، تحول بعض الأسرات إلى الإسلام على يد أحد الشيريمس بعد أن دخل في جماعة الملبات، وخلفه في الدعوة بعد وفاته أحد الباشغرد من أهالي قرية أخرى.

وبعد ذلك انتقل الذين دخلوا في الإسلام إلى قرى التتار والباشغرد، بعد أن احتل التتار أماكنهم، وبعد أن أصبحت القرية بأسرها تتارية في واقع الأمر، واحتفظ قليل من شبيبة الجيل بشيء من لغة الشيريمس وتصاهروا مع التتار وحدهم[٣]. وإذا تركنا هذا النشاط في تعليم الناس مبادئ الدعوة جانبًا، وجدنا تأثير التتار في الكلام والعادات بين الشيريمس منتشرًا انتشارًا ملحوظًا جدًا؛ فقد انتشرت لغة التتار بينهم، وجلبت معها أفكار الإسلام الأدبية والدينية.

---

(١) Eruslanov, pp. 3, 6.

(٢) Id. Pp. 7-8.

(٣) Id. Pp. 5-6.

ويعد إدخال الزي التتري علامة على تفوق الثقافة، وإذا لم يرتد أحد أفراد الشيريمس الزي الذي يرتديه التتار، تعرض لسخرية أول تتاري يلتقي به أو لسخرية إخوانه من الشيريمس. وهذه الحركة الثقافية تجنح إلى انتحال ديانة التتار بصفة نهائية[١]. وقد قيل إن الشيريمس قد أصبحوا بعد إسلامهم على جانب عظيم من الحماسة لنشر دينهم الجديد، كما تلقوا معونة التتار الموسرين[٢].

هذا من جهة، ومن جهة أخرى ينظر الروس إلى الشيريمس نظرة احتقار، ويعدونهم جنسًا منحطًا، وينبزونهم بألقاب شائنة، حتى هؤلاء الشيريمس من المسيحيين الذين يقيمون بين أظهرهم[٣]. ولا يزال نحو ربع عدد الشيريمس على الوثنية، ولكن المؤثرات الإسلامية كانت من القوة بينهم بحيث لا يبعد أن يصبح السواد الأعظم منهم مسلمين على مر الأيام[٤].

أما الشوفاش **Chuvash** الذين يبلغ عددهم المليون، فقد عمدوا بأسرهم تقريبًا، ولا يزال نحو عشرين ألفًا منهم على الوثنية، ولكن الإسلام يضمهم إلى صفوفه تدريجًا، على حين أصبح بعض الشمغاش من المسيحيين مسلمين. وأصبحت البقية الباقية منهم واقعة تحت تأثير الإسلام، وقد نستدل على امتداد حماستهم نحو الذين دخلوا منهم في الإسلام من إحدى قرى الشوفاش المسيحية التي يمكن أن نتخذها مثلًا في هذا الصدد، فقد قضى قسيسها سنوات كثيرة في جمع ثلاثمائة روبل **Roubles** كانت ضرورية لإصلاح الكنيسة وتحولت ثماني أسرات شوفاشية إلى الإسلام، فجمع المسلمون ألفي روبل في خلال بضعة أشهر لبناء مسجد[٥].

وإن مثل هذا النشاط الحي ليعد صفة تتميز بها الدعوة الإسلامية التي كانت منبثة بين القبائل الوطنية في ذلك الحين. وكانت كل أسرة تقبل الإسلام تتلقى المعونة عينًا أو

---

(١) **Id. Pp. 9, 13.**

(٢) **Id. Pp. 17, 20, 36.**

(٣) **Id. Pp. 38-9.**

(٤) **Bobrovnikoff, p. 22.**

(٥) **Id. Pp. 21-2, 31.**

نوعًا؛ فالبيت يبنى للفرد، ويباع الحقل والماشية وغيرها لآخر، فإذا أسلمت أسرات كثيرة في قرية من القرى، بنى لهم مسجد، وأسست مدرسة لأطفالهم[١].

وليس لدينا إلا تفصيلات يسيرة عن انتشار الإسلام بين التتار في سيبريا، ولم ترسخ قدم الإسلام في هذه البلاد إلا بعد النصف الأخير من القرن السادس عشر، ولكن دعاة المسلمين كانوا يشقون طريقهم من حين لآخر إلى سيبريا، حتى قبل هذه الفترة، أملًا في اجتذاب الأهالي الوثنيين لقبول عقيدتهم؛ ولكن السواد الأعظم من هؤلاء الدعاة قد ماتوا موت الشهداء. وعندما انضوت سيبريا تحت لواء الحكم الإسلامي، في عهد كوتشم خان، كشف أحد الشيوخ المسنّين مقابر سبعة من هؤلاء الدعاة؛ وكان هذا الشيخ قد قدم من بخارى للبحث عنهم إذ كان يتطلع إلى معرفة شيء عن خشوع هؤلاء الشهداء وإخلاصهم في دينهم، واستطاع أن يدلي بأسماء هذا الفريق من الشهداء، وكانت ذكراهم لا تزال حتى القرن الأخير موضع تجلة واحترام لدى التتار في سيبريا[٢].

ولما أصبح كوتشم خان (الذي كان من سلالة جوجي خان، أكبر أبناء جنكيز خان) خانا على سيبريا (حول سنة ١٥٧٠)، وكان قد اكتسب حق تولية العرش، إما عن طريق قيامه بغزو البلاد، أو (على رواية أخرى) عن طريق دعوة الأهالي إياه لتولي العرش على أثر وفاة الخان السابق دون أن يعقب ذرية[٣]، بذل قصاراه في تحويل رعاياه إلى الإسلام، وأرسل إلى بخارى في طلب دعاة لمساعدته في هذه المهمة التي تنطوي على التدين والتقوى.

وقد خلّف لنا أحد الدعاة الذين قدموا من بخارى أخبارًا، وصف فيها خروجه مع أحد رفاقه إلى حاضرة كوتشم خان، على ضفة نهر إرتس **Irtish**. وهناك مات رفيقه بعد سنتين، وقفل هو راجعًا إلى وطنه لأسباب لم يتعرض هذا الكاتب لذكرها. ولم يلبث إلا قليلًا حتى عاد إلى بلاد كوتشم خان ثانية لاستئناف عمله، وبصحبته رفيق آخر، وذلك

---

(١) Id, p. 13. Islam and Missions, p. 257.

(٢) G. F. Müller: Sammlung Russischer Geschichte, vol. vii, p. 191.

(٣) Id. Vol, vii. Pp. 183-4.

حين عاود كوتشم خان بخارى بطلبه مدادًا من الدعاة[١].

كذلك قدم دعاة من قزان إلى سيبريا؛ ولكن تقدم تيار الغزو الروسي وقف جهود كوتشم خان التبشيرية، قبل أن ينجز منها شيئًا كثيرًا، وخاصة عندما وقف كثير من القبائل التي تنضوي تحت حكمه، يعارضون معارضة قوية كل المحاولات التي بذلها هذا الخان لتحويلها إلى الإسلام.

يبد أنه على الرغم من أن الغزو الروسي وقف هذه الجهود، لم يتوقف تقدم الإسلام في هذه البلاد بحال من الأحوال؛ فقد دأب المليات الآتون من بخارى وغيرها من مدن آسيا الوسطى، والتجار القادمون من قزان، على موالاة الدعوة إلى الإسلام في سيبريا. وفي سنة ١٧٤٥ تسرب الإسلام لأول مرة إلى قبائل التتار التي يطلق عليها **Baraba Tatars** (وكانت مساكنهم بين نهري إرتس **Irish** وأوب **Ob**)؛ ومع أن كثيرًا منهم كانوا حتى مستهل القرن التاسع عشر لا يزالون على الوثنية، أصبحوا الآن مسلمين بأسرهم[٢] – وقد سبق الكلام على إسلام القرغيز – وتاريخ معظم القبائل الإسلامية الأخرى في سيبريا على جانب كبير من الغموض، وإن كان من المحتمل أن يكونوا قد اعتقدوا الإسلام في عصر حديث.

ومما هو جدير بالذكر، تلك الأغاني الشعبية التي يتغناها القرغيز، والتي تحتل مكانة كبيرة بين وسائل الدعاية الإسلامية في الوقت الحاضر، وقد تضمنت هذه الأغاني حقائق الإسلام الأساسية، مصوغة في أسلوب قصصي أسطوري، مما جعل هذه الحقائق تصل إلى قلوب عامة الشعب في سهولة ويسر[٣].

---

(١) **Radloff, vol. i. p. 147.**

(٢) **Jadrinzew, p. 138, Radloff, vol. i. p. 241.**

(٣) **Radloff, vol. i. pp. 472, 497.**

الباب التاسع

انتشار الإسلام في الهند

تناول كثير من المؤرخين الأقدمين والمعاصرين على سواء، الكلام على غزوات المسلمين في الهند وتأسيس النفوذ الإسلامي ونموه في هذه البلاد. بيد أن أحدًا لم يحاول إلى الآن أن يكتب عن تاريخ انتشار الإسلام في الهند، باعتباره شيئًا منفصلًا عن الانتصارات الحربية والأعمال الإدارية التي قام بها أشياع هذا الدين. وفي الحق أن مثل هذا العمل يجب أن يبدو أمرًا مستحيلًا في نظر كثير من هؤلاء المؤرخين، فطالما كانت الهند البلد المختار الذي يدين بوجود الإسلام فيه، واستمرار ذلك الوجود، إلى استقرار الشعوب الإسلامية الأجنبية الفاتحة الذين نقلوا دينهم إلى ذرياتهم من بعدهم، ولم ينجحوا في نشره فيما وراء بيئتهم إلا عن طريق الاضطهاد والإكراه على التحول إلى هذا الدين. ومن ثم يزعم بعض أن روح الدعوة الإسلامية تعلن عن صورتها الحق فيما أحدثه محمود الغزنوي من مذابح البراهمة الوحشية، وفي اضطهادات أورنج زيب **Aurangzeb**(*)، وفي حمل الناس على الختان، على أيدي حيدر علي، وتيبو سلطان ومن شاكلهما.

على أننا نجد من بين الستة والستين مليونًا(*) من مسلمي الهنود عددًا هائلًا لم يكن للقوة والعنف نصيب في تحويلهم أو في تحويل ذريتهم، بل كان للتعليم والإقناع وحدهما اللذين لجأ إليهما الدعاة المسلمون تأثيره الفعال في هذه السبيل. وإن هذه الطبقة من هؤلاء الذين تحولوا إلى هذا الدين لتؤلف في حد ذاتها جماعة معينة، يمكن أن تتميز عن هذه الجماعة التي تحولت عن طريق الإكراه وعن غيرها من العناصر غير المتجانسة التي يتألف منها مسلمو الهند، ويمكننا أن نقسم هذه الجماعة العامة على وجه التقريب، إلى هؤلاء الذين ينتمون إلى جنس أجنبي، والذين جاءوا بهذا الدين معهم وأدخلوه في البلاد،

(*) اسم أحد ملوكهم ومعناه زينة العرش (أورنج = العرش، زيب = زينة).

(*) أصبح عدد مسلمي الهند اليوم أكبر مما ذكره المؤلف بكثير.

وإلى هؤلاء الذين تحولوا من إحدى الديانات القديمة في البلاد بتأثير بواعث مختلفة وفي عصور متباينة من التاريخ.

وتتألف الجاليات الأجنبية في الهند من طوائف أصلية ثلاث: الأولى – وهي أهمها من حيث العدد – هي طائفة المهاجرين الذين قدموا عبر حدود الهند الشمالية الغربية، والذين نجدهم في إقليمي السند والپنجاب بوجه خاص، والثانية هم بقايا أعضاء الطبقة الأرستقراطية أو جيوش الدول الإسلامية الذين أقاموا بكثرة في أعالي الهند وبدرجة أقل بكثير في هضبة الدكن، والطبقة الثالثة والأخيرة، هم هؤلاء الذين استوطنوا الساحل الغربي؛ ولا يبعد أن يكونوا من أصل عربي، وقد جاء الذين أسسوا هذه المستعمرات إلى بلاد الهند عن طريق البحر(١). ولكن عدد الأسرات، التي تنتمي إلى أصل أجنبي، والتي استوطنت بلاد الهند فعلًا، ليس كبيرًا في أي مكان إلا في البنجاب وما يجاورها.

وفي الحق أن أكثر من نصف مسلمي الهند قد تلقب بألقاب الشعوب الأجنبية المتميزة، مثل شيخ وبك وخان، بل بلقب سيد، بيد أن السواد الأعظم من هؤلاء المسلمين هم من سكان البلاد الأصليين أو من ذرياتهم الذين تحولوا إلى الإسلام، وتلقبوا بلقب الشخص الذي بلغ أعلى مرتبة بين هؤلاء الذين أسلموا على أيديهم، أو اندمجوا في الطبقة الأرستقراطية الإسلامية، حتى ولو كان صادرًا عن بواعث أقل أهمية من ذلك(٢).

أما هذا القسم الثاني من هذه الجماعة – وهم أهالي البلاد الأصليون الذين تحولوا إلى الإسلام – فإن تغيير دين فريق منهم، كان بعضه راجعًا من غير شك إلى ما استخدم من وسائل العنف وضغط السلطان السرمية، على حين دخل السواد الأعظم منهم في حظيرة الإسلام بمحض إرادتهم إلى حد بعيد. وإن تاريخ الحركات التي قام بها المسلمون لنشر الدعوة الإسلامية، والمؤثرات الاجتماعية التي أدت إلى تحول أهل بلاد الهند إلى الإسلام لم تلق إلى الآن إلا عناية يسيرة جدًا.

---

(١) Census of India, 1891. General Report by J. A. Baines, p. 167. (London, 1893).

(٢) Id. Pp. 126, 207.

وإن معظم الكتب التاريخية التي نستطيع الرجوع إليها، والتي تتناول الكلام على المسلمين في الهند، سواء أكان مؤلفوها من الأوروبيين أم من أهالي هذه البلاد، لا تعدو أن تكون سجلات دونت فيها أخبار الحروب والحملات وما أتاه الأمراء من أعمال، على حين لم يشيروا إلى حياة ذلك العصر، إلا بقدر يسير. فإذا تصدوا لذكر شيء منها، صاغوه في صورة من التعصب وعدم التسامح الديني. على أننا نستطيع من دراسة أولياء المسلمين، ومن التقاليد المحلية، أن ندرك شيئًا من الأعمال التي قام بها دعاة المسلمين في سبيل نشر الدعوة، مستقلين تمام الاستقلال عن الحياة السياسية في البلاد.

ولكن يحسن بنا، قبل أن نتناول الكلام على هذه الأعمال، أن نأتي بنبذة عما ما قامت به السلطات الرسمية من نشر الدعوة إلى الإسلام، وما قام به حكام المسلمين في سبيل نشر عقيدتهم.

بعد أن انتقل الرسول إلى جوار ربه بخمسة عشرة سنة، أرسل العرب حملة إلى بلاد السند، وأخذ سيل الغزاة يتدفق على بلاد الهند من ناحية الشمال الغربي، واستمر ذلك إلى القرن الثامن عشر الميلادي، وكان بعض هؤلاء الغزاة من مؤسسي الإمبراطوريات العظيمة، وبعضهم الآخر لم يعد أن يكون قومًا مخاطرين. على حين أتى بعض بقصد السلب والنهب، وعادوا محملين بالغنائم والأسلاب، وبقي بعض آخر يؤسسون ممالك ظل أثرها إلى اليوم، ولكنا لا نعرف عن هؤلاء، إذا كانوا قد استصحبوا معهم أية بعوث أو دعاة لنشر الدعوة. ولكن ذلك لم يكن راجعًا إلى عدم اكتراثهم لدينهم. وقد ظهر لكثير منهم أن غزوتهم بلاد الهند اصطبغت بصبغة الجهاد الديني، وأن مثل هذه الفكرة قد تجلت في ذهن كل من محمود الغزنوي وتيمور، وقد دون هذا الأخير فيما دونه عن نفسه بعد أن استولى على دهلي: «لقد قضيت خمسة عشر يومًا في دهلي، بين مظاهر الفرح والنعيم، أعقد مجالس البلاط الملكية، وأقيم الأسمطة العظيمة؛ ثم ذكرت أنني أتيت إلى هندستان لشن الحرب على الكفار. وقد بارك الله هذه الحملة، فجعل النصر حليفي والظفر يتبعني أنى ذهبت، ولقد انتصرت على خصومي، وقتلت بعض مئات الألوف من الكفار وعبدة الأصنام، ولطخت سيف الدعوة بدماء أعداء الدين. الآن وقد تم لي هذا

النصر المبين، أشعر أنه لا يحق لي أن أخلد إلى الراحة، بل أن أبذل جهدي لشن الحرب على كفار هندستان"[١].

ومع أن تيمور يتحدث كثيرًا عن سيفه الذي استعان به في نشر الدعوة، يظهر أنه لم يتذرع بأية وسيلة أخرى أكثر مما فعله بإرسال الكفار إلى الجحيم، ويبدو أن معظم غزاة المسلمين قد سلكوا سبيلًا تشبه تمامًا هذه السبيل، فباسم الله حطمت الأصنام وقتل سدنتها، وهدمت معابدها، وبنيت مكانها مساجد في أغلب الأحيان. وفي الحق أن الإسلام قد عرض في الغالب على الكفار من الهندوس قبل أن يفاجئهم المسلمون بالقتال[٢]. وقد أملت الرهبة في بعض الأحيان على الناس أن يقبلوا إلى حين ما عرض عليهم الدخول في الإسلام، وأدت إلى حالات تحول إلى هذا الدين، تلك الحالات التي كانت قصيرة الأمد في الغالب على الأقل في الأيام الأولى من الفتح الإسلامي، ثم لم تصبح ذات تأثير بعد انسحاب الفاتحين.

ومما يوضح لنا هذه الحالة قصة هردته **Hardatta** أحد ملوك[*] بُلندشهر **Bulandshahr**، فقد سرد لنا كاتب محمود الغزنوي كيف خضع له هردات، وذلك فيما كتبه هذا الكاتب عن تاريخ حملات محمود، قال: «وأخيرًا (حول سنة ١٠١٩م) (٤١٠هـ) وصل (محمود) إلى حصن باربا[٣] في بلاد هردات، وهو أحد رائيس **rà'is** ومعناها «ملوك» في اللغة الهندية. ولما سمع هردات عن هذه الغزوة التي قام بها جنود الله المحميون الذين تدفقوا كأمواج البحر، تحيط بهم الملائكة من كل جانب، أخذ منه الغضب كل ما أخذ، وارتعدت فرائصه، وخشي أن يخسر حياته بوقوعها تحت طائلة شريعة الله، لهذا رأى أن خير سبيل لنجاته أن يوافق على اعتقاد دين الإسلام، ما دام سيف الله قد جرد من غمده وسوط العذاب قد رفع. لهذا تقدم مع عشرة آلاف رجل، وأعلنوا

---

[١] **Elliot, vol. ii. P. 448.**

[٢] دعا محمد بن القاسم أمراء الهنود إلى اعتقاد الإسلام؛ ولا يبعد أن يكون الغزاة الذين جاءوا بعده قد عملوا مثله على تنفيذ مبادئ الدين **(Elliot, vol. i. pp. 175, 207)**.

[*] كلمة هندية معناها المدينة العالية.

[٣] أو بران وهو اسم بولاندشهر القديم.

برغبتهم في التحول إلى الإسلام ونبذهم عبادة الأصنام»(١).

ولا يبعد أن يكون هؤلاء الذين دخلوا حديثًا في الإسلام قد اغتنموا أول فرصة للارتداد عندما عرض عليهم ذلك إثر انسحاب الفاتحين، وهي ظاهرة نجد من تقدم من مؤرخي الهند المسلمين يوالون الشكوى منها. ذلك أنه عندما أغار قطب الدين أيبك على بران في سنة ١١٩٣م، تصدى له في عنف شندرزان، الذي كان راجا في ذلك الحين، والذي كان ينحدر من بيت هردات، وكان مجرد اسمه يدل على عقيدته الهندية. ولم نعد نسمع بعد ذلك عن وجود مسلمين تحت حكمه (١).

ولكن يظهر أن هؤلاء الفاتحين كان لديهم شيء يسير جدًا مما نسميه «حب النفوس»، الذي يدفع الدعاة المخلصين إلى نشر الإسلام، والذي أتم مثل هذه الغزوات العظيمة في سبيل الإسلام. فقد بلغ من اشتغال أسرة الخلجيين Khiljis التي حكمت من سنة ١٢٩٠ إلى سنة ١٣٢٠م، وأسرة تغلق Tughlaqs التي حكمت من سنة ١٣٢٠ إلى سنة ١٤١٢م، وأسرة اللوديين التي حكمت من سنة ١٤٥١ إلى سنة ١٢٥٦م، بالحروب، أنهم لم يستطيعوا في الغالب أن يحفلوا بالأغراض الدينية، وأنهم قد فكروا في فرض الضرائب واشتطاطهم فيها، أكثر من تفكيرهم في نشر الدعوة (٢).

ولكن الحماسة الدينية لم تنقصهم نقصا تاما؛ فقد قيل إن الجكهر Ghakkars

---

(١) Elliot, vol. ii. Pp. 42-3.

(١) Gazetteer of the N.W .P ., vol. iii. Part ii. P. 85.

(٢) لم يعلن الرواد الحربيون الذين أسسوا دولًا في شمال الهند، وأقاموا لهم ممالك في هضبة الدكن عناية تذكر بالمسائل الروحية؛ فلم يكن لدى معظمهم في الواقع أي وقت لنشر تعاليم الدعوة، إذ كانوا منشغلين دائمًا بالفتح أو الحروب الأهلية. وكانوا في الغالب من سوقة التتر أو المغول، ولم يكن دين محمد قد تمكن من نفوسهم، كما أنهم لم يتأثروا بحماسة الأجناس السامية الصادقة التي دفعت أو لم يرفعوا أول لواء عربي في الإسلام. فقد كانت الإمبراطورية التي أسسوها ذات صيغة حربية خالصة. وظلت هذه الإمبراطورية على هذه الحالة بتأثير من أحرزوه في فتوحهم من بعض النجاح وما منوا به من خيبة بالنسبة إلى غيرهم في غزواتهم الروحية وكان لديهم من القوة ما يجعلهم يحولون دون أي شيء يشبه الاندماج الديني بين الهندوس، أو دون جمع القبائل وجعلها أممًا. ولكنهم كانوا أبعد ما يكونون عن تحويل الهند إلى الإسلام، حتى إن دينهم لم يحصل على احتكار المناصب الإدارية العالية بصفة كاملة نهائية، بين المسلمين أنفسهم ،،. (Sir Alfred C. Lyall; Asiatic Studies, p. 289) (London, 1882.)

مثلا، وهم شعب متبربر كان يسكن المقاطعات الجبلية شمالي البنجاب، وكانوا قد أثاروا متاعب جمة للغزاة الأولين، قد تحولوا إلى الإسلام بتأثير محمود الغوري في نهاية القرن الثاني عشر، وقد أسر الملك المسلم زعيمهم وحثه على اعتقاد الإسلام، وبعد أن أقره زعامته على هذه القبيلة، أعاده لتحويل أتباعه إلى هذا الدين. ولما كان كثير منهم ذوي إلمام يسير بدينهم القديم، كان من السهل أن يسود فيهم الإسلام (٣).

وقد شجع الخلجيون –كما يقول ابن بطوطة – على تحويل الناس إلى الإسلام، وسنوا عادة تقديم الشخص الذي دخل حديثا في الإسلام إلى السلطان، الذي كان يكسوه كسوة حسنة، ويعطيه قلادة وأساور من ذهب على قدره (٤). ولكن الحكام في عهد الأسرات الإسلامية الأولى لم تكن لديهم الحماسة الكافية لنشر تعاليم الإسلام. ومن الصعب أن نجد في تاريخهم ما يشبه هذه العبارة التي دونها فيروز شاه تقلق (١٣٥١–١٣٨٨م) فيما كتبه عن تاريخ حياته قال:

«لقد شجعت رعاياي الكفار على اعتقاد دين النبي، وأعلنت لهم أن كل شخص يردد هذه العقيدة ويصبح مسلمًا، يعفى من الجزية أو ضريبة الرأس".

ولما اتصل هذا النبأ بمسامع الناس، تقدم الهندوس زرافات ووحدانا، وسمح لهم بأن ينالوا شرف الإسلام؛ ومن ثم أخذوا ينثالون من كل حدب وصوب. ولما اعتقدوا الإسلام، أعفوا من الجزية، ومنحوا الهدايا، ومظاهر التكريم (٥).

ولما توطد النفوذ الإسلامي، وخاصة في عهد أسرة المغول، أصبح نفوذ الإسلام الديني بطبيعة الحال أكثر ثباتًا واستمرارًا. حقًا إن هذه المؤثرات لتتجلى في الحركات الهندوكية التي تقول بوجود الله، والتي ظهرت في القرنين الخامس عشر والسادس عشر. وقد زعم الأسقف لفروي Lefroy أن طابع تعاليم الإسلام الواقعية قد جذب عقولًا لم

---

(٣) Firishtah, vol. i. p. 184.

(٤) ابن بطوطة جـ ٣ ص١٩٧.

(٥) Elliot, vol. iii. P. 386.

تقتنع بنظام الفكرة الحلولية [†] التي تتميز بالغموض والنسبية [§].

«لما اصطدم الإسلام، مع ما عرف عنه من تمثيل قوي لحقيقة وجود الله وتلك الحقيقة التي انبعثت منا، وهي طابع الحق الذي يتميز بالثبات المطلق والمحسوسية البحتة – اصطدم بعقيدة الحلول التي تقوم على الغموض، وبما قامت عليه هذه العقيدة من نسبية، تبع ذلك بالضرورة أن الإسلام لم ينتصر في هذه المعركة فحسب، بل لقد غدا البلسم الشافي الذي سرى في شريان الحياة والفكر في بلاد الهند العليا. وسرعان ما أحيا عقولًا كثيرة وبث فيها حياة أكثر قوة ونشاطًا، تلك العقول التي لم تقبل من تلقاء ذاتها أن تتأثر بمثل هذا التأثير الفكري» [٦].

وقد ظهر عامل قوي من عوامل التحول إلى الإسلام، عند ما وقف اعتقاد الناس للديانة الوثنية عقبة دون التقدم بين رجال البلاط عند المسلمين، ومع أن روح التسامح التي بلغت ذروتها تحت حكم «أكبر» الذي كان يدين بالفلسفة الانتقائية [††]، طالما ملأت الديانة الهندوكية، بل احترمت الأوقاف الحكومية الخاصة بهذه الديانة في أغلب الأحيان [٧].

ومع أن خوف أكبر من عدم تأييد الجمهور له ورغبته في معالجتهم، قد أملى عليه سياسة عدم التدخل، وأنكر أمثال هذه الأعمال العنيفة، وثورات التعصب الديني، التي كانت قد ميزت فترة الفتح والانتصار الأولى.. مع هذا كله، جذبت أمثال هذه البواعث التي أملتها المنفعة الذاتية كثيرين من الذين تحولوا من الديانة الهندوكية إلى العقيدة الإسلامية، ولقد تحول كثير من أفراد القبائل الهندية **Rajputs** بهذه الطريقة، ولا تزال سلالتهم إلى اليوم بين الطبقة الأرستقراطية من ملاك الأراضي. وربما كان أهم هؤلاء ذلك

[†] مذهب وحدة الوجود **Pantheism** مذهب فلسفي يقول أنصاره أن الله والكون واحد، أي أن الله حال في كل شيء وفي كل جزء منه متحدًا به حتى يجوز أن يطلق الله على كل شيء.

[§] النسبية أي المذهب الذي يقول إن المعرفة البشرية شخصية بحتة.

[٦] **Mankind and the Church, p. 286. (London, 1907.)**

[††] يراد بهذه الفلسفة مذهب فرقة إغريقية ظهرت في القرنين الثاني والأوائل قبل الميلاد، وتقول بعدم الانحياز لحزب ما، بل باختيار الحسن من كل الأحزاب.

[٧] **Sir Richard Temple: India in 1880. P. 164. (London, 1881.) Punjab States Gaztteers, vol. xxxvi. A. Bahawalpur, p. 183.**

الفرع الإسلامي الذي ينتمي إلى عشيرة بشجوتي Bachgoti، وعلى رأسها شريف أوده Oudh الزعيم المسلم الأول؛ فقد روي في إحدى أساطيرهم أن الإمبراطور «بابر» أسر تيلك تشند Tilok Chand، الذي دان بالإسلام ليسترد حريته. على ان أسطورة أخرى ترجع تحوله إلى الإسلام إلى عهد همايون Humàyùn. ذلك أن الأمير لما سمع بجمال زوجة تيلك تشند الفاتن، أمر رجاله فقادوها إليه من أحد الأسواق. ولكن سرعان ما أنبه ضميره وردوها إلى زوجها. وكان تيلك تسند قد استولى عليه اليأس، واعتقد أنه لن يراها أبدًا، واعترافها بهذا الجميل، اعتقد هو وزوجته الإسلام «الذي يلقن الناس مثل هذه العفة التي تنطوي على كرم الأخلاق» (٨).

ويبدي أفراد القبائل الذين تحولوا إلى الإسلام حماسة بالغة، وكثيرًا ما نراهم يقاومون شعائر دينهم القديم بطريقة تثير الدهشة. وفي مقاطعة بلندشهر Bulandshahr مثلًا نرى أسرة مسلمة كبيرة تشتهر باسم لالخاني پتّهان Làlkhàni Pathàna لا تزال تحتفظ (مع استثناءات قليلة) بألقابها الهندية القديمة، وعادات أسراتها في الزواج، على حين لا تزال هنالك فروع هندية من نفس هذه العشيرة تقيم معها إلى الآن جنبًا إلى جنب (٩). وفي مقاطعة مرزابور Mirzapur لا يزال أفراد قبيلة جُهروار Gaharwàr؛ الذين يدينون الآن بالإسلام، يحتفظون بنظمها وعاداتها وتقاليدها الهندوكية القديمة، ويصدرون أسماءهم الإسلامية بألقاب الشرف الهندوكية (١٠).

وقد قيل إن الضغط الحكومي لم يكن قط أشد على الهندوس منه في عهد أورنج

---

(٨) Gazetteer of the province of Oudh, vol. i. p. 466.

(٩) Gazetteer of the N.W.P., vol. iii. Part ii. P. 46.

(١٠) Gazetteer of the N.W.P., vol. xiv. Part ii. P. 119.

في مقاطعة كونبور Cawnpore يحتفظ الفرع الإسلامي من أسرة دخيت Dikhit بالعادات الإسلامية في الولادة والزواج والوفاة. ومع أنهم لا يستطيعون تلاوة الصلاة المسماة نماز Namaz عادة، فإنهم يقيمون طقوسهم النسبية بالسجود. ولكنهم يعبدون جيجك ديوي Chachak Devi (إلهة الجدري والحصبة) في الوقت نفسه ليدرءوا عنهم مرض الجدري، ويحتفظوا بأواصر الصداقة مع أخواتهم الذين ينتمون إلى نفس طبقتهم القديمة، وهم التكور Thakurs في الحوادث العائلية، ويسمون عادة بأسماء هندية شائعة.

(Gazetteer of the N.W.P., vol. vi p. 64.)

زيب **Aurangzeb**. وفي مقاطعات البنجاب الشرقية نجد حالات كثيرة يقال فيها إن جد العشيرة الإسلامية التي تتكون من جماعة هذه القرية قد غير دينه في عهد هذا المتعصب «لكي يخلص أرض القرية». وفي مدينة جرجاون **Gurgaon** القريبة من دلهي، نجد أسرة هندية تنتمي إلى بنياس **Bunyas** الذي لا يحمل لقب شيخ (الذي انتحله عادة الهندوس الذين تحولوا إلى الإسلام)، لأن أحد أفراد هذه الأسرة، الذي انمحى نسبه الآن، قد تحول إلى الإسلام ليخلص أملاك أسرته من المصادرة [١١]. وأرغم كثيرًا من أفراد القبائل من ملاك الأراضي في مقاطعة كونپور على الدخول في الإسلام لهذا السبب نفسه [١٢]. وقد قيل في بعض حالات أخرى أن هذا الجد قد سيق أسيرًا أو رهينة إلى دلهي، حيث أرغم على الختان والتحول إلى الإسلام [١٣]. وينبغي أن نلاحظ أن مصدر هذا التحول الذي تم عن طريق الإكراه إنما هو وليد أسطورة قبلية أو محلية.

وليس هناك إشارة (بقدر ما أمكنني الوصول إليه) إلى ذلك في العبارات التاريخية الخاصة بحكم أورنج زيب [١٤]. ومما لا مشاحة فيه أن حكام المسلمين قد حولوا الناس إلى الإسلام بالقوة؛ ويبدو أنه من المحتمل أن ما اتصف به أورنج زيب من غيرة معروفة على عقيدته الدينية قد حمل كثيرًا من الأسرات الإسلامية في شمال الهند (التي نسي تاريخ تحولهم) على أن تنسب تبديل عقيدتهم إلى هذه الغيرة، وهذا السبب أقرب الأسباب احتمالًا.

وشبيه بهذا ما نراه في هضبة الدكن، حيث شارك أورانج زيب، حيدر علي وتيپو سلطان **Tipu Sultán** (وهم أشهر حكام المسلمين في العصر الحديث)، فيما شاع من

---

(١١) **Ibbetson, p. 163.**

(١٢) **Gazetteer of the N.W.P., vol. vi p. 64.**

قارن أيضًا ما ورد في نفس هذا المصدر **vol. xiv. Part. Iii. P. 47.** «إن الزراع المسلمين لم يكن عددهم كبيرًا، وهم الآن مسلمون دخلوا حديثًا في الإسلام. ويرجع معظمهم تاريخ تحولهم ال حكم أورنج زيب، ويصفونه بأنه كان أحيانًا نتيجة للاضطهاد، وأحيانًا أخرى وسيلة لتمكينهم من الاحتفاظ بحقوقهم إذا عجزوا عن أداء الخراج».

(١٣) **Ibbetson, p. 163.**

(١٤) حقًا قال فرشته **Firishtah** في وضوح: «ولقد بلغ من تحمسه لعقيدة محمد أنه كان كافأ الذين تحولوا إلى الإسلام بالإغداق عليهم، ولو أنه لم يؤثر عنه أنه كان يضطهد هؤلاء الذين يدينون بعقائد أخرى في الأمور الدينية».

(The History of Hindostan, translated from the Persian by Alexander Dow, vol. iii. P. 361.) (London, 1812.)

إكراه أسرات مختلفة وطوائف من الأهلين، الذي يبدأ تحولهم إلى الإسلام بلا ريب إلى عهد أقدم من هذا بكثير، حيث لم يصل إلينا أيه إشارة تاريخية عن الحوادث التي اكتنفت هذه المسألة [(١٥)].

ولعل تيبو سلطان هو الحاكم المسلم الذي أخذ على نفسه مهمة تحويل الناس إلى الإسلام بالإكراه؛ ففي سنة ١٧٨٨م أذاع المنشور التالي على أهالي مليبار:

«بعد انقضاء أربع وعشرين سنة على غزو بلادكم، لا تزالون على عصيناكم وتمردكم، ولا زلتم مصدر القلق والاضطراب. وفي الحروب التي نشبت في خلال فصلكم الممطر، كنتم أنتم السبب في استشهاد كثير من جندنا. وليكن هذا، فإن ما فات مات. وإني مستعد لأن أتناسى الماضي. وقد حان الوقت الذي يجب أن تعدلوا عن خطتكم، وتلزموا السكينة والهدوء، وتؤدوا ما عليكم من الضرائب كما يفعل الرعايا الأخيار. وما دامت المرأة فيكم لا تقنع برجل واحد، بل تعاشر عشرة رجال، وما دمتم تذرون أمهاتكم وأخواتكم ينغمسن في حمأة الرذيلة، فإن جميع الناس يولدون من سفاح، وما دمتم في علاقاتكم أكثر قحة من الوحوش الضارية، لذلك أرى لزامًا عليّ أن أنهاكم عن هذه العادات الأثيمة، وأنصح لكم أن تكونوا كسائر البشر. وإذا عصيتم وخالفتم عن نصحي، فقد أقسمت قسمًا حقًا غير حانث فيه ولا آثم، أن أحملكم على الصراط المستقيم، وأن أنيلكم شرف الإسلام أجمعين، وأن أسوق جميع عظائمكم كبيركم وصغيركم إلى مقر حكومتي».

وقد أشعل هذا المنشور نار الثورة في مليبار؛ ففي مستهل سنة ١٧٨٩ أعد تيبو سلطان جيشًا جرارًا يتألف من عشرين ألف مقاتل لتنفيذ هذا المنشور بالقوة، وأصدر أوامر عامة بأن «كل شخص في هذه المقاطعة يجب أن يتشرف بالدخول إلى الإسلام من غير تميز. وأن دُور الذين يفرون تخلصًا من هذا الشرف، يجب أن تحرق، وأن يقتفي أثرهم حتى يصلوا إلى مكامنهم، كما يجب أن تستخدم كافة وسائل الصدق والنفاق، والقوة أو الخداع، في حملهم جميعًا على تغيير دينهم. وعلى أثر ذلك اختتن آلاف من الهندوكيين،

(١٥) The Bombay Gazetteer, vol. xxii. P. 222. Vol. xxiii. P. 282.

وحملوا على أن يأكلوا لحم البقر. على أن الجيوش الإنجليزية لم تلبث أن قضت على ما بقي من قوة تيبو سلطان في أواخر سنة ١٧٩٠م، ولقي هذا الحاكم حتفه في مستهل سنة ١٧٩٩ باستيلاء الإنجليز على سرينجاپتم Seringapatem (†) وأنكر معظم البراهمة والنيار Nayars الدين الإسلامي ورفضوه، وعادوا إلى دينهم القديم (١٦).

ويمكن أن نحكم على مبلغ ضآلة تأثير انتشار الإسلام بالإكراه من جانب الحكام المسلمين من هذه الحقيقة وهي أنه حتى في المراكز التي يسود فيها النفوذ الإسلامي، مثل دلهي وأجرا، لا يكاد يعدو عدد المسلمين في العصور الحديثة على العشرة في المائة من سكان الإقليم الأول، على حين أن عدد المسلمين في الإقليم الثاني لا يكاد يبلغ ربع السكان (١٧). وهناك مثل بارز نسوقه على عدم أهمية تحويل الناس إلى الإسلام عن طريق الإكراه. ويتجلى هذا المثل في حالة بوده مَلْ Bodh Mal راجا مجهولي Raja Majhauli في مقاطعة جوركه پور Gorakhpur. فقد قبض عليه «أكبر» بسبب اختلاسه أموال الخراج، وحمل إلى دلهي حيث تحول إلى الإسلام وتسمى باسم مُحَمَّد سليم. على أنه لما عاد، رفضت زوجته أن تسمح له بالدخول إلى قلعة أجدادها، ولما جذبت عطف رعيته إلى جانبها على ما يظهر، حكمت بلاده في الوقت الذي كان ابنه بهواني مال Bhawani Mal قاصرًا؛ وبذلك ظل الحكم في هذا البيت دون أن يتعرض له أحد من غير أفراده (١٨).

وقد بقي إلى الآن بعض مخلفات عجيبة تدل على تفاهة تحول الناس إلى الإسلام بطريقة مماثلة، نلاحظها في بعض طقوس الطائفة الهندوكية التي يطلق عليها اسم بشنوئي Bishnois ومن شعائرهم الرئيسية إنكار جميع آلهتهم الهندوكية عدا وشنو Visnu. وقد اعتادوا حديثًا أن يدفنوا موتاهم بدل إحراقهم بالنار، واتخذوا اسم «غلام مُحَمَّد» وغيره من الأسماء الإسلامية، واستعملوا الصيغة التي يستعملها المسلمون في الإسلام وقد فسروا

(†) تقع ولاية ميسور جنوبي الهند، وقد أسسها حيدر علي في القرن الثامن عشر.

(١٦) Innes, pp. 72-3, 190

(١٧) Sir W. W. Hunter: The Religion of India (The Times, February 25th 1888.)

(١٨) Gazetteer of the N. W. P. vol. vi. p. 518.

انتحالهم هذه العادات الإسلامية بقولهم أنهم ذبحوا مرة قاضيًا كان قد تدخل في طقوسهم الخاصة بإحراق الأرامل، فكفروا عن خطيئتهم باعتقادهم الإسلام. على أنهم قد رفضوا الآن إقامة هذه الشعائر مراعاة للعادات الهندوكية [١٩].

على أن بعض حكام المسلمين لم يكونوا، على الرغم من ذلك، أكثر نجاحًا في إكراه بعض رعاياهم من الهندوكيين على قبول الإسلام، مما كانوا عليه في الحالات التي ذكرناها آنفًا؛ ومهما يكن مبلغ الصدق فيه زعمه بعض الباحثين من أنه [٢٠] «من المحال أن ندنو حتى من الجانب الديني الخاص بموقف المسلمين في الهند، من غير أن نتمثل مظهره السياسي أولًا» فإننا نجد بلا ريب أن الإسلام قد أحرز أعظم انتصاراته وأطولها بقاء في نشر الدعوة في الأزمان والأماكن التي كانت فيها قوته السياسية أشد ما تكون ضعفًا، كما كانت الحال في جنوب الهند وفي شرق البنغال. ولا بأس من أن نعرض هنا لبعض أمثال حركات الدعوة، مبتدئين بجنوب الهند وهضبة الدكن، وبعد أن نعرض للكلام على تاريخ السند والكتش **Cutch** وجوجرات، ننتقل إلى البنغال، وأخيرًا نشير إلى بعض ما قام به الدعاة في خارج نطاق هذه الحدود الجغرافية التي تقدم ذكرها. أما هؤلاء الدعاة الكثيرون، فلم يدوّن المؤرخون عنهم إلا أخبارًا قليلة، اللهم إلا ما ذكروه عن أسمائهم ومجال أعمالهم؛ ومن ثم لا نجد في متناول أيدينا تفاصيل في هذا الصدد نظرًا إلى ندرة أمثال هذه الأخبار الخاصة بالدعوة بوجه عام.

ويرجع دخول الإسلام في جنوب الهند لأول مرة إلى القرن الثامن الميلادي، حين قدم جماعة من اللاجئين من العراق – وكانوا يرجعون منشأهم إلى المابِلا **Mappillas** – واستقروا في هذه البلاد [٢١]. وكان العرب والفرس يزالون تجارة التوابل والعاج والأحجار الكريمة وغيرها بين الهند وأوربا مئات كثيرة من السنين. وقد أدى ذلك إلى توالي تدفق النفوذ الإسلامي على الساحل الغربي من بلاد الهند الجنوبية.

---

(١٩) **Gazetteer of the N. W. P. vol. part i. pp. 302-3**

(٢٠) **Sir Alfred C. Lyall: Asiatic Studies, p. 236.**

(٢١) نجد على مقبرة من مقابر **Pantalàyini Kollam** نقشا يحمل تاريخ ١٦٦هـ **(Innes, p. 436.)**

وكان من أثر تدفق الأجانب المستمر على هذا الإقليم أن نشأ خليط من السكان يتألف بعض منه من الدم الهندي، وبعض آخر من الدم العربي أو الفارسي، وذلك في مراكز التجارة الواقعة على طول الساحل. ويبدو أن علاقات ودية وطيدة نشأت بين هؤلاء التجار المسلمين والحكام الهنود الذين بسطوا لهم حمايتهم ومدوا لهم يد المؤازرة والمعاضدة، نظرًا إلى نشاط الحركة التجارية المتزايد، وما تبع ذلك من رخاء البلاد الذي كان نتيجة لبقاء هؤلاء التجار فيها [٢٢].

ولم تقف عقبات في سبيل نشر تعاليم الدعوة، ولقي الذين دخلوا في الإسلام من أهالي هذه البلاد الاحترام والتقدير اللذين لقيهما التجار الغرباء، مع أنهم كانوا قبل إسلامهم ينتمون إلى أحط طبقة في المجتمع [٢٣].

وتصور الأخبار المنقولة عن دخول الإسلام في مليبار، كما أوردها مؤرخ مسلم عاش في القرن السادس عشر الميلادي، أن أسبق الدعاة كانوا جماعة من الحجاج في طريقهم لزيارة أثر قدم آدم في سيلان. فلما وصلوا إلى جرنجاور **Cranganore** بعث الراجة في طلبهم، ووجد الشيخ شرف بن مالك، زعيم هذه الجماعة، وكان صحبة أخيه مالك بن دينار، وابن أخيه مالك بن حبيب، الفرصة سانحة لأن يبسطوا له عقيدة الإسلام ورسالة مُحَمَّد، فأدخل الله سبحانه في قلبه صدق النبي – ﷺ – فآمن به، ودخل في قلبه حب النبي – ﷺ – وأمر الشيخ بأن يرجع هو وأصحابه إليه بعد زيارة قدم آدم عليه السلام [٢٤].

ولما عاد الحجاج من سيلان رحل الملك معهم خفية في سفينة كانت على أهبة الرحيل إلى ساحل بلاد العرب، تاركًا مملكته في أيدي نوابه، وهنا بقي وقتًا ما، ولما أوشك أن يعود إلى بلاده، معتزمًا بناء المساجد ونشر عقيدة الإسلام فيها، انتابه المرض ومات. وقد أوصى رفاقه وهو على فراش الموت، وشدد في الوصية، ألا يعدلوا عن رحلتهم التي

---

[٢٢] زين الدين ص ٣٤–٣٥.

[٢٣] المصدر نفسه ص٣٦. (م–٢٩)

[٢٤] زين الدين ص٢١.

أزعموا إلى القيام بها إلى مليبار لنشر الدعوة، وأن يساعدوهم على أداء مهمتهم، وأعطاهم كتبًا إلى نوابه يوصيهم فيها بهم خيرًا، وأمر رفاقه في الوقت نفيه أن يكتموا حقيقة موته. ولما تسلح شرف بن مالك ورفاقه بهذه الكتب أبحروا إلى جرنجانور، حيث أتاحت لهم رسالة الملك حفاوة كريمة ومنحة من الأرض عمروا عليها مسجدًا. وقد عزم مالك بن دينار على الاستقرار في هذه البقعة، ولكن مالك بن حبيب سافر في رحلة ترمي إلى نشر الدعوة الإسلامية وبناء مساجد في كافة أرجاء مليبار. «فخرج مالك بن حبيب إلى «كولم» بماله وزوجته وبعض أولاده، وعمر بها مسجدًا ثم خرج منها بعد ما خلى زوجته فيها إلى هيلي ماراوى [٢٥] وعمر بها مسجدًا».

وكذا تستمر القصة، فتورد سبعة أماكن أخرى بنى هذا الداعي فيها مساجد، ثم عاد أخيرًا إلى جرنجانور. وقد زار كل هذه الأماكن أخيرًا للمرة الثانية ليؤدي الصلاة في كل منها، ورجع إلى وطنه «شاكرًا الله وحامدًا له بظهور دين الإسلام في أرضه ممتلئة كفرًا [٢٦]». وليس هناك دليل على صحة هذه الرواية من الناحية التاريخية، على الرغم مما تتصف به من الإسهاب، ويضع الاعتقاد السائد في تاريخ وقوع هذه الحوادث المدونة إلى الزمن الذي عاش فيه النبي. وقد ظن زين الدين في شيء قليل من الشك أن هذه الحوادث إنما وقعت بعد المائتين من الهجرة النبوية [٢٧]. الشائعة ليس هناك ما يؤيد ترجيح أحد هذين التاريخين على الآخر، أو ما يؤيد رواية المابلا الشائعة الخاصة بوجود قبر أحد ملوك الهندوكيين في ظفار على ساحل بلاد العرب، وقد نقش عليه «عبد الرحمن السامري، قدم سنة ٢١٢هـ، وتوفى سنة ٢١٦»[٢٨]. كما يحمل المسجد الذي بني في مدابي، والذي قيل إن الذي بناه هو مالك بن دينار، نقشا تذكاريا لبنائه في سنة ١١٢٤م [٢٩]. على أن الأسطورة تحمل في الواقع الدليل على طابع المسألة الذي اتسمت به

(٢٥) هي مدينة دابي الحديثة.

(٢٦) زين الدين ص ٢٣-٢٤.

(٢٧) المصدر نفسه ص٢٥؟

(٢٨) **Innes, p. 41.**

(٢٩) **Id,. p. 398.**

مؤثرات نشر تعاليم الدعوة التي كانت قائمة على ساحل مليبار قرونًا عدة. وكان الأفراد الذين اتخذوا تعليم الدين حرفة، وقد جاءوا من بلاد العرب وغيرها، وقد قابلهم في مدن شتى على ساحل مليبار [٣٠]. وقد قيل إن زامورن، وكان أحد كبار أنصار التجارة العربية في قليقوط، شجع دخول الناس في الإسلام، ليجز السفن العربية التي اعتمد عليها في أعلاه مكانته، كما قيل إنه أمر بأن يكون في كل أسرة من صيادي السمك في بلاده فرد أو أكثر من الذكور ينشئون تنشئة إسلامية [٣١].

وفي مستهل القرن السادس عشر قدر عدد أهالي المابلا بأنهم كانوا يؤلفون خمس سكان مليبار، وأنهم كانوا يتكلمون بلغة الهندوكيين، ولم يتميزوا عنهم إلا بلحاهم الطويلة ولباس رأسهم الخاص. ولكن حين قدم البرتغاليون، كان من الممكن أن يدخل جميع أهالي هذا الساحل في الإسلام. بسبب ما حدث من كثرة تحول الناس إلى الإسلام، وما كان لتجار المسلمين الذين جاءوا من سائر جهات الهند مثل جوجرات والدكن، ومن بلاد العرب وفارس، من نفوذ قوي [٣٢].

ولكن يظهر أنه ليس هناك خبر مدون عن الأفراد الذين قاموا بنصيب في نشر الدعوة، اللهم إلا ما ذكره المؤرخ عبد الرزّاق، الذي ترك لنا وصفًا التي لم تصادف نجاحًا في بلاط زامورن ملك قليقوط. فقد أرسله الشاه روخ بهادر أحد ملوك الأسرة التيمورية في هذه السفارة سنة ١٤٤١، تلبية لنداء أحد السفراء، وكان قد أرسله زامورن ملك قليقوط إلى هذا الملك. وكان السفير نفسه مسلمًا، قد صور للسلطان أن إرسال رساله

---

(٣٠) ابن بطوطة جـ ٤ ص٨٢، ٨٨ وغيرها.

(٣١) Innes, p. 190.

(٣٢) Oboards Barbosa. P. 310.

وكذلك زعم أن سيلان لم تصبح مملكة إسلامية إلا بعد قدوم البرتغاليين. ذلك أنه قبل أن تظهر قوات البرتغاليين في البحار الهندية، كان تجار العرب سادة التجارة في هذه الجزيرة بلا منازع (حيث كانوا في الواقع قد كونوا مستعمرات تجارية قبل مولد النبي بقرون)، كما كانوا يوجدون في كل ميناء ومدينة، بينما جذبت سهولة التجارة جماعات كبيرة من وفود جديدة جاءت من مستعمراتهم في مليبار. وهنا صنع تجار العرب كانوا يصنعونه في أي مكان، فتصاهروا إلى أهالي هذه البلاد، ونشروا دينهم على طول الساحل. ولكن يظهر أنه لم تقم هناك حركة فعالة صحيحة لنشر تعاليم الدعوة، بل لم يظهر البرتغاليون غير راغبين في اعتقاد الإسلام، كما يظهر أن معظم مسلمي سيلان في الوقت الحاضر ينتمون إلى أصول عربية.

Sir James Emerson Tennent: Ceylon, vol. pp. 631-3. (5th ed., Londo, 1860.)

خاصة إلى الزامورن أمر على جانب عظيم من السمو والأهمية، وطلب إليه أن «يدعو الزامورن لقبول الإسلام اتباعًا لأمره – تعالى –: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ} [النحل:١٢٥] (٣٣)، وافتح مغلاق الظلمة والباطل الذي أوصد قلبه المظلم، ودع بهاء نور الإيمان، وسطوع ضياء الشمس يشرقان من نافذة روحه».

وقد اختير عبد الرازق (٣٤) لهذه المهمة، فوصل إلى قليقوط بعد رحلة محفوفة بالمخاطر؛ ولكن يظهر أنه قوبل مقابلة جافة، وبعد أن مكث هناك نحوًا من ستة أشهر، ترك الأغراض الأساسية، وقفل راجعًا إلى خراسان فوصل إليها بعد أن تغيب ثلاث سنين.

وهناك جماعة أخرى من المسلمين في جنوب الهند، وهم الرفوتّان **Ravuttans** (٣٥)، الذين يعزون دخولهم في الإسلام إلى تعاليم الدعاة الذين يمجدون قبورهم حتى الوقت الحاضر. وكان سيد نَتهرشاه (٣٦) (٩٦٩-١٠٣٩م) أشهر هؤلاء الدعاة؛ وكان قد طوّف كثيرًا في بلاد العرب وفارس وشمال الهند، ثم استقر في ترتشناپلي **Trichinopoly**، حيث قضى بقية حياته في العبادة وأعمال الخير، وحول عددًا كبيرًا من الهندوكيين إلى عقيدة الإسلام. وكثيرًا ما يؤم الناس قبره ويعدونه مكانًا للحج.

وقد أطلق المسلمون على ترتشناپلي اسم نتهرنجر، تيمنًا باسم هذا الولي (٣٧). وكان سيد إبراهيم شهيد (ويقال إنه ولد حول منتصف القرن الثاني عشر)، وضريحه على شاطئ نهر إراودي بطلًا محاربًا، قاد حملة إلى مملكة پانديان **Pandyan**، واحتل هذه البلاد اثنتي عشرة سنة تقريبًا، ولكنه قتل أخيرًا. على أنهم أنقذوا حياة ابنه تقديرًا الحكم أبيه الحافل بالخير، ومنح قطعة من الأرض، ولا يزال أعقابه ينعمون بها إلى اليوم. وكان آخر هؤلاء

---

(٣٣) سورة النحل آية ١٢٥.

(٣٤) مطلع السعدين، ورقة ١٧٣.

(٣٥) ونجد هؤلاء بصفة خاصة في مقاطعات مدورا، وتناولي **Tinnevelly** وكويم بتور **Coimbatore** وأركوت الشمالية **North Arcot** وأهلي نيبل جيري **Nilgiris** من الذين يتكلمون تامل **Tamil** († وهي لغة يتكلم بها أهالي جنوب الهند).

(٣٦) وتنطق مجلة **Imperial Gazetteer of India (vol. xxiv. P. 47)** اسمه نادر شاه، ويطلق قادر حسين خان عليه اسم نثد ولي.

(٣٧) **Madras Disrtict Gazetteers. Trichinopoly, vol. p. 338. (Madras, 1907). Qàdir Husayn khàn: South India Musalmans, p. 36. (Madras, 1910).**

الأولياء شاه الحميد (١٥٣٢–١٧٠٠)، وقد ولد في ما نِكپور في شمال الهند، وقضي معظم حياته في زيارة مشاهد الإسلام المقدسة، وفي القيام برحلات لنشر الدعوة وخاصة في كل أرجاء الهند؛ واستقر أخيرًا في ناجور لا يزال أعقاب ابنه المتبنى يتعهدون قبره [٣٨].

وهناك جماعة أخرى من المسلمين في جنوب الهند، وهم الدودي كولا Dudekulas، يعيشون على تقنية القطن (كما يدل على ذلك اسمهم)، ونسج الأقمشة الخشنة، ويعزون دخولهم الإسلام إلى بابا فخر الدين الذي يمجدونه قبره في بينو كنده Penukonda. وتقول الأسطورة أنه كان في الأصل ملكًا على سيستان، ثم نزل عن عرشه لأخيه وأصبح من سُؤّال الهنود المتدينين. وبعد أن حج إلى مكة والمدينة أمره النبي في الرؤيا بأن يذهب إلى الهند؛ وهنا قابل نتهر شاه ولي ترتشناپلي وتتلمذ عليه، فأرسله في صحبة مائتين من سؤال المتدينين في بعثة لنشر تعاليم الدين.

وتستمر الأسطورة فتخبرنا أنهم استقروا أخيرًا بينو كنده على مقربة من معبد هندي. حيث لم يرحب راجا هذا المكان بوجودهم، ولكن بدلًا من أن يلجأ إلى القوة، أجرى اختبارات كثيرة ليقف على ما إذا كان هذا الولي المسلم أو كاهن هذا الراجه أحق بالقداسة التي تؤهله لامتلاك المعبد. وفي اختباره الأخير أمر بكليهما أن يربطا في أكياس مملوءة كلسًا، ثم يلقى بها في صهاريج. وقد رسب الكاهن الهندوكي ولم يظهر، ولكن بابا فخر الدين برهن على تفوق عقيدته بأن انتقل بمعجزة إلى تل في خارج المدينة، ومن ثم دخل الراجا في الإسلام، وحذا حذوه عدد كبير من سكان البلاد المجاورة، وتحول المعبد إلى مسجد[٣٩].

ولا شك أن تاريخ الإسلام في جنوب الهند ظل دائمًا يتسم بطابع السلام، ولكن لا يبدو أن تحول الهندوكيين وغيرهم إلى الإسلام عن طريق الإكراه، الذي ارتكب في الوقت الذي أصبح فيه النفوذ الإسلامي مطلقًا في عهد حيدر علي (١٧٦٧–١٧٨٢)

---

(٣٨) Qàdir Husayn khàn, pp. 36-8.

(٣٩) Qàdir Husayn khan, op. cit. pp. 39-42. Madras District Gazetteers. Anantapur, vol. i. pp. 193-4. (Madras, 1905).

وتيبو سلطان (١٧٨٢-١٧٩٩)، يمكن أن يوازن بما كانت عليه الحال في تاريخ هذا الجزء من بلاد الهند الذي سبق هذا العهد. على أنه مهما يكن من أمر، فليس ثمة ما يدعو إلى الشك في أن تحويل الناس المطرد إلى الإسلام بالطرق السليمة كان من بين الطبقات السفلى (٤٠)، كما هي الحال في الوقت الحاضر حين يزداد دخول الناس من حين إلى حين من أفراد تيبان **Tiyans**، الذين يقال إنهم يكونون إحدى الجماعات التي تعد من أكثر الجماعات تقدمًا في الهند، وجماعة مكههوَن **Mukkuvans**، أي طبقى السماكين، وكذلك من طبقة تشرومن **Cherumans** أسي حراث الأرض، وغيرها من طبقات الرفيق، الذين يخلصهم الإسلام من القيود التي تلحق بالمنبوذين في نظام الهند الاجتماعي.

وقد يحدث كذلك أن يؤخذ الداخلون في الإسلام من بين التيار والأهالي المسيحيين، وفي پوناني **Ponnani**، مقر الرئيس الروحي لجماعة المسلمين في مليبار، توجد رابطة يطلق عليها «منة الإسلام سبها»، أي مجلس منة الإسلام، حيث يلقن الذين يدخلون في هذا الدين شعائر دينهم الجديد، وتقديم المساعدات المادية إلى هؤلاء الذين ينتظمون في سلك التعليم. وكان متوسط عدد الذين قبلوا في هذا المعهد ممن تحولوا إلى الإسلام ٧٥٠ في خلال السنوات الثلاث الأولى من القرن العشرين (٤١).

وقد بلغ من كثرة تحول الناس من الديانة الهندوكية أن ميول مسلمي الساحل الغربي، وكذلك الساحل الشرقي لبلاد الهند الجنوبية، كانت تجنح إلى الطابع الهندوكي أو الوطني. ويمثل السواد الأعظم منهم الآن، اللهم إلا في حالة بعض الأسر التي تنتمي إلى أصل أرقى، كل الصفات التي تتميز بها شعب أصيل في القومية، مع قليل جدًا من الدم الأجنبي القديم الذي يجري في عروقهم (٤٢).

وفي الأقاليم الواقعة على الساحل الغربي نجد طغيان التعصب الطبقي السفلي أن

---

(٤٠) زين الدين ص٣٣ (س٤)، ٣٦ (س١).

(٤١) **Innes, p. 190. Census of India, 1911. Vol. xii. Part. 1. P. 54.**

(٤٢) **Report on the Census of the Madras Presidency, 1871, W. R. Cornish, pp. 71, 72, 109. (Madras, 1874).**

تقترب من البرهمي بأكثر من أربع وسبعين خطوة، كما يجب عليهم أن يصيحوا بصوت كصوت الخنزير وهم يمرون في الطريق إيذانًا بدنوهم. وهناك أمثلة كثيرة من هذا النوع للتدليل على صحة هذا القول. لذلك لا نعجب إذا رأينا الأهالي المسلمين يزداد عددهم بسرعة بسبب دخول الناس في الإسلام من بين هذه الطبقات السفلى الذين يحررون أنفسهم بذلك من مثل هذا الظلم الذي يحقر من شأنهم، والذين يرفعون منزلتهم ومنزلة ذرياتهم في المجتمع.

ويقال في الواقع إنه قد بلغ مع ازدياد عدد المابيلا الذين يقيمون على الساحل الغربي بسبب من دخل في الإسلام من الطبقة الهندوكية السفلى، أن أصبح في الإمكان أن تتحول كافة الأجناس السفلى التي تقيم على الساحل الغربي إلى الإسلام في سنوات قليلة [٤٣].

وأغلب الظن أن الإسلام قد عبر من مليبار إلى جزائر لكديف وملديف (في خليج بنغالة) التي نجد كافة أهليها الآن مسلمين. ويدين سكان هذه الجزائر بدخولهم في الإسلام إلى تجار العرب والفرس، الذين استوطنوا هذه البلاد، وتصاهروا إلى الأهالي، ومهدوا بذلك السبيل لنشر تعاليم الدعوة في نشاط وقوة. وقد زعم البعض أن تاريخ تحول أول سلاطين جزائر ملديف من المسلمين، وهو أحمد شنورازة [٤٤]، كان حول سنة ١٢٠٠م. ولكن من المحتمل جدًا أن تجار المسلمين كانوا قد أدخلوا دينهم إلى الجزيرة قبل ذلك بوقت لا يقل عن ثلاثة قرون، وأن خطوات هذا التحول لا بد أن تكون من غير شك قد تمت تدريجيًا [٤٥]. بيد أنه لم تصل إلينا معلومات تفصيلية عن ذلك التحول.

وفي مالي Málé، وهي مقر الحكومة، نجد ضريح الشيخ يوسف شمس الدين، أحد أهالي تبريز في إيران وقد قيل إنه كان من دعاة الإسلام الذين أحرزوا نجاحًا في نشر الدعوة في هذه الجزائر. ولا يزال الناس يعظمون قبره، ويقومون دائمًا على إصلاحه، كما

---

(٤٣) Report of the Second Decennial Missionary Conference held at Calcutta, 1882-3 (pp.228,233,248). (Calcutta, 1883).

(٤٤) ابن بطوطة جـ٤ ص ١٢٨. أقام ابن بطوطة في جزائر ملديف في سنتي ١٣٤٣–١٣٤٤م، وتزوج ابنة وزير، وكان سنة ١٢٠٠م عن طريق الحدس والتخمين.

(٤٥) H.C.P. Bell: The Maldive Islands, pp. 23-5, 57-8, 71 (Colombo, 1883).

دفن في نفس هذه الناحية من الجزيرة بعض مواطنيه الذين جاءوا للبحث عنه، وبقوا في جزائر ملديف حتى زمن وفاتهم (٤٦).

ويعزى دخول الإسلام في الأماكن التي تجاور جزائر لكديفت إلى داع عربي، عرفه سكان الجزائر باسم مَمْبا ملايكا؛ ولا يزال قبره يشاهد في أندروتهة. ولما كان قاضي هذا المكان في الوقت الحاضر يدعي أن هذا الداعي هو جده السادس والعشرون، لا يبعد أن يكون هذا الداعي قد وصل إلى هذه الجزائر في وقت ما في القرن الثاني عشر (٤٧).

كذلك كانت منطقة الدكن مسرحًا لأعمال موفقة قام بها كثير من دعاة المسلمين، وقد أشرنا من قبل إلى أن تجار العرب كانوا قد زاروا منذ عصور مبكرة جدًا المدن الواقعة على الساحل الغربي. ويروى أن جماعات كبيرة من العرب استقروا في القرن العاشر في مدن إقليم كان كن، وذلك عندما تزوجوا من نساء البلاد وعاشوا على شرائعهم وديانتهم (٤٨).

وفي عصر أسرتي ملوك بَهَمّني (١٣٤٧–١٤٩٠) وبيجاپور (١٤٨٩–١٦٨٦) دفع إلى الهجرة العربية روح جديد، فقدم الدعاة مع التجار والجنود من ذوي الغنى واليسار يلتمسون القيام بغزوات روحية لأجل الدعوة إلى الإسلام، واكتساب الشعب الكافر في تلك البلاد بدعوتهم إلى الإسلام وطلب الاقتداء بهم. ذلك أنه ليس لدينا خبر مدون عن حدوث تحول عن طريق القوة والإكراه في عهد أسرات الدكن المبكرة، التي يتميز حكمها بتسامح ديني بالغ (٤٩).

وقد وفد أحد دعاة العرب، واسمه پيرمهابير (†) خام دايت، على بلاد الدكن في عصر مبكر يرجع إلى سنة ١٣٠٤م. ونجد من بين الطبقات المستنيرة في بيجاپور سلالات

---

(٤٦) Memoir on the Inhabitants of the Maldive Islands. By J. A. Young and W. Christopher. (Transactions of the Bombay Geographical Society from 1836 to 1838, p. Bombay, 1844).

(٤٧) Innes, pp. 485. 492.

(٤٨) المسعودي جـ ٢ ص٨٥–٨٦.

(٤٩) The Bombay Gazetteer, vol. x. p. 132; vol. xvi. P. 75.

(†) بير = مرشد، وماه= أكبر، =ناسك

من الجين Jains تحولت على يديه(٥٠) وحول نهاية هذا القرن نفسه، أدخل ولي مشهور من جلبرجه(§) Gulbarga، ويدعى سيد مُحَّد جيسودراز † (٥١) عددًا من هنود مقاطعة پونا في الإسلام، كما تكللت أعماله بمثل هذا النجاح في منطقة بلجام أو بلجاون Belgaum بعد عشرين سنة (٥٢).

ولا يزال يقيم في دهانو، سلالة أحد أقرباء أعظم أولياء الإسلام، السيد عبد القادر الجيلاني ولي بغداد. وقد جاء إلى بلاد الهند الغربية حول القرن الخامس عشر، وبعد أن أدخل كثيرًا من أهالي كان كن في الإسلام، توفى ودفن في دهانو (٥٣). وفي مقاطعة دهاروار جماعات كبيرة من عمال النسيج، كان أجدادهم قد تحولوا إلى الإسلام على يد هاشم بيرجوجرات، وكان المعلم الروحي لإبراهيم عاد شاه الثاني أحد ملوك أسرة بيجاپور، وذلك حول نهاية القرن السادس عشر، وهؤلاء القوم لا يزالون ينظرون إلى هذا الولي بعين الرعاية والتجلة، ويحترمون ذريته احترامًا عظيمًا (٥٤).

ولا تزال سلالة ولي آخر، يدعي شاه مُحَّد صادق سَر مست حسيني، تقيم في ناسك (§). وقد قيل إنه كان أكثر دعاة المسلمين توفيقًا في دعوته؛ فإنه بعد أن قدم من المدينة في سنة ١٥٦٨، تنقل في معظم جهات الهند الغربية، واستقر أخيرًا في ناسك – وكان قد بدأ في هذه المقاطعة داع آخر من دعاة المسلمين، اسمه خواجة خوندمير حسيني، عمله في نشر الدعوة قبل ذلك التاريخ بخمسين سنة، ولاقى نجاحًا عظيمًا في هذه السبيل (٥٥).

---

(٥٠) Id. Vol. xxiii. P 282.

(§) اسم مدينة في هضبة الدكن تدخل في ممتلكات نظام حيدر أباد.

† كلمة فارسية معناها الطويل الشعر (جيو= شعر، ودراز= طويل).

(٥١) ويطلق عليه أحيانًا سيد مخدوم جيسودراز.

(٥٢) The Bombay Gazetteer, vol. xviii. P. 501; vol. xxi. Pp. 218, 223.

(٥٣) Id. Vol. xiii. Part i. p. 231

(٥٤) The Bombay Gazetteer, Id. Vol. xxii. P. 242.

(§) اسم مدينة في غرب الهند، وهي مكان مقدس عند الهندوكيين.

(٥٥) Id, vol. xvi. Pp. 75-6.

وهناك داعيان عربيان آخران، يمكن الإشارة إليهما، وكان مسرح جهودهما التعليمية في مقاطعة بلجام، ويدعى أحدهم سيد مُحَّمد بن سيد علي، والآخر سيد عمر عيدروس بيش بان (٥٦).

وهناك حركة أخرى لنشر الدعوة، يمكن أن يقال على وجه التقريب إنها كانت تتركز حول مدينة الملتان (٥٧). وكانت هذه المدينة في الأيام الأولى من الفتح العربي، أحد المراكز الأمامية للإسلام، حينما كان مُحَّمد بن القاسم قد أسس حكومة إسلامية كانت لها السيادة في السند (سنة ٧١٤م). وفي خلال القرون الثلاثة الأولى من الحكم العربي، كان طبعيًا أن يدخل كثير في دين الغزاة الفاتحين.. وقد استجاب كثير من أمراء السند لدعوة الخليفة عمر بن عبد العزيز إياهم إلى اعتقاد الإسلام (٥٨).

وتحدث البلاذري (الذي كتب بعد ذلك بمائة عام) عن شعب ساون داري Sawandari وقد خضعوا لمحمد بن القاسم ومنحهم السلام على شريطة أن يرحبوا بالمسلمين ويمدوهم بأدلاء لمعرفة بلادهم، واعتبر هذا المؤرخ أنهم أقروا بالإسلام في عهده؛ وكثيرًا ما تشير الرسائل الرسمية التي كتبها الفاتحون إلى دخول الكفار في الإسلام.

ويمكن أن نحكم على ان حالات التحول هذه كانت في جوهرها بمحض إرادة الذين أسلموا. من ذلك التسامح الديني، الذي أظهره العرب لرعاياهم الوثنيين بعد غزوتهم الأولى التي امتازت بشيء من العنف؛ مثال ذلك، أنه سمح لشعب برهمن آباد، وكانت مدينتهم قد فتحت عنوة، بإصلاح معبدهم الذي كان مصدر عيش البراهمة، وما كان لأحد أن يحرم أو يحول دون إقامة شعائر دينه الخاصة (٥٩). وكان الفاتحون بوجه عام، لا يترددون في تخصيص حي من أحياء المدينة لأصحاب الديانات الأخرى، حيث وجدوا

---

(٥٦) Id. Vol. xxi. P. 203.

(٥٧) في زمن الفتح العربي، كانت أملاك حاكم السند الهندوكي تمتد شمالًا حتى المدينة التي لم تعد الآن داخلة في هذه الإمارة.

(٥٨) البلاذري ص ٤٤١ (في نهاية الصفحة).

(٥٩) Elliot. Vol, i. pp. 185-6.

منهم الخضوع والتسليم، كما كانوا يسمحون بإقامة عقائده وشرائعه الخاصة.

وفي خلال المتاعب التي حلت بالخلافة في النصف الأخير من القرن التاسع الميلادي، آلت لبلاد السند، وكانت الحكومة المركزية قد أهملت شأنها، إلى الانقسام بين عدد من صغار الأمراء، وكان أعظمهم نفوذا أمراء الملتان والمنصورة. وكان طبعيًا أن يضف مثل هذا التفكك من قوة المسلمين السياسية التي كانت في الواقع قد أخذت في الاضمحلال في وقت أسبق من ذلك في هذا القرن نفسه..

ففي عهد المعتصم (٨٣٣-٨٤٢م)، أعلن هنود سندان [٦٠] أنهم مستقلون، ولكنهم أبقوا على المسجد حيث سمحوا للمسلمين أن يجتمعوا فيه ويدعوا للخليفة [٦١]. وقد نجح مسلمو الملتان في الاحتفاظ باستقلالهم السياسي، واحتاطوا لأنفسهم من أن يغزوهم أمراء الهنود الذين يجاورن بلادهم، وذلك بأن أنذروهم إذا هاجمهم هؤلاء الأمراء، أن يحطموا صنمًا كانت تعظمه الهند ويحج إليه من أقاصي بلدانهم [٦٢]. ولكن في اللحظة التي كان المسلمون فيها في انحلال من الناحية السياسية، كان الإسلام لا يزال يحرز نجاحًا متواليًا في نشر الدعوة.

ويروي البلاذري [٦٣] القصة التالية عن تحول أحد ملوك العسيفان إلى الإسلام، وهي بلاد تقع بين قشمير والملتان وكابل. وكان أهل ذلك البلد يعبدون صنمًا قد بني عليه بيت. فمرض ابن الملك، فدعاه سدنة ذلك البيت، فقال لهم ادعوا الصنم أن يبرئ ابني، فغابوا عنه ساعة، ثم أتوه، فقالوا قد دعوناه وقد أجابنا إلى ما سألناه. فلم يلبث الغلام أم مات. فوثب الملك على البيت فهدمه، وعلى الصنم فكسره، وعلى السدنة فقتلهم. ثم دعا قومًا من تجار المسلمين، فعرضوا عليه التوحيد، فوحَّد، وأسلم، وهناك أثر من آثار نشر الدعوة، يشبه ذلك المثل، أحدثته، من غير شك، تلك الجماعات المتعددة

---

[٦٠] وربما كانت سندان في أبراسا، وهي مقاطعة كتش الجنوبية.

[٦١] البلاذري ص ٤٤٦.

[٦٢] الأصطخري ص ١٧٣-١٧٤.

[٦٣] البلاذري ص ٤٤.

من تجار المسلمين الذين حملوا معهم ديانتهم إلى مدن في هندستان، يدين أهلها بالكفر.

ويذكر جغرافيو العرب في القرنين العاشر والثاني عشر، أسماء كثيرة من أمثال هذه المدن، سواء ما كان منها على الساحل وفي الداخل، حيث بنى المسلمون مساجدهم، وكانوا آمنين في حماية أمرائهم الوطنيين الذين منحوهم حق الحياة في ظل شرائعهم الخاصة [٦٤]. وكان تجار العرب في ذلك الحين وسطاء في التجارة بين السند وبلاد الهند المجاورة وبين العالم الخارجي، وجلبوا منتجات الصين وسيلان إلى موانيء السند، وحملوها من هناك، عن طريق الملتان إلى تركستان وخراسان [٦٥].

وكان يكون من الغريب لو أن هؤلاء التجار، وكانوا منبثين في المدن التي يدين أهلها بالكفر، أخفقوا في إظهار تلك الغيرة في نشر تعاليم الدعوة التي نجدها لدى التاجر المسلم في أي مكان، وأغلب الظن دخول أسرة سمّه Sammas التي حكمت بلاد السند من سنة ١٣٥١ إلى سنة ١٥٢١م في الإسلام، كان يعزى إلى تأثير أمثال طوائف التجار هؤلاء، وبينما نجد المؤرخين يخصمون عهد ننداً بن بابينيه أحد أمراء هذه الأسرة، بالإشارة إلى أنه عهد «سلام وطمأنينة، حتى إن هذا الأمير لمُ يطلب إليه قط أن يركب للقتال، ولم ينزل له عدو قط إلى ساحة الحرب»[٦٦]

نجده يوصف في الوقت نفسه بأنه «معروف بعدالته، وكثرة دخول الناس في الإسلام في عهده». لهذا يمكن أن تكون هذه الكثرة راجعة إلى شيء واحد، هو الوسائل السلمية في نشر الدعوة. وكان من أشهر هؤلاء الدعاة، الولي المشهور سيد يوسف الدين أحد، وجاء إلى السند في سنة ١٤٢٢، وبعد أن اشتغل بالدعوة هناك عشر سنين، نجح أن يجذب إلى الإسلام سبعمائة أسرة من عشائر لوهانه، التي حذت حذو شخصين منهم، هما سندرجي، وهنس راج. فهذان قد دخلا في الإسلام، بعد أن رأوا من هذا الولي بعض الكرامات. ولما أسلما تسمى الأول آدم جي والثاني تاج مُحَمَّد. ثم هاجر هؤلاء الأهالي

---

[٦٤] ابن حوقل ص٢٣٠ وما يليها. الأدريسي: (Géographie d'Edrisi, traduire par P. A. Jaubert, vol. i. p. 175 sqq.)

[٦٥] المسعودي جـ ١ ص ٢٠٧.

[٦٦] Elliot, vol. i. p. 273.

فيما بعد، إلى كتش، بزعامة جد الأول، وهناك زادت جماعتهم بمن انضم إليها من الذين دخلوا في الإسلام من بين عشائر لوهانه في كتش(٦٧).

كذلك كانت السند مسرحًا لأعمال الپير صدر الدين، أحد دعاة الإسماعيلية، وكان زعيمًا لفرقة الخوجة حول سنة ١٤٣٠. وقد جرت مبادئ هذه الفرقة على التوفيق والملائمة بين المذاهب والعقائد؛ لهذا تلقب صدر الدين بلقب هندي، وصرح بقبول بعض العقائد الدينية عند الهنود الذين جد في تحويلهم إلى الإسلام، وأدخل بينهم كتابًا عنوانه دس أوتار الذي اعتبر فيه عليّ الأوتار العاشر (المهدي العاشر) أو الصورة المجسدة من وشنو؛ وكان هذا الكتاب منذ البداية الكتاب المقدس الذي تعتمده فرقة الخوجة. ويقرءونه دائمًا إلى جانب فراش الميت، كما يقرءونه في فترات خاصة في كثير من أعيادهم.

ويزعم هذا الكتاب أن مجسدات وشنو التسعة حقيقية من وجهة نظر أتباع هذه الفرقة، ولكنها تنقص الحقيقة الكاملة، كما يجعلون طريقة الوشنوي الناقصة تعقيبًا لمذهب الإسماعيلية الجوهري، وفكرة التجسد وظهور عليّ. أضف إلى ذلك أن هذا الداعي أَوَّلَ براهما على أن مُحَمَّد، ووشنو على أنه علي، وآدم على أنه سيوا Siva. وكان أول الداخلين في الإسلام على يد الپير صدر الدين، هؤلاء الذين جذبهم إلى هذا الدين من القرى والمدن الواقعة في أعالي السند. كذلك دعا إلى الإسلام في كتش Cutch. ومن هذه البقاع انتشرت مبادئ هذه الفرقة جنوبًا من طريق جوجرات إلى بومبي. والآن نجد جماعات الخوجات تقيم في جميع المدن التجارية تقريبًا، في الهند الغربية، وعلى الساحل المحيط الهندي (٦٨).

أن الپير صدر الدين لم يكن أول دعاة الإسماعيلية الذين قاموا إلى الهند، فقد سبقه عبد الله، أحد الدعاة الذي أرسل من اليمن حول سنة ١٠٧٦م. وقد قيل إنه كان واسع المعرفة، اعتقد الناس أنه صاحب كرامات كثيرة، ولهذا أقنع عددًا كبيرًا من الهندوكيين

---

(٦٧) Bombay Gazetteer, vol. i. p. 93.

(٦٨) Khojà Vrttànt, p. 208. Sir Bartle Frere: The Khoias: the Disciples of the Old Man of the Mountain. Macmillan's Magazine, vol. xxxiv. Pp. 431, 433-4. (London, 1876)

بصدق ديانته [٦٩]. وهناك داع إسماعيلي آخر، يقال له نور الدين، اشتهر عادة باسمه الهندي الذي اتخذه لنفسه، وهو نور ستاجر، Nur Satagar، أرسل إلى بلاد الهند من ألموت، معقل زعيم الإسماعيلية الأكبر، وبلغ جوچرات في عهد الملك الهندي، سِدْها راج (١٠٤٩-١١٤٣م) [٧٠]. وقد اتخذ لنفسه اسمًا هنديًا، ولكنه أخبر المسلمين أن اسمه الحقيقي هو سيد سعادت. وقد قيل إنه أدخل قبائل كنبي Kanbis وخواررويس أو خوارواس، Khárwas وكوري Koris والطبقات المنحطة في جوچرات [٧١].

وكما كان نور ستاجر موضع تكريم واحترام باعتباره أول داع من دعاة الخوجات، كذلك يعتقد بعض أن عبد الله كان مؤسس فرقة البهرة، إحدى فرقة الشيعة الكبرى المهمة التي ترجع إلى أصل هندي والتي تقيم في جموع كبيرة في مراكز حكومة بمباي التجارية الرئيسية. بيد أن آخرين يعزون شرف القيام بأول دعوة من دعوات فرقة البهرة، إلى الملا علي، الذي يورد أحد مؤرخي الشيعة أخبارًا عما اتبعه هذا الملأ من الوسائل في نشر الدعوة، على الوجه التالي: «لما كان شعب جوچرات في تلك الأيام مشركين، يسلمون زمام دينهم إلى شيخ مسن، ويطيعون تعاليمه طاعة عمياء، رأى ملاّ على ألا حيلة إلا أن يسير إلى هذا الشيخ المسن، ويطلب إليه أن يتلذذ عليه، وقصد بذلك أن يضع نصب عينيه ما لديه من حجج دامغة وبراهين ساطعة لعله يصبح مسلمًا، فيستطيع بعد ذلك أن يحول سائر أتباعه إلى الإسلام. من ثم قضى الملّا عدة سنين في خدمة هذا الشيخ؛ ولما عرف لغة القوم، قرأ كتبهم، وحصّل معرفة بعلومهم، وتمكن شيئًا فشيئًا أن يمسك لعقلية الشيخ المستنيرة حقيقة العقيدة الإسلامية، وحثه على الدخول في الإسلام.

وبعد أن تحول الشيخ إلى هذا الدين، حذا بعض تلاميذه حذوه، وأخيرًا علم كبير وزراء الملك في هذه البلاد، ما صار إليه الشيخ من التحول إلى الإسلام، فسار إليه ليطلع

---

[٦٩] Bombay Gazetteer, vol. ix. Part ii. P. 26.

[٧٠] يزعم ك . ب. فضل الله لطف الله أن نور ستاجر قدم إلى الهند في زمن أحدث من ذلك أي في عهد بهيما الثاني (١١٧٩-١٢٤٢). (Bombay Gazetteer, vol. ix. Part ii. P. 38).

[٧١] Khojà Vrttànt, p. 154-8.

على أمره، ولم يلبث أن أذعن لإرشاده الروحي ودخل مثله في الإسلام. وظل الشيخ وكبير الوزراء، وسائر الذين اعتقدوا هذا الدين، يكتمون إسلامهم وقتًا طويلًا، وكانوا دائمًا يحولون دون أن يصل خبر إسلامهم إلى مسامع الملك خوفًا منه. إلا أنه قد نمى إلى الملك آخر الأمر، أن كبير وزرائه قد اعتقد الإسلام، فشرع في تحري ذلك الخبر. وفي ذات يوم، قدم الملك إلى بيت هذا الوزير، دون سابق تنبيه، فوجده في صلاته حانيًا رأسه، فتضايق الملك من ذلك.

وأدرك الوزير ما يرمي إليه الملك من هذه الزيارة، وأيقن أن نقمة الملك قد حلت عليه بما ساوره من الشكوك والريب التي أثارتها صلاته وما قام به من ركوع وسجود؛ ولكن إلهام الله ومعونته الإلهية قد هيَّئا له ما يناسب المقام، فقال الملك إنه إنما كان يفعل هذه الحركات لأنه كان يلاحظ ثعبانًا قويًا في زاوية الجدار. فلما التفت الملك إلى زاوية الجدار ليرى مصداق قوله، أرادت العناية الإلهية أن يرى ثعبانًا في تلك الزاوية، فقبل الملك عذر الوزير، وخلي ذهنه من كل الشكوك.

وكذلك اعتقد الملك الإسلام آخر الأمر، ولكنه أخفى تغيير دينه لأسباب تتعلق بدولته. على أنه حين اقتربت ساعة وفاته وصى بألا يحرق جسده كما جرت بذلك عادة المشركين. وكان من أثر وفاته، أنه عندما غزا السلطان ظفر جوچرات، وكان أحد أشراف السلطان فيروزشاه ملك دلهي كما كان محل ثقة هذا الملك، صحبه في هذه الغزوة بعض وجوه أهل السنة، وجروا على محاجة أهالي جوچرات ليعتقدوا المذهب السني؛ لهذا نجد بعض البهرة سنية على حين ظل السواد الأعظم منهم مخلصين لعقيدتهم الأولى» [٧٢].

وهناك فرق صغيرة كثيرة في كتش جوچرات يرجع دخولها في الإسلام إلى الإمام شاه پيرانه [٧٣]، الذي كان جادًا في أعمال الدعوة، مشتغلًا بها في خلال النصف الأخير من القرن الخامس عشر. وقيل أنه حول جمعًا هائلًا من زراع الهندوكيين إلى الإسلام بأن استسقى لهم، فمطرتهم السماء بعد أن كانوا في قحط فصلين متتابعين. وفي مناسبة

---

[٧٢] نور الله الشوشتري: مجالس المؤمنين. ورقة ٦٥. (India Office M S. No. 1400).

[٧٣] مدينة على بعد عشرة أميال جنوب غربي مدينة أحمد أباد.

أخرى، حدث أن ألتقى بجماعة من حجاج الهنود يعبرون من پيرانه في طريقهم إلى بنارس، فعرض عليهم أن يأخذهم إلى هناك، فقبلوا، وفي لحظة وجدوا أنفسهم في المدينة المقدسة، حيث اغتسلوا في نهر الكنج، وأوفوا بنذرهم.

حينئذ تنبهوا، فألفوا أنفسهم لم يبرحوا پيرانه، فاعتقدوا دين ذلك الولي الذي استطاع أن يصنع مثل هذه الكرامة، وتوفي سنة ١٥١٢، ولا يزال قبره في پيرانه مثابة للحجاج من الهندوكيين والمسلمين على سواء (٧٤).

وكثير من مسلمي كتش، الذين ينحدرون من أصل هندي، يعظمون دوال شاه پير ويعدونه زعيمًا وموحيًا لهم، وكان اسمه الحقيقي ملك عبد اللطيف (٧٥)، ابن أحد أشراف محمود بيجَره (١٤٥٩-١٥١١)، الذي كان ملكًا شهيرًا من ملوك أسرة جوچرات الإسلامية، كما تبدأ من عهده تلك الرواية المشهورة التي تؤرخ تحول كثير من الهندوكيين إلى الإسلام (٧٦).

على أن دعاة المسلمين في الهند قد لاقوا أعظم النجاح في البنغال خاصة من حيث كثرة عدد الذين دخلوا في هذا الدين. وفي البنغال تأسست لأول مرة دولة إسلامية في نهاية القرن الثاني عشر على يد مُحَمَّد بختيار الخلجي، الذي فتح بهار والبنغال، واتخذ جور حاضرة الإمارة الأخيرة. وكان طبعيًا أن يساعد استمرار الحكم الإسلامي مدة طويلة، على انتشار الإسلام. ومع أن الحكم الهندي قد أعيد مدة عشر سنين على يد راجا كانس الذي عرف بتسامحه، والذي قيل إن حكمه كام محببًا إلى رعايا المسلمين (٧٧) رفض ابنه جات مَل الديانة الهندوكية واعتقد الإسلام.

وبعد وفاة أبيه سنة ١٤١٤، استدعى كل موظفي الدولة، وجمعهم، وأعلن إليهم

---

(٧٤) Bombay Gazetteer, vol. v. p. 89.

(٧٥) Bombay Gazetter, vol. v. p. 89

(٧٦) Id. Vol. ii. P. 378; vol. iii. Pp. 36-7.

(٧٧) وكذلك Firishtah، ولكن أنظر
H. Biochmann: Contribution to the Geography and Histroy of Bengal. (J. A. S. B., vol. xlii. No. 1, pp. 264-6. 1873).

رغبته في اعتقاد الإسلام، كما أعلن أنه إذا لم يأذن له كبار رجال الدولة باعتلاء العرش، كان على استعداد لأن يتخلى عنه لأخيه. ومن ثم أعلنوا أنهم يرضون به ملكًا عليهم، أيًا كانت الديانة التي يعتقدها. وتبع ذلك أن دعى كثير من علماء الدين الإسلامي ليشهدوا أن الراجا قد نبذ ديانة الهندوكيين وجهر باعتقاد الإسلام. واتخذ لنفسه اسم جلال الدين مُحَمَّد شاه، وتذكر الروايات أن كثيرًا من حالات التحول إلى الإسلام قد تم في عهده (٧٨).

على أن كثيرًا من هذه الحالات كانت راجعة إلى القوة والإكراه، ذلك أن عهده كان يتميز بأنه العهد الوحيد الذي لم تدون عنه على وجه الإجمال اضطهادات وقعت على رعايا الهندوكيين في خلال الخمسة قرون والنصف قرن من الحكم الإسلامي في البنغال الشرقية (٧٩).

على أنه طالما حدثت حالات من التحول إلى الإسلام في أزمان أخرى، بتأثير الحكومة الإسلامية وضغطها. كان راجيات خرك پور ينتمون إلى أصل هندوكي، ثم اعتقدوا الإسلام، لأن أحد قواد أكبر حين غزا ديارهم، قد قد سمح لهم بأن يحتفظوا بضياع أسراتهم، على شريطة أن يدخلوا في الإسلام. وقد حُرِم الجد الهندوكي الأكبر لأسرة أسد علي خان، في جتا كانج (†)، مكانته في طبقته بأن أرغم على أن يشم رائحة البقر، وأن يضطر إلى اعتناق الإسلام، وهناك أمثلة كثيرة أخرى من هذا النوع كان من الممكن تدوينها (٨٠).

ونجد مرشد قُلي خان (ابن أحد البراهمة الذين دخلوا في الإسلام)، وكان قد ولاه الإمبراطور أورنج زيب حاكمًا على البنغال في مُستهل القرن الثامن عشر، يفرض قانونًا يقضي بأن أي موظف أو إقطاعي لا يؤدي الخراج الذي ألزم أداءه، أو يعجز عن تعويض ما يلحق البلاد من خسارة، يلزم الدخول في الإسلام هو وزوجته وأولاده. هذا إلى أن لهم

---

(٧٨) J. H. Ravenshaw: Gaur: it's ruins and inscriptions, p. 99. (London, 1878.) Frishtah, vol. iv. P. 337.

(٧٩) Wise, p. 29.

(†) مدينة ساحلية على مقربة من كلكتا.

(٨٠) Census of India, 1901, vol. vi, part i. p. 170.

قانونًا شائعًا يقضي بأن أي هندوكي سقط من مكانته في المجتمع بسبب ما اقترفه من مخالفة للقوانين، لا يستطيع أن يطلب إعادة النظر في قضيته إلا لدى الحكومة الإسلامية؛ فإذا رفضت الحكومة التدخل، حرم طريد القانون أيه وسيلة لاسترداد مركزه في النظام الاجتماعي عند الهندوكيين، وربما كان لا يجد علاجًا لموقفه إلا بالتحول إلى الإسلام (٨١).

كذلك يظهر أن رواد الأفغان الذين استقروا في هذه الإمارة، كانوا على جانب من النشاط في نشر تعاليم الدعوة؛ ذلك أنهم، إلى جانب ما حصلوا عليه من الأطفال الذين ولدوا من النساء الهندوكيات، تعودوا أن يشتروا عددًا من الصبيان في أزمان القحط، وينشئوهم على مبادئ الإسلام (٨٢). على أن مسلمي البنغال لا يقيمون في جماعات كبيرة في مراكز الحكومة الإسلامية القديمة، ولكنهم يقيمون في الأرياف، أي في المقاطعات التي لا نجد فيها أثرًا للجاليات التي وفدت إليها من الغرب، وفي البقاع التي تقيم فيها الطبقات المنحطة من الهندوكيين، وطريدو المجتمع في كثرة وافرة (٨٣). وإن تشابه العادات بين هذه الطوائف المنحطة من الهندوكيين وبين أتباع النبي، وخصائص هذه الطوائف التي لا تزال تحتفظ بها، كما احتفظت بالتشابه الجسماني، كل ذلك يحمل دليلًا واحدًا، كما يحمل على الاعتقاد بأن مسلمي البنغال هم القبائل الأصلية في هذه البلاد. وهنا لم يقف في سبيل تقدم الإسلام شيء من النظم الدينية العنيفة، لا كما كانت الحال في شمال غربي الهند، حيث لقي الغزاة المسلمون ديانة البراهمة زاخرة بحياة غضة، وقوة ناشئة بعد أن أحرزت النصر في صراعها مع البوذية، وحيث كان تأثير الإسلام، برغم الاضطهادات، قوة دافعة في وجه المعارضة التي أبداها الهندوكيين، واحتفظ بنفوذه عليهم في أعمق ساعات الشدة والتدهور.

بيد أن دعاة المسلمين قد لقوا في البنغال ترحيبًا عظيماً من السكان الأصليين

---

(٨١) Census of India, 1901, vol. vi, part i. Id. P. 30.

(٨٢) Charles Stewart: The History of Bengal, p. 176 (London, 1813). H. Biochmann: Contribution to the Geography and Histroy of Bengal. (J. A. S. B., vol. xlii. No. 1, pp. 264-6. 1873).

(٨٣) The Indian Evaneglical Review, p. 278 (January, 1883.)

والطوائف المنحطة من أهالي البنغال الذين لم تتغلغل العقائد الهندوكية في نفوسهم، والذين كان حكامهم المعتزون بأنفسهم من الآريين، يحتقرونهم ويغضون من شأنهم. «فجاء الإسلام إلى هؤلاء الفقراء وصيادي السمك والقناصين والقراصين وحرائي الأرض من أفراد العشائر المنحطة، فأعلى منزلتهم ورفع من شأنهم. كان الإسلام عقيدة الجنس الحاكم، كما كان دعاته ذوي غيرة، حملوا بشارة الوحدانية، والمساواة بين الناس إلى الأهالي المحتقرين المنبوذين. وقد جعلت هذه الآراء التي أدخلها هؤلاء الدعاة ارتداد الهندوكيين عن هذا الدين الجديد أمرًا محالًا، كما جعلت المهتدي إلى الدين وذريته مؤمنين مخلصين إلى الأبد.

وبهذه الطريقة، استقر الإسلام في أخصب الولايات الهندية وأغناها، تلك الولاية التي استطاعت أن تسد حاجة السكان الذين بدت كثرتهم في هذه الولاية أشد ما تكون سرعة وازدحامًا. وقلما سجلت حالات التحول الإجباري إلى الإسلام، بيد أن ما أحرزه الإسلام من نجاح مستمر في البنغال السفلي لم يكن راجعًا إلى القوة والعنف؛ فقد راق الإسلام نظر الأهالي، كما انتزع السواد الأعظم من الذين تحولوا إلى هذا الدين من طبقة الفقراء. وأدخل في أذهانهم تصورا أرقى لمعنى الإله، ومثلًا أسمى للأخوة الإنسانية، وقدم للعشائر المنحطة التي غصت به البنغال والتي ظلت أجيالًا دنيئة وضيعة، أبعد ما تكون عن حظيرة الجماعة الهندوكية، منفذًا حرًا، تنفذ منه إلى نظام اجتماعي جديد» (٨٤).

وقد قيل إن ظهور جهود واضحة في نشر الدعوة في البنغال قد أيده ما جاء في بعض أساطيرهم عن حماسة أفراد لأجل دينهم، ولا تزال أضرحة بعض هؤلاء الدعاة مثابة تكريم وتشريف، يزورها في كل سنة مئات الحجاج (٨٥). ومن أقدم هؤلاء الدعاة الشيخ جلال الدين التبريزي، الذي توفي سنة ١٢٤٤م، وكان تلميذًا للولي الأكبر شهاب الدين السهروردي وفي أثناء رحلاته التي قام بها لنشر الدعوة في بلاد الهند، زار البنغال، حيث

---

(٨٤) Sir W. W. Hunter: The Religions of India. (The times, Febraury, 25,1888.) See also Wise, p. 32.

(٨٥) Wise, p. 37.

بُني له ضريح تكريمًا له، ووقف لهذا البناء هبة خيرية قيمة. أما موقع قبره الحقيقي فغير معروف. وتنسب إليه كرامات كثيرة؛ منها أنه أدخل في الإسلام أحد باعة اللبن من الهندوكيين بنظرة واحدة (٨٦).

وفي القرن التاسع عشر نشطت حركة الدعوة إلى الإسلام في البنغال نشاطًا ملحوظًا، وأرسلت طوائف كثيرة ينتمي أصلها إلى تأثير الحركة الوهابية الإصلاحية، دعاتهم يتنقلون في هذه المقاطعة، يطهرون البلاد من بقايا العقائد الهندوكية القديمة ويوقظون الحماسة الدينية، وينشرون العقيدة الإسلامية بين الكفار (٨٧).

بقيت بعض أخبار عن دعاة المسلمين الذين قاموا بنشر الدعوة في أجزاء من الهند، غير تلك الأجزاء التي ذكرناها من قبل، لا بأس من ذكرها هنا. كان من أسبق هؤلاء الدعاة الشيخ إسماعيل، وكان من أشهر الأولياء الصالحين في بخارى، كما عرف ثقافته الدينية والدنيوية. وقد قيل إنه كان أول داع مسلم دعا إلى عقيدة الإسلام في مدينة لاهور التي كان قد قدم إليها سنة ١٠٠٥م. وقد تدفقت إليه جموع زاخرة ليستمعوا إلى مواعظه، وسرعان ما تزيد عدد الداخلين في الإسلام على يديه يومًا بعد يوم. وقد قيل إنه ما من كافر وفد عليه واتصل بشخصه، إلا تحول إلى عقيدة الإسلام (٨٨).

وقد قيل إن تحول سكان سهول البنجاب الغربية إلى الإسلام كان من آثار دعوة بهاء الحق الملتاني (٨٩)، وباب فريد الدين البكتاني الذي نبغ حول نهاية القرن الثالث عشر وبداية الرابع عشر (٩٠) ويذكر المؤلف الذي كتب سيرة هذا الولي الأخير بيانًا عن ست عشرة قبيلة ظفر بهم الإسلام بفضل دعوته؛ ولكن هذا المؤلف، لم يمدنا لسوء الحظ بشيء من التفصيل فيما يتعلق بنوع العمل الذي قام به هذا الداعي (٩١).

---

(٨٦) Blochmann, op. cit. p. 260.

(٨٧) Wise, p. 48-55.

(٨٨) غلام سرور: خزينة الأصفياء جـ٢ ص ٢٣.

(٨٩) ورواية أخرى تسمية الشيخ بهاء الدين زكريا.

(٩٠) Ibbeston, p. 163.

(٩١) أصغر علي جواهري فريدي (١٠٣٣م) ص٣٩٥ (لاهور ١٨١٤).

ومن أشهر أولياء المسلمين في الهند، وأحد رواد الإسلام في راجبوتانا، خواجة معين الدين خشّتي، الذي توفى في أجمير سنة ١٢٣٤م، وكان احد أهالي سجستان شرقي فارس. وقد قيل إنه تلقى نداء للدعوة إلى الإسلام بين كفار الهند، حينما كان في طريقه إلى المدينة لأداء فريضة الحج. فهنا تجلى له النبي في منامه، وخاطبه بقوله: «لقد عهد إليك الله القدير بلاد الهند، فاذهب إليها واستوطن أجمير؛ ولنتشرن دين الإسلام بعون الله في تلك ابلاد، بفضل تقواك وتقوى من يتبعونك». ولبى النداء، وشق طريقه إلى أجمير وكانت في ظل الحكم الهندوكي في ذلك الحين، وقد سادت عبادة الأوثان في كافة أنحاء هذه البلاد. ومن أسبق الذين تحولوا إلى الإسلام على يديه في هذه البلاد رجل يدعى يوجي، كان المربي الروحي للراجا نفسه. وقد جمع هذا الرجل حوله تدريجًا عددًا عظيمًا من تلاميذه الذين انتشلتهم تعاليمه من صفوف الكفر، وذاعت شهرته زعيمًا روحيًا، وجذب إلى مدينة أجمير جموعًا كبيرة من الهندوكيين الذين حثهم على اعتقاد الإسلام [٩٢]. وقد قيل إنه دخل في الإسلام، وهو في طريقه إلى أجمير ما يقرب من ٧٠٠ شخص من مدينة دلهي.

وكان وصول سيد جلال الدين إلى تلك البلاد ذا أهمية بالغة في تاريخ الإسلام في الهند. وقد قيل إنه ولد في بخارى سنة ١١٩٩م. وفي سنة ١٢٤٤، استقر هذا الداعي في أتس Uch، التي تقع الآن في أراضي بهاول پور [†]، وحول جموعًا من أهالي البلاد المجاورة إلى اْسلام. وتوفي في سنة ١٢٩١. وظل أعقابه الذين كان كثير منهم أولياء ينظر إليهم بعين الاحترام والإجلال، حفظة على ضريحه حتى الوقت الحاضر، واتخذوا من هذا المكان مركزًا لنفوذ ديني واسع النطاق. ويعتقد قوم أم جد هذا الولي، واسمه سيد أحمد كبير، ويعرف باسم مخدوم جهانيان، كان له أثر في تحويل قبائل كثيرة من أهالي البنجاب [٩٣].

---

(٩٢) Elliot, vol. ii. P. 548.

(†) هي ولاية إسلامية في البنجاب ينتمي حكامها إلى الخلفاء العباسيين.

(٩٣) Punjab States Gazetteers, vol. xxxvi A. Bahwalpur Statte. (Lahore, 1908), p. 160 sqq.
وفي ص ١٦٢ أسماء بعض القبائل التي تنسب تحولها إلى الإسلام إلى مخدومي جهانيان.

ويقع على بعد ميل من شرق أتش ضريح حسن كبير الدين بن سيد صدر الدين الذي كان معاصرًا لجلال الدين، وقد قيل إن كلا من الأب والابن قد ادخلا كثيرًا من الناس في الإسلام، وقد بلغ من النفوذ الذي نسب إلى حسن كبير الدين، أنه قيل إن أي هندي كان يعتقد الإسلام، بمجرد نظرة يلقيها عليه هذا الولي (٩٤).

وفي وقت متأخر كثيرًا في هذا القرن نفسه، وفد على الهند أحد أهالي العراق الفارسي، ويدعى أبا علي قَلَنْدر، واتخذ مقامه في باني پت (†) **Panipat**، حيث توفي وقد أكل المائة من عمره، وذلك في سنة ١٣٢٤م. وينتمي أفراد القبائل من مسلمي هذه المدينة، وكان عددهم حول ٣٠٠ من الذكور، إلى شخص يدعى أمير سنكه **Singh**، وكان قد تحول إلى الإسلام على يد هذا الولي. ولا يزال قبره مثابه تكريم وتشريف، يقصد إليه كثير من الحجاج.

ومن أمثال هذا الولي، رجل فارسي يقال له الشيخ جلال الدين، وكان قد قدم الهند حول النصف الأخير من القرن الرابع عشر واستقر في سلهت، في أسّهام السفلى، بقصد تحويل أهالي هذه الجهات إلى الإسلام. وقد نال شهرة واسعة كرجل مبارك، وتكللت أعماله في نشر تعاليم الدعوة بنجاح باهر (٩٥).

وفي سنوات أحدث من ذلك، نجد شواهد كثيرة تدلنا على أن الإسلام كان في طريقه إلى الانتشار في الهند، وفي نجاح عظيم جدًا. وقد دل النصف الثاني من القرن التاسع عشر بوجه خاص، على نهضة عظيمة في نشاط الدعوة، فأصبح عدد الذين كانوا يدخلون في الإسلام سنويًا يتفاوت بين عشرة آلاف، وخمسين ألفًا، ومائة ألف، وستمائة ألف (٩٦). على أنه من العسير أن نحصل على معلومات دقيقة عن وصف الطابع الفرد

---

(٩٤) Id. P. 171.

(†) مكان في الهند وقعت فيه ثلاث مواقع حاسمة، الموقعة الأولى هزم فيها بابر، إبراهيم لودهي في أبريل سنة ١٥٢١م، والموقعة الثانية هزم فيها جلال الدين محمد أكبر، هيمو البقال في سنة ١٥٥٦م، والموقعة الثالثة، وهي أشهرها هزم أحمد شاه الدراني شب مرهته الهندوكي سنة ١٧٦١م.

(٩٥) ابن بطوطة جـ٤ ص٢١٧ .Yule, p. 515

(٩٦) The Indian Evangelical Review, vol. xvi, pp. 52-3. (Cacutta, 1889-90.)

الخاص الذي يتميز به نشاط الدعوة الإسلامية، وعن عدم وجود أي نظام مستقى أو عن أي شيء يتعلق بأخبار الدعوة، وإن النجاح الذي لازم أعمال الدعاة المسلمين قد بولغ فيه أحيانًا إلى حد بعيد. فمثلًا قيل إن رجلًا في البنجاب يدعى حاجي مُحَمَّد قد أدخل ما يقرب من مائتي ألف هندوكيا في الإسلام (٩٧)، وإن أحد المولوية في بنكلور **Bangalore** قد افتخر بأنه حول إلى الإسلام ما يقرب من ألف شخص من أهالي تلك المدينة وضواحيها في مدى خمسة أعوام. ولكن الذي لا شك فيه أنه كان هناك دعاة مسلمون اشتغلوا بأعمال الدعوة، في نشاط وتوفيق، وتنطبق الأمثلة الآتية على هذه الفترة التي أشرنا إليها.

أدخل مولوي بقا حسين خان، وهو داعية متنقل في البلاد، ٢٢٨ شخصًا في الإسلام، في مدى سبع سنين، وكانوا يقيمون في بمباي، وكان بور، وأجمير، ومدن أخرى. وحول مولوي حسن علي ٢٥ شخصًا إلى الإسلام، اثنى عشر منهم من أهالي بونا، والباقي من حيدر وجهات أخرى من الهند (٩٨).

The Contemporary Review, February 1889. P. 170. The Sepctator, October 15, 1887, p. 1382.

(٩٧) Garcin de Tassy: **La Langue et la Littérature Hindoustanies de 1850 à 1969, p. 343, (Paris, 1874.)**(م-٣١)

(٩٨) أمدني مولوي حسن علي بهذه المعلومات قبل وفاته سنة ١٨٩٦ ببضع سنين. وفيما يلي نذكر وصفًا طريفًا لحياته، ورد في بعض ما نشرته مجلة **The Moslem Chronicle** (٤ أبريل سنة ١٨٩٦) في نعيه: "كان معروفًا في حياته الخاصة والتعليمية بأنه فتى ذكي مفرط الذكاء، أحرز تقدمًا كبيرًا في حياته العلمية في مدى وقت قصير. واجتاز امتحان الدخول في سن مبكرة جدًا، ومنح مكافأة دراسية ساعدته على نيل درجة البكالوريوس من الطبقة الأولى. ولكن لم يلبث أن دفعه طموحه الغريزي إلى البحث عن الحقيقة، إلى السفر إلى الخارج والتنقل في بلاد العالم، فترك دراسته، وعاشر الناس على اختلاف نزعاتهم؛ فعاشر فقراء الهنود، وفرقة البنديين والمسيحين، ودخل الكنائس، وجاي خلال الأدخال والأحراج والمدن دون أن يكون له ما يعينه إلا ما آماله وإخلاصه واعتماده المطلق على رحمة الإله الأعظم. وفي مدى سنة واحدة، تنقل في مختلف المناطق الدينية حتى قبل في سنة ١٨٧٤ وظيفة ناظر في إحدى مدارس باتنا. ولما كان استعداد الفطري يؤهله لأن يكون داعيًا إلى العقيدة الإسلامية، أحسن بحنين خفي يدفعه إلى ترك منصبه الذي كان يتقاضى منه مائة روبية شهريًا. فقدم استقالته، على كره من أصدقائه، وظل وقتًا يصدر جريدة شهرية "نور الإسلام" وألقى محاضرات كثيرة في الإسلام في باتنا، ثم رحل إلى كلكتا حيث ألقى محاضرته باللغة الإنجليزية، وقد بلغ من تأثيرها بالكثير أن يدخل في الإسلام. وقد دعاه أهالي دهاكة لزيارتهم، وهناك خلدت مواعظه وحاضراته اسمه في قلوب المواطنين، وقد جعلت مؤلفاته، ورسائله، ومحاضراته المتوالية باللغتين الأردية والإنجليزية، في مختلف المدن والبلدان في الهند، له اسمًا تاريخيًا في العالم. وقد أصبح مائة رجل مسلمين عند ما استمعوا إلى محاضراته وقرأوا كتبه، وتجلت حماسته

وفي مقاطعة خندش، في مقر حكومة بمباي، ظفرت دعوة قاضي ناصر أباد، وهو سيد سفدر علي، بدخول جمع كبير من الصناع في الإسلام، وهم الذين زاولوا صناعة الحدادين أو القيون [٩٨]. وحول سنة ١٨٧٠ تحول عدد من الأشخاص الذين كانوا يحترفون هذه الصناعة نفسها، وكانوا يؤلفون زمرة قليلة يبلغ عددها نحو ٢٠٠ شخص في مقاطعة ناسك، إلى الإسلام بطريقة عجيبة. وكان المبشرون المشيخيون [§] في ناسك يحاولون منذ وقت طويل تحويل أهالي ناسك عن العقائد الهندوكية. وبينما كان هؤلاء الأهالي مترددين بين اعتقاد المسيحية ورفضها، إذا بأحد فقراء المسلمين من بمباي، وكان ملمًا حسن الإلمام بعادات تفكيرهم، يشرح لهم مبادئ الإسلام، ويفلح في جذبهم إلى هذا الدين [٩٩].

وكان في پاتياله [†]، مولوي عبيد الله، وهو أحد الذين دخلوا في الإسلام من البراهمة، وكان على جانب عظيم من الثقافة، وقد برهن على أنه داعية غيور على الإسلام. وعلى الرغم مما وضعه أقرباؤه في طريقه أول الأمر من عقبات، أحرز نجاحًا بلغ من عظمه أن الذين دخلوا في الإسلام على يديه، كادوا يملئون حيًا بأكمله من أحياء المدينة. وقد كتب في الجدل مؤلفات، طبعت طبعات كثيرة، كانت موجهة إلى الديانتين المسيحية والهندوكية. وفي أحد هذه المؤلفات، يتحدث عن تحوله هو إلى الإسلام، بقوله: «أنا، مُحَمَّد عبيد الله، بن منشي قُطامل، ساكن پيال Payal في ولاية بتاليه، أعلن أن هذا العبد الفقير، كان في طفولته وفي أثناء حياة والده، أسير عبادة الأوثان، ولكن رحمة الله انتشلتني بيدها، وجذبتني إلى الإسلام. من ذلك أني انتهيت إلى معرفة مزية الإسلام ونقائص الهندوكية، فرضيت الإسلام دينًا بقلبي وروحي، وعددت نفسي خادمًا لرسول الله

في نشر الدعوة حتى آخر لحظة من حياته، حين سمعه بعض الناس خلسة وهو يقول على فراش الموت: "اترك دينك وصر مسلمًا" فلما سئل في ذلك قال إنه يتحدث إلى أحد المسيحيين.

[٩٨] Bombay Gazetteer, vol. xii. P. 126.

[§] نسبة إلى مشيخة الكنيسة.

[٩٩] Id. Vol. xvi, p. 81.

[†] اسم ولاية هندية يسكنها السيخ.

عليه السلام. وفي ذلك الوقت هدتني الفطنة، التي هي هبة الله إلى أنه من فرط الحماقة والغباوة أن يتبع المرء عادات أجداده اتباعًا أعمى، فيضل بها، وألا يتأمل ويبحث في مسائل الدين والعقيدة، التي عليها تعتمد سعادتنا الأبدية أو شقاوتنا.

وبهذه الأفكار أخذت في دراسة العقائد السائرة، وبحثت كلا منها غير متحيز ولا محاب؛ فعرفت الهندوكية معرفة تامة، وتباحثت مع البنديت المتعلمين، وحصلت على معرفة تامة بالدين المسيحي، وقرأت كتب الإسلام وتباحثت مع علماء المسلمين، ووجدت في جميعها أخطاء وأباطيل، إلا الإسلام الذي تجلت لي مزيته جلاء بينا. ولزعيم هذا الدين، النبي مُحَمَّد، من المزايا المعنوية، ما يعجز اللسان عن وصفه، وهو بمفرده الذي يعرف أصول هذا الدين وقواعده، وتعاليمه الخلقية، وشعائره، كما يدركها إدراكًا تامًا. والحمد لله إن هذا الدين قد بلغ من السمو أن كل شيء فيه يهدي الروح إلى الله. وبالجملة أصبح التمييز بين الحق والباطل، بفضل الله، متجليًا عندي الليل والنهار والظلمة والنور. ولكن مع أن قلبي قد استنار مدة طويلة، بنور الإسلام وفمي قد تعطر بالإذعان للعقيدة، كانت هواجس الشر والشيطان تكبلني بأغلال من بهجة هذه الحياة الفانية ودعتها، وكنت حالة سيئة، بسبب الشعائر الظاهرية الخاصة بعبادة الأوثان. عندئذ نبهتني رعاية الله أخيرًا «إلى متى تحتفظ بهذه الجوهرة التي لا تقدر بثمن، كامنة في صدفتها، وهذا الأريج المنعش مغلقًا في علبته؛ يجب أن تقلد عنقك هذه الجوهرة، وأن تنتفع بهذا الأريج».

هذا إلى أن العلماء قد جهروا بأن من يكتم عقيدته في الإسلام، ويبقى على زي الكفار وعاداتهم، فإن مثواهم جهنم. لهذا ولله الحمد، بزغت شمس دخولي في الإسلام يوم عيد الفطر من سنة ١٢٦٤م من أستار سحائبها، وأديت عباداتي جهارًا مع إخواني المسلمين [١٠٠]».

وقد اتخذ كثير من دعاة المسلمين وسائل المبشرين المسيحيين، من ذلك الوعظ في

---

(١٠٠) تحفة الهند ص ٣ (دلهي ١٣٠٩ هـ).

الطرقات، وتوزيع المنشورات، وغير ذلك من الوسائل. وفي كثير من المدن الكبرى في الهند، قد يوجد دعاة المسلمين يوميًا يشرحون تعاليم الإسلام في بعض الطرقات العامة الرئيسية. ونجد هذه العادة شائعة جدًا في بنكلور، وقد بلغ من محبة الشعب لأحد هؤلاء الدعاة، وكان إمامًا المسجد حول سنة ١٨٩٠، أن الهندوكيين أنفسهم كانوا يدعونه أحيانًا ليلقي عليهم عظاته. وكان يدعو إلى الإسلام في الأسواق، وفي مدى سبع سنوات أو ثمان، ظفر باثنتين وأربعين دخلوا في هذا الدين.

وفي بمباي، يدعو أحد الدعاة المسلمين إلى الإسلام، كل يوم تقريبًا، على مقربة من السوق الرئيسية للمدينة، وفي كلكتا توجد مراكز كثيرة للدعوة إلى الإسلام، معدة على الدوام لهذا الغرض. وقد نجد بين الذين دخلوا في الإسلام من حين لآخر، بعض الأوروبيين، ومعظمهم ممن اضطرتهم الظروف إلى الفقر والإعواز. على أن جمهور الداخلين في الإسلام من الهندوكيين [١٠١]. ونجد بعض الجمعيات الكثيرة التي نشأت في السنين الأخيرة، في مراكز الحياة الإسلامية الرئيسية في الهند، تجعل من بين أهدافها إرسال الدعاة للدعوة إلى الإسلام في الأسواق. ومن أمثال هذه الجمعيات أنجو مان حمايت إسلام بلاهور، وأنجومان حامي الإسلام بأجمير. وهذه الأنجومان بوجه خاص، تعين دعاة يتقاضون رواتب كفاء قيامهم بهذا العمل. ولكن كثيرًا جدًا من أعمال الدعوة في الأسواق، إنما يقوم بها أشخاص يشتغلون في مهنة أو عمل ما في أثناء ساعات النهار، ويخصصون أوقات فراغهم في المساء لهذا العمل الديني.

ويتجه كثير من الحماسة في الدعوة عن مسلمي الهنود إلى مناهضة ما يقف في سبيل الإسلام من الاتجاهات التعليمية التي ينزع إليها المبشرون المسيحيون ودعاة آرية سماج Arya Samȧj، ومن ثم كانت الجهود التي بذلت في هذه السبيل جهودًا دفاعية، أكثر من أن تكون متصلة اتصالًا مباشرًا بنشر تعاليم الدعوة. كذلك يصرف بعض الدعاة عنايتهم، بوجه خاص، إلى تدعيم الأساس الذي وضع من قبل، ومحاولة تخليص إخوانهم

---

(١٠١) The Indian Evangelical Review, 1884, p. 128. Garcin de Tassy: La Langue et la littérature Hindoustanies de 1850 à 1869, p. 485. (Paris, 1874.) Garcin de Tassy: La Langue et la littérature Hindoustanies EN 1817, P. 12, (Paris, 1872.)

في الدين من الجهال من خرافاتهم الهندوكية القديمة، وبث صورة من العقيدة، أنقى في نفوسهم. وإن أمثال هذه الجهود، ليست في كثير من الأحيان إلا استمرارًا لذلك النشاط القديم في الدعوة، وفي الحق أن ما قام به الدعاة في سبيل إدخال الناس في الإسلام كان أغلب الأحيان عملًا ناقصًا مبتورًا. ويمكن أن يقال عن كثير من الذين تحولوا إلى الإسلام تحولًا اسميًا أنهم أشباه هندوكيين؛ فهم يراعون نظم عشائرهم القديمة، ويشاركون في الأعياد الهندوكية، ويقيمون كثيرًا من الشعائر الوثنية.

كذلك في بعض المقاطعات، في ميوات **Mewàt** وكركاون **Gurgaon** مثلًا، قد نجد جماعات كبيرة من المسلمين لا يعرفون من ديانتهم إلا اسمها، وليس لديهم مساجد، ولا يراعون أوقات الصلاة. وهذه هي الحالة، بوجه خاص، بين مسلمي القرى أو في الجهات التي يسكن فيها الأهلون بعيدًا عن جمهور المؤمنين. أما في المدن، فإن وجود علماء الدين يساعد إلى حد كبير، على مناهضة تأثير العقائد القديمة، ويعمل على تكوين صورة من الحياة الدينية، أكثر نقاء وأشد إدراكًا من الحياة السابقة. على أنه في السنين الأخيرة يمكن أن يقال بوجه عام، أن هناك حركة تستحق الذكر، قامت لمسلمي الهنود، ترمي إلى أن يأخذوا أنفسهم بحياة دينية، أشد تمسكًا بشرائع الإسلام، كذلك كان لمدارس التبشير المسيحي أثر كبير جدًا في حث بعض مسلمي الجيل الذي تلا ذلك الجيل على دراسة ديانتهم، وفي إثارة يقظة في الحماسة الدينية. وفي الحق، أن انتشار التعليم، بوجه عام، قد أدى إلى تمثل المبادئ الدينية، تمثل أكثر إدراكًا. وإلى زيادة عدد المعلمين الدينيين في المقاطعات المجاورة التي أهمل شأنها إلى الآن. وأيا كان منشأ حركة الدعوة الإصلاحية هذه، فإن من الممكن أن نلحظ قيام هذه الحركة في جهات مختلفة جدًا من بلاد الهند.

ففي مقاطعات البنجاب الشرقية – مثلًا – قامت نهضة دينية عظيمة بعد إعلان العصيان والثورة. ويتنقل الدعاة في طول البلاد وعرضها، يدعون المؤمنين إلى نبذ شعائرهم الوثنية، ويبسطون لهم مبادئ العقيدة الخالصة. وكان من أثر ذلك أن بنيت الآن مساجد في معظم القرى التي يمتلك فيها المسلمون أي نصيب لا يستهان به، على حين أن الأهالي

أخذوا يكفون الآن عن إقامة العبادات الوثنية التي كانت أكبر مظهرًا وأكثر علانية (١٠٢).

وكذلك في راچپوتانه، نجد القبائل الهندوكية التي كانت تدخل في الإسلام من حين إلى حين في المناطق الريفية، تصبح الآن أكثر محافظة على أصول الإسلام، وأشد مواظبة على إقامة شعائرهم الدينية، وتنبذ العادات القديمة، التي كانت حتى ذلك الحين تشارك جيرانها الوثنيين في المحافظة عليها. فقبيلة ميرات **Merats** مثلًا، تتبع الآن الطريقة الإسلامية في الزواج، بدلًا من النظم الهندوكية، التي كانوا يتبعونها من قبل. كما أنهم نبذوا أكل لحم الخنزير (١٠٣). وفي البنغال نهضة مماثلة تحدثنا عنها من قبل.

ولكن مثل هذه الحركات وجهود الدعاة الفردية، لا تكفي مطلقًا لشرح سرعة ازدياد عدد مسلمي الهند. وكان طبعيًا أن يؤدي ذلك إلى أن يتحرى المرء الأسباب الأخرى، أكثر من أن يتحرى الزيادة العادية في عدد السكان (١٠٤)، تلك الأسباب التي ساعدت على زيادة عدد هؤلاء السكان زيادة هائلة. وإنا نجد الجواب في أحوال الحياة الاجتماعية عند الهندوكيين. وإن الإهانات والاحتقار الذي انصب على الطبقات المنحطة من الهندوكيين على أيدي إخوانهم في الدين. والعراقيل التي لا يمكن التغلب عليها، والتي وضعت في سبيل أي فريق من هذه الطبقات يرغب في تحسين حالته، ليوضح لنا في هذه المفارقة العجيبة فوائد النظام الديني الذي لا يفرق بين منبوذ وغير منبوذ، والذي يهيئ مجالًا حرًا للتمتع بأي مطمح. ففي البنغال مثلًا، يعتقد الإسلام هؤلاء الذين يقومون بنسج القطن، والذين ينظر إليهم أخواتهم في الدين من الهندوكيين كما ينظر المرء من السفلة والطغام، في جماعات كبيرة ليتخلصوا من المركز الوضيع الذي انحدروا إليه (١٠٥)

وهنالك مثل واضح جدًا عن نوع مماثل في تاريخ الجزء الشمالي الشرقي لهذا

---

(١٠٢) **Ibbeston, p. 184.**

(١٠٣) **The Rajputana Gazetteer, vol. i. p. 90; vol. ii. P. 47. (Calvutta, 1879.)**

The Census of India, 1901. Vol. vi. P. 172.

(١٠٤) الوقوف على الأسباب التي كان لها أثر في زيادة عدد المسلمين راجع:

The Census of India, 1901. Vol. vi p. 172.

(١٠٥) **E. T. Dalton. P. 324.**

الإقليم نفسه فهنا في سنة ١٥٥٠ أسست قبيلة كوجه **Kocch** الأصلية أسرة بزعامة رئيسهم العظيم «حاچو» **Haju**. وفي عهد حفيده، لما وجد السواد الأعظم. من الناس الطبقات العالية تدخل في حوزة الهندوكية (١٠٦)، وألفى جمهور الشعب نفسه محتقرًا كالمنبوذين، دخلوا في الدين الإسلامي (١٠٧).

وإن الخلاص الذي يقدمه الإسلام إلى الهندوكيين من ظلم الطبقات العليا، ليتضح بصورة عجيبة في إقليم تناولي **Tinnevelli** في نهاية القرن التاسع عشر. فإن طائفة منحطة جدًا، وهي طائفة الشنار **Shanara**، قد أصبحت في السنين الأخيرة في رغد من العيش، وبنى كثير من أفرادها دورًا جميلة. وادعوا أن من حقهم أن يتعبدوا في معابدهم التي كانوا قد أقصوا عنها إلى ذلك الحين. وتبع ذلك قيام هياج قاسي منه الشنار كثيرًا على أيدي الهندوكيين الذين ينتمون إلى طبقة أعلى، ولجئوا إلى حظيرة الإسلام. وقد دخل ستمائة من الشنار في قرية واحدة في الإسلام، ولم يلبث أن اقتفى الناس أثرهم في أماكن أخرى (١٠٨).

ونستطيع أن نأتي بأمثلة كثيرة متشابهة من جهات أخرى في الهند، فإن الهندوكي الذي نبذته طبقته بطريقة ما، وطردته تبعًا لذلك أسرته وجماعته التي اعتاد أن يتنقل بينها، كان طبعيًا أن ينجذب نحو دين يقبل جميع الناس من غير تمييز، وأن يبوئه المجتمع منزلة تماثل في المستوى الاجتماعي، تلك المنزلة التي كان قد أقصى عنها. وإن مثل هذا التحول كان يقترن في العادة بإيمان صادق بهذا الدين وعقائده. ولكن الرجال، الذين ربما كانوا لا يكترثون مطلقًا لعدد الآلهة أو أسمائهم، تلك الآلهة التي دعوا لعبادتها، قد يحسون إحساسًا جديًا بحرمانهم وطردهم من الهيئة الاجتماعية، وما نتج عن ذلك من ضياع حقوقهم في طبقتهم. ويصبحون مسلمين من غير أن يكون لهم شعور ديني. ولا بد أن يكون تأثير دراسة الأدب الإسلامي، واتصالهم بحكم العادة بالهيئة الاجتماعية الإسلامية، قد جعل الهنود يحسون ذلك التأثير بطريقة لم يشعروا بها. ففي راجبوتانه وبنديل كِهَند

---

(١٠٦) الوقوف على إدخال القبائل الأصلية في الهندوكية راجع:

Sir Alfred Lyall: Asiatic Studies, pp. 102-4.

(١٠٧) **E. T. Dalton, p. 89.**

(١٠٨) **The Missionary Review of the World, N. S. vol. xiii, pp. 72-3. (New York, 1900.)**

Bundelkhand، كانت أمثال هذه النزاعات التي تجنح إلى الإسلام ظاهرة في القرن التاسع عشر، بين أمراء راجه بوت (١٠٩) ولو أن إمبراطورية المغول بقيت، لكان من المحتمل أن تؤدي هذه النزاعات إلى تحول هؤلاء الأمراء نهائيًا إلى الإسلام.

فإنهم لم يقتصروا على احترام أولياء المسلمين، بل عهدوا في تعليم أبنائهم إلى معلمين من المسلمين، وذبحوا الحيوانات وفق الشريعة الإسلامية، واشتركوا في الأعياد الإسلامية وهم يرتدون زي الفقراء، وصلوا كما يصلي المسلمون المتمسكون بدينهم. هذا من جهة، ومن جهة أخرى زعم بعض أن الأحوال الحاضرة تجعل ازدياد تحول الهندوكيين إلى الإسلام أمرًا أكثر احتمالًا في عهد حكومة بعيدة كل البعد عن التحيز والمحاباة في المسائل الدينية، بخلاف ما كانت عليه الحال في ظل الممالك الإسلامية، حين ظفر الهندوكيين بتوحيد كلتهم وزيادة قوتهم من جراء النزاع المستمر مع هؤلاء الأعداء المهاجمين (١١٠).

كذلك كان الهندوكيون يذهبون زرافات ووحدانًا لزيارة أضرحة الأولياء، في يوم إحياء ذكراهم. وكان الرجل الذي لم ينجب أطفالًا، يقدم أكف الضراعة إلى إله المسلمين، مدفوعًا بذلك الشعور الذي يدفع المشرك بأن لا يدع إلهًا من غير أن يلقي إليه بالمودة ويتقدم بالدعاء، فإذا ما استجيب دعاء أحدهم وقضيت حاجته، وأنجب ولدًا، بر قسمته ودخل جميع أفراد الأسرة في مثل هذه الحالة (والأمثلة على ذلك كثيرة) في الإسلام (١١١).

---

(١٠٩) يتحدث سير ألفرد ليال (Asiatic Studies, p. 29) عن الميل الظاهر إزاء عقيدة الإسلام الذي كان يظهره بعض الزعماء الهندوكيين من حين إلى حين.

(١١٠) Gazetteer of the Province of Oudh. Vol. i. p. xix.

(١١١) ولنأتي بمثل واحد فقطز ففي غاتمبور Ghàtampur في مقاطعة كان فور، نجد أحد فروع أسرة كبيرة يدين الإسلام استجابة لقسم جدهم غانم ديوبيتز Ghàtam Deo Baia. فإنه قد نذر، لما كان يدعو الله في ضريح أحد أولياء المسلمين، وهو مدار شاه، أنه إذا استجيب دعاؤه، أن تنشأ نصف سلالته تنشئة إسلامية. وكانت عبادة أولياء المسلمين شائعة جدًا بين بعض أفراد الطبقة السفلى من الهندوكيين، حتى إن ٢,٢٣٣,٦٤٣ هندوكيا (أو ٥,٧٨% من مجموع سكان المقاطعات) قد أثبتوا في تذاكر التعداد الذي أجرى في سنة ١٨٩١ في الولايات الشمالية الغربية وفي أوده Oudh وحدها، أنهم من عباد أولياء المسلمين.

(Census of Indai, 1891, vol. xvi. Part. i. pp. 217, 244) (Aldahabad, 1894.)
Gazetteer of the N.W.P. vol. xi. Pp. 64. 239.)

وقد يكون حب المرأة المسلمة سببًا في تحول الهندوكي إلى الإسلام، إذ أن الشريعة الإسلامية تحرم تحريمًا قاطعًا زواج المرأة المسلمة من الكافر. وإذا تبنّى المسلمون أطفالًا هندوكيين، تربوا على دين آبائهم الجدد. كما أن المرأة الهندوكية التي تتزوج ممن يتبع دين النبي، تعتقد في الغالب ديانة زوجها (١١٢). ولما كان من النادر أن يحدث العكس، استلزم ذلك زيادة عدد المسلمين بنسبة زيادة عدد الهندوكيين. وكان الهندوكيون، الذين طردوا من طبقاتهم لسبب ما، والفقراء الذين أصبحوا يعيشون على صداقات المسلمين، أمثال هذه الحالات في أوقات القحط ـ كل ذلك يكون مجرى مستمرًا، ولو أنه صغير، يزيد في عدد الذين تحولوا إلى الإسلام من الهندوكيين (١١٣).

وطالما كانت هناك أحوال محلية تتناسب مع نمو الإسلام. مثال ذلك ما أشرنا إليه من قبل (١١٤) من أن أي نمو في سيادة المسلمين كان في قرى تيري **Terai** التي اتفق أن تساوى فيها عدد الهندوكيين وعدد المسلمين، وأن ذلك النمو كان يتبعه دائمًا قيام المنازعات حول ذبح البقر وغيره من الشعائر التي تسوء شعور الهندوكيين. وكان الهندوكيون يرحلون من القرية تدريجًا، غير تاركين وراء عقيدتهم إلا حراثي الأرض من الشمار في خدمة زراع المسلمين، وينتهي الأمر بهؤلاء إلى اعتقاد دين أسيادهم. ولم يكن ذلك منبعثًا من أي إيمان بصدقه، وإنما كان ذلك راجعًا إلى ما تجره عزلتهم عن إخوانهم في الدين من متاعب.

وكذلك نجد بعض الأمثلة البارزة لتحول الناس إلى الإسلام بين الطبقات الدنيا من الهندوكيين في المراكز الزراعية في أوده **Oudh**. ومع ان المسلمين في هذه المقاطعة يؤلفون عشر جميع السكان فقط، لا تزال الجماعات الصغيرة من حراث المسلمين يكونون «مراكز مبعثرة للثورة على الظلم الشائن الذي أسلم دينهم إليه هذه الطبقات الدنيا

---

(١١٢) وقد وردت أمثلة لمثل هذا التحول في
Census of Indai, 1901, Vol vi. Bengal, part. 1, Appendix ii.

(١١٣) **Report on the Census of the N.W.P. ans Oudh, 1881, by Edward White, p. 62. (Allhabad, 1882.)**

(١١٤) **Ibid. p. 63.**

بصورة تبعث على اليأس والقنوط» [١١٥].

وإن المزايا التي يقدمها الإسلام لأمثال هذه الطبقات، كطبقتي الكوري Koris والجمار Chmàrs اللتين بقيتا في أحط درجات المجتمع الهندوكي، والخلاص الذي نالوه عن طريق تحولهم إلى الإسلام، قد يفهم على أحسن وجه من هذه العبارة التي تصف حالتهم الاجتماعية باعتبارهم هندوكيين [١١٦]. «لقد بلغ الكوري والجمار، الذين يقومون بأعمال النسج وقطع الجلود لسائر مواطنيهم، أحط درجات البؤس والانحلال. ففي الولايات الشمالية نجد أكثر هؤلاء في الواقع أرقاء مستعبدين، ليس من السهل مطلقًا أن تتهيأ نفوسهم للإفادة من العلاج الذي تقدمه دور القضاء عندنا، ويهبطون مع أطفالهم جيلًا بعد جيل كما تهبط قيمة السلعة القديمة، وهم يمسكون المحراث البرهمي أو الشّتْري [§]، الذي تحرم عليه كبرياء طبقته أن يمسه، ويعيشون مع الخنازير التي لا تقل قذارة عنهم في أحياء منعزلة بعيدة عن سائر سكان القرية.

ولما كانوا دائمًا يوشكون أن يموتوا جوعًا، فإن أشكالهم الهزيلة السوداء، ذات التقاطيع غير المتجانسة، ووجوههم التي تعلن بغباوتهم، وعاداتهم القبيحة التي تبعث على الاشمئزاز، لتصور حظهم العاثر الذي حكم عليهم بأن يكونوا أحط شأنًا من الحيوان الذي يعيش بين الرجال الذين ينتمون إلى طبقتهم الاجتماعية. ومع ذلك فإن حالة خدام الاسطبلات النشيطين، الذين يختارون من بين هؤلاء، والذين يحصلون على أجور طيبة، ويعيشون عيشة حسنة في كنف سادة من الأوروبيين، لتدل على أنهم بعيدون عن أن تكون حالتهم عاجزة عن التحسن. وأن تغيير الدين هو الطريق الوحيد الممهد أمامهم للخلاص؛ وليس ثمة ما يدعو لأن يكونوا مخلصين لعقيدتهم الدينية التي كانوا يدينون بها».

---

(١١٥) Gazetteer of the Province of Oudh. Vol. i. p. xix.

(١١٦) Gazetteer of the Province of Oudh. Vol. i. pp. xxiii-xxiv..

(§) ينقسم سكان الهند إلى خمس طبقات: البراهمة وهم طبقة العلماء ورجال الدين؛ والشتري وهم الجند؛ ويس أو يس، وهم التجار ورجال الأعمال؛ وشودر، وهم الطبقة الدنيا؛ وجندال، وهم لا يفترقون عن الحيوانات. ولا يختلط بعض أفراد هذه الطبقات ببعض بحال من الأحوال.

وإن عدم وجود التعصب الطائفي، ليكون القوة الحقيقية للإسلام في الهند، ويمكن له من أن يجذب إليه عددًا كبيرًا جدًا من الهندوكية.

ولكي نتم ما رسمناه من الكلام على الإسلام في الهند، لا يزال لدينا بعض أخبار نوردها عن انتشار هذا الدين في قشمير، ومنها وراء حدود الهند إلى بلاد التبت. ومن بين جميع المقاطعات والولايات في الهند (بخلاف بلاد السند). تشتمل قشمير على أكبر عدد من المسلمين (أي بنسبة ٧٠%) بالنسبة إلى جميع السكان. بيد أن الحقائق التاريخية التي تفسر وجود عدد كبير جدًا من المسلمين في هذه الولاية، والتي ترجع كلها تقريبًا إلى أصل تبتي أو هندي، قليلة جدًا لسوء الحظ.

ولكن جميع الشواهد تهدينا إلى أن نعزو هذه الحقائق بوجه عام إلى حركة الدعاية المتصلة التي بدأها وقام على تنفيذها الفقراء والدراويش، وكان من بينهم بعض دعاة الإسماعيلية الذين أرسلوا من قلعة ألموت [١١٧]. [§]

ومن الصعب أن نقول متى بدأ التأثير الذي صبغ البلاد بصبغة إسلامية لأول مرة. وقد قيل إن أول ملوك قشمير من المسلمين، وهو صدر الدين [١١٨]، يدين بدخوله في الإسلام إلى أحد الدراويش، ويسمي بليل شاه، وذلك في مستهل القَرن الرابع عشر الميلادي. وكان هذا الولي هو المعلم الديني الوحيد الذي استطاع أن يحقق أمنيته في الوصول إلى حقيقة الدين، وذلك عندما تطلع إلى نوع من العقائد يكون أكثر قبولًا لديه من عقيدته الهندوكية، التي لم يكن راضيًا عنها مقتنعًا بها.

نهاية هذا القرن نفسه (١٣٨٨م) لقي تقدم الإسلام أعظم رواج بقدوم سيد علي الهمذاني أحد الفارين من مدينة همذان مسقط رأسه في فارس، حيث كان قد أثار سخط تيمور. وقد صحبه سبعمائة سيد، وأسسوا أماكن للتنسك في جميع أرجاء البلاد، ويظهر أنه كان من تأثيرهم أن تحقق قبول الناس لهذا الدين الجديد. على أنه يظهر أن قدومهم قد

---

(١١٧) Khojà Vrttànt, p. 141

(§) أسسها الحسن الصباح على مقربة من بحر قزوين في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي).

(١١٨) وتقول رواية أخرى إن اسمه شمس الدين. راجع محمد حيدر ٤٣٣ (هامش رقم٢).

أثار كذلك روحًا قويًا من التعصب الديني، إذ أن السلطان سكندر **Sikandar** (١٣٩٣–١٤١٧م) نال اسم بت شكن **Batshikan** لتخريبه الأصنام والمعاهد الهندوكية، وقام وزيره الأول، وكان هندوكيًا قد تحول إلى الإسلام، باضطهاد عنيف في وجه منتحلي القديمة، ولكن بعد وفاته أصبح التسامح الديني قاعدة جرت عليها المملكة [١١٩].

وحول نهاية القرن الخامس عشر قدم من بلاد العراق أحد دعاة المذهب الشيعي، ويسمى مير شمس الدين، واستطاع بمعونة تلاميذه ومريديه أن يظفر بعدد كبير من الذين دخلوا في الإسلام في قشمير.

ولما أصبحت قشمير في عهد أكبر إحدى ولايات إمبراطورة المغول، قوي النفوذ الإسلامي بطبيعة الحال، وقدم كثير من رجال العلم إلى هذه البلاد. وفي عهد أورنج زيب، تحول راجا جاكشتوار، أحد رؤساء راجه بوت إلى الإسلام بفضل الكرامات التي أظهرها شخص يدعى سيد شاه فريد الدين. ويظهر أن تحوله إلى الإسلام قد تبعه دخول السواد الأعظم من رعاياه في هذا الدين. ولا نزال نرى على طول الطريق التي أحرز فيها أباطرة المغول نجاحًا في فتوحهم في بلاد قشمير راجوات من ذراري الراجه بوت من المسلمين[١].

وإلى شمال قشمير والشمال الشرقي منها، نرى خليطًا من جنس التبت يقطنون ولايتي بلتستان **Baltistan** ولداخ **Ladakh**، وقد استقر الإسلام بينهم قرونًا عدة، ولكن تاريخ دخوله في هذه البلاد والطريقة التي دخل بها غير معروفة لدينا. ويروي مسلمو بلتستان قصة أخوة أربعة قدموا من خراسان، ونهضوا بالدين، بيد أنه يظهر أنه ليس هناك رواية تتعلق بأقدم الدعاة إلى الإسلام في هذه البلاد[٢]. ويظهر أن الإسلام كان حتى منتصف القرن التاسع عشر يحرز تقدمًا، ولكن التشجيع الذي قدمه مهراجه رنبير سنكهه **Maharaja Ranbir Singh** لأتباع الديانة البوذية قد وقف في سبيل هذا الاتجاه.

---

(١١٩) **Frishtah, vol. iv. Pp. 464, 460.**

(١) **F. Drew: The Jummoo and Kashmir Territories. Pp. 58, 155. (London, 1875)**

(٢) **Drew, op. cit. p. 359.**

وفي لداخ عدد من مولدي الطبقات يطلق عليهم اسم أرغونيون Arghons[١]، من أمهات تبتيات وآباه مسلمين، من التجار الذين قدموا إلى ليه Leh وحثوا نساء التبت اللاتي تزوجوا منهن على قبول الإسلام. وهؤلاء الأرغونيون مسلمون جميعًا؛ وهم، كآبائهم يتزوجون من نساء التبيت. ويقال إن عددهم يزداد بسرعة أكثر من العنصر التبتي الخالص[٢]. كذلك نقل تجار قشمير الإسلام إلى بلاد التبت الأصلية، ونجد أمثال هؤلاء التجار يستوطنون جميع المدن الرئيسة في التبت، ويتزوجون من نساء تبتيات، وكن في الغالب يعتقدن دين أزواجهن.

ويقال الآن أن هناك عددًا كبيرًا يبلغ ألفي أسرة مسلمة في لهاسه Lhasa[٣]. وكذلك شق الإسلام طريقة من التبت من إمارة يونان[٤]، وفي سو – جنك Su-ching على حدود ولاية زي– شوان Sze-chwan والتبت، دخل في الإسلام فريق من بين سكان بلاد التبت[٥]. ويقال أيضًا إن المؤثرات الإسلامية قد أتت من فارس[٦]، ومن تركستان[٧].

---

(١) انظر ما ورد عن هذه الكلمة في .Yule: Marco-Polo, Vol. i. p. 290

(٢) Ahmad Shah: Four Years in Tibet, pp. 45, 74 (Benares, 1906)

(٣) .Broomhall, p. 206 وقد أذاع تو ون سو Tu Wen-Siu، زعيم ثورة بانتهي Panthey من سنة ١٨٥٦ إلى سنة ١٨٧٣، وكان السلطان الفعلي على نصف ولاية يونان Yunnan ست عشرة سنة، منشورًا في لهاسة نفسها في بداية هذه الثورة ليكتسب إمدادات من المسلمين (Id. P. 132).

(٤) Mission d,Ollone, pp. 207, 226, 233.

(٥) Broomhall, p. 206.

(٦) A. Bastian: Die Geschichte der Indo-chinen, p. 159. (Leipzig, 1866.)

(٧) R. du M. M., tome I, p. 275 (1907)

الباب العاشر

انتشار الإسلام في الصين

روي عن النبي ﷺ أنه قال: "اطلبوا العلم ولو في الصين"[١]. ومع أنه ليس ثمة شاهد تاريخي يدل على أن هذا الكلام قد جاء على لسان الرسول، فليس من المستحيل أن يكون الرسول قد عرف اسم هذه البلاد، وذلك لأن الصلات التجارية بين بلاد العرب والصين كانت قد توطدت قبل مولده بزمن طويل. فكانت حاصلات الشرق التي تتلقاها بلاد الشام وموانئ البحر الأبيض، تمر بنسبة هائلة عن طريق بلاد العرب. وفي القرن السادس الميلادي كانت بين الصين وبلاد العرب تجارة مهمة عن طريق سيلان. وفي بداية القرن السابع كانت التجارة بين الصين وبين فارس وبلاد العرب لاتزال واسعة الانتشار، حيث كانت مدينة سيراف، الواقعة على الخليج الفارسي، هي السوق الرئيسة للتجار الصينيين. وقد ورد ذكر العرب لأول مرة في التواريخ[٢] الصينية في ذلك الوقت الذي ابتدأ فيه حكم دولة تانج T'ang (٦١٨ – ٩٠٧م)؛ وتشير هذه التواريخ إلى نشأة القوة الإسلامية في مدينا، كما تتحدث بإيجاز عن التعاليم الدينية للعقيدة الجديدة.

أما تاريخ كوانجتنج Kwangtung فيذكر قدوم أول من جاء من المسلمين إلى الصين على النحو الآتي: "في عهد دولة تانج T'ang وفد على كنتن Canton عدد كبير من الغرباء من مملكة أنَّام Annam وكمبوديا Cambodia ومدينا وبعض بلاد أخرى. وكان هؤلاء الغرباء يعبدون الله، وليس لهم في معابدهم تمثال ولا صنم ولا صورة. وكانت مملكة مدينا قريبة من مملكة الهند، وفيها نشأت ديانة هؤلاء الغرباء لتي تختلف عن ديانة بوذا. وكانوا لا يطعمون لحم الخنزير ولا يشربون الخمر، ويعتبرون الذبائح التي لا يذبحونها

(١) كنز العمال المجلد الخامس ص٢٠٢.

(٢) Bretschneider (2), p. 6.

بأيديهم طعامًا نجسًا. ويطلق عليهم الآن اسم هوى هوى Hui Hui[1]... ولما استأذنوا الإمبراطور وحصلوا منه على إذن بالإقامة في كنتن، بنوا دورًا جميلة من طراز يختلف عن ذلك الذي كان في بلادنا. وكانت لهم ثروة عظيمة ودانوا بالطاعة لرئيس انتخبوه بأنفسهم[2]، ومن المحتمل جدًا، على الرغم من قلة الشواهد التاريخية الصريحة[3]، أن الإسلام دخل الصين أول ما دخل مع التجار الذين كانوا يسلكون الطريق البحري القديم. ولكن أسبق النصوص التي يمكن أن نثق بصحتها تشير إلى علاقات سياسية تبادلوها برًا عن طريق بلاد الفرس. وعندما توفي يزدجرد آخر ملوك آل ساسان في فارس، استنجد ابنه فيروز بالصين لتنصره على العرب الغزاة[4]؛ غير إن إمبراطور الصين أجاب بأن بلاد الفرس كانت من بعد الشقة وطول المسافة بحيث لا يستطيع أن يرسل إليه الجيوش المطلوبة؛ ولكن قيل إنه بعث إلى البلاط العربي سفيرًا يدافع عن قضية الأمير الهارب، ومن المحتمل أيضًا أن يكون الإمبراطور قد أوصى سفيره بأن يتبين مدى الاتساع والقوة في الدولة الجديدة التي كانت قد نشأت في الغرب.

وقيل إن الخليفة عثمان أرسل أحد القواد العرب ليرافق السفير الصيني في عودته سنة ٦٥١م، فأكرم الإمبراطور وفادة أول سفير من المسلمين بعث إليه. وفي عهد الوليد (٧٠٥ – ٧١٥م) (٨٦ – ٩٦هـ) نجد القائد العربي المشهور، قتيبة ابن مسلم، الذي ولاه الخليفة على خراسان، يعبر نهر سيحون ويشرع في سلسلة من الحملات الناجحة، أخضع فيها على التوالي بخارى وسمرقند ومدنًا أخرى، ومضى قدمًا في فتوحاته حتى وصل إلى الحدود الشرقية للإمبراطورية الصينية. وأرسل قتيبة، في سنة ٧١٣م، رسلًا إلى

---

(١) انظر أهل هذا الرسم في .Deveria, p. 311; Mission D,Ollone, p. 420 sqq

(٢) De Thiersant, vol. i. pp. 19 – 00.

(٣) وفيما يلي، ينبهنا دلون D,Ollone إلى التشكك في معرفتنا بالإسلام في الصين: "لا ندري شيئًا عن الإسلام في الصين، ولا نعرف بدقة كيف انتشر في الإمبراطورية، ولا عدد من ظفر بهم من الذين دخلوا في الإسلام، ولا ما إذا كانت مبادئه خالصة، ولا نعرف شيئًا عن نظامه، ولا ما إذا كانت له صلات ببقية العالم الإسلامي". (Mission d,Ollone, p. I.) وقد جمع شفر Schefer ما كتبه العرب والفرس عن الصين في: "Notice sur les relations des peuples musulmans avec les Chinois".

(٤) Chavannes, p. 172.

الإمبراطور، فصرفهم (كما تذكر بعض الروايات العربية) ومعهم هدايا ثمينة.

وبعد سنين قليلة، تذكر التواريخ الصينية سفيرًا يدعى سليمان، أوفده الخليفة هشام سنة ٧٢٦م إلى الإمبراطور هزوان تسنج Hswan Tsung . واكتسبت هذه العلاقات السياسية، التي قامت بين الدولتين العربية والصينية، أهمية جديدة في أواخر عهد هذا الإمبراطور حين طرده أحد الغاصبين من عرشه فتنحى عنه لابنه سوتسنج Su Tsung (٧٥٦م)، فطلب هذا الأخير النجدة من الخليفة العباسي المنصور، وأجابه الخليفة إلى هذا الطلب بأن أرسل إليه قوة من الجيوش العربية، نجح بمساعدتهم في استرجاع عاصمتيه سنينفو Si-ngan-fu وهو ننفو Ho-nan-fu من أيدي الثوار. وفي نهاية الحرب، لم ترجع هذه القوات العربية إلى بلادها، بل تزوجت واستقرت في الصين. ويعزى هذا التصرف الذي كان من جانبهم إلى أسباب متعددة، فتصورهم رواية من الروايات بأنهم رجعوا إلى وطنهم، ولكنهم لما لم يسمح لهم بالبقاء فيه بحجة أنهم مكثوا مدة طويلة في بلاد تأكل لحم الخنزير، عادوا ثانية إلى الصين؛ وتقول رواية أخرى إنهم كانوا، في كنتن، على أهبة الإبحار إلى بلاد العرب، وفي ذلك الوقت عيّرهم الناس بأنهم أكلوا لحم الخنزير في أثناء الغزو. وكان من أثر ذلك أنهم رفضوا أن يعودوا إلى وطنهم ويعرضون أنفسهم لخطر مثل هذه الاتهامات من قومهم؛ وحين حاول حاكم كنتن أن يجبرهم على الرحيل، انضموا إلى إخوانهم في الدين من تجار العرب والفرس، وسلبوا المتاجر المهمة في المدينة؛ فأنقذ الحاكم نفسه بالالتجاء إلى سورها، ولم يتمكن من العودة إلا بعد أن حصل من الإمبراطور على إذن لهذه الجيوش العربية بأن تقيم في هذه البلاد؛ وخصصوا لهم أراض، ودورًا في مدن مختلفة حيث استقروا وتزوجوا من نساء البلاد[1].

وكان من الشائع بين مسلمي الصين أن أول من دعا إلى الإسلام في بلادهم أحد أخوال النبي، وكانوا يعظمون قبره المشهور، في كنتن، إلا أنه لا يوجد لهذه الأسطورة أي

---

(1) De Thiersant, vol. i. pp. 70 – 1.

سند تاريخي، ويظهر أنها نبتت في زمن متأخر[١]. ولا شك أن ظهورها كان نتيجة لرغبتهم في أن يربطوا تاريخ الدين في بلادهم، ما أمكنهم، بعصر النبوة، ذلك العصر الذي كان مصدرًا خصبًا للأساطير في البلاد النائية عن مراكز التاريخ الإسلامي[٢].

أما فيما يتعلق بوجود مسلمين في الصين، وعلى الأخص وجود تجار منهم في الموانئ، في عهد دولة تانج، فهناك الدليل الواضح على ذلك: إذ يقول المؤرخ الصيني لهذه الفترة (٧١٣ – ٧٤٢م) إن برابرة الغرب دخلوا المملكة الوسطى جماعات، كالطوفان، جاءت من مسافة تبعد ألف فرسخ على الأقل، وأتت من أكثر من مائة مملكة، تحمل معها كتبها المقدسة كأنها الجزية، فأخذت هذه الكتب ووضعت في بهو في القصر الإمبراطوري، خصص لترجمات الكتب المقدسة والكتب القانونية[$]. وعلى هذا النحو انتشرت منذ ذلك الحين العقائد الدينية لتلك الأقطار المختلفة، وأخذ بها الناس في إمبراطورية تانج[٣]. وقد كتب أحد الجغرافيين العرب، حوالي سنة ٨٥١م يصف هذه الجاليات العربية والمساجد التي سمح لهؤلاء التجار ببنائها لإقامة شعائرهم الدينية[٤]؛ فقال إنه لم يصل إلى علمه أن أحدًا من الصينيين اعتقد الإسلام. ولكنه، وقد لاحظ نفس الملاحظة على الهند، ربما أخطأ في استقاء معلوماته عن الهند[٥]. ولكن من المؤكد أن ليس هناك دليل واضح على أن المسلمين في الصين قاموا بأي نشاط في نشر تعاليم الدعوة، والواقع أن ما ذكر عنهم جميعًا حتى عصر فتوح المغول، في القرن الثالث عشر الميلادي، كان قليلًا للغاية.

---

(١) ناقش برومهول Broomhall هذه الأسطورة مناقشة وافية: Islam in China, chaap. Iv, vii

(٢) وعلى هذا النحو يدعى أهالي خُتان Khotan أن أول من نقل الإسلام إلى أرضهم هو جعفر ابن عم النبي (Grenard: Mission Dutreuil de Rhins, t, III. P. 2) ويعزز خانات كمبوديا Cambodia دخولهم في الإسلام إلى أحد أعمام مُحَمَّد (R. du M. M., vol. II. P. 138)

($) أي الكتب الدينية التي اتفق علماء المسيحيين على صلاحيتها وصحتها.

(٣) De Thiersant, vol. I. p. 153.

(٤) Reinand: Relation des Voyages faits par les Arabes et les Persans dans l,Inde et a la Chine, i. pp. 13. 64. (Paris, 1845).

(٥) Id. P. 58

وقد تمخضت فتوح المغول عن حركة هجرة واسعة النطاق هاجر فيها المسلمون على اختلاف قومياتهم، من عرب وفرس وأتراك وغيرهم إلى الإمبراطورية الصينية[١]. فجاء بعضهم إلى الصين تجارًا أو صناعًا، وبعضهم جنودًا أو مستعمرين، وجيء بآخرين أسرى حرب. واستقر عدد كبير منهم في هذه البلاد بصفة دائمة، وتطوروا إلى طائفة كبيرة مزدهرة، فقدت خصائص جنسها الأول شيئًا فشيئًا بالزواج من نساء صينيات. وقد تقلد عدة مسلمين مناصب رفيعة تحت إمرة حكام المغول. مثال ذلك، عبد الرحمن الذي اختير سنة ١٢٤٤ رئيسًا على بيت مال الدولة، وخول حق تقدير الضرائب المفروضة على الصين[٢]، وكذلك عمر شمس الدين المشهور بالسيد الأجل وكان من أهالي بخارى، عهد إليه قوبيلاي خان، عندما اعتلى العرش سنة ١٢٥٩، في إدارة بيت مال الإمبراطورية؛ ثم أصبح حاكمًا ليونَّان Yunnan، بعد أن فتحت هذه الولاية وضمت إلى الإمبراطورية الصينية[٣]. ومات السيد الأجل في سنة ١٢٧٠، وترك بعد وفاته شهرة بأنه كان حاكمًا فطنًا عادلًا؛ إذ بنى في مدينة يونان معابد لأتباع كنفشيوس بقدر ما بنى فيها من المساجد[٤]. وقد مثلت ذرية السيد الأجل دورًا مهما في توطيد دعائم الإسلام في الصين؛ فكان حفيده هو الذي حصل من الإمبراطور في سنة ١٣٣٥ على الاعتراف بأن الإسلام "هو الدين الحق الخالص" – وهو اسم ظل الإسلام يحمل حتى يومنا هذا – وأذن الإمبراطور في سنة ١٤٢٠ لشخص آخر من سلالة السيد الأجل بأن يبني مساجد في العاصمتين، سنيانفو Si-ngan-fu ونانكن Nan-kin[٥].

وقد اتخذ مؤرخو الصين، في عهد قوبيلاي خان، من عدم تعيينه موظفين من

---

(١) ونعرف، من مذكرة راهب صيني تحول من سنة ١٢٢١ إلى سنة ١٢٢٤ خلال آسيا الوسطى حتى وصل فارس، أن الصينيين أيضًا هاجروا نحو الغرب، في البلاد التي فتحها الإسلام، حيث كانوا يحلون في بيئة نفوذه الديني؛ ويقول هذا الراهب في حديثه عن سمرقند "إن الصناع الصينيين يعيشون في كل مكان".(Bretschneider (1), vol. i. p. 78)

(٢) Howorth, vol. l. p. 161.

(٣) للاطلاع على تراجم السيد الأجل، انظر: R. du M. M.m viii. P. 344. Sqq. and xi. p. 3 sqq; Mission d,Ollone, p. 25 sqq.

(٤) Broomhal, p. 127.

(٥) Mission d,Ollone, pp. 435 - 6.

الصينيين بدلًا من مهاجري الترك والفرس ذريعة للشكوى من هذا الملك[1]. وانجذب أمثال هؤلاء الترك والفرس إلى شمال الصين، لما كان يشغله السيد الأجل من مكان رفيع، ولما أوجدته فتوح المغول من تيسير في الصلة بين الصين والغرب. ومن المحتمل أن تكون هذه الجماعات الإسلامية المتفرقة، التي تكاثرت في معظم ولايات الصين بنسبة كبيرة، قد أخذت تتكون نتيجة لهذه الهجرات.

وقد لاحظ ماركو بولو **Marco Polo** الذي تمتع بعطف قوبيلاي خان، وعاش في الصين من سنة ١٢٧٥ إلى سنة ١٢٩٢، وجود مسلمين في جهات شتى من يونان[2]. ويقول مؤرخ معاصر لماركو بولو، إنه في بداية القرن الرابع الميلادي، كان جميع سكان تاليفو **Talifu**، حاضرة يونان، من المسلمين[3]؛ وكذلك ابن بطوطه، الذي زار عدة مدن ساحلية في الصين، حول منتصف القرن الرابع عشر، يحدثنا عن الترحيب الحار الذي لقبه من إخوانه في الدين[4]، ويقرر أن "في كل مدينة من مدن الصين مدينة للمسلمين ينفردون بسكانهم، ولهم فيها المساجد لإقامة الجمعات وسواها، وهم معظمون محترمون"[5].

ويظهر أن المسلمين في الصين كانوا حتى ذلك العصر يعدون طائفة أجنبية، ولكنهم بعد زوال دولة المغول في النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي، لم يتلقوا زيادة جديدة من الخارج، نتيجة لسياسة العزلة التي اتخذتها حينذاك الحكومة الصينية؛ ولما كان الأمر على هذا النحو، من انقطاع الصلة بينهم وبين إخوانهم في الدين الذين يقيمون في أقطار أخرى، أخذوا في معظم بقاع الإمبراطورية يتحولون شيئًا فشيئًا إلى الاندماج في العامة من أهالي البلاد، وذلك بالزواج من نساء صينيات، وتعود عادات أهل الصين وأخلاقهم. وقدم إليهم مؤسس دولة منج **Ming** الجديدة، وهو الإمبراطور هنج وو

(١) **Howorth, vol. l. p. 257.**

(٢) **Marco Polo, vol. l. pp. 219, 274; ii. P. 66.**

(٣) رشيد الدين **(Yule,s Cathay, pp.)**

(٤) رحلة ابن بطوطه، المجلد الثالث ص٢٧٥، ٢٨٣ (طبع أوربا).

(٥) نفس المرجع ص٢٥٨.

Hung Wu، كثيرًا من الامتيازات، وتدل كثرة المساجد التي بنيت على انتعاشهم خلال الفترة التي قضتها هذه الدولة في الحكم (١٣٦٨ – ١٦٤٤م).

وقد نمى ملوك هذه الدولة صلاتهم الودية بأمراء المسلمين الذين كانوا يقيمون على حدود الصين الغربية، كما أكثروا من تبادل السفراء مع الأمراء التيموريين. ويعتبر أحد هؤلاء الأمراء ذا أهمية في تاريخ نشر الدعوة الإسلامية، وهذا هو الشاه رخ بهادر، الذي انتهز سنة ١٤١٢ فرصة قدوم سفير صيني إلى قصره في سمرقند، وضمن رده على الإمبراطور الصيني دعوة إلى الإسلام، وذلك بأن أرسل مع رسوله، الذي صحب السفراء الصينيين في عودتهم، رسالتين، كانت أولاهما باللغة العربية، وهذا نصها:

"بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ! لا إله إلا الله، محمد رسول الله. قال رسول الله محمد عليه السلام: لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله، لا ينصر من خذلهم ولا يطاع من خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك. لما أراد الله تعالى أن يخلق آدم وذريته، قال: كنت كنزًا مخفيًا فأحببت أن أعرف، فخلقت الخلق لأعرف، فعُلمَ أن حكمته جلت قدرته، وعلت كلمته، من خلق نوع الإنسان، إيثار العرفان، وإعلاء أعلام الهدى والإيمان. وأرسله رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، ليعلم الشرائع والأحكام، وسنن الحلال والحرام. وأعطاه القرآن المجيد معجزة، ليفحم به المنكرين، وليقطع لسانهم عند المنازعة والخصام، وأبقى بعنايته الكاملة، وهدايته الشاملة، آثاره إلى يوم القيامة؛ ونصب بقدرته في كل حين وزمان، وفرصة وأوان، في أقطار العالمين، من الشرق والغرب والصين، ذا قدرة وإمكان، وصاحب جنود مجندة وسلطان، ليروّج أسواق العدل والإحسان، ويبسط على رءوس الخلائق أجنحة الأمن والأمان، ويأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر والطغيان. ويرفع بينهم أعلام الشريعة الغراء، وأزاح من بينهم الشرك والكفر بالتوحيد في الملة الزهراء. فوفقنا الله تعالى بسوابق لطفه، ولواحق فضله، أن نسعى في إقامة قوانين الشريعة الطاهرة، وإدامة قواعد الطريقة الزاهرة؛ وأمرنا بحمد الله أن نفصل بين الخلائق والرعايا، في الوقائع والقضايا، بالشريعة النبوية، والأحكام المصطفوية؛ ونبني في كل ناحية، المساجد والمدارس، ونعمر الخوانق والصوامع والمعابد،

كي لا يندرس أعلام العلوم ومعالمها، وينطمس آثار الشريعة ومراسمها، ولأن بقاء الدنيا الدنية وسلطنتها، واستدامة آثار الحكومة وإيالتها بإعانة الحق والصواب، وإماطة أذى الشرك والكفر عن وجه الأرض، لتوقع الخير والثواب. فالمرجو والمأمول من ذلك الجانب وأركان دولته، أن يوافقونا في الأمور المذكورة، ويشاركونا في تشييد قواعد الشريعة المعمورة".

أما الرسالة الأخرى التي كتبت بالفارسية فالدعوة فيها إلى اعتقاد الإسلام أكثر صراحة، وليس فيها التنميق البلاغي الذي رأيناه في الرسالة العربية:

"لما خلق الله الأعظم، بحكمته البالغة وقدرته الكاملة، آدم (عليه السلام) جعل بعض أبنائه أنبياء ورسلًا، وأرسلهم إلى الخلق يدعونهم إلى الحق. وأنزل على بعض هؤلاء الأنبياء كإبراهيم وموسى وداود ومُحَمَّد (عليهم السلام) كتابًا وعلمهم شريعة، وأمر أهل زمانهم أن يتبعوا شريعة كل منهم ودينه. ودعا هؤلاء الرسل جميعًا الناس إلى دين التوحيد وعبادة الله، ونهوا عن عبادة الشمس والقمر والنجوم، والملوك والأصنام؛ ومع أن كلًا من هؤلاء الرسل كانت له شريعة خاصة، فإنهم كانوا جميعًا متفقين على توحيد الله الأعظم. ولما صار أمر الرسالة والنبوة إلى مُحَمَّد المصطفى (ﷺ) نسخت كل الشرائع الأخرى. وهو نبي آخر الزمان ورسوله، وواجب على العالم بأسره — أمراء وسلاطين ووزراء وأغنياء وفقراء وصغارًا وكبارًا — أن يعملوا بشريعته، وأن يتركوا كل الملل والشرائع السابقة. هذه العقيدة الصادقة الصحيحة تسمى الإسلام. ومنذ سنوات خلت، تهيأ جنكيز خان للقتال، وأرسل أبناءه إلى بلاد وممالك مختلفة — فأرسل جوجي خان إلى حدود سراي، وقرم ودشت قفجان، حيث أسلم بعض الشاهات، من أمثال أوزبك وجاني خان وأرس خان، وعملوا بشريعة مُحَمَّد (عليه السلام)، وأصبحوا بذلك مسلمين، وانتقلوا إلى الدار الآخرة سعداء بشرف الإسلام؛ ومن هؤلاء الملك الصادق غازان وألجاتيو سلطان والشاه سعيد الحظ أبو سعيد بهادر — وغيرهم بعدهم حتى ولى العرش والدي المكرم أمير تيمور كوركان. وقد عمل والدي كذلك بشريعة مُحَمَّد (عليه السلام) في كل البلاد التي حكمها. ونعم المسلمون، طوال عهده، برخاء شامل. والآن وقد انتقلت إلى يدي، بلطف الله

وفضله، ممالك خراسان وما وراء النهر والعراق وغيرها، فإن حكم البلاد في كافة أرجاء المملكة بموجب الشريعة المطهرة النبوية؛ أمر بالمعروف ونهي عن المنكر. وأبطل يرغو وزالت قواعد جنكيز خان. ومنذ ذلك الحين صار يقينًا ومحققًا أن الخلاص والنجاة في يوم القيامة، والسلطان والدولة في الدنيا، سببها إيمان الفرد وإسلامه وعناية الله تعالى، ومن الواجب علينا أن نعامل رعيتنا بعدل وإنصاف. وإني لأرجو بفضل الله تعالى وكرمه أن تعملوا أنتم أيضًا بشريعة مُحَمَّد رسول الله (عليه السلام)، وأن تقووا الإسلام فتنالوا بدلًا من سلطان الدنيا سلطان الآخرة[1]".

وليس ببعيد أن تكون هاتان الرسالتان قد خلقتا القصة، التي نشأت في عصر متأخر، والتي روت أن أحد أباطرة الصين قد تحول إلى الإسلام[2]. وقد روى هذه القصة، مع غيرها من القصص، تاجر مسلم يدعى سيد علي أكبر، قضى سنوات قليلة في بكين، في نهاية القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر؛ ويتحدث عن عدد كبير من المسلمين الذين كانوا قد استقروا في الصين؛ فكان في مدينة كنجنفو **Kenjanfu** عدد كبير يبلغ ثلاثين ألف أسرة من المسلمين؛ فلم يؤدوا الضرائب، وتمتعوا بكرم الإمبراطور، الذي منحهم هبات من الأرض، ونعموا بالحرية المطلقة في إقامة شعائر دينهم الذي كان الصينيون ينظرون إليه نظرة احترام وتقدير، وترك أمر التحول إلى الإسلام حرًا؛ وكان في العاصمة نفسها أربعة مساجد كبيرة، وما يقرب من تسعين مسجدًا غيرها في الولايات الأخرى من الإمبراطورية، وقد بنيت كلها على نفقة الإمبراطور[3].

ولم يكن هناك حتى قيام دولة منشو **Manchu** سنة ١٦٤٤ خبر عن أية ثورة قام بها المسلمون، بل يظهر أنهم كانوا راضين كل الرضا بما كانوا يتمتعون به من حرية دينية. ولكن سرعان ما قامت الصعاب على أثر قيام السلطة الحاكمة الجديدة، فثار المسلمون

---

(1) عبد الرازق السمرقندي: مطلع السعدين ومجمع البحرين، ورقة ٦٠ – ٦١. (Blochet, pp. 249 – 52)

(2) Zenker, pp. 798 9. Melanges Orientaux, p. 65. (Publications de l,Ecole des Langues Orientales Vivantes, Ser. Ii. T. q.) (Paris 1883.)

(3) Schefer, pp. 29 – 30. Zenker, p. 796.

(م – ٣٣)

في ولاية كنسو **Kansu** سنة ١٦٤٨، وكانت هذه هي أول مرة تسلح فيها المسلمون وثاروا على الحكومة الصينية. على أنه لم يكد يأتي القرن التاسع عشر حتى أصبحت أية ثورة من هذا النوع تجر على المسلمين عواقب وخيمة، أو تقطع العلاقات الودية التي قامت منذ البداية بين مسلمي الصين وحكامهم. وتتجلى وجهة النظر الرسمية التي كانت تنظر بها الحكومة الصينية إلى هذه الصلات في القرار الذي نشره الإمبراطور ينج تشن **Yung Chen** سنة ١٧٣١: "في كل ولاية من ولايات الإمبراطورية، يوجد منذ قرون كثيرة مضت، عدد كبير من المسلمين، يؤلفون جانبًا من الشعب، أعتبرهم كأبنائي وأنظر إليهم كما أنظر إلى بقية رعيتي تمامًا، ولا أفرق بينهم وبين الذين لا يدينون بالإسلام. وقد تسلمت من بعض الموظفين ظلامات سرية ضد المسلمين، سببها أن ديانتهم تختلف عن ديانة غيرهم من أهل الصين، وأنهم لا يتكلمون بلغة الصين، ويلبسون لباسًا يختلف عما يلبسه سائر الأهالي. وهم متهمون بالعصيان والغطرسة والميول الثورية، وقد طلب مني أن أتخذ ضدهم تدابير صارمة.

فلما بحثت هذه الظلامات والاتهامات لم أجد لها أساسًا من الصحة. والواقع أن الدين الذي اتبعه المسلمون، إنما هو دين أجدادهم، والحق أن لغتهم ليست كلغة بقية الصينيين، ولكن ما أكثر اللغات في الصين. أما فيما يتعلق بدور عبادتهم ولباسهم وطريقتهم في الكتابة، وكلها مختلفة عما عند غيرهم من أهل الصين، فهذه مسائل لا أهمية لها مطلقًا، وما هي إلا عادة من عادات المسلمين. إنهم يتحلون بالأخلاق الفاضلة كغيرهم من الرعية، وليس هناك ما يدل على ميلهم إلى الثورة. من أجل ذلك كانت رغبتي أن تطلق لهم الحرية في إقامة شعائر دينهم، الذي يهدف إلى تعليم الناس التمسك بالحياة الفاضلة وتأدية واجباتهم الاجتماعية والمدنية. إن هذا الدين يحترم النظم الأساسية للحكومة، فماذا نستطيع أن نطلب منه أكثر من هذا؟ فإذا ظل المسلمون بعد ذلك يتصفون بما يتصف به الرعايا الأخيار المخلصون، فسأبسط لهم رعايتي بقدر ما أبسطها إلى أبنائي الآخرين. لقد ظهر منهم مدنيون وعسكريون ارتقوا إلى أعلى المناصب. وهذا أقوى دليل على أنهم تطبعوا بطابعنا وتعودوا عاداتنا، وتعلموا كيف يلائمون بين أنفسهم

وبين شرائع كتبنا المقدسة. إنهم يجتازون امتحاناتهم في الآداب كما يجتازها أي إنسان آخر. ويقومون بما يفرضه عليهم القانون من تضحية. وقصارى القول أنهم أعضاء خلص في الأسرة الصينية العظيمة وأنهم يجدون دائمًا في أداء واجباتهم الدينية والمدنية والسياسية. وحين ينظر القضاة قضية مدنية، لا تعنيهم ديانة المتخاصمين، فليس هناك إلا قانون واحد لرعيتي. فمن عمل صالحًا كوفئ عليه، ومن عمل سيئًا حق عليه العقاب"[1].

بعد ذلك بثلاثين سنة، أظهر خليفته الإمبراطور كين لنج **K'ien Lung** دلائل واضحة على عطفه على المسلمين، وذلك بأن رفع شأن اثنين من بيكوات الأتراك كانا قد ساعدا مساعدة فعالة على إخماد ثورة في الشمال الغربي من الإمبراطورية، وفي كاشغر، كما أظهر عطفه ببناء قصور لهم في بكين؛ وكذلك شيد مسجدًا ليصلي فيه بيكوات الأتراك الذين يزورون القصر الإمبراطوري، وليصلي فيه أسرى الحرب الذين جيء بهم من كاشغر إلى العاصمة. وكان بين هؤلاء الأسرى فتاة جميلة، أصبحت جارية للإمبراطور، ونالت حظوة عندهم. ويقال إنه في سبيل حبها بنى هذا المسجد تجاه قصره مباشرة، كما بنى قبة في فناء قصره، فتمكنت الجارية من أن تشاهد منها أبناء وطنها وهم يصلون، وأن تشاركهم في عبادتهم. وقد بنى هذا المسجد من سنة ١٧٦٣ إلى سنة ١٧٦٤، وهو يحتوي على نقش مكتوب بأربع لغات، كتب الإمبراطور نفسه النص الصيني من هذا النقش[2].

وبعد أن قمع الثورة في زنجريا **Zungaria**، نقل إليها هذا الإمبراطور **K'ien Lung** نفسه في سنة ١٧٧٠، عشرة آلاف مهاجر عسكري من جهات أخرى من الصين، وتبعتهم أسراتهم وغيرهم من الناس، ليعمروا البلاد، ويقال إنهم جميعًا دخلوا في دين المسلمين الذين كانوا يقيمون فيما حولهم[3]. على أنه ليس لدينا ما نذكره عن مثل هذا التحول الإجماعي إلى الإسلام هل حدث أيضًا في بقاع أخرى من الإمبراطورية؟ ولكنه من

---

(١) **De Thiersant, tome i. 154 – 6.**

(٢) **Broomhall, p. 92 sqq. Deveria: Musulmans et Manicheens chinois.**
(J. A. qme. Ser., tome x. p. 447 sqq)

(٣) **De Thiersant, tome i. pp. 163 – 4.**

العسير، وإن كان عدد السكان في تلك الولايات التي استقر فيها المسلمون الغرباء أكبر منه في سائر الولايات[1]، أن نفسر وجود عدد كبير من الأهالي المسلمين في كل ولاية من ولايات الصين بأنه إنما يرجع إلى الهجرات الأجنبية ونمو السكان نموًا طبيعيًا[2].

وليس من المحتمل أن يكون مسلمو الصين، الذين نعموا بالحرية الدينية وبحماية بعض الأباطرة لحريتهم، قد تجردوا طوال القرون الكثيرة التي عاشوها في الصين، من تحمسهم لنشر تعاليم الإسلام، ذلك التحمس الذي يلاحظه الباحثون المحدثون على ذريتهم في عصرنا هذا[3]. وإلى مثل هذا النشاط المباشر في الدعوة إلى الإسلام يعزى إسلام يهود من الصينيين، بدأ استيطانهم لهذه البلاد من عصر مبكر فشغلوا وظائف في الحكومة وامتلكوا ضياعًا واسعة؛ ولكن جزءًا كبيرًا منهم تحول إلى الإسلام في نهاية القرن السابع عشر[4]. ولا بد أن هذا النوع من الدعوة إلى الإسلام كان في غاية الرزانة والوقار، والواقع أنه كانت هناك أساليب علنية أخرى في الدعوة أثارت شكوك الحكومة، كما يتضح من التقرير الذي أرسله حاكم ولاية خوانسي **Khwang-Se** إلى الإمبراطور كين لنج سنة ١٧٨٣. وهذا نصه:

"إن لي عظيم الشرف أن أحيط جلالتكم علمًا بأن مغامرًا يدعى هانفوين **Han-Fo-Yun**، من ولاية خوانسي قبض عليه بتهمة التشرد. فلما سئل عن عمله، اعترف بأنه قضى عشر سنوات يطوف بشتى ولايات الإمبراطورية كي يستطلع أحوال ديانته. وقد وجدنا في إحدى حقائبه ثلاثين كتابًا، كتب بعضها بنفسه، وكتب بعضها بلغة لا يفهمها أحد عندنا. وتمجد هذه الكتب ملكًا من ملوك العرب يدعى محمدًا، في أسلوب مسرف

---

(١) يذكر برومهول **Broomhall** في الفصل الثاني عشر من كتابه "الإسلام في الصين" **"Islam in China"** أن مجموعهم يتراوح بين خمسة وعشرة ملايين نسمة. أما دلون **d,Ollone** فإنه يخفض هذا العدد إلى أربعة ملايين نسمة.

(٢) يقال إن المسلمين الصينيين أكثر إنسالًا من غيرهم من الصينيين، ويقدر التعداد الصيني، الذي يحصي الأفراد حسب الأسر، ستة أفراد للأسرة من الصينيين المسلمين وخمسة أفراد للأسرة من الصينيين غير المسلمين. **(Broomhall, pp. 197, 203)**

(٣) **Vide infra, pp. 309 – 310.**

(٤) **Clark Abel: Narrative of a journey in the interior of China. P. 361. (London, 1818)**

يدعو إلى السخرية. وحين قدمنا هذا الضال الذي ذكرناه من قبل للتعذيب، اعترف أخيرًا بأن الغرض الحقيقي من رحلته أن يدعو لهذا الدين الزائف الذي يتعلمونه من هذه الكتب، كما اعترف بأنه قضى في ولاية شنسي **Shen-Si** مدة أطول مما قضاه في أية ولاية أخرى. لقد اختبرت هذه الكتب بنفسي فوجدت بعضها مكتوبًا بلغة أجنبية؛ ولهذا لم أستطع فهمها: أما بعضها الآخر الذي كتب باللغة الصينية فرديء جدًا، ويمكن أن أضيف إلى ذلك أنها كانت أيضًا تبعث على السخرية لما فيها من مغالاة في مدح أشخاص، من المؤكد أنهم ليسوا أهلًا لهذا المدح، لأني لم أسمع بهم حتى مجرد السماع. وربما كان هانفويون الذي تقدم ذكره أحد الثوار من كنسو **Kan-Su**. ولا شك أن مسلكه يدعو إلى الريبة، إذ ماذا كان يريد أن يعمل في هذه الولايات التي طاف بها مدة السنوات العشر الأخيرة من حياته؟ وإني عازم على بحث المسألة بحثًا جديًا. وفي هذه الأثناء، ألتمس من جلالتكم، أن تأمروا بإحراق صحائف الطباعة، التي في حوزة أسرته، وبالقبض على من حفروها، وبالقبض أيضًا على من ألفوا هذه الكتب التي أرسلتها إلى جلالتكم، رغبة في الوقوف على ما ترونه في هذا الأمر[١]".

وإن هذا التقرير ليشهد على نشاط واحد، على الأقل، من دعاة المسلمين في القرن الثامن عشر الميلادي، كما يدل على أن نمو الإسلام، وهو ما لاحظه هناك رسل الجزويت[٢] في القرن الثامن عشر، لا يحتمل أن يكون ضعيف الصلة بالدعوة الصريحة إلى الإسلام، كما زعم بعضهم. ويعزو دوهلد **Du-Halde** الزيادة في عدد المسلمين، في فصل من الفصول القليلة التي خصصها للمسلمين في كتابه الضخم[٣]، إلى ما اعتادوه من شراء الأطفال أيام المجاعات. "لقد استوطن المسلمون مدة تربو على ستمائة سنة، في مختلف الولايات، حيث يعيشون في هدوء تام، لأنهم لا يقومون بأية جهود كبيرة لنشر عقيدتهم

---

(١) **De Thiersant, tome ii. Pp. 361 – 3.**

(٢) كتب أحد رسل الجنزويت من بكين في سنة ١٧٢١ يقول "إن طائفة المسلمين تتسع شيئًا فشيئًا".

(Letters edifiantes et curieuses, tome xix. P. 140)

(٣) **J. B. du Halde: Description geographique. Historique, chronologique, politique et physique de l,Empire de la Chine, tome iii. P. 64. (Paris, 1735)**

وكسب مسلمين جدد، ولأنهم في الأزمان الماضية لم يزد عددهم إلا عن طريق التحالف مع الصينيين والزواج منهم. ولكنهم سائرون، منذ سنين، في تقدم ملحوظ بفضل ما لهم من ثروة؛ فهم يشترون الأطفال الوثنيين حيثما كانوا؛ ولا يجد آباء هؤلاء الأطفال غضاضة في بيعهم، لعجزهم دائمًا عن توفير القوت لهم.

وفي أثناء المجاعة التي خربت شانتونج Chantong، اشترى المسلمون ما يربو على عشرة آلاف من هؤلاء الأطفال. ويتزوج المسلمون بالصينيات، ويشترون لهم الدور، أو يبنون لهم في المدينة أحياء مستقلة، بل قرى بأكملها؛ وحصلوا شيئًا فشيئًا على مثل هذا النفوذ في جهات عدة، حتى إنهم لم يتيحوا لأي شخص لا يذهب إلى المسجد أن يعيش بين ظهرانيهم. وبمثل هذه الوسائل تضاعف عددهم إلى حد كبير، خلال القرن الماضي".

وشبيه بهذا، ما حدث في المجاعة التي اجتاحت ولاية كوانجتنج Kwangtung سنة ١٧٩٠، إذ اشترى المسلمون فيما يقال، عددًا كبيرًا يبلغ عشرة آلاف طفل، كان آباؤهم من الفقر بحيث لم يستطيعوا الإنفاق عليهم، فرغبوا في التخلص منهم إنقاذًا لأبنائهم من الهلاك جوعًا؛ وقد تربى كل هؤلاء على دين الإسلام[1]. وقد زار القاهرة في سنة ١٨٩٤ صيني مسلم من ولاية يونان، يدعى سيد سليمان، فذكر عندما قابله مندوب إحدى الصحف العربية[2]، أن عدد الذين يدخلون في الإسلام كل عام، بهذه الطريقة، يفوق الحصر والعد.

وشهد مسيو دلون M.D'Ollone بما يشبه ذلك، ويقرر أن عادة شراء الأطفال هذه، في أيام المجاعات، منتشرة حتى الآن بين المسلمين في جميع أنحاء الصين؛ وعلى هذا النحو اشتروا أطفال المسيحيين الذين قتلهم الملاكمون Boxers في سنة ١٩٠٠، ونشئوهم على الإسلام[3].

ويميل المسلمون في الصين إلى أن يعيشوا جماعة في مدن وقرى مستقلة، أو يكونوا

---

(١) Anderson, p. 151. Groier, tome iv. P. 507

(٢) ثمرات الفنون، ١٧ من شوال، ص٣ (بيروت سنة ١٣١١هـ).

(٣) Mission d,Ollone, p. 279. R. du M. M., tome ix, pp. 577, 578.

لأنفسهم في المدن أحياء إسلامية منفصلة، حيث لا يبيحون لأي شخص لا يذهب إلى المسجد أن يقيم بينهم[1]. ومع أنهم يعيشون على هذا النحو من العزلة إلى حد ما، نراهم حريصين على أن يتجنبوا الظهور العلني بأي مظهر خاص من مظاهر الشعائر الدينية الإسلامية، التي قد تضايق جيرانهم، كما نراهم حريصين على ألا يثيروا تعصب مواطنيهم من الصينيين. والمسلمون يلتزمون في حياتهم العادية ما هو شائع حولهم من عادات وطبائع؛ فهم يتخذون ضفائر الرأس والملابس الصينية المعروفة، كما جرت العادة بأن يلبسوا العمامة في المساجد فقط. وكذلك يتجنب المسلمون هناك بناء مآذن عالية، في أي مكان يبنون فيه، تفاديًا من إثارة تعصب الصينيين[2]. بل إن مساجدهم كانت في معظم الأحيان تتفق مع المعمار الصيني، فكانت في الغالب لا تتميز بشيء عن معابد الصينيين[3] أو مساكنهم العادية.

وقد فرض القانون أن يكون في كل مسجد لوح للإمبراطور، منقوش عليه "عاش الإمبراطور الخالد إلى الأبد". وكان المسلمون يسجدون أمامها جريًا على العادة الصينية المتبعة، وكانت لهم حيل عديدة في التخلص من ذلك، إرضاء لضمائرهم وتفاديًا من الاتهام بالوثنية[4]. حتى في بلاد التتار الصينية، التي كان مباحًا فيها للجنود المسلمين امتياز خاص يخول لهم أن يعيشوا غير مندمجين في غيرهم، وأن يكونوا طائفة منفصلة، كان كبار الموظفين من المسلمين يرتدون الزي المخصص لمناصبهم، ويرسلون شواربهم، وجدائل شعرهم، ويقومون في أيام العطلة بما كان مفروضًا على الموظفين من شعائر الولاء المعهودة، لصورة الإمبراطور، وذلك بأن يسجدوا لها ثلاث سجدات[5]. وكذلك كان جميع أصحاب المناصب من المسلمين وغيرهم من الموظفين، في الولايات الأخرى، يؤدون في أيام الأعياد الشعائر الخاصة بوظائفهم في معابد كنفشيوس. والواقع أن المسلمين

---

(١) Broomhall, p. 226. Grosier, tome iv. P. 508.

(٢) Vasil,ev., p. 15.

(٣) Broomhall, p. 237.

(٤) Id. Pp. 186, 228.

(٥) Arminius Vambery: Travels in Central Asia, p. 404. (London, 1864)

احتاطوا كل الحيطة كي لا يظهر دينهم بمظهر المعارض لدين الدولة، وقد نجحوا، من أجل هذا، في تجنب الكراهية التي كان الصينيون ينظرون بها إلى أصحاب الديانات الأجنبية، كاليهودية والمسيحية. بل كان المسلمون يصورون ديانتهم لمواطنيهم من الصينيين على أنها متفقة مع تعاليم كنفشيوس، مع فارق واحد، هو أن المسلمين يسيرون وفق تعاليم أجدادهم في الزواج، والجنازات، وغسل الأيدي قبل وجبات الطعام، وتحريم الخنزير والخمر والدخان ولعب الميسر(١).

وكذلك كانت مؤلفات المسلمين الصينيين تمجد كتب كنفشيوس وغيرها من الكتب الصينية، وتشير، ما استطاعت، إلى ما هنالك من الاتساق بين ما في هذه الكتب الصينية وبين تعاليم الإسلام(٢).

كذلك كانت الحكومة الصينية، تعطي المسلمين من رعاياها دائمًا (عدا أوقات الثورة) نفس الحقوق والامتيازات التي كان ينعم بها سائر أفراد الشعب. فلا تغلق في وجوههم وظيفة من وظائف الدولة؛ بل يتمتعون، بالوظائف حكامًا للولايات، وقوادًا للجيش، وقضاة ووزراء للدولة، بالثقة والاحترام من الحكام والشعب جميعًا. وقد ظهرت أسماء المسلمين في التاريخ الصيني، كموظفين مشهورين في الدولة من الناحية الحربية أو المدنية، بل اشتهروا أيضًا في الفنون الصناعية، والعلوم كالرياضة والفلك(٣).

ويقال كذلك إن المسلمين الصينيين رجال أعمال أذكياء، وتجار ناجحون؛ فهم يحتكرون تجارة لحوم البقر ويزاولون تجارات أخرى بنجاح عظيم(٤). وهكذا نجدهم على صلة بكل ناحية من نواحي الحياة القومية، ونجد لديهم كل فرصة للقيام بالدعاية، ولكن البعثات المسيحية القليلة التي اهتمت بهذا الموضوع ترى أن هؤلاء المسلمين لا تدفعهم

---

(١) Vasil,ev, p. 16.

(٢) De Thiersant, tome ii. Pp. 367, 372.

(٣) ثمرات الفنون من ٢٨ شعبان ص٣ .Id. Tome i. p. 247

(٤) Broomhall, p. 224.

حماسة خاصة في نشر تعاليم الإسلام[1]. وإن ما هو ثابت من أن عددًا كبيرًا من المسلمين الصينيين، يستطيع الواحد منهم أن يعين اسم أول من أسلم من أجداده لدليل على استمرار عملية التحول إلى الإسلام[2]. ومن الواضح أن المسلمين لم يكن مباحًا لهم أن يدعوا إلى دينهم في الطرقات، كما يفعل البروتستانت[3]، ولكنهم (كما رأينا من قبل) [4] لا يخفقون في اغتنام الفرصة إذا ما سنحت لهم، كي يزيدوا من عدد طائفتهم. ومن كتب المسلمين الدينية كتاب "الهداية إلى قواعد الدين الصحيح"، (نشر في كنتن سنة ١٦٦٨)، وهو كتاب يثني على نشاط الدعوة إلى الإسلام، ويشير إلى هؤلاء الذين دخلوا في هذا الدين حديثًا من بين الوثنيين[5].

ويتعلم المحدثون في الإسلام قواعد هذا الدين الأساسية في كتب منظومة[6]. ويعزو سيد سليمان، إسلام كثيرين في السنين الأخيرة، إلى تأثير كتب المسلمين الصينيين[7]. ويقال إن المعهد الإسلامي في هوتشو **Hochow** بولاية كنسو **Kansu** يعلم طلبة العلوم الدينية النظرية، ثم يعودون إلى ولاياتهم، إذا ما أتموا دراستهم لينشروا هناك دينهم[8]، كما يقال إنهم بدأوا عملهم هذا في أكثر من حواضر عشر ولايات، أعدوا من فيها من المُلّيّات للترويج للإسلام[9]. ويحول الضباط الحربيون إلى الإسلام كثيرًا من الجنود الذين يعملون تحت رياستهم، وكذلك يستغل أصحاب المناصب من المسلمين سلطتهم التي يتمتعون بها في الظفر بمسلمين جدد، ولكن لما كانوا كثيري التنقل ممن مكان إلى آخر لم

---

(١) **Du Halde, loc. Cit. Broomhall, p. 282.**

(٢) **Mission d,Ollone, pp. 210, 431.**

(٣) **Broomhall. Pp. 274, 282.**

(٤) **P. 307.**

(٥) **Broomhall, pp. 231 – 2.**

(٦) **W. J. Smith, p. 175. Mission d,Ollone, p. 407 sqq.**

(٧) ثمرات الفنون نفس الإشارة المذكورة سابقًا.

(٨) **Broomhall. P. 240.**

(٩) **The Missonary Review of the Eorld, vol. xxv. P. 786 (1912)**

يستطيعوا أن يحدثوا مثل هذا التأثير العظيم الذي أحدثه الضباط المسلمون[1].

وقد تحدث كذلك حالات من التحول إلى الإسلام لم تكن نتيجة للدعوة الصريحة إليه. من ذلك أن رحالة تركيا، زار بكين في سنة ١٨٩٥، فذكر أنه رأى هناك ثلاثين مسجدًا، كان أحدها، في الأصل، معبدًا لأسرة أحد الصينيين الأثرياء؛ وقد أنقذ المفتي وأهُناد (عبد الرحمن) حياة هذا الثري، في أثناء ثورة الملاكمين Boxers؛ فدخل الثري في دين مخلِّصه اعترافًا له بالجميل[2].

وكانت هناك في الأعوام الأخيرة، بعوث من الترك وغيرهم من المسلمين تزور الصين، وقد حاولت أن تبث في المسلمين الصينيين معرفة بدينهم تكون أوفى وأشمل، كما حاولت أن تثير فيهم حماستهم، ولكن يبدو أن جهود هذه البعوث لم تثمر إلا قليلًا[3].

وفي سنة ١٨٦٧، عبر كاتب روسي[4]. في كتاب مهم كتبه عن الإسلام في الصين، عن الفكرة التي تقول بأن الإسلام مهيأ لأن يصبح الدين القومي للإمبراطورية الصينية، ولأن يقلب تبعًا لذلك، الأوضاع السياسية في العالم الشرقي رأسًا على عقب.

وقد مر ما يقرب من نصف قرن على سماع هذه النبوءة المزعجة؛ ولكن شيئًا من ذلك لم يحدث، يحقق هذه التكهنات؛ بل على العكس من ذلك، يبدو أن الإسلام كان في خلال القرن الماضي آخذًا في التأخر أكثر من أن يكون آخذًا في التقدم، منذ أن أدت المذابح الكثيرة التي صحبت قمع الثورات الوثنية التي ظهرت في يونان من سنة ١٨٥٥ إلى سنة ١٨٧٣، وثورة توجان التي ظهرت في ولاية كنسو وشنسي من سنة ١٨٦٤ إلى سنة ١٨٧٧ ومن سنة ١٨٩٥ إلى سنة ١٨٩٦ إلى نقص عدد الأهالي من المسلمين

(١) Mission d,Ollone. P. 431.

(٢) R. du M. M., iii. P. 124. (1907)

(٣) Broomhall. Pp. 242, 286, 292 sqq.

(٤) Vasil,ev, pp. 3, 5, 14, 17.

ملايين من الأنفس[1].

وقد أعطى قيام الجمهورية الجديدة المسلمين الصينيين حرية في العمل (الدعوة)، لم تكن معروفة في ظل أية حكومة سابقة، ولكنه لايزال من سبق الحوادث أن تعرف إلى أي حد يمكنهم أن يغتنموا الفرص التي تتيحها لهم أوضاع الحياة الجديدة. وإن نشر تعاليم الإسلام في الصين الذي مازال يسير هناك بقدر ما تسمح به الظروف، ليدل على أمل في التوسع لايزال وطيدًا. ومع أنه قد انقضت أربعة قرون على الوقت الذي استطاع فيه مسلم رحالة[2] في الصين أن يناقش احتمال دخول الإمبراطور في الإسلام ودخول رعيته من بعده، فإنه لايزال من الممكن أن يقرر المسلم الصيني في هذا الجيل أن أبناء دينه في هذه البلاد يتطلعون في ثقة إلى ذلك اليوم، الذي ينتصر فيه الإسلام في طول الإمبراطورية الصينية وعرضها[3].

---

(1) وللوقوف على ثبت أكثر إسهامًا الثورات الإسلامية، انظر Mission d,Ollone, p. 436

(2) سيد علي أكبر: ختاي نامه ص٨٣ "إذ اعتقد إمبراطور الصين الإسلام، فلا مفر من أن يعتقد رعيته الإسلام كذلك، لأنهم جميعًا يقدسونه إلى حد أنهم يصدقونه في كل ما يقول. فإذا ما قوي هذا الضوء المنبعث من الغرب فإن كفار الشرق سوف يدخلون في الإسلام زرافات ووحدانا، دون أن يبدوا معارضة، لأنهم مجردون من كل تعصب في المسائل الدينية".

(3) ثمرات الفنون ٢٦ من شوال ص٣ (١٣١١هـ).

الباب الحادي عشر

انتشار الإسلام في إفريقية

إن تاريخ الإسلام في إفريقية الذي يستغرق فترة تقرب من الثلاثة عشر قرنًا، والذي ينتظم ثلثي هذه القارة الواسعة، بما فيها من مختلف القبائل وشتى الأجناس، ليضع مشاكل بعينها في طريق بحث الموضوع بحثًا منظمًا، إذ يستحيل علينا أن نصور انتشار الإسلام في كافة أرجاء القارة تصويرًا دقيقًا يقوم على نظام تاريخي. وقد عالجنا في فصل سابق الصلة بين انتشار الإسلام وبين الكنائس المسيحية في مصر وبقية إفريقية الشمالية، ثم بينه وبين كنائس بلاد النوبة وبلاد الحبشة؛ أما في هذا الباب فنريد أن نتتبع تقدمه بين الوثنيين في إفريقية الشمالية أولًا، ثم في السودان وعلى طول الساحل الغربي ثانيًا، وأخيرًا على طول الساحل الشرقي ومستعمرة الكاب[1].

وإن ما لدينا من أخبار انتشار الإسلام في الشعوب الوثنية في شمال إفريقية، لا يكاد يزيد إلا زيادة طفيفة على تلك الحقائق القليلة التي ذكرناها من قبل عن زوال الكنيسة المسيحية. لقد قاوم البربر الجيوش العربية مقاومة عنيفة، ويظهر أن استعمال القوة في تحويلهم إلى الإسلام كان له أثر أكبر مما استخدم في سبيل هذا التحويل من وسائل الإقناع والترغيب. فكانوا كلما سنحت لهم الفرصة، ثاروا على الدين كما ثاروا على حكم الغزاة الذين فتحوا بلادهم، حتى ليقرر المؤرخون العرب أن مرات ارتدادهم عن الدين بلغت اثنتي عشرة مرة[2].

وفي تاريخ الكفاح الطويل بين العرب والبربر، إشارات قليلة بسيطة عن دخول الأخيرين في الإسلام. ويظهر أن إسلام البربر في بعض الأحيان إنما كان يدفع إليه علمهم

---

(1) وهنالك خريطة نفيسة تبين توسع الإسلام في إفريقية، في مجلة "The International Review of Missions," vol. i. p. 652

(2) Fournel, vol. i. p. 271.

بأنه لا فائدة من التمادي في مقاومة الجيوش العربية. فحين وقف البربر في وجه الغزاة سنة ٧٣٠ آخر وقفة لهم، تنبأت الكاهنة[١]، وكانت نبيتهم، وزعيمتهم المقدامة، أن النصر سيتحول عنهم. وأرسلت أبناءها إلى معسكر القائد العربي، وأوصتهم بأن يسلموا ويقفوا في صف الأعداء. أما هي فقد اختارت لنفسها أن تموت وهي تحارب في جانب مواطنيها في المعركة الكبرى التي حطمت قوة البربر السياسية، وأخضعت إفريقية الشمالية للعرب. وعقد الصلح بين الفريقين على شريطة أن يقدم البربر اثنى عشر ألف محارب إلى صفوف الجيش العربي، وتكون من هؤلاء البربر جيشان، وضع كل منهما تحت إمرة واحدة من أبناء الكاهنة[٢]. وبتلك الحيلة، تعني إدخال البربر في جيوش العرب، أمل قواد المسلمين أن يدخلوهم في الإسلام، وذلك بأن يطعموهم في الغنائم.

وكان الجيش المؤلف من سبعة آلاف من البربر، والذي أبحر من إفريقية سنة ٧١١م ليفتح إسبانيا بقيادة طارق (وكان هو نفسه بربريًا)، يتألف من أشخاص كانوا قد دخلوا في الإسلام حديثًا. وقيل إن دخولهم في الإسلام كان عن يقين ثابت. وقد اختير العلماء والفقهاء من العرب، ليقرءوا ويفسروا لهم آيات القرآن الكريم. ويعلموهم كل ما فرضه الدين الجديد من واجبات[٣].

وأظهر موسى فاتح إفريقية العظيم، حماسة نحو إعلاء شأن الإسلام، بأن خصص جزءًا كبيرًا من المال الذي كان يعطيه إياه الخليفة عبد الملك، ليشتري أمثال هؤلاء الأسرى إذا ما تعهدوا بأن يظهروا أنهم جديرون بأن يكونوا أبناء أوفياء للإسلام. "فكان كلما وجد عددًا من الرقيق، معروضًا للبيع، عقب أي انتصار، اشترى كل الذي يظن أنهم سيعتقدون الإسلام راغبين، والذين كانوا من أصل كريم، والذين يظهرون، إلى جانب ذلك، بمظهر الشباب العامل النشيط. وكان أول الأمر يعرض على هؤلاء أن يعتقدوا الإسلام، فإذا ما تحولوا إلى خير الأديان، بعد صقل مداركهم وتهيئتهم لاستقبال الحقائق

(١) واسمها الحقيقي غير معروف (م – ٣٤)

(٢) Fournel, vol. i. p. 224

(٣) المقري جـ١ ص٢٥٣.

السامية، وكان تحولهم إليه صادقًا، استخدمهم على سبيل تجربة كفاياتهم، فإذا أثبتوا استعدادًا ومواهب طيبة أعتقهم في الحال، وعينهم في مراكز مهمة في جيشه، ورقاهم حسب كفاياتهم؛ وإذا كان العكس ولم يظهروا صلاحية في أعمالهم، أعادهم إلى مستودع الأسرى العام التابع للجيش، ليتخلص منهم حسب العادة المتبعة عندهم، وهي أن ينتزعوا بالسهام ما فيهم من فساد"[1].

أم معرفة إلى أي حد كان إسلام البربر سطحيًا، فيمكن أن نحكم على ذلك مما حدث حين عين عمر بن عبد العزيز الورع في سنة ١٠٠هـ (٧١٨م) إسماعيل عبد الله واليًا على شمال إفريقية، وأرسل معه عشرة من الفقهاء ليفقهوا مسلمي البربر في أمور دينهم، فلم يكن يظهر حتى ذلك الوقت أنهم كانوا يعلمون أن دينهم الجديد يحرم عليهم شرب الخمر. ويقال إن هذا الوالي الجديد أظهر نشاطًا عظيمًا في دعوة البربر إلى قبول الإسلام، ولكن الحكم بأن جهوده كللت بالنجاح، بحيث لم يبق واحد من البربر لم يدخل الإسلام، حكم لا شك غير صحيح[2].

وذلك لأن تحويل البربر إلى الإسلام كان من غير شك عمل قرون عديدة؛ بل إنهم يحتفظون حتى الوقت الحاضر بكثير من نظمهم الفطرية التي تتعارض مع الشريعة الإسلامية[3]. ولم ترسخ قدم الإسلام بينهم إلا بعد أن اتخذ شكل حركة قومية، وأصبح مرتبطًا بتولي دول البربر الحكم، تلك الدول التي دخلت في عهدها كثير من البربر في حظيرة الإسلام، وكانوا من قبل يعدون قبول هذا الدين رمزًا على ضياع الاستقلال السياسي.

أما عن التغييرات المختلفة التي طرأت على حالة البربر السياسية، فليس هنا مجال الحديث عنها؛ ولكن الذي يستحق أن نخصه بالذكر في تاريخ الدعوة إلى الإسلام، هو

(١) المقري جـ١ (p. lxv.)

(٢) Fournel, vol. i. p. 270.

(٣) وللوقوف على ذلك وعلى حركات الهرطقة التي كشفت عن بقايا الدين البربري القديم، انظر:
Goldziher, Materialen zur Kenntniss der Almohadenbewegung in Nordafrika (ZDMG, vol. xli, p. 37)

ظهور المرابطين، باعتباره حركة قومية عظيمة جذبت عددًا كبيرًا من قبائل البربر نحو الاندماج في الأمة الإسلامية.

وفي مستهل القرن الحادي عشر الميلادي نجد يحيى بن إبراهيم شيخ قبيلة صنهاجة، إحدى قبائل الصحراء، يبحث في المراكز الدينية في إفريقية الشمالية، في أثناء عودته من حج بيت الله بمكة، عن معلم تقي متفقه، يصحبه إلى أبناء قبيلته الجهلة المظلمين داعيًا إلى الإسلام؛ فوجد في أول الأمر أن من العسير أن يعثر على رجل يرضى بترك اعتكافه العلمي ويستهين بمخاطر الصحراء، ولكنه أخيرًا وجد في عبد الله بن ياسين الشخص الذي يليق لهذا العمل، إذ كان فيه من الإقدام ما يكفي للقيام بمثل هذه الرسالة الشاقة، وكان تقيًا زاهدًا في حياته، متفقهًا في الدين والشريعة وغيرها من العلوم.

وإذا رجعنا إلى القرن التاسع الميلادي وجدنا أن دعاة الإسلام شقوا طريقهم بين بربر الصحراء، وأقروا فيهم دين النبي، ولكن هذا الدين لم يجد هناك من القبول إلا قليلًا. وقد وجد عبد الله بن ياسين أنه حتى الذين أقروا بالإسلام كانوا يهملون شعائرهم الدينية إهمالًا شديدًا، ويستسلمون لكل ألوان العادات المرذولة. فكرس نفسه، متحمسًا، لهدايتهم إلى الصراط المستقيم، وتفقيهم في أمور دينهم؛ ولكن العنف الذي زجرهم به عن رذائلهم، وحاول بواسطته أن يصلح سلوكهم، حوّل عواطفهم عنه، فدفعه في الغالب إخفاقه في رسالته إلى أن يهجر هذا الشعب العنيد ويقصر جهوده على هداية السودان إلى الإسلام. ولما استُحث على ألا يترك عملًا كان قد زاوله من قبل، لجأ مع من جمعتهم حوله دعوته من تلاميذ، إلى جزيرة في نهر السنغال، حيث بنوا بها رباطًا أسلموا أنفسهم فيه لعبادة متصلة. أما هؤلاء البربر الذين كانوا أكثر استعدادًا للتدين، والذين حملهم على التوبة تفكيرهم في الرذيلة التي أخرجت معلمهم المتدين من بينهم، لجأوا خاضعين إلى جزيرته يلتمسون منه العفو، ويتلقون تعاليمه في حقائق الدين المخلصة. وعلى هذا النحو تجمعت حوله هناك يومًا بعد يوم جماعة من تلاميذه أخذت في النماء، وكانت على الأخص من لمتونة وهي فخذ من قبيلة صنهاجة، أخذت أخيرًا في الزيادة حتى بلغت حوالي ألف شخص. ورأى بعد ذلك عبد الله بن ياسين أن الوقت قد حان للخروج إلى

محيط أوسع للعمل، فطلب إلى أتباعه أن يعبروا عن شكرهم لله على هذا التنزيل الذي أنعم عليهم به، وذلك بأن ينقلوا العلم به إلى غيرهم من الناس:

"اخرجوا على بركة الله تعالى وأنذروا قومكم، وخوفوهم عقاب الله، وأبلغوهم حجته. فإن تابوا وأنابوا ورجعوا إلى الحق وأقلعوا عما هم عليه فخلوا سبيلهم، وإن أبوا ذلك وتمادوا في غيهم ولجوا في طغيانهم استغثنا بالله تعالى عليهم وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا".

ومن ثم ذهب كل رجل إلى قبيلته وعشيرته فوعظهم أن يتوبوا ويصدقوا، ولكنهم لم ينجحوا في هذه السبيل: وكذلك أخفقت جهود عبد الله بن ياسين نفسه، الذي ترك رابطته لعله يجد رؤساء البربر في ذلك الوقت أقوى رغبة في الإصغاء لدعوته. وأخيرًا، قاد أتباعه في سنة ١٠٤٢م، الذين سماهم بالمرابطين – وهو اسم مأخوذ من نفس المادة وهي الرباط[1] أي الخلوة التي اتخذها في جزيرته بنهر السنغال – وهاجم القبائل المجاورة وأرغمهم على قبول الإسلام.

وقد بدا لقبائل الصحراء، أن النجاح الذي حالف ابن ياسين في غاراته الحربية، كان حجة أقوى على إقناعهم من جميع تعاليمه، وسرعان ما تقدموا طواعية إلى اعتقاد دين كفل لجيوش أتباعه مثل هذه الانتصارات الباهرة. ومات عبد الله بن ياسين في سنة ١٠٥٩، ولكن الحركة التي كان قد بدأها لم تمت بموته، بل جاءت قبائل كثيرة من البربر الوثنيين لتزيد في جموع أبناء وطنهم المسلمين، واعتقدوا الإسلام على أنه القضية التي كافحوا من أجلها، وتدفقوا من الصحراء على إفريقية الشمالية، ثم فرضوا سيادتهم آخر الأمر على إسبانيا كذلك[2].

ولا يبعد أن تكون الحركة القومية الكبرى التي نشأت بين قبائل البربر، وأعني بها

---

(١) وللوقوف على هذه الكلمة انظر:

Doutte, Notes sur L,Islam maghribin. (Revue de l,histoire des religions, tom. Xli. P. 24 – 6)

(٢) ابن أبي زرع ص١٦٨ – ١٧٣ **A. Muller, vol. ii, pp. 611 - 13**

ظهور الموحدين في بداية القرن الثاني عشر الميلادي، قد جذبت إلى المسلمين بعض القبائل التي كانت بعيدة عن الإسلام حتى ذلك الحين. وقد قرب ابن تومرت، مؤسس دولة الموحدين، إلى العامة عقائد هذه الطائفة في التوحيد، وهي التي تمسكوا بها، وكان ذلك عن طريق ما ألفه من كتب باللغة البربرية شرح فيها قواعد الإسلام الأساسية، من وجهة نظره الخاصة، كما أتاح للقومية البربرية امتيازًا أبعد من هذا، إذ أمر بأن يكون أذان الصلاة باللغة البربرية(١).

ومع هذا، ظل بعض قبائل البربر على الوثنية حتى نهاية القرن الخامس عشر(٢) الميلادي، إلا أن الاتجاه العام كان بطبيعة الحال سائرًا نحو اندماج هذه الجماعات الصغرى في الجماعات الإسلامية الكبرى، وقد شهد القرن السادس عشر الميلادي نشأة حركة نشيطة، في نشر تعاليم الدعوة في بلاد المغرب، كانت ترجع إلى رد الفعل الذي أحدثته انتصارات المسيحيين في إسبانيا وإفريقية الشمالية. وقد أمدت هذه الحركة نظام المرابطين بدافع قوي، وخرجت جموع كبيرة منهم من الربط في جنوب مراكش ليقوموا بحملة إرشاد سلمية في كافة أنحاء بلاد المغرب، مجددين عقيدة هؤلاء المسلمين الذين فتر إيمانهم، ومحولين إلى الإسلام جيرانهم من الوثنيين(٣).

وقام اللاجئون من إسبانيا بنصيبهم في حركة نشر تعاليم الدعوة إلى الإسلام هذه –كما أشرنا إلى ذلك من قبل – إذ جاءوا لمساعدة الشرفاء أو أبناء إدريس بن عبد الله، الذين كانوا قد فروا إلى مراكش هربًا من غضب هارون الرشيد(٤). ومن الصحراء الكبرى، ذاعت معرفة الناس بالإسلام أول الأمر بين زنوج السودان. ويكتنف الغموض تاريخ هذه الحركة القديم، ولكن يظهر أن هناك شيئًا من الشك في أن البربر هم أول من أدخل الإسلام في البلاد التي يرويها نهرا السنغال والنيجر، حيث اتصلوا بممالك وثنية كان

(١) ابن أبي زرع ص ٢٥٠ Goldziher, p. 71

(٢) Leo Africanus. (Ramusio, tom. i. p. 11)

(٣) Doutte, xl. P. 354; xli. Pp. 26 – 7.

(٤) Depont et Coppolani, p. 127 sq.

بعضها (مثل غانه Ghana وسنغاي Sonhgay) عريقا في القدم[١].

وكانت القبليتان البربريتان لمتونة وجداله اللتان تنتميان إلى عشيرة صنهاجة تتميزان بصفة خاصة بحماستهما الدينية في تحويل الناس إلى الإسلام[٢]، وبجهودهم أثرت حركة المرابطين في قبائل السودان الوثنية. وكان عهد يوسف بن تاشفين مؤسس مراكش (١٠٦٢م) وثاني أمراء دولة المرابطين، حافلًا جدًا بدخول الناس في الإسلام. وأخذ كثيرون من الزنوج الذين كانوا تحت حكمه يتعلمون مبادئ مُحَمَّد[٣]. وفي سنة ١٠٧٦م طرد البربر – الذين ظلوا وقتًا ما ينشرون الإسلام في مملكة غانة – الأسرة الحاكمة التي يحتمل أنها كانت أسرة فلبي Fulbe، وأسلمت هذه المملكة القديمة عن بكرة أبيها؛ وفي القرن الثالث عشر الميلادي فقدت استقلالها واحتلها المندنجو Mandingos[٤].

أما عن دخول الإسلام في مملكة سنغاي Songhay القديمة، التي يقال إنها وجدت في عهد مبكر يرجع إلى سنة ٧٠٠م، فلم يذكر لنا إلا أن أول ملك مسلم كان يسمى زاكسي Za-Kassi، وكان الملك الخامس عشر من أسرة زا، وقد أسلم في سنة ٤٠٠هـ (١٠٠٩ – ١٠١٠م)، واصطلح على تسميته في لغة سنغاي باسم مسلم دام Muslim-dam. ويدل هذا الاسم على أنه دان بالإسلام بمحض إرادته لا عن طريق الإرغام، ولكن لم يرد أي ذكر عن المؤثرات التي دان لها بإسلامه[٥].

وفي هذا القرن نفسه تأسست على النيجر الأعلى مدينتان قدر لهما في القرون المتعاقبة أن تؤثرا تأثيرًا قويًا في تقدم الإسلام في السودان الغربي – إحداهما مدينة جني

---

(١) لا مجال هنا لتناول نشأة التاريخ السياسي للممالك المختلفة من السودان الغربي؛ وقد بحثت هذا الموضوع ليدي لوجارد Lady Lugard، وهو مؤلف على نحو أكثر ملاءمة للقراء الإنجليز وذلك في كتاب عنوانه:

"A Tropical Dependency. An Outline of the Ancient History of the Western Sudan, with an Account of the Modern Settlement of Northern Nigeria" (London, 1905)

وانظر أيضًا: **H. F. Helmolt: The World's History, vol. iii. Chap. Ix. (London, 1903)**

(٢) **Biau, p. 322.**

(٣) **Leo Africanus. (Ramusio, tom. i. pp. 7, 77)**

(٤) **Meyer, p. 91.**

(٥) تاريخ السودان ص٣.

Genne[١] التي تأسست سنة ٤٣٥هـ، (١٠٤٣ – ١٠٤٤م) [٢]، والتي قدر لها أن تصبح مركزًا تجاريًا مهما، والأخرى مدينة تمبكتو Timbuktu وهي مركز مهم لتجارة القوافل مع الشمال، وقد تأسست هذه المدينة حول سنة ١١٠٠م. وقد أسلم كنبرو Kunburu ملك جنى حول نهاية القرن السادس الهجري (أي حول سنة ١٢٠٠م)، فحذا حذوه سكان المدينة، ويقال إن كنبرو لما عزم على اعتقاد الإسلام جمع كل العلماء في مملكته، وكان عددهم يبلغ ٤٢٠٠ عالمًا (ومهما يكن هذا العدد مبالغًا فيه فإن الرواية تبين لنا فيما يظهر أن الإسلام تقدم تقدمًا عظيمًا في البلاد التابعة لهذا الملك). ثم طلب إلى هؤلاء العلماء أن يدعوا الله كي ينصر مدينته، ومن بعدها هدم قصره وبنى في مكانه[٣] مسجدًا عظيمًا[٤]. وكانت تمبكو إلى جانب شهرتها بالتجارة، مدينة إسلامية منذ البداية، "ما دنستها عبادة الأوثان، ولا سجد على أديمها قط لغير الرحمن[٥]". وبعد ذلك بسنين صارت ذات شأن كمركز للتعاليم الإسلامية والتقوى، وتوافد عليها الطلبة وعلماء الدين في جموع كبيرة، مدفوعين بما كانوا يلاقونه فيها من تشجيع ورعاية.

وقد أثنى ابن بطوطه – الذي تنقل في هذه البلاد في أواسط القرن الرابع عشر – على الزنوج لحماستهم في أداء عبادتهم وفي دراسة القرآن، ويخبرنا هذا الرحالة أنه إذا كان يوم الجمعة ولم يبكر الإنسان إلى المسجد لم يجد أين يصلي لكثرة الزحام[٦].

وفي عصره كانت أقوى ولاية في السودان الغربي هي ولاية ملى Melle أو مالي Malli، وكان أمرها قد علا قبل ذلك بقرن، بعد فتح غانة على أيدي المندنجو، وهم من

---

(١) ويقال لها جنى أو دينية.

(٢) ويتبع مير Meyer رأي بارت Barth؛ ويضع تاريخ السودان (ص١٢) تاريخ هذه المدينة قبل ذلك بحوالي ثلاثة قرون.

(٣) ويورد فليكس دوبرا Felix Dubois فكرة عن هذا المسجد وعن إعادة بنائه، وكان قد خربته جماعة شيخو أحمد حول سنة ١٨٣٠، وذلك في بحثه: Tombouctou la mysterieuse chap. Ix.

(٤) تاريخ السودان ص١٢ – ١٣.

(٥) نفس المرجع ص٢١.

(٦) ابن بطوطة جـ٤ ص٤٢١ – ٤٢٢.

أعظم أجناس إفريقية رقيًا: ويذكر عنهم ليو الإفريقي Leo Africanus[1] أنهم أكثر جميع الزنوج مدنية وأشدهم ذكاء وأجدرهم بالاحترام، ويمتدح الرحالون المحدثون صناعتهم ومهارتهم وأمانتهم[2]. وكان هؤلاء المندنجو من أنشط الدعاة إلى الإسلام الذي انتشر بواسطتهم بين الجماعات المجاورة لهم[3].

وكما جاء في تاريخ كنو Kano Chronicle كانت قبائل المندنجو هي التي عرفت قبائل الحوصة Hausa بالإسلام، وليس تاريخ ذلك محققًا[4]، كما هو الشأن في معظم التواريخ المتصلة بتاريخ ولايات قبائل الحوصة؛ وذلك لأن قبائل فلبي Fulbe، التي فتحت هذه الولايات في بداية القرن التاسع عشر الميلادي، أتلفت معظم سجلاتها التاريخية. ولكن أهمية اعتناق الحوصة للإسلام لا يمكن أن نبالغ فيها؛ فهم أصحاب نشاط وذكاء، وقد أكسبتهم مهارتهم الفائقة في التجارة نفوذًا كبيرًا بين شتى القبائل التي اتصلت بهم، فأصبحت لغتهم هي لغة التجارة في السودان الغربي. وحيثما ذهب تجار الحوصة – وهم منتشرون من ساحل غينيا Guinea حتى القاهرة – نقلوا معهم الدين الإسلامي. وسنتحدث في الصفحات التالية عن نشاطهم في الدعوة الإسلامية.

أما فيما يتعلق باعتناق الحوصة أنفسهم هذا الدين فإن الشواهد التاريخية تكاد تكون منعدمة تمام الانعدام[5]، كما هو الحال فيما يتعلق بظهور ولايات الحوصة السبع،

---

(1) Ramusio, tom. i. p. 78.

(2) ويصفهم ونوود ريد Winwood Reade بأنهم شعب طويل القامة، حسن المنظر مشرق اللون، مسلمون متدينون، يملكون الجياد وقطعان الغنم الكثيرة؛ ولكنهم أيضًا يزرعون القطن، والفول السوداني، وأنواعًا مختلفة من الغلال. وقد سررت كثيرًا بلطفهم، وسجاياهم الكريمة، ومظهر نسائهم الجاد المحتشم، ونظافة قراهم وهدوئها.
(W. Winwood Reade: African Sketchbook, vol. i. p. 303)

(3) Waitz, 11er Theil, pp. 18 – 19.

(4) ويضع بالمر (ص٥٩) دخول الإسلام إلى كنو بين سنتي ١٣٤٩، ١٣٨٥، وتضع رواية أخرى من تواريخ الحوصة بداية عهد أول ملوك زوزو من المسلمين حول سنة ١٤٥٦. (Journal of the African Societv, vol.ix. p. 161)

(5) وكما في سائر جهات العالم الإسلامي، تضع الرواية أول دخول الإسلام في عهد المؤسس، وتذكر اسم الفزاري، أحد صحابة النبي المشهورين، باعتباره رسولًا إلى شعب الحوصة. J. Lippert, Sudanica. MSOS, iii. Part 3, p. 204. (Berlin, 1900)

وملحقاتها[1]؛ ويظهر أن أحد دعاة الإسلام الذين بعثوا إلى كنو **Kano** وكتزنا **Katsena** كان بلا شك أستاذًا مثقفًا ورعًا، وكان من تلمسان، ذلك هو مُحَّد بن عبد الكريم ين مُحَّد المجيلي، الذي نبغ حول سنة ١٥٠٠م[2]. ومن الممكن أن تكون الحوصة قد تأثرت في إسلامها بهذه الموجة الكبيرة من السيطرة الإسلامية التي سرت من مصر صوب الجنوب في القرن الثاني عشر الميلادي[3].

ويفخر تجار كردفان وتجار السودان الشرقي على وجه العموم، بأنهم ينحدرون من العرب الذين شقوا طريقهم إلى هذه البلاد بعد سقوط الخلافة الفاطمية في مصر سنة ١١٧١. ولكن من المحتمل أنه كان هناك أيضًا ألوان من النفوذ الإسلامي، وقد أتى هذا النفوذ من الشمال الشرقي وتطرق إلى إفريقية الوسطى، ومن مصر انتشر حتى دخل كانم **Kanem**، وهي مملكة واقعة إلى الشمال والشمال الشرقي لبحيرة تشاد؛ وبعد أن اعتقد أهلها الإسلام بقليل أصبحت دولة ذات أهمية كبرى وبسطت سلطانها على قبائل السودان الشرقي إلى حدود مصر وبلاد النوبة.

ويقال أن أول ملوك كانم **Kanem** من المسلمين حكم إما حول نهاية القرن الحادي عشر أو في النصف الأول من القرن الثاني عشر[4] الميلادي. ولكن التفصيلات التي لدينا عن انتشار الإسلام من الشمال الشرقي أندر حتى من تلك التفصيلات التي ذكرناها من قبل عن تاريخ دويلات السودان الغربي. وإن مجرد ذكر تواريخ تحول ملوك هذه الدويلات إلى الإسلام وتأسيس دول إسلامية، لا يمدنا إلا بأخبار قليلة، ولكن حقيقية واحدة تبرز لنا واضحة من هذا السجل التاريخي الهزيل، تلك هي البطء الشديد

---

(١) وللوقوف على أنواع هذه الولايات المختلفة انظر **Meyer, p. 27**

(٢) **Mischlich& Lippert, pp. 138 – 9.**

(٣) **Meyer, loc. Cit.** ويضع أرتين باشا (ص٦٢) بداية تدفق العرب المسلمين في عهد مبكر يرجع إلى القرن الثامن.

(٤) **Becker, Geschichte des ostlichen Sudan, p. 162 – 3.**

Blau, p. 322. Oppel, p. 289. وفي نهاية القرن الرابع عشر، نقل عمر بن إدريس قاعدة بلاده إلى غرب بحيرة تشاد في منطقة برنو، وهي التي أصبح اسم مملكة كانم معروفًا بها منذ ذلك الحين.

في تحول الناس هناك إلى الإسلام.

وإن بقاء جموع كبيرة من عبدة الفتش[$] يعيشون في الأقاليم التي مرت عليها قرون وهي تحت الحكم الإسلامي، ليدلنا فيما يظهر على أن نفوذ الإسلام ظل محصورًا في المدن طويلًا، ولم يتخذ طريقه إلى الجماعات الوثنية إلا تدريجيًا. والواقع أن النفوذ الإسلامي لم يصادف مقاومة عنيدة كتلك التي جعلت جماعة البمبارا **Bambara** الوثنية يحتفظون بوثنيتهم، مع أنهم (وقد سكنوا السنغال الأعلى والنيجر الأعلى) كانوا محاطين مدة قرون بسكان من المسلمين.

وقد حاول مرابط يدعى عُمَرو كبا **Umaru Kaba**، أن يحول البمبارا إلى الإسلام فأخفق، وكان ذلك في أوائل القرن العشرين. وقد أسس هذا الرجل جمعية إخوان دينية جديدة، كانت على صلة بالقادرية، فلما أخفق في جذب أبناء دينه وجه اهتمامه إلى البمبارا الوثنيين، وحاول أن يدخلهم في الإسلام ويضمهم إلى جماعته. ويظهر أنه كان في طريقه إلى النجاح، وكان قد حول إلى الإسلام من قبل قرية وثنية في ولاية سنسندنج **Sansanding**، حين طرد رئيس الولاية هذا الداعي خارج حدود ولايته، وأمر من دخلوا حديثًا في الإسلام من البمبارا أن يرجعوا إلى عقائدهم الدينية القديمة[١].

وحيثما كان التزاوج بين أمثال هذه الأجناس وبين غيرهم كالعرب والبربر الذين أكثروا من هذا التزاوج، كان الاندماج في المسلمين يسير سيرًا منتظمًا، وإن ذلك مضافًا إليه ما كان هناك من نشاط في الدعوة قامت به تلك القبائل – وهي فلبي والحوصة والمندنجو – التي امتازت بحماستها في سبيل دينها، كان يساعد على نمو المجتمع الإسلامي لو لم تكن تلك الحروب الطاحنة التي جعلت كل دويلة إسلامية تخرب الأخرى. فنهضت قبيلة ملى **Malle** على أنقاض غانة في القرن الثالث عشر الميلادي وحطمت سنغاي غانة في أوائل القرن السادس عشر الميلادي، وخُربت سنغاي بدورها بعد ذلك بقرن على أيدي العرب.

[$] الفتش كناية عن الأصنام التي كان الزنوج والقبائل المتبربرة يعبدونها.

(١) **Maurice Delafosse p. 87.**

ولما دالت هذه الدول الإسلامية من جراء المذابح الكثيرة التي تميزت بها الحرب في السودان، استردت الديانة الفتشية كثيرًا من مكانتها التي كانت قد فقدتها؛ وكما كان الحال في المسيحية، كان ذلك في العالم الإسلامي، إذ كانت هناك فترات تدهورت فيها الحماسة في الدعوة إلى ردك منحط، ورضي المسلمون في بعض أجزاء السودان أن يتركوا الوثنية التي كانت تكتنفهم دون أن يمسها أي نشاط في نشر تعاليم الإسلام.

وفي القرن الرابع عشر الميلادي هاجر عرب التنجار Tunjar Arabe من تونس إلى الجنوب، واخترقوا بورنو Bornu ووداي Wadai حتى وصلوا إلى دارفور، وجاء غيرهم من الشرق فيما بعد[1]. وقد لقي أحدهم ويدعى أحمد حفاوة عظيمة من ملك دارفور الوثني الذي تعلق به فجعله مشرفًا على شئون بيته واستشاره في كل المناسبات. وإن خبرته بأساليب حكم كانت أرقى تحضرًا، من تلك التي كانت في دارفور، مكنته من أن يدخل عدة إصلاحات على كل من شئون بيت الملك الاقتصادية وعلى حكومة الدولة. ويقال إنه أخضع لسياسته الحكيمة الزعماء المتمردين، وقسم الأراضي بين فقراء السكان ليضع حدًا للإغارات الداخلية، وبذلك أدخل على المملكة شعورًا بالطمأنينة والرضا لم يعرفوه من قبل. ولما لم يكن للملك وريث من الذكور زوج ابنته من أحمد، وعينه خليفة له، وقد أيد هذا الاختيار أن الناس ضجت باستحسانه.

واستمرت هذه الدولة الإسلامية، التي تأسست على هذا النحو، حتى القرن الحاضر، وكانت أسباب الحضارة التي أحدثها هذا الزعيم وذريته قد اقترنت من غير شك ببعض نشاط في نشر تعاليم الدعوة، ولكن يظهر أن هؤلاء العرب المهاجرين لم يبذلوا إلا جهدًا يسيرًا جدًا في سبيل نشر دينهم بين جيرانهم الوثنيين. ومن المؤكد أن دارفور لم تدخل في الإسلام إلا بجهود أحد ملوكها ويدعى سليمان، وقد بدأ حكمه سنة ١٥٩٦[2]، ولم ترسخ قدم الإسلام في الممالك الأخرى، الواقعة بين كردفان وبحيرة تشاد

---

(١) Becker: Geschichte des ostlichen Sudan, pp. 161 – 2.

(٢) R. C. Slatin Pasha: Fire and Sword in the Sudan, pp. 38, 40 – 2. (London, 1896).

كوادي وباغرمي، إلا في القرن السادس عشر. ولكن مملكة وداي كانت المركز الرئيس للنفوذ الإسلامي في ذلك الوقت، وقد أسسها عبد الكريم حول سنة ١٦١٢م، ولم تسلم عامة باغرمي إلا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر[١].

ولكن تاريخ الدعوة الإسلامية في إفريقية إبان القرن السابع عشر والثامن عشر ضئيل جدًا، بل لا أهمية له إطلاقًا إذا ما قارناه بالنهضة العظيمة في نشاط الدعوة خلال القرن الحاضر. وكان مسلمو إفريقية في حاجة إلى مؤثر قوي يوقظ عزائمهم الخاملة؛ فقد كانت حالتهم في القرن الثامن عشر، فيما يظهر، حالة فتور ديني تقريبًا، وكانت نهضتهم الروحية راجعة إلى تأثير الحركة الوهابية في أواخر القرن الثامن عشر؛ ومن هنا جاء ما نصادفه في الأزمان الحديثة من بعض الأخبار التي تتعلق بحركات نشر تعاليم الدعوة بين الزنوج، تلك الأخبار التي لم تبلغ من التفاهة والضآلة ما بلغته الأخبار التي سردناها من قبل، ولكنها تمدنا بتفصيلات شافية عن ظهور عدة أعمال مهمة في الدعوة وتقدمها.

وحول نهاية القرن الثامن عشر ظهر من بين جماعة الفلبي[٢] رجل معروف يدعى الشيخ عثمان دنفديو[٣]، عرف بأنه مصلح ديني وداعية محارب. وقد ذهب من السودان إلى مكة لأداء فريضة الحج، فعاد من هناك مليئًا بالحماسة والغيرة من أجل الإصلاح والدعوة للإسلام. وتأثر بمبادئ الوهابيين، الذين كانت قوتهم آخذة في النماء في الوقت الذي زار فيه مكة، فأنكر الصلاة على روح الميت وتعظيم من مات من الأولياء، واستنكر المبالغة في تمجيد محمد نفسه؛ وهاجم في نفس الوقت رذيلتين كانتا منتشرتين في السودان، هما شرب الخمر وفساد الخلق.

وحتى ذلك الوقت كانت جماعة الفلبي تتألف من عدة قبائل صغيرة متناثرة تحيا حياة رعوية؛ وقد دانت هذه الجماعة بالإسلام في وقت مبكر، وكانت لاتزال حتى ذلك

---

(١) Westermann, p. 628.

(٢) الفلبي (مفردها بول) اسم اطلقه هذا الشعب على نفسه؛ ويطلق عليهم جيرانهم أسماء مختلفة تربو على المائة، أشهرها فلا وفلاني (Meyer, p. 28)

(٣) Oppel, p. 292. Meyer, pp. 36 – 7. Westermann, pp. 629 – 30. (م – ٣٥)

الحين قانعة بتأليف مستعمرات من الرعاة والزراع في مختلف بقاع السودان. وإن ما لدينا من أخبارهم في مستهل القرن الثامن عشر، ليصورهم لنا في صورة أناس مسلمين، نشيطين في أعمالهم؛ ويتحدث عنهم أحد الذين زاروا[1] موطنهم على نهر الجمبيا سنة ١٧٣١، فيقول:

"في كل دولة أو بلد على كل من جانبي النهر توجد جماعة ذات بشرة سمراء، يدعون الفولز (أي الفلبي)، وهم يشبهون العرب ومعظمهم يتكلم العربية، لأنهم يتعلمونها في مدارسهم، ولأن القرآن، وهو أيضًا شريعتهم، مكتوب بهذه اللغة. وإلمامهم على وجه العموم أكثر بالعربية من إلمام أهل أوروبا باللاتينية، إذ أن معظمهم يتكلمها مع أن لهم لغة غير مهذبة تسمى فولي. ويعيشون قبائل أو عشائر، ويبنون لأنفسهم مدنًا، ولا يخضعون لأي ملك من ملوك البلاد التي يقيمون فيها، مع أنهم يعيشون في أراضي هؤلاء الملوك؛ وذلك لأنهم كانوا إذا أسيء إليهم، في قوم هم يعيشون بين ظهرانيهم، هدموا مدنهم وارتحلوا إلى قوم آخرين. ولهم رؤساء من أنفسهم يحكمونهم حكمًا معتدلًا إلى حد أن كل عمل تقوم به الحكومة يبدو كأنه عمل الشعب أكثر من أن يكون عمل فرد من الأفراد. وهذا النوع من الحكومات يدار دولابه في سهولة ويسر، لأن الأهالي أصحاب طبيعة هادئة، ولأنهم تعلموا جيدًا ما هو عدل وما هو حق، حتى إن من يقترف الشر منهم يكون موضعًا لكره الجميع... وهذه الجماعة على جانب كبير من النشاط والاقتصاد، يزرعون من القمح والقطن أكثر مما يفي بحاجتهم، ويبيعونه بسعر معتدل، ويشتهرون بالكرم إلى حد أن مواطنيهم يعتبرون أن من نعم الله عليهم أن تكون بجانبهم بلد من بلد فولي؛ وفوق هذا أكسبهم سلوكهم حدًا من الشهرة يجعل من العار أن يعاملهم أحد معاملة غير كريمة. ومع أن إنسانيتهم تعم جميع الناس، فشفقتهم بأبناء جنسهم مضاعفة؛ وإذا علموا أن أي فرد من جماعتهم قد أخذ رقيقًا اتحد الفلبي جميعًا وحرروه. ولوفرة الغذاء عندهم لا يدعون أبدًا واحدًا منهم يقاسي الحاجة؛ بل إنهم يعولون المسن والأعمى والأعرج ويساوون بينهم وبين الآخرين. وقلما يغضبون، ولم أسمع مطلقًا واحدًا منهم

---

(١) Francis Moore, pp. 75 – 7.

يسب الآخر؛ ومع هذا فلم تكن وداعتهم صادرة عن حاجة إلى الشجاعة، إذ أنهم شجعان كأي شعب في إفريقية، وهم مهرة جدًا في استعمال أسلحتهم، وكانوا يستخدمون أسلحة تتكون من الزغايات واليطغانات القصيرة، والقوس والنشاب، بل يستخدمون البنادق في بعض الأحيان... وهم مسلمون متمسكون بدينهم، ومن النادر أن يشرب أحدهم الخمر أو أي مشروب أقوى تأثيرًا من الماء".

وقد وحد دنفديو هذه الجماعات المنفصلة، المتناثرة في شتى أقاليم الحوصة، وجعل منهم جماعة قوية. وفي سنة ١٨٠٢ حدثت أول ثورة ممن مملكة جوبر التي كانت لاتزال على الوثنية، والتي بسطت نفوذها على الشمال الأقصى من بلاد الحوصة؛ وقد حاول ملك جوبر أن يعوق قوة الفلبي المتزايدة في بلاده، فأدى ذلك إلى أن رفع دنفديو علم الثورة؛ وسرعان ما وجد نفسه على رأس جيش قوي، لم يتعرض به للقبائل الوثنية وحدها ويفرض عليها عقيدة النبي، بل تعرض أيضًالا لولايات الحوصة الإسلامية؛ فسقطت هذه الولايات واحدة بعد أخرى، وأصبحت كل أراضي الحوصة تحت حكم دنفديو قبل وفاته سنة ١٨١٦. ولايزال قبره في سوكوتو **Sokoto** مثابة تعظيم جموع كثيرة من زواره. وقد قسم دنفديو مملكته بين ولديه، اللذين زادا كذلك في توسيع حدود بلاد الفلبي؛ وتعين مدينة أدماوا، التي أسست سنة ١٨٣٧ على أنقاض عدة ممالك وثنية، حدود فتوحاتهم تجاه الشرق.

وكانت مدينة إلورن **Ilorin**، في بلاد يوروبا **Yoruba**، التي تأسست في عهد نفديو، هي الحد الجنوبي الغربي لإمبراطورية بول **Pul**. وقد ظلت السيطرة على هذه البلاد طوال القرن التاسع في أيدي الفلبي، على تفاوت في التوفيق والنجاح في الحكم، وظهروا بمظهر القسوة والتعصب في الدعوة الى الإسلام، حتى قامت الإدارة البريطانية في نيجريا سنة ١٩٠٠.

وكان دخول القانون والنظام في نيجريا الجنوبية في مصلحة الدعوة إلى الإسلام كما كان الحال في جهات إفريقية الأخرى التي أصبحت تحت الحكم الأوروبي. فاستطاع

مسلمو الحوصة، الذين ينتسب بعضهم إلى طائفة التيجانية، أن يتنقلوا في البلاد بحرية، وأن ينفذوا إلى القبائل الوثنية التي كانت حتى ذلك الحين تمنع، في تعصب وصلابة، تطرق كل المؤثرات الإسلامية إليها.

ويقال إن الإسلام في مملكة يوروبا بوجه خاص ترسخ قدمه بسرعة. وهناك أسطورة عن محاولة قام بها أحد دعاة الإسلام في هذه البلاد، في وقت مبكر يرجع إلى القرن الحادي عشر أو الثاني عشر الميلادي ولكن هذه المحاولة لم تنجح؛ كان هذا الرجل من الحوصة جاء إلى إيفي Ife، حاضرة مملكة يوروبا الوثنية وجعل يدعو الناس ويقرأ لهم آيات من القرآن، وكان لا يستطيع أن يتكلم بلغة يوروبا إلا كلامًا ركيكًا غير صحيح، فلم يكن بد من أن يردد على سامعيه في لهجة أجنبية قوله "هلم نعبد الله الذي خلق الجبال والوهاد وخلق كل شيء وخلقنا". وكان يقوم بذلك من وقت لآخر دون أن ينجح في كسب فرد واحد يتحول إلى الإسلام، وقد مات بعد وصوله إلى إيفي بأشهر قليلة. وبعد موته وجدوا القرآن معلقًا على مشجب في حائط حجرته فصار أهل هذه البلاد يقدسونه على أنه من دين الفتش[١].

وحيث أخفق داعية هذا الدين، القديم، نجد المحدثين من أبناء دينه ينجحون نجاحًا رائعًا. وفي فترة الفوضى التي سبقت الاحتلال البريطاني كانت غالبية المسلمين في مدن كبيرة تكتنفها الأسوار، ولكنهم يستطيعون في ظل الطمأنينة والأمن الجديد أن يستقروا في القرى، على مقربة من أعمالهم الزراعية. وعلى هذا النحو أخذ نفوذ الإسلام يزداد اتساعًا في هذه البلاد. وكما كانت الحال في إفريقية الألمانية الشرقية، نجد أن وجود مسلمين بين جيوش هذه البلاد قد ساعد على انتشار دينهم، فكان المحدثون من الجنود يدينون في الغالب بالإسلام كي يتجنبوا سخرية الناس ويظفروا باحترامهم[٢]. وكذلك نلحظ في مملكة إيجيبو Ijebu في نيجريا الجنوبية، حركة حديثة جدًا للدعوة إلى الإسلام؛

---

(١) R. E. Dennett: Nigerian Studies, pp. 12, 75. (London, 1910).

(٢) Islam and Mission, pp. 71 – 3. The Moslem World, pp. 296 – 351.

على أن الإسلام لم يدخل في هذا الجزء من نيجريا إلا في سنة ١٨٩٣، وفي سنة ١٩٠٨ كانت هناك بلدة بها عشرون مسجدًا وأخرى بها اثنا عشر مسجدًا[١].

ويمكن أن نلاحظ سرعة انتشار الإسلام هذه على طول ضفتي نهر النيجر في نيجريا الجنوبية بوجه خاص؛ ويقرر أحد مبشري المسيحيين ما يأتي: "عندما غادرت هذه البلاد في سنة ١٨٩٨ كان هناك قليل من المسلمين بأسفل إده **Iddah**[٢]؛ ولكنهم الآن منتشرون في كل مكان، ما عدا أسفل أبو **Abo**، وعلى هذا النحو من السرعة التي نلحظها في تقدم الإسلام، سيكون من النادر أن نجد قرية وثنية على ضفتي النيجر في سنة ١٩١٠"[٣].

وهكذا كان في هذا الجزء من إفريقية نشاط كبير في الدعوة إلى الإسلام قام به رجال لم يمتشقوا الحسام في سبيل تحقيق غايتهم، أعني بذلك تحويل الوثنيين إلى الإسلام. وعلى هذا الأسلوب كان يسير الذين يتبعون بعض المبادئ الدينية الإسلامية الجليلة، تلك المبادئ التي كانت تكون الصفة الغالبة على النشاط الديني في إفريقية الشمالية. وقد حققت جهود دعاة الإسلام نتائج عظيمة خلال القرن التاسع عشر؛ ومع أن كثيرًا من أعمالهم لا شك أنها لم تدون قط، لا يزال لدينا أخبار عن بعض الحركات التي بدأها هؤلاء الدعاة.

ومن أسبق تلك الحركات حركة يعزى قيامها إلى سي أحمد بن إدريس[٤]، الذي كان يتمتع بشهرة واسعة كمعلم ديني في مكة من سنة ١٧٩٧ إلى سنة ١٨٣٣، وكان الزعيم الروحي لجماعة الخضرية، وقد أرسل قبل موته سنة ١٨٣٥ أحد أتباعه، ويدعى مُحَمَّد عثمان الأمير غني، في رحلة إلى إفريقية لنشر تعاليم الإسلام. ولما عبر البحر الأحمر إلى القصير، شق طريقه حتى بلغ النيل. وهنا بين جماعات إسلامية انحصرت جهوده بصفة

---

(١) **Church Missionary Review (1908, p. 640)**

(٢) بلدة على النيجر، جنوبي الحدود الشمالية لنيجريا الجنوبية.

(٣) **Church Missionary Society Intelligencer (1902), p. 353.**

(٤) **Rinn, pp. 403-4**

خاصة في ضم أعضاء إلى الطائفة التي كان ينتسب إليها؛ ولكنه لم يصادف في رحلته إلى أعالي النهر نجاحًا كبيرًا حتى وصل إلى أسوان، ونجحت رحلته من أسوان حتى دنقله نجاحًا تامًا؛ وقد أسرع الثوبيون إلى الدخول في الطائفة التي كان ينتسب إليها مُحَمَّد عثمان هذا، وأثرت في هؤلاء الناس تلك الأبهة الملكية التي كانت تحيط به تأثيرًا فعالًا، كما جذبت إليه كراماته في نفس الوقت عددًا كبيرًا من الأتباع.

وفي دنقلة ترك مُحَمَّد عثمان وادي النيل ليذهب إلى كردفان، حيث مكث زمنًا طويلًا، وهنا بدأ عمله في نشر الدعوة بين الكفار. وكانت قبائل كثيرة في هذه البلاد وحول سنار لا تزال على الوثنية؛ وقد نجحت دعوة مُحَمَّد عثمان بين هؤلاء القوم نجاحًا رائعًا جدًا، وعمل على توطيد نفوذه فيهم بأن تزوج ببضع زوجات منهم، فتولى نسله منهن بعد أن مات في سنة ١٨٥٣، نشاط الطائفة التي أسسها وتسموا أمير غنية[١] نسبة إليه.

وقبل أن يقوم مُحَمَّد عثمان برحلته، التي دعا فيها إلى الإسلام بسنين قلائل، كانت جنود مُحَمَّد علي باشا، قد أخذت توسع من فتوحاتها في السودان الشرقي، وشجعت الحكومة المصرية رسل المذاهب الوثنية العديدة في مصر على القيام بدعاية في هذه البلاد التي عرفوها حديثًا، عسى أن تساعد أعمالهم على تهدئة الحال في هذه البلاد، فواصلوا نشر الدعوة في تلك الأراضي التي استولوا عليها حديثًا حيث قاموا بأعمال صادفت نجاحًا كبيرًا، حتى إن ثورة السودان الحديثة بزعامة المهدي قد عزيت إلى الحماسة الدينية التي أثارتها دعوتهم[٢].

وفي غرب إفريقية كانت هناك جماعتان تساعدان بنوع خاص على نشر الإسلام، هما القادرية والتيجانية. وقد تأسست الأولى، وهي أوسع الجماعات الدينية الإسلامية انتشارًا، في القرن الثاني عشر على يد عبد القادر الجيلاني، ويقال إنه كان أشهر أولياء

---

(١) Le Chatelier (1), pp. 231-3.

(٢) Le Chatelier (2), pp. 89-91.

المسلمين كافة وأعظمهم هيبة[١]، ودخلت القادرية في إفريقية الغربية في القرن الخامس عشر على أيدي مهاجرين من توات Tuat، وهي واحة في الشطر الغربي من الصحراء؛ فاتخذوا من ولتا Walata أول مركز لطريقتهم، ولكن أحفادهم طردوا عن هذه المدينة فيما بعد، فلجئوا إلى تمبكتو في جهة نائية شرق ولتا.

وفي مستهل القرن التاسع عشر نجد النهضة الروحية الكبيرة التي كانت تؤثر في العالم الإسلامي تأثيرًا عميقًا، تدفع بالقادرية الذين كانوا في الصحراء الكبرى وفي السودان الغربي، إلى حياة ونشاط جديدين، ولم يمض زمن طويل حتى وجدنا فقهاء مثقفين، ومقاطعات صغيرة ممن انضموا إلى القادرية قد انتشروا في أرجاء السودان الغربي من السنغال إلى مصب النيجر. وتقوم المراكز الرئيسية لتنظيم دعوتهم في كنكا وتمبو Timbo (فوتا جالون) ومسردو (Musardo) (الواقعة في بلاد مندنجو Mandingo)[٢].

وكانت هذه المدن تؤلف مراكز النفوذ الإسلامي وسط شعب وثني رحب بالقادرية باعتبارهم كتابًا وفقهاء وكتاب تمائم ومعلمين. وتسلطت القادرية شيئًا فشيئًا على من كان يحيط بها. وسرعان ما تطور الدخول في الإسلام من حالات فردية إلى جماعة صغيرة من الذين دخلوا في الإسلام كان يرسل منهم في أغلب الأحيان من هم معقد الرجاء إلى المراكز الرئيسية لهذه الجماعة، ليتمموا دراستهم، بل كانوا يبعثون إلى مدارس القيروان أو طرابلس، أو إلى جامعات فاس والأزهر بالقاهرة[٣]. وربما قضوا في هذه البلاد عدة سنوات حتى يتقنوا دراستهم الدينية ثم يعودون إلى أوطانهم مزودين قزودًا تامًا للاشتغال بنشر العقيدة بين مواطنيهم.

وعلى هذا النحو تسربت نواة الإسلام إلى عبدة الفتش والوثنيين، فنشرت العقيدة تدريجيًا نشرًا قويًا مستمرًا، وقد تم ذلك بخطوات غير محسة في الغالب. وكان المعلمون

---

(١) Rinn, p. 175.

(٢) Bonet-Maury, p. 439.

(٣) Id, p. 230.

حتى منتصف القرن التاسع عشر، يؤسسون المدارس في السودان ويشرفون عليها؛ وكان هؤلاء المعلمون قد تربوا في كنف القادرية ونظامهم الذي أقاموه على طريقة منظمة مستمرة في دعوة القبائل الوثنية. وكان نشاط هذه الجماعة في الدعوة ذا طابع سلمي للغاية، يعتمد كل الاعتماد على الإرشاد وعلى أن يكون الواحد منهم قدوة لغيره، كما كان يعتمد على مبلغ تأثير المعلم منهم في تلاميذه، وعلى انتشار التعليم[١].

وبهذه الخطة برهن دعاة القادرية في السودان على أنهم أوفياء لمبادئ مؤسس الجماعة ولتقاليدها العامة؛ ذلك لأن أهم المبادئ التي كانت تسيطر على حياة عبد القادر هي حب الجار والتسامح. ومع أن الملوك وأصحاب الثراء كانوا يرادفون له هداياهم، كان كرمه البالغ يجعله دائمًا في فقر، ولا تجد في كتبه ولا في مواعظه ما يدل على سوء نية أو عداوة نحو المسيحيين. وكان كلما تكلم عن أهل الكتاب، لم يزد على أن يعبر عن أسفه على ما هم فيه من باطل، ويدعو الله أن ينير لهم السبيل. وقد أوصى تلاميذه بهذا السلوك السمح، الذي كان صفة بارزة في أتباعه في جميع العصور[٢].

أما التيجانية التي تنتسب إلى طائفة نشأت في بلاد الجزائر حول نهاية القرن الثامن عشر، فقد سارت منذ قامت في السودان حول منتصف القرن التاسع عشر على نفس أساليب القادرية في الدعوة. ويعزى تعدد مدارسهم في الغالب إلى نشر العقيدة؛ ولكن التيجانية، التي كانت تختلف عن القادرية، لم تتورع عن اللجوء إلى السيف، يستعينون به على إنجاح خطتهم في تحويل الناس إلى الإسلام. وإذا ما قدرنا نشاط هؤلاء في الدعوة إلى الإسلام في إفريقية الغربية تقديرًا صحيحًا، فإنه يؤسفنا أن نجد شهرة جهادهم أو حروبهم الدينية قد طغت على نجاح الدعاة المسلمين، على الرغم من أن أعمال الأخيرين كانت أجدى على انتشار الإسلام من إنشاء دويلات صغيرة قصيرة الأجل.

ونجد أخبار الحملات وخاصة عندما كانت تتناول المشروعات التجارية أو خطط

---

(١) Le Chatelier (2), pp. 100-9.

(٢) Rinn, p. 174.

الغزو التي قام بها الجنس الأبيض، تسترعي بطبيعة الحال انتباه الأوربيين أكثر من أن تسترعي انتباههم الأعمال السلمية التي كان يقوم بها دعاة المسلمين ومعلموهم. ولكن تاريخ أمثال هذه الحركات له تلك الأهمية، وهي أن الغزو – كما كان يحدث دائمًا في حالة الإرساليات المسيحية أيضًا – قد فتح ميادين جديدة لنشاط الدعوة، وجعلهم يعتقدون بوجود آفاق واسعة من البلاد لا يزال أهلها على الوثنية.

أما أولى الحركات الحربية التي قام بها أفراد التيجانية في نشر الدعوة، فتعزى نشأتها إلى الحاج عمر الذي كان قد دخل في هذه الجماعة على يد أحد زعمائها الذي تعرف عليه في مكة. ولد الحاج عمر سنة ١٧٩٧ على مقربة من بودور Podor على السنغال الأسفل، ويظهر أنه كان رجلاً كريم السجايا، ذا نفوذ شخصي، ومظهر يوحي بالسيطرة والقوة. وكان ابنًا لأحد المرابطين، وتثقف ثقافة دينية متينة، واشتهر بعلمه وورعه قبل خروجه إلى الحج سنة ١٨٢٧. ولم يعد، من الحج، إلى وطنه إلا سنة ١٨٣٣، حيث نشط في نشر تعاليم التيجانية وهاجم أبناء دينه لجهلهم مهاجمة عنيفة، وخاصة شيوخ القادرية الذين أثار تساهلهم وتراخيهم بنوع خاص سخطه وغضبه.

وقد عبر الحاج عمر السودان الأوسط، فظهر بكثير من الأتباع، وكرّم كنبيّ جديد، وما إن وافت سنة ١٨٤١ حتى كان قد بلغ فوتا جالون، حيث سلح أتباعه وبدأ سلسلة من الحملات في نشر تعاليم الدعوة بين القبائل التي كانت لا تزال على الوثنية، وكانت تقيم حول النيجر الأعلى والسنغال. وفي إحدى هذه الغزوات لقى حتفه في سنة ١٨٦٥. ولم ينجح ابنه، أحمد شيخو، في ضم مختلف الولايات في مملكة أبيه إلا سنوات قلائل؛ ثم صدعتها المنازعات الداخلية وقدوم الفرنسيين، وانتقلت أراضيها إلى حكم فرنسا[1].

ذكرنا من قبل طرفًا عن دخول الإسلام في هذا الجزء من إفريقية. كانت البذرة التي بذرها هناك عبدالله بن ياسين وأصحابه تتغذى من الصلة المستمرة مع تجار المسلمين ومع

---

(١) Oppel, pp. 292-3, Blyden, p. 10. Le Chatelier (3), p. 167 sqq,

عرب واحة الحوصة وغيرهم. ويحدثنا رحالة في القرن الخامس عشر كيف جاهد العرب في تعليم رؤساء الزنج شريعة محمَّد، مبينين لهم أنه من العار عليهم، أن يكونوا رؤساء يعيشون من غير أن تكون لهم أية شريعة من الشرائع الربانية، وأن يفعلوا ما فعلت الجماعات المنحطة التي عاشت من غير أن تكون لها شريعة على الإطلاق. ومن هنا، قد يظهر أن هؤلاء الدعاة الأول استغلوا الطابع الذي تميز به الدين الإسلامي، ودستور الحكم فيه ليؤثروا في عقول هؤلاء المتوحشين غير المتحضرين[١].

ولدينا تفاصيل أوفى عن حركة من هذا النوع ذاته أحدث من تلك، قامت في جنوب سنغامبيا، على يد أحد المندنجو، ويدعى صمودو، وقد اشتهر باسم سمرى، وهو جندي وثني موسر، ولد حول سنة ١٨٤٦، وأصبح مسلمًا في عهد مبكر من تاريخ حياته، وأسس إمبراطورية في جنوب سنغامبيا في البلاد التي يرويها الحوض الأعلى من نهر النيجر وروافده. وقد كتب أحد مؤرخي هذه البلاد بالعربية عن سيرة سمرى، كتابة تمدنا ببعض تفاصيل ممتعة عن أعماله؛ ويبدأ كالآتي:

"هذه قصة الإمام أحمد صمودو، أحد أفراد المندنجو... لقد أنعم الله عليه بعونه منذ أخذ في زيارة الوثنيين عبدة الأصنام، أولئك الذين يعيشون بين البحر وبلاد وسولو، وكان يزورهم بقصد دعوتهم إلى اتباع دين الله، الدين الإسلامي. ولتعلموا يا من تقرءون هذا أن الإمام صمودو وجّه همته أول الأمر إلى بلدة تدعى فولندية. ولما كان يعمل بالكتاب والشريعة والسنة أرسل رسلًا إلى ملك هذه البلدة، ويدعى سنديدو، يدعوه إلى الإذعان لحكومته، ونبذ عبادة الأصنام، وإلى عبادة الإله الواحد العلي الحق الذي تنفع عبادته خلقه في هذه الدنيا وفي الآخرة؛ ولكنهم تأبوا على الخضوع، ففرض عليهم الجزية، كما أمر بها القرآن؛ ولكنهم ظلوا في عماوتهم وصممهم، فجمع الإمام للجهاد قوة صغيرة تقرب من خمسمائة رجل، كانوا شجعانًا أشداء، وحارب هذه المدينة، فأعانه الله ونصره عليهم، وقد طاردهم بخيله حتى سلموا. إنهم لن يعودوا إلى وثنيتهم، وذلك لأن كل

(١) Delle Navigationi di Messer Alvise da ca da Mosto. (A.D. 1454) Ramusio, tom i.p. 101.

أولادهم الآن في مدارس يحفظون فيها القرآن، ويلمون فيها بأطراف من الدين والتهذيب. والحمد لله على هذا[١]".

وليس من الممكن في هذا المقام أن نتتبع سلسلة فتوحاته التي تميزت بكثرة المذابح والتخريب[٢]. وقد بلغ أحمد صمودو أوج قوته حول سنة ١٨٨١، وبعد ذلك بقليل دخل في نزاع مع الفرنسيين، فأسروه سنة ١٨٩٨ بعد سلسلة من الغزوات القاسية، ومات في سنة ١٩٠٠. ومع أن فتوحاته انتهت بالقضاء على جموع كبيرة من الوثنيين ذبحهم جنوده القساة، وتظاهر آخرون بقبول الإسلام بدافع الخوف، يظهر أنه لم يكن يهدف إلى نفس هذا الغرض الديني الواضح الذي كان يهدف إليه الحاج عمر[٣]. وقد خلف للمرابطين من القادرية مهمة الدعوة، فبذلوا، بما عرف عنهم من التقاليد التي ساروا عليها في التسامح، مجهودًا كبيرًا ليخففوا من أعماله الوحشية[٤]. وفتحوا المدارس في المدن التي كانت قد غلبت على أمرها، وهناك وضعوا نظام جماعتهم، وعلموا من دخلوا في الإسلام حديثًا، كما سعوا في نفس الوقت إلى جذب مسلمين جدد.

أما فيما يتعلق بهذه الحركات العسكرية في الدعوة إلى الإسلام، فمن المهم أن نلاحظ أن الانتصارات الحربية وفتح البلاد لم تكن أهم ما ساعد على تقدم الإسلام في هذه المناطق، إذ اتضح أن ما قام به الحاج عمر من تحويل الناس إلى الإسلام بالقوة قد نسي سريعًا فيما عدا هذه المناطق الصغيرة التي بقيت في أيدي خلفائه بصفة نهائية. وعلى الرغم من عظمة انتصاراته المؤقتة وحماسة جيوشه، لم يبق لهذه الدعوة المسلحة إلا آثار يسيرة جدًا[٥]. أما الأهمية الحقيقية لهذه الحركات في تاريخ الدعوة الإسلامية في إفريقية الغربية فهي ما أثاره هؤلاء من حماسة دينية، تجلت في نشاط الدعوة إلى الإسلام بين

---

(١) Blyden, pp. 357-60.

(٢) تناول Le Chatelier (3) هذه المسألة بالتفصيل ص ٢٢٥ وما بعدها.

(٣) Le Chatelier (3), p. 237 لم يتدخل سمورى في المسألة الدينية تدخلًا مباشرًا، وقد وصل L.G. Binger إلى هذه النتيجة نفسها، عن طريق معرفته الشخصية بسمورى. (Le Péril de L'Islam, p. 20) (Paris, 1906)

(٤) Le Chatelier (3), pp. 238-40.

(٥) Le Chatelier (2), p. 112. R. du M. M., vol. xii. P. 22.

الشعوب الوثنية الذي كان واسع النطاق والذي كان ذا طابع سلمي خالص. ولم تكن هذه الحروب الدينية، إذا ما نظرنا إليها نظرة صحيحة، إلا أحداثًا عارضة في النهضة الإسلامية الحديثة. ولم تكن بحال ما صفة تميز القوى وألوان النشاط التي كانت تؤثر تأثيرًا حقيقيًا في نشر الدعوة الإسلامية في إفريقية، والواقع أنه لو لم يتبع هذه الحروب نشاط متميز في نشر الدعوة، لدلت على أنها تقريبًا لم تكن ذات أثر فعال على الإطلاق في خلق جماعة إسلامية حقة.

والواقع أن الحروب الهدامة والقسوة الغاشمة من جانب الفاتحين من أمثال الحاج عمر وسموري ورسل التيجانية بصفة خاصة، قد جعلت عقيدة الإسلام مكروهة كرهًا شديدًا من قبائل السودان الوثنية في البلاد التي يرويها السنغال والنيجر. ويكاد يتخذ هذا العداء الذي أضمرته هذه القبائل للدين الإسلامي صورة حركة قومية، ولكن مع هذا كانت لا تزال الدعوة الإسلامية تنشر عقيدة النبي في أجزاء كثيرة من غينا وسنغامبيا، تلك المناطق التي كان يحمل إليها جماعة الفلبي[1] وتجار من الحوصة في رحلاتهم التجارية المتكررة معارف دينهم، ونجحوا خلال القرن الماضي والقرن الحالي في الظفر بجموع كبيرة دخلت في الإسلام.

ومما هو جدير بأن نخصه بالذكر، نشاط هؤلاء الدعاة من القادرية وتجار المسلمين الذين كسبوا لدينهم مسلمين جددًا أدخلوهم في دينهم منذ جلب الاحتلال الفرنسي السلام إلى البلاد، وإن تغلغل الدين في السودان الفرنسي بالطرق السلمية، وكذلك تغلغله في أجزاء أخرى من إفريقية، كانت قد دخلت حديثًا تحت سلطان النفوذ الأوربي، قد لقي تيسيرًا بفضل ما أظهره الموظفون الفرنسيون من الاحترام والتقدير للطبقات المتعلمة، وكلها بطبيعة الحال من المسلمين، وما أظهره هؤلاء الموظفون من احتقار سافر للعادات المنحطة والخرافات التي كانت متفشية بين عبدة الفتش الوثنيين[2].

---

(١) وقبائل الفلبي جميعًا مسلمون متحمسون، فحيثما وجدوا؛ تجد مسجدًا. (Haywood, p. 200)

(٢) Le chatelier (3), pp. 231,273, 303. Westermann, pp. 632-3

لكن نشاط نشر تعاليم الدعوة الذي قامت به الفرقة التي سنتحدث عنها لم يكن مقترنًا بحال ما بعمل من أعمال العنف والحرب، ولم يستعمل في خدمة الدين إلا كل ضروب السلام والإغراء.

وفي سنة ١٨٣٧ أسس فقيه جزائري يدعى سيدي مُحَمَّد بن على السنوسي، جمعية دينية تهدف إلى إصلاح شأن الإسلام ونشر العقيدة الإسلامية، ولم يمت السنوسي سنة ١٨٥٩ حتى كان قد نجح في تأسيس دولة دينية بقوة عبقريته الصافية دون أن يريق الدماء، ويدين أتباعه بالطاعة والولاء لهذه الدولة التي يوسع خلفاؤه حدودها كل يوم[١]. ويلتزم أفراد هذه الجماعة القيام بأوامر القرآن بكل دقة وبما يتفق وأكثر مبادئ التوحيد تشدُّدًا، تلك المبادئ التي تجعل التعبد لله وحده، وتحرم التضرع للأولياء وزيارة قبورهم تحريمًا تامًّا، وقد أوجبوا على أنفسهم أن يمتنعوا عن شرب القهوة والتدخين، وأن يتجنبوا كل اتصال باليهود أو المسيحيين، وأن يساهموا بنصيب معين من دخلهم يضاف إلى أموال الجماعة إذا لم يستطيعوا أن يكرسوا أنفسهم لخدمتها. كما أوجبوا على أنفسهم أن يقفوا كل نشاط على تقدم الإسلام، وأن يقاوموا في الوقت نفسه أي لون من ألوان الخضوع للنفوذ الأوربي.

وتنتشر هذه الجماعة في إفريقية الشمالية كلها، وتنتشر زواياها حول بلاد شمال إفريقية من مصر إلى مراكش، كما تمتد إلى الداخل في واحات الصحراء وفي السودان، وكان مركز تنظيمها في واحة جغبوب[٢] في الصحراء الليبية بين مصر وطرابلس، وفي هذه القرية كان يتعلم كل عام مئات من الدعاة ثم يرسلون إلى كافة أجزاء إفريقية الشمالية دعاة للإسلام. وكانت زواياهم الفرعية (ويقال: إنها بلغت ١٢١ زاوية) تتلقى من زاويتهم

---

(١) مُحَمَّد بن عثمان الحشائشي ص٨٤ وما بعدها.

(٢) في سنة ١٨٩٥ هاجر إلى كفره سيدي المهدي، وهو ابن سيدي مُحَمَّد السنوسي وخليفته؛ لأنها كانت أكثر توسطًا من جغبوب (مُحَمَّد بن عثمان الحشائشي ص ١١١–١١٥)؛ ولكنه توغل فيما بعد جنوبًا إلى منطقة بوركو **Borku** وتبستي **Tibesti** حيث توفي سنة ١٩٠٢، وكان رئيس الجماعة في سنة ١٩٠٨ سيدي أحمد، أحد أقرباء مؤسس الجماعة.

(J. C. E. Falls: Drei Jahre in der libyschen Wuste, p. 274.) (Freiburg, 1911).

الرئيسية في جغبوب التعليمات والأوامر في كل المسائل المتعلقة بتدبير وتوسيع هذه الدولة الدينية الكبرى التي كانت تضم – في نظام رائع – آلافًا من أشخاص ذوي جنسيات وقوميات متباينة، ولو لم يكن الحال على هذا النحو لفرقت بينهم الفوارق الجغرافية الشاسعة والمنافع الدنيوية. ولما كان النجاح الذي تحقق على أيدي دعاة هذه الجماعة المتحمسين النشيطين عظيمًا، لم يقتصر وجود أتباعهم على كل إفريقية الشمالية من مصر إلى مراكش وفي أرجاء السودان وسنغامبيا وبلاد الصومال كافة، بل نجدهم كذلك في بلاد العرب والعراق وجزائر أرخبيل الملايو[١].

ومع أن السنوسية كانت في أول أمرها حركة إصلاح داخلية في الإسلام نفسه، أصبحت إلى جانب ذلك حركة لنشر تعاليم الدعوة، وأصبحت عدة قبائل إفريقية كانت من قبل وثنية أو مسلمة إسلامًا اسميًّا بحتًا، من أتباع عقيدة النبي المتحمسين منذ أن حل فيهم دعاة السنوسية. ومن هذا النوع من النشاط نذكر على سبيل المثال: ما بذله دعاة السنوسية من جهد ليدخلوا في الإسلام، تلك الجماعة التي كانت لا تزال وثنية من قبيلة بيلي **Baele** (وهي قبيلة تسكن بلاد إنيدي **Ennedi** الجبلية شرقي بوركو) بل إنهم حملوا حماستهم الدينية إلى الجماعات الأخرى من القبيل لما وجدوا معرفتهم بالإسلام معرفة سطحية، ولم يكونوا إلا مسلمين اسمًا[٢].

أما جماعات التيدا **Tedas** التي كانت تقيم في تو **Tu** أو تيبستي **Tibesti** بالصحرا جنوبي فزان، والذين لم يكونوا كذلك إلا مسلمين اسمًا؛ فإنهم عندما قدم السنوسية وأقاموا بينهم يحملون الدليل كذلك على نجاح جهود هذه الطائفة[٣].

يضاف إلى هذا أن دعاة السنوسية يقومون بدعاية نشيطة في بلاد الجلا **Galla** فيرسلون إليها كل عام دعاة جددًا من هرر، حيث تتمتع السنوسية هناك بقوة كبيرة،

(١) **Riedel (1) pp. 7, 59, 162.**

(٢) **G. Nachtigal: Sahara und sudan, vol. ii, p. 175. (Berlin, 1879-81.)**

(٣) **Duveyrier, p. 45.**

ومنهم كل الرؤساء في بلاط الأمير تقريبًا بدون استثناء[1]. ويستعين دعاتهم على نجاح جهودهم في نشر تعاليم الدعوة بفتح المدارس، وقد ظفروا من استيطانهم في واحات الصحراء – وخاصة في وداي Wadai– بزيادة كبيرة في عددهم، وذلك بشراء عبيد كانوا يعلمونهم في جغبوب، فإذا ما رأوا أنهم تعلموا مبادئ المذهب تعليمًا كافيًا، أعتقوهم وأعادوهم إلى أوطانهم كي يدخلوا إخوانهم في الإسلام[2]، على أنه قد يظهر أن نفوذ هذه الجماعة في طريقه الآن إلى الانحلال[3].

ومع أن هذه الأخبار التي دونت عن جهود المسلمين في الدعوة إلى الإسلام بين قبائل السودان الوثنية ضئيلة، فإنها ذات أهمية بالنظر إلى النقص العام في الأخبار الخاصة بانتشار الإسلام في هذا الجزء من إفريقية.

ولكن بينما تعوزنا الشواهد التاريخية الثابتة، نجد المسلمين الذين يقيمون بين أظهر عبدة الفتش وعبدة الأصنام ويمثلون ديانة وحضارة أرقى، شاهدًا حسيًّا على الأعمال التي قام بها دعاة المسلمين في سبيل نشر الدعوة، كما أنهم يختلفون (وخاصة على الحافة الجنوبية الغربية من منطقة النفوذ الإسلامي) اختلافًا بينًا عن القبائل الوثنية التي أفسدت أخلاقها تجارة الخمور الأوربية.

وقد أوضح رحالة حديث[4] هذه المفارقة عندما تكلم عن حالة الانحلال التي وصلت إليها قبائل النيجر الأسفل:

"بينما كانت الباخرة تسير بي صعدًا في مياه النهر (يعني النيجر)، لم أجد إلا قليلًا

---

(1) Paulitschke, p. 214.

(2) H. Duveyrier: La Conferie musulmane de sidi Mohammed Ben Ali EsSenousi, passim. (Paris, 1886.) Louis: Marabouts et Khouans, pp. 481-513. N. Slousch: Les Senoussiya en Tripolitaine. (R, du M., vol. i. p. 169 sqq.) وللوقوف على ثبت بمراجع الحركة السنوسية، انظر:
Der Islam, iii. Pp. 141-2, 312.

(3) R. du M.M., vol. i. p. 181, vol. viii. Pp. 64-5

(4) Joseph Thomson (2), p. 185.

من التغيير للمناظر التي شاهدتها في الأميال المائتين الأولى؛ لأن الفتشية والوحشية وتجارة الخمور قد ازدهرت كلها في وحدة مؤتلفة. ولكني لما تركت وراءي المنطقة الساحلية المنخفضة، وألفيتني على مقربة من الحدود الجنوبية لما يسمونه السودان الأوسط، لاحظت تحسنًا مطردًا في المظهر الأخلاقي عند الأهلين، واختفت الوحشية، وتبعتها الفتشية في هذه السبيل، وزالت تجارة الخمور إلى حد بعيد، على حين صارت ملابسهم أكبر وأكثر احتشامًا، وأصبحت النظافة عندهم عادة، على حين دل مظهرهم الخارجي على وقار زائد وأدب جم، وقد دل كل شيء على أن هناك نواة لمبدأ أكثر رقيًّا إلى حد ما، ومن الواضح أن هذا المبدأ كان يؤثر تأثيرًا عميقًا في طبيعة الزنجي ويجعل منه إنسانًا جديدًا، ولعلك تدهش لو علمت أن هذا المذهب هو الإسلام. ولما مررت بلُكزجا **Lokoja** عند ملتقى نهر بنوى **Benue** بالنيجر تركت وراءي المراكز الأمامية لنشر الدعوة الإسلامية، فلما دخلت السودان الأوسط وجدتني في دولة أحسن نسبيًّا في طريقة حكمها، غاصة بجماعة نشيطة من التجار الأذكياء، وأناس مهرة في صناعة المنسوجات، والنحاس، والجلد؛ والواقع أنهم شعب تقدم تقدمًا عظيمًا في مراقي الحضارة والمدنية".

ولكي نقدر نشاط الدعوة الإسلامية في نجرتيا **Nigritia** تقديرًا صحيحًا، يجب ألا يعزب عن أذهاننا أنه بينما كان الداعي المسلم على السواحل وامتداد الحدود الجنوبية لمنطقة النفوذ الإسلامي، ممهد الطريق لدينه؛ فإنه كان لا يزال متروكًا وراءه هناك مجال واسع للدعاية الإسلامية في الأراضي الداخلية التي تمتد نحو الشمال والشرق، على الرغم من أن الإسلام رسخت أقدامه في هذه الأراضي منذ زمن بعيد. وكانت هناك جماعات من الفونج، وهم الجنس الزنجي الذي كانت له السيادة على سنار، يدين بعضهم بالإسلام وبعضهم الآخر بالوثنية، وقد حاول تجار مسلمون من بلاد النوبة أن يدخلوا هؤلاء الوثنيين في الإسلام(١).

---

(١) **Oppel, p. 303**

أما قبيلة جوكون **Jukun** الوثنية[1] التي دالت دولتها، وكانت قوية يومًا ما قبل أن يسير الفلبي في سبيل الفوز والغلبة، فقد ناهضت النفوذ الإسلامي الراجف، مع أن وزير ملكهم كان أجنبيًّا يختار دائمًا من المسلمين، وكانت جاليات من الحوصة وغيرهم من المسلمين تستقر بين ظهرانيهم. ولكن هؤلاء المستوطنين من المسلمين لا يصادفون نجاحًا في أن يدخلوا في الإسلام أحدًا من بين الجوكون الذين كانت تقاليد مجدهم القديم تجعلهم يتمسكون بعقيدتهم القومية، وكانت زعامتها الروحية تتمثل في شخص ملكهم[2].

ولعله من اليسير أيضًا أن نحصي كثيرًا من عشائر السودان وسنغامبيا، ما زالت تحتفظ بعاداتها وعقائدها الوثنية، أو تكسو هذه العادات والعقائد بستار من شعائر، على الرغم من أن أتباع النبي كانوا (في معظم الأحوال) يحيطون بهم منذ قرون. ولا يزال الكنو **Konnohs**، وهم فرع من قبيلة مندنجو الكبيرة، يدين معظمهم بالوثنية، ولم يتقدم الإسلام بينهم إلا في السنين الأخيرة[3].

وكان من أثر ذلك أن الحماسة العظيمة في مهمة نشر الدعوة التي تجلت بين مسلمي هذه الجهات في خلال القرن الحالي، لم تجد مجالًا واسعًا يمكنها من إظهار نشاطها، ومن ثم جاءت الأهمية في تاريخ الدعوة إلى الإسلام في هذه القارة، ثم أهمية حركات الإصلاح في الإسلام ذاته ونهضات الحياة الدينية، وهي مسائل لفتنا النظر إليها من قبل.

أما الساحل الغربي من إفريقية فهو ميدان آخر لمشروع الدعوة الإسلامية، حيث وجد الإسلام نفسه أمام شعب ضخم لم يكن قد أسلم بعد، على الرغم من أنه ازدهر على ساحل غينا، وفي سيراليون وليبريا، تلك البلاد التي نجد عدد المسلمين فيها أخيرًا أكثر من عدد الوثنيين.

---

(1) وتقع في ولاية موري **Muri** في نيجريا الشمالية.

(2) **Journal of the African Society, vol. vii. Pp. 379-81**

(3) **Haywood. P. 33.**

وهناك ملاحظة من أسبق ما لوحظ على نشاط الدعوة الإسلامية في البلاد المجاورة لسيراليون، نجدها في التماس لحل جماعة سيراليون Sieerra Leone Company أمر مجلس العموم بطبعه، في الخامس والعشرين من مايو سنة ١٨٠٢، وهذا نصه:

"منذ مدة لا تزيد على سبعين عامًا، استقرت جماعة صغيرة من المسلمين في بلاد تبعد عن سيراليون من ناحية الشمال بما يقرب من أربعين ميلًا، وسموها بلاد مندنجو، وكما هي العادة عند أساتذة هذا الدين (الإسلام) فتحوا مدارس تدرس فيها اللغة العربية والعقائد التي جاء بها مُحَمَّد، وجروا على عادات المسلمين، وخاصة في عدم بيع أبناء دينهم بيع الرقيق، وقد أقاموا لأنفسهم شرائع استخرجوها من القرآن، واستأصلوا ما كان هناك من عادات تساعد على تخريب الساحل من السكان.

وعلى الرغم من وجود كثير من اضطرابات قومية، جلبوا إلى البلاد حضارة بلغت درجة عظيمة نسبيًّا، كما جلبوا لها الاتحاد والطمأنينة، وكان من أثر ذلك أن ازداد السكان زيادة سريعة، وانتقل إلى أيديهم شيئًا فشيئًا كل النفوذ في تلك الجهة من البلاد التي يقيمون فيها. أما هؤلاء الذين تعلموا في مدارسهم فإنهم يسيرون نحو الثراء والقوة في البلاد المجاورة للمندنجو، ويعودون ومعهم قسط وافر من دينهم وشرائعهم.

وهناك رؤساء آخرون ينتحلون الأسماء التي اتخذها هؤلاء المسلمون لأنفسهم بسبب ما يقترن بها من احترام وتوقير، ويبدو أن من الممكن أن ينتشر الدين الإسلامي في أمن وسلام انتشارًا سليمًا في كل المنطقة التي تقع فيها مستعمرة المندنجو حاملًا معه تلك المزايا التي تتغلب فيما يظهر دائمًا على خرافات الزنوج[١]".

ويظهر أن الإسلام لم يجد له منفذًا في بلاد مندي Mendi التي تقع على بعد مائة ميل تقريبًا جنوبي سيراليون، إلا في القرن الحاضر؛ ولكنه الآن يتقدم تقدمًا ثابتًا.

"ولا يقوم هناك بالدعوة أية جماعة خاصة من الدعاة تفرغت لهذا الغرض، بل كل

---

(١) Claude George: The Rise of British West Africa, pp. 120-1. (London, 1902)

مسلم هناك داعية نشيط، وإذا ما اجتمع في مدينة ستة رجال منهم وأقل من ذلك أو أكثر، وعزموا على أن يقيموا فيها فترة من الزمن؛ سارعوا إلى بناء مسجد وأخذوا ينشرون الدعوة، فهم يتقدمون أولًا إلى رئيس المدينة ويحصلون منه على الموافقة على عملهم الذي يقصدون إليه، وربما ظفروا بوعد منه أن يصبح مشايعًا لهم ويعلمونه صلاتهم بالعربية، أو يُحَفِّظُونَهُ منها القدر الذي يستطيع أن يحفظه أو يعيه، ويمدونه بالصيغ والشعائر التي تستعمل في الصلاة، ويحرمون عليه تناول المشروبات الروحية– وسواء روعي هذا الشرط أم لم يراعَ – أصبح الرجل مسلمًا[١]".

وعلى ساحل غينا تنتشر المؤثرات الإسلامية بوجه خاص على أيدي تجار الحوصة الذين نجدهم في كل المدن التجارية على هذا الساحل، وكلما أنشئوا لهم مقرًّا؛ أسرعوا إلى بناء مسجد، وأثروا في السكان الوثنيين بمسلكهم القائم على الورع وثقافتهم المتفوقة، وقد دخلت في الإسلام قبائل بأجمعها من عبدة الفتش دون أن يبذل المسلمون أية جهود خاصة يستوجبها إغراؤهم؛ وإنما كان ذلك نتيجة لاقتدائهم بما يرون أنه حضارة أرقى من حضارتهم[٢].

أما أشنتي فكان فيها نواة لمجتمع إسلامي يرجع وجوده فيها إلى سنة ١٧٥٠، ولما كان دعاة الإسلام قد لقوا ترحيبًا من أهالي هذه البلاد وظفروا بنفوذ كبير في البلاط، جدوا في العمل منذ ذلك الحين مع نجاح بطيء ولكنه محقق[٣]، واستطاعوا بواسطة مدارسهم أن يسيطروا على عقول الجيل الأحدث، ويقال إن هناك علامات واضحة على أن الإسلام ستصير له الغلبة في أشنتي إذ دخل فيه كثير من الرؤساء[٤].

وفي دهومي Dahamey وساحل الذهب يتقدم الإسلام كل يوم تقدمًا جديدًا، حتى

---

(١) Islam and Missions, pp. 73-4

(٢) Lippett: Uber die Bedeutung der Haussanation fur unsere togo- und Kamerunkolonie P.200 MSOS, Band.x (1907), Abteilung III.

(٣) Wailtz: 11er. Theil, P.250.

(٤) C.s salmon, P801.

لا يعتقد شيوخ القبائل الوثنية أنفسهم الإسلام نجدهم يبيحون لأنفسهم – في أوقات كثيرة – أن يصبحوا تحت تأثير دعاة هذا الدين، الذين يعرفون كيف يستغلون هذا النفوذ للدعوة بين عامة الناس(١).

وفي هذا الجزء من القارة تعتبر دهومي وأشنتي أهم الدول التي لا تزال يحكمها حكام وثنيون، ويقال إن تحولهما إلى الإسلام لا يحتاج إلا إلى زمن قصير، ويوجد قرابة ١٠٠٠٠ مسلم في لاجوس Lagos، كما أن كل المراكز التجارية في الساحل الغربي تضم بين سكانها جماعات إسلامية من القبائل الزنجية الراقية من أمثال الفلبي والمندنجو والحوصة.

وحين يهبط رجال هذه القبائل إلى مدن الساحل، وهم يأتون إليها جماعات ضخمة، إما تجارًا وإما جنودًا يخدمون في جيوش السلطات الأوربية، لا يعجزون بحال عن أن يؤثروا في زنجيِّ الأراضي الساحلية، وذلك بما لهم من جرأة وروح استقلالية.

ويرى زنجيو الساحل أن حكام الأوربيين والموظفين والتجار يحترمون الذين يؤمنون بالقرآن أينما كانوا، وأن هؤلاء المؤمنين لا يختلفون عنه في الجنس أو المظهر، ولا في الزي أو الطباع اختلافًا بعيدًا يستحيل معه أن يدخل في زمرتهم؛ بل إن هؤلاء المؤمنين فضلًا عن ذلك قد منحوه حظًّا من امتيازاتهم على شريطة أن يدخل في دينهم(٢).

وإذا ما أظهر الزنجي الوثني– مهما كان خاملًا مغمورًا – رغبته في قبول تعاليم النبي، بادروا بضمه إليهم، فيصبح واحدًا منهم متساويًا معهم، وليس قبوله في أخوة المسلمين امتيازًا يمنحونه إياه متبرمين؛ ولكنه امتياز يمنحه إياه رغبة وحرية، دعاة ذوو غيرة وحماسة في نشر تعاليم الدعوة، ولهذا فمن مصب السنغال حتى لاجوس، في مسافة تبلغ ألفي ميل، يندر فيما يقال أن نجد مدينة ذات أهمية على ساحل البحر ليس فيها مسجد واحد على الأقل، ومعه دعاة نشيطون يعملون في أغلب الأحيان جنبًا إلى جنب مع معلمي المسيحية(٣).

---

(١) Pierre Bouche, P256.

(٢) C.S.Salmon, P887

(٣) Blyden, P.202 Westermann, pp.633-4.

ولننتقل الآن إلى تاريخ انتشار الإسلام على الجانب الآخر من قارة إفريقية، ذلك الجانب الذي كان سكانه وثيقي الصلة بالأرض التي نشأ فيها الإسلام. على أن الحقائق التي دُونت عن المواطن الأولى التي استقر فيها العرب على الساحل الشرقي ضئيلة جدًّا، ويذكر أحد الكتب التاريخية العربية – وكان قد وجده البرتغاليون في مدينة كلوا[١] Kiloa حين اجتاحها دون فرنسيسكو دالميدا في سنة ١٥٠٥، أن أول من هاجر كانوا جماعة من العرب نفوا لأنهم اتبعوا تعاليم خارجة على الدين، كان يقول بها شخص يدعى زيدًا[٢]، من سلالة النبي، وقد سموا إموزيديج (وربما قصدوا بذلك أمة زيدية) نسبةً إليه. ولا يبعد أن يكون زيد الذي أشير إليه هنا هو زيد بن على حفيد الحسين، كما هو واحد من أحفاد على ابن عم النبي مُحَمَّد (عليه السلام): وقد ادعى في عهد الخليفة هشام أنه الإمام المهدي، وأشعل نار الثورة بين حزب الشيعة؛ ولكنه هزم وقتل سنة ١٢٢هـ (٧٤٠)[٣].

ويظهر أن هذه الجماعة عاشت في خوف عظيم من سكان البلاد الأصليين الوثنيين، ولكنها نجحت بالتدريج في بسط مواطنها على طول الساحل، حتى جاءتها جماعة أخرى من المهاجرين الذين قدموا من الشاطئ العربي للخليج الفارسي، من مكان لا يبعد عن جزيرة البحرين.

وجاء هؤلاء في سفن ثلاث بزعامة سبعة إخوة هاربين من اضطهاد ملك لاساه[٤]، وهي مدينة قريبة من موطن قبيلتهم، وأول مدينة بنوها هي مجدكسو[٥] التي ارتفعت فيما بعد إلى تلك القوة التي جعلتها سيدة على كل عرب الساحل؛ ولكن لما كان المستوطنون الأصليون وهم الأموزيديج من حزب يختلف عن حزب اللاجئين الجدد، حيث كان الأولون من الشيعة والآخرون من أهل السُّنة، أبوا أن يخضعوا لسلطة حكام مقدشو،

---

(١) تقع على جزيرة على مسافة ٥ جنوبي زنجبار

(٢) De barros dec, I, Liv, viii, cap, iv.P.211

(٣) ابن خلدون ج٣ ص٩٨–١٠٠

(٤) من الممكن أن تكو ن محرفة من الحسا. انظر ابن بطوطة ج٢ ص٢٤٧–٨.

(٥) أو مقتشو كما تسمى عند العرب

وارتدوا إلى الداخل حيث اندمجوا في السكان الأصليين وتزاوجوا معهم وتطبعوا بطباعهم وتخلقوا بأخلاقهم(١).

وقد أنشأت مقدشو حول منتصف القرن العاشر وظلت أقوى مدينة على الساحل زهاء سبعين سنة حينما أدى قدوم مهاجرون آخرين من الخليج الفارسي إلى إنشاء وطن آخر ينافسها على بعد منها من ناحية الجنوب، وكان زعيم هؤلاء المهاجرين يدعى عليًّا، وهو أحد الأبناء السبعة لأحد سلاطين شيراز ويدعى حسنًا: ولما كانت أمه حبشية؛ ازدراه إخوته، وعاملوه معاملة قاسية، جعلته يصمم على أن يهجر وطنه ويبحث عن موطن في مكان ما $Ormu_z$ ومعه زوجته وأولاده وجماعة صغيرة من أتباعه، وسار متجنبًا مقدشو التي ينتمي سكانها إلى فرقة دينية تختلف عن الفرقة التي ينتمي إليها، فمضى في طريقه صوب الجنوب، إذ سمع أن الذهب يوجد في ساحل زنجبار، وأسس مدينة كلوا، وهناك استطاع أن يحتفظ بمركز مستقل، وأن يكون متحررًا من تدخُّل أسلافه المقيمين بعيدًا عنه في الشمال(٢).

وبهذه الطريقة ظهر عدد من المدن العربية على طول الساحل الشرقي من خليج عدن حتى مدار الجدي على حافة ما كان جغرافيو العرب في العصور الوسطى يطلقون عليه أرض الزنج، وأيًّا كانت الجهود التي بذلها المستوطنون المسلمون في تحويل الزنج إلى الإسلام؛ فالظاهر أنه لم يبق لنا سجل عنها.

وهناك قصة غريبة محفوظة في مجموعة رحلات قديمة، لا يبعد أنها كتبت في أوائل القرن العاشر، تصور لنا الإسلام بأنه دخل في إحدى هذه القبائل على يد ملكها نفسه؛ ذلك أن سفينة تجارية عربية أقصتها الريح عن طريقها في سنة ١٩٢٢م وأرسلتها إلى بلاد الزنج الذين يأكلون لحم البشر، حيث توقع البحارة موتًا محققًا؛ ولكن حدث لهم عكس ما توقعوه، إذ تلقاهم الملك لقاءً رحيمًا ورحب بهم ترحيبًا كريمًا عدة شهور باعوا في خلالها

(١) J. deBarrosm dec.i. Liv. vilii. cap.iv.pp.211-12.

(٢) de Barros id, PP.224-5. See Also, Justus Strandes: die Portugiesenzeit von deutsh English Ostafrike p.81 sqq (berlin, 1899).

بضاعتهم بشروط مربحة؛ ولكن التجار ردوا عليه كرمه بخيانة شائنة، فأوثقوه هو وحاشيته حين ركبوا السفينة يودعونهم، وحملوهم معهم إلى عمان رقيقًا، وبعد سنوات قليلة طوحت الريح بهؤلاء التجار أنفسهم إلى نفس الميناء، فعرفهم الأهالي وطوقوهم بقواربهم؛ فسلموا أنفسهم متوقعين الموت في هذه المرة، فصلى كل منهم على الآخر صلاة الموت. ثم أخذوا إلى حضرة الملك، حيث تبينوا في دهش وعجب، أنه الملك نفسه الذي عاملوه معاملة جد مخزية قبل ذلك ببضع سنين. وبدلًا من أن يقتص منهم بأي نوع من القصاص لمسلكهم الغادر، أبقى على حياتهم، وتركهم يبيعون بضاعتهم، ولكنه رفض الهدية الثمينة التي قدموها إليه رفضا ينطوي على التقريع. وقبل أن يبرحوا تقدم واحد منهم في جرأة إلى الملك وسأله أن يقص قصة فراره؛ فوصف لهم كيف أخذ رقيقًا إلى البصرة، ومنها إلى بغداد، حيث أسلم وتفقه في الدين فلما هرب من مولاه لحق بقافلة الحجاج كانت ذاهبة إلى مكة؛ وبعد أن أدى مناسك الحج وصل إلى القاهرة وصعد في النيل صوب بلاده، فوصل إليها أخيرًا بعد أن تجشم كثيرًا من الأخطار، ووقع في الرق أكثر من مرة. ولما عاد إلى مملكته من جديد، علم قومه دين الإسلام.. "وأنا اليوم فرح مسرور لما من الله به عليَّ وعلى أهل دولتي من الإسلام والإيمان ومعرفة الصلاة والصيام والحج والحلال والحرام، وبلغت ما لم يبلغه أحد في بلاد الزنج وعفوت عنكم لأنكم السبب في صلاح ديني؛ فعرِّفوا المسلمين أن يأتونا فإنا نحن صرنا إخوانا لهم، مسلمين مثلهم"[1].

ومن هذا المصدر نفسه نعلم أنه حتى في هذه الفترة المبكرة، كانت جموع كبيرة من تجار العرب، تختلف إلى البلاد الساحلية. ولكن على الرغم من وجود صلة دامت قرونًا بين أهليها وبين المسلمين، كان تأثرهم (فيما عدا أهالي السومال) بالإسلام قليلًا قلة ملحوظة. وحتى قبل الفتوحات البرتغالية، وفي القرن السادس عشر، يظهر أن ما تم من حالات قليلة من حول الناس إلى الإسلام كان كله مقصورًا على الحدود الساحلية. وكذلك بعد أن تدهور النفوذ البرتغالي في هذا الجزء من العالم، وعاد هناك الحكم الغربي تحت إمرة سادة عمان، وإلى أن جاء القرن العشرين، كان من العسير أن تبذل أية جهود في نشر معارف الإسلام بين قبائل الجهات الداخلية، عدا قبائل الجلا وقبائل السومال.

ويقول رحالة حديث:

"لم أر في خلال الرحلات الثلاث التي قمت بها في شرق إفريقية الوسطى، شيئًا يحمل على الظن بأن الإسلام هناك قوة تصبغ البلاد بصبغة من الحضارة والمدنية. ومهما كانت القوة الحية في هذا الدين، فإنها ظلت مستكنة، ولم يكن العرب ولا أحفادهم في هذه البلاد دعاة إسلام. وليست هناك بعثات تدعو إليه، وإنما قنع أهل مسقط بأن يسير عبيدهم، إلى حد ما، وفق شعائر الدين. وقد تركوا قبائل إفريقية الشرقية، الذين كانوا في الواقع، في جهلهم المطبق راضين فيما يظهر بأن يظلوا سعداء في جهلهم. وتظهر عدم قابليتهم للحضارة ظهورًا جليًا في هذه الحقيقة الغريبة: وهي أنهم اتصلوا خمسة قرون بشعب نصف متحضر، ولم يترك فيهم ذلك أقل أثر للصفات الراقية التي كان يتصف بها جيرانهم، ولم تنبت وتزهر بذرة واحدة صالحة طوال هذه السنين" (١).

واستسلم العرب في إفريقية الشمالية كل الاستسلام سعيًا وراء التجارة وصيد الرقيق، فأظهروا فتورًا في ترقية شئون دينهم، فكان الفارق كبيرًا بين نشاطهم وبين ما أظهره إخوانهم في الدين نحو نشر الدعوة في أجزاء أخرى من إفريقية. على أن هناك حالة جديرة بالذكر نستثنيها، وهي نشاط نشر الدعوة الذي قام به تجار العرب أتيح لهم أن يدخلوا أوغندة في النصف الأول من القرن التاسع عشر؛ ومن المحتمل أنهم عرفوا أن قوة روح الحرية في أهل بجندة جعلت قنص الرقيق من بينهم مستحيلًا، ولهذا سعوا إلى كسب ثقتهم عن طريق تحويلهم إلى دينهم. وأسلم كثيرون من أهل بجندة في عهد الملك موتزا Mutesa، ولكن زيارة استانلي لهذا الملك في سنة ١٨٧٥ أدت إلى دخول إرساليات مسيحية في السنة التالية، واضمحلت قوة المسلمين في هذه الدولة بالزيادة السريعة في عدد المتنصرين وقيام الحماية الإنجليزية هناك(٢).

ولكن لا يزال في أوغندة عدد من المسلمين يشغلون مراكز مهمة، ومن المقرر أن

---

(١) عجائب كتاب الهند أو Li0vre de merveilles de L'inde, Publie par P.A van de Lithe 51.60 (Leiden, 1883)

(٢) Roscoe, P.229.sq

دخول الولاية الشرقية في الإسلام أمر ممكن. ويقال أن عددا ضخمًا من ذوي النفوذ بلاد بوسوجا Busoga الغنية، الواقعة في شمال أوغنده، والتي تخضع لإنجلترا، قد دخل في الإسلام سنة ١٩٠٦. [١]. ومع هذا الاستثناء، كان الإسلام في إفريقية الاستوائية الشرقية حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر منحصرا في البلاد الساحلية وما يتاخمها من البلاد. وقد يبدو تفسير ذلك، في أنه لم يكن في مصلحة جلاب الرقيق أن ينشروا الإسلام بين القبائل الوثنية التي يأخذون من بينها ضحاياهم التاعسين؛ إذ لو تحولت هذه القبائل إلى الإسلام، لتآخت معهم في الدين، ولأصبح غير ممكن أن تباغت وتؤخذ رقيقًا. [٢]

ولما منعت تجارة الرقيق لانتشار الحكم الأوروبي في إفريقية الاستوائية الشرقية، تلا ذلك توسع كبير في نشاط نشر الدعوة الإسلامية، وتوطد السلام والنظام في الجهات الداخلية، ومدت السكك الحديدية وأنشئت الطرق، وحينئذٍ استطاع التاجر المسلم أن يشق طريقه في مناطق مغلقة في وجهه حتى ذلك الحين. وقد اختارت إدارة هذه البلاد موظفها من بين أكثر السكان المسلمين ثقافة؛ فأنشأت حكومة إفريقية الشرقية الألمانية آلافا من الوظائف، أسندتها إلى موظفين من المسلمين، استغلوا نفوذهم في إدخال قرى بأجمعها في الإسلام[٣]، وكان معلمو مدارس الدولة مسلمين كذلك، وفي وقت مبكر يرجع إلى العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر لوحظ أن معلمي المدارس من السواحلية يقومون بنشاط حي ناجح في نشر الدعوة بين أهالي بندئي ووديجو (الذين يسكنون في الداخل على مسافة قصيرة من الساحل) في إفريقية الشرقية الألمانية[٤]؛ ولكن نشاط هذه الحركة الجديدة في نشر الدعوة أصبح يسترعي النظر إلى حد كبير من الجهات الداخلية[٥] في مستهل القرن

---

(١) Zwemer, P.236 ويذكر جيردنر Gardiener (ص٢٩) أن عدد المصلين يبلغ ٢٠.٠٠٠ من مجموع السكان البالغ عددهم أربعة ملايين، ولكنه لم يبين من أي مصدر استقى هذه الأرقام، ويذكر روسكو (ص٦) أن مجموع سكان أوغنده لايتجاوز مليونا واحد تقريبا

(٢) Richter, PP. 146-7, 154 Merenesky, P. 156 Klamroth, P.4.

(٣) R. du M. vol. ix. (1909), P.322

(٤) Oscar Baumann: Usambara ans seine Nachargebiete, pp. 141. 153 (Berlin, 1891)

(٥) Becker, Islam in Deutsh- Ostafrike, P.10

العشرين، وخاصة بعد القضاء على ثورة سنة ١٩٠٥ في إفريقية الشرقية الألمانية.

وقد سايرت حركة التوسع في نشر الدعوة هذه بصفة خاصة، السكك الحديدية والطرق التجارية الكبيرة، فانتشرت في خط مستقيم عبر إفريقية الشرقية الألمانية حتى حدودها الغربية على بحيرة تنجانيقا، وانتشرت نحو الشمال من أوسمبرا Usambara إلى مقاطعة كلمنجارو، ونحو الجنوب حتى بحيرة نياسا(١)، وكان الذين قاموا بنشر هذه الدعوة من التجار، وخاصة أهالي الساحل، من السواحليين والجنود وموظفي الحكومة(٢).

وينظر الوثنيون هناك إلى قبول الإسلام على أنه دليل على الترقي إلى حضارة ومنزلة اجتماعية أرفع مما هم فيها، ويقال إن الازدراء الذي كان ينظر به المسلمون إلى الوثنيين طالما كان عاملًا حاسمًا في تحولهم إلى الإسلام(٣).

ونستطيع أن نتخذ مثالًا لتأثير هذا الإحساس من أوسمبرا الغربية التي قيل إنها كانت لا تزال في سنة ١٨٩١ موصدة في وجه الإسلام، وكان شعور الرؤساء والشعب كليهما شعورًا عدائيًّا نحو المسلمين، فكانوا يكرهونهم ويخافونهم باعتبارهم تجار رقيق؛ ولكنه لما انتهى عهد تجارة الرقيق وأنشئت إدارة منظمة، كان أول من عين من الموظفين الوطنيين كلهم تقريبًا من المسلمين.

وقد أثر هؤلاء في الزعماء وغيرهم من الشخصيات المهمة التي اتصلت بهم إلى حد أن الدخول في الإسلام كان هو التصرف الصحيح للذين اشتغلوا في الدوائر الرسمية، وبذلك نجحوا في أن يُدخلوا في الإسلام بعضًا من الزعماء أعظم من هؤلاء الذين نجدهم قد أثروا فيما بعد مثل هذا التأثير في زعماء أقل منهم منزلة.

ويظهر أن هناك شواهد قليلة على نشاط دعاة محترفين أو نشاط أية فرقة من الفرق الدينية؛ ولكن الشواهد لا تعوزنا على وجود جهود منظمة في نشر الدعوة، كتلك

---

(١) Id.P.13 sqq. Klamroth, pp. 14-28

(٢) Id. P53

(٣) Klamroth

الجهود التي قام بها معلم مسلم، ذكر أنه كان يزور منطقة في بلاد كلمنجارو كل أسبوع زيارة منتظمة، وظل على ذلك خمسة شهور يدعو إلى الإسلام، وقد رحب بجهوده الأهالي الذين كان يقيم لهم ولائم يقدم لهم فيها طعام الأرز وغيره (١). ومما يلفت النظر في هذه الدعوة الحماسية أن الدعاة لم يقصروا اهتمامهم على الوثنيين وحدهم، بل سعوا أيضًا لكسب متحولين إلى الإسلام من بين الأهالي المسيحيين (٢).

وقد شق الإسلام طريقه إلى نياسالاند من الساحل الشرقي أيضًا، ودخلها على أيدي النخاسين من العرب وحلفائهم الياوس Yaos، الذين جاء أجدادهم من مكان قريب من الساحل الشرقي، حيث كانوا قد اعتقدوا الإسلام منذ زمن بعيد. ويقال إنه من النادر أن نرى الآن عربيًا في نياسالاند، ولكن الياوس يؤلفون قبيلة من أقوى القبائل الوطنية، وينظرون إلى الإسلام على أنه دينهم القومي. ومع أنه لا تبدو هناك دعوة منظمة، انتشر الإسلام بسرعة فائقة إبان العقد الأول من القرن العشرين، وكان انتشاره بين بعض القبائل التي تعد من أشد القبائل ذكاء في نياسالاند (٣).

سجل الإسلام مثل هذا النجاح بين قبائل الجلا والسومال. وقد ذكرنا من قبل استيطان الجلا في الحبشة؛ ومن المحتمل أن هؤلاء المهاجرين الذين ينقسمون إلى سبع قبائل، تسمى بالولّوجلا، وهو اسم الجنس الذي ينتمون إليه، كانوا جميعًا وثنيين في وقت إغارتهم على هذه البلاد (٤)، ولا يزال جزء كبير منهم على الوثنية حتى يومنا هذا. وبعد أن استقروا في الحبشة لم يلبثوا أن تأقلموا فيها، واتخذوا لأنفسهم، في كثير من الأحيان، لغة سكان البلاد الأصليين وتعودوا عاداتهم وتطبعوا بطبائعهم (٥). أما قصة دخولهم في الإسلام

---

(١) Klamroth, p. 26.

(٢) Id. P. 67.

(٣) Becker: Islam in Deutsch-Ostafrika, p. 14. The Moslem World, vol. ii. P. 3 sqq.

(٤) ويظهر في حقيقة الأمر أن وصفًا حبشيًا معاصرًا لهذه القبائل في كتاب:

Geschichte der Galla. Bericht eins abessinischen Mönches über die Invasion der Galla in sechzehnten Jahrhundert. Text und Übersetzung hrsg. Von A. W. Schleichler (Berlin, 1893), يصور هذه القبائل على أنهم وثنيون، على الرغم من أنه لم يرد عن ديانتهم أخبار مفصلة. على أن ركلوس Reclus (tome x. p. 330) يزعم أنهم كانوا مسلمين وقت قيامهم بالغزو.

(٥) Henry Salt: A Voyage to Abyssinis, p. 299. (London 1814).

فيكتنفها الغموض؛ فبينما يقال إن بعضهم أدخلوا كرهًا في الديانة المسيحية، نجد أن عدم وجود أية سلطة سياسية في أيدي المسلمين يدحض إمكان القيام بأي نشاط في تحويل الناس إلى الإسلام على هذا النحو. وفي القرن الثامن عشر قيل إن معظم الذين في الجنوب يعتقدون الإسلام، أما الذين كانوا في الجهات الشرقية والغربية فمعظمهم وثنيون [٦].

وتشير أخبار أحدث من تلك إلى زيادة أخرى، في عدد أتباع النبي، وفي سنة ١٨٦٧ تنبأ مونتسجر **Munzinger** بأن كل قبائل الجلا ستدخل في الإسلام في مدة قصيرة [٧]. وإذ قد قيل عنهم «إنهم متعصبون جدًا»، فإنا نستطيع أن نستنتج أنهم لم يكونوا بحال ما غير متحمسين أو متراخين في اعتقادهم هذا الدين [٨]. ولا شك أن هذا الرجل المعتق الذي ينتمي إلى الجلا والذي قابله داوتي **Doughty** في خبير قد أظهر درجة عظيمة من الحماسة نحو دينه.

وكان هذا الرجل قد انتزع من بلده في طفولته وبيع بيع الرقيق في جدة؛ فلما سأله دواتي: ألا يزال يضمر السخط نحو هؤلاء الذين سرقوه وأسلموا حياته للعبودية في أقاصي الأرض، أجاب، «إن شيئًا واحدًا قد عوضني، وهو أني لم أعد غارقًا في الجهل بين عبدة الأوثان! ما أعجب عناية الرحمن! تلك التي جئت بفضلها إلى بلاد الرسول هذه، وتوصلت بها إلى معرفة الدين!» [٩] «آه! ما أشد حلاوة الإيمان! صدقني أيها الرفيق العزيز، إنه أمر يعجز كل قلب عن الإفصاح عنه، كم أتمنى أن يهديك الله إلى تلك المعرفة السماوية؛ ولكني موقن أن الله سيرعاك حتى لا تهلك قبل أن تدخل هذا الدين. حقًا كم يكون جميلًا أن أراك مسلمًا، وأن تصبح واحدًا منا؛ ولكني أعرف أن الأجل بيد الله:

---

(٦) James Bruce: Travles to discover the source of the Nile, 2nded. Vol. iii. P. 243. (Edinburgh, 1805.)

(٧) Munzinger, p. 408.

(٨) I.l. Krapf: Reisen in Ost-Africa, ausgeFührt in den Jahren 1837-33, vol. i. p. 106. (Kornthal, 1858.)

(٩) Arabia Deserta, vol. ii. P. 168.

يفعل الله ما يشاء» [١٠].

وبعض السكان، في قبائل الجلا التي تقيم في بلاد الجلا الصميمة، مسلمون (إذا كانت بعض القبائل قد تحولت إلى الإسلام حول سنة ١٥٠٠) [١١]، وبعضهم الآخر وثنيون، ما عدا تلك القبائل التي تقيم على حدود مباشرة، والتي أرغمها ملك هذه البلاد على انتحال المسيحية في النصف الأخير من القرن التاسع عشر [١٢]. والمسلمون بين الجبال قلة، أما في السهول فقد صادف دعاة الإسلام نجاحًا رائعًا، ولقيت تعليمهم قبولًا من الناس أخذ ينمو نموًا سريعًا في خلال القرن الماضي. ويذكر أنطونيو ستشي Antonio Cecchi الذي زار مملكة لِمو الصغيرة في سنة ١٨٧٨، قصة عن إسلام أبا باغيبو [١٣] Baghibo Abba والد الأمير الذي كان يحكم إذ ذاك، على أيدي مسلمين ظلوا عدة سنين يجدون في نشر الدعوة في هذ البلاد في زي التجار. وقد حذا حذوه رؤساء ممالك الجلا المجاورة ورجال حاشيتهم، وظفرت العقيدة الجديدة بعدد من العامة كذلك، واستمرت تتقدم بينهم، ولكن السواد الأعظم منهم كان يتشبث بعابدته القديمة [١٤].

وقد لقى هؤلاء التجار ترحيبًا حارًا في بلاط رؤساء الجلا، لما وجدوه هناك من سوق لاستبدال حاصلات البلاد التجارية بسلع مستوردة من المصنوعات الجنبية. ولما كان هؤلاء التجار يرتحلون إلى الساحل مرة واحدة كل عام، أو مرة فقط كل عامين، وكانوا يقضون كل ما بقي من الوقت في بلاد الجلا، كانت لديهم فرص كثيرة، عرفوا جيدًا كيف ينتهزوها للعمل في نشر الدعوة الإسلامية، وحيثما وضعوا أقدامهم كان من المؤكد أن ظفروا بعدد كبير من الداخلين في الإسلام في مدة قصيرة من الزمن [١٥]. وقد دخل

---

(١٠) Id., vol. ii. P. 109.

(١١) Morié, vol. ii. P. 248.

(١٢) Reclus, tome x. p. 309. Basset. Pp. 270-1.

(١٣) عندما أنشأت الرومان الكاثوليك إرسالية بين قبائل الجلا في سنة ١٨٤٦، قال لهم أبا باغيبو: لو أنكم قدمتم منذ ثلاثين سنة، لاعتقدت دينكم، بل لاعتقده على جميع بني وطني؛ ولكن تحقيق ذلك الآن من المحال.(Massaja, vol iv. P. 103.

(١٤) Da Zeila alle frontier del Caffa, vol. ii. P. 160. (Rome, 1886-7.)

Massaja, vol iv. P. 103; vol. vi p. 10.

(١٥) Massaja, vol iv. P. 102.

الإسلام هنا في نزاع مع مبشرين مسيحيين من أوربا، صادفت جهودهم نجاحًا قليلًا جدًا [١٦]، على الرغم مما ظفروا به من تنصير نفر قليل، وحتى الذين نصرهم الكردينال ماساجا Cardinal Massaja، فإنهم (بعد أن طرد من هذه البلاد) إما اعتقدوا الإسلام، وإما انتهوا إلى عدم الإيمان، لا بالمسيح ولا بالله [١٧] بينما حقق الدعاة المسلمون نجاحًا مستمرًا، وشقوا طريقهم بعيدًا نحو الجنوب، وعبروا نهر وابي [١٨].

وكانت غالبية قبائل الجلا التي تقيم في غرب بلاد الجلا لا تزال وثنية قبيل نهاية القرن التاسع عشر، ولكن يبدو أن عبادة الطبيعة القديمة بين الذين كانوا في أقصى الغرب، ونعني بهم الليجا [١٩]، كانت في طريقها إلى التدهور؛ وقد جعل تأثير الدعاة المسلمين الآخذ في النمو ودخل كل قبائل الليجا في حظيرة الإسلام، في مدى سنوات قليلة، أمرًا محتملًا [٢٠].

وإن إفريقية الشمالية الشرقية في الوقت الحاضر لتمثل لنا حقًا صورة لنشاط ذوي حيوية وحماسة رائعتين في نشر الدعوة من جانب المسلمين. وتفد من بلاد العرب عدة مئات من الدعاة كل عام، وهم أيضًا أكثر نجاحًا في جهودهم بين قبائل السومال منهم بين الجلا [٢١] ولا بد أن يكون القرب الشدي بين بلاد السومال وبلاد العرب قد جعل الأولى، في زمن مبكر، مسرحًا لنشاط الدعوة الإسلامية؛ ولكن يظهر لسوء الحظ أن ما دون من هذا النشاط قليل.

وقد ذكر ابن حوقل [٢٢] أن أهالي زيلع كانوا مسيحيين في النصف الثاني من القرن

---

(١٦) يقول ستشي وهو يتحدث عن إخفاق الإرساليات المسيحية: يجب البحث عن سبب هذا في انتشار الإسلام هنا، في هذه السنوات الأخيرة، الذي حمله مئات من رجال الدين والتجار المسلمين، الذين لم يعوزهم المال واللباقة والتمكن من اللغة.
(Op. cit. vol. ii. P. 342.)

(١٧) Id. P. 343.

(١٨) Reclus, tome xiii. p. 834.

(١٩) يوجد الليجا من خط طول ٩° إلى ٣٠ ٩° ومن خط عرض ٣٤ ٣٥° إلى ٣٥/ شرقًا.

(٢٠) Reclus, tome x. p. 350.

(٢١) Paulitschke, pp. 330-1.

(٢٢) ابن حوقل ص ٤١.

التاسع الميلادي، ولكن أبا الفداء يتحدث عنهم في النفص الأول من القرن الرابع عشر على أنهم مسلمون[1]. ومن المحتمل أن تجارا من العرب اللاجئين إلى السومال هم الذين حملوا الدين عبر البحر. وتشيع لدى السوماليين أسطورة تقول بأن عربيًا عريقًا في الأصل، أجبر على أن يغادر بلاده، فعبر البحر إلى عدل، حيث دعا إلى الدين الإسلامي بين أجدادهم[2].

وفي القرن الخامس عشر جاءت من حضرموت جماعة تتألف من أربعة وأربعين عربيًا يدعون إلى الإسلام، فنزلوا في بربرة على البحر الأحمر، ومن هناك انتشروا في بلاد السومال ليدعوا إلى الإسلام. وقد شق أحدهم، وهو الشيخ إبراهيم أبو زرباي طريقه إلى مدينة هَرَر حول سنة ١٤٣٠، واكتسب هناك كثيرين من الذين تحولوا إلى الإسلام، ولا يزال قبره موضع تعظم في هذه المدينة. وهناك بالقرب من بربرة جبل لا يزال يسمى جبل الأولياء تخليدًا لذكرى هؤلاء الدعاة، الذين يقال إنهم كانوا يجلسون هناك في خلوة مقدسة قبل أن ينتشروا في طول البلاد وعرضها لتحويل الناس إلى الإسلام[3]. وقد ساد الإسلام شيئًا فشيئًا في جميع أنحاء إفريقية الشمالية الشرقية، ولكن تزايد نفوذ الإمبراطور منليك واحتلاله هرر في سنة ١٨٨٦ أدى إلى تحول عدد معين من الأهالي إلى المسيحية[4].

ولكن نستكمل هذا الوصف الخاص بانتشار الإسلام في إفريقية، لا يبقى إلا أن نشير إلى هذه الحقيقة، وهي أن الدين قد شق طريقه إلى أقصى الجنوب من هذه القارة، ونعني مستعمرة الكاب. ومسلمو الكاب هؤلاء من سلالة أهل الملايو، جاء بهم الهولنديون[5] إلى هذه البقعة إما في القرن السابع عشر أو الثامن عشر[1]، وهم يتكلمون

---

[1] أبو الفدا جـ٢ القسم الأول ص٢٣١-٢٣٢.

[2] Documents sur l'histoire, la géographie et le commerce de l'Afrique Orientale, recueillis par M. Guillain. Deuxième partie, tome i. p. 399. (Paris, 1856).

[3] R. F. Burton: First Footprints in East Africa, pp. 76, 404, (London, 1856).

[4] R. du M. M., vi. P. 288. (1908).

[5] كان رأس الرجاء الصالح في حوزة الهولنديين من سنة ١٦٥٢ إلى سنة ١٧٩٥؛ ولما استردوا بعد صلح أميان Peace of Amiens في سنة ١٨٠٢، احتلها البريطانيون من جديد بمجرد نشوب الحرب مرة أخرى.

لهجة محرفة من لغة البوير، مع خليط كبير من اللغة العربية، وبعض كلمات إنجليزية وكلمات من لغة الملايو.

وهناك كتاب صغير عجيب، مؤلف بهذه اللهجة ومكتوب بحروف عربية، وقد نشره وزير المعارف التركية في القسطنطينية سنة ١٨٧٧، ليستعمل كتيّبًا صغيرًا لتعليم قواعد الدين الإسلامي(٢). وإن الأسماء الهولندية الصرفة التي يتسمى بها بعضهم، وملامح الوجه التي تلاحظ في كثير منهم ليدل على احتمال أنهم التقوا في مجتمعهم في وقت ما بعض أشخاص من أصل هولندي، أو أن بدمائهم على الأقل مزيجًا كبيرًا من الدم الهولندي. وكذلك اكتسبوا بعض متحولين إلى الإسلام من بين الهوتنتون **Hottentots**. ولم يكتب عنهم الرحالون الأوروبيون(٣) بل إخوانهم في الدين، حتى الآيام الأخيرة، إلا مذكرات قليلة. وفي سنة ١٨١٩ لفت كولبروك الأذهان إلى نمو الإسلام، في بعض مذكرات ممتعة كتبها عن مستعمرة الكاب، قال: «يقال إن الإسلام يتقدم بين العبيد والسود الأحرار من أهالي الكاب؛ ونعني بذلك، أن الذين تحولوا من الوثنية إلى الإسلام من بين الزنوج والسود على اختلاف أنواعهم كانوا أكثر عددًا من الذين تحولوا من الوثنية إلى المسيحية، وهذا على الرغم من الجهود القوية التي يبذلها مبشرون أتقياء.

وقد ثبت أن النفور الشديد الذي أبداه السادة من تعميد عبيدهم كان سببًا من أسباب هذا التحول؛ وقد نشأ ذلك من بعض أفكار خاطئة أو من فرط تخوفهم من الحقوق التي ينالها العبد الذي يُعَمَّد. ولا شك أن العبيد متأثرون بفكرة بقاء هذا النفور، ولم يكن من النادر أن يجيب العبد، إذا ما سئل عن بواعث تحوله إلى الإسلام، بأنه يجب

---

(١) وكان من بين هؤلاء الشيخ يوسف، وهو معلم دين ذو نفوذ عظيم في جاوة وآخر أبطال استقلال بنتام. وفي سنة ١٦٩٤ ساقه الهولنديون سجين دولة إلى مستعمرة الكاب، هو وعائلته، وكثير من أتباعه، ولا يزال ضريحه يعد مكانًا مقدسًا.

(G. M. Theal: History and Ethnography of Africa south of the Zambesi, vol ii. P. 263), (London, 1909).

(٢) **M. J. de Goeje: Mohammedaansche Propaganda, pp. 2, 6. (Over- gedrukt uit de Nederlandsche Spectator, No. 51, 1881).**

(٣) وقد نبه شخص يدعى كامبيل الأذهان إليهم في سنة ١٨١٤.

William Adams: The Modern Voyager and Traveller, vol. i. p. 93. (London, 1834).

أن يكون له دين، وأنه لم يسمح له بأن ينتصر.

والتعصب في هذا الأمر آخذ في الزوال، وقد قلت الآن معارضة هؤلاء السادة في تنصير العبيد عما كانت قبل. وقد ثبت أن السادة أخذوا يدركون أن العبيد لا يسيئون استعمال التعاليم التي يتلقونها في واجباتهم الدينية. وهناك جموع آخذة في الزيادة على أيدي المبشرين (ويوجد في كل بلد من البلدان الرئيسة) وواحد ممن كرسوا جهودهم على تثقيف العبيد ثقافة دينية، ويأمل المبشرون ألا تكون جهودهم غير مثمرة. ولكن الداعية المسلم حول جموعًا أكبر بمجهود أقل من مجهود المبشرين»[١].

وفي خلال الخمسين سنة الأخيرة كان يزور المسلمين في مستعمرة الكاب جماعة من بلاد أخرى من إخوانهم في الدين المتحمسين، وقد أثاروا الآن اهتمامهم بالتعليم أكثر مما مضى، وبعثوا بينهم حياة دينية أعمق من تلك التي كانوا يحيونها، ويقال إنهم يقومون بدعوة حماسية، وخاصة بين الأهالي السود في الكاب وإنهم حصلوا على نجاح محقق[٢]. وإن حركة نشر تعاليم الدعوة هذه قوية في الجزء الغربي من مستعمرة الكاب خاصة. ويقال إن هناك حركة سائرة في طريق التنفيذ لتأسيس كلية في كليرمونت Claremont بجوار مدينة الكاب، وأنهم ستصبح مركزًا لنشر الدعوة الإسلامية. ومن الوسائل التي نشتغل الآن تبنِّي الأطفال الشاردين أو المهملين وتنشئتهم على دين الإسلام[٣]. ويحج فريق منهم كل عام إلى مكة، حيث يعين لهم شيخ خاص للإشراف عليهم[٤].

وكذلك يقال إن عمال الهنود الذين يأتون للعمل في حقول الماس في إفريقية الجنوبية دعاة للإسلام.

ولما كانت جزيرة مدغشقر في مكان منعزل، عن بعد يتراوح بين ٢٢٠ ميلًا و ٥٤٠

---

(١) Sir T. E. Colebrooke: The Life of H. T. Colebrooke, p. 335. (London 1873).

(٢) F. Coillard: Au Cap de Bonne Espérance. (Journal des missions évangéliques, avril 1899, p. 265).

(٣) Kumm, p. 233.

(٤) C. Snouck Hurgronje (3), vol. ii. Pp. 296-7.

ميلًا من الأراضي الأصلية، فإنها تستدعي ذكرًا خاصًا. وإن القبيلة الوحيدة التي اعتقدت الإسلام هي قبيلة أنتيمورونا **Antaimorona**، التي تحتل جزءًا من الساحل الجنوبي الشرقي؛ ولا شك أن تحولهم إلى الإسلام كان على يد دعاة من بلاد العرب، ولكن الوقت الذي تم فيه هذا التحول مجهول لنا تمامًا؛ وربما أرجعته الأساطير إلى نفس عهد مُحَمَّد ذاته، ولكنا لم نحصل إلا في القرن السادس عشر(١) على معلومات موثوق بها عن المسلمين في هذه الجزيرة، وذلك فيما كتبه الجغرافيون من الطليان والبرتغاليين(٢).

ومن هذا الوصف التاريخي المجمل نستطيع أن نرى أن الأساليب السلمية كانت الطابع الغالب على حركة نشر الدعوة الإسلامية في إفريقية، ومع أن الإسلام كثيرًا ما شهر السيف كأداة يستعين بها على تقدم فتوحاته الروحية، نجد أن مثل هذا الالتجاء إلى القوة وسفك الدماء كان يسبقه في معظم الحالات جهود سلمية في نشر الدعوة، وكان الداعية يتعقب الفاتح ليكمل النقص في تحويل الناس إلى الإسلام. والحق أن نجاح الرواد المسلمين نجاحًا دنيويًا سهل إلى حد كبير جدًا نجاح الإسلام في جهات كثيرة من إفريقية، كما سهله تأسيس دول إسلامية على أنقاض دول وثنية.

وإن النار وسفك الدماء طالما ميزا خطة الجهاد، التي دبرت لاستئصال شأفة الكفار. وإن كلمات الشاب العربي الذي كان من البرنو والذي قابله الكابتن بورتن **Burton**(٣) في قصر ملك أبيكوتا **Abeokuta**، لتعبر بدون شك عن مطامح كثيرين من مسلمي إفريقية: «أعطنا هذه البنادق وهذا البارود. ندخل في الحال هذه الكلاب في الإسلام». ويتردد صدى هذه الكلمات في الرسالة التي يوردها منجو بارك(٤) **Mungo Park** باعتبارها مرسلة من ملك فوته تورو **Futah Toro** المسلم إلى جاره الوثني: «بهذه

---

(١) **Jacques Bonzon: Les Missionaires de l'Ilam en Afrique. (Revue Chrétienne, tome xiii. P. 295). (Paris, 1893).**

(٢) **G. Ferrand, Les musulmans à Madagascar. Pp. 19, 50 sqq. 138. (Paris, 1891).**

Id. Les Migrations Musulmanes et Juives á Madagascar. (Revue de l'Histoire des Religions, vol. lii p. 381 sqq).

(٣) **Richard F. Burton (1), vol. i. p 2565.**

(٤) **T ravels in the Interior of Africa, chap. Xxv. Ad fin.**

السكين سينزل عبد القادر ويحلق رأس دامل، إن دخل دامل في الإسلام؛ وبهذه السكين الثانية سيدق عنق دامل إن أبى أن يدخل في هذا الدين؛ فاختر لنفسك».

ولكن بقدر ما يمكن أن يعزي الإسلام إلى البسالة الحربية التي قام بها أمثال هؤلاء المتعصبين، لدينا الدليل القاطع الذي شهد به الرحالون وغيرهم على نشر الدعوة بالطريق السلمية وقيام الداعي المسلم بأعمال تنطوي على الرفق والأناة، لتلك الأعمال التي عملت في سبيل انتشار الإسلام انتشارا سريعًا في إفريقية الحديثة، أكثر مما عمل أي أسلوب من أساليب العنف. وربما استأصل الإسلام حقًا شأفة مقاوميه بالأساليب الأخيرة، ولكنه عن طريق الأولى بصفة خاصة أنجز عملية تحويل الناس إلى الإسلام، ولعل نشاط التحول لا يزال يتقدم في كثير من الأقاليم الساحلية والداخلية[١].

وحيثما شق الإسلام طريقه، نجد هناك الداعي المسلم حاملًا الدليل لعقائد هذا الدين، فالتاجر سواء أكان من العرب أم الفلبي أم المندنجو، يجمع بين نشر الدعوة وبيع سلعته، وإن مهنته وحدها لتصله صلة وثيقة مباشرة بأولئك الذين يريد أن يحولهم إلى الإسلام، وتنفي عنه كل ما يحتمل أن يتهم به من دوافع شريرة. وإذا ما دخل مثل هذا الرجل قرية وثنية فسرعان ما يلفت الأنظار بكثرة وضوئه، وانتظام أوقات الصلاة والعبادة، التي يبدو فيها كما لو كان يخاطب كائنًا خفيًا. وإن ما يتحلى به من سمو عقلي وخلقي ليفرض احترامه والثقة به على الأهالي الوثنيين، الذين يبدى لهم في نفس الوقت استعداده ورغبته في مدهم بمزاياه ومعارفه السامية؛ والحاج الذي عاد من مكة مليئًا بالحماسة من أجل نشر العقيدة، التي يقف عليها كل جهوده، متنقلًا من مكان إلى آخر، يعيش على صدقات المؤمنين الذين يحملون الدليل على الحق بين جيرانهم الوثنيين؛ وطالب العلم الذي يلقى تكريمًا باعتباره رجل علم تفقه في الدين والشريعة الإسلامية، بل أحيانًا يزاول الطب، أو على الأقل يكون ذا مهمة عظيمة باعتباره كاتب تعاويذ وآيات من القرآن تطوى في قطع من الجلد أو القماش وتعلق على الأذرع أو حول العنق، وهي

---

(١) D. J. East. Pp. 118-20. W. Winwood Reade, vol. i. p. 312. Blyden, pp 13, 202.

مهمة يستطيع أن يستغلها كوسيلة لإكثار عدد المتحولين إلى الإسلام؛ مثال ذلك أنه حينما تطلب منه هذه التعاويذَ النساءُ العواقر أو اللاتي فقدن أولادهن أطفالًا، يفرض عليهن شرطًا لنجاح هذه التعاويذ أن ينشئن أطفال المستقبل على الإسلام[١].

هؤلاء المعلمون الدينيون، أو المرابطون أو الوفاس، كما يطلق عليهم بحسب اختلاف أسمائهم، يحظون بأوفى نصيب من التقدير. وفي بعض قبائل إفريقية الغربية تضم كل قرية دار لاستقبالهم، ويعاملون بأعظم مظاهر الاحترام والتقدير؛ ففي دارفور يحتلون أعظم مكانة بعد هؤلاء الذين يشغلون مناصب الحكومة، كما يحتلون بين المندنجو مكانة أعظم شأنًا، وينالون احترمًا يلي احترام الملك، ويعتبر الرؤساء، التابعون لغيرهم، أقل منهم هيبة: وفي تلك الدول التي اتخذ فيها القرآن أساسًا للحكم في كل المسائل المدنية، تحتاج الدولة لخدماتهم احتياجًا شديدًا لكي يفسروا معاني القرآن. وقد بلغ من إجلال الناس لأشخاص هؤلاء المعلمين، أنه لا يتعرض لهم أحد حين يجوسون خلال بلاد أمراء متعادين، بل مشتبكًا بعضهم مع بعض في حرب فعلية. ويبجلهم الناس مثل هذا التبجيل، لا في البلاد الإسلامية وحدها، بل في القرى الوثنية التي يؤسسون فيها مدارسهم، حيث يحترمهم الناس باعتبارهم معلمي أبنائهم، ويعتبرونهم واسطة بينهم وبين الله سواء في الحصول على حاجاتهم، أوفي درء المصائب وصرفها عنهم[٢].

وقد درس كثير من هؤلاء المعلمين في مساجد القيروان وفاس وطرابلس[٣] وغيرها من مراكز الثقافة الإسلامية، ولكنهم درسوا بصفة خاصة في الجامع الأزهر بالقاهرة. ويتدفق الطلبة إلى هذا الجامع من كل بقاع العالم الإسلامي، ومن بينهم في الغالب جماعة من زنوج إفريقية، طلبة من دارفور ووداي وبرنو، بل يشق فريق من المسلمين طريقه سيرًا على الأقدام من أقاصي الساحل الغربي؛ فإذا ما أتموا دراستهم في الدين والشريعة

---

(١) Bishop Crowther on Islam in Western Africa. (Church Missionary Intelligencer, p. 254, April, 1888).

(٢) D. J. East, pp. 112-13. Blyden, p. 202.

(٣) ويقال إن ما يربو على ألف داع من دعاة الإسلام، يغادرون طرابلس كل سنة للعمل في السودان. (Paulitschke, p. 331).

الإسلامية صار كثيرون منهم دعاة بين أهالي بلادهم الوثنيين. وينشئ هؤلاء الدعاة في المدن التي يزورونها مدارس يختلف إليها الأطفال الوثنيون والمسلمون على سواه، فيحفظون القرآن ويتفقهون في عقائد الإسلام وشعائره، فإذا ما نجح الداعي المسلم، على هذا النحو، بما له من حظ موفور من العلم والمعرفة الساميتين، فإنه لا يتوانى عن أن يؤثر تأثيرًا كبيرًا في الأهالي الذين جاء يعيش بينهم، ويساعده على ذلك أن عاداته وطباعه في الحياة تشبه عاداتهم وطباعهم في كثير من الوجوه.

وما دام التاجر قد مهد له الطريق من قبل فلا يرتاب فيه الأهالي؛ وبالتزاوج مع السكان الذين يرحبون بدخوله في نظامهم الاجتماعي، يتوطد نفوذه ويستقر، وهكذا تنشر بينهم معارف الإسلام شيئًا فشيئًا وبطريقة طبيعية إلى أبعد حد.

وقد زاد من تيسير جهود الداعي في نشر الدعوة أن الاعتقاد بوجود الله مع إنكار الوحي والأديان Deism، وهو أساس الشعور الديني عند كثير من عبدة الفتش، يمكن أن يتحول، في سهولة، إلى عقيدة التوحيد عند المسلمين، وكذلك الحال في بعض مظاهر أخرى في فلسفتهم الدينية. وهكذا نجد أن نظرتهم العامة في الحياة وكثيرًا من شرائعهم الدينية قابلة لأن تصطبغ بصبغة إسلامية، وأن تتحول إلى نظام الدين الجديد دون إجراء تغيير كبير[١].

وإن نزول المسلمين في بلاد وثنية إنما هو كذلك إيذان بفتح باب للتجارة أوسع مدى وانتشارًا، وبالاتصال بمراكز إسلامية تجارية كبيرة من أمثال جنى أو سجو Sego أو كانو Kano؛ كما أن هؤلاء المسلمين قدموا إلى الأهالي نصيبًا من مزايا هذه الحضارة المادية مع دين النبي. ومن ثم «قد يكون الداعية بين القبائل الزنجية غير المتحضرة على ثقة دائمًا من الاستجابة السريعة؛ فهو يستطيع أن يمدهم بكثير من الحقائق المتعلقة بالله والإنسان تصل إلى القلب وتنمي الإدراك، بل يستطيع إلى جانب ذلك أن يمنحهم ترخيصًا بالدخول في وحدة اجتماعية سياسية، تخولهم حق الحماية والمساعدة في مسافة تمتد من المحيط الأطلنطي إلى سور الصين.

---

(١) وللوقوف على بحث مستفيض لنقط هذا الاتصال، انظر Forget, p. 28 sqq. Merensky, p. 155.

وحيثما يستطيع المسلم أن يجد هناك دارًا إسلامية يجد الأسود الذي تحول إلى الإسلام والذي يستطيع أن يسرد أركان عقيدته، واثقًا من المأوى والقوت والنصيحة؛ وسرعان ما يجد نفسه، في بلاده، عضوًا في طبقة ذات نفوذ إن لم يكن في الطبقة المتسلطة. ويبدو أن هذا هو السر الحقيقي في نجاح الدعاة المسلمين في إفريقية الغربية. أما عدد المتحولين إلى الإسلام، فإنه كان كبيرًا، سريعًا في التحول، وذلك لسبب واضح، هو أن الداعي المسلم كان منذ اللحظة الأولى التي يعترف فيها المتحول إلى الإسلام بالعقيدة، يسير سيرًا عمليًا على المبادئ القائمة على إخاء المؤمنين جميعًا وتساويهم أمام الله، وهي مبادئ يشترك فيها الإسلام مع المسيحية؛ غير أن هذا الداعي المسلم، بصفة عامة، أسرع وأحسم في القيام بهذا العمل من المبشر المسيحي الذي يشعر في أغلب الأحيان بأنه مضطر إلى المطالبة بدليل قوي على إخلاص المتنصر قبل أن يصافحه مصافحة التآخي في المسيحية، والذي كان دائمًا يثير تعصبًا جنسيًا لم يكن محتملًا أن يزول في جيل واحد، حيث كان يعد المسيحي الأبيض، طوال أجيال، سيدا، كما كان يعد الوثني الأسود عبدًا»[1].

ومن المهم، أيضًا، أن نلاحظ أن لون الزنجي وجنسه لم يحملا بأية حال إخوانه الجدد في الدين، على أن يتعصبوا عليه. ولا شك أن نجاح الإسلام قد تقدم في نجريتيا Nigritia تقدمًا جوهريًا بسبب عدم كل إحساس باحتقار الأسود، وفي الحق يظهر أن الإسلام لم يعامل الأسود قط على أنه من طبقة منحطة، كما كانت الحال، لسوء الحظ، في كثير من الأحيان، في العالم المسيحي[2].

---

(1) Sir Bartle Frere (1), pp. 18-19.

(2) E. W. Blyden, pp. 18-24. E. Allégret, p. 200. Westermann, pp. 644-5.

وفي مناظرة شائقة جدًا، وإن كانت قد نسيت الآن، أمام الجمعية الأنثروبولوجية بلندن، حول موضوع «جهود المبشرين بين المتبربرين»، ذكرت حالة مبشر مسيحي في إفريقية، تزوج نجية. لذلك كان الشعور ضده، قويًا إلى حد أنه وجد نفسه مضطرًا إلى مغادرة المستعمرة. أما الداعي المسلم فإنه يشتغل بدعوته غير مستأثر بأمثال تلك المساوئ.

(Journal of the Anthropological Society of London, vol. iii. 1865).

وقد أجاد شخص كان نفسه زنجيًا في توضيح الفارق بين الطريقة التي تقدم بها كل من المسيحية والإسلام إلى الإفريقيين، وذلك في العبارات الآتية: «بينما تنسب البعوث التبشيرية قيام قساوسة من الوطنيين إلى عصر غير معين، نجد الدعاة المسلمين ينفذون إلى قلب إفريقية، ويصلون في سهولة إلى الوثنيين، ويحولونهم إلى الإسلام. وبذلك أصبح الزنوج اليوم

وإن هذه الملاحظة لتفسر إلى حد ما نجاح المسلم إذا ما قورن بالإرساليات المسيحية بين الشعوب الزنجية. ويتضح في أغلب الأحيان أن الأسود المتنصر يميل إلى الإحسان بأن أبناء دينه من الأوروبيين ينتمون إلى لون من الحضارة لا يلائم طبائعه في الحياة، على حين يشعر في المجتمع الإسلامي بأنه أكثر تعلقًا به واطمئنانًا إليه. وقد أجاد أحد المشاهدين المحدثين توضيح ذلك في الرسالة الآتية: «إن الإسلام، على الرغم من تقصيره، لا يتطلب، من وجهة نظر أهل نيجيريا، أن يفقد أحدهم قوميته باعتبار أن ذلك شيء يصحب الدخول في الإسلام، ولا يستلزم تغييرات انقلابية في الحياة الاجتماعية، يستحيل تحققها في المرحلة الحاضرة من تطور أهل نيجيريا؛ ولا هو يقوض نفوذ الأسرة أو سلطة الجماعة. وليست هناك هوة بين الداعي إلى الإسلام والمتحول إليه؛ فكلاهما متساوٍ أحدهما مع الآخر، لا نظريًا، بل عمليًا، أمام الله. وكلاهما إفريقي؛ وهما من أبناء أرض واحدة. وينفذ مبدأ التأخي الإنساني تنفيذًا عمليًا، ولا يعني الدخول في الإسلام أن ينصرف الداخل فيه عن شئونه وأسرته وحياته الاجتماعية، ولا عن احترامه لسلطان حكام بلاده الأصليين.

وليس هناك من لا يعجب بسلوك المسلم النيجيري ووقاره، بل بسلوك مسلمي إفريقية الغربية عامة؛ وإن هيئة الرجل العامة لتنم عن شعور بالقومية واعتزاز بالجنس، يخيل إليك أنه يقول: إن كلًا منا يختلف عن الآخر، ولكننا جميعًا بشر، وإن انتشار الإسلام الذي نشهده اليوم في نيجيريا الجنوبية ليؤثر بصفة خاصة تأثيرًا اجتماعيًا. ويمنح الإسلام هؤلاء الذين يتصلون به منزلة أرقى وفكرة أسمى عن مكانه الإنسان من العالم المحيط به ويحرره من ربقة ألف من الأوهام الخرافية»[(١)].

ينظرون إلى الإسلام على أنه دين السود، والمسيحية على أنها دين البيض. ويرون أن المسيحية تدعو الزنجي إلى الخلاص، ولكنها تضعه في مكان منحط إلى حد أنه يقول في نفسه وقد استولى عليه القنوط: ليس لي نصيب ولاحظ في هذا الدين. أما الإسلام فإنه يدعو الناس إلى الخلاص ويقول له إن بلوغك أسمى الدرجات الممكنة إنما يتوقف عليك. ومن ثم ركن الزنجي بدافع من الحماسة إلى هذا الدين بروحه وجسده».

L'islam et le christianisme en Afrique d'après un Africain. (Journal des Mis- sions Èvangiliques. 63e année, p. 207). (Paris, 1888).

(١) **E. D. Morel: Nigeria, its people and its problems. Pp. 216-217. (London, 1911).**

وقد ورد في الرواية الإسلامية أن موسى كان رجلًا أسود، كما قد نتبين ذلك من الآية القرآنية. {وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى} (سورة ٢٠: آية ٢٣) {نَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ} (سورة ٧: آية ١٠٥-١٠٦).

والقصة الآتية التي وصلت إلينا عن العصر الذهبي للدولة العباسية، مهمة باعتبارها شاهدًا على شعور المسلمين نحو السود. كان إبراهيم بن المهدّي، أخو هارون الرشيد وابن إحدى الجواري، قد نصب نفسه خليفة في بغداد، ولكن المأمون الذي كان يحكم إذ ذاك (٨١٩م) هزمه وعفا عنه. ويقص إبراهيم قصة مقابلته مع الخليفة على النحو الآتي:

«قال لي المأمون وقد دخلت عليه بعد العفو عني: أنت الخليفة الأسود؟ فقلت: يا أمير المؤمنين! أنا الذي أنعمت عليه بالعفو؛ وقد قال عبد بني الحسحاس:-

أشعار عبد بني الحسحاس قمن له ... عند الفخار مَقام الأصل والوَرق

إن كنت عبدًا فنفسي حرة كرمًا ... أو أسود الخلق إني أبيض الخلَق

قال لي: «يا عم! أخرجك الهزل إلى الجد». وأنشد:

ليس يزري السواد بالرجل الشهم ... ولا بالفتى الأديب الأريب

إن يكن للسواد فيك نصيب ... فبياض الأخلاق منك نصيبي[1]

وعلى هذا النحو، سرعان ما يصبح الأسود المتحول إلى الإسلام مع المؤمنين على قدم المساواة، ولا يحول دون ذلك لونه أو جنسه أو أية ملابسة من ملابسات الماضي. ولا شك أن ما كان يلقاه السود الوثنيون من ترحيب المسلمين بدخولهم في الإسلام، هو الذي كان يرغبهم في الانضمام إلى مجتمع ديني تتطلب حضارته التي تفوق حضارتهم أن يؤثروا التخلي عن كثير من عاداتهم وطباعهم البربرية؛ ومما يساعد في نفس الوقت مساعدة كبيرة

---

(١) ابن خلكان جـ١ ص١٨.

جدًا على تفسير نجاح هذا الدين، أن مجرد الدخول في الإسلام يدل ضمنًا على الترقي في الحضارة، وأنه خطوة جد متميزة في تقدم القبيلة الزنجية عقليًا وخلقيًا وماديًا.

وكانت القوى المحشودة جنبًا إلى جنب مع العقيدة الإسلامية، تبلغ من القوة والبأس إلى حد أن البربرية والجهل والخرافة الدينية، تلك الأمور التي كان الديني جد في القضاء عليها، لا تجد إلا فرصة يسيرة في إطالة المقاومة. وقد اتضح ما تقدمه حضارة إفريقية الإسلامية إلى الزنجي الذي تحول إلى الإسلام، وضوحًا يبعث على الإعجاب في العبارات الآتية: «إن أقبح الرذائل وهي أكل لحوم البشر، وتقديم الإنسان قربانًا، ووأد الأطفال أحياء.. تلك الرذائل التي نجد ما يبرر الاعتقاد بأنها كانت في وقت ما منتشرة في كل إفريقية، ولا تزال في بقاع كثيرة منها، حتى تلك الجهات التي لا تبعد عن ساحل الذهب وعن موطننا، قد اختفت فجأة وإلى الأبد. والمساكنون الذين كانوا يعيشون حتى ذلك الوقت عراة أو أشباه عراة بدؤوا يرتدون الملابس بل يتأنقون في ملابسهم؛ والمساكنون الذين لم يغتسلوا قط من قبل، بدءوا يغتسلون، بل يكثرون من الاغتسال؛ لأن الشريعة المقدسة تأمر بالطهارة. وهو فرض لا ينطوي على تأثير قوي جدًا في غرائزهم التي حيلوا عليها.

ويميل النظام القبلي إلى إفساح المجال لأساس أوسع نطاقًا، وبعبارة أخرى إلى اندماج القبائل بعضها في بعض لتصير أممًا، وبازدياد النشاط والمعرفة تصير الأمم إمبراطوريات، ونستطيع أن نورد كثيرًا من أمثال هذه الحالات من تاريخ السودان والبلاد المتاخمة له في خلال المائة سنة الأخيرة. ومتى أثيرت الروح الحربية على هذا النحو، فإن المراكز تنبعث منها نار الحرب تصبح أقل عددًا وأكثر انعزالًا منها قبل. وفي هذه الحالة تكون الحرب أحسن تنظيمًا كما تكون متأثرة بصورة من صور التقيد؛ وهم لا يثيرون القتال دون سبب من الأسباب. وقلّ السلب المطلق الذي لا يقوم على تفرقة بين من يسلبونهم، كما أصبح تأمين الناس على أملاكهم وأرواحهم أكثر من ذي قبل. وتنشأ مدارس أولية[1] كتلك

[1] «إن أول دروس الأطفال في القراءة عبارة عن مختارات من القرآن، أما التفاسير وغيرها من الكتب التي ألفت حول القرآن، فإنها تغذي الدراسات المتقدمة بموضوعات رئيسة. وقد أنشئت منذ قرون مدارس، من مختلف الدرجات، في بلاد داخلية مختلفة يمكنها الزنوج، تحب سلطة القانون؛ وفيها يتعلم الناس حتى الفقراء الذين يتعلمون على نفقة الخزانة

المدارس التي وصفها مونجو بارك **Mungo Park** منذ قرن مضى. حتى لو أن هذه المدارس اقتصرت على تعليم تلاميذها تلاوة القرآن، لكانت ذات قيمة في نفسها، وقد تكون خطوة في سبيل ما هو أعظم منها بكثير. وقد أصبح المسجد الجيد البناء النظيف، بما فيه من أذان للصلاة خمس مرات في اليوم، وقبلة تتجه إلى مكة وإمام وصلاة جمعة، مركز للقرية بدلًا من دار عبادة الفتش أو اليويو **Juju** ذات المنظر البشع.

وقد طغت عبادة الله الواحد القهار، الكائن في كل مكان، العلم، الرحيم، على كل ما لقن الأهالي عبادته من قبل، طغيانًا لا حد له. وبلغت اللغة العربية، وهي اللغة التي تكتب بها دائمًا الكتب الدينية الإسلامية، حدًا يفوق كل وصف من الغنى والجمال. وإذا ما تعلموا هذه اللغة، أصبحت لغة التخاطب بين قبائل نصف القارة. وتستخدم كمقدمة لدراسة الأدب، بل هي أدب في ذاتها. وهي إلى ذلك لغة شريعة وقانون مكتوب حلت محل نزوات شيخ القبيلة الاستبدادية —وهذا تغير يعتبر في ذاته تقدمًا هائلًا في الحضارة.

وظهرت صناعات وتجارة، لا كالتجارة الصامتة التي تقوم الإشارات فيها مقام اللغة في التفاهم، ولا كالمبادلة البدائية في الخامات، تلك المبادلة التي نعرف من هيرودوت أنها وجدت في إفريقية من أقدم العصور، ولا كالمقايضة بالودع، أو البارود أو الطباق أو الروم[*]، تلك المقايضة التي لا تزال تستخدم على طول الساحل وسيلة أساسية في التبادل، ولكنها صناعات تنطوي على مهارة فائقة، وتجارة منظمة نظامًا محكمًا. وظهرت هذه المدن الكبيرة في أرض الزنوج بتأثير هذه الصناعة والتجارة وتأثير الحكومات الأكثر

العامة، ويتعهد فيها الأكفاء بدراسات طويلة من تعليم منظم، سنوات كثيرة. وليس نظام الدراسة فيها مقصودًا دائمًا على اللغة العربية أو على مؤلفات كتاب العرب. وقد بُسِّط عدد من اللغات القومية الكتابية، فترجمت كتب من العربية، وألفت كتب بتلك اللغات القومية، وكذلك فتحت مدارس تعلم فيها اللغات القومية».

Condition and Character of Negroes in Africa. By Theodore Dwight. (Methodist Quarterly Review, January 1869).

ويذكر الدكتور بليدن **Blyden (pp. 206-7)** الكتب الآتية على أنها كتب يقرؤها المسلمون في إفريقية الغربية: مقامات الحريري، وترجمات من أرسطو وأفلاطون إلى العربية، وترجمة عربية من أبقراط، والترجمة العربية العهد الجديد والمزامير التي تنشرها جمعية الكتاب المقدس الأمريكية. وللوقوف على كتب المسلمين في إفريقية الشرقية انظر:

Becker: Islam in Deutsch Ostefrika, p. 18 sqq.

[*] نوع من الخمر.

استقرارًا التي جاء بها الإسلام، وهي مدن نجد أن الرحالين الأوروبيين حين وصفوها أول الأمر لم يستطيعوا إلا أن يهملوا مجرد وجودها.

وإني لبعيد عن القول بأن الدين هو العلة الوحيدة في هذا النجاح النسبي، وإنما أقول إنه ملائم لهذا النجاح ودافع إليه. وقد ساعدت الأحوال الجوية والمؤثرات الأخرى المختلفة على الوصول إلى هذه النتيجة؛ ولكن ما الذي يحمل إفريقية الوثنية، حيث توجد الظروف التي تتشابه كثيرًا مع تلك، على أن تقارن بين حالتها وبين هذا النجاح؟ أما فيما يتعلق بالفرد، فمن المسلم به من كل الوجوه أن الإسلام يمد السود الذين تحولوا إليه حديثًا بالنشاط والعزة والاعتماد على النفس واحترام الذات، وهذه كلها صفات يندر جدًا أن نجدها في مواطنيهم الوثنيين أو المسيحيين»[1].

وقد كتبنا هذه العبارات السابقة التي اقتبسناها قبل تقسيم الجزء الأكبر من إفريقية بين حكومات أوروبا المسيحية – إنجلترا وفرنسا وألمانيا – ولكن طابع الحضارة الإسلامية الغالب لم ينقطع عن التأثير في العقلية الزنجية أو عن العمل باعتباره أحد المؤثرات التي تساعد على تحويل عبدة الفتش الإفريقيين إلى الإسلام. ولما مست هؤلاء الثقافة الأوروبية فجأة، مضوا قدمًا في طريق الحضارة، ولكنهم، وقد عجزوا عن أن يقيموا جسرًا على البرزخ الذي يفصلهم عن حكامهم الأجانب، وجدوا في الإسلام ثقافة ملائمة لحاجاتهم وجديرة بتكييف مطالبهم ومطامحهم[2]؛ ولذلك، كان بعيدًا كل البعد على انتشار السيادة الأوروبية أن تعوق نشاط الدعاة المسلمين، بل إن انتشار هذه السيادة قد ساعد إلى حد كبير على تقدم الإسلام.

وقد ساعد دخول الإسلام في بلاد أنهكتها من قبل حروب مهلكة أو غارات جلاب الرقيق، ثم قيام أساليب الحكم والإرادة المنظمة والزيادة في تيسير المواصلات بإنشاء الطرق ومد السكك الحديدية– ساعد كل ذلك على ترويج التجارة، ومكن

---

(١) Mohammedanis in Africa, by R. Bosworth Smith. (The Nineteenth Century, December 1887, pp. 798-800).

(٢) Le Chatelier, (3). P. 348.

التجار والدعاة المسلمين النشيطين من أن يبسطوا تأثيرهم في مناطق لم تطأها الأقدام من قبل، وأن يجولوا في الأراضي المألوفة وهم أكثر أمنًا وطمأنينة. زد على ذلك أن منع تجارة الرقيق أزال عقبة من العقبات الكبيرة في سبيل انتشار الإسلام في إفريقية الوثنية، لأنه كان من مصلحة العرب وغيرهم من تجار الرقيق المسلمين ألا يضيقوا مجال أعمالهم بالتآخي في الإسلام مع ضحاياهم الميسور صيدهم[١].

والآن يكتسب المسلمون متحولين إلى الإسلام من القبائل الوثنية التي لم يمسسها نشاط الدعوة أيام تجارة الرقيق. وقد ساعدت الحكومات الأوروبية على الوصول إلى هذه النتيجة بتوظيف المسلمين في الوظائف الثانوية في الإدارة المدنية (حيث لم يكن هناك أشخاص متعلمون إلا بين المسلمين)، وبتوظيف مسلمين في مدارس الحكومة، ويجمع جيوشها من بين القبائل الإسلامية؛ وعلى هذا النحو زادوا من شهرة الإسلام في نظر الإفريقيين الوثنيين – وهي فرصة لم يتوان المسلمون عن استغلالها لمصلحة عقيدتهم[٢].

وليس في القول بأن الإسلام إنما يتقدم بقوة السلاح[٣] إلا قليل جدًا من الحقيقة؛ بل الأمر على العكس، إذ أن تقسيم إفريقية بين السلطات الأوروبية، التي انتزعت السيف من أيدي الرؤساء المسلمين الذين كانوا حينذاك تحت حكمهم، قد أوجد دعاية يبدو من المحتمل أن تنجح حيث أخفقت قرون من السيادة الإسلامية.

---

[١] Forget, p. 95. Merensky, p. 156. «كانت المنفعة التي تعود على المسلمين من استغلال سكان البلاد أكثر من تلك التي كانت تعود عليهم من نشر العقيدة بينهم. فلو أنهم أدخلوا شعوب إفريقية في الإسلام عن طريق الأساليب الروحية، لأصبحوا إخوانهم في الدين، وتساووا معهم في الحقوق، ولحرمت عليهم سرقتهم واستعبادهم، أو تسخيرهم في أعمال العبيد».

[٢] Westermann, p. 643. L. de Contenson, p. 244. Kumm, p. 122.

[٣] وعلى ذلك، يقول مرنسكي، حين يناقش إخفاق الإسلام في السيطرة على جميع إفريقية بعد مضي قرون من الاحتلال «ترى أن السبب الرئيسي لهذه الظاهرة الغريبة في العلاقات، هو أن قوة الإسلام الظاهرية عند المسلمين، تساير انتشار الإسلام، ويقف أحدهما إلى جانب الآخر، كما أنهما متداخلان، يتمشيان معًا نهوضًا وانحطاطًا». (p. 156).

الباب الثاني عشر

انتشار الإسلام في أرخبيل الملايو

يمدنا تاريخ أرخبيل الملايو في خلال الأعوام الستمائة الأخيرة بفصل من أهم الفصول في قصة انتشار الإسلام، بفضل ما بذله الدعاة من جهود؛ ففي غضون هذه الفترة كلها، نجد شواهد تدلنا على نشاط متصل قام به الدعاة المسلمون في جزر الهند الشرقية، أو في بعضها على الأقل، وفي بدء الدعوة، لم يكن بد من أن ينفذ الدعاة أعمالهم، في كل لون من ألوان هذه الدعوة، دون مساعدة أو معاضدة من جانب حكام البلاد. وإنما نفذت بقوة الإقناع وحدها، وصادفهم في سبيل ذلك معارضة شديدة في كثير من الأحيان، ولا سيما من جانب الأسباب ولكن الدعاة والوا جهودهم بنشاط لا يعرف الملل، برغم كل الصعاب، وبألوان من النجاح متباينة، وأنجزوا أعمالهم (وخاصة في الوقت الحاضر) أينما كانت هذه الأعمال جزئية أو ناقصة.

ومن المحال أن نعرف على وجه التحقيق التاريخ الدقيق لأول دخول الإسلام في أرخبيل الملايو. وربما حمله إلى هناك تجار العرب في القرون الأولى للهجرة، وذلك قبل أن تصل إلينا أية معلومات تاريخية عن حدوث أمثال المؤثرات في تلك البلاد بزمن طويل. ومما جعل هذا الغرض أكثر احتمالًا، ما نعرفه من أن العرب زاولوا مع بلاد الشرق تجارة واسعة النطاق منذ عصور مبكرة جدًا. ففي القرن الثاني للهجرة، كانت تجارتهم مع سيلان كلها في أيديهم. وفي مستهل القرن السابع الميلادي، لقيت تجارتهم مع الصين، عن طريق سيلان، رواجًا عظيمًا، حتى لقد وجدنا تجار العرب، في أواسط القرن الثامن يقيمون في كانتون في جموع غفيرة.

وفي الفترة التي بين القرنين العاشر والخامس عشر، حتى قدوم البرتغاليين، كان

العرب سادة التجارة مع الشرق دون منازع[١].لذلك نستطيع أن نزعم في شيء من التأكيد المقبول، أنهم لا بد أن يكونوا قد أسسوا مستعمراتهم التجارية في بعض جزائر أرخبيل الملايو، كما فعلوا ذلك في الأماكن الأخرى في عصر مبكر جدًا. ومع أننا لا نجد ذكرًا لهذه الجزائر في مؤلفات جغرافي العرب قبل القرن التاسع[٢]، نجد في حوادث سنة ٦٨٤م في الأخبار الصينية المدونة حسب السنين، خبرًا عن زعيم عربي، يظن من التعليقات المتأخرة أنه كان زعيم مستعمرة عربية على ساحل سومطرة الغربي[٣].

على أن الدعاة لا بد أن يكونوا قد وفدوا كذلك على أرخبيل الملايو من جنوب الهند، نستدل على ذلك من بعض خصائص معينة وجدت في العقيدة الإسلامية التي اعتقدها سكان هذه الجزائر. ويتبع السواد الأعظم من مسلمي الأرخبيل المذهب الشافعي، الذي يسيطر في الوقت الحاضر على سواحل كوروماندل ومليبار، كما كانت الحال كذلك حول منتصف القرن الرابع عشر، عندما زار ابن بطوطة هذه البقاع[٤].

فإذا قدرنا أن المسلمين في البلاد المجاورة ينتمون إلى المذهب الحنفي، استطعنا أن نفسر ذيوع تعاليم المذهب الشافعي بشيء واحد، هو الزعم بأن هذه التعاليم قد جُلبت إلى هناك من ساحل مليبار الذي كان التجار الآتون من جاوة يترددون على موانيه، كما كان يتردد عليها التجار القادمون من الصين واليمن وفارس[٥]. كذلك لا بد أن يكون التشيع قد جاء إلى هناك من الهند أيضًا، أو من فارس، ولا تزال آثاره قائمة في جاوة وسومطرة.

ونعلم مما ذكره ابن بطوطه أن سلطان سَمُدرة[*] المسلم قد دخل في صلات ودية مع

---

(١) Niemann, p. 337.

(٢) Reinaud: Géographie d'Aboulféda, tome i. p. cccxxxix.

(٣) Groeneveldt, pp. 14, 15.

(٤) ابن بطوطة جـ٤ ص٦٦، ٨٠.

(٥) Veth (3), vol. p. 231. ابن بطوطة جـ٤ ص٨٩.

(*) اسم مدينة سومطرة القديم، ويقال إنه سنسكريتي الأصل معناه البحر.

بلاط دهلي؛ وكان من بين علماء الفقه الذي خصهم هذا السلطان المتدين بالرعاية قاض من شيراز وآخر من أصبهان[١]. ولكن قبل هذا الوقت بزمن طويل، كان التجار المقيمون في الدكن، الذين قامت الحركة التجارية على أيديهم بين الدول الإسلامية في الهند وأرخبيل الملايو، قد استقروا في جماعات كبيرة في الموانئ التجارية الواقعة في هذه الجزائر، حيث ألقوا بذور الدين الجديد[٢].

ويرجع الفضل في وجود الأهالي المسلمين، الذين وجدنا ذكرهم في الأخبار التاريخية الأولى التي تشير إلى الإسلام في هذه الجهات، إلى تلك الجهود التي بذلها تجار العرب والهنود في نشر تعاليم الدعوة. فإنهم بعد أن استقروا في مراكز التجارة، تصاهروا إلى سكان البلاد، ومن ثم كوَّن أولائك النسوة الوثنيات وعبيد أسراتهن نواة الجماعة الإسلامية التي لم يأل أفرادها جهدًا في زيادة عددهم. ويمدنا الوصف التالي للوسائل التي اتخذها الدعاة من هؤلاء التجار في جزائر الفيلبين، بصورة لما كان قد صنعه من غير شك، تجار المسلمين في الأجيال الكثيرة السابقة: «كان أقوم السبل لإدخال دين المسلمين إلى هذه البلاد، أن اتخذوا لغة القوم وكثيرًا من عادات الأهالي، وتزوجوا من نسائهم، واشتروا عبيدًا ليرفعوا من قيمتهم الشخصية، ونجحوا آخر الأمر في أن يدخلوا أنفسهم في زمرة الزعماء الذين يتبوءوا أرفع مكانة في الدولة. وعملوا يدًا واحدة على نحو أكثر حذقًا وتناسقًا مما كان يصنعه الأهالي، فزادوا من قوتهم شيئًا فشيئًا. ولما كانوا يمتلكون عددًا من العبيد، ألفوا فيما بينهم نوعًا من الحلف، وأسسوا ضربًا من الحكومات الملكية جعلوها وراثية في أسرة واحدة. ومع أن مثل هذا الحلف قد أمدهم بقوة عظيمة، أحسوا الحاجة إلى التراضي على شروط ود مع الطبقة الأرستقراطية القديمة، كما أحسوا الحاجة إلى أخذ ضمان لحريتهم من هذه الطبقات التي لم يكن في وسعهم أن يستغنوا عن تأييدها»[٣].

ولا بد أن يكون المسلمون الذين استوطنوا أرخبيل الملايو، على اختلافهم، قد

---

[١] ابن بطوطة جـ٤ ص٢٣٠، ٢٣٤.

[٢] Snouck Hurgronje (1), pp. 8-9.

[٣] Padre Gainza, quoted by C. Semper, p. 67.

وضعوا بطريقة تشبه تلك التي تحدثنا عنها، أساسًا سياسيًا واجتماعيًا ثابتًا لجهودهم في سبيل نشر تعاليم الدعوة. إنهم لم يفدوا على هذه البلاد غزاة، كما فعل الإسبان في القرن السادس عشر، ولم يستخدموا السيف أداة لتحويل الناس إلى الإسلام، بل لم يدَّعوا لأنفسهم حقوق جنس أسمى يتمتع بالغلبة والسيادة، لكي يحطوا بذلك شأن السكان الأصليين ويسلبوا حقوقهم، بل قدموا في زي التجار، واستخدموا كل ما لديهم من ذكاء أسمى، ومدنية أزهر في سبيل دينهم، أكثر من أن يكونوا قد استخدموا ذلك وسيلة لتوسيع نفوذهم الشخص أو لتنمية ثرواتهم(١).

أما وقد قررنا بصفة عامة الوسائل الثانوية التي اتخذوها في نشر الدعوة، فلنتتبع بالتفصيل جهودهم في نشر تعاليم هذه الدعوة في الجزائر المختلفة.

تصور لنا الروايات أن الإسلام دخل إلى سومطرة من بلاد العرب، على أنه ليس هناك أساس تاريخي صحيح لمثل هذا الاعتقاد، ويظهر أن الشواهد كلها تشير إلى أن الهند هي المنبع الذي استقى منه أهالي سومطرة معرفتهم بالعقيدة الجديدة. كانت العلاقات التجارية الفعالة، قد قامت منذ قرون بين الهند وأرخبيل الملايو، ولا يبعد أن يكون أول دعاة سومطرة تجارًا من الهنود(٢). على أنه ليس لدينا أخبار تاريخية عن أعمالهم، وتنسب أخبار الملايو شرف أول دعوة في مدينة أتجيه **Atjeh**، شمال غربي سومطرة، إلى عربي يدعى عبد الله عارف، قيل إنه زار الجزيرة حول منتصف القرن الثاني عشر؛ وقيل إن أحد تلاميذه، برهان الدين، حمل معرفة العقيدة إلى الساحل الغربي حتى پرياماں **Priaman**(٣).

ولما كان هذا الخبر غير موثوق بصحته، فإنه مع ذلك قد يوضح وجود بعض نشاط في نشر تعاليم الدعوة حول هذه الفترة. ذلك أن أخبار مؤرخي الملايو الخاصة بأتجيه تجعل سنة ١٢٠٥ تاريخًا لاعتلاء چيهان شاه العرش، وهو الذي تزعم الروايات أنه مؤسس

---

(١) **Crawfurd (2), vol. ii. P. 265.**

(٢) **Snouck Hurgronje: L'Arabie et les Indes Néerlandaises. (Revue de l''Histoire des Religions, vol. Ivii, p. 69 sqq).**

(٣) **De Hollander, Vol. i. p. 581. Veth (1), p. 60.**

الأسرة الإسلامية. وقد قيل إنه كان أجنبيًا، من الغرب[١]، وإنه قدم إلى هذه السواحل ليدعو إلى عقيدة النبي ﷺ. وقد أدخل كثيرين من هذا الدين، وتزوج امرأة من أهالي هذه البلاد، فرحبوا به ملكًا عليهم وتلقب بلقب سرِي پَدُوكا سلطان، وهو لفظ خليط من السنسكريتية والعربية.

والراجح أن العقيدة الجديدة ظلت وقتًا ما مقصورة على الموانئ التي اتصل بها تجار المسلمين، وأن تقدم هذه العقيدة في داخل البلاد كان أكثر بطئًا، فهنا لم يكن بد من أن تصطدم العقيدة بالمؤثرات الهندوكية القوية التي اتخذت لها مركزًا في مملكة منانجكباو.

ويتحدث ماركو پولو، الذي قضى خمسة أشهر على ساحل سومطرة الشمالي في ١٢٩٢م، عن جميع السكان باعتبارهم عبدة أوثان، اللهم إلا في مملكة پرلاك الصغيرة على الزاوية الشمالية الشرقية من الجزيرة، حيث كان سكان المدن وحدهم مسلمين كذلك، لأن «تجار العرب، كما ينبغي أن تعلم، قد بلغ من كثرة ترددهم على هذه المملكة، أنهم أدخلوا الأهالي في شريعة مُحَمَّد»، أما سكان المرتفعات فكلهم وثنيون أو متوحشون يأكلون لحوم البشر[٢]. أضف إلى ذلك أن أحد أخبار الملايو التاريخية يقول إن أول من ضرب المثل في اعتقاد الإسلام ثم حذا رعاياه حذوه، هو السلطان على مغايت شاه، وكان قد حكم أتجيه من سنة ١٥٠٧ إلى ١٥٢٢[٣]. ولكن لا يبعد أن يكون شرف أول حاكم مسلم للدولة قد نُسب إلى هذا السلطان لاعتباره مجدًا يضاف إلى الحاكم الذي أسس عظمة أتجيه، وأخذ في بسط نفوذه على البلاد المجاورة.

كما لا يبعد أن يكون أصوب أنه أحدث أثرًا في إنعاش حياة رعاياه الدينية، أو أنه بث روحًا جديدة في هذه الحياة، لا أن يكون قد أمدهم بأول معرفة بعقيدة النبي. فقد

---

(١) قد تنطبق هذه الإشارة الغامضة إما على بلاد العرب وفارس وإما على الهند. ولكن إذا كانت شخصية جيهان شاه هذه حقيقية، فلا يبعد أن يكون قد قدم من كوروماندل أو ساحل المليبار. (Chronique du Royaume d'Atcheh, traduite du Malay par Ed. Dulaurier, p. 7).

(٢) Marco Polo, vol. ii. P. 284.

(٣) Veth (1), p. 61.

رسخت قدم الإسلام في سومطرة قبل ذلك الوقت بزمن طويل. وتخبرنا الروايات التي تتحدث عن مدينة سمدرة، أن شريف مكة أرسل بعثة لتحويل شعب سومطرة إلى الإسلام. وكان قائد الجماعة رجلًا يدعى الشيخ إسماعيل. وكان أول ما وصلوا إليه من الأمكنة في هذه الجزيرة، بعد أن تركوا مليبار، بلدة پاسوري **Pasuri** (وربما كانت على مسافة قليلة من جنوب الساحل الغربي)، وبفضل دعوتهم اقتنع شعب هذه البلدة باعتقاد الإسلام، ثم تقدموا شمالًا حتى لمبري **Lambri**، ثم أخذوا يساحلون الجزيرة حتى وصلوا إلى الجانب الآخر منها، وأبحروا من هناك حتى وصلوا إلى آرو **Aru** على الساحل الشرقي من جهة الجنوب، وهي تقابل ملقًا تقريبًا. وفي كلتا هاتين البقعتين، تكللت جهودهم بنجاح كذلك. وفي آرو، تحروا الطريق إلى سمدرة، وهي مدينة على الساحل الشمالي من الجزيرة، ويظهر أنها خاصة كانت هدفًا لدعوتهم، فوجدوا أنهم قد تجاوزوها. ومن أجل ذلك قفلوا راجعين إلى برلاك **Parlak**، حيث كان ماركو پولو قد وجد جماعة من المسلمين قبل ذلك بأعوام قليلة؛ وبعد أن ظفروا بمسلمين جدد في هذه البقعة كذلك، استأنفوا رحلتهم إلى سُمدرة. وكانت هذه المدينة، والمملكة التي تسمت باسمها، قد تأسست أخيرًا على يد شخص يدعى مراسيلو **Mara Silu**. وقد أقنعه الشيخ إسماعيل باعتقاد الإسلام فاتخذ لنفسه اسم الملك الصالح، وتزوج من ابنة ملك پرلاك فأنجب منها ولدين، ولكي يترك لكل منهما ولاية بعد وفاته، أسس هذه المدينة الإسلامية ومملكة پاسي **Pasei**، وهي كذلك على الساحل الشمالي[1].

ولا يبعد أن يكون الملك الظاهر الذي وجده ابن بطوطة حاكمًا في سمدرة عندما زار هذه الجزيرة في سنة ١٣٤٥، أكبر هذين الولدين. وقد أظهر هذا الملك أعظم ما تتجلى به المملكة الإسلامية من أبهة، وامتد بلاده مسيرة أيام كثيرة على طول الساحل. كان مسلمًا من أهل السنة، غيورًا على دينه، مولعًا بعقد المناظرات مع الفقهاء وعلماء الدين. وكان بلاطه مقصد الشعراء ورجال العلم. ويذكر لنا ابن بطوطة اسمي قاضيين، كانا قد أتيا إليه من فارس، كما يذكر اسم أمير كان قد ورد رسولًا على السلطان في دهلي،

---

(١) **Yule's Marco Polo, vol. ii. Pp. 294, 303.**

وهذا يدلنا على أن سومطرة كانت من قبل على اتصال بكثير من أرجاء العالم الإسلامي. كذلك كان الملك الظاهر قائدًا عظيمًا، وقد أعلن الحرب على الوثنيين الذين يقيمون في البلاد المجاورة حتى أذعنوا لحكمه، وأدوا له الجزية[1].

وكان الإسلام من غير شك قد أحرز في ذلك العهد تقدمًا عظيمًا في سومطرة، وبعد أن توطدت دعائمه على طول الساحل، أخذ يشق طريقه إلى المناطق الداخلية. وكانت دعوة الشيخ إسماعيل وجماعته قد آتت ثمارًا وافرة، فقد تحدث رحاله صيني، زار هذه الجزيرة في سنة ١٤١٣، عن بلدة لا مبرى، فقال إن عدد الأسرات التي كانت تقيم فيها ألف أسرة، كلهم مسلمون، و«على جانب عظيم من كرم الأخلاق»، وكان ملك آرو وشعب مملكته يعتقدون جميعًا هذا الدين نفسه[2]. وقد حدث، إما في نهاية هذا القرن نفسه أو في القرن الخامس عشر، إن وجد دين النبي أشياعًا من مملكة منانجكباو العظيمة، التي امتدت أراضها يومًا ما من الساحل إلى الساحل، وعلى جزء عظيم من الجزيرة يقع شمالي خط الاستواء وجنوبيه[3].

وعلى الرغم من أن قوتها كانت لذلك العهد قد انحلت إلى حد بعيد، ظلت تضع عقبات كبيرة، باعتبارها معقلًا قديمًا من معاقل الهندوكية. في سبيل تقدم الدين الجديد. ومع هذه الحقيقة، كان تأصل الإسلام في نفوس رعايا هذه المملكة آخر الأمر أقوى منه في نفوس السواد الأعظم من سكان المنطقة الداخلية من هذه الجزيرة[4]. ومن الواضح البين، أن هؤلاء، وهم أوسط شعوب الجزيرة مركزًا، لم يكن بد من أن يكونوا بأسرهم أسرع دخولًا في الإسلام من سكان كثير من سائر المقاطعات التي كانت أشد اتصالًا بالمؤثرات الأجنبية. ولا يزال السواد الأعظم من سكان بلاد البتك **Batak**، إلى اليوم،

(١) ابن بطوطة جـ٤ ص٢٣٠–٢٣٦.

(٢) **Groeneveldt, p. 94.**

(٣) وفي أوج قوتها، امتدت من ٢° شمالًا إلى ٢° جنوبًا على الساحل الغربي، ومن ١° شمالي إلى ٢° على الساحل الشرقي، ولكنها في القرن السادس عشر، فقدت سيطرتها على الساحل الشرقي. **(De Hollander, vol. i. p.3)**.

(٤) **Marsden, p. 343.**

على الوثنية، بيد أن الإسلام قد ظفر ببعض آثار فيهم، مثال ذلك فريق يعيشون على حدود أتجيه، دخلوا في الإسلام على يد جيرانهم المسلمين(١)، وفريق آخر يسكنون في جبال إقليم راو **Rau** على خط الاستواء، تحولوا مثلهم إلى الإسلام(٢).

كذلك عرفت حالات من إسلام البتك على الساحل الشرقي، وكانوا على اتصال وثيق بسكان الملايو(٣).ولم تُجْد الجهود النشيطة التي بذلتها أسرة پدري **Padris** المتعصبة لفرض الإسلام على البتك بحد السيف، فخربوا بلادهم وقتلوا كثيرًا منهم. ولكن هذه الوسائل العنيفة لم تجذب أحدًا إلى الإسلام. على أنه، عندما أخمدت الحكومة الهولندية حركة البدري وضمت إلى أملاكها الجزء الجنوبي من بلاد البتك، أخذ الإسلام ينتشر بالوسائل السلمية، وخاصة عن طريق الجهود الحماسية التي بذلها الموظفون المرؤوسون من الأهالي الذين جاء بهم النظام الجديد والذين كانوا جميعًا من سكان الملايو المسلمين(٤)، وكذلك عن طريق نفوذ التجار الذين طوفوا في البلاد، والذين حذا حذوهم في نشر الدعوة جماعة (الحاجي) وغيرهم من علماء الدين المعروفين.

ومن الحقائق الواضحة، أن البتك الذين كانوا قد أبدوا معارضة عنيدة في دخول الإسلام بينهم قرونًا عديدة، مع أنهم كانوا يحاطون بمجموعتين من السكان المسلمين المتعصبين، وهما الأتشينيون في الشمال وأهل الملايو في الجنوب، قد استجابوا في السنين الأخيرة للجهود السلمية التي بذلت لإدخالهم في الإسلام، وأظهروا حماسة في هذه السبيل. ويظهر أن من الممكن إيجاد تفسير لذلك، فيما اعترى صفاتهم القومية الحاجزة المنيعة، من ضعف ووهن، بسبب الاحتلال الهولندي، والغزو الذي عرض بلادهم

---

(١) **J. H. Moor. (Appendix, p. 1).**

(٢) **Marsden, p. 355.**

(٣) **Godsdienstige verschijnselen en teostanden in Oost- Indië. (Uit de Koloniale Verslagen van 1886 en 1887). Med. Ned. Zendelinggen, vol. xxxii. Pp. 175-6. (1888).**
وفي سنة ١٩٠٩، كان المجموع الكلي للبتك ٥٠٠.٠٠٠ شخص، منهم ٣٠٠.٠٠٠ كانوا لا يزالون على الوثنية، على حين كان ١٢٥ ألف مسلمين و ٨٠ ألف مسيحيين **(R. du M.M., vol. viii. P. 183)**.

(٤) **J. Warneck: Die Religion der Batak, p. 122 (Leipzig 1909).**

للمؤثرات الأجنبية التي دلت على بداية عصر جديد في تطورهم الثقافي، كما نجد تفسير ذلك أيضًا في تلك الخطوات السديدة التي تقدم بها أئمة هذا الدين الجديد، الذين عرفوا كيف يلائمون بين تعاليمهم وعقائد البتك الراهنة، وتقاليدهم المتأصلة في نفوسهم[١]. ويظهر أن تأسيس الإرساليات المسيحية بين البتك في سنة ١٨٩٧ قد زود الدعوة الإسلامية في هذه البلاد بباعث لا يستهان به، بل يظهر أن هذه الإرساليات قد مهدت السبيل لنجاح تلك الدعوة؛ فقد قيل أن قريتين من قرى البتك، وكان جميع أهليهما قد تنصروا، انتقلتا جميعًا واحدًا إلى الإسلام، بعد تنصرهما بزمن قصير[٢].

ولا يزال في سومطرة الوسطى، عدد كبير من الأهالي الوثنيين، على الرغم من أن السواد الأعظم من السكان مسلمون. ولكن هؤلاء على جانب عظيم من الجهل بديانتهم، اللهم إلا إذا استثنينا عددًا قليلًا من جماعة الحاجي والمعلمين الدينيين: بل إننا نجد بين شعب كورنتجي، وهم في معظمهم يشايعون الإسلام ويتحمسون له، بعض الطوائف من الأهالي لا يزالون يعبدون آلهة أجدادهم الوثنيين[٣]. على أن الجهود تبذل في سبيل نهضة دينية، كما أن دعاة المسلمين يقومون بغزوات جديدة بين الوثنيين ولا سيما على طول الساحل الغربي[٤] وفي مقاطعة سيبيروك Sipirok أدخل معلم ديني. وكان قد لزم المسجد في المدينة التي كانت تحمل اسم هذه المقاطعة مدة ربع قرن، جميع أهالي هذه المقاطعة في الإسلام، اللهم إلا المسيحيين الذين كانوا يعيشون هناك، وكانوا في الغالب من سلالة الأهالي الذين كانوا عبيدًا من قبل[٥].

وقد أفلحت حركة حديثة لنشر الدعوة، قامت في العقد الأول من القرن العشرين،

---

(١) G. R. Simon: Die Propaganda des Halbmondes. Ein Beitrag zur Skizzierung des Islam unter den Batakken, pp. 425, 429-30. (Allgemeine Missions- Zeitschrift, vol. xxvii. 1900).

(٢) R. du M. M., vol. viii. (1909), p. 183.

(٣) A. L. van Hassalt, pp. 55, 68.

(٤) Med. Ned. Zendelinggen, id. P. 173 (Koloniaal Verslag van 1911, p. 26; 1912, p. 17). III.

(٥) Unit het Koloniaal Verslag van 1889. (Med. Ned. Zendelinggen, vol. xxxiv. P. 168) (1890).

في اجتذاب كثير من مسيحي هذه المقاطعة إلى الإسلام، بل في اجتذاب فريق ممن يعيش في وسط المحيط الذي تجلى فيه نفوذ الإرسالية المسيحية[١].

وتصور الروايات أن الإسلام دخل إلى پالمبنج Palembang حول سنة ١٤٤٠ على يد رادن رحمت، وسنذكر فيما بعد نبذة عن نشاطه في الدعوة. ولكن يظهر أن المؤثرات الهندية كانت متأصلة ثابتة في هذه المنطقة، وأن تقدم الدين الجديد كان بطيئًا. وقد قيل إن مسلمي پالمبنج كانوا حتى القرن التاسع عشر، يعرفون القليل عن دينهم، إلا ما كان من طقوسه الشكلية، اللهم إلا سكان الحاضرة الذين كانوا يتصلون بالعرب كل يوم[٢].

ولكن قد يظهر أن في العقد الأول من القرن العشرين، كان هنالك نهضة للحياة الدينية، ودعاية آخذة في النمو، إذ أن تقارير الحكومة الهولندية الخاصة بالمستعمرات قد لفتت الأنظار إلى اطراد انتشار الإسلام بين الوثنيين من أهالي مقاطعات بالمبنج على اختلافها[٣].

ومن جاوه، حُمل الإسلام لأول مرة إلى مقاطعات لمپونج Lampong التي تكوّن أقصى حدود سومطرة الجنوبية، وذلك على يد سيد هذه المقاطعات، ويدعى مِنَك كَمَله بومي. وحول نهاية القرن الخامس عشر، عبر مضيق سُندا Sunda إلى مملكة بنتام على ساحل جاوة الغربي، تلك المملكة التي كانت قد انتحلت تعاليم الدعاة المسلمين قبل أن يزورها هذا الزعيم بسنوات قليلة. وهنا أسلم هذا الرجل أيضًا، وبعد أن أدى فريضة الحج إلى مكة، نشر تعاليم عقيدته الجديدة التي اعتقدها بين مواطنيه[٤]. وقد أحرز هذا الدين تقدمًا لا يستهان به بين أهالي لمپونج، ولهم مساجد في معظم قراهم، ولكن الخرافات القديمة لا تزال قائمة في أجزاء المنطقة الداخلية[٥].

---

(١) Koloniaal Verslag van 1910, p. 30.

(٢) De Hollander, vol. i. p. 703.

(٣) Koloniaal Verslag van 1904, p. 80; 1905, p. 46; 1909, p. 47; 1910, p. 33; 1911, p. 29; 1912, p. 21.

(٤) Canne, p. 510.

(٥) Marsden, p. 301.

وفي مستهل القرن التاسع عشر، قامت في سومطرة نهضة دينية، ولم تكن عادمة التأثير في ترويج دعاية للإسلام أبعد مدى وأعظم أثرًا. وفي سنة ١٨٠٣ رجع ثلاثة من جماعة الحاجي من مكة إلى وطنهم سومطرة، وكانوا في أثناء وجودهم في المدينة المقدسة، قد تأثروا تأثرًا عميقًا بالحركة الوهابية التي قامت لإصلاح الإسلام، فأصبحوا الآن يتوقون إلى أن يدخلوا مبادئ هذا الإصلاح بين مواطنيهم، وإلى أن يبثوا فيهم حياة دينية أكثر صفاء وأشد غيرة. ومن ثم أخذوا في الدعوة إلى التشدد في التوحيد الذي تقوم به الطائفة الوهابية، وحرموا التوسل إلى الأولياء وشرب الخمر والميسر وسائر الأعمال التي تتعارض مع القرآن. وجعلوا عددًا من بين إخوانهم في الدين والأهالي الوثنيين على سواء يدخل في مذهبهم. وأخيرًا أعلنوا الجهاد على البتك، ولكن الحركة فقدت صبغتها الأصيلة وانحطت فأصبحت حربًا وحشية دامية ترمي إلى الغزو، وذلك بوقوع هذه الحركة في أيدي قوم لا وازع لهم يطمحون إلى الشهرة. وفي سنة ١٨٢١ وقع هؤلاء الذين يطلق عليهم جماعة البدري **Padris** في نزاع مع الحكومة الهولندية، ولم تأت سنة ١٨٣٨ حتى سقط آخر معاقلهم وكسرت شوكتهم(١).

ويرجع جميع أهالي الملايو الذين يقيمون في شبه جزيرة الملايو أصلهم إلى هجرات أتت من سومطرة، ولا سيما منانجكباو تلك المملكة المشهورة التي ذكرناها من قبل، والتي يقال إنها كانت في يوم ما أقوى الممالك في الجزيرة. ولا يزال بعض رؤساء الولايات الداخلية، في الجزء الجنوبي من شبه جزيرة الملايو، يتقلدون مناصبهم من هذا المكان. أما معرفة الفترة التي تمكنت فيها هذه الجاليات من قلب سومطرة في داخل شبه الجزيرة، فهذا أمر يدخل في باب الحدس والتخمين؛ ولكن يظهر أن ينغابور وأقصى الحدود الجنوبية من شبه الجزيرة، قد تلقت هجرة من هذه الهجرات في أواسط القرن الثاني عشر، وهي التي أسس أحفادها ملقا بعد ذلك بقرن تقريبًا(٢).

---

(١) **Niemann, pp. 356-9.**

(٢) **J. H. Moor, p. 255.**

وسرعان ما أصبحت هذه المدينة مدينة كبيرة زاهرة، لما تميزت به من موقع مناسب في طريق التجارة الآتية من الشرق، وهناك قليل من الشك في أن تجار المسلمين الذين استوطنوا هنا، هم الذين أدخلوا الإسلام إلى هذه البلاد[١]. وتعزو أخبار مؤرخي الملايو عن ملقا تحول هذه المملكة إلى الإسلام إلى عهد أحد ملوكها وهو سلطان مُحَمَّد شاه، وكان قد اعتلى العرش سنة ١٢٧٦م. وقد قيل إنه حكم هذه البلاد سنوات قليلة، قبل أن ترسو سفينة بقيادة سيدي عبد العزيز إلى شواطئ ملقا آتية من جدة، وأن هؤلاء القادمين قد أقنعوا الملك بتغيير عقيدته وترك اسمه الوطني، وقد اتخذ لنفسه اسمًا يحمل اسم النبي[٢].

ولكن طابع هذه الوثيقة التاريخية العام يجعل الثقة بها والاطمئنان إلى صحتها موضع شك إلى حد بعيد[٣]، على الرغم من أنه من المحتمل أن يكون تاريخ حادثة مهمة كتلك الحادثة، قد يكون موضع ملاحظة دقيقة (كما حدث ذلك في جهات كثيرة من أرخبيل الملايو) من شعب يعتز بذكر الحادثة، ويعدها فاتحة عهد جديد في تاريخهم. ويذكر مؤرخ برتغالي تاريخًا متأخرًا عن ذلك التاريخ ويقول إنه حدث في سنة ١٣٨٤، كما يقول إنه كان قاضيًا، قدم من بلاد العرب في هذه السنة، وبعد أن حول الملك إلى الإسلام، سماه محمدًا أسوة بالنبي وأضاف كلمة شاه إلى اسمه[٤].

وفي أخبار قويدة، وهي إحدى ولايات شبه جزيرة الملايو، في أقصى الشمال، رواية عجيبة وصلت إلينا عن دخول الإسلام إلى هذه المملكة، حول سنة ١٥٠١م[٥]،

---

(١) منذ أقبل هؤلاء الهنود، ونحن نعتبرهم عربًا فرسًا، والجوجراتيون (الذين استقروا في البلاد بسبب التجارة) قد قام نفر منهم بتحويلنا إلى دين مُحَمَّد. ولما كان نفر من أهل البلاد هنا قد أقبلوا على هذا الدين، لم يلبث هذا «الوباء الجهنمي» أن وصل إلى ملقا. (De Barros, Dec. ii. Liv vi cap. i. p. 15).

(٢) Aristide Marre: Malàka. Histoire des rois malays des Malàka. Traduit et extrait du Livre des Annales malayses, intitule en arabe Salàlet al Selàtyn, p. 8. (Oaris, 1874).

(٣) Crawfurd (1), pp. 241-2.

(٤) De Barros, Dec. iv. Liv. Ii. Cap. 1.

(٥) يتحدث باربوسه Barbosa فيما كتبه سنة ١٥١٦، عن تجار مسلمين كثيرين، كانوا يختلفون إلى ميناء قويدة. (Ramusio, tom. i. p. 317).

وإليك هذه الرواية (وقد حذفنا منها بعض حوادث من خوارق العادات): قدم عالم عربي يدعى الشيخ عبد الله، إلى قويدة، وزار الراجه، وسأل عن ديانة البلاد، فأجابه الراجه «ديني ودين رعيتي كلها، هو الذي وصل إلينا من الشعب القديم. إننا جميعًا نعبد الأصنام». فقال الشيخ: «إذن أمنا سمعتم جلالتكم قط شيئًا عن الإسلام، والقرآن الذي أنزله الله على مُحَمَّد، ونسخ به كل الديانات الأخرى، وتركها في حوزة الشيطان؟» فقال الراجه: «إذن أرجو منك، إن كان حقًا ما تقول، أن تعلمنا هذا الدين الجديد، وتهدينا بنوره». وتهلل الشيخ عبد الله تهلل الحماسة المقدسة لسؤال الراجه إياه هذا السؤال، واحتضن الشيخ الراجه، ثم فقهه في الدين.

ولما اقتنع الراجه بتعاليم الشيخ، أرسل في طلب آنية الأرواح (التي طالما عكف عليها) وأفرغ ما فيها على الأرض بيديه. بعد ذلك أمر أن تحضر كل الأصنام التي في قصره، فجمعت بين يديه أكوام من أصنام الذهب والفضة والطين والخشب، وكسرها الشيخ عبد الله قطعًا بسيفه وبفأس، وأحرقت الأجزاء في النار. وطلب الشيخ إلى الراجه أن يجمع كل نساء القلعة والقصر. فلما قدمن جميعًا في حضرة الراجه والشيخ، تعلمن عقائد الإسلام. وكان الشيخ مهذبًا لطيف المعشر، كما كان جذابًا رقيقًا في لغته، حتى إنه جذب إليه قلوب ساكني القصر. ولم يلبث الراجه أن أرسل في طلب وزرائه الأربعة المسنين. ولما دخلوا البهو، استولى عليهم الدهش حين رأوا شيخًا يجلس إلى جوار الراجه. فأبان لهم الراجه المهمة التي جاء من أجلها هذا الشيخ. وعندئذ أظهر الزعماء الأربعة استعدادهم للاقتداء بجلالته، وقالوا: «إننا نأمل أن يعلمنا الشيخ عبد الله كذلك». ولما سمع هذا الأخير هذه الكلمات، احتضنهم، وقال لهم إنه يأمل، لكي يبرهنوا على إخلاصهم، أن يستدعوا شعبهم بأسره إلى بهو الاستقبال، ويحضروا معهم كل الأصنام التي تعودوا أن يعبدوها، والأصنام التي انتهت إليهم عن طريق آبائهم الأولين.

وأجيب الشيخ إلى طلبه، وأحضرت في الوقت المحدد كل الأصنام التي كان الشعب يحتفظ بها، وهناك حطمت وحرقت وأصبحت رمادًا تذروه الرياح. ولم يأسف واحد منهم على ما أصاب آلهتهم الزائفة من الخراب والدمار، وكانوا جميعًا فرحين مستبشرين دخولهم

في حظيرة الإسلام. ثم سأل الشيخ عبد الله الوزراء الأربعة: «ما اسم أميركم؟» قالوا: «اسمه پرا أونج مهاوانجسا». قال الشيخ: «فدعونا نستبدل باسمه اسمًا بلغة الإسلام». وبعد تبادل الرأي، طلب الراجه نفسه أن يحول اسمه إلى السلطان مُزْلف الشاه، لأن الشيخ قد أكد أنه اسم مشهور وأنه ورد في القرآن(١).

والآن بنى الراجه المساجد في البقاع الآهلة بالسكان، وأمر بأن يُلحق بكل مسجد أربعة وأربعون شخصًا على الأقل من السكان، على أن يكونوا جماعة تقيم في المسجد وتعكف على العبادة، لأن أي عدد أقل من ذلك قد يكون غير كاف لتأدية الواجبات الدينية. ومن ثم بنيت المساجد، وألحقت بها طبول كبيرة تُدق لدعوة الناس إلى صلاة الجمع. وظل الشيخ عبد الله، وقتًا ما، يفقه الناس في الدين، وانثالوا عليه من جميع سواحل قويدة ومقاطعاتها وما جاورها، وتعلموا على يديه صيغ الإسلام وشعائره.

وقد وصلت أخبار تحول سكان قويدة إلى الإسلام على يد الشيخ عبد الله، إلى أتجيه، فأرسل إليه سلطان هذه البلاد، ورجل يدعى الشيخ نور الدين، وهو داع عربي، كان قد قدم من مكة، بعض كتب، ورسالة؛ وهذا نص الرسالة:

«هذه الرسالة من سلطان أتجيه ونور الدين إلى أخينا سلطان قويدة والشيخ عبد الله اليمني الذي يقيم الآن في قويدة. أرسلنا إليكم كتابين من كتب الدين، حتى تتأكد دعائم العقيدة الإسلامية، ويتعلم الناس واجباتهم وشعائر دينهم تعلمًا كاملًا».

وأرسل الراجه والشيخ عبد الله رسالة يردان فيها على هذه الرسالة، ويشكر أنهما على ما أنعما به عليهما. ومن ثم ضاعف الشيخ عبد الله جهوده وبنى زوايا في كل القرى على اختلافها بالإضافة إلى ما فيها من المساجد، ليكون الانتفاع عامًا، وعلى الناس كل أحكام الدين وشعائره. وكان الراجه وزوجته ملازمين للشيخ، يتعلمان قراءة القرآن. وبحث هذان الزوجان عن امرأة من نسل الراجات لتكون زوجة للشيخ. ولكن لم يرغب أحد في

---

(١) مؤلف لم ترد في القرآن بهذه الصيغة، وربما كانت الإشارة إلى قوله تعالى (سورة ٢٦ آية ٩٠): {وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ}.

أن يهب ابنته زوجة للشيخ، لأن هذا الرجل المقدس كان يوشك أن يعود إلى بغداد، وأنه كان لا ينتظر إلا أن يفرغ من تعلم شخص تعليمًا كافيًا يقوم مقامه بعد مغادرته البلاد.

وكان للسلطان في ذلك الحين ثلاثة أولاد: راجه معظم شاه، وراجه مُحَمَّد شاه، وراجه سليمان شاه: وهذه الأسماء كان الشيخ عبد الله قد أخذها من القرآن، وخلعها على هؤلاء الأمراء الذين أسدى هذا الشيخ النصح إليهم بأن يصطنعوا الصبر والأناة وألا يسرع إليهم الغضب في معاشرتهم عبيدهم والطبقات الدنيا، وأن ينظروا بعين الشفقة والعطف إلى عباد الله أجمعين، وإلى الفقراء والمعوزين[١].

ولا يزعمن زاعم أن أعمال الشيخ عبد الله قد كللت بنجاح تام؛ لأننا نعلم من أخبار أتجيه أن أحد سلاطين هذه البلاط، وكان قد غزا قويدة في سنة ١٦٤٩، قد نصب نفسه «لأن يؤسس الإسلام في البلاد تأسيسًا أقوى ثباتًا، ويخرج معابد اللييار Liar» أي هياكل الأصنام[٢]. وعلى ذلك، كان قد مضى قرن ونصف قرن قيل أن تستأصل شأفة الوثنية من هذه البلاد.

وليس لدينا أخبار أخرى مفصلة في تاريخ تحول أهالي شبه جزيرة الملايو إلى الإسلام، ولكننا نجد في أماكن كثيرة أضرحة دعاة العرب الذين كانوا أول من دعوا بينهم إلى هذه العقيدة، تلقى من هؤلاء الناس تعظيمًا[٣]. وقد أدت معاشرتهم الطويلة للعرب ومسلمي ساحل الهند الشرقي إلى جعلهم محافظين شديدي التمسك بفروض دينهم، واشتهروا بين الناس بأنهم خير من يقتدى به من مسلمي الأرخبيل. كما أدى اتصالهم المستمر بالهندوكيين والبوذيين والمسيحيين والوثنيين من سكان بلادهم، إلى جعلهم في الوقت نفسه على جانب من التساهل والتسامح. وهم شديدو التمسك بالمحافظة على صوم رمضان وتأدية فريضة الحج إلى مكة. ويرون دائمًا أن المنافع الدينية التي ينالها

---

(١) A translation of the Keddah Annals, by Lieut- Col. James Low, vol. iii. Pp. 474-7.

(٢) Id. P. 480.

(٣) Newbold, vol. i. p. 252.

الناس، إنما هي في الوقت نفسه، سعادة دنيوية لهم. وإذا وجدوا قرية بها أكثر من أربعين منزلًا، ورأوا أن سعتها تستلزم تنظيمها وتعيين موظفين دائمين للقرية، جعلوا من بين أفراد هؤلاء الموظفين داعيًا يعظ الناس في الدين. وقد بنوا بطريقة رسمية مسجدًا وأسسوه[١].

وفي الشمال، حيث تتاخم ولايات الملايو منطقة سيام، أثر الإسلام تأثيرًا لا بأس به بين أهالي سيام من البوذيين. ويطلق على من دخلوا في الإسلام منهم السمسم Samsams، وهم يتكلمون لغة هي رطانة مزيجة من لغتي الشعبين جميعًا[٢]. كذلك أدخل في الإسلام فريق من بين القبائل المتوحشة في شبه الجزيرة[٣].

وإن تاريخ انتشار الإسلام في الهند الصينية يحوطه الغموض والإبهام، ولا يبعد أن يكون تجار العرب والفرس قد أدخلوا دينهم إلى المدن الساحلية منذ القرن العاشر، ولكن يعزى أهم توسع لهذا الدين إلى هجرات أهل الملايو التي بدأت في نهاية القرن الرابع العشر[٤].

والآن، يجب أن نرجع إلى وراء قرونًا كثيرة، لنتتبع تاريخ تحول جاوة إلى الإسلام، ولا شك أن الدعوة إلى مبادئ الإسلام وإذاعتها في أهالي هذه الجزيرة، كانت كلها نتيجة لما قام به أفراد من التجار أو من زعماء الجاليات الصغيرة منذ وقت طويل؛ فلم يكن من جاوة قوة إسلامية مركزية تشعّ آثارها في مصلحة الدين الجديد، أو تفرض قبول هذا الدين بالوسائل الحربية. بل على العكس من ذلك، صبح دعاة المسلمين في هذه البلاد على ارتباط بالحضارة الهندوكية، التي كانت قد تغلغلت أصولها في أعماق حياة تلك البلاد، ورفعت الجاويين إلى مستوى عال من الثقافة والرقى، ويظهر ذلك أكثر وضوحًا في تلك النظم والقوانين التي تختلف عن نظم بلاد العرب وقوانينها اختلافًا جوهريًا.

بل لقد أخفقت الشريعة الإسلامية، إلى الآن، في أن توطد دعائمها توطيدًا كاملًا،

---

(١) Mc Nair, pp. 226-9.

(٢) J. H. Moor, p. 242.

(٣) Newbold, vol. ii. Pp. 106, 396.

(٤) R. du M. M., tome ii. (1907). Pp. 137-8.

حتى في الأماكن التي تتغلب فيها سيطرة الإسلام. وهنالك صراع دائم بين أنصار عادات الملايو القديمة، وجماعة الحاجي، الذين عادوا بعد أن أدوا فريضة الحج في مكة، متحمسين متشددين في المحافظة على الشريعة الإسلامية. ومن ثم كان لا بد أن يخطو عمل التحول إلى الإسلام خطوات بطيئة جدًا، ويمكن أن نقول في تأكيد مقبول إنه في الوقت الذي نجد فيه أن من الممكن أن نخلص جانبًا من تاريخ هذه الحركة التي قامت على نشر تعاليم الدعوة مما شابه من الأساطير والتقاليد، نرى لزامًا أن يبقى كثير من هذا التاريخ مجهولًا لدينا جهلًا تامًا.

ونجد في أخبار الملايو، التي تفيدنا فيما تمدنا به من وصف لأول الداعين إلى هذا الدين، أن ما كان يدخل، من غير شك في عمل أجيال كثيرة، وما كان يجب أن يستمر في خلال قرون شتى، نراه ينحصر في نطاق سنوات قلائل؛ وتكتسب أسماء قليلة معروفة، كما يحدث غالبًا في التواريخ الشعبية، الشهرة والثقة، وهي في الحقيقة ترجع إلى ما قام به أسلافهم المجهولون من أعمال قوامها الصبر والأناة[١].

زد على ذلك أن الأعمال الهادئة العفة التي قام بها كثير من هؤلؤاء الدعاة، لم تكن على الأرجح لتسترعي انتباه المؤرخ الذي كان بطبيعة الحال يصوب عنايته أو لا، وقبل كل شيء إلى أعمال الملوك والأمراء ومن كان على صلة وثيقة بهم. ونحن إذ نفقد مثل تلك المعرفة العظمى، لا مفر من أن نرضى بتلك الحقائق التي وصلت إلينا.

لذلك نرى أن نورد في الصفحات التالية، صورة موجزة عن تأسيس الدين الإسلامي في هذه الجزيرة، كما تصورها الأخبار القومية التي لا شك أنها، على الرغم من أنها ملأى بالتناقض والخرافات، تقوم على أساس تاريخي؛ ويدلنا على ذلك ما نقش على مقابر الشخصيات المهمة التي ذكرت في هذه الأخبار، وعلى آثار المدن القديمة ونحو ذلك. لهذا لا بأس من أن نقبل الأخبار الآتية، مع افتقارها إلى دليل يثبت صحتها، على أنها صحيحة في جوهرها، على أن نأخذ الحذر الذي سبقت الإشارة إليه، من نسبة آثار

---

[١] Snouck Hurgronje (1), p. 9.

فائقة مفرطة إلى جهود أفراد في نشر تعاليم الدعوة.

كان أول من قام بالمحاولة الأولى لإدخال الإسلام إلى جاوة، رجل من أهالي هذه الجزيرة حول نهاية القرن الثاني عشر. وقد ترك أول ملوك باجاجاران Pajajaran، وهي ولاية في الجهة الغربية من الجزيرة، ولدين: أما أكبرهما فقد آثر أن يزاول التجارة، وباشر بعثة تجارية ذاهبة إلى بلاد الهند، تاركًا أخاه الأصغر الذي خلفه على العرش في سنة ١١٩٠، وتلقب بلقب پرابو موندنج ساري Prabu Munding Sari. وفي أثناء تطواف ذلك الابن الأكبر، لقي بعض تجار العرب، فدخل في الإسلام على أيديهم، واتخذ لنفسه اسم حاجي پُروا. ولما عاد إلى وطنه، حاول بمعونة أحد دعاة العرب أن يدخل أخاه والأسرة المالكة في دينه الجديد. ولكن جهوده لم تصادف نجاحًا، فهرب إلى الأدغال خوفًا من الملك ورعاياه الكفار، ولم نسمع عنه شيئًا بعد ذلك[١].

وفي النصف الأخير من القرن الرابع، تكوّنت حركة للدعوة، نالت نجاحًا أعظم، على يد شخص يدعى مولانا ملك إبراهيم، وقد رسا على ساحل جاوة الشرقي مع إخوانه في الدين، واستقر قريبًا من بلدة جريسك Gresik، وهي قبالة جزيرة مادورة. ويقال إنه كان يُرجع نسبه إلى زين العابدين أحد أبناء أحفاد علي، وإنه كان ابن عم راجه تشرمن Chermen[٢]. وهنا شغل نفسه في القيام بتحويل الناس إلى الإسلام وأحرز نجاحًا في هذه السبيل؛ وسرعان ما جمع حوله فئة قليلة من المؤمنين. وأخيرًا اتصل بابن عمه، راجه تشرمن، الذي قدم إلى هذه البلاد أملًا في أن يحول راجه مملة ماچا پاهيت Majapahit الهندوكي إلى الإسلام وأن يعقد معه حلفًا بعرض زواج ابنته عليه. فلما وصل أرسل ابنه، صادق مُحَمَّد، إلى ماچاپاهيت ليحدد وقتًا للمقابلة، على حين شغل هو نفسه ببناء مسجد وتحويل السكان إلى الإسلام.

---

(١) Veth (3) vol. 1. P. 215, Raffles (ed. Of 1830), vol. ii. Pp. 103, 104, 183.

(٢) موقع تشر من غير محقق؛ ويظن فيث Veth (3), vol. i. p. 230 أن من الممكن أن يكون في بلاد الهند؛ ولكن روفاتير Rouffaer (p. 115 n) يسرد أسبابًا جيدة للتدليل على أن هذا البلد يقع في سومطرة.

وكان من أثر ذلك أن تمت مقابلة الأميرين، ولكن قبل أن يتمكن من موالاة ذلك التأثير الذي بلغوه في ذلك الحين، تفشى مرض بين شعب راجه تشرمن، فقضى على ابنته، وثلاثة من أبناء أخيه، كان قد صحبهم معه، وفريقًا عظيمًا من رجال حاشيته؛ ومن ثم عاد هو إلى مملكته. وقد جعلت هذه الكوارث عقلية راجه ماچاپهيت تتحامل على هذا الدين الجديد، الذي كان ينبغي، كما قال هذا الراجه، أن يكون من الأصوب حماية معتنقية. وكان من أثر ذلك أن أخفقت البعثة. على أن مولانا إبراهيم تخلّف، ليتعهد مقابر[١] ذويه وإخوانه في الدين، أما هو فقد قضى نحبه بعد ذلك بإحدى وعشرين سنة، وذلك سنة ١٤١٩، ودفن في جريسك حيث لا يزال المسلمون يعظمون قبره ويعدونه أول رسل الإسلام إلى جاوه.

ويذكر أحد مسلمي الصين، وكان قد صحب سفارة إمبراطور الصين إلى جاوة في وظيفة مترجم، قبل موت مولانا إبراهيم بست سنوات، أي في سنة ١٤١٣، قدوم إخوانه في الدين في هذه الجزيرة تحت عنوان «وصف عام لسواحل المحيط»، حيث يقول: «في هذه البلاد ثلاثة أنواع من الشعب: الأول المسلمون الذين جاءوا من الغرب واستقروا هنا، وزيهم وطعامهم نظيف مناسب. والثاني الصينيون الذين هربوا واستوطنوا هنا، وما يأكلون ويستخدمون بديع جدًا كذلك، وكثير منهم قد اعتقدوا الدين الإسلامي وحافظوا على تعاليمه. والثالث الأهالي الذين على جانب عظيم من القبح والفظاظة، وهم يجيئون ويذهبون حفاة حاسري الرؤوس، ويعتقدون في الشياطين في خشوع وتبتل. ولكون بلادهم معروفة بذلك أطلق عليها في كتب البوذية بلاد الشيطان»[٢].

والآن نقترب من الفترة التي أصبح فيها لحكم المسلمين السيادة في الجزيرة، بعد أن تسرب دينهم إليها بما يقرب من قرن. وهنا نرى لزامًا أن ندخل في تفصيلات التاريخ، على نحو أكثر دقة نوعًا ما، لكي نبين أن ذلك لم يكن نتيجة أية حركة قوامها التعصب

---

(١) وقد أورد **J. F. G. Brumund** ص١٨٥ وصفًا للحالة الراهنة لتلك المقابر، ولا يزال يرى على واحدة منها آثار نقش مكتوب بحروف عربية.

(٢) **Groeneveldt, pp. vii. 49-50.**

الديني، أثارها العرب، بل نتيجة ثورة قام بها أهالي البلاد أنفسهم[١]، الذين (مع أنهم بطبيعة الحال اكتسبوا القوة من وراء ارتباطهم برباط دين مشترك) حُرضوا على أن يجمعوا كلمتهم لينتزعوا السلطة العليا من أيدي مساكنيهم الوثنيين، لا بالدعوة إلى حرب دينية، ولكن عن طريق ما وجهه أحد المطالبين بالعرش من الطامحين، وكان قد لحقه ظلم، من تحذير وإنذار، فأراد التشفي والانتقام[٢].

ونستطيع أن نصف الحالة السياسية في الجزيرة كما يلي: كانت الإمارات الوسطى والشرقية من الجزيرة، وكانت أكثر الإمارات ثروة وعمرانًا، وأبعدها تقدمًا نحو المدينة، تحت سلطان دولة ما جاپهيت الهندوكية. وفي أقصى الغرب نجد تشريبون **Cheribon** وإمارات أخرى كثيرة، صغيرة مستقلة؛ حين كان سائر الجزيرة، ويشمل كل المقاطعات الواقعة في أقصى حدودها الغربية، خاضعًا لملك پاججاران.

كان ملك ماجا پاهيت قد تزوج من ابنة أمير تشامپا **Champa**، وهي ولاية صغيرة في كامبوديا شرقي خليج سيام[٣]. ولما كانت تغار من إحدى جواري الملك الحظيات، بعث الملك بهذه الجارية إلى ابنه آريه دمر **Arya Damar** حاكم پالمبنج **Palembang** في سومطرة حيث أنجبت منه ابنًا اسمه رادن پتاه **Raden Patah**، وقد رُبي على أنه أحد أبناء الحاكم. وقدر لهذا الطفل بعد سنوات (كما سنرى) أن يقدم على انتقال فظيع من جراء المعاملة القاسية التي لقيها من أمه.

وكانت بنت أخرى من بنات أمير تشامپا قد تزوجت من عربي كان قد قدم إلى تشامپا للدعوة إلى الإسلام[٤]. ومن هذا الزواج، ولد رادن رحمت **Raden Rahmat** الذي اعتنى والده بتربيته على الدين الإسلامي، ولا يزال الجاويون يعظمونه باعتباره أعظم

---

(١) **Kern, p. 21.**

(٢) **Veth (3), vol. i. pp. 233-42. Raffles, vol. ii. Pp. 113-33.**

(٣) على أن روفائير يضع تشامبا هذه، لا في كمبوديا ولكن على ساحل أتجيه الشمالي، ويذكر أنها هي جومبا **Djeumpa** الحديثة.

(Encyclopaedie van N.- J., vol. iv. P. 206).

(٤) لا تزال بقايا المآذن والمقابر الإسلامية ماثلة في تشامبا.(**Bastian, vol. i. pp. 498-9**).

رسل الإسلام إلى بلادهم[1]. ولما بلغ العشرين من عمره، بعث به أبواه ومعه رسائل وهدايا إلى عمه ملك ماجاپاهيت. وفي طريقه، مكث شهرين في پالمبنج، ضيفًا على أريه دمر الذي كاد أن يقنعه رادن رحمت اعتقاد الإسلام، إلا أنه لم يجسر على أن يجهر بإسلامه خوفًا من الشعب الذي كان متمسكًا أشد التمسك بتقاليده القديمة. وواصل رحلته حتى بلغ جريسك حيث رحب به أحد دعاة العرب، واسمه الشيخ مولانا جُمادى الكبرى، باعتباره رسول الإسلام المنتظر إلى جاوة الشرقية، وتنبأ بأن يكون زوال الوثنية على يديه، وبأن أعماله ستكلل بدخول كثير من الناس في هذا الدين. وقد قوبل في ماجاپاهيت بترحاب عظيم، من ملك تشامپا وأميرتها. وعلى الرغم من أن الملك كان نفسه غير راغب في الدخول في الإسلام، حمل لرادن رحمت مودة واحترامًا، حتى إنه عينه حاكمًا على ثلاثة آلاف أسرة في أمپل **Ampel** على الساحل الشرقي، على مقربة من جريسك إلى الجنوب، وسمح له بأن يقيم شعائر الدينية، وأن يدخل من يشاء في الإسلام. وبعد وقت قصير، جذب إلى الإسلام معظم هؤلاء الذين كانوا تحت سلطته.

ومنذ ذلك الحين، كانت أمپل مقر الإسلام الرئيس في جاوه، وذاعت شهرة الحاكم الذي كان يعمل في حماسة بالغة للدعوة إلى دينه، وطبقت شهرته الآفاق. ومن ثم قدم إلى أمپل شخص يدعى مولانا إسحاق، ليمد له يد المساعدة في تحويل الناس إلى هذا الدين، وعهد إليه في مهمة نشر الإسلام في مملكة بلبنجن **Balambangan** في أقصى الحدود الشرقية لهذه الجزيرة. وهنا شفشى ابنة الملك التي كانت مصابة بمرض عُضال، فوهبها

[1] ويوضح جدول الأنساب الآتي صلات القرابة هذه، كما أشير في نصوص هذا الكتاب: إلى قرابات أخرى فيما بعد.

	ملك تشامبا		
ابنة = داع عربي		ابنة قعمي داراوتي = أنجكا وجاية ملك	
			ماجاياهيت = جارية
رادن رحمت		اريه دمر	
		ران حسين	
رادن باكو = ابنة		ابنة =	رادن بناء

أبوها البار زوجة لهذا الشيخ. واعتقدت دين الإسلام وتحمست له، وأباح أبوها لنفسه أن يتلقى تعاليم الإسلام، ولكنه حين حثه مولانا على أن يجهر بهذا الدين، كما كان قد وعده ذلك إذا شفيت ابنته على يديه، طرده من مملكته، وأمر بأن يقتل الطفل الذي كانت بنته توشك أن تضعه. ولكن الأم بعثت بالطفل خفية إلى جريسك إلى أرملة مسلمة غنية(١)، فربته كأحسن ما تربي الأم ابنها، وعلمته حتى بلغ الثانية عشرة من عمره، فأسلمته إلى رادن رحمت ليتعهده ويرعاه. وبعد أن عرف قصة هذا الطفل، سماه رادن پاكو، وبعد وقت، زوجه من ابنته كذلك. بعد ذلك بنى رادن باكو مسجدًا في جيري **Giri** في الجنوب الغربي من جريسك، حيث أدخل في الدين آلافًا من الناس. وبلغ من عظم نفوذه أن عينه ملك ماجاپاهيت، بعد وفاة رادن رحمت، حاكمًا على أمپل وجريسك(٢).

وفي هذه الأثناء، تألفت بعوث دينية كثيرة من جريسك. واستقر ولد رادن رحمت من جهات شتى من الساحل الشمالي الشرقي، وذاعت شهرتهم بفضل حماستهم الدينية، وإدخال كثير من سكان هذه الجهات في الإسلام. كذلك أرسل رادن رحمت داعيًا، يدعى الشيخ خليفة حسين، إلى جزيرة مادورة المجاورة، حيث بنى مسجدًا وكسب كثيرًا من الناس للإسلام.

والآن نرجع إلى أريه دمر، حاكم بالمبنج (انظر ص٣١٨). ويظهر أنه ربى أبناءه على الدين الذي خشى هو أن يجهر به، وحينذاك أرسل رادن پتاه، عندما بلغ العشرين من عمره، مع أخيه في الرضاعة، رادن حسين، وكان أصغر منه بسنتين، إلى جاوة حيث نزلا في جريسك. ورفض رادن پتاه أن يصحب أخاه في الرضاعة إلى ماجاباهيت، لأنه كان يعلم تمام العلم منبته ونسبه، ساخطًا على المعاملة القاسية التي كانت أمه قد لقيتها، ولكنه بقي في أمپل مع رادن رحمت، على حين واصل رادن حسين سفره إلى الحاضرة حيث اختفى به، ووكل إليه أمر مقاطعة من المقاطعات، وأصبح فيما بعد قائد الجيش.

---

(١) يحفظ الجاوبون ذكرى هذه المرأة في شرف عظيم، وكثير منهم يفدون الصلاة على ضريحها. انظر **Brumund, p. 186.**

(٢) **Veth (3), vol. i. pp. 235-6.**

في هذه الأثناء، تزوج رادن پتاه من حفيدة رادن رحمت، وكوّن مؤسسة في مكان يدعى بنتره **Bintara**. وكان يتميز بقوته الطبعة العظيمة، في وسط بقعة مليئة بالآجام، غربي جريسك. ولم يكد يسمع ملك ماجاپاهيت عن هذه الجالية الجديدة، حتى بعث برادن حسين إلى أخيه يستقدمه إلى الحاضرة، ويطلب إليه تقديم الطاعة للملك. وقد حمله رادن حسين على أن يفعل ذلك، فذهب إلى البلاط حيث فطن الناس في الحال إلى مشابهته الملك، وحيث قوبل بترحاب، وعين رسميًا حاكمًا على بنتره. ولما كان لا يزال يتحرق إلى الانتقام ويجنح إلى تخريب مملكة والده، عاد إلى أمپل، حيث أفضى بخططه إلى رادن رحمت. وحاول هذا الأخير أن يلطف من غضبه، مذكرًا إياه أنه لم يلق قط على يدي أبيه ملك ماجاباهيت، إلا كل لطف ورعاية، وأنه في الوقت الذي كان فيه الأمير على جانب عظيم من العدل واكتساب محبة الناس، أبى عليه دينه أن يعلن حربًا أو يلحق به أذى بحال من الأحوال.

على أن بتاه لم يقتنع بتلك النصائح (كما يتضح ذلك فيما بعد)، فعاد إلى بنتره، وكانت في ذلك الحين تزداد أهميتها ويكثر سكانها يومًا بعد يوم، على حين كانت جماعات كبيرة من الأهالي في البلاد المحيطة تدخل في الإسلام. وكان قد وضع خطة لبناء مسجد عظيم؛ ولكن بعد أن بدأ بناء هذا المسجد بوقت قصير، وصلت الأخبار بأن رادن رحمت قد أصيب بداء عياء. فأسرع رادن پتاه إلى أمپل، حيث ألفى رؤساء الدعوة إلى الإسلام يجتمعون حول فراشه، وينظرون إليه باعتباره زعيمًا لهم. وكان من بينهم ولدًا رادن رحمت، وقد تقدم ذكرهما، ورادن پاكو الذي كان يقيم في جيري، وخمسة أشخاص آخرين. ولفظ رادن رحمت نفسه الأخير بعد أيام قليلة، فزالت بذلك العقبة الوحيدة الباقية التي كانت تقف في سبيل خطط رادن پتاه الانتقامية، وصحبه الزعماء الثمانية عائدين إلى بنتره حيث أعانوه على تتمة بناء المسجد(١). وتعاطوا بينهم ميثاقًا غليظًا على أن يساعدوه في محاولته ضد ماجاباهيت. وارتبط الأمراء المسلمون جميعًا بهذا الحلف، عدا رادن حسين الذي ظل مخلصًا لسيده هو وأتباعه جميعًا، وأبى أن يدلي بدلوه مع إخوانه في الدين الثائرين.

(١) لا يزال هذا المسجد قائمًا، وينظر إليه الجاويون على أنه من أقدس الآثار في جزيرتهم.

وتبع ذلك حملة طويلة الأمد، لا حاجة بنا إلى الدخول في تفصيلاتها، ولكن في سنة ١٤٧٨[(١)]، بعد أن نشب قتال مستعر دام سبعة أيام، هُزم ماجاباهيت، وحلت السلطة الإسلامية محل السيادة الهندوكية في جاوة الشرقية. وبعد ذلك بوقت قصير، حوصر رادن حسين وأتباعه في مكان حصين، واضطر إلى التسليم، وسيق إلى أمبل، حيث قابله أخوه مقابلة لطيفة. وهرب عدد كبير من الذين ظلوا مخلصين لديانتهم الهندوكية القديمة في سنة ١٤٨١ إلى جزيرة بالي، حيث لا تزال عبادة سيوه هي الديانة السائدة[(٢)].

ويظهر أن آخرين كونوا ممالك صغيرة بقيادة أمراء بيت ماجاباهيت الذي ظل وقتًا ما على وثنيته، بعد أن سقطت قاعدة الهندوكيين الكبيرة. ولقد ظل أهالي جاوة الوسطى على وثنيتهم وقتًا طويلًا، حتى في ظل رؤساء المسلمين، وكان تقدم الإسلام نحو الجنوب من المراكز الأولى للدعوة على الساحل الشمالي نتيجة عمل قرون. ويتجلى بوضوح تأثير عقيدتهم الهندوكية القديمة حتى الوقت الحاضر، في الأفكار الدينية لأهالي جاوة الوسطى من المسلمين. ومن الأدلة الواضحة على تلك الجذور العميقة التي ألقتها الديانة الهندوكية في هذه الجهة من الجزيرة، تلك الحقيقة، وهي أن الرجوع إلى كتب القوانين الهندية ومجموعة قوانين مانو بوجه خاص، لم يذعن أمام مجموعة القوانين التي كانت أكثر تمشيًا مع

(١) ويبدو أن هنالك قليلًا من الشك في أن هذا التاريخ مبكر جدًا. وإن دراسة المصادر البرتغالية تشير إلى هذه النتيجة، وهي أن ماجاباهيت لم ينهزم إلا بعد ذلك الحين بأربعين سنة. (Rouffaer, p. 144).

(٢) وقد قاوم شعب بالي، حتى الوقت الحاضر، معظم الجهود الحماسية التي بذلها المسلمون لحث هذا الشعب على قبول دين الإسلام، على الرغم من دخول الناس في هذا الدين من حين إلى حين، ومن تكوين جماعة إسلامية صغيرة من الأهالي يبلغ عددها نحو ٣٠٠٠ نفسا، من جملة السكان الذين يربو عددهم على ٨٦٢٠٠٠ نفسا. وكان موقع الجزيرة الملائم للأهداف التجارية، يجذب دائمًا إلى شواطئها عددًا من الغرباء، كانوا في أغلب الأحيان يتخذون من الجزيرة مقرًا ثابتًا. وبينما نجد بعض هؤلاء الغرباء المستوطنين يحرصون دائمًا على أن يكونوا بمنأى من أهالي البلاد، نرى آخرين منهم يتعاقدون معهم على الزواج، وكان من أثر ذلك أن اندمجوا في جمهور الأهالي. وإلى جهود هؤلاء، يرجع الفضل فيما أحرزه الإسلام من هذا التقدم المؤكد، وإن كان تقدمًا بطيئًا جدًا. ويقال إن مصليي بالي يؤلفون جماعة نشيطة مزدهرة، زاخرة بالغيرة على ترقية دينهم، تلك الجماعة التي تؤثر – على الأقل– في جيرانهم الوثنيين، على الرغم من أن هذه الجماعة لم تصادف نجاحًا في إقناعهم بنبذ طعامهم المحبب وهو لحم الخنزير، من أجل عبادة الله. (Liefrinck, pp. 241-3).

روح التشريع الإسلامي، إلا في سنة ١٧٦٨[1].

دخل الإسلام إلى الجهات الشرقية من الجزيرة بعد ذلك بسنوات قلائل، وربما كان ذلك في أوائل القرن التالي، بسبب نشاط الدعوة الذي أظهره الشيخ نور الدين إبراهيم أحد أهالي تشريبون. وقد كسب لنفسه شهرة عظيمة لشفائه امرأة كانت مصابة بالجذام. وكان من أثر ذلك أن آلافًا من الناس جاءوا إليه ليتعلموا شعائر الدين الجديد. وقد حاول من جاوره من الزعماء أن يناهضوا هذه الحركة أول الأمر، ولكنهم لما وجدوا أن معارضتهم لا طائل تحتها سمحوا لأنفسهم أن يَجْروا مع التيار، ودخل كثير منهم في الإسلام[2].

وأرسل الشيخ نور الدين إبراهيم التشريبوني، ابنه مولانا حسن الدين، يدعو إلى الإسلام في بنتام، أكثر ولايات الجزيرة انحرافًا نحو الغرب، وإحدى ملحقات مملكة باجاجاران الوثنية. وهنا تكللت جهوده بنجاح عظم، بين الداخلين في الإسلام الذين كانوا طائفة من النساك، يبلغ عددهم ٨٠٠ وتذكر أخبار هذه الجهة من البلاد، بنوع خاص، أن الأمير الشاب قد كسب هؤلاء الذين دخلوا في الإسلام على يديه، بوسائل الإقناع اللطيفة وحدها، وليس بحد السيف[3].

بعد ذلك ذهب مع أبيه إلى مكة لتأدية فريضة الحج؛ وعند عودته بسط نفوذه على ساحل سومطرة القريب من بلاده، دون أن يمتشق سلاحًا، واجتذب الذين دخلوا في الإسلام على يديه بالوسائل السلمية وحدها[4].

ولكن يظهر أن تقدم الإسلام غربي جاوة كان أبطأ بكثير منه في شرقيها، فقد تبع ذلك أن قام نزاع طويل بين عُبّاد الإله سيوه وأتباع النبي، ولا يبعد أن تكون مملكة باجاران الهندوكية، التي يظهر أنها باشرت السيادة على الإمارات في الجهة الغربية من

---

(١) Encyclopaedie van N, -I., vol. ii. P. 523.

(٢) Veth (3), vol. i. pp. 245, 284.

(٣) Reffles, vol. ii. P. 316.

(٤) Veth (3), vol. i. pp. 285-6.

الجزيرة، في وقت واحد من تاريخ جلوة، لم تصل إلى نهايتها إلا في أواسط القرن السادس عشر[١]، على حين ظلت طوائف وثنية أخرى أقل عددًا، باقية حتى عصر أحدث من ذلك بكثير[٢] بل ظل بعضًا حتى الوقت الحاضر.

ولإحدى هذه الطوائف، وتسمى البدويس Baduwis ، تاريخ ذو أهمية خاصة. وهم ذرية قوم من أشياع الدين القديم، هربوا بعد سقوط باجاجاران إلى الغابات ومخابئ الجبال ليتمكنوا من موالاة إقامة شعائر دين أجدادهم. وفي عصور أحدث من ذلك، عندما أذعنوا لحكم سلطان بنتام المسلم، سمح لهم أن يواصلوا إقامة شعائرهم الدينية، على شريطة ألا يسمح لهم بزيادة الجماعات التي تجهر بالعقيدة الوثنية[٣].

ومن الغريب أن يقال إنهم لا يزالون يحافظون على هذه العادة، على الرغم من أن الحكم الهولندي قد توطدت دعائمه في جاوة مدة طويلة، وأنه يحررهم من ضرورة الإذعان لما اتفقوا عليه منذ القدم. وهم يحددون عددهم تحديدًا دقيقًا، بحيث لا يتجاوز أربعين أسرة، فإذا زادت الجماعة على هذا الحد، وجب على أسرة أو أكثر أن يتركوا النطاق الداخلي الذي يقيمون فيه، ويستقروا بين الأهالي المسلمين في إحدى القرى المحيطة بهم[٤].

ولكن على الرغم من أن عمل التحويل إلى الإسلام في غرب جاوة كان أبطأ منه في سائر جهات الجزيرة، كان انتصار الإسلام على العبادة الوثنية التي حل هذا الدين محلها، أتم منه في المقاطعات التي كانت أسرع في الانضواء تحت حكم راجيات ماجاباهيت؛ وإنما يرجع ذلك بنوع خاص، إلى تلك الحقيقة، وهي أن الديانة الهندوكية لم تكن قد تغلغلت بين الشعب في هذه البقعة، كما تغلغلت في وسط الجزيرة. والشريعة الإسلامية هنا قوة حيوية، كما أن الحضارة التي جلبت من بلاد العرب إلى هذه البلاد،

---

(١) d. pp. 305, 318-9.÷

(٢) ويذكر رحالة كان في جاوة في سنة ١٥٩٦ مملكتين أو ثلاث ممالك وثنية، يمكنها عدد كبير من الأهالي الوثنيين.).(Niemann, p. 342

(٣) Raffles, vol. ii. Pp. 132-3.

(٤) Metzger, p. 279.

قد اتسقت مع الحكومة وحياة الشعب. وقد لاحظنا أن مسلمي غربي جاوة، في الوقت الحاضر، وهم الذين يدرسون ديانتهم دراسة تامة، ويؤدون فريضة الحج في مكة يؤلفون في العادة، أشد طبقات الأهالي نجابة ورفاهية[١].

ولقد رأينا من قبل أن طوائف كبيرة من الجاويين ظلوا على وثنيتهم قرونًا بعد قيام الممالك الإسلامية في الجزيرة. وجميع أهالي جاوة في الوقت الحاضر مسلمون، عدا قلة ليس لها شأن يذكر. ومع أن كثيرًا من الخرافات والعادات قد بقى بينهم من أيام أجدادهم الوثنيين، لا يزال الميل يتجه دائمًا إلى إرشاد التفكير والسلوك على هدى تعاليم الإسلام. وقد سارت جهود التحويل إلى الإسلام تلك المدة الطويلة قُدمًا في هدوء وتدرك، كما يرجع نمو الولايات الإسلامية في الجزيرة إلى تاريخها السياسي أكثر من أن يكون راجعًا إلى تاريخها الديني، ذلك أن أحرزه الدين من تقدم كان نتيجة أعمال الدعاة أكثر من أن يكون نتيجة أعمال الأمراء.

وفي الوقت الذي كان مسلمو جاوة يتآمرون على الحكومة الهندوكية ويضعون حكم البلاد في أيديهم بالقوة والعنف، كانت تدبَّر ثورة لا تحمل في طياتها إلا طابع الهدوء، في سائر أجزاء الأرخبيل، عن طريق الدعوة إلى الإسلام التي قام بها الدعاة الذين كانوا يحرزون نجاحًا بطيئًا، ولكنه كان مؤكدًا، فيما بذلوه من جهود في نشر تعاليم الدعوة. ولنوجه عنايتنا أولًا إلى تاريخ حركة الدعاية هذه جزائر ملوكّس.

ولا بد أن تكون تجارة القرنفل قد أدت إلى ارتباط أهل ملوكس بسكان الجزائر في النصف الغربي من الأرخبيل منذ أزمان مبكرة جدًا، ونشر الجاويون الذين دخلوا في الإسلام، وأهل الملايو الآخرون الذين قدموا إلى هذه الجزائر للتجارة، دينهم بين سكان الساحل[٢]. ويرجع رفاق مجلان **Magellan** هذا إلى قصة عجيبة، عن الطريقة التي أدخل

L. W. C. van den Berg (1), pp. 35-6. C. Peonsen, pp. 3-8. [١]

De Barros, Dec. iii. Liv. V. Cap. V. pp. 579-80. Argensola, p. II B. [٢]

بها هؤلاء الرفاق عقائدهم الدينية بين أهالي ملوكس: «بدأ ملوك هذه الجزائر[١]، قبل قدوم الإسبانيين بسنوات قليلة يعتقدون خلود الروح، ولم يقتنعوا إلا بحجة واحدة، وهي أنهم كانوا قد رأوا طائرًا صغيرًا رائع الجمال لا نظير له على الأرض، ولا على أي شيء يتعلق بالأرض. وقد أخبرهم المسلمون الذين كانوا يزاولون التجارة في هذه الجزائر، أن هذا الطائر الصغير قد ولد في الجنة، وأن هذه الجنة هي المكان الذي تستريح فيه أرواح الموتى. ولهذا السبب، انضم السادة إلى طائفة المسلمين لأنها تعدهم أشياء كثيرة عجيبة في هذا المكان الذي تستريح فيه الأرواح»[٢].

ويظهر أن الإسلام بدأ يحرز تقدمًا لأول مرة في هذه البقعة في القرن الخامس عشر. وقد أذعن ملك تيدور الوثني لما قدمه إليه عربي يدعى الشيخ منصور من إقناع، واعتقد الإسلام مع كثير من رعاياه. وأبدل باسم الملك الوثني، تجيريلي ليجاتو **Tjireli Lijatu** اسم جمال الدين، كما سمى أكبر أبنائه منصورًا على اسم معلمهم العربي[٣]. وكان هذا الأمير الأخير هو الذي أكرم وفادة البعثة الإسبانية التي وصلت إلى تيدور في سنة ١٥٢١، بعد أن لاقى مجلان حتفه المشئوم بزمن قصير. ويسميه بيجافتا، مؤرخ هذه البعثة، باسم ريا سلطان موزور **Raia Sultan Mauzor**، ويقول إن عمره كان يزيد على خمس وخمسين سنة، وإنه لم يمض أكثر من خمسين سنة على قدوم الملسمين للإقامة في هذه الجزائر[٤].

---

[١] في هذه الفترة، كان أهل ملوكس في أغلب الأحيان، في ظل حكم الأمراء الأربعة، نعني بذلك امرأة ترنات **Ternate** وتيدور **Tidor**، وجيلولو **Gilolo** وباتجان **Batjan**. وكان الأول أعظمهم نفوذًا بكثير، وامتدت ممتلكاته إلى ترنات والجزائر الصغيرة المجاورة، وجزء من هليماهيرا **Halemahera**، وجانب عظيم من جزائر سليبيس **Celebes**، وأميوبنا، وبنده **Banda**. وبسط سلطان تيدور نفوذه على تيدور وبعض الجزائر الصغيرة المجاورة وجزء من هليما هيرا، والجزائر الواقعة بينها وبين غينا الجديدة، ويقترن بذلك الساحل الغربي لغينا الجديدة، وقسم من سرام **Ceram**. ويظهر أن أراضي سلطان جيلو لو كانت تنحصر في الجزء الأوسط من هليماهيرا وفي جزء من ساحل سرام الشمالي، بينما حكم سلطان باتجان أجزاء أهمها باتجان ومجموعة أوبي.

(De Hollander, vol. i. p. 5)

[٢] **Massimiliano Transilvano. (Ramusio, tom. i. p. 351 D).**

[٣] **P. J. B. C. Robidé van der Aa, p. 18.**

[٤] **Pigafetta, tome i. pp. 365, 368.**

ويظهر أن الإسلام قد رسخت قدمه في جزيرة ترنات المجاورة قبل ذلك بوقت قصير؛ فقد أخبر سكان هذه الجزيرة البرتغاليين الذين قدموا إلى هذه الجزيرة في نفس السنة التي وصلت فيها الإسبان إلى تيدور، أن الإسلام كان قد دخل في بلادهم منذ أكثر من ثمانين سنة بزمن وجيز[١].

ويروى البرتغاليون كذلك[٢] أن سلطان ترنات كان أول زعماء ملوكس الذين أصبحوا مسلمين. وتحكي أسطورة دخول الإسلام إلى هذه الجزيرة كيف أثار أحد التجار، ويدعى داتو ملا حسين، حب الاستطلاع في نفوس الشعب عندما رأوه يتلو القرآن بصوت عال على مشهد منهم. وقد حاولوا تقليد الحروف المكتوبة في المصحف، ولكنهم عجزوا عن قراءتها، فسألوا التاجر كيف تمكن من قراءتها، على حين عجزوا هم عن أن يفعلوا ذلك. فأجاب أن من الواجب عليهم أولًا أن يؤمنوا بالله ورسوله. ومن ثم أعربوا عن رغبتهم في قبول بتعاليمه. وانتهوا إلى الدخول في العقيدة[٣]. وقد قيل إن سلطان ترنات الذي تبوأ أرفع مكانة بين الحكام المستقلين في هذه الجزائر، قام برحلة إلى جريسك في جاوة، ليعتقد الدين الإسلامي هناك في سنة ١٤٩٥[٤].

وقد ساعده فيما بذل من جهود لنشر الدعوة شخص يدعى پاتي پُتاه pati Putah، وكان قد قام برحلة من هيتو في أمبوينا إلى جاوة ليتعلم عقائد الدين الجديد، وينشر معارف الإسلام بين شعب أمبوينا بعد عودته[٥] على أنه يظهر أن الإسلام لم يخط أول الأمر نحو التقدم إلا خطوات بطيئة، وأنه لقي معارضة كبيرة من سكان هذه الجزائر الذين تشبثوا بخرافاتهم وأساطيرهم القديمة في حماسة وغيرة، حتى إن الوثنية القديمة ظلت

---

(١) «كلما تقدموا في البلاد أتيح لنا الوقت للتعلم من أهل البلاد سر هذه العقيدة، وكانت قد دخلت البلاد منذ نيف وثمانين سنة».

J. de Barros: Da Asia, Dec, iii. Liv. V. Cap, v. p. 580.

(٢) Id ib.

(٣) Simon, p. 13.

(٤) Bokemeyer, p. 39.

(٥) Simon, p. 13.

فترة من الزمن مشوبة بتعاليم القرآن، جاعلة عقول الشعب في حالة مستمرة من القلق[١].

كذلك جعلت غزوة البرتغاليين تقدم الإسلام أبطأ مما قد يكون لو أن هذه الغزوة لم تحدث، فقد طردوا القاضي الذي وجدوه يفقد الناس في عقائد مُحَمَّد، ونشروا المسيحية بين الأهالي الوثنيين، ولقوا في ذلك شيئًا من النجاح، وإن كان قصير الأمد[٢]. ذلك أنه عندما استغل أهل مُلوكَّس انصراف البرتغاليين الذين اشتغلوا بمتاعبهم الوطنية الخاصة، في النصف الأخير من القرن السادس عشر، وحاولوا التخلص من سلطانهم، دبروا اضطهادًا عنيفًا في وجه المسيحيين الذين استشهد كثير منهم، وارتد آخرون منهم عن ديانتهم، حتى لم يعد للمسيحية ذلك الشأن الذي كان لها من قبل[٣].

ومنذ ذلك الحين، هيأت مناهضة سلطة المسيحيين السياسية صدرًا أرحب لقبول المعلمين المسلمين الذين جاءوا من الغرب في جموع تزداد شيئًا فشيئًا[٤] وقد أجهز الهولنديون على المسيحية في ملوكس بطرد الإسبان والبرتغاليين من هذه الجزائر في القرن السابع عشر، ومن ثم حمل الآباء اليسوعيون البقية الباقية القليلة من مسيحيي ترنات معهم إلى جزائر الفيليبين[٥].

ومن هذه الجزائر انتشر الإسلام في سائر ملوكس، مع أن الذين دخلوا في الإسلام كانوا مقصورين فترة من الزمن على سكان الساحل[٦] وقد جاء معظم الذين دخلوا في الإسلام من بين سكان الملايو الذين يؤلفون جميع أهالي الجزائر الصغرى، ولكنهم

---

(١) ِrgensola, pp. 3-4.

(٢) ÷d. p. 15 B.

(٣) ÷ي. Pp. 97, 98.

(٤) Id. Pp. 155, 158. حيث يطلق على ترنات «هذا المصب الذي كانت التيارات تنحدر إليه من كل صوب، والذي والذي تنبعث منه كل مذاهب الكفر، وخاصة عقيدة مُحَمَّد البغيضة. ومنذ عام ١٥٨٥، حين دخل الهولنديون هذه البحار، لم تكف هذه العقيدة عن الانتشار وكسب الأنصار واجتذاب قباطنة القراصنة، هؤلاء الرؤساء الذين كانوا يحملون معهم خيرات آسيا، ويخلفون مكانها هذه العقيدة، ويحولون إليها هذه النفوس».

(٥) ولا تزال سلالتهم في ولاية كافيتيه Cavité في جزيرة لوزن Luzon (Crawfurd (1), p. 85).

(٦) W. F. Andriessen, p. 222.

يسكنون في الأراضي الساحلية، من الجزائر الكبرى وحدها، على حين يسكن الألفور Alfurs في المناطق الداخلية. ولكن الذين دخلوا في الإسلام في عصور حديثة قد أخذوا من بين هؤلاء الألفور كذلك[١]. بل كان هنالك في عهد مبكر جدًا، في سنة ١٥٢١، ملك مسلم لولاية جيلولو Gilolo على الجانب الغربي من الطرف الشمالي لجزيرة هليماهيرا[٢].

وفي أزمان حديثة، أدى وجود قوانين خاصة، سُنت لمصلحة دين الدولة، إلى تسهيل تقدم الدين الإسلامي، إلى حد ما، بين الألفور الساكنين في المناطق الكبرى: من هذه القوانين أنه إذا ثبت أن أي فرد منهم كان يعاشر فتاة مسلمة معاشرة غير شرعية، وجب عليه أن يتزوجها، وأن يدخل في الإسلام؛ وأن أية امرأة من الألفور تتزوج من مسلم وجب أن تعتقد دين زوجها، وقد يكفّر المرء عما يقترف من آثام يعاقب عليها القانون، بالتحول إلى الإسلام. وإذا أريد شغل منصب شاغر من مناصب الرؤساء، فإنه لا ينظر إلى مؤهلات المرشح القانونية، بقدر ما ينظر إلى استعداده لاعتقاد الإسلامي[٣].

وعلى هذا النحو، ينحصر المسلمون في بورنيو غالبًا على الساحل، مع أن الإسلام قد كسب نفوذًا في الجزيرة في عهد مبكر، أعني في مستهل القرن السادس عشر. وحول هذا الوقت، اعتقد هذا الدين شعب بنجرماسين Banjarmasin، وهي مملكة على الجانب الجنوبي، كانت خاضعة لمملكة ماجاباهيت الهندوكية، حتى دلت في سنة ١٤٧٨[٤]. ويرجع الفضل في دخولهم في الإسلام إلى إحدى الولايات الإسلامية التي قامت على أنقاض مملكة ماجاباهيت[٥].

والقصة هي أن شعب بنجرماسين طلب المساعدة لقمع إحدى الثورات، وأن هذه المساعدة قدمت لهم على شريطة أن يعتقدوا الدين الجديد. ومن ثم، قدم عدد من

---

(١) T. Forrest, p. 68.

(٢) Pigafetta (Ramusio, vol. i. p. 366).

(٣) Campen, p. 346. Koloniaal Verslag van 1910, p. 56; 1911, p. 52.

(٤) Dulaurier, p. 528.

(٥) تقع دمك Damak على ساحل جاوة الشمالي، وتقابل جنوبي بورنيو.

المسلمين من جاوة، وقضوا على الثورة، وعملوا بهذا الشرط فتحوا إلى الإسلام[١]. وعلى الساحل الشمالي الغربي وجد الإسبان ملكًا مسلمًا في بروناي **Brunai**، عندما بلغوا هذا المكان في سنة ١٥٢١[٢]. وبعد ذلك بقليل، أعني في سنة ١٥٥٠، دخل الإسلام إلى مملكة سوكَدنه[٣] **Sukadana**، في الجانب الغربي للجزيرة. على أيدي العرب الذين جاءوا من پالمبنج في سومطرة[٤].

وأبى الملك الحاكم أن يترك دين آبائه، ولكن يبدو أن الدين الجديد في غضون الأربعين سنة التي انقضت قبل موته (في سنة ١٥٩٠) قد أحرز تقدمًا كبيرًا، وأصبح خليفته على العرش مسلمًا، وتزوج بنت أمير من أمراء الجزيرة المجاورة، التي كان الإسلام فيها قد توطدت دعائمه توطدًا ظاهرًا منذ وقت طويل[٥]، ويتحدث رحالة[٦] في عهده، زار الجزيرة في سنة ١٦٠٠، عن الإسلام باعتباره الدين الشائع على طول الساحل. على أن سكان المنطقة الداخلية، كما يخبرنا، كانوا جميعًا وثنيين، وأكثرهم في الواقع لا يزال على وثنيته حتى الوقت الحاضر. ويظهر أن تقدم الإسلام في مملكة سوكدنة قد لفت الآن أنظار مركز العالم الإسلامي إلى تلك البقعة النائية؛ وفي عهد الأمير الذي خلفه، قدم شخص يدعى الشيخ شمس الدين من مكة يحمل هدية تتألف من نسخة من القرآن، وخاتم مرصع بحجر يمني كبير، مع كتاب ذكر فيه أن هذا الذائد عن الدين، قد مُنح لقب شرف سلطان مُحمَّد صفي الدين[٧].

وفي النصف الأخير من القرن الثامن عشر، قيل إن إحدى القبائل التي تسكن في

---

(١) Hageman, pp. 236-9.

(٢) Pigafetta, (Ramusio, tom. i. pp. 363-4».

(٣) كان قد أسس هذه المملكة، جالية قدمت من مملكة ماجاپاهيت الهندوكية .(De Hollander, vol. ii. P. 67) وربما كانت قد وقعت بطبيعة الحال تحت تأثير النفوذ الإسلامي بعد تحول الجاويين إلى الإسلام.

(٤) Dozy (1), p. 386.

(٥) Veth (2), vol. i. p. 193.

(٦) Olivier de Noort, (Histoire general des voyages, vol. xiv. P. 225) (The Hague, 1756).

(٧) وقد توفي صفي الدين حول سنة ١٦٧٧، ولا يبدو أن أباه قد اتخذ لنفسه اسمًا إسلاميًا، وهو لا يعرف – على الأقل– إلا سامه الوثني، پتم بهان جيري كوسوما (Netscher, pp. 14-15) Panembahan Giri- Kusuma.

الداخل، وتسكن قبيلة إيدان **Idaans**، وكانت تقطن في المنطقة الداخلية من شمال بورنيو، كانت تنظر إلى مسلمي الساحل نظرة ملؤها الاحترام والتقدير، باعتبار أنهم يعتقدون ديانة لم يدن بها أفراد هذه القبيلة أنفسهم(١). ويخبرنا دلرايمپل **Dalrymple**، الذي استقى معلوماته عن قبيلة إيدان التي تقيم في بورنيو، في أثناء زيارته إلى سولو **Sulu** من سنة ١٧٦١ إلى ١٧٦٤، أن أفراد هذه القبيلة «يكنّون أسفًا صادقًا على جهالتهم، وفكرة وضيعة عن أنفسهم لهذا السبب عينه، ذلك أنهم، عندما كانوا يأتون إلى دور المسلمين أو سفنهم، نراهم يظهرون لهم أشد ألوان التبجيل والاحترام، باعتبارهم ذوي عقول أسمى من عقولهم، ولأنهم يعرفون خالقهم. وهم لا يجلسون في المكان الذي ينام فيه المسلمون، ولا يضعون أصابعهم في نفس التشونان أو علبة الفلفل، ولكنهم يأخذون قليلًا منها في خضوع بالغ؛ وهم في كل مثال يعبّرون، بأشد ميولهم وإشاراتهم ضعة وحقارة، عما يضمرونه من تعظيم للإله الذي لا يعرفونه، بما يظهرونه من احترام وتوقير لهؤلاء الذين عرفوا ذلك الإله»(٢).

ويلوح أن هذا الشعب قد اعتقد الإسلام منذ ذلك الحين(٣)؛ وهذا من الشواهد الكثيرة التي تدل على التأثير القوي الذي أحدثه الإسلام في القبائل التي بلغت أحط درجات المدنية، وقد تحدث حالات من الدخول في الإسلام، من حين إلى حين، بين الجاليات المختلفة، كالعرب، والبوجي **Bugis**، وأهالي الملايو، والصينيين (الذين كانوا قد استوطنوا هذه البقاع منذ القرن السابع)(٤)، والعبيد الذين دخلوا إلى هذه الجزيرة من أقطار مختلفة، حتى إن مسلمي بورنيو في الوقت الحاضر، يكونون جنسيًا خليطًا من كثير من العناصر(٥).

وكان كثير من هؤلاء الغرباء لا يزالون «على وثنيتهم، عندما قدموا لأول مرة إلى

---

(١) **Thomas Forrest, p. 371.**

(٢) **Essay towards an account of Sulu, p. 557.**

(٣) **B. Panciera, p. 161.**

(٤) **J. Hageman, p. 224.**

(٥) **Veth (2), vol. i. p. 179.**

بورنيو، وكانوا أرقى حضارة من قبائل الدياك **Dyaks** الذين غزاهم هؤلاء الغرباء، وطردوهم إلى الداخل حيث لا يزال السواد الأعظم منهم على وثنيته، اللهم إلا في الجانب الغربي للجزيرة، حيث تعتقد الإسلام قبائل قليلة العديد من الدياك من حين إلى حين[1]. وعندما كان الوثنيون من قبائل الدياك يغيرون عقيدتهم، كان الأعم الأغلب أنهم كانوا أكثر خضوعًا للمؤثرات الإسلامية، منهم للتبشير المسيحي، أو كانوا يدخلون أولًا في المسيحية، ثم يتحولون إلى الإسلام؛ ويبذل المسلمون جهودًا تنطوي على الحماسة، لاكتساب الداخلين في الإسلام من بين الدياك الوثنيين والمسيحيين على سواء[2].

وعلى هذا النحو، نجد الدين الإسلامي ينمو نموًا بطيئًا في جزيرة سليبيس **Celebes**، بعد أن نبت بين سكان الساحل، وشق طريقه ببطء نحو الداخل. على أنه لم يعتقد الإسلام إلا الجانب الأرقى مدنية من السكان. وينقسم هذا الجانب إلى قبيلتين: قبيلة مكسّر **Macassars** والبوجي **Bugis**، الذين يسكنون في الجنوب الغربي من شبه الجزيرة؛ هذا إلى أن البوجي كذلك، يكونون نسبة كبيرة من أهالي الساحل في أشباه الجزائر الأخرى. ولا يزال الأهالي الذين يقيمون في داخل الجزيرة على وثنيتهم، عدا الجنوب الغربي لشبه الجزيرة، حيث يعتقد الإسلام جميع السكان تقريبًا، وأكثر سكان الداخل من الألفور، وهم شعب منحط في مستوى الحضارة، يكوّن السواد الأعظم من سكان الشمالي والشرق والجنوب الشرقي من أشباه الجزائر.

وفي أقصى أول أشباه الجزائر هذه، أي في ميناهسّا **Minahassa** دخل الناس في المسيحية في جموع كبيرة. ولم يشق المسلمون طريقهم إلى هذه البقعة إلا بعد أن رسخت أقدام البرتغاليين في هذه الجهة من الجزيرة، ونجد الألفور الذين حولهم البرتغاليون إلى الكاثوليكية الرومانية، ينقلبون بروتستانتيين على يد الهولنديين، الذين قام مبشروهم بأعمالهم في ميناهسّا، ولقوا نجاحًا عظيمًا جدًا في هذه السبيل. ولكن الإسلام يشق طريقه في بطء بين القبائل الوثنية من الألفور في جهات شتى من الجزيرة، سواء في المقاطعات التي تديرها

---

(١) **De Hollander, vol. ii. P. 61.**

(٢) **Coolsma, p. 556. Koloniaal Verslag van 1911, pp. 38, 41: 1912, p. 30.**

الحكومة الهولندية مباشرة، أو في تلك التي كانت تحت ظل حكم الرؤساء الوطنيين[1].

وعدما زار البرتغاليون الجزيرة لأول مرة، حول سنة ١٥٤٠، لم يجدوا إلا قليلًا من الغرباء المسلمين في جوا Gowa، قاعدة مملكة مكسّر، وكان أهلوها لم يدخلوا في الإسلام بعد. ولم يأخذ الناس في الدخول في الإسلام بصفة عامة إلا في مستهل القرن السابع عشر. وتاريخ هذه الحركة ذو أهمية خاصة، لأننا نلتمس فيها إحدى الحالات القليلة، التي كانت تتنافس فيها المسيحية والإسلام لاكتساب ولاء الشعب الوثني. من ذلك ما يقصه مصنف قديم عن إحدى حوادث هذا النزاع بطريقة تثير الإعجاب:

«ينظر البرتغاليون إلى كشف قطر على هذا النحو من الأهمية، على أنه مسألة ذات شأن عظيم، وقد اتخذت التدبيرات لكسب عواطف هؤلاء القوم الذين وُجد أن غزوهم أمر ليس من السهولة بمكان؛ على أنهم كانوا، من جهة أخرى، على استعداد لأن يقبلوا المعروف، وينقلبوا قومًا صالحين، كحلفائهم، بالمعاملة الطيبة. كان الشعب أشجع بل أحسن فهمًا وإدراكًا من السواد الأعظم من الهنود. ولذلك أخذوا بوجه عام يدركون، بعد مناقشة قصيرة مع الأوروبيين، أن ديانتهم خالية من أي معنى أو مغزى، ولم يكن قليل منهم، ممن كان قد دخل في المسيحية برعاية دون أنطونيو جلڤانو Don Antonio Galvano (حاكم مُلوكَّس)، قد عرفوا تعاليم المسيحية معرفة كاملة، بحيث يتسنى تعليمهم دينًا جديدًا. على أن الشعب بأسره، قد أنكر خرافاته القديمة على وجه العموم، وأصبح يؤمن بالله دفعة واحدة. ولكنهم لم يقنعوا بذلك، فقرروا أن يرسلوا، في وقت واحد، إلى ملقه يطلبون قساوسة مسيحيين، وإلى أتشين[2] يطلبون أئمة في الشريعة الإسلامية، وعقدوا النية على أن يعتقدوا ديانة أول من يقدم عليهم من الذين أرسلوا إليهم. ولكن يظهر أن دون رويس پريرا Don Ruis Perera الذي كان حاكم ملقه في ذلك الحين، كان يعوزه بعض الاهتمام بشئون الدين، إذ أحدث تأخيرًا كبيرًا لا مبرر له، في إرسال

---

(١) Med, Ned. Zendelinggen, vol. xxxii. P. 177: vol. xxxiv. P. 170.

(٢) أي أتجيه.

القساوسة المطلوبين. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، لم تكد ملكة أتشين، وهي مسلمة متعصبة، تتلقى خبرًا عن استعداد أهالي جزيرة سليبيس وميلهم، حتى بادرت إلى إرسال سفينة مملوءة بأئمة الشريعة، الذين وطدوا دعائم دينهم بين سكان الجزيرة توطيدًا قويًا في زمن قصير. وبعد فترة من الزمن قدم القساوسة المسيحيون، وحقروا من شأن الشريعة الإسلامية تحقيرًا مريرًا، ولكن دون جدوى. فقد اختار أهالي سليبيس ديانتهم، ولم يعد في الإمكان حملهم على تغييرها. والحق أن أحد ملوك الجزيرة، وكان قد اعتقد المسيحية من قبل، تشبث بدينه، وتحول معظم رعاياه إليه، ولكن السواد الأعظم من أهالي سليبيس ظلوا مسلمين، وهم كذلك إلى اليوم، كما أنهم أشد حماسة لدينهم من أهالي أية جزيرة من جزر الهند الشرقية»[١].

وقد قيل إن هذه الواقعة حدثت في سنة ١٦٠٣[٢]. وإن كثرة الإشارة إليها في الآداب المعاصرة تجعل الشك في صحتها التاريخية أمرًا محالًا[٣]. وفي ولاية تلّو الصغيرة Tallo، شمالي جوا، التي كانت دائمًا حليفة لها، لا يزال يُرى ضريح أحد مشاهير الدعاة إلى مكسر، واسمه خطيب تونجال. وقد برهن أمير هذه الولاية بعد دخوله في الإسلام، على أنه أشد أبطال الدين الجديد حماسة وغيرة؛ وعن طريق نفوذه، اعتقد الإسلام، كل القبائل التي تتكلم لغة مكسر على وجه الإجمال.

ولم تكن نتيجة هذه الحركة ذات طابع بحت؛ فقد انجرف أهالي مكسر في تيار حماستهم لدينهم الذي اعتقدوه حديثًا، ليقوموا بمحاولة لفرضه على جيرانهم من البوجي. وعرض ملك جوا على ملك بوني Boni أن يعتبره مماثلًا له من جميع الوجوه لو أنه عبد

---

(١) A Complete History of the Rise and Progress of the Protugeze Empire in the East Indies. Collected chiefly from their own Writers. John Harris: Navigantium atque Itinerantium Bibliotheca, vol. i. p. 682. (London, 1764).

(٢) Crawfurd (1), p. 91. وتذكر The Encyclopaedie van N.- I. (vol. i. p. 216) أن تاريخ هذه الواقعة هو سنة ١٦٠٦.

(٣) راجع ما كتبه فرنانديه نفاريت، وهو قسيس أسباني ذهب إلى جزائر الفيليبين في سنة ١٦٤٦ وذلك في: (Collection of Voyages and Travels, p. 236. London, 1752).
وراجع ما كتبه تافر نيير Tavernier الذي زار مكسر سنة ١٦٤٨، في (Travels in India, p. 193). (London, 1678).
وراجع: Itinerarium Orientale R. P. F. Philippi à SSma. Trinitate Carmelitae Discalceati ab ipso conscriptum, p. 267. (Lugduni, 1649)

الإله الحقيقي وحده. وشاور ملك بوني شعبه في الأمر فقالوا له: «لم نحارب بعد، ولم ننهزم بعدُ». وقد ذاقوا عاقبة الحرب، وحلت بهم الهزيمة. وكان من أثر ذلك أن اعتقد الملك الإسلام، وأخذ من ناحيته يحاول أن يفرض عقيدته على رعاياه، كما حاول أن يفرض هذه العقيدة على ما جاوره من الولايات الصغيرة، بالقوة والإكراه.

ومن الغريب أن يقال إن الشعب طلب معونة ملك مكسر، فأرسل رسلًا يطلبون إلى ملك بوني أن يجيب عن الأسئلة الآتية:

– هل فعل الملك ما فعله من الاضطهاد بوحي خاص من النبي؟

– أم فعل ذلك تلبية لنداء عادة قديمة؟

– أم فعل ذلك جريًا وراء لذته الخاصة؟

فإن كان السبب الأول، فإن ملك جوا يتوق إلى معرفة تفصيل ذلك؛ وإن كان السبب الثاني فسوف يمد إليه يد المساعدة بإخلاص؛ وإن كان السبب الثالث فعلى ملك بوني أن يكف، لأن هؤلاء الذين ظن أنه يظلمهم، إنما هم أصدقاء جوا. ولم يجب ملك بوني عن شيء من هذه الأسئلة، وسير أهالي مكسر جيشًا عظيمًا إلى تلك البلاد، وتغلبوا عليه في ثلاث معارك متتالية، وأرغموه على مغادرة البلاد، وحولوا بوني إلى إمارة. وبعد أن ظل شعب بوني خاضعًا ثلاثين عامًا، رفعوا لواء العصيان في وجه مكسر بمساعدة الهولنديين، وادعوا زعامة قبائل سليبيس، بدلًا من سادتهم السابقين[١].

ولا شك أن الدعوة إلى الإسلام كانت تسير بين البوجي فيما يظهر تدريجيًا وفي بطء[٢]، ولكن لم يكادوا يعتقدون الدين الجديد حتى أثار هذا الدين، فيما يظهر، روح

---

[١] Crawfurd, vol. ii. Pp. 385-9.

[٢] «يظهر أنه لم تبذل جهود غير عادية في مصلحة الدين الجديد، مدة طويلة. ويتميز شعب سليبيس، دون سائر القبائل في الجزائر الشرقية، بأنه يمقت البدع، ويلتزم العادات القديمة في اعتقاد وتثبت. وهذه الصفات تدل، لأول وهلة، على أنها أشد العقبات التي تقف في سبيل انتشار الإسلام. ولا يبعد أن يكون هذا هو السبب الذي أخر اعتقاد الناس هذا الدين الجديد تلك الفترة الطويلة حتى استطاع أن يتسرب إليهم عن طريق تسربله برداء القديم». Crawfurd (2), vol. ii. P. 387.

العمل فيهم، كما أثار العرب من قبل (ولو أن هذا النشاط الذي أوقظ حديثًا في كل من هاتين الحالتين كان يتحول إلى اتجاهات مختلفة كل الاختلاف)، وخلق منهم القوم الذين نراهم الآن، قومًا كانوا من قبل أشجع الناس، وأكثر سكان الأرخبيل مزاولة للتجارة واشتغالًا في الملاحة[١]. فهم يشقون طريقهم بسفنهم التجارية، إلى كافة أنحاء الأرخبيل، من ساحل غينا الجديدة إلى سنغافورة؛ وقد أدخلت جالياتهم المتنوعة، التي ميزت قبائل البوجي أنفسهم في تكوين هذه الجاليات تميزًا خاصًا، دين الإسلام إلى كثير من الجزائر الوثنية: مثال ذلك، أن إحدى مستعمراتهم كانت مؤسسة في ولاية تنبسط على جزء كبير من ساحل فلورز الجنوبي حيث أحرزوا النجاح، بعد أن اختلطوا بالأهالي الأصليين، الذين كان جانب منهم يتألف من الرومان الكاثوليك، فيّ ويل كل سكان هذه الولاية إلى الإسلام[٢].

كذلك ربط البوجي في بلادهم الأصلية، جزيرة سليبيس، بين الجهود في نشر تعاليم الدعوة، وأعمالهم التجارية؛ وقد نجحوا، في مملكة بولانج مونجندو Bolaäng-Mongondou في شبه الجزيرة الشماليّ[٣] في خلال القرن الحالي، في أن يضموا إلى الإسلام عددًا من الأهالي المسيحيين الذين يرجع تاريخ تحولهم إلى الإسلام إلى نهاية القرن السابع عشر. وكان أول ملك مسيحي لمملكة بولانج – مونجندو، يعقوب منوبو Jacobus Manopo (١٦٨٩–١٧٠٩)، وفي عهده انتشرت المسيحية انتشارًا سريعًا، بسبب نفوذ شركة الهند الشرقية الهولندية، وتبشير رجال الكنيسة من الهولنديين[٤]. وكان جميع خلفائه مسيحيين حتى سنة ١٨٤٤، عندما اعتقد الإسلام الراجه الحاكم في ذلك الحين واسمه يعقوب مانويل منوبو. وكان دخوله في الإسلام بداية سلسلة من الجهود في نشر تعاليم الدعوة، التي كانت قد أحرزت تقدمًا منذ بداية هذا القرن. ذلك أنه حدث

---

[١] Crawfurd (1), p. 75. De Hollander, vol. ii. P. 212.

[٢] Id. Vol. ii. P. 666. Riedel (2), p. 67.

[٣] وتقع شرقي ميناهسا بين خطى طول ٤٥ ١٢٤° وَ٢٠ و١٢٣°، وقد قدر عدد سكانها تقديرًا يتراوح بين ٣٥.٠٠٠، ٥٠.٠٠٠.
(De Hollander, vol. ii. P. 247).

[٤] Wilken (1), pp. 42-4.

حول ذلك الوقت، أن الجهود الحماسية التي قام بها بعض تجار المسلمين – البوجي وغيرهم – قد ظفرت بفريق تحولوا إلى الإسلام في إحدى المدن الساحلية لمملكة مونجندو الجنوبية.

ومن هذه المدينة ذاتها، أخذ داعيان من التجار، يقال لهما حكيم بحوس وإمام تويكو، ينشران دينهما في سائر أنحاء هذه المملكة. وكان أول ما قاما به، أن أدخلا في الإسلام بعض العبيد، والنساء الوطنيات اللائي تزوجوا منهن. وقد حث هؤلاء أصدقاءهم وأقاربهم على اعتقاد الدين الجديد شيئًا فشيئًا. ومن مونجندو انتشر الإسلام إلى مملكة بولانج الشمالية. وفي هذه البقعة، في سنة ١٨٣٠، كان الأهالي جميعًا إما مسيحيين أو وثنيين، عدا جاليتين أو ثلاثا من المسلمين. ولكن سرعان ما أحرز دعاة الإسلام المتحمسون من البوجي والعرب الذين ساعدوهم على أداء أعمالهم الخاصة بنشر الدعوة، نجاحًا واسع النطاق.

ولم يتسلح المسيحيون الذين كانت معرفتهم بعقائد دينهم تافهة للغاية، والذين كان إيمانهم ضعيفًا جدًا، تسلحًا تامًا بأسلحة الجدل لكي يواجهوا هجمات العقيدة المنافسة. ولما كانت الحكومة الهولندية تنظر إلى هؤلاء المسيحيين نظرة الاحتقار، ورؤساء الكنيسة يهملون من شأنهم ويكادون ينبذونهم، بدءوا يتطلعون إلى هؤلاء الغرباء، الذين تزوج بعضهم من نسائهم، واستقروا بينهم، وأَحبوا أصدقاءهم. ولما تقدمت مهمة التحويل إلى الإسلام في تلك البلاد، أصبح تردد هؤلاء البوجي والعرب عليها أكثر – وكان من قبل نادر الوقوع – كما أصبح نفوذهم في تلك البلاد يزداد زيادة كبيرة جدًا، حتى لقد بلغ من عظمة أن تزوج عربي، حول سنة ١٨٣٢، ابنة الملك كورنيليوس منويو Cornelius Manopo، وكان يدين هو نفسه بالمسيحية. وحول هذا الوقت نفسه، هجر كثير من الرؤساء، وفريق من أعظم الناس نفوذًا بينهم، دين المسيحية واعتقدوا الإسلام.

وعلى هذا النحو، كان الإسلام قد توطدت أركانه في مملكته، قبل أن يصبح الراجه يعقوب مانويل منويو مسلمًا في سنة ١٨٤٤. وكان هذا الأمير قد طلب مرارًا إلى

السلطات الهولندية في مندو Manado أن تعين خلفًا لعقوب بستيان، المعلم المسيحي – الذي كان موته خسارة فادحة للطائفة المسيحية – ولكن دون جدوى. ولما علم من نائب الحكومة الهولندية في مندو أنها على حياد تام من حيث ديانة الشعب، وأنه لا يعنيها أن يكون شعب ولايته مسيحيين أو مسلمين، ما داموا مخلصين، صرح أمام الملأ أنه قد أصبح مسلمًا، وحاول كل وسيلة لحمل رعيته على الدخول في هذا الدين نفسه.

واستغل أحد دعاة العرب وقوع زلزال شديد في السنة التالية، فتنبأ بخراب بولانج مونجندو، إذا لم يبادر شعبها إلى الدخول في الإسلام. وهرع كثيرون من فزعهم إلى اتباع هذه النصيحة، ومد الراجه وأشرافه يد المساعدة للدعاة وتجار العرب، الذين لم يكونوا على الدوام يستخدمون أرق الوسائل وأنبلها في معاملة الذين تراخوا عن هذا الدين. على أن نصف الأهالي تقريبًا لا يزالون على وثنيتهم، وإن كان تقدم الإسلام بينهم، على بطئه، مستمرًا في صورة مؤكدة[١]. ولا يبعد أن تكون جزيرة سمْبوا Sambawa القريبة كذلك، قد تلقت معرفتها بهذا الدين من سليبيس، عن طريق الدعوة التي قام بها الدعاة من مكسر بين سنتي ١٥٤٠ و١٥٥٠. وإن جميع السكان الذين نالوا حظًا أرقى من المدنية والحضارة مؤمنون صادقون، ويقال إنهم أشد تمسكًا في إقامة فرائضهم الدينية من أي شعب من الشعوب الإسلامية التي تجاورهم. ويرجع ذلك بنوع خاص إلى حركة تجديد بعثها شخص يدعى حاجي علي، بعد انفجار جبل تمبورا في سنة ١٨١٥، تلك الكارثة المفزعة التي نجمت عن ذلك، فاستغلت لإثارة الشعب على أن يحافظوا على مبادئ دينهم على نحو أقوى، وأن يهتدوا إلى حياة أكثر ورعًا وتدينًا[٢]. ولا يزال الإسلام في الوقت الحاضر يوالي اجتذاب مسلمين جدد في هذه الجزيرة[٣]. لذلك يرجع الفضل في تحويل السسك Sasaks، الذي يسكنون في جزيرة لمبوك Lombok المجاورة إلى الإسلام، إلى الدعوة التي قام بها البوجي، الذين يكوِّنون مستعمرة كبيرة في هذه البقعة، وقد قدموا

---

(١) Wilken (2), pp. 276-9. Koloniaal Verslag van 1910, p. 52; 1911, p. 47.

(٢) Zollinger (2), pp. 126, 169.

(٣) Med, Ned. Zendelinggen, xxxii. P. 177; xxxiv. P. 170.

إما عن طريق عبور المضيق من سمبوا، أو من سليبيس رأسًا. ومهما يكن من شيء، فإن التحويل إلى الإسلام، فيما يظهر، قد حدث بطريقة سلمية[١].

وينقسم أهالي لمبوك قسمين متميزين: السسك والبلينيون. أما الجماعة الأولى، وهم عبارة عن السسك المسلمين، سكان الجزيرة الأصليين، فإنها تفوق الجماعة الثانية عددًا، إلا أنهم أصبحوا، حول منتصف القرن الثامن عشر، تحت حكم البلينين، وسرعان ما وجدوا أفواجًا من جيرانهم الهندوكيين يجتاحون جزيرتهم[٢]. وكان حكم البلينيين جائرًا للغاية، وقد بذلوا جهودًا – لم تصادف نجاحًا كبيرًا – لحمل رعاياهم المسلمين على اعتقاد الديانة الهندوكية. وحاول السسك، دون جدوى، أن يتخلصوا من نير هؤلاء الحكم الجائرين، ولجئوا إلى الحكومة الهولندية أكثر من مرة، قبل أن تجلب حملة سنة ١٨٩٤ تباشير الإسلام إلى الجزيرة، وأن تقيم إدارة منظمة في ظل الحكم الهولندي، وقد جلبت الحكومة الجديدة معها عددًا كبيرًا من الموظفين الوطنيين من المسلمين، الذين يستخدمون نفوذهم في مصلحة دينهم، ومن ثم كان من المتوقع أن تكون إحدى نتائج الغزو الهولندي للمبوك، إمداد الإسلام بروح قوية دافعة في هذه الجزيرة[٣].

ونجد في جزائر الفيليبين صراعًا بين المسيحية والإسلام لكسب ولاء السكان، وهذا الصراع يشبه في طابعه ما حدث في سليبيس إلى حد ما، إلا أنه أكثر عنفًا وشدة؛ فقد اشتبك فيه الإسبان والمسلمون في نزاع عنيف دام، حتى القرن التاسع عشر. وليس من المحقق أن نقف على الزمن الذي وصل فيه الإسلام إلى هذه الجزائر لأول مرة[٤].

---

[١] Zollinger (1), p. 527.

[٢] ويذكر دي هولاندر De Hollander في سنة ١٨٨٢ أن عدد البلينيين ٢٠.٠٠٠، وعدد السسك ٣٨٠.٠٠٠. (Vol. i. p. 489).

[٣] Encyclopaedie van N.-I. vol. ii. Pp. 432-4, 524. W. Cool: With the Dutch in the East. An outline of the military operations in Lombok, 1894. (London, 1897).

[٤] يقول كابتن توماس فورست، فيما كتبه سنة ١٧٧٥، إن العرب قدموا إلى جزيرة مندناو قبل ذلك بثلاثمائة سنة، وإن ضريح أول عربي، وكان أحد أشراف مكة، لا يزال يرى – وهو عبارة عن «كومة فجة من أحجار المرجان الصخرية». (pp. 201 313).

وتصور لنا أخبار مندناو **Mindanao**، أن الإسلام دخل إلى هذه الجزائر من جوهور **Johore**، في شبه جزيرة الملايو، على يد شخص يدعى شريف كابو نجسوان، الذي استقر مع عدد من الأتباع في الجزيرة، وتزوج هناك، ويقال إنه أبى أن ينزل إلى الشاطئ حتى يعده هؤلاء الذين قدموا للقائه عند وصوله، أن يعتقدوا الإسلام. وتوحي هذه الأخبار القديمة بأن نزول كابو نجسوان على الشاطئ، ودخول شعب مندناو في الإسلام، قد حدث أول الأمر في غاية الهدوء والسكينة. ولكنه، بعد أن وطد سلطته، أخذ يغزو من جاوره من الزعماء والقبائل، فقبلوا ديانته عندما أذعنوا لسلطانه[١].

وقد وجد الإسبان، وكانوا قد اهتدوا إليهم في سنة ١٥٢١، أن أهالي الجزائر الشمالية قوم همج يعبدون رموزاً ساذجة من الأوثان، على حين وجدوا قبائل إسلامية أكثر رقيًا وحضارة[٢]، في جزائر مندناو وسولو. وقد قاوم أهالي سولو على وجه الإجمال، كل الجهود التي بذلها المسيحيون في الغزو والتبشير، حتى نهاية القرن التاسع عشر، مقاومة ناجحة، إلى حد أن المبشرين الإسبان يئسوا من الاستمرار في القيام بأعمال التبشير[٣].

ويرجع نجاح الإسلام إلى حد بعيد، إذا ووزن بالمسيحية، إلى الصورة المختلفة التي عُرضت بها هاتان الديانتان على أهالي هذه البلاد، وقد انطوى اعتقادهم المسيحية على فقد الحرية السياسية كلها، والاستقلال القومي، ومن هنا أصبح الناس ينظرون إليها على أنها رمز العبودية.

وقد قدر للوسائل التي اتخذها الإسبان لنشر دينهم أن تجعل هذا الدين منذ البداية غير محبب لدى الشعب، وكان عنفهم وتعصبهم على طرفي نقيض مع سلوك التسامح

---

(١) **N. N. Saleeby: Studies in Moro History, Law and Religion, pp. 24-5, 53-5. (Manila, 1905).**

(٢) **Relatione di Ivan Gaetan del discoprimento dell' Isole Molucche, (Ramusio, tom. i. p. 375 E).**

(٣) «وقد ظهر أنهم من العناد لرحمة الله والبعد عن عقيدته بحيث أصبح من المستحيل تقريبًا أن يتحولوا إلى النصرانية».
(Cartas de los PP. de la Compania de Jesús de la Mission de Filipinas, 1879, quoted by Montero y Vidal, tom. i. p. 21).

الذي ظهر به دعاة المسلمين، الذين تعلموا لغة الشعب، وانتحلوا عاداته، وأصهروا إليه. وبفنائهم في عامة الشعب، لم يدّعوا لأنفسهم كافة الحقوق التي تقتصر على جنس متميز عن سائر الأجناس، ولا رموا الأهالي بأنهم في مستوى طبقة منحطة. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، كان الإسبان يجهلون لغة الأهالي وعاداتهم وأحوالهم، وقد أدى فساد أخلاق هؤلاء الإسبان، بل شحهم وجشعهم، إلى جعل دينهم مبغضًا إلى النفوس، كما كان المقصود من نشر دينهم استخدامه أداة لتقدمهم السياسي[١].

لهذا فإنه ليس من العسير أن ندرك المعارضة التي أظهرها الأهالي إزاء دخول المسيحية، التي لم تصبح في حقيقة الأمر إلا ديانة الشعب في تلك الجهات حيث كان السكان من الضعف، أو كانت الجزيرة من الصغر، بحيث مكنوا الإسبان من إخضاع البلاد إخضاعًا تامًا، ولم يكن بد من أن يرغم المسيحيون من الأهالي، بعد دخولهم في المسيحية، على أداء واجباتهم الدينية خوفًا من العقاب، كما أنهم عوملوا معاملة أطفال المدرسة سواء بسواء[٢].

وكانت مملكة مندناو الإسلامية، حتى زمن احتلال الأمريكيين جزائر الفيلبين، ملجأ لهؤلاء الذين رغبوا في التخلص من الحكومة المسيحية البغيضة[٣]، وقد كوّنت جزيرة سولو، كذلك، مع أنها دخلت اسميًا في حوزة الإسبان سنة ١٨٧٨، مركزًا إسلاميًا آخر مناهضًا للمسيحية، كما وُجد به المرتدون من الذين يتكلمون اللغة الإسبانية[٤].

---

(١) Crawford (2), vol. ii. Pp. 274-280.

(٢) وهم قليلو العناية بتأدية واجب المسيحية التي تلقوها، ولم يكن بد من أن يرغمهم على أدائه بتحذيرهم من العقاب، وأن يسوسهم كما يساس أطفال المدارس».

Relation des Isles Philippines, Faite par un Religieux, p. 7. (Thevenot, vol. i).

(٣) «وفي مندناو، عند قبائل تاجال التي تسكن في الشرق، عندمات أراد هؤلاء التاجال أن يتخلصوا من نير السادة الكاثوليك البغيض، تجمعوا وزاد عددهم يومًا بعد يوم، والتفوا حول رؤساء الأسرات الوطنية. وكان هناك أكثر من ٣٦٠ ألف من المسلمين، يعترفون بأن القرآن دستورهم الوحيد. وقد قدم دعاة المسلمين من الصين والهند رؤساء دينيين، ومعلمين للأهالي، بدلًا من اليسوعيين الدين طردوا من الجزيرة، ومن الذين يمثلون الديانة الرسمية. وعلى ذلك جدد هؤلاء المسلمون الدعوة التي بدأها العرب الفاتحون». (A. le Chatelier (2), p. 45).

(٤) Montero y Vidal, vol. i. p. 86.

وليس لدينا شاهد تاريخي معين، يبين المدة التي قضاها سكان جزائر سولو في الإسلام، قبل قدوم الإسبان. وتذكر أخبار سولو اسم الشريف كريم المخدوم باعتباره أول داع إلى الإسلام في هذه الجزائر. ويقال إنه كان عربيًا، ذهب إلى ملقه حول منتصف القرن الرابع عشر، وأدخل السلطان مُحَمَّد شاه وشعب ملقه في الإسلام. وقد واصل رحلته شرقًا، حتى وصل إلى سولو حول سنة ١٣٨٠، واستقر في بوانسا **Bwansa**[١]، قاعدة سولو القديمة، حيث بنى له الأهالي مسجدًا وتقبل كثير من الرؤساء تعاليمه. وقد قيل إنه زار كل جزيرة في الأرخبيل تقريبًا، وإنه أدخل في الإسلام ناسا في أماكن كثيرة. ويقال إن ضريحه في جزيرة سبوتو **Sibutu**[٢]؛ كما يقال إن الداعي الذي جاء بعده هو أبو بكر، وقد ذُكر كذلك أنه عربي، وأنه بدأ نشاط دعوته في ملقه، وأنه شق طريقه إلى پالمبنج وبروناي **Brunai**، ووصل إلى سولو حول سنة ١٤٥٠، وبنى مساجد وقام بدعاية ناجحة. وقد زوجه الراجه بجندا **Baginda**، ملك بوانسا المسلم، من ابنته، وجعله وريثه.

وإلى أبي بكر يرجع الفضل في تنظيم حكومة سولو وسن قوانينها على أسس إسلامية قومية، بقدر ما كانت تسمح به العادات المحلية[٣]. وعلى الرغم من أنهم دخلوا في الإسلام منذ زمن بعيد، فإن المسلمين من أهالي سولو بعيدون عن التمسك بدينهم. وفي الحق أن مؤثرات العبيد المسيحيين، على اختلافهم، وكانوا قد نقلوها معهم من جزائر الفيليبين في غاراتهم التي كانت تقوم على النهب والسلب، كانت في العادة من القوة بحيث زعم بعض الباحثين[٤]، أنهم كانوا قد اعتُرف بأنهم مسيحيون قبل ذلك بوقت طويل، ولكن على تقدير أن مثل هذا التغيير لدينهم، عن طريق إلقاء تأثير قوى غلاب إلى رجال الدين المسيحي، لا بد أن يقوض دعائم سلطة هؤلاء العبيد، ويمهد الطريق إلى نقل ممتلكاتهم إلى الحكم الإسباني. وهذه حادثة قد علمتها التجارب القاتلة، في قوة

(١) على بعد ثلاثة أميال إلى الغرب من جولو، قاعدة البلاد الحالية.

(٢) **N. M. Saleeby: The History of Sulu, pp. 150, 158-9. (Manila, 1908).**

(٣) **Id. Pp. 150, 162-3.**

(٤) **J. H. Moor. (Appendix, p. 37).**

وعنف، كلَّ الشعوب المحيطة التي انتحلت العقيدة المسيحية في تهور واستهتار». أضف إلى ذلك، أن مسلك العدوان الذي ظهر به قساوسة الإسبان الذين أقاموا بعثة تبشيرية في سولو، قد خلق في نفوس الأهالي نفورًا شديدًا من الديانة الأجنبية[١].

ومنذ احتل الأمريكيون جزائر الفيليبين، أصبح التأثير الإسلامي محدودًا إلى حد كبير، وهو الآن ينحصر في جزيرة پلوان **Palawan**، وساحل مندناو الجنوبي، ومجموعة جزائر سولو[٢]. ولكن يقال إنه بجد في نشر دعوته بين الجزائر الشمالية، وإنه بدأ نشاط الدعوة حتى مانيلا **Manila**. ويقال إن أحوالًا معينة قد ساعدت على نجاحه، ولا سيما تلك الحقيقة، وهي أن أهالي جزائر الفيليبين يتحاملون على المسيحية، بسبب المساوئ التي أدت بهم إلى حمل السلاح في وجه رهبان الإسبان[٣].

وقد قوبل الإسلام، كما ذكرنا من قبل، بأسمى آيات القبول من شعوب أرخبيل الملايو الذين يتمتعون بحضارة أرقى، كما أنه لم يرسخ إلا قليلًا عند الشعوب التي هي أشد انحطاطًا وتأخرًا. ومن أمثلة هؤلاء، البپوان **Papuans** في غينا الجديدة، وفي الجزائر التي تقع إلى الشمال الغربي منها، نعني بذلك الوايجيو **Waigyu** والميسول **Misool**، والوايجما **Waigama** والسلوتي **Salawatti**. وكانت هذه الجزائر، بالإضافة إلى شبه جزيرة أونين **Onin**، إلى الشمال الغربي من غينا الجديدة، خاضعة في القرن السادس عشر لسلطان باتجان[٤]، أحد ملوك ملوكّس. وبفضل نفوذ حكام باتجان من المسلمين، اعتقد زعماء البپوان في هذه الجزائر الإسلام[٥].

ومع أن عامة الشعب في المنطقة الداخلية قد ظلوا على وثنيتهم حتى الوقت

---

(١) **Dalrymple, p. 549.**

(٢) **R. du M. M., vii. Pp. 115-16. (1909).**

(٣) **The Missionary Review of the World, N. S., vol. xiv, p. 877 (New York, 1901).**

(٤) وأول من اعتنق الإسلام من أمراء باتجان كان شخصًا يدعى زين العابدين، وكان يحكم في سنة ١٥٢١، عندما قدم البرتغاليون إلى ملوكس للمرة الأولى.

(٥) **Robidé van der Aa, pp. 350, 352-3.**

الحاضر، فإن سكان الساحل مسلمون. ولا شك أن إسلامهم يرجع بنوع خاص إلى تأثير هؤلاء الذين جاءوا من ملوكس واستقروا في هذه البلاد[١]. وفي غينا الجديدة نفسها، يظهر أن فئة قليلة جدًا من الپپوان قد اعتقدوا الإسلام. وقد دخل هذا الدين إلى الساحل الغربي (وربما إلى شبه جزيرة أونين) على أيدي تجار المسلمين، الذين أذاعوا دينهم في السكان في عهد مبكر يرجع إلى سنة ١٦٠٦[٢]. ولكن يظهر أنه لم يصادف نجاحًا كبيرًا في خلال القرون التي خلت منذ ذلك الحين[٣].

وأبدى الپپوان نفورًا شديدًا من الدخول في الإسلام، كذلك النفور الذي أبدوه في قبول تعاليم المبشرين المسيحيين الذين قاموا بأعمال التبشير بينهم منذ سنة ١٨٥٥، ولم يصادفوا نجاحًا كبيرًا في هذه السبيل. وقد اتهم مسلمو الجزائر المجاورة بأنهم يحتقرون الپپوان احتقارًا شديدًا بحيث لا يستطيعون أن يبذلوا جهودًا لنشر الإسلام بينهم[٤]. على أن هنالك اسم أحد الدعاة، ويدعى الإمام دِكْر (رمبا ذِكْر)؛ وكان قد قدم من إحدى الجزائر على الجنوب الشرقي من سرام Ceram حول سنة ١٨٥٦، وأدخل الإسلام إلى

---

(١) Id. P. 147. وقد ورد عن جزيرة ميسول: «إن كل سكان الساحل مسلمون ... وسكان الجبل وثنيون» Id. P. 53. وورد عن جزيرة سلوتي Salawatti: ويجهر فريق صغير من السكان بعقيدة محمد. على أن السواد الأعظم يتألف من قبيلة ببوان الوثنية. وقد تحول عدد قليل منهم إلى الدين الإسلامي أو اعتنقوا مبادئه ظاهريًا .. (Waigyu) Id p. 299. وقد دخل في الإسلام بعض الپپوان من جزيرة جيبي، بين وايجيو وها لبماهيرا، على يد المسلمين المستوطنين الذي جاءوا من ملوكس..(Crawfurd (1), p. 143).

(٢) Robidé van der Aa, p. 352.

(٣) على أن كابتن فورسي يخبرنا في سنة ١٧٧٥ أن كثيرًا من الپپوان قد انقلبوا مسلمين (Voyage to New Guinea, p. 68).

(٤) Robidé van der Aa, p. 71. (وقد بلغ من شدة قسوة طبيعة كل من أفراد قبيلة بابو (مفردها پپوان) أنه لم يكن يشعر بالحاجة إلى اعتناق دين من الأديان. ولم تكن هناك عقيدة أخرى. ولم تكن هناك غير الديانة المسيحية تستطيع أن تجد إلى نفسه سبيلًا لو قدر للإسلام النجاح، إذا بذل شيء من الجهد بين هذه الشعوب. وبقدر ما ظهر لي في خلال رحلات خمس قمت بها في هذه البلاد، لم يقم شعب تيدور ولا شعب سرام أو غيرهما قط بأي مجهود جدي لإدخال عقيدة محمد هنا.. وقد نعد رؤساء قليلين جدًا فقط من أمثال راجات امبات أوف وويجيو، وسلواتي، وميسول وواپجما، من هؤلاء يجهرون بهذا الدين، وذلك بسبب تخلفهم إلى تيدور عدة مرات باعتبارهم بابوانيين. ولم يحاول أحد قط أن يدخل الإسلام بين الأهالي الأصليين. ولا يبعد مطلقًا أن يكون ذلك راجعًا إلى احترمهم ذلك الدين، الذي يعدونه فوق مستوى البابوانيين بكثير».

جزيرة أدى الصغري Adi، جنوبي شبه جزيرة أونين. وبعد أداء رسالته، عاد إلى وطنه، بعد أن قاوم إلحاح السكان الذين طلبوا إليه أن يستقر بينهم(١). وقد روت الأخبار أن تجار المسلمين من سِرام وجُرام قد أدخلوا فريقًا في الإسلام من بين الوثنيين في خلال العقد الأول من القرن العشرين(٢). وتبذل جهود مماثلة لتحويل البپوان في جزائر كي Kei المجاورة إلى الإسلام.

وقد قيل إنه كان من الصعب أن نجد في منتصف القرن التاسع عشر، أي فريق من المسلمين على هذه الجزائر، لا نستثني إلا سلالة المهاجرين من جزائر بنده. وقبل ذلك بقليل، كان الدعاة من سرام قد نجحوا في إدخال عدد في الإسلام، بيد أنه قلما كانت تراعي تعاليم الإسلام بينهم، فقد أباحوا لأنفسهم أكل اللحوم المحرمة وشرب المسكرات. على أنه قيل إن النساء كن أشد تمسكًا بأهداب الدين من الرجال، حتى إن بعولتهن كانوا إذا رغبوا في أن يبيحوا لأنفسم أكل لحم الخنزير، فعلوا ذلك سرًا، لأن نساءهم كنّ لا يسمحن بجلبه إلى المنازل(٣).

وقد لوحظ في سنة ١٨٨٧، لأنه كانت هنالك نهضة في الحياة الدينية بين أهالي جزائر كي، كما كان عدد المسلمين يكثر يومًا بعد يوم. وقد برهن تجار العرب من مادورة وجاوة وبالي على أنهم دعاة متحمسون للإسلام، ولم يدعوا وسيلة إلا حاولوها لجذب الداخلين في هذا الدين. وكانوا يدعمون حجتهم بالتهديد والعنف تارة، وبالرشا تارة أخرى.

وقد قيل إن العادة قد جرت بأن يتقاضى كل من يدخل حديثًا في الإسلام، ما يساوي مائتي فلورين(*) من الهدايا، على حين كان الزعماء يتسلمون مبلغًا هائلًا يساوي

---

(١) Robidé van der Aa, p. 319.

(٢) Koloniaal Verslag van 1906, p. 70; 1911, p. 52.

(٣) The Journal of the Indian Archipelago, vol. vii. Pp. 64, 71. (Singapore, 1853).

(*) عملة تساوي عشرة قروش تقريبًا.

ألف فلورين[١]. وفي نهاية القرن التاسع عشر، قيل إن نحوا من ٨٠٠٠ من سكان جزائر كي كانوا مسلمين من بين مجموع سكان هذه الجزائر الذي يبلغ ٢٣٠٠٠[٢].

وإن الصورة العامة التي رسمناها من قبل عن انتشار الإسلام من الغرب إلى الشرق عن طريق أرخبيل الملايو، لا تؤلف إلا جانبًا قليلًا من تاريخ أعمال الدعوة إلى الإسلام في هذه الجزائر. وكثير من حقائق هذا التاريخ لم يدون بأكمله، وإن ما يمكن أن نلتقطه من التواريخ الوطنية، ومؤلفات الرحالين الأوروبيين، والموظفين والدعاة، إنما هو متفرق ناقص في جوهره. على أن هناك شواهد كافية تدلنا على وجود جهود سلمية في الدعوة لنشر عقيدة الإسلام في خلال السنوات الستمائة الأخيرة. حقًا إن السيف كان يمتشق أحيانًا لتأييد قضية الدين، ولكن الدعوة والإقناع، وليس القوة والعنف، كانا هما الطابعين الرئيسين لحركة الدعوة هذه. وإن النجاح الرائع هو الذي أحرزه التجار بنوع خاص، الذين كسبوا السبيل إلى قلوب الأهالي، بتعلم لغتهم، وانتحال أخلاقهم وعاداتهم، وأخذوا في رفق وتدرج، ينشرون معارف دينهم بأن بدءوا بأن يحولوا إلى الإسلام، نساء البلاد اللائي تزوجوا منهن، والأشخاص الذين ارتبطوا معهم بعلاقات تجارية.

وبدلًا من أن يعتزلوا الأهالي في أنفقة وكبرياء، امتزجوا شيئًا فشيئًا في عامة الشعب، واستخدموا كل ما يتميزون به من تفوق في العقلية والحضارة في القيام بأعمال التحويل إلى الإسلام، واصطنعوا لمبادئ دينهم وطقوسه شروطًا حاذقة ومخارج ماهرة، كانوا يرونها لازمة لتقريب هذا الدين إلى أذهان الشعب الذي كانوا يرغبون في جذبه إليهم[٣]. وفي الواقع «كان دعاة المسلمين –كما قال عنهم بَكل Buckle– على جانب عظيم من الحكمة والروية»[٤].

---

(١) G. W. W. C. Baron von Hoëvell, p. 120. Krieger, p. 436.

(٢) Encyclopaedie van N.- I. vol. ii. P. 210.

(٣) Crawfurd (2), pp. 275, 307.

(٤) Buckle's Miscellaneous and Posthumous Works, edited by Helen Taylor, vol. i. p. 594. (London, 1872).

وإلى جانب التجارة، كانت هنالك جموع ممن يصح أن نسميهم الدعاة المحترفين، وهم الفقهاء، والقضاة والحجاج. وكان الحجاج، في السنين الأخيرة، نشيطين في نشر تعاليم الدعوة بنوع خاص، وذلك بحثّ مواطنيهم على لون من الحياة الدينية، أكثر نشاطًا وأشد تماسكًا، وبتطهيرها من بقايا عادات الوثنية ومعتقداتها. وإن عدد الذين يذهبون إلى مكة لأداء فريضة الحج من كل جهات الأرخبيل آخذ في الزيادة على الدوام، وتبع ذلك نمو التأثير الإسلامي والفكرة الإسلامية نموًا مناسبًا.

وقد حاولت الحكومة الهولندية، حتى منتصف القرن التاسع عشر أن تضع العراقيل في سبيل الحجاج، فأصدت أمرًا بأنه لا يجوز لأحد أن يؤدي فريضة الحج إلى المدينة المقدسة إلا إذا حصل على جواز سفر، وكان لا بد أن يدفع للحصول عليه ١١٠ فلورين. وكل من يخالف هذا الأمر، يُلزم عند عودته بأن يدفع غرامة تساوي ضعفي هذا المبلغ[١]. ومن ثم لا نعجب أن نجد عدد الحجاج في سنة ١٨٥٢ ينخفض حتى يصل إلى السبعين، ولكن هذا الأمر لم يلبث أن ألغي في هذه السنة نفسها، وأخذ عدد الحجاج يزداد منذ إلغائه زيادة ثابتة. وبلغ متوسط عدد الحجاج في خلال العقد الأول من القرن التاسع عشر ٧٠٠٠ وفي خلال العقد الأول من القرن العشرين ٧٣٠٠[٢]؛ ولكن العدد يتفاوت كثرة سنة فأخرى، وكان أكبر عدد سجل من جزائر الهند الهولندية ٢٣٤، ١٤ في سنة ١٩١٠[٣].

ولا شك أن مثل هذه الزيادة تعزى بنوع خاص إلى زيادة تيسير المواصلات بين مكة وأرخبيل الملايو؛ ولكن هذا، كما لاحظ ذلك أحد المبشرين المسيحيين «لا يقلل بحال من أهمية تلك الحقيقة، ولا سيما أن الحجاج، الذين نما عددهم بسرعة فائقة، لم يفقدوا بحال من الأحوال من صفاتهم ما حصلوا عليه من كثرة عددهم. فالأمر على

---

(١) Neimann, pp. 406-7.

(٢) Snouck Hurgronje: De hadji- politiek der Indische Regeering, p. 12. (Overdruk uit { Onze Eeuw, 1909).

(٣) Id: Notes sur le movement du pèlerinage de la Mecque aux Indes Nèerlandaises. (R. du M. M., vol. xv. Pp. 409, 412).

خلاف ذلك، يوجد الآن بينهم كثير من هؤلاء أكثر إلمامًا وأشمل معرفة بمبادئ الإسلام، وأشد تشربًا بالتعصب الإسلامي وكراهية الكفار، منهم قبل أن يؤدوا فريضة الحج»[١].

وتحمل تقارير الحكومة الهولندية والمبشرين المسيحيين، دليلًا لت مراء فيه على تأثير هؤلاء الحجاج، وحماستهم في نشر تعاليم الدعوة، وكانوا يعودون إلى أوطانهم مصلحين ودعاة في وقت واحد[٢]. وإلى جانب الحجاج الذين كانوا يقنعون بمجرد زيارة البقاع المقدسة، وتأدية الشعائر اللازمة، وهؤلاء الذين يقضون وقتًا أطول هناك لإتمام دراساتهم الدينية، نجد في مكة، في الوقت الحاضر، جالية كبيرة من أهالي الملايو، الذين اتخذوا مقامهم في المدينة المقدسة إلى الأبد. وهؤلاء على اتصال دائم بمواطنيهم في أوطانهم، وكانت جهودهم في الغالب فعالة في تطهير الإسلام في أرخبيل الملايو من شوائب العادات الوثنية ووسائل التفكير الوثني التي بقيت من العهود القديمة.

كذلك طبعت في مكة مجموعة كبيرة من الكتب الدينية باللغات المختلفة التي يتكلمها مسلمو الملايو، وأرسلت إلى كل جهات الأرخبيل. وفي الواقع أن تأثير مكة في الحياة الدينية في هذه الجزائر، كما قيل بحق، كان أقوى منه في تركيا أو الهند أو بخارى[٣]. وكما كان من الممكن أن نتوقع إذا تأملنا هذه الحقائق، نجد في السنين الأخيرة نهضة عظيمة جدًا في نشاط الدعوة في أرخبيل الملايو[٤]، وأصبح الحجاج العائدون من مكة، سواء أكانوا تجارًا أم معلمين دينيين، دعاة إلى الإسلام في القاع التي كانوا يتصلون فيها بالأهالي الوثنيين. أضف إلى ذلك أن الجماعات الدينية بسطت نظامها على أرخبيل الملايو، بل لقد وجدت أحدث هذه الجماعات عهدًا، وهي السنوسية، أتباعًا لها في أقصى هذه الجزائر[٥]؛ ومما يدل على تأثيرها أن كثيرًا من سكان الملايو يتسمون باسم

---

(١) Report of Centenary Conference on Protestant Missions, vol. i. p. 21, Niemann, p. 407.

(٢) Med, Ned. Zendelinggen. Vols. Xxxii. Xxxiv. Passim.

(٣) Snouck Hurgronje (3), vol. ii. Pp. xv. 339-393. Encyclopaedie van N.- I., vol. ii. Pp. 576-9.

(٤) مثال ذلك القادرية والنقشبندية والصَّمانية.

(C. Snouck Hargronje (2), p. 186) Id. (3) vol. ii. P. 372, etc.

(٥) J. G. F. Riedel (1), pp. 7, 59, 162.

سنوسي، على حين كانوا في مكة يبدلون أسماءهم الوطنية بأخرى عربية[١].

وقد اتهم المبشرون المسيحيون الحكومة الهولندية بأنها تساعد على انتشار الإسلام، ومهما يكن من شيء، فإن من المحقق أن الذي سهل مهمة الدعاة المسلمين هو تلك الحقيقة، وهي أن لغة الملايو التي لا يكاد يتكلمها إلا المسلمون، قد اتخذت اللغة الرسمية للحكومة الهولندية إلا في جاوة. ولما كان موظفو الدولة من الهولنديين (من غير العسكريين) قد ألحقوا في كل مكان بجمع حاشد من المسلمين الذين كانوا موظفين مرؤوسين، ورجالًا في الهيئة السياسية، وكتبة، ومترجمين، وتجاوا، حملوا الإسلام معهم إلى كل مكان ينزلون فيه. وكان حتمًا على كل الأشخاص الذين يربطهم بالحكومة عمل ما، أن يتعلموا لغة الملايو، وقلما كانوا يتعلمونها دون أن يصبحوا مسلمين في الوقت نفسه. وعلى هذا النحو، اعتقد الأهالي ذوو النفوذ والسلطان الإسلام، وبادرت البقية الباقية إلى الاقتداء بهم[٢]. وبذلك يعمل الإسلام في الوقت الحاضر على طرد الوثنية من أرخبيل الملايو في سرعة.

---

(١) Snouck Hurgronje (3), vol. ii. P. 323.

(٢) Hauri, p. 313 Encyclopaedie van N.- J., vol. ii. P. 524.

الباب الثالث عشر

خاتمة

دعاة المسلمين:

في العالم المسيحي الحديث، تتمثل مهمة التبشير في الجمعيات التبشيرية، والموكلين بالتبشير كفاء أجور يتقاضونها، والتبرعات، والتقارير والصحف. ويبدو أن «مشروع التبشير» تسمية غير صحيحة متى كان مجردًا من هيئة مؤلفة تأليفًا منظمًا بصفة مستمرة. وقد روعي في تأليف هيئة الكنيسة المسيحية، منذ بدء تاريخها، نشر التعاليم المسيحية بين الكفار. وكان مبشروها، في أغلب الأحيان، قساوسة ورهبانًا، يعيشون لهذا الغرض بانتظام. وقد توافرت جماعات الأديرة (منذ قيام جماعة بندكت فالجماعات التي جاءت بعدها) والجمعيات التبشيرية التي نجدها في أزمان أحدث عهدًا، على اتجاه خاص ينحصر في ترقية إدارة المهمة المسيحية التي اعتُرف منذ البداية بأنها إحدى واجبات الكنيسة الأساسية.

أما في الإسلام فإن عدم وجود أي لون من ألوان الكهنوت أو أية هيئة دينية منظمة أيًا كانت، قد جعل نشاط الدعوة عند المسلمين يتجلى في صور مختلفة تمام الاختلاف عن تلك التي تظهر في تاريخ البعوث التبشيرية المسيحية. فليس هنالك جمعيات للدعوة[1]، ولا موكلون مدربون لهذا الغرض، كما أنه قلما نجد مواصلة الجهود في هذه السبيل. ويظهر أننا لا نستثني إلّا جماعات الإسلام الدينية، التي يشبه نظامها، إلى حد ما، نظام جماعات الأديرة في العالم المسيحي. ولكن حتى في تلك الجماعات الإسلامية، نجد أن عدم وجود فكرة عن نظام الكهنوت، أو أية نظرية ترى فصل المعلم

[1] لم تبدأ هيئات منظمة على غرار الجمعيات المسيحية التبشيرية في الظهور إلا في القرن العشرين، وقد أوردنا طرفًا منها في ملحق ٣ من هذا الكتاب.

الديني عن عامة المؤمنين، أو ترى ضرورة العكوف على تأدية الوظائف الدينية، والتصريح بها، كل ذلك يجعل الاختلاف الأساسي في النظامين، يظل قائمًا في كل مكان، في وضوح وجلاء.

ومهما تكن المساوئ التي نجمت من حاجة المسلمين إلى طبقة كهنوتية تختص بنشر العقيدة، فقد وجدوا ما يعوضهم عنها في ذلك الشعور الناشئ عن المسئولية التي ألقيت على كواهل المؤمنين من الأفراد. ولما لم يكن هنالك واسطة بين المسلم وربه، كانت مسئولية خلاصة الشخصي ملقاة على كاهله وحده، وكان من أثر ذلك أن أصبح المسلم، كما جرت العادة، أكثر تشددًا واهتمامًا في أداء واجباته الدينية، وأشد تحملًا للمتاعب في سبيل تعلم مبادئ دينه وشعائره. وبذلك يؤثر، وقد رسخت في ذهنه أهمية هذه المبادئ وتلك الشعائر لنفسه، أن يصبح رمزًا لخلق الداعي إلى دينه بين يدي الكافر. ولم يكن الساعي في نشر تعاليم الدعوة، يُحيل من أدخله في الدين إلى بعض معلمي دينه الثقات، الذي ربما يقبل الرجل حديث العهد بالإيمان في زمرة المسلمين من الناحية الشكلية، ولم يكن بحاجة إلى الخوف من الرقابة الكنسية لارتكاب خطيئة[*] قارون.

وعلى ذلك، مهما تكن المبالغة عظيمة في القول، ومهما ردد الباحثون القول[١] بأن كل مسلم داعية إلى دينه، يبقى هذا القول حقيقيًا. وفي الحق أن قليلًا من المسلمين المتمسكين بدينهم تمسكًا صحيحًا، الذين يتصلون بالكفار يوميًا يهملون ما أوصاهم به نبيهم {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ}[٢] ومن ثم نجد، إلى جانب أرباب الدعوة المحترفين – وهم المعلمون الدينيون الذين كرسوا وقتهم ونواحي نشاطهم كله في مهمة الدعوة – أخبارا تاريخية لنشر العقيدة الإسلامية تتضمن سجلًا بأسماء رجال

(*) مثل يضرب في حالة ارتكاب إثم كبير.

(١) «ويظهر أن الميل إلى نشر تعاليم الدعوة عند كل مسلم، مهما كان محبًا للدنيا، أمر غريزي إلى حد ما».

(Snouck Hurgronje, Revue de l'Histoire des Religions, vol. lvii. P. 66).

إن المسلم داعية بطبيعته ... فهو يدير لدعوة بجهده وحسابه الخاصين».

(Munzinger, p. 411). Snouck Hurgronje (1) p. 8; Lüttke (2) p. 30; Julius Richter, p. 152 Merensky, p. 154.

(٢) سورة ١٦ آية ١٢٦.

ونساء من جميع طبقات المجتمع، من الملك[1] إلى الفلاح، ومن كل الصنائع والحرف، قاموا بأعمال ابتغاء نشر دينهم، والتاجر المسلم، على خلاف أخيه المسيحي، يظهر بنوع خاص بمظهر النشاط في أمثال تلك الأعمال. ونجد في ثبت يتضمن أسماء دعاة الهنود، نشر في صحيفة إحدى جمعيات لاهور[2] الدينية الخيرية، أسماء معلمي مدارس، وكتّاب للحكومة في مصلحتي القتال والأفيون، وتجار (وفيهم أحد العملاء في عربات النقل بالجمال)، ومحرر إحدى الصحف، ومجلِّد كتب، وعامل في مطبعة. فقد خصص هؤلاء الناس ساعات فراغهم بعد إنجاز عملهم اليومي، للدعوة إلى دينهم في الطرقات وأسواء المدن الهندية، ملتمسين اجتذاب مسلمين جدد من بين المسيحيين والهندوكيين جميعًا، الذين كانوا يجادلونهم ويحملون على عقائدهم.

ومما يثير اهتمامنا ما نلاحظه من أن نشر الإسلام لم يكن من عمل الرجال وحدهم، بل لقد قام النساء المسلمات أيضًا بنصيبهن في هذه المهمة الدينية؛ فيرجع الفضل في إسلام كثير من أمراء المغول إلى تأثير زوجة مسلمة. ولا يبعد أن يكون مثل هذا التأثير سببًا في إسلام كثير من الأتراك الوثنيين، عندما كانوا قد أغاروا على الأقطار الإسلامية. وقد أنشأ دعاة السنوسية الذين قدموا لنشر دعوتهم بين التوبو، شمالي بحيرة تشاد. مدارس للبنات، واستغلوا ما كانت تحدثه النساء من نفوذ قوى بين هذه القبائل (كما كان لهن هذا النفوذ بين جيرانهن من البربر)، فبذلوا جهودهم لجذبهن إلى صفوف الإسلام[3].

وفي إفريقية الشرقية الألمانية، دخل في الإسلام هؤلاء الأهالي الوثنيون الذين كانوا يتركون أوطانهم ستة أشهر أو أكثر للعمل في السكك الحديدية أو الأعمال الزراعية، على أيدي نساء مسلمات، تعاقدوا معهن على زواج مؤقت؛ فإن أولاء النساء كن يرفضن أن يتعاملن في شيء مع كافر لم يختتن بعد، فكان بعولتهن يتجنبون ذلك العار الذي كان

---

[1] راجع الرسالة المهمة التي وجهها مولاي إسماعيل، شريف مراكش إلى الملك جيمس في سنة ١٦٩٨، يدعوه إلى الإسلام.

(Revue de l'Histoire des religions, vol. xlvii. P. 174 sqq).

[2] أنجومان حمايت إسلام كاماهواري رسالة، ص٥-١٣ (لاهور أكتوبر ١٨٨٩).

[3] **Duveyrier, p. 17.**

يلحق مثل هذا اللقب، بأن يختتنوا وبذلك يقبلون الدخول في الجماعة الإسلامية[١].

وقد قيل إن تقدم الإسلام في بلاد الحبشة، في خلال النصف الأول من القرن الماضي، كان راجعًا، إلى حد كبير، إلى ما بذلته النساء المسلمات من الجهود، وخاصة نساء الأمراء المسيحيين، الذين لم يكن بد من أن يتظاهروا بالتحول إلى المسيحية، عندما يتزوجون، ولكنهم نشئوا أبنائهم على شعائر الإسلام، وبذلوا كل ما استطاعوا في سبيل تقدم ذلك الدين[٢]. وتقيم على حدود الحبشة الغربية قبيلة وثنية تسمى البُرُن **Boruns**؛ وقد دخل بعض أفراد هذه القبيلة، وكانوا قد انتظموا في سلك فصيلة من الزنوج، تحت لواء الحكومة المصرية الإنجليزية في السودان في الإسلام، على أيدي نساء الجنود السود، في الوقت الذي كانت فيه الكتيبة راجعة إلى الخرطوم[٣]. ويقال إن نساء قزان التتريات بوجه خاص ذوات غيرة، باعتبارهن داعيات إلى الإسلام[٤]. ولا تمنع المتمسكة بدينها، من أن تحتل مكانها إلى جانب الوليّ من الرجال في زمرة الداعين إلى العقيدة إذا اتفق أنها كانت امرأة. وإن أسطورة النساء المقدسات، اللائي ينتمين إلى علي، واللائي يقال إنهن طرف في الهواء من كربلاء إلى لاهور، وإنهن ظفرن بأول من تحول من الهندوكية إلى الإسلام[٥]، بفضل تأثير حياة الصلاة والصوم، التي كن يحيينها في تبتل وخشوع، كان من الصعب أن يكون لها أصل تاريخي، لو أن تأثير أمثال أولاء النساء المقدسات كان أمرًا مجهولًا تمامًا.

ومن أضرحة القاهرة التي لقيت أو في نصيب من التعظيم، ضريح السيدة نفيسة، حفيدة الحسن (الذي مات شهيدًا وهو ابن علي)، وهي التي أثارت إعجاب الإمام الشافعي نفسه، أحد من عاصروها من العظماء، بتفقهها في الإلهيات، والتي رفعتها تقواها، وتقشفها إلى مصاف الأولياء الصالحين. ويروى أنها عندما استقرت في مصر اتفق

---

(١) Klamroth, p. 12.

(٢) Massaja, vol. xi. Pp. 124-5.

(٣) Artin, p. 119.

(٤) R. du M. M., ix. (1909), p. 252.

(٥) غلام سرور: خزينة الأصفياء، جـ٢ ص٤٠٧–٤٠٨.

أنها أقامت بجوار أسرة من أهل الذمة، وكانت لهم بنت مصابة بداء عضال، بحيث لم تستطع أن تحرك أطرافها، ولم يكن بد من أن ترقد على ظهرها طوال اليوم. ولزم الأمر أن يذهب والدا هذه الفتاة المسكينة إلى السوق ذات يوم، فطلبا إلى جارتهما المسلمة أن تتفقد ابنتهما أثناء تغيبهما. وباشرت نفيسة هذا العمل الإنساني، وهي مفعمة بالحب والرحمة، ولما ذهب والدا هذه الفتاة المريضة إلى السوق، سمت نفيسة بروحها، وابتهلت إلى الله أن يشفي هذه المريضة البائسة. ولم تكد تفرغ من دعائها حتى استعادت الفتاة المريضة تحريك أطرافها وأصبحت قادرة على أن تذهب للقاء أبويها عند عودتهما. وملأ الشكر والامتنان قلوب أفراد الأسرة جميعًا، فانتهوا إلى الدخول في ديانة تلك المرأة التي أسدت إليهم هذا الفضل[١].

حتى المسلم الأسير، يغتنم الفرص في المناسبات لدعوة أسرية أو إخوانه في الأسر إلى دينه. وقد تسرب الإسلام إلى أوروبا الشرقية أول الأمر بفضل ما قام به فقيه مسلم، سيق أسيرًا، ربما في إحدى الحروب التي نشبت بين الدولة البيزنطية وجيرانها المسلمين، وجيء به إلى بلاد بتشنج Pechenegs[٢] في مستهل القرن الحادي عشر. وقد بسط بين يدي كثير منهم تعاليم الإسلام، فاعتقدوه في إخلاص، حتى إنه أخذ في الانتشار بين هذا الشعب. أما سائر البتشنج الذين لم يكونوا قد قبلوا دين الإسلام، فقد ارتابوا من تصرف مواطنيهم، وانتهى بهم الأمر إلى نشوب القتال بينهم. وقاوم المسلمون، وكان عددهم يبلغ نحوًا من اثني عشر ألفًا، هجمات الكفار في نجاح، مع أن هؤلاء كانوا أكثر منهم عددًا بما يزيد على الضعفين. ودخلت فلول المهزومين دين المنتصرين.

ولم تأت نهاية القرن الحادي عشر، حتى كان الشعب بأسره قد اعتقد الإسلام، وكان من بينهم مسلمون تعلموا الفقه التوحيد[٣]. وفي عهد الامبراطور جهانجير

---

(١) Glodziher, vol. ii. Pp. 303-4.

(٢) احتلال البتشنج في ذلك الحين البلاد التي تقع بين الدانوب الأدنى والدون، وكانوا قد هاجروا إليها من شواطئ نهر أورال في نهاية القرن التاسع. (Karamsin, vol. i. pp. 180-1.).

(٣) أبو عبيد البكري (توفي سنة ١٠٩٤م) ص٤٦٧-٤٦٨.

(١٦٠٥–١٦٢٨) كان هنالك عالم سنِّي من علماء التوحيد يدعى الشيخ أحمد مجدد، وقد تميز بقدرته على مجادلة الشيعة في عقائدهم بنوع خاص. ولما كان هؤلاء مقربين إلى البلاط في ذلك الحين، نجحوا في إيداعه السجن بتهمة تافهة. وفي خلال السنتين اللتين قضاهما في الحبس أدخل في الإسلام عدة مئات من عبدة الأوثان الذين كانوا يرافقونه في هذا السجن نفسه[١].

وفي سنوات أحدث من ذلك، قضت الحكومة البريطانية بنفي أحد مولوية الهنود إلى جزائر أندمان نفيًا مؤبدًا، لأنه كان قد قام بنصيب فعال في مؤامرة دبرها الوهابيون سنة ١٨٦٤؛ وهناك أدخل هذا المولوي في الإسلام قبل وفاته كثيرًا من المحكوم عليهم. وفي إفريقيا الوسطى، حكم البلجيكيون على زعيم عربي بالإعدام، فقضى ساعاته الأخيرة، وهو يحاول أن يدخل في الإسلام ذلك المبشر المسيحي الذي كان قد أرسل إليه ليزجي إليه التعزيات الدينية[٢].

عوامل نجاحهم: وإذا كان المسلمون قد بلغوا مثل هذه الحماسة في نشر الدعوة إلى حد أنهم كانوا على استعداد للتحدث عنها في مناسبة وفي غير مناسبة –كما يقول داوتي في حصافة ودقة ملاحظة «حديثهم دائمًا (في غير زندقة) عن الدين، وفي هذا الحديث ما يذكرهم بما ترتاح إليه نفوسهم من التقوى والورع»[٣]، فلنسرد الآن بعض العوامل التي ساعدت على نجاحهم.

في مقدمة هذه الأسباب بساطة العقيدة الإسلامية[٤]، لا إله إلا الله، محمد رسول الله. وكل ما يتطلب من الذي يدخل في الإسلام، قبول هاتين الشهادتين. وإن تاريخ

---

(١) غلام سرور: خزينة الأصفياء جـ١ ص٦١٣.

(٢) D. Crawford: Thinking Black, p. 202. (London, 1913).

(٣) Doughty, vol. ii. P. 39.

(٤) وقد أكد مراتشي Marracci هذا القول في القرن السابع عشر بقوله: «لو قارن كافر بين أسرار الحالة الطبعية البسيطة التي فاقت طاقة الذكاء البشري أو إلى هي، على الأقل، من الصعوبة بمكان، إن لم تكن مستحيلة وبين عقيدة القرآن، لانصرف عن الأول في الحال، وأسرع إلى الثانية في ترحيب وقبول». (Alcorani textus ... translates, p. 9 patavii, 1698).

العقائد الإسلامية كله، ليخفق في عرض أية محاولة من جانب المقامات الدينية، لحمل جمهرة المؤمنين على الأخذ بأية إشارة منطوية في عبارات أكثر تدقيقًا وتعقدًا. إن هذه العقيدة البسيطة لا تتطلب تجربة كبيرة للإيمان، ولا تثير في العادة مصاعب عقلية خاصة، وإنها لتدخل في نطاق أحط دركات الفهم والفطنة. ولما كانت خالية من المخارج والحيل النظرية اللاهوتية، كان من الممكن أن يشرحها أي فرد، حتى أقل الناس خبرة بالعبارات الدينية النظرية.

ويعبر الشطر الأول من هذه العقيدة عن مبدأ يكاد يقبله جميع الناس على أنه فرض لا بد منه، على حين يقوم الشطر الثاني منها على فكرة علاقة الناس بالله وهي مسألة تكاد تكون عامة شاملة كذلك، بمعنى أن الله تعالى، في فترات من تاريخ العالم، قد وهب بعض تجليه على الخلق، على لسان أنبياء ملهمين. ولا يستطيع أي فرد أن يوضح ذلك، أعني الطابع العقلي للعقيدة الإسلامية، وما جنته من هذا الطابع من الفائدة في جهودها في نشر الدعوة، توضيحًا يبعث على الإعجاب، بأكثر مما وضحه البروفسور مونتيه في العبارات التالية:

«الإسلام في جوهره دين عقلي، بأوسع معاني هذه الكلمة من الوجهتين الاشتقاقية والتاريخية. فإن تعريف الأسلوب العقلي **Rationalism** بأنه طريقة تقيم العقائد الدينية على أسس من المبادئ المستمدة من العقل والمنطق، ينطبق عليها تمام الانطباق. والحق أن محمدًا الذي كان متحمسًا لدينه، كما كان كذلك لا يمتلك غير الإيمان، ونار الاقتناع، تلك الصفة القيمة التي كثيرًا جدًا من أتباعه — قد عرض حركته الإصلاحية على أنها وحي وإلهام: على أن هذا النوع من الوحي ليس إلا صورة من العرض والتفسير، وإن لدينه كل العلامات اللتي تدل على أنه مجموعة من العقائد قامت على أساس المنطق والعقل. وتتلخص العقيدة الإسلامية من وجهة نظر المؤمنين في الاعتقاد بوحدانية الله ورسالة نبيه، أما من وجهة نظرنا نحن الذين نحلل عقائده تحليلًا لا روح فيه، فنعتقد في الله وفي الحياة الآخرة. وهذان المبدآن هما أقل ما ينبغي للاعتقاد الديني، وهما أمران يستقران في نفس الرجل المتدين على أساس ثابت من العقل والمنطق، ويلخصان كل تعاليم العقيدة

التي جاء بها القرآن. وإن بساطة هذه التعاليم ووضوحها لهي على وجه التحقيق من أظهر القوى الفعالة في الدين وفي نشاط الدعوة إلى الإسلام.

ومما لا سبيل إلى إنكاره أن كثيرًا من عقائد اللاهوت ونظمه، وكثيرًا من الخرافات كذلك، من عبادة الأولياء إلى استخدام المسابح والتعاويذ، قد طُعِّم به الجذع الرئيس للعقيدة الإسلامية. ولكن على الرغم من التطور الخصب، بكل ما في هذه الكلمة من معنى، لتعاليم النبي، حفظ القرآن منزلته من غير أن يطرأ عليه تغيير أو تبديل. باعتباره النقطة الأساسية التي بدأ منها تعالي هذه العقيدة.

وقد جهر القرآن دائمًا بمبدأ الوحدانية، في عظمة وجلال وصفاء لا يعتريه التحول، ومن العسير أن نجد في غير الإسلام ما يفوق تلك المزايا. وإن هذا الإخلاص كمبدأ الدين الأساسي، والبساطة الجوهرية في الصورة التي يصاغ فيها هذا الدين، والدليل الذي كسبه هذا الدين من اقتناع الدعاة الذين يقومون بنشره اقتناعًا يلتهب حماسة وغيرة، إن هذا كله يكون الأسباب الكثيرة التي تفسر لنا نجاح جهود دعاة المسلمين. وكان من المتوقع لعقيدة محددة كل التحديد، خالية كل الخلو من جميع التعقيدات الفلسفية، ثم هي تبعًا لذلك في متناول إدراك الشخص العادي، أن تمتلك، وإنما لتمتلك فعلًا، قوة عجيبة، لاكتساب طريقها إلى ضمائر الناس»[(١)].

ويرى الأسقف لفروي Lefroy أن «سر القوة الخارقة للعادة التي أظهرها الإسلام في أزهر عصوره في فتوحاته وتقدمه» كامن في إدراك هذا الدين وجود الله، أكثر منه في وحدانيته، قال: «ليس قولنا إن الله واحد بأعظم من قولنا إنه موجود، بمعنى أن وجوده هو حقيقة السكون المطلقة وأن إرادته هي العليا، وأن سيادته مطلقة، وأن قوته لا تحد.. وهذا معناه الإيمان بأن هنالك إرادة مطلقة عليا لا تقاوم في وسط كل ما يغمر الكون من الاختلال والاضطراب والفساد الذي يجعله في صورة من الظلمة والوحشة تبعث على

---

(١) Edouard Montet: La propaganda chrétienne et ses adversaires musulmans, pp. 17-18. (Paris, 1890).

الفزع والرهبة، كما أن معناه الإيمان بأن الرجل مسير طوع هذه الإرادة، يظهرها، ويلتزم الطاعة لها، ولو أنه من الضروري أن يأخذ في سبيل إظهار هذه الإرادة بأسباب بسيطة بدائية جدًا، وهذا هو الذي أمد جحافل المسلمين بوسائل الفتح التي لا تقهر، تلك التي بعثت فيهم روحًا من الانقياد الحربي والنظام العسكري، كما بعثت فيهم ازدراء الموت، الأمر الذي ربما لم نعرفه قط في أي نظام سابق. وهذا هو الذي يعطينا في كلمة، حسب ما نجده متمثلًا في أية روح صادقة فعالة بين المسلمين، ذلك العمود الفقري لأخلاقهم، أعني ذلك الثبات في العزيمة والقوة في الإرادة، وذلك الصبر الذي لا يعرف سبيلًا إلى الشكوى، والاستسلام لأشد المصائب وأصعبها، كل ذلك قد ميز خير أنصار العقيدة وجمَّلهم»[١].

وإذا قبل الذي يدخل في الإسلام هذه العقيدة البسيطة وتعلمها، لم يكن بد عندئذ من أن يتعلم فرائض الدين الخمس: (١) النطق بالشهادتين. (٢) وإقام الصلوات الخمس في أوقاتها. (٣) وإيتاء الزكاة. (٤) وصوم رمضان. (٥) والحج إلى مكة.

وطالما اعترض بعض الناس على أداء هذا الغرض الأخير باعتباره بقية غريبة من بقايا الوثنية، ظلت من جملة تعاليم النبي التي تدعو إلى الوحدانية، ولكن ينبغي ألا يعزب عن الأذهان أن الحج قد اقترن بإبراهيم، في نظر النبي، وأن رسالة التي هي إعادة دين إبراهيم[٢]. ولكن فوق ذلك كله – وهنا تكون أهميته العليا في تاريخ نشر الدعوة في الإسلام – ينظم الحج اجتماع المؤمنين في كل سنة، على اختلاف شعوبهم ولغاتهم، من كافة أنحاء العالم، للصلاة في ذلك المكان المقدس، الذي يولون وجوههم شطره في كل ساعة من ساعات عبادتهم الخاصة في أوطانهم النائية.

ولم تستطع أية محاولة يقوم بها عباقرة أي دين أن تتصور وسيلة أحسن من هذه الوسيلة تطبع في عقول المخلصين معنى حياتهم المشتركين، وأخوتهم التي ارتبطت بروابط

---

(١) Mankind and the Church, p. 283-4. (London, 1907).

(٢) قرآن: سورة ٢ آية ١١٨–١٢٦.

الدين. وفي ذلك المكان، حيث نجد عملًا ساميًا من أعمال العبادة المشتركة، نرى زنجيي ساحل إفريقية الغربي يلتقي بالصيني من أقصى الشرق؛ ويتعرف التركي الرقيق المهذب على أخيه المسلم من أهل الجزائر المتوحشين الذين يسكنون أبعد أطراف بحر الملايو. وفي هذا الوقت نفسه تتطلع قلوب المؤمنين في كافة أنحاء العالم الإسلامي، في عطف وحنين، إلى إخوانهم الأسعد حظًا منهم، الذين تجمعوا في المدينة المقدسة، فيحتفلون في أوطانهم بعيد الأضحى، أو (كما يسمى في تركيا ومصر) عيد البيرام أو العيد الكبير. وإن زيارتهم المدينة المقدسة قد أصبحت في نظر كثير من المسلمين، التجربة التي حثتهم على الجهاد في سبيل الله، وقد أوردنا في الصفحات السابقة إشارات متتابعة إلى ما قامت به طبقة الحاچي من نصيب فعال في أعمال نشر الدعوة.

وإلى جانب نظام الحج، نجد إيتاء الزكاة فرضًا آخر يذكر المسلم دائمًا بقوله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ}[١] وهي نظرية دينية تتحقق على صورة رائعة تبعث على الدهش في المجتمع الإسلامي، وقلما تعجز عن أن تتجلى في أعمال الشفقة إزاء المسلم الجديد. ومهما يكن جنسه ولونه وأسلافه، فإنه يقبل في زمرة المؤمنين، ويتبوأ مكانه على قدم المساواة مع أقرانه المسلمين.

على أنه ليس من الصواب، ما زعمه بعض الكتاب الأوروبيين من أنه إذا كان عبد الرجل المسلم كافرًا، فإن تحوله إلى الإسلام يؤدي إلى تحرير رقبته. ذلك أن الشريعة الإسلامية تقتضي بأن دخول العبد في الإسلام، لا يؤثر في حالة العبودية التي كان عليها من قبل[٢]. وتختلف حالة العبد المسلم اختلافًا كبيرًا تبعًا لأخلاق مولاه. ولكن الحرية هي جزاء التحول إلى الإسلام في كثير من الحالات. وإن العقول الورعة التقية لتعترف حتى في الاسترقاق بهداية الله إلى الدين الحق، كما يروى عن الزنوج الساكنين في بلاد النيل الأعلى، الذين لقيهم داوتي في بلاد العرب. «لا يوجد في نفوس أولئك الإفريقيين أي

---

(١) سورة ٤٩ آية ١٠.

(٢) W. H. Macnaghten: Principles and Precedents of Moohummudan Law, p. 312, (Madras, 1882).

حقد من أنهم صُيّروا عبيدًا، حتى ولو أن سُرّاق البشر القساة قد انتزعوهم من ذويهم. وكان العملاء الذين يدفعون ثمنهم، يتخذونهم في بيوتهم، ويختتن الذكور منهم.. وإن الذي حرر أرواحهم، الحنين الطويل إلى أوطانهم، هو أن الله قد تفقدهم في ملتهم؛ إنهم يستطيعون أن يقولوا إن نعمة الله قد تداركتهم منذ أن دخلوا بفضلها الدين المنقذ، لذلك يرون أنهم في بلد خير من بلادهم، فهم في ذلك البلد عتقاء الله، وهم في بقاع تحيا حياة أكثر مدنية، وهم في تربة الحرمين الشريفين، وفي بلد مُحَمَّد، لذلك يشكرون لله أن بيعت أجسادهم يوم ما بيع الرقيق!»[١].

كذلك نجد أداء الصلوات الخمس كل يوم على جانب عظيم من التأثير سواء في جذب الناس أو الاحتفاظ بالمسلمين منهم. وقد أحسن مونتسكيو[٢] في قوله: «إن المرء لأشد ارتباطًا بالدين الحافل بكثير من الشعائر منه بأي دين آخر أقل منه احتفالًا بالشعائر، وذلك لأن المرء شديد التعلق بالأمور التي تسيطر دائمًا على تفكيره».

إن دين المسلم يتمثل دائمًا في مخيلته؛ وفي الصلوات اليومية، يتجلى هذا الدين في طريقة نسكية خاشعة مؤثرة، لا تستطيع أن تترك العابد والمشاهد كليهما غير متأثرين. يتحدث سعيد بن الحسن، أحد يهود الإسكندرية، الذي اعتقد الإسلام في سنة ١٢٩٨م، عن مشهد صلاة الجمعة في مسجد باعتباره عاملًا حاسمًا في تحوله إلى الإسلام. في خلال مرض شديد كان قد انتابه، رأى في المنام أن صوتًا يأمره بأن يجهر بالإسلام. «وعدما دخلت المسجد»، (ويستمر في حديثه إلى أن يقول) «ورأيت المسلمين يقفون صفوفًا كأنهم الملائكة، سمعت هاتفًا يقول، هذه هي الجماعة التي أخبر الأنبياء (صلوات الله عليهم!) بقدومها. ولما ظهر الخطيب مرتديًا عباءته السوداء، استولى عليّ شعور عميق من الرهبة.. ولما ختم خطبته بالكلمات، إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، يعظكم لعلكم تذكرون، ولما بدأت

(١) Arabia Deserta, vol. i. pp. 554-5.

(٢) De l'Esprit des Lois, livre xxv. Chap. 2.

الصلاة، أحسست بقوة تدفعني إلى النهوض، لأن صفوف المسلمين بدت أمامي كأنها صفوف الملائكة، الذين يتجلى الله القدير في سجداتهم وركعاتهم، ثم سمعت هاتفًا يهتف بي: إذا كان الله قد تحدث مرتين إلى بني إسرائيل في كل العصور، فإنه يتحدث إلى هذه الجماعة في كل وقت من أوقات الصلاة؛ وأيقنت في نفسي أني خلقت لأكون مسلمًا»[1].

فإذا استطاع رينان أن يقول: «ما دخلت مسجدًا قط، دون أن تهزني عاطفة حادة، أو بعبارة أخرى، دون أن يصيبني أسف محقق على أنني لم أكن مسلمًا»[2]، كان من اليسير أن ندرك كيف أن منظر التاجر المسلم في صلاته، وسجداته الكثيرة، وعبادته للإله الذي لا يراه، في سكينة واستغراق، قد يؤثر في الإفريقي الوثني، الذي وُهب إدراكًا قويًا للقوى الخفية، كما يقترن هذا الإدراك عادة بدرجة منحطة من المدنية. وقد يحفز حب الاستطلاع على البحث بطبيعة الحال.

وإن معارك الإسلام التي عرفها الناس على هذا النحو قد تجذب أحيانًا فردًا يدخل في الإسلام، كان من الممكن أن ينصرف عن لو أنه قدم إليه على صورة لا يرغب فيها، باعتبارها هبة حرة. ولا حاجة إلى القول بأن صيام شهر رمضان جزء من دليل ثابت

---

(1) Goldziher, Said b. Hasan d'Alexandrie. (Revue des Études Juives, tome xxx. Pp. 17-18). (Paris, 1895).

(2) Ernest Renan: L'Islamisme et la Science. P. 19. (Paris, 1883). وقد أكد ذلك كثير من الملاحظين، ولكن حسبنا في هذا المقام أن ننقل كلمات أسقف مسيحي مشهور: «ما من فرد يتصل بالمسلمين لأول مرة إلا أخذ بمظهر دينهم هذا.. وحيثما يمكن أن توجد، في الطريق العامة، أو في محطة السكة الحديدية، أو في الحقل، فإن من أكثر الأشياء شيوعًا أن ترى الرجل منهم، يترك في اللحظة التي يقوم فيها بأداء أعماله أيًا كانت، بدون أدنى تأثر بالرياء أو الظهور، وفي سكينة وتواضع، لكي يؤدي صلواته في أوقاتها المحددة. وأكثر من ذلك أنه ما من فرد رأى يومًا ساحة الجامع الكبير في دهلي في الجمعة الأخيرة من شهر رمضان، وهي غاصة بما قد يربو على ١٥٠٠٠ مصل، وكلهم جميعًا منهمكون في صلاتهم، مظهرون أعمق آيات الإجلال والخشوع في كل إشارة يبدونها، إلا تأثر تأثرًا عميقًا بهذا المشهد، أو أخذ فكرة عابرة عن تلك القوة التي ينضوي مثل هذا النظام تحت لوائها؛ على حين نجد النظام الدقيق الذي يتجلى في دعوة الناس اليومية إلى الصلاة، عندما يؤذن الداعي في وقت السحر، قبل أن يتنفس الصبح، أو بين ضوضاء ساعات العمل وضجيجها، أو عندما يرخي الليل كذلك. مفعمًا بتلك الرسالة ذاتها».
(Dr. G. A. Lefroy: Mankind and the Church, pp. 287-8) (London, 1907).

يدحض النظرية القائلة بأن الإسلام نظام ديني يجذب الناس عن طريق مراودتهم في ملذاتهم الشخصية. وكما قال كارليل: «إن دينه ليس بالدين السهل: فإنه بما فيه من صوم قاس، وطهارة، وصيغ معقدة صارمة، وصلوات خمس كل يوم، وإمساك عن شرب الخمر، لم يفلح في أن يكون دينًا سهلًا».

ولكون هؤلاء المسلمين يعنون بتلك الفرائض وغيرها من الشعائر الدينية، ولكن من غير أن يثقلوا بها كواهلهم، أو تجعلهم مغمورين في الحياة، نجد أركان العقيدة الإسلامية تلقى دون انقطاع، تعبيرًا ظاهرًا في حياة المؤمن؛ ومن ثم نجدها، بعد أن أصبحت متشابكة مع نظام حياته اليومية تشابكًا لا سبيل إلى الفكاك منه، تجعل المسلم الفرد إمامًا ومعلمًا لعقيدته، أكثر، إلى حد بعيد، مما هي الحال مع أنصار معظم الديانات الأخرى[١].

ولما كانت عقيدته مصوغة في مثل هذه اللغة الموجزة البسيطة، كانت لا تتطلب من الذكاء إلا قليلًا؛ وإن تحدد هذه الطقوس وواقعيتها ودقتها ليدع المؤمن لا يتخالج في نفسه الشك فيما هو مكلف بأدائه؛ فإذا أدى هذه الواجبات، اطمأن وجدانه إلى أنه قد أنجز كل أوامر الشرع. وقد نجد إلى حد بعيد، في هذه الوحدة التي تربط بين النظامين العقلي والطقسي في هذا الدين، سر السيطرة التي أحدثها الإسلام على عقول الناس. «فإذا أردت أن تجذب إليك جماهير كبيرة من الناس، لقنهم الحقيقة في صورة حاسمة، دقيقة واضحة، وفي أسلوب مرئي محس»[٢].

ومن الممكن أن نورد كثيرا من الظروف الأخرى التي ساعدت على نجاح الدعوة إلى الإسلام، وهي ظروف تتعلق بأزمان معينة وبلاد خاصة. ويمكن أن نذكر من بين هذه الظروف تلك الفائدة التي تستمدها أعمال نشر الدعوة الإسلامية من هذه الحقيقة، وهي أن هذه الدعوة كانت إلى حد كبير في أيدي التجار، وخاصة في إفريقية وبلاد أخرى غير

---

[١] «وقد يلاحظ المرء ويعجب بذلك اللون من الاعتزاز النبيل بالنفس، الذي يتمسك به المسلمون، في المتوسط، في دينهم».

(Bishop Lefroy: Mankind and the Church, p. 289).

(2) B. Kuenen: National Religions and Universal Religions, p. 35. (London, 1882)

متمدنة، حيث نرى الأجنبي موضع الريبة والشك بطبيعة الحال من أهالي هذه البلاد. ففي حالة التاجر، نجد مهنته المعروفة التي لا ضرر فيها، تضمن له مناعة من أي إحساس بمثل هذه الريبة، على حين نرى خبرته بالناس والأخلاق، وحنكته التجارية في معاملة الناس تنيلانه قبولا حسنا، وتزيلان ذلك الشعور بالضيق الذي قد ينشأ بطبيعة الحال من وجود الغريب.

وهو لا يقع في تلك المساوئ التي تعرقل مهمة الداعي المحترف، الذي يكون معرضا لأن يتهم بعض الدوافع الشريرة، من جانب الشعب الذي نجد درجة خبرته وأفقه العقلي محدودين، والذي يرى أن فكرة أي شخص يتحمل أخطار سفر طويل، ويطرح جانبا كل المشاغل الدنيوية لغرض واحد، هو أن يظفر بقوم يدخلهم في دعوته، أمر غامض لا سبيل إلى تفسيره، بل من جانب قوم من العالم أكثر تمدنا وحضارة على أتم استعداد للشك في إخلاص هؤلاء الذين عهد إليهم في نشر الدعوة من المأجورين.

وتختلف الظروف جد الاختلاف، حينما لم يكن هنالك من سبيل من أن يظهر الإسلام في مظهر الضارع المتوسل في البلد الغريب، ولكنه يمثل دين الجنس الحاكم في عزة وكبرياء. وقد بيَّنا في الصفحات السابقة أن نظرية العقيدة الإسلامية تلتزم التسامح وحرية الحياة الدينية لجميع أتباع الديانات الأخرى، أولئك الذين يؤدون الجزية كفاء حمايتهم. وعلى الرغم من أن صفحات التاريخ الإسلامي قد تلوثت بدماء كثير من الاضطهادات القاسية، ظل الكفار على وجه الإجمال، ينعمون في ظل الحكم الإسلامي بدرجة من التسامح لم نكن نجد لها مثيلا في أوربا حتى عصور حديثة جدًا. وإن التحويل إلى الإسلام عن طريق الإكراه محرم، طبقا لتعاليم القرآن: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ} [البقرة: ٢٥٧]. {أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ} [يونس: ٩٩-١٠٠]. وإن مجرد وجود كثير جدًا من الفرق والجماعات المسيحية في الأقطار التي ظلت قرونا في ظل الحكم الإسلامي، لدليل ثابت على ذلك التسامح الذي نعم به هؤلاء المسيحيون، كما يدل على الاضطهادات التي كانوا يدعون معاناتها بأيدي الطغاة والمتعصبين، إنما كانت ناتجة من بعض ظروف خاصة وإقليمية، أكثر

من أن تكون منبعثة عن مبدأ مقرر من التعصب[١].

وفي أمثال تلك الأزمان التي حدث فيها الاضطهاد، كان ضغط الظروف يدفع كثيرا من الكفار إلى أن يصبحوا – من الناحية الشكلية على الأقل – مسلمين. ويمكن إيراد كثير من الأمثلة عن أفراد أكرهوا في مناسبات خاصة على الإذعان لدين القرآن. ولكن مثل هذا التعسف لم يكن بموافقة الشرع الإسلامي في شيء. سواء منه الديني والمدني. وقد ذكرنا من قبل (التمهيد ص٢٠) الآيات القرآنية التي تنهي عن الإكراه في الدين، وتوصي بالدعوة باعتبارها الوسيلة الشرعية الوحيدة لنشر هذه العقيدة، ويؤيد هذا المبدأ نفسه ما قرره الأئمة من المسلمين.

ولما هرب موسى بن ميمون، الذي كان قد تظاهر بالدخول في الإسلام في عهد الموحدين، الذين كان حكمهم ينطوي على التعصب الديني، إلى مصر، وأعلن هنالك أمام الملأ أنه يهودي، اتهمه أحد فقهاء المسلمين من إسبانيا، بالارتداد عن الإسلام، وطلب بأن يوقع عليه أقصى عقوبة يقضي بها الشرع لهذا الجرم. ولكن القاضي الفاضل،

---

(١) مثال ذلك ما حدث في عهد المتوكل من اضطهاد، كان نتيجة لرد فعل المذهب السني على كل الأشكال التي تنحرف عن العقيدة التي يدين بها عامة الناس، وما حدث في فارس وفي جهات أخرى من آسيا، حول نهاية القرن الثالث عشر، من الانتقام من سلوك الغطرسة والإهانة الذي ظهر به المسيحيون في ساعة تقدمهم ونفوذهم في ظل المغول الأولين. (المقريزي (٢) جـ١ القسم الأول ص٩٨، ١٠٦). ويقول السمعاني (tom. iii. pars. ii. p. c.) حين يتحدث عن الأسباب التي أدت إلى اضطهاد المسيحيين في ظل الحكم الإسلامي: «كثيرًا ما أثارت المنازعات المتبادلة بين المسيحيين أنفسهم، وتصريحات رجال الدين وكبراء قادتهم، وسلطة أقطابهم العانية، عاصفة من الاضطهاد، وخاصة المجادلات بين الأطباء والكتاب بصدد السيطرة المطلقة على أمتهم». وفي خلال الحروب الصليبية، طالما وقع مسيحيو الشرق في تهمة العمل على ممالأة الغزوات التي قام بها إخوانهم في الدين من المسيحيين الذين وفدوا من الغرب. وفي تركيا الحديثة، نجد حركة استقلال اليونان، وما أثارته هذه الحركة من العواطف الدينية في أوروبا المسيحية، ساعدت على جعل نصيب الشعوب المسيحية الخاضعة، أشق مما كان أن يكون لو أنهم لم يتهموا بالخيانة ونفورهم من حاكمهم المسلم. وقد أوضح دي جوبنو De Gobineau فكرته إيضاحا قويًا جدًا فيما يتعلق بمسألة تسامح الإسلام حين قال: «إذا انفصلت العقيدة الدينية عن الضرورة السياسية التي طالما تحدثت وعملت باسمها، فإننا لا نجد دينا أكثر تسامحا، بل يمكن أن يقال على وجه التقريب، أكثر بعدا عن الاكتراث العقيدة الفردية من الإسلام. هذا التكوين الآلي قوي إلى حد أننا إذا استثنينا الحالات التي كان كيان الدولة الواقع في خطر يحمل الحكومات الإسلامية على اتخاذ كل الأساليب للوصول إلى توحيد العقيدة، فقد كان التسامح إلى أقصى حد هو القاعدة المستمدة من الأصول الإسلامية.. لا يجوز أن تقف عند ألوان القسوة والعنف اللذين ارتكبا في أية مناسبة. وإذا نظرنا إليها عن قرب، لن نتردد في معرفة أن أسبابها كانت سياسية محضة أو راجعة إلى الأهواء البشرية، أو إلى المزاج المسيطر على الحاكم أو في الشعوب. إن العمل الديني لم يلجأ إلى هذه الوسائل إلا من حيث هي حجة ولكنه في الواقع لا يدخل في نطاقها. (A. de Gobineau (1), pp. 24-5.).

عبد الرحيم بن علي[١]، وهو من أشهر قضاة المسلمين، وكبير وزراء صلاح الدين العظيم، ألغى هذا الحكم، وأعلن بصفة جازمة، أن رجلا قد أرغم على الدخول في الإسلام، لا يصح شرعا أن يعد مسلما[٢].

وبهذه الروح نفسها، نجد غازان (١٢٩٥-١٣٠٤) عندما اكتشف أن عبدة البوذية الذين كانوا قد دخلوا في الإسلام في مستهل حكمه (حينما خربت معابدهم) لم يتحولوا إلى هذا الدين إلا تظاهرا ونفاقا، يسمح لجميع هؤلاء الذين كانوا جد راغبين في العودة إلى التبت، حيث يستردون حريتهم مرة أخرى بين مواطنيهم البوذيين، ويتبعون دياناتهم القديمة[٣].

ويقص لنا تافرنيير قصة مماثلة عن بعض يهود أصفهان الذين كان الحاكم قد اضطهدهم اضطهادا شديدا إلى حد أنه «جعلهم يتحولون إلى الإسلام بالقوة والخديعة كلتيهما؛ ولكن الملك (الشاه عباس الثاني) (١٦٤٢-١٦٦٧) أدرك أن القوة والرهبة وحدهما قد أرغمتاهم على هذا التحول، فأذن لهم أن يستردوا دياناتهن وأن يعيشوا في هدوء وأمان»[٤].

وتدلنا قصة ذكرها رحالة[٥] في فارس يرجع إلى عهد أقدم من ذلك بكثير، إلى سنة ١٤٧٨، كيف عكف أحد حكام المسلمين، في تلك الأزمان المضطربة، على القضاء على سورة من التعصب من هذا النوع نفسه في شدة وعنف. بينما كان تاجر أرمني موسر جالسا في حانوته ذات يوم. قدم عليه حاجي[٦]، كان مشهورا بالتقوى والصلاح، وألح عليه أن يدخل في الإسلام، وينبذ المسيحية. ولما أعرب التاجر عن نيته في أن يظل ثابتا على دينه، وقدم له صدقة، رغبة في أن يتخلص منه، أجابه بأنه لا يريد صدقته، وإنما يريد

(١) الوقوف على ترجمة حياته انظر ابن خلكان جـ٢ ص١١١-١١٥.

(٢) ابن العبري (٢) ص٤١٧-٤١٨.

(٣) C. d'ohsson, vol. iv. p. 281.

(٤) Tavernier (1), p. 160.

(٥) Viaggio di Iosafa Barbero nella Persia (Ramusio, vol. ii. p. III.)

(٦) لو أنه يقصد حقا الحاجر بقوله آزي

أن يتحول إلى الإسلام. وأخيرا ضاق الحاجي ذراعا بإصرار التاجر على الرفض، فاختطف فجأة سيفا من يد أحد المشاهدين، وضرب التاجر على رأسه ضربة قاضية، ثم لاذ بالفرار. ولما سمع حاكم المدينة الخبر، استشاط غضبا، وأمر بأن يقتفي أثر القاتل ويودع في السجن، وجيء بالمذنب بين يدي الحاكم، فطعنه بيده طعنة قضت عليه وأمر بأن تلقى جثته نهبا للكلاب، وقال: «ماذا! أبهذه الطريقة ينتشر دين مُحَمَّد؟». ولما أرخى الليل سدوله أخذ عامة الشعب هذه الجثة وحروقها، ومن ثم ثار سخط الحاكم لهذا التحقير لأوامره. فأسلم هذا المكان إلى عساكره ينهبونه ثلاث ساعات أو أربعا، ثم فرض غرامة إمعانا في العقاب. وكذلك استقدم إليه ابن التاجر وعزاه ولاطفه بعبارات طيبة رقيقة.

حتى الحاكم المجنون (٩٦٦-١٠٢٠م) (٣٦٨-٤١١هـ) الذي حملت اضطهاداته كثيرا من اليهود والمسيحيين على أن يتركوا دينهم ويدخلوا في الإسلام، قد سمح فيما بعد لهؤلاء الذين تحولوا إلى الإسلام عن غير رغبة أن يعودوا مرة أخرى إلى دينهم، وأن يعيدوا بناء أماكن عبادتهم المخربة[1]. ولما كان المسيحيون الشرقيون يلقون إهمالا من جانب إخوانهم المسيحيين في الغرب، وكانوا في الأغلب الأعم عزلا من أي سلاح، كما كانوا غير محميين على الإطلاق، كان يكون من السهل على أي حاكم من حكام الإسلام الأقوياء، أن يستأصل شأفة رعاياه المسيحيين، أو ينفيهم من بلادهم، كما فعل الإسبان بالعرب، والإنجليز باليهود مدة أربعة قرون تقريبًا.

وكان من الممكن تمامًا أن ينفذ سليم الأول (في سنة ١٥١٤) أو إبراهيم (في سنة ١٦٤٦) تلك الفكرة البربرية التي تصوروها للقضاء على رعاياهم المسيحيين، كالذي صنعه الأول من ذبح ٤٠٠٠٠ شيعي لتدعيم وحدة العقيدة الدينية بين رعاياه المسلمين.

---

(١) المكين ص ٢٦٠. وعلى هذا النحو، أصدر المقتدر (٩٠٨-٩٣٢م) (٢٩٥-٣٢٠هـ) الذي ولي الخلافة قبل الحاكم بنحو قرن، أوامره بإعادة بناء بعض الكنائس في الرملة بفلسطين، وكان المسلمون قد خربوها في أثناء شغب لم يدون التاريخ سببه. (سعيد بن البطريق ٢ ص٨٢). ويذكر أبو صالح إعادة بناء كثير من الكنائس والأديرة الكبيرة في مصر، وكانت إما قد خربت في زمن الحرب (أي في خلال غزوة الغز والأكراد في سنة ١١٦٤) (ص٩١، ٩٦، ١١٢، ١٢٠)، أو دمرت بأيدي المتعصبين (ص٨٥-٨٦، ١٨٢، والمقريزي منقولة في ملحق ص ٣٢٧-٣٢٨)، أو آلت إلى الفناء (ص٥، ٨٧، ١٠٣-١٠٤).

وإن طبقة المفتين الذين صرفوا أذهان سادتهم عن مثل هذا الغرض الذي ينطوي على القسوة، إنما فعلوا ذلك باعتبارهم أئمة الشريعة الإسلامية والتسامح الإسلامي[١].

أضف إلى ذلك أنه على الرغم من أن المبدأ الذي وجد قبولا عظيما في ألمانيا في القرن السابع عشر[٢] – وهو أن لكل منطقة دينها الخاص – لم يقبله قط أي عاهل مسلم، فمن الواضح أن هذه الحقيقة، وهي أن الإسلام دين الدولة لم تعجز في أنها قد أحدثت بعض التأثير في زيادة عدد أنصاره. وإن الأشخاص الذين لم تتغلغل العقيدة الدينية في نفوسهم قد يكونون على استعداد للتأثر باعتبارات المنافع الدنيوية، وقد يقوم الطموح والمصلحة الشخصية مقام بواعث أكثر قبولا واستحسانا للتحول إلى الإسلام.

وقد شكا القديس أوغسطين من مثل ذلك في القرن التاسع، فذكر أن كثيرا من الناس دخلوا في الكنيسة المسيحية، لا لشيء إلا لأنهم أمّلوا في الحصول على بعض المنافع المادية باعتقادهم المسيحية، قال: «ما أكثر الذين لا يسعون إلى المسيح إلا لغرض واحد، هو أن يجنوا من وراء ذلك منفعة لهم، حسب ما تقتضيه ظروف كل منهم؛ يكون لأحدهم مهمة ما فيسعى إلى رجال الدين ليحظى منهم بالكلمة الصالحة؛ ويهرع آخر إلى الكنيسة يطلب منها الحماية من زميل له، أكثر منه عتادا وقوة، قد ضيق عليه الخناق، ويرمي آخر بذلك إلى توسيط زميل له بعض الجاه والسلطان، لمصلحته الشخصية. ولهذا حجته، ولذاك حجته. إن الكنيسة تمتلئ كل يوم بأمثال هؤلاء»[٣].

زد على ذلك أيضا، أن الإسلام لا بد أن يكون قد بدا في نظر القبائل المتبربرة وغير المتمدنة التي شاهدت مجد الإمبراطورية العربية وعظمتها في أوج قوتها، يمثل ذلك التأثير والسحر اللذين بدت بهما المسيحية حين عرضت على برابرة أوربا الشمالية، «عندما وجدوا المسيحية في الإمبراطورية – تلك المسيحية المعذبة المعقدة التي تعتمد على الأبهة وجلال النفوذ والسلطان – دينا لبس التاج إلى جانب الملوك، وقد يتفوق عليهم في

(١) A. de la Jonquière, pp. 203, 213, 312.

(٢) E. Charvériat: Histoire de la Cuerre de Trente Ans, tome, ii. pp. 615, 625. (Paris, 1878).

(٣) In Ioannis Evangelium Tractatus, xxv. p 10).

السيطرة في بعض الأحيان»[١].

ومما يجب أن نزيده على ما تقدم، هذا التأثير البطيء الدائم، الذي أحدثه الاتصال اليومي بالحياة الإسلامية والتفكير الإسلامي، مما جعل حتى أحد الكتاب النساطرة في القرن الثاني عشر، يضيف كلمات التبجيل والتقديس إلى اسم النبي والخلفاء الأولين كلما عرض لذكرهم[٢]، ويستنزل رحمة الله على عمر بن عبد العزيز[٣].

وفي عصور حديثة، يشكو المبشرون المسيحيون من أن نظام التعليم العام في مصر في ظل الاحتلال البريطاني، ذلك النظام الذي «يضطر الأولاد المسيحيون غالبا بمقتضاه إلى أن يجلسوا ويستمعوا للقرآن والدين (أي الدروس الدينية) وهما يدرَّسان لرفاقهم المسلمين، على حين لا يوجد مكان يمكن عزلهم فيه»[٤]، إنما يميل إلى منح المسلمين نفوذا راجحا على إخوانهم التلاميذ المسيحيين. ومن أنشط أتباع مُحَمَّد عبده المفتي الأخير رجل كان في الأصل طالبا يدرس الطب، ثم تحول إلى الإسلام بتأثير التعليم الديني الذي كان قد سمعه يلقى في ساعات الدرس بالمدرسة[٥].

ولكن سرد أمثال هذه البواعث التافهة يفسر كل حالات التحول إلى هذا الدين أو إلى غيره من الأديان. وينبغي ألا تجعلنا هذه البواعث نغض النظر عن العوامل الأخرى في حياة الدعوة إلى الإسلام التي كان لتأثيرها طابع ديني أكثر تميزًا ووضوحًا. وفي مقدمة هذه العوامل تأثير حياة الورع والتقوى التي يحياها المسلمون. وقد يبدو ذلك غريبا في نظر جيل تعود أن ينظر إلى الإسلام على أنه مستودع لكل ألوان الرذيلة؛ ومع ذلك لا مراء في

---

(١) C. Merivale: The Conversion of the Northern Nations, p. 102. (London, 1866).

(٢) ماري بن سليمان ص٦٢ (س٤، ٦، ١٣). وعلى ذلك أعرب العالم الماروني يوسف سمعانا لسمعاني، في القرن الثامن عشر، عن فزعه من مثل هذا الإذعان لإحساس المسلمين بقوله" «لقد مدح مُحَمَّدا وأنصاره؛ والأمر الذي لا يمكن أن يذكر دون أن تقشعر منه الأبدان، هو أنه ذكر اسم ذلك النبي.. مع القول المضاف «عليه السلام»، ذلك القول الذي لا يبعث على الدهش، كما جرت بذلك عادة المسلمين (Assemani, tom. iii. pars. i. p. 585).

(٣) ماري بن سليمان ص٦٥ (س١٦).

(٤) Methods of Mission Work among Moslems, p. 62.

(٥) Id. pp. 61-4.

أن كثيرا من المسيحيين في عصور أقدم من ذلك، اتصلوا بمجتمع إسلامي حي، وتأثيره تأثيرًا عميقا بما تجلى في هذا المجتمع من فضائل. وإذا كانت هذه الفضائل قد أثرت كذلك في الرحالة وفي الغريب، فلا شك في أنه كان لها بعض التأثير في جذب الكافر الذي أصبح يتصل بهم اتصالا يوميا.

من ذلك نجد ركلدوس دي مونت كروسيس **Ricoldus de Monte Crucis**، وهو مبشر دومينيقاني زار الشرق في نهاية القرن الثالث عشر، ينطلق بالثناء على المسلمين الذين كان قد اشتغل بين أظهرهم، يقول: «استولى علينا الدهش، كيف أن أعمالا تنصف بمثل هذا الكمال يمكن أن تحيا في ظل شريعة تصطبغ بمثل هذه النزعة الإلحادية، لهذا نستعيد الآن في إيجاز أعمال العرب تلك المتصفة بالكمال من ذا الذي لا يعجب إذا تأمل جيدا أية عناية فائقة بالدراسة يمكن أن توجد بين العرب؛ أي إخلاص في الصلاة، وأية رحمة بالفقير، وأي تبجيل لاسم الله والأنبياء والأماكن المقدسة، وأي وقار في أخلاقهم، وفي معاملتهم للغرباء، وأية مودة تربط بين جنسهم؟[1]

وعلى هذا النحو امتدح وليم بتي أف نيوبره **William Petit of Newburgh** حول نهاية القرن الثاني عشر، رزانة العرب باعتبارها مظهرا من تعاليم نبيهم، وموحية إليهم بمعنى من التفوق الخلقي على المسيحيين، قال: «ولما كان مُحَمَّد يبغي السكارى والنهمين في جميع أنحاء الأرض، فإنه قد علمهم العفة والقناعة، وقبح الطيب من الطعام، ونهاهم عن شرب الخمر إلا في أعياد محددة قليلة، ولذلك كانوا حقيقة مستسلمين لشهواتهم الجنسية، متبعين في ذلك –كما قيل– سنة ذلك الذي أغواهم، إلا أنه من المحزن أن نقول إنهم أكثر عفة وأرجح منزلة من رجالنا المسيحيين. وهم آخذون علينا، يا للعار! قذارتنا بسبب نهمنا وإدماننا تناول المسكرات. ولما سمع صلاح الدين أخيران أثناء اختباره أحوال شعبنا، وكان صلاح الدين المعول الهدام لاسم المسيحيين منذ عَشر سنوات خلت، أنهم يستخدمون بعض الأطباق عند تناول الطعام، يروى أنه قال إن أمثال هذه الآنية تعد عارا على الأرض المقدسة. ومن ذلك يتضح أن مظهر مجدنا يثير علينا العرب الذين يباهون

(1) Laurent, p. 131.

باقتصادهم، كما أنه يشجعهم، كأن لسان حالهم يقول «نبذ الله السكارى، فلتقفف آثارهم، ونلق القبض عليهم، ما داموا لا يجدون منقذا لهم»[1].

وأدب الصليبيين غني بمثل هذا التقدير للفضائل الإسلامية، كما تلقى الأتراك العثمانيون في أيام حكمهم الأولى في أوروبا، كثيرا من تقدمات المدح والثناء من أفواه المسيحيين، كما بينا ذلك في أحد أبواب هذا الكتاب.

وهنالك في الوقت الحاضر عاملان رئيسان (فوق ما ذكرنا آنفا مما يصح أن يؤيد وجهة نظرنا) يعملان على تنشيط الدعوة في العالم الإسلامي. أولهما انتعاش الحياة الدينية التي بدأ تاريخها من حركة الإصلاح الوهابية في نهاية القرن الثامن عشر؛ وعلى الرغم من أن هذا الانتقال الجديد قد فقد كل معنى سياسي في خارج محدود نجد زمنا طويلا، نرى تأثيرها من حيث هي نهضة دينية ملموسا في كافة أنحاء إفريقية والهند وأرخبيل الملايو، حتى إلى الوقت الحاضر، كما أحيت كثيرا من الحركات التي أحرزت قصب السبق بين أقوى المؤثرات في العالم الإسلامي.

وقد أوضحنا في الصفحات السابقة كيف أن كثيرا من البعوث الإسلامية الحديثة، يرتبط ارتباطا وثيقا بتلك الحركة الواسعة النطاق. وإن ما أثارته هذه الحرمة من حماسة متقدة، وما سكبته في النظم الدينية القائمة من حياة جديدة، وما بثته في الدراسة الدينية النظرية وتنظيم الشعائر المنسكية من روح دافعة – إن ذلك كله قد عمل على إيقاظ روح الإسلام الفطرية التي جبلت على نشر تعاليم الدعوة، كما عمل على الإبقاء عليها.

وهناك عامل آخر يسير مع هذه الحركة الإصلاحية جنبا إلى جنب، وهو من نوع يختلف عن هذه الحركة جد الاختلاف– ذلك أنه، ولن نذكر إلا وجهة واحدة من هذا الاختلاف، في الوقت الذي نجد فيه الحركة الوهابية تناهض الحضارة الأوروبية مناهضة عنيفة، نرى العامل الثاني ينزع نوعا ما إلى التفكير الحديث، ويقدم صورة الإسلام بما يتمشى مع هذه النزعة– ذلك هو حركة الوحدة الإسلامية التي تسعى إلى ربط جميع

(1) Historia Rerum Anglicarum Willelmi Parvi de Newburgh, ed. Hans Claude Hamilton, vol. ii. p. 158 (London, 1856).

شعوب العالم الإسلامي برباط مشترك من المودة والتعاطف. وعلى الرغم من أن هذا العامل لا يساوي بحال العامل الآخر في الآخر في الأهمية، نجد هذا الاتجاه إلى التفكير، يهب روحا قوية تدفع إلى القيام بأعمال نشر الدعوة؛ وإن الجهد الذي يحقق في الحياة الدنيا المثل الإسلامي الأعلى في أخوة المؤمنين كافة لينعكس على مثل العقيدة العليا المكملة؛ وإن معنى وحدة شاملة، وحياة مشتركة تجري في هذه الشعوب، لينفخ في قلوب المؤمنين روحا وحياة، ويخلق فيها الجرأة على التحدث بين يدي الكفار.

أما معرفة ما ستحدثه هاتان الحركتان من تأثير أبعد مدى في حياة الدعوة الإسلامية، فإن المستقبل وحده كفيل ببيان ذلك. على أن مجرد نشاطهم في الوقت الحاضر دليل على أن الإسلام لم يمت. ولم يكن النشاط الروحي للإسلام، كما زعم عدد كبير جدًا من الناس، متمشيًا مع سلطانه السياسي[1]. بل على العكس من ذلك، نجد فقدان السلطة السياسية والانتعاش المادي، يعمل على إبراز أجمل الصفات الروحية التي تعد أصدق البواعث التي تحفز على القيام بأعمال الدعوة. وقد تعلم الإسلام منافع الشدائد، ولما كان بعيدا كل البعد عن الانحدار إلى الرخاء لكونه نذير انحلال هذا الدين، كان من المهم أن تلك البلاد الإسلامية الخالصة، التي عاشت أطول وقت في ظل الحكم المسيحي، تنجلي كأشد ما تكون نشاطا في القيام بنشر تعاليم الدعوة. ويظهر مسلمو الهند والملايو من الحماسة والغيرة في نشر الدين مالا نجده في تركيا أو في مراكش.

---

(١) وقد عبر فردريك دينسون موريس عن فكرة من أكثر الأفكار التي تتعلق بهذه العقيدة تداولا وشيوعا، حين يقول: «من الثابت أن الإسلام لم يكن يصادف نجاحا إلا عند ما كان يهدف إلى الغزو».

(The Religions of the World, p. 28.) (Cambridge, 1852).

ملحق (١)

رسالة الهامش إلى الكندي يدعوه إلى الإسلام

فيما يلي نص رسالة الهامش يدعوه بها إلى الإسلام:

بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد، فقد افتتحت كتابي إليك بالسلام عليكم والرحمة تشبها بسيدي وسيد الأنبياء مُحَمَّد رسول الله ﷺ، فإن ثقاتنا ذوي العدالة عندنا. الصادقين الناطقين بالحق، الناقلين إلينا أخبار نبينا عليه السلام، قد رووا لنا عنه أن هذه كانت عادته، وأنه كان ﷺ إذا افتتح بكلامه مع الناس يبادئهم بالسلام والرحمة في مخاطبته إياهم، ولا يفرق بين الذمي منهم والأمي، ولا بين المؤمن والمشرك، وكان يقول إني بعثت بحسن الخلق إلى الناس كافة، ولم أبعث بالغلظة والفظاظة، ويستشهد الله على ذلك، إذ يقول: {بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ}[١] وكذلك رأيت من حضرته من أئمتنا الخلفاء المهتدين الراشدين ﷺ أجمعين، أنهم كانوا لفضل أدبهم، وشرف حسبهم، ونبل همتهم وكرم أخلاقهم، يتتبعون أثر نبيهم ﷺ، ولا يفرقون في ذلك ولا يفضلون فيه أحدا، فسلكت ذلك المنهج، واحتذيت تلك السبل، وأخذت ذلك الأدب المحمود، فابتدأتك في كتابي هذا بالسلام والرحمة، لئلا ينكر عليّ منكر يقع إليه كتابي هذا.

«والذي حملني إليك وحثني على ذلك، محبتي لك؛ إذ كان سيدي ونبي مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم يقول محبة القريب ديانة وإيمان. على أني كتبت طاعة لرسول الله ﷺ، ولما أوجبه لك عندنا حق خدمتك لنا، ونصحك إيانا، وما أنت عليه من محبتنا، وتظهره من مودتنا، والميل إلينا، وما أرى أيضا من إكراه سيدي وابن عمي أمير المؤمنين أيده الله لك، وتقريبه إياك، وثقته بك، وحسن قوله فيك. فرأيت أن أرضى لك ما قد رضيته لنفسي

(١) تمام الآية: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ}.

وأهلي وولدي مخلصا لك النصيحة ومبذلها[1]، كاشفا عما نحن عليه من ديانتنا هذه التي ارتضاها الله لنا ولجميع خلقه، ووعدنا عليها حسن الثواب في المعاد، والأمن من العقاب في المآب.. فرغبت لك فيما رغبت فيه لنفسي، وشققت عليك لما ظهر لي من كثرة أدبك وبارع علمك وحسن تهذبك وجميل مذهبك وشرف حسبك وتقدمك على الكثير من أهل ملتك، أن تكون مقيما على ما أنت عليه من ديانتك هذه، فقلت: أكشف له عما منّ الله به علينا، وأعرفه ما نحن عليه بألين القول وأحسنه متبعًا في ذلك ما أذن الله به، إذ يأمرني ويقول جل ثناؤه: {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [العنكبوت:٤٥]. فلست أجادلك إلا بالجميل من الكلام، والحسن من القول، واللين من اللفظ، لعلك تنتهي وترجع إلى الحق وترغب فيما أتوه عليك من كلام الله ﷻ، الذي أنزله على خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم، نبينا مُحَمَّد عليه الصلاة والسلام. ولم أيأس من ذلك، بل رجوته لك من الله الذي يهدي من يشاء، وسألته أن يجعلني سببا في ذلك، ووجدت الله تبارك وتعالى يقول في محكم كتابه: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} [آل عمران:١٧]، ويقول الله أيضًا مؤكدًا لقوله الأولى {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [آل عمران:٧٩]، ثم أكد ذلك تبارك وتعالى أمرًا قاطعًا إذ يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [آل عمران:١٠٢].

«وأنت الرجل (عافاك الله من جهل الكفر، وفتح قلبك لنور الإيمان) تعلم أني رجل أتت عليّ سنون كثيرة، وقد تبحرت في عامة الأديان، وامتحنتها، وقرأت كثيرا من كتب أهلها، وخاصة كتبكم معشر النصارى» (وهنا يعدد الأسفار المهمة من العهدين القديم والجديد (التوراة)، وكيف درس الفرق المسيحية المختلفة). «ولقيت جماعة من الرهبان المعروفين بشدة الزهد وكثرة العلم، ودخلت عمارا[2] وديارات وبيعا كثيرة، وحضرت صلواتهم... ورأيت ذلك الاجتهاد العجيب، والركوع والسجود بإلصاق الخدود بالأرض،

---

(١) كذا في الأصل، ولعله محرف عن (بأذلها).

(٢) هو جمع عمر، بضم العين، بمعنى البيعة والكنيسة. ولم نجد له في اللسان ولا التاج جمعا.

وضرب الجبهة، والتكتف إلى انقضاء صلواتهم، خاصة في ليالي الآحاد وليالي الجمع وليالي الأعياد. التي يسهرون فيها منتصبي الأرجل بالتسبيح والتقديس والتهليل الليل كله، ويصلون ذلك بالقيام نهارهم أجمع، ويكثرون في صلواتهم ذكر الأب والابن والروح القدس، وأيام الاعتكاف التي يسمونها أيام البواعث، وقيامهم فيها حفاة على المسوح والرماد، باكين بكاء كثيرًا متواترًا بانهماك دموع من الأعين والجفون، متناجين بشهيق عجيب. ورأيت عملهم القربان، كيف يحفظونه بالنظافة في خبزهم إياه، ودعاتهم عند عمل الدعاء الطويل، مع التضرع الشديد عند إصعاده على المذبح في البيت المعروف ببيت المقدس، مع تلك الكؤوس المملوءة خمرا. ورأيتُ أيضا ما يتدبر به الرهبان في قلاليهم أيام صياماتهم الستة، أعني الأربعة الكبار والاثنين الصغيرين وغير ذلك. فهذا كله كنت له حاضرا، ولأهله مشاهدا، وبه عارفا عالما. ورأيت أيضا مطارنة وأساقفة مذكورين بحسن المعرفة وكثرة العلم، مشهورين بشدة الإغراق في الديانة النصرانية، مظهرين غاية الزهد في الدنيا، فناظرتهم مناظرة نصفه، طالبا للحق، مسقطا بيني وبين اللجاج والمِراء والمكابرة بالسلطة، والصلف والبذخ بالحسب، وأوسعتهم أمنا أن يقوموا بحجتهم، ويتكلموا بجميع ما يريدونه، غير مؤاخذ لهم بذلك، ولا متعنّت عليهم في شيء، كمناظرة الرعاع والجهال والسقاط والعوام والسفهاء من أهل ديانتنا، الذين لا أصل لهم ينتهون إليه، ولا عقل فيهم يُعوّلون عليه، ولا دين ولا أخلاق تحجبهم عن سوء الأدب؛ وإنما كلامهم العنت والمكابرة والمغالبة بسلطان الدولة، بغير علم ولا حجة. وكانوا إذا أنا ناظرتهم وسألتهم مسألة بحث عن عقولهم واعتقادهم وتخرجهم، يصدقونني عن أمرهم ولا يكذبون في شيء مما كنت أسائلهم عنه، وأجادلهم فيه، وكنت قد عرفت من بواطنهم مثل الذي قد عرفته من ظاهرهم. فكتبت إليك (أصلحك الله!) بهذا الشرح، وعَدَوْتُ ما عَدَوْتُه بعد الاستقصاء والبحث الشديد والامتحان له على طول الأيام، لئلا يظن بي أني غبي بالأمور، وليعلم من وقع إليه كتابي هذا أني عارف بجميع أحوال النصارى حق المعرفة.

«فأنا الآن (مَتَّع الله بك!) أدعوك بهذه المعرفة كلها مني بدينك الذي أنت عليه وبطول المحبة إلى هذا الدين الذي ارتضاه الله لي وارتضيته لنفسي، ضامنا لك به الجنة

ضمانا صحيحا، والأمن من النار، وهو أن تعبد الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يتخذ له صاحبة ولا ولدا ولم يكن له كفوا أحد... وهي الصفة التي وصف نفسه جل وعز بها، إذ كان ليس أحد من خلقه أعلم به من نفسه. فدعوته إلى عبادة الإله الواحد الذي هذه صفته، ولم أزد في كتابي هذا على ما وصف به نفسه (جل اسمه وتعالى ذكره، علوا كبيرا عما يشركون!)، فهذه ملة أبيك إبراهيم صلوات الله عليه، فإنه كان حنيفا مسلمًا.

ثم أدعوك «حفظك الله إلى الشهادة والإقرار بنبوة سيدي وسيد ولد آدم، وصفي رب العالمين وخاتم الأنبياء محمَّد.. الذي أرسله الله بشيرًا ونذيرًا إلى الناس كافة {وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} [التوبة:٣٣]. فدعا الناس أجمعين، أهل الشرق والغرب، وأهل البر والبحر، والجبل والسهل، بالرحمة والرأفة وطيب القول وحسن الخلق واللين، فاستجاب هذا الخلق كلهم إلى دعوته بالشهادة له أنه رسول الله رب العالمين من يريد انتصاحا، وأقر الأنام كلهم طائعين مذعنين لما عرفوا من الحق والصدق من قوله وصحة أمره، وما جاء به من البرهان الصريح والدليل الواضح، وهو هذا الكتاب المنزل عليه من عند الله، والذي لا يقدر أحد من الإنس والجن أن يأتي بمثله، وكفى به دليلا على دعوته، وأنه دعا إلى عبادة إله واحد فرد صمد، فدخلوا في دينه وصاروا تحت يده غير مكرهين ولا مجبرين، بل خاضعين معترفين مستنيرين بنور هدايته متطاولين باسمه على غيرهم ممن جحد نبوته وأنكر رسالته ورد أمره مقاوما ومتعاليا، فمكن الله لهم في البلاد وأذل لهم رقاب الأمم من العباد، إلا من قال بقولهم وتدين بدينهم، وشهد على شهادتهم، فحقن بذلك دمه وماله، وحرمته أن يؤدي الجزية عن يد وهو صاغر. (وهنا يعدد تعاليم الإسلام المختلفة، كالصلوات الخمس وصوم رمضان والجهاد، ويشرح عقيدة بعث الموتى، ويوم الدين، ويصف مناعم الفردوس وأهوال الجحيم). «فأما نحن فقد ذكرناك، فإن أنت آمنت وقبلت ما يتلى عليك من كتاب الله المنزل انتفعت بما ذكرناك، وكتبنا به إليك؛ وإن أبيت إلا المقام على كفرك وضلالك وعنادك للحق، كنا قد أجرنا، إذ عملنا بما أمرنا به وكان الحق هو المنتصف منك إن شاء الله. (وهنا يعدد فروض

الدين المختلفة ومزايا المسلم ويختم ذلك بقوله): «فقد تلوت عليك من قول الله تبارك وتعالى وهو قول الحق، لا خلف لوعده، ولا تكذيب لقوله فيما سلف من كتابي هذا، ما في أقله كفاية. فدع ما أنت عليه من الكفر والضلال والشقاوة والبلاء، وقولك بذلك التخليط الذي تعرفه ولا تنكره وهو قولكم بالأب والابن والروح القدس وعبادة الصليب التي تضر ولا تنفع، فإني أربأ بك عنه وأجل فيه علمك وشرف حسبك عن خساسة، فإني وجدت الله تبارك وتعالى يقول {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} [النساء:٤٨] وقال جل ذكره {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} [المائدة: ٧٢-٧٥] فدع ما أنت فيه من تلك الضلالة، وتلك الحمية الشديدة الطويلة المتعبة، وجهد ذلك الصوم الآزم الصعب والشقاء الدائم، والبلاء الطويل الذي أنت منغمس فيه، الذي لا ينفع ولا يجدي عليك إلاَّ إتعابك بدنك وتعذيبك نفسك، واقبل داخلا في هذا الدين القيم، السهل المنهج، الصحيح الاعتقاد، الحسن الشرائع، الواسع السبيل، ارتضاه الله لأوليائه من عباده، ودعا جميع خلقه إليه من بين الأديان كلها، تفضلا منه عليهم به، وإحسانا إليهم بهدايته إياهم، ليتم بذلك نعماه عندهم.

فقد نصحت لك يا هذا وأدَّيتُ إليك حق المودة وخالص المحبة، إذا أحببت أن أخلطك بنفسي، وأن أكون أنا وأنت على رأي احد وديانه واحدة. فأني سمعت ربي يقول في محكم كتابه {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ * جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ

عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ} [البينة:٥-٨]، وقال الله في محكم كتابه في موضع آخر {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ} [آل عمران: ١٠٦]. وأشفقت عليك (أبقاك الله!) أن تكون من أهل النار، الذين هم شر البرية، ورجوت أن تكون بتوفيق الله وإياك من المؤمنين، الذين ﷺ ورضوا عنه، وهم خير البرية، ورجوت أن تكون من هذه الأمة التي هي خير أمة أخرجت للناس، فإن أبيت إلاَّ إلظاظا ولجاجا وجهلا وتماديا في كفرك وطغيانك الذي أنت فيه، ورَدَدتَ علينا قولنا، ولم تبل ما بذلناه من نصيحتنا، حيث لم نُرِدْ منك على ذلك جزاء ولا شكرا، فاكتب بما عندك من أمر دينك، والذي صح في يدك منه، وما قامت به الحجة عندك، آمنا مطمئنًا، غير مقصر في حجتك ولا مُكاتم لما أنت معتقده، ولا فرق ولا وجل؛ فليس عندي إلا الاستماع للحجة منك، والصبر والإقرار بما يلزمني منه طائعًا، ولا جاحد ولا هائب، حتى يقتبس ما تأتينا به وتتلوه علينا ونجمعه إلى ما في أيدينا ثم نخبرك بعد ذلك. على أن تشرح لنا علته، وتدع الاعتلال علينا بقولك إن الفزع حجبك وقطعك عن بلوغ الحجة، واحتجت أن تقبض لسانك، ولا تبسطه لنا ببيان الحجة، فقد أطلقناك وحجتك، لئلا تنسبنا إلى الكبرياء، وتدَّعي علينا الجور والحيف، فإن ذلك غير شبيه بنا.

فاحتجَّ عافاك الله بما شئت، وتكلم بما أحببت وانبسط في كل ما تظن أنه يؤديك إلى وثيق حجتك، فإنك في أوسع الأمان، ولنا عليك أصلحك الله، إذ أطلقناك هذا الإطلاق، وبسطنا لسانك هذا البسط أن تجعل بيننا وبينك حكما عادلا لا يجور، ولا يحيف في حكمه وقضائه، ولا يميل إلى غير الحق إذا ما تجنب دولة الهواء[1]؛ وهو العقل الذي يأخذ به الله عز وجل ويعطي، فإننا قد أنصفناك في القول وأوسعناك في الأمان، ونحن راضون بما حكم به العقل لنا وعلينا إذا كان {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ} [البقرة: ٢٥٧]، وما دعوناك إلا طوعا وترغيبا في ما عندنا وعرفناك شناعة ما أنت عليه، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

(١) كذا في الأصل. والصواب الهوى.

ويمكن أن يكون هنالك قليل جدا من الشك في أمر واحد فيما يتعلق بهذه الوثيقة، وهو أنها قد وصلت إلينا في حالة ناقصة، وأنها لقيت على أيدي النساخ المسيحيين تشويها وتحريفا. وإن ما نكاد نراه من عدم وجود ما يدحض تلك العقائد المسيحية الحاسمة دحضا تاما، كعقيدة الثالوث المقدس، وما نجده من الإشارات إلى أمثال تلك الهجمات في رد الكندي على هذه الرسالة، ليدل بالتأكيد على إسقاط تلك العبارات التي قد تكون قد آلمت القراء المسيحيين[١].

(١) وعلى هذا النحو، نجد الناشر الإسباني الذي نشر الرسائل الجدلية التي تبودلت بين الفار و«المذنب» (وهو مسيحي تحول إلى اليهودية) يضيف الملاحظة الآتية عقب الرسالة الخامسة عشرة: «إن أربعة عشر سطرا من هذه الصحيفة قد انمحت بحيث لا يمكنك قراءة كلمة واحدة منها. وقد قطع صاحب الكتاب الصحيفة التالية، حتى لا تقرأ أباطيل المذنب».

(Migne, Part. Lat., tom. cxxi p. 483).

ملحق (٢)

كتب الجدل بين المسلمين وأتباع الديانات الأخرى

على الرغم من أنه لم يكن للإسلام طريقة منظمة للدعاية، ولا جمعيات دينية، ولا وسائل من هذا القبيل للقيام بأعمال الدعوة، لم يكن هنالك أي نقص في عروض الدين المعقولة التي قدمت إلى الكفار، وخاصة إلى المسيحيين واليهود، وليس من غرضنا أن نورد وصفا مفصلا عن تلك العروض في هذا المقام، ولكن المهم أن نوجه انتباهنا إلى وجودها، وحسبنا أن نفعل ذلك أنزيل الخطأ الشائع الذي يقول إن التحول الجمعي هو الصفة الغالبة في انتشار الإسلام، وإن الإقناع الفردي لم يؤلف أي جانب من مشروعات الدعوة التي قام بها الدعاة المسلمون.

ونجد بواكير الجدل الإسلامي ضد الكفار في القرآن ذاته؛ ولكن منذ القرن التاسع الميلادي تبدأ سلسلة طويلة من الرسائل المنظمة في الدفاع عن صحة الديانة الإسلامية، وقد ظلت قوية نشيطة حتى الوقت الحاضر. وإن عدد أمثال هذه المؤلفات التي وجهت ضد العقيدة المسيحية، كان أكبر بكثير مما كتبه المسيحيون في تفنيد الإسلام، وقد استخدم فريق من أقدر مفكري المسلمين أقلامهم في كتابة هذه المؤلفات، منهم أبو يوسف بن إسحاق الكندي (٨١٣-٨٧٣م) والمسعودي (المتوفى سنة ٩٥٨م) وابن حزم (٩٩٤-١٠٦٤م) والغزالي (المتوفى سنة ١١١١م) وغيرهم. ومن الطريف أيضا أن نلاحظ أن عدة من المرتدين كتبوا يبررون تغيير دينهم ويدافعون عن العقيدة الإسلامية، منهم ابن جزلة في القرن الحادي عشر، ويوسف اللبناني والشيخ زيادة بن يحيى في القرن الثالث عشر، وعبد الله بن عبد الله في القرن الخامس عشر، ودرويش علي في القرن السادس عشر، وأحمد بن عبد الله وهو إنجليزي ولد في كمبردج في القرن السابع عشر وغيرهم. وهؤلاء الأخيرون كانوا جميعا مسيحيين قبل أن يتحولوا إلى الإسلام؛ أما المرتدون

من اليهود أيضا، مع أنهم كانوا أقل عددا، فقد كانوا من بين الذين كتبوا دفاعا عن الإسلام. وإلى جانب ما دون في الهند من كتب إسلامية كثيرة للرد على الدين المسيحي، نجد عددا هائلا من المؤلفات الجدلية للرد على الهندوكية: أما أن المسلمين كانوا على هذا النحو من النشاط في سائر الأقطار الوثنية، فليس لدي معلوما عن ذلك. وسيجد القارئ ذخيرة وافية من المعلومات عن آداب الجدل الإسلامي في الكتب التالية:

Moritz Steinschneider: Polemische und apologetische Litteratur in arabischer Sprache, zwischen Muslimen, Christen und Juden. (Leipzig, 1877); Martin Schreiner Zur Geschichte der Polemik zwischen Juden und Muhammedanern (Z. D. M. G., vol. 42, p. 591 If. 1888); W. A. Shedd : Islam and the Oriental Churches. pp. 252-3 ; Carl Güterbock : Der Islam in Lichte der byzantinischen Polemik (Berlin, 1912).

ملحق (٣)

جمعيات الدعوة الإسلامية

إن تأليف الجمعيات لمباشرة الدعاية في طريقة منظمة منهجية، تطور حديث العهد في تاريخ الدعوة الإسلامية –كما هي في الواقع حديثة نسبيا في تاريخ الإرساليات المسيحية. وقد يبدو أن أمثال جمعيات الدعوة الإسلامية هذه، قد تألفت على مثال يقوم على الخبرة والمعرفة لهيئات منظمة مماثلة في العالم المسيحي؛ وهي ليست في ذاتها أشد الدلالات تمييزا لروح الدعوة في الإسلام. وفي العالم الغربي نجد قليلا جدا يمكن ملاحظته في هذا الصدد. ويظهر أنه لم تكن هنالك أية محاولة قد بذلت لتكوين مثل هذه الجمعية قبل النصف الأخير من القرن التاسع عشر، ولم يكلل أسبق الجهود في هذه السبيل إلا بقليل من النجاح.

وعندما كتب هـ.م. ستانلي في سنة ١٨٧٥ في الصحافة الإنجليزية يحث على إرسال بعث مسيحي إلى موتزا ملك أوغندة، أدت العناية الواسعة النطاق التي وجهها الناس إلى دعوة ستانلي إلى تأليف جمعية في القسطنطينية لنشر الدعوة الإسلامية في تلك البلاد، ولكن أحدا من الدعاة المسلمين لم يرسل قط إلى أوغندة، وحوّل نشوب الحرب الروسية التركية في سنة ١٨٧٨ أنظار الأتراك عن أي مشروع من هذا القبيل(١). وقد تبين إخفاق مماثل في تأسيس عمل منظم لنشر الدعوة، عندما حددت الحكومة المصرية الإنجليزية في السودان مناطق النفوذ للجمعيات التبشيرية المسيحية المختلفة في المقاطعات التي كان أهلها وثنيين. وقد ادعى بعض مسلمي القاهرة أن جزءا من الأراضي يجب أن يُخصص لأتباع الإسلام؛ ومن ثم أجابت الحكومة بأن كل ما تستطيع عمله أن ترسل دعاة مسلمين، وأن تقدم إليهم نفس التسهيلات التي قدمتها للمبشرين المسيحيين. ولكن المسألة كان يعوزها التنظيم الأساسي، فتعرضت للإهمال(٢).

وفي سنة ١٩١٠ أسس الشيخ رشيد رضا، صاحب مجلة المنار، جماعية في القاهرة، كانت تهدف إلى تأسيس كلية (تسمى دار الدعوة والإرشاد) لتدريب دعاة وجدليين للدين الإسلامي،

---

(١) Richter, pp. 164-5.

(٢) Artin. p. 35.

وإرسالهم بادئ الأمر إلى بلاد الوثنيين والمسيحيين، بل إلى البلاد الإسلامية التي تبذل فيها الجهود لإقناع المسلمين بالتخلي عن عقيدتهم(١).

على أن أعظم توسع لأمثال هذه الهيئات المنظمة كان في بلاد الهند. ومن المحتمل أن تعد أنجومان حمايت إسلام لاهور من أحسن الهيئات المنظمة، ولكن مهمة الدعوة لا تؤلف من مجال نشاطها الواسع إلا جانبا يسيرا، ولهذا لا نستطيع أن نصفها بأنها جمعية لنشر الدعوة نقية بسيطة. وكان الغرض الأصلي الذي تأسست من أجله أنجومان حامي إسلام في أجمير هو أن تجيب على الاعتراضات التي وجهها إلى الإسلام أعضاء آريه سماج؛ بيد أنه من بين أغراضها الدعوة إلى الإسلام، وتزويد المسلمين الجدد بالطعام واللباس(٢). وقد قصرت أنجومان وعظ الإسلام، كما يدل على ذلك اسمها، جهودها على الدعوة إلى هذا الدين، على حين كان مولوي بقا حسين خان (ص١٤٢) كاتم سرها، وقد نشر ثبوتا بأسماء من ظفرت بهم هذه الجمعية من الذين دخلوا في الإسلام – كما فعلت كذلك أنجومان إسلام وأنجومان تبليغ إسلام (وكانت ترمي إلى تحويل الهندوكيين الذين لم يمكن الاتصال بهم إلى الإسلام) التي أنشئت في حيدر آباد (بالدكن)، ولكن يظهر أن كلا من هاتين الجمعيتين لم تعمر طويلا(٣). ومن بين الجمعيات التي أنشئت في القرن العشرين، مدرسة إلاهيّت في كونبور لتدريب الدعاة ونشر الرسائل دفاعا عن الإسلام وردا على الحملات التي توجه إليه. وإن أنجومان أشاعت وتعليم إسلام في بَطالة بالبنجاب، لتهدف إلى أغراض مماثلة. ولكن أنجومان هداية الإسلام في دهلي تعد أعظم هذه الهيئات المنظمة. وينضم إليها عدد كبير من الجمعيات الأخرى يبلغ أربعا وعشرين جمعية(٤)، في جهات مختلفة من الهند. وترسل هذه الأنجومان الدعاة للدعوة إلى عقائد الإسلام ولعقد مناظرات مع غير المسلمين، كما تقوم بنشر الكتب الجدلية، وخاصة الرد على الهجمات التي يوجهها أعضاء آريه سماج.

---

(١) The Moslem World vol. i. p. 441. R. du M. M., vol. xv. p. 374; vol.

(٢) Rajputana Herald, April 17, 1889.

(٣) Mohammedan World of To-day, p. 183.

(٤) ورد ثبت بأسماء هذه الجمعيات في ص١٩ من: The Annual Report for the year 1328 H.

المراجع

١- مراجع عربية وفارسية- مذكورة بالإشارات المختصرة

ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء. القاهرة ١٢٩٩هـ.

ابن أبي زرع: روض القرطاس. باريس ١٨٦٠.

ابن الأثير: كتاب الكامل في التاريخ. ليدن ١٨٥١-١٨٧٦

ابن إسحاق: سيرة سيدنا مُحَمَّد رسول الله ﷺ رواية أبي مُحَمَّد عبد الملك بن هشام. جوتنجن ١٨٥٩.

ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار المعروفة برحلة ابن بطوطة. باريس ١٨٥٣-١٨٥٨.

ابن حوقل: المسالك والممالك والمفاوز والمهالك. ليدن ١٨٧٣.

ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والبربر. بولاق ١٨٦٧.

ابن خلكان:

Biographical Dictionary, translated by Baron Mac Guckin de Slane (Paris, 1843-71)

ابن سعد: كتاب الطبقات الكبير، نشره سخاو. ليدن ١٩٠٥-١٩٢١

ابن سعد:

Die Schreiben Muhammads und die Gesandtschaften an ihn. (Skizzen und Vorarbeiten von J. Wellhausen. Viertes Heft. Berlin, 1889).

ابن العبري: (١)

Gregorii Barhebraei Chronicon Ecclesiasticum, ed. J. B. Abbeloos et T. J. Lamy. (Louvin, 1872-77).

(٢) أبو الفرج، تاريخ مختصر الدول طبعة الصالحاني (بيروت ١٨٩٠).

(٣)

Gregorii Abulpharagii sive Bar-Hebraei Chronicon Syriacum, ed. et vert. P. J. Bruns et G. G. Kirsch. (Lipsiae, 1789.)

أبو شامة:

Arabische Quellenbeitrâge zur Geschichte der Kreuzzüge Üibersetzt und herausgegeben von E. P. Goergens und R. Röhricht. Erster Band : Zu Geschichte salah ad-din's. (Berlin, 1879).

أبو صالح: تاريخ أبي صالح (أكسفورد ١٨٩٥).

أبو عبيدة البكري:

Fragments de géographes et d'historiens Arabes et Persans, inédits, relatifs aux anciens peuples du Caucase et de la Russie meridionale traduits par C. Defrémery. (J, A. iv me série. Tome xiii, 1849.)

أبو الغازي:

Histoire des Mogols et des Tatares par Aboul-Ghàzi Behâdour Khan, traduite par le Baron Desmaisons. (St. Petersburg, 1871-4).

أبو الفدا:

Géorgraphie d'Aboulféda, traduite par M. Reinaud. (Paris, 1848).

أبو يوسف: كتاب الخراج. القاهرة ١٣٠٢هـ.

أحمد بن يحي المرتضى: المعتزلة مشتق من كتاب الملل والنحل نشره السير توماس أرنولد (ليبزج ١٩٠٢).

الإدريسي: صفة المغرب والأندلس، نشره دوزي ودي غويه. (ليدن ١٨٦٦).

الأزدي: فتوح الدام لمحمد بن عبد الله الأزدي البصري، نشره و. ن. ليز Less (كالكتة ١٨٥٤).

الأصطخري: كتاب المسالك والممالك، نشره د يغويه.

(Bibliotheca Geographorum Arabicorum I. Leiden, 1870).

أسامة بن منقذ: كتاب الاعتبار. نشرها دير نبورغ، القسم الثاني

(Piblications de l'École des Langues Oreintales Vivantes. ii me. ser. tome xii (ii me, Partie). Paris, 1886).

البلاذري: فتوح البلدان. ليدن ١٨٦٦.

بهاء الدين (بن شداد): سيرة السلطان الملك الناصر صلاح الدين. (بتافيا ١٧٣٢).

تاريخ السودان: لعبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدي، نشره هوادس، باريس ١٨٩٨.

التيجاني:

Voyage du Scheikh Et-Tidjani dans la régence de Tunis, Pendant les abbées 706, 707, et 708 de l'Hégire (1306-1309); traduit de l'arabe par M. Alphonse Rousseau (J. A. iv me, serie, tome xx., 1852).

الجوزاني: منهاج سراج الجوزاني، طبقاتي ناصري نشره و. ناساولين (كالكته ١٨٦٤).

رشيد الدين: جامع التواريخ. تاريخ مبارك غازاني نشره بلوشيه (سلسلة جيب التذكارية **xviii** (لندن ١٩١١).

زين الدين (المعبري المليباري): تحفة المجاهدين في بعض أحوال البرتكاليين. لشبونه ١٨٩٨.

سعد بن البطريق: التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق. (باريس ١٩٠٦–١٩٠٩).

سايرس (بن المقفع): أخبار بطاركة الإسكندرية (بيروت ١٩٠٤–)

سيد علي أكبر:

Trois chapitres du Khitay Naméh. Texte Persan et traduction française par Charles Schefer (Mélanges Orientaux. Publications de l'École des Langues Orientales Vivantes 11 e. Série. Vol ix. Paris, 1883).

صليبا بن يوحنا: المجدل طبع مع ترجمة لاتينية بعناية جسموندي. (روما ١٨٩٦).

الطبري: تاريخ الرسل والملوك (نشره د يغويه. ليدن ١٨٨٥–١٨٩٣).

عبد الرازق السمرقندي: مطلع العدين ومجمع البحرين (**india Office MS. No. 2704**).

عبيد الله: تحفة الهند، دهلي ١٣٠٩هـ.

عرب فقيه: فتوح الحبشة نشره رينيه باسيه. باريس ١٨٩٧–١٩٠٩.

عمرو بن متى: المجدل طبع مع ترجمة لاتينية بعناية جسموندي (روما ١٨٩٦).

غلام سرور: حزينة الأصفياء (لاهور غير معروف تاريخ الطبع).

فرشته (محمد قاسم):

History of the Rise of the Mahomedan Power on India, translated from the Persian of Mohamed Kasim Ferishta by John Briggs. (London, 1829).

ابن النديم: كتاب الفهرست، نشره فلوجل. (ليبزج ١٨٧١–١٨٧٢).

ماري بن سليمان: المجدل طبع مع ترجمة لاتينية بعناية جسموندي (روما ١٨٩٩).

محبوب المنجي: العنوان الكامل بفضائل الحكمة. (بيروت ١٩١٢).

محمد بن عثمان الحشائشي:

Voyage au pays des Senoussia, traduit par V. Serras et Lasram (Paris, 1903).

محمَّد حيدر: تاريخ رشيدي. نقله إلى الإنجليزية ن. إلياس و إ. دينيسون روس (لندن ١٨٩٥).

المسعودي: مروج الذهب (باريس ١٨٦١–١٨٧٧).

المقريزي:

(١) A short history of the Copts, Traslated from the Arabic by S.C. Malan. (London, 1873).

(٢)Histoire des Sultans Mamlouks de l'Egypte, traduite par M. Quatremère. (Paris, 1837-45).

المقري: نفح الطيب ترجمة Pascual de Gayangos (لندن ١٨٤٠–١٨٤٣).

المكين: تاريخ المسلمين (بتا فيا ١٦٢٥).

النرشخي: أخبار بخارى (باريس ١٨٩٢).

الهداية: ترجمة تشارلس هاملتون (لندن ١٧٩١).

ياقوت: معجم البلدان (ليبزج ١٨٦٦–١٨٧٣).

يحيي بن آدم: كتاب الخراج (ليدن ١٨٩٦).

الفهرس